المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالى
جامعة أم القرى
معهد البحوث العلمية
مركز بحوث الدراسات الإسلامية
مكة المكرمة

سلسلة بحوث الدراسات الإسلامية



عمرو بن العاص

الأمير المجاهد

« ما ينبغي لأبي عبد الله أن يمشي على الأرض إلا أميرا »

عمر بن الخطاب

للدكتور / منير محمد الغضبان

١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م

ⓗ جامعة أم القرى ، ١٤٢٠ هـ .

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر .

الغضبان ، منير محمد

عمرو بن العاص الأمير المجاهد ـ مكة المكرمة .

٦٢٤ ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك ٠ ـ ٤٧٢ ـ ٠٣ ـ ٩٩٦٠

١ ـ عمرو بن العاص ، ت ٤٣هـ ٢ ـ الفتوحات الإسلامية

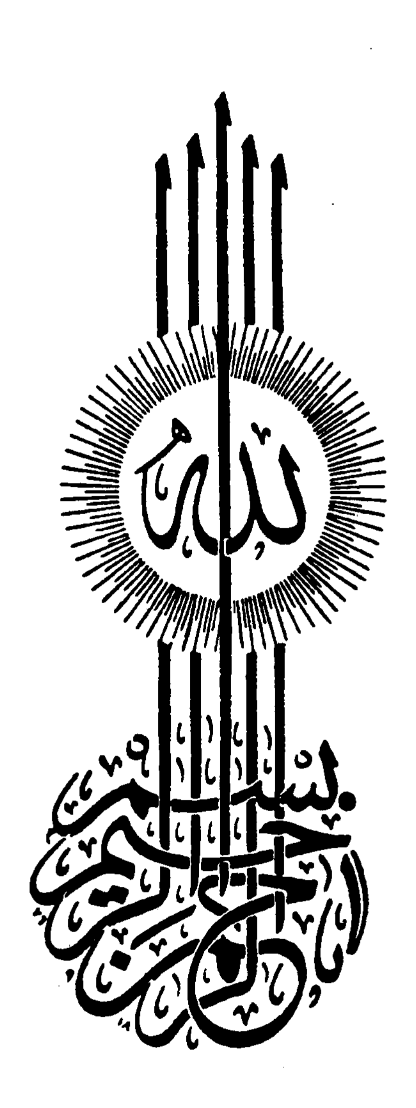
٣ ـ التاريخ الإسلامي ـ عصر صدر الإسلام أ ـ العنوان

ديوي ٢٣٩,٩ ٢٠ / ٠٥٢٧

رقم الإيداع : ٢٠ / ٠٥٢٧

ردمك ٠ ـ ٤٧٢ ـ ٠٣ ـ ٩٩٦٠

الطبعة الأولى


الله
بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي البحث

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على إمام النبيين وسيد المرسلين وقائد المجاهدين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

الأمير المجاهد :

حديثنا عن عمر بن العاص الأمير المجاهد

هذا الأمير الذي قال عنه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(هذا عمرو بن العاص قد أتاكم ، ما ينبغي لعمرو أن يمشي على الأرض إلا أميرا)[1] .

هذه إمرته ، وأما جهاده فقد ذكر الليث بن سعد رحمه الله قال (قال عمرو بن العاص : ما كنت بشيء أتجر مني بالحرب) [2] .

وقال يصف موقعه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد إسلامه .

(فوالله ما عدل بي رسول الله صلى الله عليه وسلم وبخالد بن الوليد أحدا من أصحابه في أمر حزبه منذ أسلمنا ، وقد كنا عند أبي بكر بتلك المنزلة ،لقد كنت عند عمر بتلك الحال ، وكان عمر على خالد كالعاتب)[3] .

وتأتي شهادة الصديق فيه في هذا المجال وهو يخاطب عمر رضي الله عنه دعه فإنما ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا لعلمه بالحرب)[4] .

---

(١) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم / ١٨٠ .

(٢) المصدرنفسه / ١٨٠ .

(٣) تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر مخطوط ١٣٠ / ٤٩٦ .

(٤) المصدرنفسه / ٥٠٤ .

هذا الأمير المجاهد ماهي صفته عند عامة الناس ؟!

ما أن تذكر عمرا حتى يتبادر إلى الناس ذلك الخادع المحتال الذي خدع أبا موسى الأشعري ونقض اتفاقه معه وأبقى بمعاوية وخلع علياً . وبذلك ينصرف عامة الناس عن ذكر عمرو بن العاص .

أما الذين لهم قدم في العلم ورسوخ في العقيدة فيكتفون بقولهم :

(إذا ذكر أصحاب رسول الله فامسكوا) [1] ويحفظون لسانهم عن النيل منه .

فهل يجوز لمثل هذه الشخصية العظيمة أن تبقى غُفلا في التاريخ لا يُعرف عنها إلا المكر والخديعة ؟؟ ومن أجل ذلك أقدمت على الكتابة عن عمر بن العاص رضي الله عنه الأمير المجاهد بعد أن قيض الله لي أن أكتب عن معاوية بن أبي سفيان (الملك المجاهد) وعن أبي ذر الغفاري (الزاهد المجاهد) لأجلو تلك الصورة القاتمة من أذهان الأمة عن واحد من أكبر عظمائها قال عنه الذهبي : (عمرو بن العاص بن وائل ، الإمام أبو عبد الله ، ويقال أبو محمد السهمي ، داهية قريش، ورجل العالم ومن يُضرب به المثل في الفطنة والدهاء والحزم)[2] .

وهذا السفر الذي أتقدَّم به هو عرض لسيرة هذا الصحابي العظيم[3] .

---

(١) هو نص حديث مروي عن ثوبان وعبد الله ابن مسعود : « إذا ذكر أصحابي فأمسكوا ... » قال فيه الهيثمي في مجمع الزواد ٧/ ٢٠٢ رواه الطبراني وفيه مسهر بن عبد الملك وثقه ابن حبان وفيه خلاف وبقية رجاله رجال الصحيح .

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي ٣ / ٥٤ ـ ٥٥ .

(٣) تقدمت باقتراحي لفضيلة مدير مركز الدراسات الإسلامية الدكتور عويد المطرفي للكتابة في ذلك فتفضل مشكورا بعرض الفكرة على مجلس المعهد وتم تكليفي بذلك .

ولن أدخل بين القارئ وبين هذا السفر إنما أدع له أن يعيش معه ويتفاعل سلبا أو أيجاباً معه .

الدراسات السابقة :

ويرد سؤال مهم في هذا الصدد .

أما أنه كُتب عنه فنعم ، وأما أنه وفّاه حقه . ونفض عنه غبار الافتراء والأكاذيب فلا ويحضرني أهم ثلاثة كتب في هذا الصدد .

الأول : عمرو بن العاص لعباس محمود العقاذ المفكر العربي الكبير وصاحب العبقريات وبمقدار ما أبدع في تحليل جوانب القوة فيه بمقدار ما أسف في النيل منه والطعن فيه في مواقفه في الفتنة إذ يقول :

(وليقل الناقدون التاريخون ما بدا لهم أن يقولوا في صدق هذا الحوار وصحة هذه الكلمات ، وما ثبت نقله وما لم يثبت منه سنده ولا نصه ، فالذي لا ريب فيه ، ولو اجتمعت التواريخ على نقضه . أن الاتفاق بين الرجلين (معاوية وعمرو) كان اتفاق مساومة ومعاونة على الملك والولاية ، وأن المساومة بينهما كان على النصيب الذي آل إلى كل منهما ولولاه لما كان بينهما اتفاق)[١] .

ومناط الحديث الرئيسي في هذا الكتاب ، هو عرض الحق الأبلج من الروايات الموثقة في هذا المجال .

الثاني : هوكتاب عمرو بن العاص بين يدي التاريخ لـ : عبد الخالق سيد أبو رابية مع رؤية جديدة لبعض أحداث الفتح العربي لمصر . وإذا كان كتاب العقاد السابق في الستينات من هذا القرن الميلادي ، فكتاب أبي رابيه في نهاية

---

(١) عمرو بن العاص للعقاد / ٢٣١ ـ ٢٣٢ .

الثمـانينات . وفتـرة عشريـن عاما كـافية لإعـادة النظر في دراسة هذه الشـخصية العظيـمة والدي لا شك فـيه أن لأسـتاذ أبا رابيـة قد أبدع فـعلا في عرض جـوانب عظيمة جـدا من شخصية عـمرو ودوره العظيم في فتح مصر ، ونقل الإسـلام إليها لكنه عندمـا انتقل إلى الحديث عن الفـتنة عاد فـأسف وتجاوز العقـاد في ذلك ننقل منه هذا النص .

(يروي الإمام الطبري : « ولما قدم عمر على مـعاوية أشارعليه أن يلزم علياً دم عثمـان ، وأن يحاربه بجند الشام إذا أبى »[1] ذلك أن عمـرو بن العاص رأى أن يلصق جـريمة قتل عـثمـان بعنق الإمام علي . وهو على يقـين من أن دم عثـمان لا يعلق منه شيء فـي عنق رابع الراشـدين ، وأنه برىء من هذا الدم إلى يوم القـيـامـة ولكن عمرا كان يرى أن إلصاق دم عثمان المهدر بعنق الخليفة الجديد ، هو الطريق الوحيد لازالته عن موضوع السلطان حتى إذا ما نجحت هذه الذريعة كانت وسيلته لكسب معـركة الطموح الشخصي فكـل شيء عند عمرو مباح مـا دام يصيب منه مغنماً ، وما دام هو الوسيلة المثلى لتحقيق أهدافه ومراميه .

وخـاض عمـرو بن العاص بهـذه الفـرية التي ألصقـهـا بالإمام على في دمـاء المسلمين إذا أوقد لفنتة بين الناس وضلل من استطاع تضليله منهم ، وبرع في الختل والخداع بلا تحرج ، وقد صـار دم عثمان ذريعة كافية لاشعال حرب تهلك الحرث والنسل ويكـون وقـودها المسلمـون ووسـيلتـهـا المـكيـدة والخـداع والرأي البـارع والبديهة الحاضرة)[2] .

---

(١) أعـاد الأسـتـاذ أبو رابيـة هذا النص إلى الطبـري بقـوله : تاريخ الطبـري (جـ ٣ / ص ٢١٠) وبذلت كل جهدي لأجد في الطبري فلم أعثر عليه ولعله نقله من مصدر آخر دون أن يشعر .

(٢) عمرو بن العاص بين يدي التاريخ : لعبد الخالق سيد أبو رابية / ٣١٦ ، ٣١٧ .

هذا السم الزعاف في تقويم شخصية عمرو رضي الله عنه في هذا المجال لا يمكن السكوت عنه بحال .

الثالث هوكتاب عمرو بن العاص القائد المسلم والسفير الأمين للواء الركن محمود شيث خطاب وقد نشر في العام الماضي ربيع الأول سنة ١٤١٧ هـ وفي التسعينات من العام الميلادي .

وكدت أن أطوي الكتابة عن عمرو رضي الله عنه حين يتقدم العالم المؤمن العسكري للكتابة عنه وأقبلت على الكتاب باهتمام ، حيث أبدع حفظه الله في عرض مناحي العظمة فيه ، خاصة في المجال العسكري بحيث لم يُسبق من أحد في ذلك لكن بقي موضوع موقف عمرو رضي الله عنه من الفتنة على حاله . وأخذ بالروايات الضعيفة والسقيمة واعتبرها من جوانب العبقرية عنده ، ولم يزل عنه ذلك الركام الأسن الذي لحق به من الشيعة الغلاة والرواة المتهمين ولذلك جعل مفتاح شخصيته هو البحث عن القوة لا عن الحق ، وهي التي تحكم كل مواقفه .

(مفتاح شخصية عمرو أنه كان يستعرض جوانب القوة دائما ، ويوازن بين ما لدى أعدائه وأصحابه على حد سواء من « القدرة » موازنة طويلة حتى لا يخفى عليه وجه من وجوه الرأي فقد كان رجلا يتقن الحساب ويجيد المساومة . يقف ساكنا ،ويفكر طويلاً ، ثم يساوم في حرص .

إنه يشترط دائما هكذا كان موقفه في كل أمرا »[1] .

مما اضطر الأخ الكبير عمر عبيد حسنة وهو المشرف على كتاب ـ الأمة ـ أن يعتذر بصورة غير مباشرة عن هذا الموضوع في المقدمة[2] فيقول .

---

(١) عمرو بن العاص القائد المسلم والسفير الأمين ١ / ١٧٤ .

(٢) أبدع الأستاذ عمر عبد حسنة في عرض جيل الصحابة كما هو عند أهل السنة والجماعة وعرض الخيرية فيهم التي لا يُبلغ شأوها أحد إلى يوم القيامة .

(وقد آثرنا في هذا الكتاب أن نتجاوز الحديث عن الفتن ، ومقتل سيدنا عثمان - رضي الله عنه - لعدة أسباب لعل من أبرزها أن الروايات التاريخية لأخطر مرحلة من حياتنا المرجعية ، لم تخضع لمعايير المحدثين في الجرح والتعديل ، والقبول والرد مما يجعل الصورة الدقيقة غائبة ، الأمر الذي سوف يحدث بعض الاضطراب في الرؤية والتشويه للصورة والله المستعان من قبل ومن بعد)[1] .

وحسبي أن أكون في هذا الكتاب قد أزلت هذا الاضطراب في الرؤية والتشويه للصورة لتتجلى عظمة الالتزام بالمبادئ عند عمرو على عكس ما يتوهم الناس عنه .

المنهج المتبع : وقد حرصت على اتباع الخطوات المنهجية التالية في استعراضي لترجمة عمرو رضي الله عنه .

١ - أخذت الصورة عن عمر بن العاص - رضي الله عنه - ابتداء من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن الأحاديث التي رويت عنه بسند صحيح أو حسن واعتبرتها الإطار الذي أتحرك من خلاله فأي حدث تاريخي يتناقض مع تقويم رسول الله صلى الله عليه وسلم لجنديه عمرو بن العاص كنت أقف منه ابتداء موقف الشك وحيث أن السند في الحدث لن يرقى غالبا إلى مستوى السند في الحديث الصحيح أو الحسن فكان الحديث هو المقدم ولا شك .

٢ - وكانت الخطوة الثانية للتعرف على شخصية عمرو رضي الله عنه . ما رُوي عنه في الكتب الستة أو رواه هو رضي الله عنه فيها ثم في بقية الكتب المعتمدة وعلى رأسها مسند الإمام أحمد رضي الله عنه فهذا الجانب الذي يتحدث

---

(١) تقديم : عمر عبيد حسنة للكتاب ص ٣٨ .

عن عمر بلسانه أو لسان غيره أمكن ضبطه حديثيا بموازين الجرح والتعديل المعتمدة عند المحدثين وتبيان درجة الحديث المذكور فتتكامل الصورتان الأولى والثانية من خلال الكتب الحديث المعتمدة .

٣ ـ وكان لكتاب مجمع الزوائد ومنبع الفوائد دور رئيسي في الاعتماد على أقوال الحافظ الهيثمي في الأحاديث التي يرويها .

وبذلك يكون الإطار الكامل لعمرو رضي ا لله عنه ابتداء من كتب الحديث لا من كتب التراجم والتاريخ والسير .

٤ ـ وانتقلت بعدها لأتمم الصورة داخل هذا الاطار من كتب تراجم الصحابة مثل الإصابة وأسد الغابة والاستيعاب وسير أعلام النبلاء والطبقات الكبرى لابن سعد بحيث يحقَّقُ ما يمكن تحقيقه ويُوثَّقُ ما يمكن توثيقه ، وخاصة لدى الحافظ ابن حجر الذي يقوم هو أحيانا بذلك ـ رحمه الله ـ أو يدعه بدون تحقيق حين لا يرى أهمية لذلك .

وما كان منها من باب الفضائل فاكتفي بالاشارة إلى مصدرها ، وما قاله فيها المحدثون وكان لتحقيق فضيلة الشيخ العلامة شعيب الأرناووط لسير أعلام النبلاء فضل كبير علي في هذا الجانب .

٥ ـ ومن كتب التراجم والسير إلى كتب التاريخ العام وعلى رأسها كتاب شيخ المؤرخين الطبري رحمه الله الذي يعتبر المصدر الرئيسي في المادة التاريخية لمن جاء بعده وأهم ما فيه اعتماده السند في كل ما يسوقه في كتابه وان كان فاتنا الفضل الكبير من الاستفادة من علمه وترجيحه للروايات فقد ترك هذا لمن جاء بعده وقال في مقدمة كتابه :

(فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه من بعض الماضيين مما يستنكره قارئه ، أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجها من الصحة ولا معنى في الحقيقة فليلعم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا وإنما أتي من قبل بعض ناقليه الينا وإنما أديناه على نحو ما أدي إلينا)[1] .

وكتاب البداية والنهاية لابن كثير والذي كان يحرص أحيانا على التحقيق والتوفيق فيما يراه مهما لذلك مع كتاب تاريخ الإسلام ، للحافظ الذهبي وتاريخ خليفة بن خياط وعلى النادر العودة الى التواريخ الأخرى كالمسعودي واليعقوبي لمقالة المحققين في تواريخهما ولأنها خالية من الإسناد .

٥ ـ وفي التعامل مع كتب التاريخ العام وخاصة عند عرض الفتنة الكبرى في مقتل عثمان رضي الله عنه وولاية علي رضي الله عنه وحرب الجمل وصفين والتحكيم كنت أقف أمام أية إشارة أونص موقف النقد والتحليل فيما يتناسب مع الإطار العام الذي اتخذته لنفسي من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن قول علماء أهل السنة والجماعة في الصحابة .

وبفضل الله عز وجل وجدت توافقا تاما بين الروايات الصحيحة تاريخيا أو المقبولة وبين صورة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند أهل السنة والجماعة فهم جميعا عدول وكما يقول الطحاوي فيهم (ونحب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ونبغض من يبغضهم وبغير الحق لانذكرهم ونرى حبهم ديناً وإيمانا واحسانا وبغضهم كفراً أو شقاقاً ونفاقا وطغيانا)[2] كما يذكر ابن دقيق العيد رحمة الله في الخلاف بينهم وما نقل فيما بينهم فيما اختلفوا فيه فمنهم باطل

---

(١) تاريخ الرسل والملوك للحافظ الطبري ، المقدمة ١/ ٨ .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية للفقيه عبد الغني الغنيم الدمشقي (١٣٣ ـ ١٣٦ .

وكذب فلا يلتفت اليه ، وما كان صحيحا أولناه تأويلا حسنا لأن الثناء عليهم من الله تعالى سابق وما نقل من الكلام اللاحق محتمل للتأويل والمشكوك والموهوم لا يبطل المحقق والمعلوم)[1] .

٦ - ومن كتب التواريخ العامة الى كتب الأدب والأخبار التي تعرض أحيانا لقول أو حادثة عن عمرو رضي الله عنه وحين نجدها تتسق من الصورة الأصيلة للصحابي الجليل نعرضها معزوة الى مصدرها الذي ذكرت فيه وبهذا نتكامل صورة عمرو بن العاص التي خطوت فيها لخطوات الأولى من دراسة بيئته التي ولد ونشأ فيها وترعرع إلى أن مضى إلى جوار ربه . مستعرضا ذلك التاريخ الحافل بالبطولات والمحتشد بالمبادىء والقيم التي رضع لبانها من الإسلام العظيم .

وأخيراً : أرجوا الله تعالى أن أكون قد وفقت إلى تحقيق الهدف الذي ألف الكتاب من أجله وهو عرض الصورة التاريخية الصحيحة لواحد من قادتنا الكبار وأحمد عظمائنا في التاريخ والله أسأل أن يجعل عملي خالصا لوجهه وأن يغفر لي ما به من زلات وأن يفتح الطريق أمام الباحثين لنقد الروايات التاريخية بمعيار موضوعي معقول يتناسب مع أهميتها في حياتنا المعاصرة .

ولا بد لي قبل أن أودع القارىء من أن أتقدم بوافر الشكر والامتنان لجامعة أم القرى التي تبنت طباعة هذا الكتاب ممثلة في شخص مديرها معالي الدكتور سهيل القاضي ولمعهد البحوث العلمية واحياء التراث الاسلامي الذي رعى مشكورا هذا المجهود حتى برزت في كتاب مقروء ممثلا في شخص عميده سعادة الدكتور عبد اللطيف بن عبد الله بن دهيش وسعادة وكيله زايد بن عجير الحارثي

---

(١) المصدرنفسه / ١٣٥ - ١٣٦ .

ولمركز الدراسات الإسلامية الذي أسعدنا بالانتماء اليه ممثلا في شخص مديره سعادة الشريف الدكتور منصور العبدلي وسعادة مديره السابق الذي رعى هذا البحث في خطواته الأولى الدكتور عويد المطرفي ولجميع الإخوة العاملين الذين ساعدوني في البحث وأمدوني بالمصادر راجيا الله تعالى القبول وحسن المثوبة ولهم خير الجزاء .

﴿ **إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب** ﴾(1) وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم .

الباحث

منير محمد الغضبان

مكة المكرمة غرة ذي الحجة / ١٤١٧ هـ

(١) سورة هود / من الآية ٨٨ .

الساحة القرشية

أخرج مسلم في صحيحه عن شداد أنه سمع واثلة بن الأسقع يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله اصطفى كنانه من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم »[1] .

فقريش إذن مصطفاة من الله تعالى من قبائل كنانة . وحين نتحدث عن قريش لا بد من أن نتعرف عليها ، فهي الأصل الأعلى الذي ينتمي إليه عمرو بن العاص رضي الله عنه .

أما قريش فعلى قول النسابين هي ولد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة (فولد النضر بن كنانة مالكاً ويخلد ... فولد مالك بن النضر فهراً وإليه جماع قريش والحارث درج .. فولد فهر وهو قريش غالباً وأسداً وعوفاً وذئباً وجوناً درجوا ، والحارث بطن ومحارب بطن وهما من قريش الظواهر ..)[2] .

لكننا نقف مع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يقطع القالة في هذا المجال ، فيعتبر النضر بن كنانة هو قريش [3] . وذلك فيما أخرجه ابن ماجة عن الأشعث بن قيس قال :

---

(١) رواه مسلم في كتاب الفضائل ج ٤ / ١٧٨٢ ج ٢٢٧٦ .

(٢) جمهرة النسب لابن الكلبي ١ / ٨ - ٩ .

(٣) وقالوا انه سمي النضر بن كنانة قريشا لأن النضر بن كنانة خرج يوما علي نادي قومه فقال بعضهم لبعض: انظرو الى النضر كأنه جمل قريش ، وقيل : إنما سميت بداية تكون في البحر تأكل دواب البحر تدعى القرش فشبه بنو النضر بن كنانة بها لأنها أعظم دواب البحرقوة / الطبري ٢ / ٢٦٣ وما بعدها .

« أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في وفد كندة ، ولا يروني إلا أفضلهم . فقلت : يا رسول الله ألستم منا ؟ قال : (نحن بنوا النضر بن كنانة ، لا نقفو أمنا ، ولا ننتفي من أبيننا » .

قال : فكان الأشعث بن قيس يقول لا أوتى برجل نفى رجلاً من قريش من النضر بن كنانة إلا جلدته الحد[1] .

والخلاف بين ترجيح النسابين ونص الحديث خلاف ضئيل جدا لأن النضر هو جد فهر ، وأبو فهر مالك ومالك لم يلد إلا النضر . فانحصر الخلاف على أولاد يخلد ولد النضر الثاني هل هم من كنانة أو قريش ، وما عدا هؤلاء فالنتيجة واحدة .

وإذا عدنا إلى الحديث السابق الذي رواه مسلم (إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم ، نستطيع أن نعتبر البؤرة الأولى وأوسط النسب في قريش والذي شرفت به البشرية كلها هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ونتعرف على بطون قريش من خلال قرابتها لبني هاشم رهط النبي صلى الله عليه وسلم حيث اصطفاء الله تعالى لسيد ولد آدم من بني هاشم ثم من قريش ثم من كنانة .

- فالبطن الأول : هم بنو هاشم ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب ابن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة حيث ينتهي عنده نسب قريش ومن بني هاشم علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

---

(١) سنن ابن ماجه كتاب الحدود ج ٢ / ٨٧١ ج ٢٦١٢ ، وتخريجه في الزوائد : هذا إسناد صحيح رجاله ثقات لأن عقيل ابن طلحة وثقه ابن معين والنسائي . وذكره ابن حبان في الثقات وباقي رجال الاسناد على شرط صحيح مسلم .

- والبطن الثاني : هم بنو المطلب بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن كعب بن لؤي

- والبطن الثالث : هم بنو نوفل بن عبد مناف بن قصي بن كلاب ...

- والبطن الرابع : هم بنو بن عبد شمس بن مناف بن قصي بن كلاب ... ومنهم عثمان بن عفان رضي الله عنه وهذه البطون الأربعة كلها من بني عبد مناف بن قصي .

- والبطن الخامس : هم بنو عبد الدار بن قصي بن كلاب .

- والبطن السادس : هم بنو أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب ... ومنهم الزبير بن العوام رضي الله عنه ، هذه البطون الستة كلها تسلسلت من قصي بن كلاب شيخ مكة ، وأبرز قادتها المشهورين بينما ترتفع البطون السبعة الأخرى معه وفوقه وهي :

- البطن السابع : هم بنو زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي ومنهم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

- البطن الثامن : هم بنو تيم بن مرة بن كعب بن لؤي ... ومنهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

- البطن التاسع : هو بنو مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي ومنهم خالد بن الوليد رضي الله عنه .

- البطن العاشر : هم بنو عدي بن كعب بن لؤي ... ومنهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

- البطن الحادي عشر : هم بنو سهم بن هصيص بن كعب بن لؤي ... ومنهم عمرو بن العاص رضي الله عنه .

ـ البطن الثاني عشر : هم بنو جمح بن هصيص بن كعب بن لؤي .

ـ فالجد الأول للبطون الستة قصي بن كلاب والجد الثاني للبطون الستة الأعلى هو كعب بن لؤي

ـ البطن الثالث عشر : هم بنو عامر بن لؤي ومنهم سهيل بن عمر رضي الله عنه وهؤلاء جميعا هم سكان مكة .

ولا نريد أن نمعن في أعماق التاريخ نبحث عن قريش ونشأتها واختلاف النسابين حول أسباب تسميتها بعد أن غدت أمرا واقعا ، قد اختارها الله تعالى من الأزل من بين مخلوقاته لتكون عصبة نبيه إنما نعود إلى التاريخ القريب لها الذي يوضح خارطة توزيعها وساحة وجودها وهو الذي يعود إلى مائتي عام[1] تقريبا قبل البعثة[2] على يدي قصي بن كلاب .

قصي بن كلاب :

ولم يكن اسمه قصياً يوم ولد إنما كان اسمه زيدا وانما سمي قصياً بعد ذلك، لأنه كان بعيدا عن قومه ، وتربى في بني عذرة عند ربيعة بن حرام زوج أمه التي خلف عليها بعد أبيه كلاب (وبينا قصي بأرض قضاعة لا ينتمي إلا إلى ربيعة

---

(١) ذكر أن قصيا أول من أصاب الملك من قريش بعد ولد اسماعيل . وذلك في أيام المنذر بن النعمان ملك الحيرة وملك الفرس الساسانيين بهرام جور . (بلوغ الارب ٢ / ٢٤٧) . وقد كان حكم بهرام جور من سنة ٤٢٠ م حتى سنة ٤٣٨ م أي في النصف الأول من القرن الخامس للميلاد . وإذا أخذنا برواية من جعل قصيا من المعاصرين لهذا الملك يكون حكم إذن في النصف الأول من القرن الخامس للميلاد) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي ج ٤ / ٥٤ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، مكتبة النهضة بغداد الطبعة الثانية ١٩٧٧ .

(٢) كانت البعثة النبوية في النصف الثاني من القرن السادس للميلاد وفي عام ٦٢٥ م كانت الهجرة : في ١٥ / ٧ / ٦٢٢ م .

بن حرام زوج أمه ، وهو من أشراف قومه ، إذ كان بينه وبين رجل من قضاعة شيء فأنبه القضاعي بالغربة فرجع قصي إلى أمه ، وقد وجد في نفسه مما قاله القضاعي ، فسألها عما قال له ذلك الرجل فقالت له : أنت والله يا بني أكرم منه نفساً ولداً ، فأجمع قصي الخروج إلى قومه واللحوق بهم . فقالت له أمه :يا بني لا تعجل بالخروج حتى يدخل عليك الشهر الحرام ، فتخرج في حاج العرب ، فإنني أخشى عليك أن يصيبك بعض البأس فأقام قصي حتى دخل الشهر الحرام ، وخرج حاج قضاعة فخرج فيهم حتى قدم مكة ، فلما فرغ من الحج أقام بها واتخذها له مستقراً ومقاما)[1] .

وتعرف قصي وهو بمكة على (حليل بن حبشة الخزاعي) وخطب إليه ابنبته وهي (حبي) فزوجه إياها وولدت له ولده عبد الدار ، وعبد مناف ، وعبد العزي ، وعبد قصي ، وكثر ماله وعظم شرفه ، فلما توفي (حليل) رأى قصي أنه أولى من خزاعة بولاية البيت ، وأن قريشا فرعة اسماعيل وإبراهيم واستنفر رجال قريش ودعاهم الى إخراج خزاعة من مكة ، وكتب إلى أخيه من أمه (رزاح بن ربيعة بن حرام العذري) يستنصره ، فأجابه ومعه قومه من بني عذرة من قضاعة ، ووصلوا مكة ، ونصروه ، وغلبت قضاعة وبنوا لنضر خزاعة ، وزال ملكهم عن مكة ، وصار الأمر إلى قصي وقريش)[2] .

وبعد أن تمت له الغلبة جمع قومه من الشعاب والأودية والجبال إلى مكة فسمي لذلك مجمعا ، وأنه حكم منذ ذلك الحين فيهم ، وملك عليهم ، فكان

---

(١) الطبري ٢ / ٢٥٤ (ط دار المعارف بمصر) .

(٢) المصدر نفسه / ٢٥٥ وما بعدها .

قصي أول ولد كعب بن لؤي أصاب ملكا ، وأطاعه قومه به ، وأنه قسم مكة أرباعاً بين قومه ، فبنوا المساكن ، وأن قريشا هابت قطع شجر الحرم في منازلهم فقطعها قصي بيده . وأعانوه ، وأنها تيمنت به ، فكانت لا تعقد أمرا ولا تفعل فعلا الا في داره فما تنكح امرأة ولا رجل من قريش إلا في دار قصي ، وما يتشاورون في أمر نزل بهم إلا في داره ، ولا يعقدون لواء الحرب قوم من غيرهم إلا في داره يعقدها لهم بعض ولده ، ما تدرع جارية إذا بلغت أن تدارع من قريش إلا في داره ، ويشق عليها فيها درعها ثم تدرعه ثم ينطلق بها إلى أهلها فكان أمره في قومه من قريش في حياته وبعد موته كالدين المتبع ، لايعمل بغيره تيمنا بأمره ، ومعرفة بفضله وشرفه واتخذ قصي لنفسه دار الندوة وجعل بابها إلى مسجد الكعبة ففيها كانت قريش تقضي أمورها)[1] .

ومن جملة ما أحدثه قصي في أيامه وصار سنة لأهل الجاهلية أنه أحدث وقود النار بالمزدلفة حتى يراهامن دفع من عرفة فلم نزل توقد تلك النار في الجاهلية) [2] .

ومن جملة ما أحدثه (الرفادة) ، وهي إطعام الحجاج في أيام موسم الحج حتى يرجعوا إلى بلادهم وقد فرضها على قريش إذ قال لهم : يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل مكة وأهل الحرم وإن الحاج ضيف الله وزوار بيته ، وهم أحق بالضيافة ، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج حتى يصدروا عنكم) ففعلت قريش ذلك فكانوا يخرجون من أموالهم في كل عام خرجا فيدفعوه إلى قصي لكي يصنعه للناس طعاما أيام منى)[3] .

---

(١) الطبري ٢ / ٥٥٨ وما بعدها .

(٢) المصدر نفسه / ٢٦٥ .

(٣) المصدرنفسه / ٢٦٠ .

وكانت إلى قصي أيضا الحجابة والسقاية واللواء ، فحاز شرف قريش كله[1] وصار الوحيد المطاع الناطق باسمها الآمرالناهي إذ لا أحد أعلم أعقل وأحسن ادارة للملك منه[2] .

المؤسس الحقيقي :

(وقد ترك قصي أثرا في أهل مكة وعدوه المؤسس الحقيقي لكيان قريش وكانوا يذكرون اسمه دائما بخبر وكانوا لا يطيقون سماع أحد يستهين بشأنه)[2] وظهرت كل مآثر الجاهلية الكبرى معه . فالحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء كانت كلها بيده وروي (أن أمر قصي عند قريش ديناً يعملون به ولا يخالفونه)[3] .

واعتبار قصي هو المؤسس الحقيقي لكيان قريش مرتبط ارتباطاً وثيقاً بسكنى مكة إذ كانت مكة هي البيت العتيق وحده ، والأشجار تحيط بالبيت .

(فولي قصي أمرا لكعبة ومكة وجمع قومه من منازلهم إلى مكة فملكوه عليهم ، ولم تكن مكة بها بيت في الحرم ، وإنما يكونون بها حتى إذا أمسوا خرجوا لا يستحلون أن يصيبوا بها جنابة ، ولم يكن بها بيت قديم .

فلما جمع قصي قريشا وكان أدهى من رئي من العرب قال لهم : هل لكم أن تصبحوا بأجمعكم في الحرم حول البيت ؟ فوالله لا يستحل العرب قتالكم ، ولا يستطيعون إخراجكم منه وتسكنونه فتسودوا العرب أبدا فقالوا : أنت سيدنا

---

(١) المصدر نفسه لابن الأثيرالكامل (٥ / ١٧) ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام / ٥٦ .

(٢) المفصل في تاريخ العرب ٤ / ٥٦ .

(٣) أنساب الأشراف للبلاذري ١ / ٥٢ .

ورأينا تبع لرأيك ، فجمعهم ثم أصبح بهم في الحرم حول الكعبة)[1] .ولم يصل إلى هذه النتيجة إلا بعد أن خاض حرباً ضروساً ضد خزاعة التي كات تلي البيت (فلما أخذ قصي مفتاح البيت إليه أنكرت خزاعة ذلك وكثر كلامها ، وأجمعوا على حرب قصي وقريش وطردهم عن مكة وما والاها فبادر قصي فاستصرخ أخاه رزاح بن ربيعة فحضر هو واخوته فخرجت خزاعة وبكر فالنقوا واقتتلوا قتالاً شديداً ، ثم إنهم تداعوا إلى الصلح وأن يحكموا رجلا من العرب ، فحكموا بعمرو بن عوف بن كعب المعرف بالشّدّاخ فقضى بينهم بأن قُصيًّا أولى بالكعبة وأمر مكة من خزاعة ، وأن كل دم أصابته قريش من خزاعة موضوع يشدخه تحت قدميه ، وأن ما أصابته خزاعة وبنو بكر من قريش وبني كنانة فيه الدية فودوا خمسمائة وعشرين دية وثلاثين جريحا وأن يخلى بين قصي وبين البيت فيسمي يعمرو بن عوف الشداخ لما شدخ من الدماء ووضع)[2] .

(قال ابن اسحاق ، وقال قصي بن كلاب في ذلك :

أنا ابن العاصمين بني لؤي	بمكة منزلي وبها ربيت
إلي البطحاء قد علمت معدٌّ	ومروتها رضيت بها رضيت
فلست لغالب إن لم تأثّل	بها أولاد قيد والنبيت[3]
رزاح ناصري وبه أسامي	فلست أخاف ضيماً ما حييت)[4] .

وكان قصي قد سعى من قبل فغامر حتى استلم أمر الحجيج كله .

---

(١) سيل الهدى والشراد للصالحي ١ /٣٢٤ .

(٢) المصدر نفسه / ٣٢٣ ـ ٣٢٤ .

(٣) أولا قيدر والنبيت : هم أولاد اسماعيل عليه السلام ، أصل العرب .

(٤) البداية والنهاية لابن كثير ١ / ٢ / ١٩٤ .

(وكان بنو صوفه[1] تدفع الناس بالحج من عرفة إذا نفروا من منى ، فلم يجسر أحد من الناس أن ينفرد ولا يرمي حتى يرموا . فلما كان هذا العام فعلت بنو صوفة كما كانت تفعل ، فأتاهم قصي بمن معه من قريش وكنانة وقضاعة عند العقبة فقال لبني صوفه : نحن أولى بهذا منكم فاقتتل الناس قتالاً شديداً ، وكثر القتلى بين الفريقين فانهزمت صوفة وغلبهم على ماكان في أيديهم من ذلك)[2] .

فأي مجد لقريش إذن لم يفعله قصي لقومه لقد استلم أمر الحج كله ، وفتح مكة بعد حرب ضروس لقريش فنزلوا فيها وصاروا جيران البيت واستلم حجاية الكعبة من خزاعة بعد حرب ثانية معها ، ولم يكن بطلا في الحرب فقط ، بل كان بطلاً في السلم كذلك إذ أحيا فكرة الرفادة وهي إطعام الحجيج في مكة ، وشاركت قريش كلها في هذه المأثرة، ولم يكتف بذلك إنما اهتم بسقاية الحجيج .

(قال السهيلي رحمه الله تعالى : وكان قصي يسقي الحجيج في حياض من أدم يُنقل اليها الماء من بئر ميمون وغيرها خارج مكة وذلك قبل أن يحضر العجول.

وروى البلاذري عن معروف بن خربوذ وغيره قالوا : كانت قريش قبل قصي تشرب من بئر حفرها لؤي بن غالب خارج مكة ومن حياض ومن مصانع على رؤوس الجبال ، ومن بئر حفرها مرة بن كعب مما يلي عرفة فحفر قصي بئرا سماها العجول ، وهي أول بئر حفرتها قريش بمكة وفيها يقول رجاز الحاج

نروي من العجول ثم ننطلق   إن قصيا قد وفى وقد صدق

بالشبْع للناس وري مغتبق

وقال آخر : آب الحجيج طاعمين دسما   أشبعهم زيد قصي لحمْا

ولبنأ مخضا وخبزا هشما)[3] .

---

(١) بنو صوفة : هم بنو الغوث بن مر بن طابخة بن الياس بن مضر .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحي ١ / ٣٢٣ .

(٣) المصدرنفسه / ٣٢٥ ، وهي عند البلاذري في أنساب الأشراف ١ / ٥١ .

ولبنأ مخضا وخبزا هشما [1] .

ورغم هذه الأمجاد التي حققها في السلم والحرب وأنشأ هذا الكيان الضخم لقريش ، فلم يكن طاغية متجبرا مثل كثير من السادة والزعماء انما وضع أسس الحياة السياسية الشورية ، وجعلها مبادىء ثابتة في مكة بتأسيسه لدار الندوة (وبنى دار الندوة والندوة في اللغة الاجتماع لأنهم كانوا يجتمعون فيها للمشورة وغير ذلك .، ولا يتشاورون في أمرا إلا فيها ولا يعقدون لواء حرب إلا فيها يعقدها لهم قصي أو بعض بنيه)[2] .

وحيث ذكرنا من قبل البطون الثلاث عشرة التي تمثل قريشا إذا استثنينا منها البطون الخمسة التي تكونت من عقبه فيكون له الفضل في اسكان البطون الثمانية داخل بطاح مكة والتي أطلق علهيا قريش البطاح وهم (تيم ومخزوم وسهم وجمح وعدي وزهرة وعامر بن لؤي وبنوه الذين شكلوا فيما بعد ستة فروع كبيرة .

أما البطون القرشية التي بقيت خارج مكة وسميت بقريش الظواهر ، وبقيت تعيش حياة البادية فهم بنو تيم الأدرم بن غالب وبنو محارب بن فهر وبنو الحارث بن فهر [3] .

وأما قريش الظواهر فهم الساكنون خارج مكة في أطرافها ، وكانوا على ما يبدو من وصف أهل الأخبار لهم أعرابا أي أنهم لم يبلغوا مبلغ قريش البطاح في الاستقرار ، وفي اتخاذ البيوت من مدر وكانوا يفخرون على قريش مكة بأنهم أصحاب قتال ، وأنهم كانوا يقاتلون عنهم وعن البيت ولكنهم كانوا دون قريش البطاح) في التحضر وفي الغنى والسيادة والجاه)[4] .

---

(١) المصدر نفسه / ٣٢٥ وهي عند البلاذري في أنساب الأشراف ١ / ٥١ .

(٢) المصدرنفسه / ٣٢٤ .

(٣) و (٤) تاريخ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٢٩ و ٢٨ .

قصي يوزع المآثر :

ثم لما كبر قصي فوض أمر هذه الوظائف التي كانت إليه من رئاسة قريش وشرفها من الرفادة والسقاية والحجابة واللواء والندوة إلى ابنه عبد الدار وكان أكبر ولده ، وإنما خصصه بها كلها لأن بقية إخوته عبد مناف وعبد شمس وعبدا كانوا قد شرفوا في زمن أبيهم ، وبلغوا في قوتهم شرفا كبيرا فأحب قصي أن يلحق بهم عبد الدار في السؤدد فخصصه بذلك فكان إخوته لا ينازعونه في ذلك)[١] .

وفاتـــه :

(وما مات قصي دفن بالحجون ، وقد كانوا يزورون قبره ويعظمونه)[٢]

(ودفن بالحجون فتدافن الناس بالحجون)[٣] وقال قائلهم في مدح قصي وشرفه في قومه :

قصي لعمري كان يدعى يجمعا   به جمع الله القبائل من فهر

همو ملؤوا البطحاء مجداً وسؤددًا   وهم طردوا عنا غواة بني بكر)[٤]

والملاحظ أنه لم يبرز زعيم بجواره في حياته وبقي رمزاً لقريش وتاريخا يعتزون به جميعا حتى أن مشركي قريش . قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يجادلونه (... يا محمد إن كنت غير قابل منا شيئا مما عرضناه عليك فإنك قد علمت أنه ليس أحدا أضيق بلداً ولا أقل مالاً ولا أشد عيشاً منا فاسأل لنا ربك

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ١ / ٢ ١٩٤.

(٢) ابن الأثير ٢ / ٩ .

(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحي ١ / ٣٢٦ .

(٤) البداية والنهاية ١ / ٢ / ١٩٣ .

أنهارا كأنهار العراق والشام وليبعث لنا من مضى من آبائنا وليكن ممن يبعث لنا منهم قُصي بن كلاب فإنه كان شيخ صدق فنسألهم مما تقول أحق هو أم باطل فإن صدقوك ، وصنعت ما سألناك صدقناك ، وعرفْنا منزلتك من الله وأنه بعثك الينا رسولا كما تقول ...)[1] .

وواضح من هذه المحاجة أن قصيا هو أهم شخصية في تاريخهم .

(وقد ترك قصي أمرا كبيرا في أهل مكة ، وعدوه المؤسس الحقيقي لكيان قريش ، وكانوا يذكرون اسمه دائما بخبر ، وكانوا لا يطيقون سماع أحد يستهين بشأنه فلما تطاول الشاعر (عبد الله بن الزُبعري) على ما جاء في بعض الروايات وتجاوز حده بذكر قصي بسوء في شعر له كتبه كما يقولون في أستار الكعبة ، غضب بنو عبد مناف بن قصي واستعدوا عليه بنو سهم (قومه) لأنه كان من بني سهم ، فأسلموه إليهم فضربوه وحلقوا شعره وربطوه إلى صخرة فاستغاث قومه ، فلم يغيثوه ، فجعل يمدح قصيا ويسترضيهم فأطلقه بنو عبد مناف وأكرموه فمدحهم بأشعار كثيرة)[2] .

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٢ / ٤٥٢ ، ٤٥٣ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ١٤٣ .

مكة تنقسم إلى حزبين

مضيى قصي إلى ربه وهو السيد المطاع في مكة . ومكة في أزهى عصورها قوة ووحدة كلمة ومجدًا معترفاً به بين القبائل . ودانت البطون من قريش جميعاً لزعامته .

وترك قصي جملة أولادهم : عبد العزي ، عبد الدار وعبد مناف وعبد بن قصي ، وسرعان ما علا كعب عبد مناف ، وسما بين إخوته ، وأصبح في حياة أبيه ترنو له الأنظار .

وخشي قصي على ولده عبد الدار فأوصى له بالمآثر الكبرى الستة ، حيث صارت بيده بعد وفاة أبيه وهي السقاية والرفادة والحجابة واللواء والندوة . ولم يتعرض عبد مناف لأخيه عبد الدار بشيء وبعد وفاة أبيه . (وقام عبد مناف على أمر قصي بعده . وأمر قريش إليه واختط بمكة أربعاً بعد الذي كان قصي قطع لقومه) [1] .

لكن لم يكن من السهولة أن تدين قريش لعبد مناف الذي ورث أمجاد أبيه والمآثر الكبرى لأخيه عبد الدار وهي تعلم أنها لن تصل إلى شيء من هذه المآثر والأمجاد طالما أن بني قصي كلمتهم واحدة .

ورأيهم واحد وليس عندها ما تنافس به بني قصي في شيء .

وتذكربعض الروايات أن آل عبد مناف قد كثروا وقل آل عبد الدار فأرادو انتزاع الحجابة من بني عبد الدار . وكان أولاد عبد مناف هم هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل .

وكما برز عبد مناف وساد في حياة أبيه قصي كذلك برز هاشم وساد في حياة أبيه عبد مناف وإذا كان قصي هو المؤسس الحقيقي لمجد قريش في مكة فإن

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ٤٧ . وبه يقول الشاعر : كانت قريش بيضة فتفلقت فالمح خالصه لعبد مناف .

هاشم بن عبد مناف وإخوته هم المؤسسون الحقيقيون لاقتصاد قريش هذا الاقتصاد الذي اثنى عليه الله تعالى في كتابه ﴿ **لإيلاف قريش إيلافهم ، رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف** ﴾[1] .

(وقد تعرض الثعالبي) لموضع إيلاف قريش فقال : إيلاف قريش : كانت قريش لا تتاجر إلا مع من ورد عليها من مكة في المواسم وبذي المجاز وسوق عكاظ، وفي الأشهر الحرم لا تبرح دارها ، ولا تجاوز حرمها ، للتحمس في دينهم والحب لحرمهم والإلف لبيتهم ولقيامهم لجميع من دخل مكة بما يصلحهم وكانوا بواد غير ذي زرع فكان أول من خرج الى الشام ووفد إلى الملوك ومر بالأعداء وأخذ منهم الإيلاف الذي ذكره الله هاشم بن عبد مناف وكانت له رحلتان رحلة في الشتاء نحو العباهلة من ملوك اليمن ونحو البكسوم من ملوك الحبشة ورحلة في الصيف نحو الشام وبلاد الروم . وكان يأخذ الإيلاف رؤساء القبائل وسادات العشائر لخصلتين : إحداهما أن ذؤبان العرب وصعاليك الأعراب وأصحاب الغارات وطلاب الطوائل كانوا لا يؤمنون على أهل الحرم وغيرهم ، والخصلة الأخرى أن أناسا من العرب كانوا لا يرون للحرم حرمة ولا للشهر الحرام قدرا كبني طيء وخثعم وقضاعة وسائر العرب يحجون البيت ويدينون بالحرمة له . ومعني الإيلاف انما هو شيء كان يجعله هاشم لرؤساء القبائل من الربح ويحمل لهم متاعاص مع متاعه . فكان ذلك صلاحاً للفريقين إذ كان المقيم رابحاً والمسافر محفوظاً فأخصبت قريش وأتاها خبر الشام واليمن والحبشة وحسنت حالها وطاب عيشها ولما مات هاشم قام بذلك المطلب ، فلما مات المطلب قام بذلك عبد شمس

(١) سورة قريش .

فلما مات عبد شمس قام بذلك نوفل وكان أصغرهم)[١] .

أما رواية الطبري فتوزع هذه المهام على بني عبد مناف جميعا وأن لكل منهم عمله في تكوين هذا الإيلاف .

(وحدثت عن هشام بن محمد عن أبيه قال : كان هاشم وعبد شمس وهو أكبر لد عبد مناف والمطلب وكان أصغرهم ـ أمهم عاتكة بنت مرة السلمية ونوفل ـ أمه واقدة ـ بني عبد مناف قد سادوا جميعا ، وكان يقال لهم المجبرون ولهم يقال :

يا أيها الرجل المحوِّل رحله   ألا نزلت بآل عبد مناف

فكانوا أول من أخذ لقريش العصم[٢] فانتشروا من الحرم ، أخذ لهم هاشم حبلا[٣] من ملوك الروم والشام وغسان وأخذ لهم عبد شمس حبلا من النجاشي الأكبر ، فاختلفوا بذلك السبب إلى أرض الحبشة وأخذ لهم نوفل حبلا من الأكاسرة فاختلفوا بذلك السبب إلى العراق وأرض فارس وأخذ لهم المطلب حبلا من ملوك حمير فاختلفوا بذلك السبب إلى اليمن فجبر الله بهم قريشا فسمو المجبرين)[٤] . ولكن هاشما يبقى هو السيد الأول الذي آلت اليه زعامة قومه .

وكان من خارج بني قصي زعيم ينافس هاشم بن عبد مناف هو سيد بني سهم قيس بن عدي حتى ليتذكرون أن هاشم بن عبد مناف كان ينفر ابنه عبد المطلب وهو وبقول :

كأنه في العزقيس بن عدي   في دار قيس ينتدى أهل الندى)[٥]

---

(١) ثمار القلوب للثعالبي / ١١٥ وما بعدها .

(٢) العصم : الحبال ويراد بها العهود بكسر وفتح .

(٣) الحبال : العهود والأحلاف .

(٤) الطبري ٢ / ٢٥٢ .

(٥) نسب قريش / ٤٠٠ .

ويذكرون من عزه أنه منع عدي بن كعب وزهرة بن كلاب من بني عبد مناف ، ومنع بني عدي أيضا من بني جمح وهذا يعني أن بني سهم هم المؤهلون لحمل لواء المنافسة ضد بني قصي . لكن وحدة كلمة بني قصي حالت دون انتزاع الزعامة منهم . أما بني عبد مناف فقد كانوا يحسون بالإجحاف الكبير أمام بني عمهم بني عبد الدار الذين يستأثرون بالمآثر الكبرى من السقاية والرفادة والحجابة واللواء والندوة خصوصاً وقد كثرعددهم وسادوا على مكة كلها بما ربحوه من أموال التجارة ، وفتحوا الأسواق العالمية وارتادوها ، واعترفت لهم الأمم بذلك .

هاشم بن عبد مناف يسود قومه :

قال الرشاطي : كانت قريش تجارتهم لا تعدو مكة وكانت الأعاجم تقدم عليهم بالسلع فيشترون منهم حتى ركب هاشم إلى الشام فنزل بقيصر ، وكان كل يوم يدبح شاة فيصنع جفنة ثريد و ويدعو من حوله فيأكلون . فذكر لقيصر أن ها هنا رجلا من قريش يهشم الخبز ، ثم يصب عليه المرق ويفرغ عليه اللحم وإنما كانت العجم تضع المرق في الصحاف ثم تأتدم عليه بالخبر فدعابه قيصر فكلمه وأعجبه كلامه وأعجب به وجعل يرسل إليه ويدخل عليه فلما رأى مكانه منه قال: أيها الملك إن لي قوما وهم تجارالعرب فإذا رأيت أن تكتب لي كتابا تؤمنهم وتؤمن تجارتهم فيقدموا عليك بما يستظرف من أدم الحجاز وثيابه فيمكنوا من بيعه عندكم فهو أرخص عليكم فكتب له كتاب أمان لمن أتى منهم فأقبل هاشم بالكتاب فجعل كلما مر بحي من العرب على طريق الشام أخذ لهم من أشرافهم إيلافا والإيلاف أن يأمنوا عندهم وفي طريقهم وأرضهم بغيرحلف ، إنما هو أمان للطريق فأخذ هاشم الإيلاف فيمن بينه وبين الشام حتى قدم مكة فأعطاهم الكتاب . فكان ذلك أعظم بركة ثم خرجوا بتجارة عظيمة وخرج هاشم معهم بحوزهم ويوفيهم إيلافهم

الذي أخذ لـهم من العرب فلم يبـرح يجمع بينهم وبين الـعرب حتى وردا الـشام ، مات في تلك السفرة بغزة فهذا سبب تسميته بهاشم .

يخالطون غنيهم بفقيرهم :

وروى الزبير بن بكار في الموفقيات عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى: (قال : كانت قريش في الجـاهلية تحتفد وكان احتـفادها أن أهل البيت منهم كانوا إذا سـاقت يعني هلكت أمـوالهم خـرجـوا إلى براز[٢] من الأرض فـضــربوا على أنفسهـم الأخـبية ثم تناوبوا فيهـا حتى يموتوا خوفا من أن يُعلم بحلتـهـم . حتى نشأ هاشم بن عبد مناف فلمـا رحل وعظم قدره في قومه قال : يا معـشر قريش إن العز مع كثرة العـدد ، وقد أصحبتم أكثـر العرب أموالاً وأعزهم نفرا وإن هذا الاحـتفاء قد أتى على كـثير منكم ، وقد رأيت رأيا قـالوا : رأيك رشيد ، فمـرنا نأتمر ، قال : رأيت أن أخلط فقـراءكم بأغنياءكم فـأعمـد الي رجل غني فأضم اليـه فقيـرا عدده بعدد عياله فيكون يؤازره في الرحلتين رحلة الشتاء ورحلة الصيف ، رحلة الصيف إلى الشام ، ورحلة الشتاء إلى الـيمن فما كان من مال الغني من فضل عـاش الفقير وعياله في ظله ، وكان ذلك قطعا للاحتفاد قالوا : نعم ما رأيت فألف ين الناس .

وروي البـلاذري عن ابن عـبـاس رضي الله تعـالى عنهـمـا قـال : والله لقـد علمت قـريش أن أول من أخـذ لـه الإيلاف وأجـاز لهـا العـيـرات لهـاشم والله مـا أخذت قريش حبلا لسفر ولا أناخت بعيرا لحضر الا بهاشم)[٥] .

---

(١) سبل الهدى والرشاد ، للصالحي ١ / ٣١٦ .

(٢) براز : مرتفع .

(٣) بخلتهم : بفقرهم .

(٤) ربل : قوي واشتد .

(٥) سبل الهدى والرشاد للصالحي ١ / ٣١٧ .

ودعا هذا شاعر بني سـهم الذي ينفس على هاشم وإخوته هذا المجد أن يقول فيهم :

يا أيها الرجـل المحـول رحلـه	هلا نزلت بآل عبد منـاف
الأخذون العهـد من آفاقهـا	والراحلون لرحلة الإيـلاف
والرائشون[٢] وليس يوجد رائش	والقائلـون هَلُمّ للأضيـاف
والخالطـون غنيهـم بفقيرهـم	حتى يكون فقيرهم كالكافي
عمرو العلا هشم الثريد لقومـه	سفر الشتاء ورحلة الإيلاف [٣]

بين بني عبد مناف وبني عبد الدار :

لما كثر آل عـبد مناف ، وقلّ آل عبد الدار أرادوا انتزاع الحجـابة من بني عبد الدار فاختلفت في ذلك قريش فكانت طائفـة مع بني عبد الـدار ، وطائفة مع بني عبد مناف فأخـرجت أم حكيم البيضاء [٤] بنت عبد المطلب بن هاشم جـفنة فيها طيب فـوضـعتـهـا في الحجـر فـقـالت : من كان مـنا فليدخـل يده في هذا الطيب فـأدخلت عبـد مناف أيديها ، وبنو أسـد بن عبـد العـزى وبنو زهرة ، وبنو تيم وبنو الحارث بن فهر فسموا المطيبين فعـمدت بنو سهم بن عمرو فنحرت جزورا وقالوا من كان منا فليـدخل يده في هذه الجزور فـأدخلت أيدها عبد الدار وسـهم وجمح ومخزوم ، وعدي فسميت الأحلاف . وقام الأسود بن حارثة بن نضلة فأدخل يده في الدم ، ثم لعقها فلعقت بنو عدي كلها بأيديها فسموا لعقة الدم)[٥]

---

(١) المصدرنفسه / ٣١٨ .

(٢) الرائشون والمتاجرون .

(٣) المصدرنفسه / ٣١٧ .

(٤) عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٥) نسب قريش / ٣٨٣ .

وتذكر رواية أخرى أن هاشما وعبد شمس والمطلب ونوفل بني عبد مناف أجمعوا أن يأخذوا ما بأيدي بني عبد الدار مما كان قصي جعل إلى عبد الدار من الحجابة واللواء والرفادة والسقاية والندوة ورأوا أنهم أحق بها منهم فأبت بنو عبد الدار فعقد كل قوم على أمرهم حلفا مؤكدا على ألا يتخادلوا ولا يسلم بعضهم بعضا وعرف حلف بني عبد مناف بحلف المطيبين وعرف حلف بن عبد الدار بحلف الأحلاف ولعقة الدم ، ثم تداعوا إلى الصلح على أن تكون الحجابة واللواء ودار الندوة إلى بني عبد الدار وأن يعطوا بني عبد مناف السقاية والرفادة)[1] وولي هاشم بن عبد مناف السقاية والرفادة .

(وكان هاشم رجلا موسرا ، وكان يقوم أول يوم من ذي الحجة ، فيسند ظهره إلى الكعبة من تلقاء بابها فيخطب فيقول :

يا معشر قريش : أنتم سادة العرب أنسابا وأنتم أقرب العرب بالعرب أرحاما يا معشر قريش إنكم جيران بيت الله أكرمكم الله تعالى بولاية بيته ، وخصكم بجواره دون بني اسماعيل ، حفظ منكم أحسن ما حفظ جار من جاره ، فأكرموا ضيفه ، وزوار بيته فانهم يأتون شعثاً غيرا من كل بلد على ضوامر كالقداح ، وقد أرحضوا [2] وتفلوا[3] وقملوا أرملوا [4] فأقروهم وأعينوهم ولو كان لي مال يحمل ذلك كله كفيتكموه ، وأنا مخرج من طيب مالي وحلاله ما لم تقطع فيه رحم ، ولم يؤخذ بظلم ولم يدخل فيه حرام فواضعه فمن شاء منكم أن يفعل مثل

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ /٧٧ .

(٢) أرحضوا : عِرقوا .

(٣) ثفلوا : اتسخت أجسامهم .

(٤) أرملوا في زادهم : نقص زادهم .

ذلك فعل وأسألكم بحرمة هذا البيت أن لا يخرج رجل منكم من ماله لكرامة زوار بيت الله ومعونتهم إلا طيبا ، لم يؤخذ ظلما ولم يقطع فيه رحم ولم يوخذ غصبا .

فكانت بنو كعب بن لؤي كلها تجتهد في ذلك ، ثم يخرجون ذلك من أموالهم حتى إن كان أهل البيت ليرسلون بالشيء اليسير على قدرهم ، وكان أهل اليسار منهم ربما أرسل بمائة مثقا هر قلبه فيأتون به هاشما فيضعونه في داره .

وكان هاشم يخرج في كل سنة مالا كثيرا وكان يأمر بحياض من أدم يُجعل في موضع زمزم من قبل أن تحفر زمزم ، ثم يستقي فيها من الآبار التي بمكة فيشرب الحاج وكان يطعمهم أول ما يطعمهم قبل التروية بيوم بمكة ومنى وجمع[1] وعرفة وكان يثرد لهم الخبز واللحم والخبز والسمن والسويق والتمر ويحمل لهم الماء ويتفرق الناس لبلادهم وكان من أحسن الناس وأجمهلم . وكانت العرب تسميه قدح النضار والبدر)[2] .

وحين نقف لنحلل طبيعة هذين الحلفين نلاحظ ما يلي :

١ ـ حلف المطيبين يكاد يكون حلف بني قصي الذين تحس قريش بتفوقهم عليها والبطون الخمس التي دخلت فيه هي :

أ ـ بنو عبد مناف بن قصي بن كلاب .

ب ـ بنو أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب .

جـ ـ بنو زهرة بن كلاب إخوة فصي بن كلاب .

د ـ بنو تيم بن مرة وهم أعمام قصي .

هـ ـ بنو الحارث بن فهر ، وهم الفرع الوحيد البعيد عن قصي .

---

(١) جمع : مزدلفة .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحي / ٣١٨ .

٢ ـ أما حلف الأحلاف . فقد استغل الخلاف بين بني قصي وسائر بني عبد الدار فكان :

أ ـ بنو عبد الدار بن قصي بن كلاب .

ب ـ بنو مخزوم بن يقظة بن مرة وهم بنو أعمام قصي .

جـ ـ بنو سهم بن هصيص بن كعب بن لؤي .

د ـ ـ بنو جمح بن هصيص بن كعب بن لؤي .

هـ ـ بنو عدي بن كعب بن لؤي .

و ـ بنو الحارث بن فهر .

وهؤلاء الأحلاف جميعا كان لقصي بن كلاب الفضل عليهم في إدخالهم مكة وسكناهم بها بعد الحرب الضروس التي خاضها ضد خزاعة .

ومن خلال هذه النظرة نلاحظ أن هؤلاد الأحلاف على المدى البعيد هم الذين يحملون لواء المعارضة ضد بني عبد مناف ومن معهم من بني قصي وهم الذين ينافسونهم في الزعامة والسيادة والسيطرة على مكة ونحن بحاجة إلى التعرف على أعماق هذين الحزبين لندرك من خلالهما فيما بعد طبيعة الصراع الدائر في مكة ، والذي امتدت أبعاده إلى عصر الرسالة وكان الموقف المنطقي أن يقف الحزب الثاني بأحلافه وبكل رجالاته وزعاماته ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن عبد مناف والذي لا يمكن أن ينازع في الرسالة ، أو ينافس فيها . وليس هناك من حل إلا تكذيبها . أما المآثر الأخرى من السقاية والرفادة التي استأثر بها بنو هاشم بن عبد مناف فمجال التنافس في إطعام الحجيج وغيرهم وإكرام الضيف وفك العاني فالمجال مفتوح للسباق فيه .

التنافس ضمن بني عبد مناف :

وهذا التنافس ضمن هذا البيت أضعف جانب بني عبد مناف فيما بعد وهيأ المجال لزعامات جديدة متفرقة تبرز على الساحة . وكان هذا التنافس بين بني هاشم بن عبد مناف وبني أمية عبد شمس بن عبد مناف .

روى البلاذري عن هشام بن محمد بن السائب رحمه لله تعالى قال :

كان أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ذا مال فتكلف أن يفعل كما فعل هاشم في إطعام قريش ، فعجز عن ذلك فشمت به أُناس من قريش ، وعابوه لتقصيره فغضب ، ونافر هاشماً على خمسين ناقة سود الحدق تنحر بمكة و وإجلاء عشر سنين (عنها) وجعلا بينهما الكاهن الخزاعي وهو جد عمرو بن الحسين وكان منزله عسفان وكان مع أمية أبوهمهمة بن عبد العزى الفهري وكانت ابنته عند أمية . فقال الكاهن : والقمر الباهر ، والكوكب الزاهر ، والغمام الماطر ، ومابالجو من طائر ، وما اهتدى بعلم مسافر في منجد وغائر لقد سبق هاشم أمية إلى المآثر أول منهاوآخر وأبو همهمة بذلك خابر .

فأخذ هاشم الإبل فنحرها ، وأطعم لحمها من مضر ، وخرج أمية إلى الشام، فأقام عشر سنين فتلك أول عداوة وقعت بين بني هاشم وأمية .

مات هاشم بغزة وله عشرون سنة ويقال خمس وعشرون سنة [١] .

قال البلاذري رحمه الله تعالى : وهذا أثبت وهو أول من مات من بني عبد مناف ثم مات عبد شمس بمكة فقُبر بأجياد ، ثما مات نوفل بسلمان من طريق العراق ، ومات المطلب بردمان من طريق اليمن) .

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٢ / ٣١٩ - ٣٢٠ .

وقال وهب بن عبد قصي في ذلك :

تحمل هاشم ما ضاق عنه ... وأعيا أن يقوم به ابن بيض[1]

أتاهم بالغرائر[2] متأقات[3] ... من أرض الشام بالبر[4] لنفيض

فأوسع أهل مكة من هشيم ... وشاب الخبز باللحم الغريض[5]

فظل القوم بين مكللات ... من الشيزى[6] وحائرها[7] يفيض[8]

.[9]

ولكن هذا التنافس بقي ضمن بين عبد مناف في هذا الجيل ، وبقي هاشم بن عبد مناف السيد الأول في مكة لا يباريه بسيادته أحد ، لأنه هو الذي أعطى لقريش تلك السمعة العالمية ، وهيأ له تلك الأسواق التجارية العالمية مع إخوته بعد أبيه المؤسس المحلي لمجد مكة على مستوى العرب الذين يؤمون البيت للحج .

ونرى في وفاة هاشم فيه مبالغة كبيرة فمثل هذه الأمجاد لا يمكن أن تتحقق خلال خمسة وعشرين عاما .

---

(١) ابن مضي : هو بن عبد شمس .

(٢) الغرائر : ما يحمل به القمح .

(٣) متأقات : ممتلئات .

(٤) البر : القمح .

(٥) اللحم الغريض : اللحم الطري .

(٦) الشيزي : قصاع اللحم .

(٧) الحائر : الودك والسمن .

(٨) يفيض : يزداد .

(٩) الطبري ١ / ٢٥٣ .

بنو سهم بن عمر بن هصيص بن كعب

وهم قوم عمرو بن العاص رضي الله عنه

وهم كانوا على رأس الحزب المعارض لبني عبد مناف .

١ ـ أما أبرز زعمائهم الذي كان معاصـراً لهاشم بن عبد مناف فهو قيس بن عدي بن سهم . وقد رفع من مقام عشيرته وأصبح يجيز بين القبائل .

(ومن سادات مكة في هذه الأيام قيس بن عـدي بن سهم من بني هصيص بن كعب ، وكان بنو سـهم قد تكاثروا بمكة حى كادوا يعدلـون بعبد مناف ، وهو الذي منع (عدي بن كـعب) و (زهرة بن كلاب) من (بني عـبد مناف) ومنع (بني عدي) أيضا من بني جمح ، وكان هاشم بن عبد مناف ينفر ابنه عبد المطلب وهو صغير ويقول :

كأنه في العز قيس بن عدي   في دار قيس ينتدى أهل الندى [١] .

(مما يدل إن صح أن هذا الشعر هو من شعر (هاشم) حقاً على أن (عدياً) كان أعز رجال قريش في أيامه حتى ضربوا به المثل في العز ، وأنه كان سيد قومه : بني سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب) .

٢ ـ وحين يُذكر رأس الحزب المعارض للمطيبين يُذكر بنو سهم على رأسهم (فعمدت بنو سهم بن عمـرو فنحرت جزوراً وقالوا : من كان منا فليدخل يده في هذه الجـزور فأدخلت أيديهـا عبـدالدار وسهم وجـمح ومخـزوم وعدي وسميت الأحلاف) [٣] .

---

(١) نسب قريش / ٤٠٠ .

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي / ٧٣ .

(٣) نسب قريش / ٣٨٣ .

٣ ـ وحين نغادر جيل هاشم بن عبد مناف وقيس بن عدي بن سهم حيث يتصور أن الحلفين قاما في أيامهما ثم انتهى الأمر بالمصالحة بين الفريقين على أن تكون الرفادة والسقاية لبني هاشم وتبقى اللواء والندوة والحجابة في بني عبد الدار نصل إلى جيل أولادهم عبد المطلب بن هاشم الذي آلت سيادة بني هاشم اليه والحارث بن قيس بن عدي قد آلت زعامة سهم اليه وتفرق من بنو عبد مناف إلى أربعة بطون .

أ ـ بنو هاشم وسيدهم عبد المطلب بن هاشم .

ب ـ بنو أمية بن عبد شمس وسيدهم حرب بن أمية .

جـ ـ بنو نوفل بن عبد مناف وسيدهم نوفل نفسه عم عبد المطلب .

د ـ بنو المطّلب وسيدهم المطلب بن عبد مناف .

٤ ـ وداخل بني عبد مناف كان عبد المطلب بن هاشم قد ساد قومه فراح حرب بن أمية ينازعه السيادة كما فعل أمية مع عمه هاشم . وتنافرا إلى نفيل بن عبد العزى بن عدي جد عمر بن الخطاب فقال لحرب : يا أبا عمرو ، تنافر رجلا هو أطول منك قامة ، وأوسم منك وسامة . وأعظم منك هامة . وأقل منك لامة وأكثر منك ولدا ، وأجزل منك صفدا [١] ، وأطول منك مددا ، وإني لأقول قولي هذا ، وإنك لبعيد الغضب رفيع الصيت عند العرب ، جلد المريرة تحبك العشيرة ، ولكنك نافرت منفيرا فنضر عبد المطلب ، فغضب حرب بن أمية ، وأغلظ لنفيل وقال : من انتكاس الدهر جعلت حكما وكانت العرب تتحاكم إليه)[٢] .

---

(١) الصفد : العطاء .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحي ١ / ٣١٠ .

(ووقع خلاف بين عبد المطلب وعمه نوفل كان سببه أن نوفل بن عبد مناف وكان آخر من بقي من بني عبد مناف ظلم عبد المطلب على أركاح له وهي ـ الساحات ـ فلما أصر نوفل على إنكاره حق عبد المطلب تدخل عقلاء قريش في الأمر على رواية أهل مكة أو أخوال عبدالمطلب وهم من أهل يثرب فأكره نوفل على انصاف عبدالمطلب حتى عاد إليه حقه)[1]. فلما رأى نوفل ذلك حالف بين عبد شمس كلها على بني هاشم)[2] (وعُرِف عبدالمطلب بين أهل مكة بشيبة الحمد ، لكثرة حمد الناس له ، وكان يقال له (الفياض) لجوده ومطعم طير السماء و (مطعم الطير) لأنه كان يرفع من مائدته للطيروالوحوش في رؤوس الجبال ومن أهم أعمال عبدالمطلب الخالدة إلى اليوم (بئر زمزم) في المسجد الحرام على مقربة من البيت ، وهي بئر يذكرون أنها بئر إسماعيل وأن جرهما دفنتها وانها تقع بين إساف ونائلة في موضع كانت قريش تنحر فيه فلما حضرها عبدالمطلب أقبل علهيا الحجاج وتركوا سائر الآبار)[3] .

والملاحظ من هذا العرض أن السيادة بقيت لهاشم حين حاول ابن أخيه أمية أن ينازعه إياها ، ثم انتقلت لابنه عبد المطلب ، ثم لحرب بن أمية وبعدها توزعت السيادة في قريش في هذا الجيل (فلما هلك حرب بن أمية تفرقت الرياسة والشرف في بني عبد مناف وفي بني أسد وقد كانت النبوة والخلافة في بني عبد مناف ويشركهم في الشورى زهرة ، وتيم وعدي وأسد) .

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٤ / ٧٥ عن الطبري ٢ / ٢٤٨ وما بعدها .

(٢) الطبري ٢ / ٢٤٧ وما بعدها .

(٣) المحبر / ١٥٦ ومابعدها .

٥ ـ ونذلف إلى الجيل الثالث في قريش ونشهد زعماءه من خلال حرب الفجار وهم الذين كانوا يتنافسون في الزعامة (ثم إن قريشا وبني كنانة لقوا هوازن بشمطة : وعلى رأس بني هاشم الزبير بن عبد المطلب .

وعلى بني عبد شمس وأحلافها حرب بن أمية (والد أبي سفيان بن حرب).

وعلى بني عبد الدار وحلفائها : عكرمة بن هاشم

وعلي بني أسد بن عبد العزي : خويلد بن أسد (والد خديجة بنت خويلد رضي الله عنها) .

وعلي بني زهرة : مخرمة بن نوفل .

وعلى بني تيم : عبد الله بن جدعا .

وعلى بني مخزوم : هاشم بن المغير (أو هشام والد عمرو بن هشام أبي جهل)

وعلى بني سهم : العاص بن وائل (والد عمرو بن العاص)

وعلى بني جمح : أمية بن خلف

وعلى بني عدي : زيد بن عمرو بن نفيل (عم عمر بن الخطاب)

وعلى بني عامر بن لؤي : عمرو بن شمس (والد سهيل بن عمرو)

وعلى بني فهر : عبد الله بن الجراح (والد أبي عبيدة بن الجراح)

(وذكر أن هذا اليوم قد وقع بعد عشرين سنة من عام الفيل ، وقد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمره عشرون سنة)[1] .

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري ١ / ١٠٢ وما بعدها .

وفي رواية أخرى ذكرت (هشام بن المغيرة) بدلا من هاشم ، وإضافة أبي أحيحة (سعيد بن العاص) ومعمر بن حبيب الجمحي عوضا عن (أمية بن خلف) .

وفي رواية ثالثة أن القيادات انتهت إلى (حرب بن أمية) في القلب و(هشام بن المغيرة) في إحدى المجنبتين و (عبد الله بن جدعان) في المجنبة الأخرى .

ومن خلال هذه الزعامات لا يبدو لسهم أية ميزة على القبائل الأخرى إلا أن سيدها المقدم فيها هو العاص بن وائل السهمي .

٦ ـ وشكلّ العاص بن وائل شرخا جديدا في مكة اضافة إلى حلف (المطيبين) و (الأحلاف) دعا إلى تشكيل حلف هو حلف الفضول :

كان هذا الحلف في ذي القعدة قبل المبعث بعشرين سنة منصرف قريش من الفجار والرسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ عشرون سنة ، وكان أكرم حلف سُمع به وأشرفه في العرب ، وكان أول من تكلم به ودعا إليه الزبير بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان سببه أن رجلا من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل السهمي ، وكان ذا قدر وشرف بمكة فحبس عن حقه فاستعدى عليه الزبيدي الأحلاف عبد الدار ومخزوما وجمحا وسهما ، فأبوا أن يعينوا الزبيدي على العاص ابن وائل وزبروه ونهروه ، فلما رأى الزبيدي ذلك الشر رقى على أبي قبيس عند طلوع الشمس وقريش في أنديتهم حول الكعبة فقال بأعلى صوته :

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ... ببطن مكة نائي الدار والنفر

ومحرم أشعث لم يقض عمرته ... يا للرجال وبين الحِجر والحجر

إن الحرام لمن تمت مكارمه ... ولا حرام لثوب الغادر الفجر

فقام في ذلك الزبير بن عبد المطلب وقال : ألهـذا مترك ؟ فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم في دار عبد الله بن جدعان فصنع لهم طعاماً فحالفوا في القعدة في شهرحرام قياما فتعاقدوا وتعاهدوا ليكونن يدا واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدي اليه حقه مابل بحر صوفة وما رسا حراء وثبير مكانهما وعلى التآسي في المعاش فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول وقالوا : لقد دخل هؤلاء في فضول من الأمر ، ثم مشوا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه سلعة الزبيدي فدفعوها إليه)[1] .

وروى ابن اسحاق عن طلحة بن عبيد الله وابن سعد والبيهقي عن جبير بن مطعم رضي الله عنهما قالا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لي به حمر النعيم ولو أدعى به في الإسلام لأجبت وهو عند البيهقي في السنن / ١٢٧ . وفي رواية له عند أحمد : شهدت حلف المطيبين مع عمومتي وأنا غلام فما أحب أن يكون لي به حمر النعم وأني نكثته [2] . وعند ابن هشام في السيرة النبوية : فيما راه البكائي عن ابن اسحاق قال : (تداعت قريش إلى حلف فاجتمعوا له في دار عبد الله بن جدعان بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي لشرفه وسنه فكان حلفهم عنده بنو هاشم وبنوا المطلب وأسد بن عبد العزى وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول)[3] .

٧ ـ وهكذا نجد بني سهم في الصف المعارض لبني عبد مناف وبني هاشم فهم الذين وضعوا جفنة الدم في حلف المطيبين وكانوا على رأس الأحلاف .

---

(١) ا لسيرة النبوية لابن كثير ١/ ٢٥٧ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٣٤ والبداية والنهاية لابن كثير ١ / ٢ / ٢٧٣ .

(٣) المصدر نفسه / ٩٣ .

(ثم سوند بين القبائل ولز بعضها ببعض فعبيت بنو عبد مناف لبني سهم وعبيت بنو أسد لبني عبد الدار وعببت زهرة لبني جمح ، وعببت بنو تيم لبني مخزوم وعببت بنو الحارث بن فهر لبني عدي بن كعب ثم قالوا لتعن كل قبيلة من أسند اليها) .

ونجد العاص بن وائل السهمي سيد بني سهم هو رأس الحربة الذي قام حلف الفضول من أجله لانتزاع مظلمة الزبيدي منه .

وكثرة العدد كانت سببا رئيسيا للتنافس بين بني سهم وبني عبد مناف .

(وكان سهم بن عمرو قد كثروا حتى كادوا يعدلون بعبد مناف ، حتى قلوا عند مبعث النبي ﷺ ، أصابهم موتان ، فكان يصبح عدة منهم على فرشهم قد ماتوا)[1] .

وبقيت نخوة الجاهلية تنخر فيهم حتى قدم الإسلام وعندما راحوا يكاثرون بني عبد مناف اضطروا إلى ذكر الأموات وتعدادهم .

(وتفاخر حيان من قريش بنو عبد مناف وبنو سهم ، وتكاثروا بالسيادة والأشراف بالاسلام فقال كل حي منهم نحن أكثر سيدا وأعظم رجالا وأكثر قائدا فإن التكاثر يكون بين اثنين يقول كل منهما لصاحبه أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا فكثر بنو عبد مناف بين سهم ثم تكاثروا بالأموات فكثرتهم بهم فأنزل الله تعالى : ﴿ الهاكم التكاثر .... ﴾ قاله الكلبي)[2] .

---

(١) نسب قريش ٤٠١ .

(٢) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب عني بنشره : محمد جمال صاحب المكتبة الأهلية بمصر تأليف السيد محمود شكري الألوسي عني بشرحه وضبطه محمد بهجت الأشري ، ط ثانية ١٩٢٤م .

٨ ـ ولطبيعة هذه الصراع بين الحيين نجد شاعر بنيّ سهم عبد الله بن الزبعرى تتحرك به نخوته الجاهلية فيهجو قصي بن كلاب وهو أبو عبد مناف وقصي كان ـ كما مر معنا ـ معظما عند العرب جميعا فخافت بنو سهم مغبة هذا الهجاء فمضت وسلمت ابن الزبعرى إلى بني عبد مناف يفعلون به ما يشاؤون وبذكاء نادر وشهامة جاهلية أطلق حمزة بن عبد المطلب سراحه وكساه ، فأطلق لسانه في الثناء على قصي وبني عبد مناف .

(وهجا عبد الله بن الزبعرى السهمي بني قصي فدفعوه برمته إلى عتبة بن ربيعة خوفا من هجاء ا لزبير بن عبد المطلب وكان شاعرا مفلقاً شديد المعارضة قذع الهجاء فلما وصل عبد الله بن الزبعرى إليهم (أي إلى بني عبد مناف /) أطلقه حمزة بن عبد المطلب وكساه فقال عبد الله :

لعمرك ما جاءت بنكر عشيرتي ... وإن صالحت إخوانها لا ألومها

يود جناة الغي أن سيوفنا ... بأيماننا مسلولة لا نشيمها

فإن قصيا أهل عز ونجدة ... وأهل مقال لا يرام قديمها

هم منعوا يومي عكاظ نساءنا ... كما منع الشول[1] الهجان قرومها[2]

وكان الزبير (بن عبد المطلب) غائباً بالطائف فلما وصل إلى مكة وبلغه الخبر فقال :

فلو لا نحن لم يلبس رجال ... ثياب أعزة ، حتى يموتوا

ولكنا خُلقنا إذا خلقنا ... لنا الخيرات والمسك الفتيت

---

(١) الشول من الإبل التي ترفع بذنبها للقاح ولا لبن لها .

(٢) القروم : ج قرم وهي الفحل من الإبل خاصة .

ثيابهم سمال[1] أو طمار[2] بها دسم كما دسم الحميت [3] [4]

٩ ـ ومع أن المآثر الخمس المشهورة كانت محصورة في بني عبد الدار وبني عبد مناف وهي السقاية والرفادة والندوة والحجابة واللواء . إلا أن هناك مآثر خمسة أخرى رديفة لها موزعة على قبائل قريش بالتساوي كانت في الجاهلية وامتدت فترة في الإسلام .

فقد ذكر الألوسي تحت عنوان : من انتمى إليه الشرف بمكة من قريش في الجاهلية والإسلام

اعلم أن من انتهى اليه الشرف من قريش إلى أن بزغ نور الإسلام عشرة رهط من عشرة أبطن وهم هاشم وأمية ونوفل وعبد الدار وأسد وتيم ومخزوم وعدي وجمح وسهم ، فكان في هاشم العباس بن عبد المطلب يسقى الحجيج في الجاهلية وبقي له ذلك في الإسلام ، ومن بني أمية أبو سفيان بن حرب كانت عنده العقاب راية قريش . وإذا كانت عند رجل أخرجها إذا حميت الحرب . فإذا اجتمعت قريش على أحد أعطوه العقاب ، وإن لم يجتمعوا على أحد رأسوا صاحبها فقدموه ومن بني نوفل الحارث ابن عامر وكانت اليه الرفادة وهي ما كات نخرجه من أموالها وترفد به منقطع الحاج ومن بني عبد الدار عثمان بن طلحة كان إليه اللواء والسدانة مع الحجابة ، ويقال : والندوة أيضا في بني عبد الدار ومن بني أسد يزيد بن زمعة بن الأسود وكانت اليه المشورة ، وذلك أن رؤساء قريش لم يكونوا مجتمعين على أمر حتى يعرضوه عليه فإن وافقه ولا هم عليه وإلا تخيرو

---

(١) السمال : الخلق من الثيان .

(٢) الطمار : الثياب البالية .

(٣) الحميت : وعاء السمن .

(٤) م ١ ج ٣ / ٨٥ .

كـانوا له أعوانـا واستـشهـد مع رسـول الله ﷺ بالـطائـف ومن بنـي تيـم أبو بـكر الصديق وكـانت إليه في الجاهلية الأشـتاق وهي الديات والمغارم فكان إذا احـتمل شيئا فسأل فـيه قريشا صدقوه وأمضوا حمالة ممن نهض معـهم وإذا احتملها غيرهـم خذلوه ومن بني مـخزوم خالد بن الوليد كـانت اليه القبـة والأعنة فأما القبـة فإنهم كانوا يضربونها ثم يجـمعون اليها ما يجهزون به الجـيش وأما الأعنة فإنه كان على خيل قريش في الحـرب ومن بني عدي عمر بن الخطاب ، وكانت اليـه السفارة في الجاهلية ، وذلـك أنهم كانوا إذا وقعت بينهم وبين غيـرهـم حرب بعثوه سـفيرا وان نافـرهـم حَيٌّ المفاخـرة ، جعلوه منافـرا ورضوا به وعن بني جـمح صفـوان بن أمـية وكـانت إليه الأيسـار وهي الأزلام فكان لا يسـبق بأمـر عام حـتى يكون هو الذي يسيـره بين يديه . ومن بني سهـم الحـارث بن قيس وكـانت اليه الحكومـة والأموال المحجـرة التي سمـوها لآلهتهم فـهذه مكارم قـريس التي كانت في الجـاهلية ، وهي السقـاية والعمادة والعقـاب والرفادة والسدانة والحجـابة والندوة واللواء . والمشورة والاشنقاق والقبة والأعنة والسفارة والأيسار والحكومة والأموال المحجرة إلى هؤلاء العشرة من هذه البطون العشرة على حال ما كانت في أوليتهم يتوارثونها كابرا عن كابر وجـاء الإسلام فوصل لهم ذلك وكـان كل شرف من شرف الجاهليـة أدركه الإسلام فوصله فكانت سـقاية الحاج وعمارة المسجـد الحرام وحلو ان النفر في بني هاشم فأمـا السقـاية فمعـروفة وأمـا العمارة فـهو الا يتكلم أحـد في المسجـد الحرام بهجر ولا رفث ولا يرفع فيه صوته وكان العباس ينهاهم عن ذلك وأما حلوان النفر فإنهـا لم تكن تملك علهيـا في الجاهـليـة أحدا فــان كــان حرب أقـرعوا بين أهل الرياسة فـمن خرجت عليـه القرعـة أحضروه صـغيـرا كان أو كبـيرا فلمـا كان يوم

الفجـار أقـرعـوا بين بني هاشم فخـرج سـهم العباس وهو صـغير فـأجلسوه على المجن) [1] .

١٠ ـ لكن الإسلام عندما قامت دولته الكبري ودانت له جزيرة العرب ألغى هذه المآثر جميعا الا مآثرتين فقط هما سقاية الحجيج وبقيت في بني هاشم وحجابة البيت وبقيت في بني عبد الدار .

فقد خطب رسول الله ﷺ في فتح مكة في أول يوم من أيامهـا فقال :(ألا إن كل ربا في الجاهلية أو دم أو مال ، ؟ أو مأثُرةٍ ، فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج) [2] .

وعندما سلم مفتاح الكعبة لعثمان بن طلحة سيد بني عبد الدار قال له :

خذوها يا بني طلحة تالدة خالدة لا ينزعـها منكم إلا ظالم يا عثمان إن الله استأمنكم على بيته فكلوا بالمعروف)[3] .

وبقيت السقـاية لبني هاشم حيث طمعوا أن تجمع لهم المآثرتان (فلما تناوله (أي مفتاح الكعبة) قال العباس : يا رسـول الله اجمع لنا السقاية مع الحجابة فقال ﷺ : أعطيكم ماتُرزأون[4] فيه ولا أعطيكم ما ترزأون به .

---

(١) بلوغ الأرب في معرفة علوم العرب للألوسي / ٢٤٩ ـ ٢٥٠ .

(٢) امتاع الاسماع للمقريزي فتح مكة / ٣٨٩ .

(٣) المصدر نفسه / ٣٨٨ .

(٤) رُزى : أصيب في ماله .

(٥) رزأه : أصابه منه خيرا .

(٦) المصدر نفسه / ٣٨٥ وقد روى الطبراني مرسلا الحادثتين ورجالهما رجال الصحيح كما في مجمع الزوائد ٧ / ١٧٧ .

العاص بن وائل السهمي

(هو العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم ، وأمه سلمى البلوية من بلي من قضاعة ، وأخوه لأمه عبد القيس بن لقيط من بني الحارث بن فهر . وكان العاص بن وائل من أشراف قريش) .

وكان أول بروز زعامته وسيادته في الجاهلية فيما تسعفنا به المصادر يوم حرب الفجار ، إذ قاد قومه بني سهم وذلك قبل البعثة بعشرين سنة [١] .

(قالوا : ثم إن قريشا وبني كنانة لقوا هوازن بشمطة ، وعلى بني هاشم الزبير بن عبد المطلب ، وعلى بني عبد شمس وأحلافها حرب بن أمية ، وعلى بني عبد الدار وحلفائها عكرمة بن هاشم وعلى بني أسد بن عبد العزى خويلد بن أسد، وعلى بني زهرة مخرمة بن نوفل وعلى بني تيم ابن جدعان وعلى بني مخزوم هشام بن المغيرة وعلى بني سهم العاص بن وائل ، وعلى بني جمح أمية بن خلف ، وعلى بني عدي زيد بن عمرو بن نفيل وعلى بني عامر بن لؤي عمرو بن عبد شمس (أبو سهيل بن عمرو) وعلى بني فهر (عبد الله بن الجراح) (أبو أبي عبيدة) وعلى بني بكر بلعاء بن قيس وعلى الأحابيش الحليس الكناني فالتقوا فكانت أول النهار على هوازن فصيروا ثم استحر القتل في قريش وانهزم الناس فقال خداش :

فأبلغ إن عرضت لهم هشاماً وعبد الله أبلغ والوليدا

يأنا يوم شمطة قد أقمنا عمود المجد إن له عمودا)[٢]

---

(١) نسب قريش ١ / ٤٠٨ .

(٢) نقل البلاذري عن الواقدي في أنساب الأشراف قوله : مات العاص بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم الى المدينة بأشهر وهو ابن خمس وثمانين سنة ، وكان يكنى أبو عمرو) ١ / ١٣٩ . وعلى هذا يكون عمره عندما قاد قومه في حرب الفجار في الثانية والخمسين من عمره وفي البعثة النبوية كان عمره اثنتين وسبعين سنة فقد كان من مشيخة قريش ومن الملأ الذين واجهوا الدعو التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن أربعين سنة ، أنساب الأشراف للبلاذري ١ / ١٠٢ .

وبمتابعة هؤلاء القادة الإثني عشر من قريش نجد أن ثلاثة منهم فقط هم الذين بقوا أحياء ، وعاصروا الدعوة الإسلامية ، وواجهوها وهم العاص بن وائل ، وأمية بن خلف الجمحي ، ومخرمة بن نوفل الزهري . وإذا كان بنو زهرة حلفاء بني هاشم . فقد برز العاص وأمية فقط من بقايا الجبل القديم على رأس المحاربين لدعوة الإسلام التي انطلقت من خصومهم بني هاشم .

وحين نذكر أن التنافس كان بين الحزبين الرئيسيين في مكة ، على رأس الحزب الأول بنو هاشم وعلى رأس الحزب الثاني بنو سهم وبنو مخزوم . نجد أن التنافس خاصة والتوتر السديد كان بين هذين البطنين ، بطن بني هاشم ، وبطن بني سهم . وعندما تعبا الحزبان للمواجهة في مكة فعبيت بنوعبد مناف لبني سهم وإذا كان العاص هو سيد بني سهم فهذا يعني أنه يرى نفسه وبشكل عفوي على رأس قومه في حرب هذا الدين ورفضه ، وهو الذي يجعل السيادة لبني هاشم وفتاها محمد ﷺ على الخلق كافة لا على قريش خاصة فهو إذن من أول المحاربين لهذا الدين .

والحرب التي يقودها العاص بن وائل السهمي هي حرب شاملة لم تتحول إلى حرب في السلاح إلا بعد خمسة عشر عاما من البعثة . لكنها كانت حربا في الكلمة وحربا في السياسة ، وحربا في العقيدة ، وحربا في القبيلة ، وكان العاص بن وائل محاربا في كل الجبهات .

كان يشاركه في زعامة بني سهم نبيه ومنبه ابنا الحجاج بن عامر بن حذيفة بن سهم ، وزعيم ثالث كان في مثل سنه تقريبا هو الحارث بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم ، والذي كان ابن سيد قريش كلها قيس بن عدي ، والذي سبق أن ذكرناه ، وذكرنا قول الشاعر فيه

كأنه في العز قيس بن عدي　　　في بيت قيس ينتدي أهل الندى

ويمكن أن نعتبر العاص بن وائل والحارث بن قيس بن عدي السهميان في الطبقة الأولى من الزعامة لسنهما وشرفهما ، فقد ذكرا بين المستهزئين الذين كانوا بضعة أفراد في مكة ، ويليهما في الزعامة نبيه ومنبه ابنا الحجاج السهيمان . ولهذا كانا على رأس وفود المفاوضة مع أبي طالب .

الوفد الأول :

وحيث أن الحكمة تظهر في الشيوخ ، وهم الذين يقون قومهم شر الفتنة كان أول وفد يتحرك لمحاولة رأب الصدع في قريش . ومحاولة تطويق الفتنة ، يتألف من عشرة من هؤلاء ا لشيوخ ، وأحد هؤلاء الشيوخ العاص بن وائل السهمي ، وذلك منذ الخطوات الأولى للدعوة . ومن طرف آخر هم أسرع الذين تنبهوا إلى خطر الإسلام القادم الذي يحتاج زعامتهم إلى الأبد .

قال ابن إسحاق : (فلما بادى رسول الله ﷺ قومه بالاسلام ، وصدع به كما أمره الله تعالى ، لم يبعد عنه قومه ولم يردوا عليه فيما بلغني حتى ذكر آلهتهم وعابها ، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه وأجمعوا خلافه وعدوانه إلا من عصم اله تعالى بالإسلام ، وهم قليل مستخفون ، وحدب على رسول الله ﷺ عمه أبو طالب وقام دونه ، ومضى رسول الله على أمر الله مظهرا لأمره لا يرده عنه شيء .. مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب عتبة وشيبة ابنا ربيعة ابن عبد شمس .. وأبو سفيان بن حرب وأبو البختري واسمه العاص بن هشام بن الحارث بن أسد ، والأسود بن المطلب بن أسد ... وأبوجهل بن هشام بن مخزوم ، والوليد ابن المغيرة بن مخزوم ونبيه ومنبه ابنا الحجاج السهيمان والعاص بن وائل ، فقالوا : يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا ، وسفّه أحلامنا ، وضلّل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا ، وإما أن نخلي بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافة فسنكفيكه ، فقال لهم أبو طالب قولا رقيقا وردهم ردا جميلا

فانصرفوا عنه)[1] .

ونظرة إلى تركيب هذا الوفد نلاحظ أن نصفه الأول ، وهم الخمسة الأوائل فيه هم من حلفاء بني هاشم من بني عبد مناف وبني أسد بن قصي ، أما نصفه الثاني وهم الخمسة الآخرون فهم من خصوم بني هاشم ، وبالذات من أعدى العدو بني مخزوم وبني سهم .

والذي جمع بين هذين الفريقين هو العقيدة من جهة ، والخوف على مصالحهم من جهة ثانية . إذ أن رسول الله ﷺ ذم الآلهة وعاب الدين وسفه الأحلام وكأنه طعن شخصي بهم فهم أولو الأحلام والنهى في مكة وهم سادة قريش .

الوفد الثاني : (ثم إنهم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى ، فقالوا له : يا أبا طالب إن لك منزلة وسنا وشرفا فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم أبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين)[2] .

وها هي مكة تتعرض لتحالف جديد وانقسام أخطر لا مثيل له من قبل .

الفريق الأول : بنو هاشم وبنو المطلب ، ومحمد بن عبد الله والذين معه من فتيان قريش .

الفريق الثاني : مكة كلها بحلفيها الأحلاف والمطيبين .

وكان هذا الانقسام بسبب العقيدة . فبالرغم من أن بني هاشم وبني المطلب لم يتابعوا محمدا علي دينه لكنهم لم يتخلوا عن زعامته لهم ، وأعلنوا على لسان أبي طالب :

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ١٧٦ .

(٢) المصدرنفسه / ١٧٦ .

ذا اجتمعت يوما قريش لمفخر فعبد مناف سرها وصميمها
وإن حصلت أشراف عبد منافها ففي هاشم أشرافها وقديمها
وإن فخرت يوماً فإن محمدا هو المصطفى من سرها وكريمها
تداعت قريش غثها ، وثمينها علينا فلم تظفر وطاشت حلومها
وكنا قديما لا نقر ظلامه إذ ماثنوا صعر الخدود تقيمها
ونحمي حماها كل يوم كريهة ونضرب عن أحجارها من يرومها
بنا انتعش العود الذواء[1] وإنما بأكنافنا تندى وتنمى أرومها)

وتجاوز الأمر الفخر إلى التهديد بالحرب فكان جواب الحزب ا لهاشمي قصيدة من أوابد الشعر قالها أبو طالب معلنا موقفه وحمايته لمحمد سيد قومه فكان مما قاله :

كذبتم وبيت الله نترك مكة ونظعن إلا أمركم في بلابل[2]
كذبتم وبيت الله نُبزي[3] محمدا ولما نطاعن دونه ونناضل
و نسلمه حتى نصرع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل[4]
وينهض قوم في الحديد إليكم نهوض الروايا[5] تحت ذات الصلائل[6][7]

---

(١) الذواء اليابس .

(٢) بلابل

(٣) نبزى : نُسلبُه وتغْلبُ عليه .

(٤) الحديد :السلاح .

(٥) الروايا : الإبل .

(٦) ذات الصلاصل : المزادات التي فيها بقايا الماء .

(٧) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ١٧٨ - ١٧٩ .

الوفد الثالث :

وكان هذا آخر محاولة للتفاهم بين الفريقين

قال ابن اسحاق : ثم إن الإسلام جعل يفشو بمكة في قبائل قريش من الرجال والنساء ، وقريش تحبس من قدرت على حبسه ، وتفتن من استطاعت فتنته من المسلمين ثم إن أشراف قريش من كل قبيلة كما حدثني بعض أهل العلم عن سعيد بن جبير وعكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهما قال :

واجتمع عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب ، والنضر بن الحارث أخو بني عبد الدار وأبو البختري بن هشام ، والأسود بن المطلب بن أسه وزمعة بن الأسود والوليد بن المغيرة ، وأبو جهل بن هشام ، وعبد الله بن أبي أمية والعاص بن وائل ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج السهميان ، وأمية بن خلف أو من اجتمع منهم . قال : اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ثم قال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه فبعثوا إليه : إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك ، فأتهم ، فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً، وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بداء [1] وكان عليهم حريصا يحب رشدهم ، ويعز عليه عنتهم حتى جلس إليهم ، فقالوا له : يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنكلمك وإنا والله لا نعلم رجلا من العرب ، أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء ،وعبت الدين ، وشتمت الآلهة ، وسفهت الأحلام ، وفرقت الجماعة فما بقي أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك ، ـ أو

---

(١) بدا لهم من أمرهم بداء : أي رأوا رأياً جديداً فأعادوا البدء فيه .

كما قـالوا له ـ فإن كنت جئت بهـذا الحديث تطلب مـالاً جمعنا لـك من أموالنا حتى تكون أكـثر مالا، وإن كنت إنمـا تطلب به الشرف فينا ، فنحـن نسوّدك علينا وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه قد غلب عليك وكانوا يسمون التابع من الجن رئيـا ـ فربما كان ذلك بذلنالك من أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه أونعذر فيك ، فقال لهم رسول الله ﷺ :

ما بي ما تقـولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أمـوالكم ولا الشرف فيكم، ولا الملك علكيم ولكن الله بعثني إليكم رسولا وأنزل علي كتابا ، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا فـبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فإن تقبلوا منـي ما جئتكم به ، فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم بيني وبينكم ـ أو كما قال ﷺ ـ قالوا : يا محمد فإن كنت غير قابل منا شيئا مما عرضناه عليك . فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلدا ولا أقل مالا ، ولا أشد عـيشـا منا ، فـسل لناربك الذي بعـثك بما بعـثك به فليـسير عنا هذه الجبـال التي ضيـقت علينا ، وليبـسط لنا بلادنا وليخـرق لنا فيـها أنهارا كـأنهار الشـام والعراق وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، وليكن فيمن يبعث لنامنهم قصبي بن كلاب ، فإنه كان شيخ صدق فنسألهم عما تقول : أحق هو أم باطل . فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صـدقناك ، وعرفنا به منزلتك عـند الله وأنه بعثك رسولا كـما تقـول فقـال لهم :

مـا بهـذا ابعثت إليـكم وانما جئـتكم من الله بمـا بعثني بـه ، وقد بلّغـتكم مـا أرسلت به إليكم فـإن تقبلوه مني فـهو حظكم في الدنيـا والآخرة ، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم .

قالوا : فإن لم تفعل لنا هذا فخذ لنفسك ، سل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك ، وسله فليجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضه يغنيك بها عما نراك تبتغي فانك تقوم بالأسواق كما نقوم وتلتمس المعاش كما نلتمسه حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم .

فقال لهم رسول الله ﷺ : ما أنا بفاعل ، ولست بالذي يسأل ربه هذا ، وما بعثت إليكم بهذا . ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا - أو كما قال - فإن تقبلوا ما جئتكم به فهوحظكم في الدنياوالآخرة ، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم .

قالوا : فأسقط السماء علينا كسفا كما زعمت أن ربك إن شاء فعل فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل .

قال : فقال رسول الله ﷺ : ذلك إلى الله إن شاء أن يفعله بكم فعل .

قالوا : يا محمد : أفما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ، ونطلب منك ما نطلب فيتقدم إليك فيعلمك ما تراجعنا به ، ويخبرك ما هو صانع بنا في ذلك . إذ لم نقبل عنك ما جئنا به ؟

إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له الرحمن وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبدا فقد أعذرنا إليك يا محمد. وإنا والله لا نتركك وبما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا ، وقال قائلهم : نحن نعبد الملائكة وهي بنات الله ، وقال

قائلهم : لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلا)[1].

وهذا أقصى ما تفتقت عنه عبقرية قريش من خلال الحوار مع رسول الله ﷺ واعتبرت هذااللقاء إنهاء لمرحلة الحوار ، وابتداء المرحلة الحرب .

صحيح أن العاص بن وائل لمَ يظهر من خلال هذا الحوار بشيء يخصه لكننا نتابع مع تطور موقفه من خلال تنسيقه مع زعماء مكة ، وإصرارهم على موقف موحد من رسول الله ﷺ ، وهو رفض الإيمان به وبرسالاته ، وجرب أتباعه وإن كان هؤلاء ا لزعماء جميعا قد طُعنوا في شرفهم فما من بيت من بيوت مكة إلا واستجاب أحد أفراده لمحمد وانضم معه .

وهذا العاص بن وائل يُطعن في شرفه فيخرج ولده ا لثاني - هشام بن العاص على رأيه وينضم لحزب رسول الله ﷺ متحديا أباه وبني سهم جمعيا وراءه وهو بهذا السن الكبيرة عاجز عن أن يفعل شيئا مع ابنه هشام لكنه مطمئن إلى أن ابنه الأكبر عمرو بن العاص والذي أصبح من شخصيات مكة المرموقة لا يزال على دينه .

لكن الخطب الكبير كان عند نده الثاني الحارث بن قيس بن عدي السهمي الذي حمل لواء الحرب للإسلام بينما انضم معظم بنيه لهذا الدين الجديد .

وهو الذي عبد هواه حتى نزل فيه قوله تعالى بذلك فقد (كان كلما رأى حجرا أحسن من الذي عنده أخذه وألقى ماعنده ، وفيه نزلت : ﴿ أفرأيت من

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام / ١٩٤ - ٩٦ وبغض النظر عن سند هذه الرواية فقد أثبت القرآن مضمون هذااللقاء كاملا بقوله تعالى : ﴿ قالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالهاتفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا. أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى في السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا ﴾ الإسراء ٩٠ - ٩٣ .

اتخـــذ إله هواه ....) [1] وهو ابن الغـيطلة)[2] والذي بلغ قـمـة الضـلالة ها هم أولاده ينضمون للإسلام وأولاد أخيه كذلك ، ويهاجرون إلى ا لحبشة فرارا بدينهم من الفتن وهم :

(١ ـ خنيس بن حذافة بن قيس بن عدي .

٢ ـ قيس بن حذافة بن قيس بن عدي .

٣ ـ عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي .

وهؤلاء هم بنو أخيه حذافة أما أولاده فهم :

٤ ـ عبد الله بن الحارث بن قيس بن عدي .

٥ ـ أب قيس بن الحارث بن قيس بن عدي .

٦ ـ الحارث بن الحارث بن قيس بن عدي .

٧ ـ معمر بن الحارث بن قيس بن عدي .

٨ ـ بشر بن الحارث بن قيس بن عدي .

٩ ـ سعيد بن الحارث بن قيس بن عدي .

١٠ ـ السائب بن الحارث بن قيس بن عدي .

فإذا انضم إلى هؤلاء أربعة آخرون هم هشـام بن العاص بن وائل ، وعمير بن رئاب بن حذيفة بن مهشم بن سعيد بن سهم ومحمية بن الجزء حليف لهم وسعيد بن عمـرو أخو بشر بن الحارث بن قـيس لأمه)[3]كان من انضـم الى الاسلام من

---

(١) سورة الجـاثية / ٢٣ وتتـمتـها (أفـرأيت من اتخذ اله هواه وأضله الله على علم وختم على سـمعه وقـلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون .

(٢) أنساب الأشراف للبلاذري ١ / ١٢٤ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ١ /٢١٩ .

بني سهم يكاد يفوق القبائل جميعا وكانت هذه القضية تؤرق العاص بن وائل وتجعله يراوح بين الاستجابة لحقده على الإسلام والحرب بكل طاقاته وبين الخوف على هولاء جميعاً وقد فروا إلى الحبشة وصاروا وصمة عار له ولقومه أمام مشيخة قريش .

ومن أجل هذا نستطيع أن نعلل مواقفه كلها من الإسلام ، فقد كانت نزعة الاستعلاء والطغيان والشرف تحكمه بحيث لا ينازعه أحد فيها ، ونزعة كسر ظهره بهؤلاء الذين أسلموا من قومه . فلم يأخذ جانب الحرب الشرسة التي أخذها أبو جهل بن هشام وأبو لهب وابن معيط وابن خلف ، ولم يرض لنفسه كذلك أن لا يكون سيدا بين هؤلاء يسبقونه بموقف ، أو يقطعون دونه برأي وهكذا نمضي معه في تحليل هذه المواقف .

العاص وخباب بن الأرت :

وليس العاص بمضطر أن يراعي خباب بن الأرت . فليس ذا وزن في نسبه وعشيرته ، وطبيعة العاص هي طبيعة الطغيان على الضعفاء ، وقدر رأيناه كيف رفض أن يعطي الزبيدي حقه ، وقام حلف الفضول ضده ، وأرغمه على إعطائه ذلك الحق . فإذا كان خباب فوق أنه قين يعمل السيوف بمكة هو مسلم من أتباع محمد كانت الفرصة مواتية له ليستجبر ويستكبر ويستعلي على خباب ، فيسلبه حقه .

قال ابن إسحاق : كان خباب بن الأرت صاحب رسول الله ﷺ قينا يعمل السيوف بمكة وكان قد باع من العاص بن وائل سيوفاً عملها له حتى كان عليه مال ، فجاءه يتقاضاه فقال له : يا خباب أليس يزعم محمد صاحبكم هذا الذي أنت على دينه أن في الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب ، أو وفضة أو ثياب ، أو خدم ؟

قال : بلى . قال : فأنظروني إلى يوم القيامة يا خباب حتى أرجع إلى تلك الدار ، فأقضيك هنالك حقك ، فوالله لا تكون أنت وأصحابك يا خباب آثر عند الله مني ، ولا أعظم حظاً في ذلك . فأنزل الله تعالى فيه : ﴿ أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا ، ؟أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا ، ونرثه ما يقول ويأتينا فردا ﴾[1] .

لقد انكشفت نفسية العاص بن وائل ها هنا عارية ، فليس مضطرا لمحاباة هذا المستضعف أومجاملته فراح يتحدى الله ورسوله ويرى نفسه أفضل من رسول الله لجاهه ونسبه وزعامته فجاء القرآن الكريم يقصم هذا الاستعلاء عنده ويلقي تهديد رب العالمين له بالعذاب الأليم .

مع وفد الحلول الوسط :

بينما نراه يتصنع الحكمة والتعقل يوم يشترك في وفد رباعي حين يعرض على رسول الله ﷺ حلا ينهي أزمة مكة ويقضي على الصراع فيها ، ويفوز هو بقصب السبق إن تم حل القضية على يديه .

(واعترض رسول الله وهو يطوف بالكعبة ـ فيما بلغني ـ كما يقول ابن هشام الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى ، والوليد بن المغيرة ، وأمية بن خلف ، والعاص بن وائل السهمي ، وكانوا ذوي أسنان في قومهم فقالوا :

يا محمد ، هَلُمَّ فلنعبد ما تعبد ، ونَعبُد ما تعبد ، فنشترك نحن وأنت في الأمر فإن كان الذي تعبد خيرا مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٢٣٩ ، والآيات من سورة مريم / ٧٧ ـ ٨٠ .

فأنزل الله تعالى فيهم ﴿ **قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم ولي دين** ﴾ (١) أي إن كنتم لا تعبدون الله إلا أن أعبد ماً تعبدون ، فلا حاجة لي بذلك منكم ، ولكم دينكم جميعا ولي ديني .

لقد فشلت مهمة الحلول الوسط فهذا دين الله وليس هوى العبيد وأدرك العاص بن وائل في أعماقه أنه في حربه لمحمد بن عبد الله لا ترتبط القضية بأمر بين بني هاشم وبني سهم : مقدار ما هي حرب لرب السماوات والأرض وهو يدرك أن محمدا لا يكذب قط ، ويدرك أنه لا يتقول من عنده. لكن هل تطاوعه نفسه وهو ابن السبعينات من عمره أن يتبع فتى بني هاشم وهو في الأربعينات من عمره، وتنتقل سيادة بني سهم وسيادة قريش كلها له ، وهو يرى الذين يسلمون كيف يفقدون مواقعهم واحترام الملأ من قريش لهم فهل يخرج على هؤلاء الملأ ؟!

وساءه كذلك أن تفشل مهمة ابنه عمرو في الحبشة ويخفق في إقناع النجاشي بتسليم المسلمين فازداد حقدا على حقد لكنه يحرص على أن يبقى محافظاً على حلمه أمام قومه .

نزول سورة الكوثر :

وكان يحرص كذلك على أن يهون من شأن محمد حتى صار سمة خاصة به قال ابن إسحاق : وكان العاص بن وائل السهمي - فيما بلغني - إذا ذكر رسول الله ﷺ قال : دعوة فإنما هو رجل أبتر لا عقب له ، لو مات لانقطع ذكره واسترحتم منه فأنزل الله تعالى في ذلك : ﴿ **إنا أعطيناك الكوثر ، فصل لربك وانحر ، إن شانئك هو الأبتر** ﴾(٢) ما هو خير لك من الدنيا وما فيها والكوثر : العظيم (٣) .

---

(١) سورة الكافرون .

(٢) سورة الكوثر .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٢٦٣ .

وهي أحلامه الدفينة في الحقيقة فلن يرى الاستقرار والهناء إلا بموت محمد ﷺ ويحاول أن يعوِّض على انهيار أمره وارتفاع أمر محمد بإظهار التهوين من أمره ، والتقليل من شأنه بحجة أن لا عقب له ، وهو يعلم أن ابنه هشام الذي هو من عقبه من اتباع محمد . وتزداد ضراوة الحقد عنده حين يأتي هجاؤه من رب العالمين ويصبح على كل لسان . إن شانئك هو الأبتر فمبغضك هو المقطوع ويعلم العاص أن رأسماله هو عمرو فقط فلو انضم عمرو إلى الإسلام لأصبح مقطوعا منبوذا لا عقب له . ويدرك في أعماقه صدق محمد ، فكأنما ينظر إلى هذا الأمر رأي العين أنه هو الأبتر المقطوع في المستقبل طالما أن محمدا قال ذلك . فلا بد من أن يمعن في المواجهة ويزداد لجاجاً في كفره .

لولا نزل عليه ملك .

قال ابن اسحاق : ودعا رسول الله قومه إلى الإسلام فأبلغ إليهم فقال له زمعة بن الأسود والنضر بن الحارث والأسود بن عبد يغوث ، وأبي بن خلف ، والعاص بن وائل لو جُعِلَ معك يا محمد ملك يحدث عنك الناس ويُرَى معك فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم : ﴿ **وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون** (١) ﴾(٢) .

إجار ةعمر على الإسلام :

وهنا نجد العاص بن وائل يختلف في موقفه مع قومه جميعاً إزاء إسلام عمر ابن الخطاب . فقد وقفت قريش كلها ضده إلا العاص بن وائل . وذلك كما في روايتي البخاري .

---

(١) سورة الأنعام / الآيتان ٨ - ٩ .

(٢) حبرة : ثوب يماني من قطن أو كتان مخطط .

الأولى : (عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن أبيه قال بينما هو في الدار خائفاً إذ جاءه العاص بن وائل السهمي (أبو عمرو) وعليه حلة حبرة وقميص مكفوف بحرير وهو من بني سهم وهم حلفاؤنا في الجاهلية فقال له : ما بالك . قال : زعم قومك أنهم سيقتلونني أن أسلمت قال : لا سبيل إليك بعد أن قالها أمنت .

فخرج العاص فلقي الناس قد سال بهم الوادي . فقال : أين تريدون ؟ قالوا : نريد هذا ابن الخطاب الذي صبا . قال : لا سبيل إليه ، فكرَّ الناس)(١) .

الثانية : وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : لما أسلم عمر اجتمع الناس عند داره وقالوا صبا عمر وأنا غلام فوق ظهر بيتي فجاء رجل عليه قباء من ديباج فقال : قد صبا عمر فما ذاك ، فأنا له جار . قال فرأيت الناس تصدعوا عنه . قلت: من هذا الرجل ؟ قال : العاص بن وائل)(٢) .

أما رواية السيرة عن ابن عمر كما ساقها ابن إسحاق قال :

لما أسلم عمر قال : أي قريش أنقل للحديث ؟ فقيل له : جميل بن معمر الجمحي . قال : فغدا عليه . قال عبد الله بن عمر فغدوت أتبع أثره وأنظر ما يفعل وأنا غلام أعقل كل ما رأيت حتى جاءه فقال له : أعلمت يا جميل أني أسلمت ، ودخلت في دين محمد ؟ قال : فوالله ما راجعه حتى قام بجر رداءه واتبعه عمر واتبعت أبي حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته يا معشر قريش ، وهم في أنديتهم حول الكعبة : ألا إن ابن الخطاب قد صبأ . قال : يقول عمر من خلفه : كذب ولكني قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده

---

(١) ، (٢) البخاري / ٤ / ٢٤٢ ، باب إسلام عمر بن الخطاب .

ورسوله . وثاروا إليه ، فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم ، وطلح فقعد وقاموا على رأسه وهو يقول : افعلوا ما بدا لكم ، فأحلف بالله لو كنا ثلاثمائة رجل لقد تركنا هالكم أو تركتموها لناد ، قال فبينما هم على ذلك إذ أقبل شيخ من قريش عليه حلة حبرة وقميص موشى ، حتى وقف عليهم ، فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : صبأ عمر فقال : فمه رجل اخار لنفسه أمرا فما ذا تريدون ؟ أترون بني عدي بن كعب يسلمون لكم صاحبكم هكذا كفوا عن الرجل . قال : فوالهل لكأنما كانوا ثوبا كشط عنه قال : فقلت لأبي بعد أن هاجر إلى المدينة يا أبه من الرجل الذي زجر القوم عنك بمكة يوم أسلمت وهم يقاتلونك ؟ فقال : ذاله ، أي بني ، العاص بن وائل السهمي .

قال ابن هشام ، وحدثني بعض أهل العلم أنه قال : يا أبه من الرجل الذي زجر القوم عنك يوم أسلمت وهم يقاتلونك جزاه الله خيرا . قال : يا بني ، ذاك العاص بن وائل لا جزاه الله خيرا)[1] .

لقد برز شرف العاص بن وائل وعظيم مركزه في هذه الإجارة التي واجه بها قريشا كلها لعمر بن الخطاب وهي مثل إجارة أبي طالب لمحمد بن عبد الله ولا يمكن للعاصي أن يفوّت هذا المجد . إذ أن بني عدي حلفاء بني سهم وعمر سيد بني عدي ولا بد من حمايته حتى ولو أسلم ليعرف مدى مراعاة قريش لجيرته واحترامها لأمره . فكان أن تراجعت قريش كلها مراعاة لجواره ، وحفظا لعهده أن يضام ولكنه في أعماقه يتمزق غيظا من عمر الذي اختار طريق الإسلام فهدم ركن

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١٣ / ٢٢٣ ، وللجمع بين الروايات إذ أنها كلها صحيحة . نقدر أن القتال الذي جرى في اليوم الأول وحسم من العاص دون أن يعلن اجارته وحتى لاتتم مواجهة مع بني عدي وفي اليوم الثاني عندما بيت أهل مكة قتل عمر لإسلامه جاء العاص فصرفهم جميعا بإعلان اجارته .

مكة وركن الملأ من قريش إذ كان من أشد السيوف ضد محمد بن عبد الله ، ومن أعدى العدو له وها هو اليوم يصبح سيفا على قومه وعشيرته من أجله .

لقد أجار العاص بن وائل مسلما آخر لكن هذه الإجارة لم تكن ذات خطر أو أثر وهذا المسلم هو من حلفاء بني عدي وليس من بني عدي أنفسهم وهو عامر بن ربيعة العنزي حليف الخطاب بن نفيل أبي عمر[1] والذي قدم من الحبشة مع بعض إخوانه بعد سماعه بإسلام قريش .

وحتى ندرك مدى ا لفرق بين الإجارتين يكفي أن نذكر رأي عامر بن ربيعة هذا في عمر كما روى ابنه عبد العزيز عن أمه أم عبد الله بنت أبي حثمة قالت :

والله إنا لنترحل إلى أرض الحبشة ، وقد ذهب عامر في بعض حاجاتنا أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف علي - وهو على شركه - قالت وكنا نلقى منه البلاء أذىً لنا وشدة علينا قالت ، قال : إنه الانطلاق يا أم عبد الله ؟ فقلت : نعم والله لنخرجن في أرض الله ، آذيتمونا وقهرتمونا ، حتى يجعل الله لنا فرجا فقال : صحبكم الله ورأيت له رقة لم أكن أراها ثم انصرف وقد أحزنه - فيما أرى - خروجنا . قالت فجاء عامر لحاجته تلك ، فقلت له : يا أبا عبد الله لو رأيت عمر آنفا ورقته وحزنه علينا . قال : أطمعت في إسلامه ؟ قلت : نعم . قال :

فلا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب - قالت : يأسا منه لما كان يرى من غلظته وقسوته عن الإسلام)[2].

فإسلام عمر قلب الموازين في مكة ، وخلط الأوراق ، وحقق نصراً للإسلام يتحدث عنه ابن مسعود فيقول :

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري ١ / ٢٢٨ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٢٢٩ .

إن إسلام عمر كان فتحاً وإن هجـرته كانت نصراً ، وإن إمارته كانت رحمة ولقد كنا وما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عـمر فلما أسلم قاتل قريشا حتى صلى عند الكعبة ، وصلينا معه)[1] .

ترى مـا هو شعـور العاص بن وائل عنـدما كـان يرى أتباع مـحمـد كل يوم يصلون عند الكعبة هل يعض أصابعه ندماً ، ويتمنى لو أنه لم يجر عمر بن الخطاب ،وترك قومـه يقلتونه وانتهى أمـر محمد إلى زوال ؟ أم أن ذلك المجـد الذي رآه وقد كشط الناس عنه كما يكشف الثوب هو أحلى عنده ولو ارتفع أمر محمد وصحبه في مكة وزحزح عز قريش وجاهها .

الغـالب عـلى الظن وهو في هذا السن أنـه لم يندم ، فـالزعـامــة عنده فـوق العقيدة . والمصـلحة عنده فوق الإيمان والكفر ولو عاد إلى العقـيدة التي ينافح عنها لرأي أنه إنما يعبـد حجـرا لا يضر ولا ينفع وذلك نده الحارث بـن قيس الذي يرمي إلها ويختار إلها كل مرة حين يعجبه الحجر فيعبده ، ثم يعجبه غيره فيرميه .

ومن هذا الجانـب لا نستبـعد أن يكون العـاص بن وائل قد حـدثته نفـسه أن يدخل هذا الدين لكن المصير الذي حل بسيـد بني عدي عمر بن الخطاب الذي لم يكن أقل جاها ولا نفوذا منه حين سال الوادي بقريش يريدون قتله يرعبه ويمنعه من هذه المغامرة . فـمهما كان عـزه ومهما كان شـرفه لن يحميه مـن ثورة قريش عليه وقتله لو اقتضى الأمر . فلم هذه المغامرة ؟!

إنه حين يوازن بين العـقـيدة والمصلـحة تغلب المـصلحة عنده ، فـلييق الآمـر الناهي ، صاحب الكلمة النافذة الذي يجيـر ولا يجار ، ولييق يضحك على نفسه

---

(١) المصدر نفسه / ٢٢٩ .

من أن محمدا أبتر وأمره إلى زوال إذ لا عقب له ويرى بأم عينيه انتشار أمر محمد. وهذا ابنه هشـام الذي عاد من الحبشة وحبسـه في مكة لم يستطع في كـل جاهه ونفوذه وسطـوته وهو بين يديه أن يغيـر عقيـدته ولا يهدئ من غـضبه إلا بـقاء ابنه عمرو على دينه .

النهاية الخاسرة :

ويدلف العاص بن وائل إلى ما فوق الثمانين . ويبقى مع القلة من الأكابر في مكة ماضيا في حـرب محمد ، وماضيا في الاستهـزاء بدين الله وجاء دور الانتقام الإلهي منه في الدنيا قبل الآخرة .

قال ابن إسحاق : فـأقام رسول الله ﷺ على أمر الله تعالى صابرا مـحتسبا مؤديا إلـى قومه النصـيحـة على ما يلقى منهـم من التكذيب والأذى والاستـهزاء . وكان عظماء المستهزئين كما حدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير خمسة نفر من قومه وكانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم .

١ ـ من بني أسـد بن عبـد العُزى بن قـصي الأسود بن المطلب بن أسـد أبو زُمـعة ، وكان رسول الله ﷺ قد دعا عليه لما كان يبلغـه من أذاه واستهزائه به فقال : « اللهم أعم بصره وأثكله ولده » .

٢ ـ ومن بني زهرة بن كلاب : الأسود بن عبد يغوث بن ... زهرة.

٣ ـ ومن بني مخزوم بن يقظة : الوليد بن المغيرة بن عبد الله .. بن مخزوم .

٤ ـ ومن بني سهم بن عمرو ... العاص بن وائل بن هشام .

قال ابن هشام : العاص بن وائل بن هشام بن سعيد بن سهم .

٥ ـ ومن بني خزاعة : الحارث بن الطلاطلة بن ... لؤي بن ملكان .

فلما تمادوا في الشر وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء أنزل الله تعالى عليه **﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين . إنا كفيناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون ﴾**(1) .

قال ابن إسحاق : فحدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير أوغيره من العلماء .

أن جبريل أتى رسول الله ﷺ وهم يطوفون بالبيت ، فقال وقام رسول الله ﷺ إلى جنبه فمرَّ به الأسود بن المطلب فرمى في وجهه بورقة خضراء فعمي (2) ومرَّ به الأسود بن عبد يغوث ، فأشار إلى بطنه فاستسقى بطنه فمات منه حبنا(3) ومرَّ به الوليد بن المغيرة فأشار إلى جرح بأسفل كعب رجله ، كان أصابه قبل ذلك بسنين وهو يجر سبلة (4) ومر به العاص بن وائل فأشار إلى أخمص رجله ، فخرج على حمار له يريد الطائف فربض به على شبرقة(5) فدخلت في أخمص رجله شوكة فقتلته ، ومرَّ به الحارث بن الطلاطلة فأشار إلى رأسه فامتحض قبحا فقتله)(6) .

لقد كان هؤلاء الخمسة هم أكبر قريش سنا وأعلم الناس بصدق محمد منذ نبت صغيرا بين ظهرانيهم ولكنهم آثروا الزعامة على الدين وكما فعل ابليس حين

---

(1) سورة الحجر / ٩٤ - ٩٦ .

(2) وقد عاش بعد بدر وثكل ثلاثة من ولده استجابة لدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم واحترق جوفه وكف عن البكاء عليهم وله الشعر المشهور : أتبكي أن يضل لها بعير ويمنعها من النوم السهود .

(3) حبنا داء في البطن يعظم البطن منه ويرم .

(4) السبل : الثياب .

(5) شبرقة : جنس من الشوى .

(6) السيرة النبوية لابن هشام ١ /٢٧٥ ؤيزيد بن رومان (ثقة) وعروة (ثقة فقيه مشهور) وانتهى تدليس ابن اسحاق حيث ذكر من روى عنه .

قال لربه . ﴿ **أنا خير منه خلقتني من ناروخلقته من طين** ﴾ فكان في جهنم خالداً مخلدا فيها كان موقف هؤلاء فالوليد يقول : ينزل على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها[١] .

وكما قال العاص بن وائل لخباب فوالله لا تكون أنت وأصحابك يا خباب آثر عند الله مني[٢] .

ويحدثنا عمرو بن العاص عن مقتل أبيه فيقول :

لقد مات أبي وهو ابن خمس وثمانين سنة ، وإنه ليركبُ حمارا له من هذه الدباب إلى ماله بالطائف فيمشي عنه أكثر ممايركبه .

ويصف البلاذري موته كما سمعه من شيوخه .

فركب حمارا له ـ ويقال بغلة ـ له فلما صار بشعب من تلك الشعاب وهو يريد الطائف ربض به الحمار أو البغلة على شبرقة ، فأصابت رجله شوكة منها فانتفخت حتى صارت كعنق البعير ومات)[٣] لقد انتهى هذا العزو والمجد ، وتحطم هذا الاستعلاء والاستكبار بشوكة في رجله وهو رابض على حمار له وكان هذا الأمر كما قال الواقدي :

(مات العاص بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدنية بأشهر وهو ابن خمس وثمانين سنة)[٤] انتهى هذا العز والمجد دون أي ضجة ولا هرج ولا مرج ، وما

---

(١) المصدرنفسه ١/ ٢٤٢ .

(٢) المصدرنفسه ١ / ٢٣٩ .

(٣) أنساب الأشراف للبلاذري ١ / ١٣٩ .

(٤) المصدر نفسه / ١٣٩ .

ماجت مكة لوفاته مما آذى شاعر قريش عامة وشاعر بني سهم خاصة فقال ينفث همه وغيظه ويرثي العاص سيد قومه :

أصاب ابن سلمى خلة من صديقه ... ولولا ابن سلمى لم يكن لك راتق

فآوى وحيا إذ أتاه بخلة ... وأعرض عنه الأقربون الأصادق

فإما أصب يوما من الدهر نصرة ... أتتك وإني يا بن سلمى لصادق

وإلا تكن إلا لساني فإنه ... بحسن الذي أسديت عني لناطق

ثمال يعيش المقترون بفضله ... وسبب ربيع ليس فيه صواعق) [1]

وابن سلمى هو العاص بن وائل فأمه سلمى البلوية من قضاعة .

ويذكر ابن الزبعري فضل العاص عليه وعلى قومه ، وكرمه وجوده الذي كان ينال الأرامل والمحتاجين والمقترين .

---

(١) كتاب نسب قريش للمصعب الزبيري / ٤٠٨ - ٤٠٩ .

العاص بن وائل من حكام قريش :

يقول الألوسي في كتابه بلوغ الأرب (الحاكم منفذ الحكم ، وحكام العرب علماؤهم الذين كانوا يحكمون فيهم إذا تشاجروا في الفضل والمجد وعلو الحسب والنسب وغير ذلك من الأمور التي تقع بينهم وكان لكل قبيلة من قبائلهم حكم يتحاكمون إليه وهم كثيرون لا يسعهم الحصر) [١] .

وقد ذكر في قريش عدد من الحكام منهم هاشم [٢] وابنه عبد المطلب[٣] وابن عبد المطلب أبو طالب[٤] الذين توارثوا المجد كابرا عن كابر . وكان من الحزب المكي الثاني أكبرعقلائه ووجهائه العاص بن وائل السهمي ، والذي يكون في هذه السدة من المجد لا بد أن يكون له من العقل والحلم والعبقرية والتؤدة ما يؤهله لهذا الموقع فهو حاكم في الخصومات ، وهو ممتاز في الإدارة والسياسة وفن التعالم أثناء الأزمات (كما برز من حكام قريش أبو سفيان بن حرب[٥] وأبوجهل بن هشام) [٦] من الجيل الثاني .

ولئن كانت أمجاد الأموال المحجرة الموقوفة للكعبة والحكم فيها قد ورث مجدها منافسة الحارث بن عدي . فإنه بحلمه وهدوئه واتزانه استطاع أن يكسب هذا الموقع في الحكم بين الناس وعليهم لا على الأموال المحجرة الموقوفة فحسب ومن كان هذا موقعة في قومه فلا يصح منه أن يندفع إلى هوى أو يتحزب لطرف

---

(١) بلوغ الأرب في علوم العرب ١ / ٣٠٨ .

(٢) المدر نفسه في الصفحات ١ ،٣ .

(٣) المصدر نفسه / ٣٢٣ .

(٤) لامصدر نفسه / ٣٢٤ .

(٥) المصدرنفسه حيث ذكر أحكام عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة له .

(٦) المصدر نفسه / ٢٨٨ .

على آخر حتى لا يفقد هذا الموقع ومن أجل هذا وجدناه دائما يتصنع الحلول الوسط ، ويحاول الإصلاح عند من يأبه بهم من قومه . وقد رضى أن يوثر عنه بعض الاستهزاء بهذا الدين والاستخفاف . لأنه لا يأبه لهؤلاء العبيد والصغار الذين حملوا رايته لكن محمد بن عبد الله وانضمام بني هاشم وبني المطلب له هو الذي كان يحسب حسابه ويحرص على مراعاته فيقف مع الوفود التي تحرص على حل المشكلة معه .

لقد كان يملك مقومات الزعامة كاملة التي يعتد بها العرب فالمال الذي كان يكسبه من التجارة ويحرص على البروز باذخا ثريا غنيا فيه كما أثر عن عمرو قوله عنه :

والله ما كان العاص بن وائل يرضى أن يلبس الديباج مزررا بالذهب[1] .

وقوله : لقد كان العاص يلبس الخز مكففا بالديباج [2] .

والنسب العريق في قريش والذي كان يحاول أن يسامي بني عبد مناف فيه، والعقل والحلم والدهاء الذي ساعده على تبوء هذا الموقع والشجاعة التي أهلته لقيادة قومه في يوم شمطة والذي ذكرالعاص أنه من حكام قريش كما أورده الألوسي في بلوغ الأرب الميداني وابن الكلبي : (عدَّه صاحب القاموس من حكام قريش وكذلك الميداني فإنه قال في كتاب مجمع الأمثال : العاص بن وائل من حكام قريش[3]. وقد ذكر نسبه الزبيدي في شرحه على القاموس فقال : العاص بن وائل بن هشام بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي انتهى وهو والد عمرو بن العاص الصحابي المشهور وكان له قدر في الجاهلية ولم يوفق للإسلام ، قال ابن الكلبي كان من حكام قريش ...)[4] .

---

(١) الطبقات الكبري لابن سعد ١ / ١٨٩ .

(٢). فتوح البلدان للبلارذي ص ٢٢٧ ؟

(٣) ، (٤) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب لمحمود شكري الألوسي ١ / ٣٢٨ .

لكن هذا العقل كله والحلم كله لم يهده للإسلام لا لجهله فيه ولا لغياب الحق عن ناظريه ولكن حفاظا علي السمعة والشهرة والمجد .

لقد قالها قبله أبوجهل .

تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف أطعموا فأطعمنا وحملوا محملنا وأعطوا فأعطينا حتي إذا صرنا كفرسي رهان وتحاذينا علي الركب قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك مثل هذه والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه[1] .

وقالها قبله الوليد بن المغيرة .

أينزل على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها .

وقالها العاص بن وائل لخباب :

فوالله لا تكون أنت وأصحابك يا خباب آثر عند الله مني ولا أعظم حظا في ذلك .

وقالها أبليس قبل الجميع: ﴿ **أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين** ﴾[5] .

فكان أن نالوا جميعا حظهم من الدنيا ومضو الى جهنم وبئس المصير .

﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴾[6].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٢٠٩ .

(٢) المصدر نفسه ١ /٢٨١ .

(٣) المصدرنفسه ١ / ٢٤٢ .

(٤) المصدرنفسه / ٢٣٩ .

(٥) الأعراف / من الآية ١٢ .

(٦) هود / ١٥-١٦ .

عمرو بن العاص السهمي

كانت كل تلك الفصول السابقة مقدمة وتوطئة للحديث عن عمرو بن العاص رضي الله عنه ولايضاح البيئة التي ولد وعاش فيها ، والمنبت الذي نبت فيه فتلقى منه قيمه وأعرافه ومفاهيمه وعقائده وعاداته فهو ابتداء ابن هذه البيئة الجاهلية والتي سلخ فيها قرابة نصف عمره قبل أن يشع فيها نور الإسلام ، وأول قضية نورد التحقيق فيها هي قضية عمره . إذ اختلفت الرايات في عمره حوالي عشر سنين وفي سنة وفاته كذلك ونأخذ بترجيح ابن حجر في الإصابة حيث يقول :

(قال يحيى بن بكير عاش نحوتسعين سنة قلت قد عاش بعد عمر عشرين سنة وكان عمر عمر ثلاثا وستين قد ذكروا أنه كان يقول أذكر ليلة ولد عمر بن الخطاب أخرجه البيهقي بسند منقطع فكان عمره لما ولد عمر سبع سنين)[1] فإننا نستطيع أن نتعامل مع الأحداث بصورة واضحة بعد هذا التحديد .

فقد ولد وأبوه زعيم من زعماء قريش وقد قاد بني سهم في حرب الفجار يوم شمطة ، وعمر عمر عشر سنين يتنعم في عز أبيه ويرفل في جاهه وحيث كانت التجارة هي طريق الثراء في مكة فلم يكن العاص ابن وائل تفوته المشاركة في تجارة الشتاء والصيف على أوسع نطاق ، إضافة إلى مصدر آخر للثراء وهو صفة الجزارة في مكة[2].

وبمقدارما كان فخوراً بجاه أبيه وقائد قومه في حربهم في حرب الفجار بمقدار ما كان ممتلىء غيظاً على أصحاب حلف الفضول من هاشم وزهرة وتيم الذين أرغموا أباه على دفع حق الزبيدي[3] فالأصل أن لا يراجع أباه ولا يوجد فوق

---

(١) الإصابة في تاريخ الصحابة ٣ / ٢ ، ٣ ت ، ٥٨٨ .

(٢) عمرو بن العاص لعبد الخالق سيد أبي راية وهي في الأغاني .

(٣) يذكر ابن كثير أن بين حرب الفجاروحف الفضول أربعة أشهر فالفجار في شعبان والفضول في ذي القعدة . انظر السيرة لابن كثير ١ / ٢ / ٢٧٠ .

سلطته سلطة وابن عشر سنين يدرك أبعاد هذا الحلف ومن وراءه من الخصوم التقليديين لقومه من ين سهم وحلفائهم . إنه يشعر بحقد على دعاة هذا الحلف . وخاصة الزبير بن عبد المطلب الذي دعا إليه ، وعبد الله بن جدعان الذي عُقِد في داره . إنه يرى نفسه قد دخل حلبة الصراع ضد بني هاشم منذ هذا السن ، ويرى أن أمجاد بني هاشم في السقاية والرفادة قد أفقرت أبا طالب سيدهم فلا يملكون ثراء بني سهم عامة وأبيه خاصة وتكرر الصدام ثانية بين بني هاشم وحلفائهم وبين قومه مرة ثانية ولعلها كانت وقد بلغ خمس عشر سنة من عمره (ذكر قاسم بن ثابت في غريب الحديث أن رجلا من خثعم قدم مكة حاجا أو معتمرا ومعه ابنة يقال لها القتول من أوضأ[1] نساء العالمين فاغتصبها منه نبيه بن ا لحجاج وغيَّبها عنه فقال الخثعمي : من يعديني [2] على هذا الرجل ؟ فقيل له : عليك بحلف الفضول فوقف عند الكعبة ونادى يا لحلف الفضول ؟ فإذا هم يعنقون[3] إليه من كل جانب وقد انتضوا[4] أسيافهم يقولون : جاءك الغوث فمالك ؟ فقال : إن نبيهاً ظلمني في ابنتي وانتزعها مني قسرا فساروا معه حتى وقفوا علي باب داره فخرج إليهم فقالوا له : أخرج الجارية ويحك فقد علمت من نحن وما تعاقدنا عليه ، فقال : أفعل ، ولكن متعوني بها الليلة . فقالوا : لا والله ولا شخب لقحة فأخرجها اليهم وهو يقول :

راح صحبي ولم أحي القتولا　　　لم أودعهُمُ وداعا جميلا
إذ أجَّد الفضول أن يمنعوها　　　قد أُراني ولا أخاف الفضولا
لا تخالي أني عشية راح الركب هنتم علي أن لا أزولا.
وذكر أبيات غير هذه ....)[5].

---

(١) أوضأ : أجمل .

(٢) يعديني : يأخذ حقي من هذا الاعتداء .

(٣) يعنقوي : يفدون .

(٤) انتضوا :شهروا سيوفهم .

(٥) السيرة في البداية والنهاية لابن كثير ١ / ٢ / ٢٥١ .

لقد كانت مشاعره مضطربة تماما إثر هذه الحادثة فنبيه بن الحجاج من سادة قومه بني سهم ويؤلمه ويؤجج حقده أن يرغم من بني هاشم وتيم وزهرة لإعادة القتول بنت الخثعمي لكنه من جهة أخرى يذكر أن أمه التي ولدته إنما هي سبي من سبايا العرب يعيره أقرانه فيها وكيف تنقلت من رجل إلى رجل حتى حطت رحالها عند أبيه وولدته فهو يكره السبي ويحقد على هذه العادة . ولو ترك الأمر لنبيه بن الحجاج لاستمتع بالقتول ، وانتقلت من صدر إلى صدر وبيعت كما بيعت أمه وكلما ذكر أن أمه كان سبيا كان يغيب عن وعيه ويشعر بالحياء حين ينتمي اليها وبمقدار ما كان يفخر بأبيه وعزه وجاهه بمقدار ما كان يحس بالعار والخجل حين يذكرنا تاربخ أمه وأنها ليست حرة من حرائر قريش كما هي الحال مع أم أخيه هشام الأصغر منه فأم هشام هي حرملة بنت هاشم بن المغيرة حتى أنه حين يذكر فضائل أخيه هشام عليه يقول فيما يقوله (.. وأمه بنت هاشم بن المغيرة وأمي سبية..)[1] .

ولعله كان يعيد سبب اهتمام أبيه بأخيه هشام لهذا السبب . فكان يظهر حبه له وحدبه عليه أكثر من منه . إذ يقول في القول السابق نفسه (... وكان أحب إلى أبيه مني وتعرفون فراسة الوالد ...)[2].

وقد تكون هذه المعاملة لعمرو وتفضيل أخيه هشام عليه دعته ليفكر منذ وعيه ونضجه بالاعتماد على نفسه وأن يعمل ليُكَوِّن ثروة خاصة به من خلال التجارة والجزارة التي ورثها عن أبيه لقد كانت نباهته وذكاءه الوقاد ملفتان للنظر وبدأ يحس بقدرته على قرض الشعر منذ بلوغه مبلغ الرجال ووجد نفسه وهو في سن التاسعة عشر[3] من عمره تتطلع اليه الأنظار ، ويحرص أبوه على تزويجه

---

(١) و (٢) الاستيعاب في أسماء الأصحاب هامش الإصابة لابن عبد البر ٤ / ٥٩٤ .

(٣) ذكر ابن حجر في الاصابة (٣ / ٣٥٢ ٩ (وقال ابن سعد .. ويقال لم يكن بين مولدهما الا اثنتا عشرة سنة أخرجه البخاري عن الشعبي وحزم ابن يونس بأن بينهما عشرين سنة) وقد أخذنا بهذا الرأي لاجماع الروايات كلها على وفاة عبد الله بن عمرو وهو ابن اثنتين وسبعين سنة عام ٦٣ للهجرة . وبهذا يكون الفرق على أقل تقدير عشرين سنة بينهما أما الأكثر فيصل الفرق لأربعين .

بكريمة من عقائل قومه فكان أن اختارله بنت سيد قومه منبه بن الحجاج واسمها ريطة ولم يمر عام على زواجه إلا وكان ابنه العاص[1] بن عمرو بن العاص يملأ عليه حياته سماه على اسم أبيه وقرر أن يشق طريقه بنفسه فكان أن مضى مع تجارة قومه الى الشام .

الحظ السعيد :

وندع الحديث الذي ذكره السيوطي في حسن المحاضرة نقلا عن ابن عبد الحكم لخالد بن يزيد راويه :

(أخرج ابن عبد الحكم عن خالد بن يزيد ، أنه بلغه أن عمرا قدم إلى بيت المقدس لتجارة في نفر من قريش وأذا هم بشماس من شمامسة الروم من أهل الاسكندرية قدم للصلا ة في بيت المقدس فخرج في بعض جبالها يسبح وكان عمرو يرعى إبله وإبل أصحابه ،وكانت رعية الإبل نُوبا بينهم فبينما عمرو يرعى إبله إذ مر به ذلك الشماس وقد أصابه عطش شديد في يوم شديد الحر ، فوقف على عمرو فاستسقاه فسقاه عمرو من قربة له فشرب حتى روي ، ونام الشماس مكانه وكان إلى جانب الشماس حيث نام حفرة فخرجت منها حية عظيمة فبصر بها عمرو ، فنزع لها بسهم فقتلها . فلما استيقظ الشماس نظر إلى حية عظيمة قد أنجاه الله منها . فقال لعمرو : ما هذه ؟ فأخبره عمرو أنه رماها بسهم فقتلها ، فأقبل إلى عمرو فقبل رأسه ، وقال : قد أحياني الله بك مرتين ، مرة من شدة العطش ومرة من هذه الحية فما أقدمك هذه البلاد ؟ قال : قدمت مع أصحاب لي نطلب

---

(١) هو عبد الله بن عمرو ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي غير اسمه من العاص الى عبد الله انظر الإصابة ٣ / ٣٥١ .

الفضل من تجارتنا فقال له الشماس : وكم ترجو أن تصيب من تجارتك ؟ قال : رجائي أن أصيب ما أشترى به بعيرا فإني لا أملك إلا بعيرين فأملي أن أصبب بعيرا آخر فيكون لي ثلاثة أبعرة قال له الشماس : أرأيت دية أحدكم بينكم ، كم هي ؟ قال : مائة من الإبل ، فقال له الشماس : لسنا أصحاب إبل ، نحن أصحاب دنانير، قال : تكون ألف دينار . فقال له الشماس : إني رجل غريب في هذه البلاد وإنما قدمت أصلّي في كنيسة بيت المقدس أُسبّح في هذه الجبال شهرا جعلت ذلك نذرا على نفسي ، وقد قضيت ذلك وأنا أريد الرجوع إلى بلادي فهل لك أن تتبعني إلى بلادي ولك عهد الله وميثاقه أن أعطيك ديتين ، لأن الله تعالى قد أحيا ني بك مرتين .

فقال له عمرو : أين بلادك ؟ قال : مصر ، في مدينة يقال لها الإسكندرية فقال له عمرو : لا أعرفها ولم أدخلهاقط . فقال له الشماس : لو دخلتها لعلمت أنك لم تدخل قط مثلها . فقال له عمرو : تفي لي بما تقول وعليك بذلك العهد والميثاق ؟ فقال له الشماس : نعم لك الله علي بالعهد والميثاق أن أفي لك وأن أردّك إلى أصحابك) .

إنها فكرة مغرية لشاب طموح يعرض عليه دخول مغامرات جديدة ، وبلاد جديدة ، واحتمالات ثروة طائلة تحقق آماله فبي ضربة واحدة ، وعلى أسوأ الاحتمالات ، أليس هو تاجر يريد أن يرتاد آفاقا جديدة لتجارته . والشبان في مثل هذا السن يتباهون بمعارفهم وزياراتهم ومغامراتهم .

ولكنه يمضي وحده وهنا مكمن الخطورة وشاب مثل عمرو في دهائه وكياسته وفطنته حريص على أن يأخذ ا لحيطة اللازمة ويحرص في دافع قلبي عنيف كذلك أن يرتاد هذا المجهول فبرزت ملامح شخصيته من خلال هذه الأسئلة

بعد أن أخذ عـهد الله وميثاقه على عـرض الشماس ، ومن ناحية ثانيـة ، فماذا يريد الشمـاس منه إن أراد الغدر به . وهو لم يسـيء إليه قط ، وليس هو صـاحب الثروة المغـرية ، أو الموقع الخـطر لكنه مع هذا يتـصـرف تصـرف الكـيس الذي يوازن بين المغريات والمخاطر .

(... فقال عمرو : كم يكون مكثي في ذلك ؟ قـال شهرا تنطلق معي ذاهبا عـشرا وتقـيم عندنا عـشرا ، وترجع في عـشر ، ولـك علي أن احفظك ذاهبـا وأن أبعث معك من يحـفظك راجعا . فقـال له : أنظرني حتى أشاور أصحـابي فانطلق عمرو إلى أصحابه . فأخبرهم بما عاهد عليه الشماس وقال لهم : أقيموا حتي أرجع إليكم ولكن علي العهد أن أعطيكم شـطر ذلك على أن يصحبني رجل منكم أنس به ، فقالوا : نعم . وبعثوا معه رجلا منهم .

لقد برزت عبـقرية عمرو - على ترجيح صـحة هذه الحادثة - منذ هذه السن المبكرة في سعة أفـقه ووضع كل الاحتياطات اللازمـة لنجاح مهمتـه بالتعرف على الزمن وطلبه الرفيق من إخوانه ، واستشـارتهم في الأمر و وإغرائهم بانتظاره مقابل شطر ماله ، فهو في افتـتاح تعامله مع مجاهيل الحياة انسانا مـصرا على استكشاف هذه المجاهيل بحذر ووعي شديدين .

(.. فـانطلق عـمـرو صـاحبـه مع الشـمـاس إلى مـصـر حتـى انتـهى إلى الإسكندرية ، فرأى عمرو من عمـارتها وكثرة ما فيها من الأموال والخيـر ما أعجبه ذلك وقـال : مـا رأيت مـثـل مـصـر قط وكـثـرة مـا فـيـهـا مـن الأمـوال ونظر إلى الاسكندرية وعمارتها وجودة بنائها وكثرة أهلها وما بها من الأموال فازداد عجبا ، ووافق دخول عمرو الإسكندرية عيداً فيها عظيـماً يجتمع فيها ملوكهم وأشرافهم . ولهم أكرة من ذهـب مكللة يترامى بهـا ملوكهم وهم يتلقـونها بأكمامهم وفيما

اختبروا من تلك الأكرة على ما وضعها من مضى منهم ، إن من وقعت الأكره في كمه واستقرت فيه لم يمت حتى يملكهم فلما قدم عمرو الإسكندرية ، أكرمه الشماسي الإكرام كله ، وكساه ثوب ديباج ألبسه إياه ، وجلس عمرو والشماس مع الناس في ذلك المجلس حيث يترامون بالأكره وهم يتلقونها بأكمامهم ، فرمى بها رجل منهم ، فأقبلت تهوي حتى وقعت في كم عمرو فتعجبوا من ذلك وقالوا : ما كذبتنا هذه الأكره قط الا هذه المرة ، أترى هذه الأعرابي يملكنا ! هذا لا يكون أبدا ، وإن ذلك الشماسي مشى في أهل الاسكندرية ، وأعلمهم أن عمرا أحياه مرتين ، وأنه قد ضمن له ألفي دينار وسألهم أن يجمعوا ذلك فيما بينهم ففعلوا ودفعوها إلى عمرو . فانطلق عمرو وصاحبه وبعث معهما الشماسي دليلا ورسولا ، وزودهما وأكرمهما حتى رجع عمرو وصاحبه إلى أصحابهما فبذلك عرف مصر ؛ مدخل مصر ومخرجها ، ورأى منها ما علم أنها أفضل البلاد وأكثرها مالا فلما رجع عمرو إلى أصحابه دفع إليهم فيما بينهم ألف دينار ، وأمسك لنفسه ألفا قال عمرو .

فكان أول مال اعتقدته وتأثلته [1]) [2] .

لقد غادر عمرو مكة صعلوكا يحلم بامتلاك ثلاثة أبعرة . وجاء ثريا في المال، وثريا في الخبرة وثريا في الأخبار والجاه والمغامرات ، ولا نشك أبدا في أن

---

(١) تأثلته : كسبته .

(٢) فتوح مصر ٥٣ - ٥٥ هذا ونشير إلى احتمالين قوميين لاينفي أحدهما الآخر الاحتمال الأول صحة هذه الحادثة فلا شيء يمنع من وقوعها خاصة حين نرى الحاح عمرو بعد أكثر من ثلاثين عاما على فتح مصر ومعرفته بمداخلها ومخارجها وخبرته في أرضها ، واتباع كل السبل في اقناع أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بفتحها وهو الأرجح عندنا والاحتمال الثاني أن يكون الرواة قد صاغوا هذه الحادثة ووضعوها بعد ماشاهدوا فراسة عمرو في فتح مصر ، وفتحها حكمها ، وهو الأضعف خاصة وابن عبد الحكم من المؤرخين الثقات وقد رواه عن يحيى بن ايوب (صدوق ٩ عن خالد بن يزيد (ثقة) أنه بلغه أن عمرا قدم الي يت المقدس بتجارة.

هوالذي قاده الى مصرعه فقدكان خلع أبيه له بعد خلع بني مخزوم لعمارة . يعني بطلان دم عمارة وعدم مسؤولية بني سهم عن دمه .

كمـا عرفت قـريش أن جاه عـمرو بن العـاص عند النجاشي غـدا في الذروة حين حفظ شرف قريش ورمى عمارة بسوء فـعله . وغدا عمرو بن العاص حديث شباب مكة بعد حديث الاسلام ورسول الاسلام محمد بن عبد الله .

الله عليه وسلم عبد الله ، فرصده على ماء بأرض الحبشة وكان يرده مع الوحش ، فلما وجد ريح الإنس هرب حتى إذا أجهده العطش ورد فشرب حتي تملى وخرجوا في طلبه فقال عبد الله بن أبي ربيعة ، فسعيت اليه فالتزمته فجعل يقول : يا بحيرا أرسلني فإني أموت إن أمسكتموني . قال عبد الله فقبضته فمات في يدي فواريته ثم انصرفت)[1] .

لقد أخذ ثأره من عمارة بنفسه بدون أن يلوث يده بدمه (قال عمرو بن العاص)

نعلم عمار إن من شر شيمة لمثلك أن يدعى ابن عم له ابنما

إذا كنت ذا بردين أحوى مرجلا فلست براء لابن عمك محرما

إذا المرء لم يترك طعاما يحبه ولم ينه قلبا غاويا حيث يمما

قضى وطرا منها يسيرا وأصبحت إذا ذكرت أمثالها تملأ الفما

وليس الفتى إما أنمت عروقه بذي كرم إلا إذا ما تكرما)[2]

لقد كان رجلا في الثأر لعرضه ، وكان رجلا في الثأر لنفسه ، وحارب بعقله وفكره قبل أن يحارب بسيفه ورمى عمارة بن الوليد في شر فعله ، وراح ينعي عليه فقده القيم العربية التي فخر بها كل قرشي وكل عربي ، وأن المتعة والشهوة ولدة الجنس ليست كل شيء في هذه الحياة والكريم حقا هوالذي يحافظ على طيب عنصره وحسن أصله ومحتده وليس فقط هو الذي ينتمي الى آباء كرام ونسب شريف ولم يخش أن يعلن شعره هذا على الملأ . ولو عرفت مخزوم أنه

---

(١) مختار الأغاني لابن منظور ٥ / ٢٨٦ ـ ٢٨٨ .

(٢) أنساب الأشراف للبلاذري ١ / ٢٣٢ .

وهكذا وضع يده على مقتله . فقد وصل إلى يده ما يبيح دم عمارة عند النجاشي وفي الوقت نفسه يرفع مقامه وموقفه عند النجاشي .

(قال عمرو : أشهد أنك صادق ، لقد أصبت شيئا ما أصابه أحد من العرب من أسرار الملك ما سمعنا بهذا .)

وهويريد حتى أن ينفي أي علاقة له بالمؤامرة الرهيبة على عمارة إنه يتقن فن التخطيط بحيث لا يمكن أن ينتبه اليه أحد فيما يتآمر فيه

(وسكت عنه حتى إذا اطمأن).

ودخل على النجاشي فقال : يا أيها الملك إن ابن عمي سفيه ، وقد خشيت أن يعرّني عندك أمره وقد أردت أن أعلمك شأنه ، فلم أفعل حتى استثبت ، وإنه قد دخل علي بعض نسائك فأكثر وهذا من دهنك قد أعطيه ودهنني منه فلما شم النجاشي الدهن قال : صدقت ، هذا دهني ولا يكون إلا عند نسائي .

ثم دعا بعمارة فقال له : إني أكره أن أقتل قرشيا ، لو قتلت قريشا لقتلتك) وفعل به ما هو شر من القتل وأفظع .

(ثم دعا بالسواحر ، فجردوه من ثيابه ، ثم أمرهن فنفخن في إحليله ، ثم خلى سبيله فخرج (هائما على وجهه مع الوحش وإن رأى الإنس هرب منهم وطلع له شعر غطى جميع بدنه ولم يزل كذلك مدة أيام النبي صلي الله عليه وسلم وأيام أبي بكر وصدرًا من خلافة عمر) [١] .

فلم يزل بأرض الحبشة حتى كانت خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فخرج له عبد الله بن ربيعة وكان اسمه بحيرا قبل أن يسلم فسماه رسول الله صلى

---

(١) هذا المقطع من تجريد الأغاني / ١٥٢٧ .

مخزوم فقال : إن هذين الرجلين قد خرجا حيث علمتم وكلاهما فاتك صاحب شر وهما غيرمأمونين على أنفسهما ولا ندري ما يكون ، فإني أبرأ إليكم من عمر وجريرته وقد خلعته فقالت بنو المغيرة : أنت تخاف عمر على عمارة وقد خلعنا عمار وتبرأنا اليك من جريرته فخل بين الرجلين فقال السهميون : قبلنا فابعثوا بمكة أنا قد خلعناهما ، تبرأ كل واحد منا من صاحبه فبعثوا مناديا فنادى بمكة بذلك فقال الأسود بن المطلب : والله طل دم عمارة بن الوليد إلى آخر الدهر ...) .

والأسود وحده هو الذي عرف دهاء عمرو وأدرك أنه الظافر الوحيد في النهاية . أما كيفية انهاء عمارة فهي أغرب نهاية لا يمكن أن تقع إلا على يدي عمرو نفسه وبدهائه الرهيب الذي يضع الهدف ويمضي بعده بكل ما أوتي من ذكاء ودهاء وعقل للوصول اليه .

(فلما اطمأنا بأرض الحبشة لم يلبث عمارة أن دب لامرأة النجاشي ، فأدخلته فاختلف إليها فجعل إذا رجع من مدخله يخبر عمرو بن العاص بما كان من أمره فجعل عمرو يقول : ما أصدقك أنك قدرت على هذا الشأن إن المرأة أرفع من ذلك فلما أكثر على عمرٍو ما كان يخبره . وكان قد صدقه ولكنه أحب التثبت وأراد أن يأتيه بشيء لا يستطيع دفعه إن هو دفعه الى النجاشي .

(وكانا في بيت واحد ، وكان عمارة يغيب عنه حتي يأتيه في السحر ، وجعل عمارة يدعوه إلى أن يشرب معه فيأبى عمرو ويقول : هذا يشغلك عن مدخلك . فقال له عمرو يوما :

إن كنت صادقا فقل لها فلتدهنك من دهن النجاشي الذي لا يدهن من غيره فإني أعرفه وأنني به أصدقك ، ففعل عمرو ، فجاء بقارورة من دهنه ، فلما شمها عمرو عرفها وقال :

أشهد أنك صادق ...) .

السفين ليالي فأصابا من خمر معهما فلما انتشى عمارة قال لامرأة عمرو : قبليني ، فقال لها عمرو . قبلي ابن عمك فقبلته وحذر عمرو على زوجته فرصدها ورصدته وجعلا إذا شربا أقل عمرو من الشراب ، وأرق لنفسه بالماء مخافة أن يكسر ، فيغلبه عمارة على أهله ، وجعل عمارة يريدها عن نفسها فامتنعت منه ، وإن عمرا جلس على ناصية السفينة يبول ، فدفعه عمارة إلى البحر . فلما وقع فيه سبح حتى أخذ القلس[1] .

فارتفع فظهر على السفينة فقال له عمارة : أما والله يا عمرو لو علمت أنك تحسن السباحة ما فعلت ، فلما قال ذلك عمارة لعمرو اضطغنها في نفسه ، وعرف أنه أراد قتله ومضيا على وجههما .

كان عمرو في قلبه مر جل غضب ممتزج بحقد . لكنه تعلم من تجربته الأولى أن يخفي ماعنده ، ولم يعد عنده شك أبدا أن عمارة كان قد بيت قتله لينزو على امرأته . ورصد قراره الأخير أنه لا بد أن ينتقم من عمارة ويقتله ، فنار الثأر تتأجج في صدره وهنا تتفتق عبقريته في دراسة كل الاحتمالات التي يمكن أن تنتج عن قتله . ودراسة الطرق المتعددة الكفيلة بإبادته ، وخرج بحل عجيب لمجابهة الاحتمالات الناتجة عن قتله بالصيغة التالية .

(فلما نزلا إلى الحبشة كتب عمرو إلى أبيه العاص : أن أخلعني وتبرأ مني ومن جريرتي إلى بني المغيرة وجميع بني مخزوم ، وخشي على أبيه أن يتبع بجريرته وهويترصد لعمارة ما يترصد فلما ورد الكتاب على العاص بن وائل مشى في رجال من قومه فيهم نبيه ومنبه ابنا الحجاج الى الوليد بن المغيرة وغيره من بني

---

(١) القلس : حبل ضخم من ليف من حبال السفينة .

قـومك وسـفّـه أحـلامهـم فنقـتله . فـإنما هو رجل برجل . فـقـال : والله لبئس مـا تسومنني اتعطونني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه . هذا والله ما لا يكون أبدا . فقال المطعم بن عدي .. والله يا أبا طالب لقـد أنصفك قومك وجهدوا على التخلص مما تكره ، فمـا أراك تريد أن تقبل منهم شيئا . فـقال أبوطالب) للمطعم . والله مـا أنصفوني ، ولكـنك قد أجمـعت خذلاني ومظاهـرة القوم علي فاصـنع ما بدالك فحقب الأمر، وحميت الحرب ، وتنابذ القوم ، وبادى بعضهم بعضا) [١].

وكل الذي كـان يعني عمـرا من هذا الأمر هو إجـماع قـريش على اعتـبار منافسه عمارة ندا لمحمد بن عبد الله الفـتى الهاشمي والتركيز على أنه أنهد فتى في قريش وأجمله وهو يعرف عمارة شابا منهـمكا عربيدا همه لذته وهواه ، ومجالس الشراب والمجون التي يعيشها معـه لا ترفعه إلى هذا المقام وكل ما يعنيه من أمر مكة وأمـجادها هو كـونه على السـاحة القـرشيـة نابه الذكـر ، عريق المجـد ، بين هؤلاء الشبـاب أما أمـر العقيـدة فلا يعني عـمرا بشيء فـهو من اختـصاص سـدنة قريش واختصاص أبيه وأمثاله . أما أمرالثراء والسياسة والشهرة فهو الذي يعنيه .

وحين حـانت له فرصـة رفقة عـمارة بن الولـيد في رحلة إلى الحـبشـة سارع للاستجابة لذلك تاركا أمر صراع العقيدة بين محمد وقومه لأبيه وأقرانه من قريش.

الانتـقام :

(وذلك أن عمارة خـرج هو وعمرو بن العـاص السهمي ، وكانا قـد خرجا تاجرين الـى النجاشي وكانت أرض الحـبشـة متجـرا لقريش ووجـها وكـلاهما في جاهليتـه شاعرمشـرك فاتك وكان عمارة مـعجبا بالنسـاء وصاحـب محادثة فـركبا

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ١٧٧ .

ولكن الأمر شغلهم يوم راح محمد يهاجم آلهتهم ويعيب دينيهم ويسفه أحلاهم ، ويضلل من مضى من آبائهم وكانت محاولات رأب الصدع التي قام فيها مشيخة قريش لكنها مضت أدراج الرياح فمحمد ماضٍ في طريقة ، والأزمات تشتد في صفوف قريش . أما عمر فقد سُرَّ من أعماقه أن بدأ الملأ من قريش يخاصمون محمداً - صلى الله عليه وسلم - ويهاجمونه فبذلك يخلص من تنافسه ، ويتقلص مركزه في مكة .

(وحقب الأمر وحميت الحرب ،وتنابذ القوم وبادى بعضهم بعضا)[1] .

ولم يُعِرْ عمرو لجوهر الحدث اهتمامه فالكبار والسادة من قريش قد رفضوه ابتداءً وانتهاءً وأبوه العاص بن وائل على رأس المكذبين ، وهم أدرى بأمور العقيدة منه ووجد هذا التكذيب هوى في نفسه هو أن يسقط محمد - صلى الله عليه وسلم - من قائمة منافسيه ولن يهاب أحدا بعده .

عمارة مقابل محمد :

وها هو عمارة بن الوليد منافس عمرو بن العاص في الشرف . يقدمه سادة قريش ندًا لمحمد بن عبد الله .

(قال ابن إسحاق : ثم إن قريشاً حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله صلى الله عليه وسلم وإسلامه ، وإجماعه لفراقهم في ذلك وعداوتهم ، مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة فقالوا له - فيما بلغني : يا أبا طالب ، هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى في قريش وأجمله ، فلك عقله ونصره ، اتخذه ولدا فهو لك وأسلم الينا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك ، وفرّق جماعة

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ١٧٧ .

وجد مثل عبد اللـــه ينمـــي إلى عمرو بن مخزوم بعـود [1]

إذا ما عـدت الأعـواد نبعـاً فما لي في الأباطح من نديـد

وإنـــي للمنابـــذ مـــن قريش شجي في الحلق من دون الوريد

أحوط ديارهـم وأذود عنهـم وأصبر في وغى السوم الشديـد

وأبذل ما تضن بـه رجـال وتطمعني المـروءة فـي المزيـد

وإنك من بني سهم بن عمرو مكان الردف من عجز القعود [2]

وقد علمت سراة [3] بني لؤي بأنـي غيـر مؤتشب[4] زهيـد

وكان أبـوك جـزارا وكانت له فأس وقِـدر من حديـد)[5]

لقـد هزم عمـرو هزيمة منكرة . ورغم أنه شاعر لكنه لا يبلغ شأو عمـارة بن الوليد في هذا الضمار وحفظ هذه الهزيمة في نفسه إلى الوقت المناسب .

الحدث الجلل :

وشغل عـمرا عن عـمارة . وشـغل مكة كلها الحـدث الجديد الذي جـاء به محمد بن عبد الله فـتى بني هاشم أنه نبي يأتيه الوحي من السماء ويحدّث من الله واجتمع الملأ من قـريش لمعالجة هذا الحدث . ثم انتـهوا إلى عدم الإهتمام به كـثيرا حـفـاظا على وحـدة كلمـة مكة مع مـيلهم إلى تـكذيب هذا الإدعـاء في رأيهم .

---

(١) يعود : بأصل .

(٢) الردف من عجز العقود مؤخرة الجمل .

(٣) سراة بني لؤي : سادتها .

(٤) غيرمؤتشب . غير صريح في النسب .

(٥) مختار الأغاني لابن منظور ٥ / ٢٨٥ .

ويعطينا هذا الجواب إضاءات جديدة على شخصية عمرو بن العاص فهو يرى نفسه في قمة السيادة من قريش فهو يرى نفسه قد جمع كل فضائلها وراح يباهي بها منافسه عمارة بن الوليد . إنه يرى في دهائه وذكائه ما يفوق به حتى هذه القيادات لكن السن يحول دون تفوقه عليهم والناس يقدرون الكبار مهما كان وصفهم . ومن جهة ثانية وفي لحظة انفعاله دفعته حميته إلى الانتقاص من عمارة بن الوليد بحيث جرده من كل الفضائل . لقد كان عمرو واثقا بنفسه معتدا بشخصه فخورا بقومه ، ويدرك مواطن الفخار ، ومواضع العظمة عند الأشراف والسادة من قومه .

أما عمارة فقد بيَّت ثأراً من عمرو على ما أنزل به من كيد .

(وانصرف عمارة فأمر بجزور فنحرت على الطريق (طريق عمرو) وأقبل عمرو فقال لمن هذه الجزور فقيل : لعمارة . فقال : أطعمنا منها يا عمارة فضحك منه ثم قال :

ومسغبة الأطابب من قريش ... ولم ير كأسنا إلا دهاقا

وتلبس في الحوادث كل زعف ... وعند الأمن ابراداً رقاقا

فوقع الشر بينهما فقال عمرو :

لعمرو أبيك والأخبار تنمي ... لقد هيجتني يا بن الوليد

فلا تعجل عمارة إن سهما ... كمخزوم بن يقظة في العديد

فأجابه عمارة بن الوليد :

ألا يا عمرو هل لك في قريش ... أب مثل المغيرة والوليد

وخاصة بين الشباب الطامحين المتنافسين على الشهرة والمجد فقد كان عمارة بن الوليد يملك صفتين يُذبُّهما عمرو بن العاص ، هما جماله وشاعريته ، وكثيرا ما يتحدث الناس عن عمارة أنه أجمل فتيان قريش ، وأما شاعريته فقد ذاق منها الويل بعد منافرة وتنافس تم بينهما كما تذكر الحادثة التالية :

(قدم رجل من تجار الروم بحلة من لباس قيصر على أهل مكة ، فأتى بها عمارة بن الوليد فاستغلاها وقال : لن نقدم لهم عونا في بني سهم ، فقال عمرو : قد أخذتها اشتراها بمائة بعير ثم أقبل يخطر فيها حتى انتهى إلى بني مخزوم ، فناداه عمارة : أتبيع الحلة ؟ فغضب عمرو ، والتفت إلى عمارة فقال له :

أروها عنكم وغلت عليكم ... وأعطينا بها مائة حقاقا

وقلتم لا نطيق ثياب سهم ... وكل سوف يلبس ما أطاقا

فغضب عمارة ، وقال : يا عمرو ! ما هذا التهور إنك لست بعتبة بن ربيعة ، ولا بأبي سفيان بن حرب ولا بالوليد بن المغيرة ولا سهيل بن عمرو ولا أبي بن خلف .

فقال عمرو : إن فيَّ من كل واحد منهم خير ما فيه من عتبة حلمه ، ومن أبي سفيان رأيه ومن سهيل جوده ومن أبي نجدته ، وأما الوليد فوالله ما أحب أن لي كل ما فيه من خير وشر ولكنك والله مالك عقل الوليد ولا بأس ابن حرب ولا لسان أبي الحكم ....) .

(١) مختار الأغاني لابن منظور ج ٥ / ٢٨٤ .

شأن محمد أعلى مايكون في قومه ، حين تحزبت الأمور وكادت الحرب أن تقع من أجل شرف وضع الحجر الأسود في مكانه (فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دما ثم تعاقدوا وبني عدي بن كعب على الموت وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة فسموا لعقة الدم فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمسا . ثم إنهم اجتمعوا في المسجد وتشاوروا وتناصفوا .

فزعم بعض أهل الرواية أن أبا أمية بن المغيرة ... وكان يومئذ أسن قريش كلها :يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه ففعلوا فكان أول داخل رسول الله ﷺ فلما رأوه قال : هذا الأمين ، رضينا هذا محمد . فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر ، قال ﷺ هلموا إلى ثوبا فأتي به فأخذ الركن فوضعه فيه بيده ، ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعا ففعلوا ، حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ثم بني عليه)[1] . ورغم أن الفارق في السن بين عمرو ورسول الله ﷺ سبع سنين لكنه في طموحه لا يرضى أن يكون أحد فوقه فجاء محمد بن عبد الله ، وفاز بهذا المجد على مستوى مكة . فلم يعد لديه قدرة على احتلال هذا المركز الذي تبوأه فتى بني هاشم ومضى في طريقه ينافسه في المال ، فما يكاد يحضر من سفر إلا ويتأهب لآخر حتى يرتفع في ثرائه ويسبق الجميع .

بين عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد :

عمارة وعمرو هم من حزب واحد هو حلف الأحلاف فمخزوم وسهم في صف واحد ضد هاشم وحلفائها لكن الصراع داخل الحزب الواحد لا ينقطع ،

---

(١) السيرة النبوة لابن هشام ١ / ١٣٢ - ١٣٣ .

وإذا اعتزم الرجل هـذه العزمة ، وكان من أصحـاب الهمة والشهـامة ، أو ما نسميه اليـوم بالقوة الحيوية فـأخلق به أن يبلغ مـا يصبو اليـه وأن يذهب بعـيدا في مسعاه الذي توفر عليه .

أما أن عـمرا كان من أصـحاب (القـوة الحيوية) فـذلك ظاهر في احتـفاظه بحضور ذهنه ومـضاء عزمه إلى تلك السن العـالية التي تجاوز بها قـوم التسعين ولم يهبط أحـد بها إلى مـا دون السبعين ، فـإنه ليجيش به هذا الطبع ، وقد أناف على الخـامسة والأربعـين إلى فتـح البلاد ، وتقـليب الدول وافـتتـاح المسـاعي إلى المجد والرئاسـة ، كـأنـه ناشيء لمـا يــزل في بادرة الشبـاب ، ومـستــهل المغـامـرات والمجـازفات في سـبيل الشـهـرة والسلطـان ! وقــد وصفت لنا شـارة عمـرو هنا وهناك ، فإذا هو في كل صفة من هذا القبيل عظيم العناية بما يروع الناس من هيبته وفخامـة مـرآه وليست مـشيته التي أشار إليها الفـاروق بـأقـل ما احتفل به لتلك الشارة والفخامة) [1] .

محمد بن عبد الله :

لكن هناك شـابا واحد في مكة لا يفـكر أحد في منافستـه من حيث خلقـه وعفـته وفضلـه هو محمـد بن عبد الله الـهاشمي والذي أطلقت عليـه مكة لقب - الأمين لما تعرف فـيه من علو هذا الخلق إنه ثقـيل على نفسه لـكن الذي يخفف من هذا الثقل أنه لا يدخل في حلبة الـصراع مع الشباب ولا يحضر مـجالس لهوهم وسمرهم ، ولا يقصد مباذلهم وتهتكهم لقد غامر بالتجارة كما غامر عمرو وربح ثقة سيدة مكة الأولـى خديجة بنت خويلد ، وغدا يتاجر بما لـهـا ، الذي أخذ ينمو ويكثر وعندما كان عمرو في الثلاثين من عـمره . وأعيد بناء الحجر الأسود : ارتفع

---

(١) عمرو بن العاص لعباس محمود العقاد / ٢٥ - ٢٦ .

الكامل[1]:

وكانت العرب تسمي الكامل من أتقن القراءة والكتابة وأتقن فنون الفروسية والرماية والسباحة وأدرك عمرو بن العاص بثاقب نظره أن هذه الأمور هي عدة الرجولة الكاملة . ولن يرضى أن يكون أحد خيرا منه ، فلذلك أعطى هذه الخبرات حقها منذ نشأته . وتعلم هذه الفنون جميعاً بحيث لا يدع لأحد فضلا عليه في شيء . أما عن صفاته الجسدية فندع تحليلها للعقاد بقوله :

(والمحفوظ لنا من صفات عمرو الجسدية قليل ولكنه كاف إذا لم يكن بد من الاكتفاء منها بقسط له دلالة فهو كما يؤخذ من حملة الأقوال التي وُصِف بها « أدعج ، أبلج وافر الهامة ، ربعة ، أقرب إلى قصر القامة يخضب بالسواد ، عليه مهابة وشمائل نباهة وسيادة كما يدل عليه ما تقدم من قول عمر فيه : « ما ينبغي أن يمشي أبو عبد الله إلا أميرا) [2] .

وإذا جاز أن يكون لهذا التكوين الجسدي أثر في أخلاقه ، ودخائل طبعه ، فذلك أثر آخر يعين أثر النسب المغموز من جانب أمه ، وهو التماس (التعويض) بكل ما في النفس من حول وحيلة ، وحفز الهمة إلى مكان يسطع فيه المرء سطوعا يداري المغمز في النسب والنقص في المظهر فيروع القلب بالسطوة والشارة إذا اجترأت عليه العيون أول نظرة أو اجترأت عليه الألسنة بالثلب والمهانة ، رجل متهم النسب قصير . ولكنه لا يضار بذلك في مقام الفخر بين ذوي الحسب والبسطة في عظماء الرجال .

---

(١) وكان الكامل عندهم في الجاهلية وأول الإسلام الذي يكتب بالعربية ويحسن العوم والرمي . انظر الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٥٤٢ .

(٢) المصدرنفسه / ٥٨٨٨٢ .

(فعن عبد الله بن أبي لهذيل قال : كان عمرو بن العاص يتخولنا فقال رجل من بني بكر بن وائل : لئن لم تنته قريش ليضعنّ هذا الأمر في جمهور من جماهير العرب سواهم . فقال عمرو بن العاص : كذبت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قريش ولاة الناس في الخبر والشر إلى يوم القيامة)[1] .

وعن علي رضي الله عنه قال : الأئمة من قريش أبرارها أمراء أبرارها . وفجارها أمراء فجارها وإن أمرت علكيم قريش عبدا حبشيا مجدعا فاسمعوا له وأطيعوا ما لم يخير أحدكم بين إسلامه وضرب عنقه . فإن خيّر بين إسلامه وضرب عنقه فليقدم عنقه)[2] .

وواضح من هذه الأحاديث وهي غيض من فيض أن قريشا هي مدرسة تخريج القيادات والكفاءات وعمر بن العاص وهو في هذه البيئة بملك عنصر الوراثة من جهة ، ويملك عنصر الخبرة والكفاءة وإنماء هذه الطاقات من جهة ثانية لقد رعاها في الجاهلية حتى غدا سيدا في قومه وفي حياة أبيه ـ كما سنرى فيما بعد ـ وساعدته مكوناته الوراثية القرشية على ذلك حتى غدا في القمة من هذه السيادة .

(فعن جبير بن مطعم قال قال رسول الله ﷺ : إن للقرشي مثلي قوة الرجل من غير قريش » قيل للزهري : ما عني بذلك ، قال : نبل الرأي)[3] .

---

(١) مسند الإمام أحمد ٤ / ٢٠٣ والترمذي ٢٢٢٧ ج ٤ / ٥٣ وقال حديث حسن غريب صحيح .

(٢) الحاكم والبيهقي صحيح الجامع الصغير للألباني ج ٢ . ٧٥٤ ج ٢ / ٤٠٠٦ وقال عنه : صحيح .

(٣) مجمع الزوائد للهيمثي ١٠ / ٢٦ وقال فهي : رواه أحمد وأبويعلي والبزار والطبراني ورجال أحمد وأبي يعلي رجال الصحيح .

الحياة . وما تلقى فيها من علوم السياسة ومواقع الأمم والبلدان وكانت رحلاته التجارية إلى الشام الحبشة ومصرخليقة بأن تطلعه على أسرار والأمم والشعوب وأن ينفذ إلى عيوب الحكم ومواقع الخلل في الدول التي كانت له يد في الإشارة على الخلفاء بفتحها حين خامرهم التردد في هذا الأمر فاكتسب من كل ذلك العلم والحكمة والحزم وثبات العزيمة والدهاء وغير ذلك من جليل الصفات التي لا تجتمع إلا في القليل النادر من عظماء الرجال ممن أتم الله نعمته عليهم وهداهم إلى التوفيق والفوز في أعمالهم وقد تجمعت هذه الصفات كلها في عمرو بن العاص فأضحى فريدا في عصره ونابغة بين قومه كما كان رحمه الله نابا من أنياب العرب ، وليثا من ليوثهم حتى عد من أبطالهم ودهاتهم وذوي الرأي فيهم)[1] .

بيئة قيادية :

لا بد أن نشير إلى أن عمرو بن العاص هو من قريش . وقريش هي بيئة القيادات ادخرها الله تعالى لتقود هذه الأمة بهذا الدين كما يقول عليه الصلاة والسلام : (فعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ دخل عليها فقال : « لولا أن تبطر قريش لأخبرتها بمالها عند الله عز وجل)[2] .

وقريش تملك مؤهلات القيادة والتي كان أن نمت وترعرعت وتخرجت مدرسة النبوة وهذا حديث بين يدينا روي عن عمر بن العاص رضي الله عنه يؤكد هذا المعنى .

---

(١) عمرو بن العاص لـ : عبدالخالق سيد أبورابية / ٤٨ والناب كناية عن القوة التي يهجم العرب بها على عدوهم .

(٢) مجمع الزوائد للهيثمي ١٠ / ٢٥ وقال فيه : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ،وهو عند أحمد ١٠١/٤ و ٦ / ١٥٨ .

عَمْراً قد تعرف على كل أسواق الأسكندرية ، وبضائعها ورغبة أهلها فهو إنسان طلعة يستغل كل ظرف لبناء مجده وجاهه وثرونه . لقدأصبحت أسواق الشام وفلسطين ومصر مفتوحة أمامه ، وذاق طعم الغنى والثروة التي تأتي من كد يمينه وتعب جبينه لا من ثروة أبيه وعطائه له . وأصبح همه أن يستمتع بلذات حياته وبهجتها فيبدع شيئا من المال يدخره للتجارة ، ويبذخ في بعضه ، ويشتري في بعض عشرات من الإبل تكون مورداً له في حياته من لبنها وأوبارها ولحمها للضيفان والأصحاب . ولم يعد يستطيع المكث بمكة كثيرا إنه يريد أن يجدد مغامراته ، ويتابع السفر بتجارته ، ليس في مكة من أحداث تذكر تقتضي مكثه فيها إلا حنينه لزوجته وولده وزوجه وولده يعرفان أنه حين يسافر ويغامر إنما يُكوِّن لهما الثروة الطائلة والمجد التليد .

وهكذا تمر السنون ويتسع إقبال عمرو على التجارة ، ويصاب بشره المال الذي يفتح سلم المجد له فصار كما ذكر عنه يتاجر ببضائع اليمن والحبشة كالجلد ويحملها الي الشام وببضائع الشام كالزبيب والتين ونحوهما ويحملها إلى اليمن . وكان يختلف بتجارته إلى مصر وهي من الأدم والعطر)[1] وأورد الكندي في أخباره أيضا أن عمرو بن العاص كان فيما بين مواسم التجارة يحترف الجزارة بين جزاري مكة وظل يمارس هذه الحرف إلى ما بعد إسلامه حتى قيام الفتنة بين علي ومعاوية .

(وليس من شك في أن التجارة كانت المدرسة الكبرى التي تخرج فيها عمرو بن العاص الشاب والرجل وكانت الجامعة التي علم فيها ما تعلم من أحوال

---

(١) القضاة والولاة للكندي / ٧ .

وجهًا لوجه ضد الإسلام والمسلمين

عاد عمرو بن العاص من الحبشة بدون عمارة بن الوليد وقص على قريش قصته في تعرضه لنساء النجاشي وكيف فعل النجاشي به ، ولم يتمكن بنو مخزوم أن يفعلوا شيئا بعد خلعهم لعمارة . لكن هم قريش كله كان متجها لحرب محمد وأصحابه (ثم أن قريشا انتمرت رويتهم واشتد مكرهم ، وهموا بقتل رسول الله صلي الله عليه وسلم ، أو إخراجه حين رأوا أصحابه يزدادون ويكثرون ، فعرضوا على قومه أن يعطوهم دينه ويقتلوه ، فأبى ذلك قومه ومنع الله عز وجل رسوله بحمية رهطه ، واشتدوا على من اتبعه على دين الله من أبنائهم وإخوانهم وقبائلهم .. فلما فعل بالمسلمين ذلك آمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل شعب بني عبد المطلب بالخروج الى أرض الحبشة)[1] .

وشعرت مكة أن شبابها يتسللون لواذا يبحثون عن المسلم فلا يرونه . وكانت المفاجأة الصاعقة أن استيقظ عمرو على أخيه هشام فلم يجده لقد فر فيمن فر إلى أرض الحبشة أما بنو الحارث بن قيس بن عدي فقد خرجوا جميعا وهم سبعة . وأصبح بنو سهم يحملون العار في أولادهم أنهم أكثر الناس تبعا لمحمد خصوصا وهشام ورفاقه السبعة هم أبناء العلية من بني سهم أبناء سادة بني سهم العاص بن وائل والحارث بن قيس بن عدي .

وجن جنون العاص أبي عمرو . كيف يفر ابنه منه دون علمه ويخذله ويتبع محمدا علي دينه وهو أحب ولده إليه وشعر عمرو في أعماقه على غضب أبيه على أخيه هشام ، الذي طالما فضله عليه وآثر عليه من قبل وغدت مكة قلقة للأعداد

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢ / ٢٨٥ عن مغازي موسى بن عقبة .

الكبيرة التي تغادر الى الحبشة فاجتمع ملؤهم وقرروا مواجهة محمد على أرض الحبشة ولم لا يفعلون ذلك وبين يديهم عمرو بن العاص صديق النجاشي ولأول مرة تتجه انظار مكة إلى عمرو بن العاص بدل أن تتجه إلى أبيه العاص وتناسوا خلافاتهم وأجمعوا أن يبعثوا وفدهم الى مكة فاختاروا شابين من أعدى العدوين .

اختاروا عمرو بن العاص من بني سهم واختاروا عبد الله بن أبي ربيعة من بني مخزوم (وائتمروا بينهم أن يهدو للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة . ولم يتركوا بطريقا من بطارقته إلا أهدو اله هدية وكان أعجب مما يأتيه الأدم فجمعوا له أدما كثيرا ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص وأمروهما بأمرهم وقالوا لهما : ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشي فيهم ثم قدموا الى النجاشي هداياه ثم سلاه أن يسلمهم اليكما قبل أن يكلمهم)[1] .

مضى عمرو يحدوه الأمل إلى الحبشة بأن يحقق مجداً ضخماً إلى أمجاده وأن ينتصر على محمد وأصحابه ويأتي بهم أسارى يجرون أذيال الخيبة والذل يقر مصيرهم الملأ من قريش فيصبح في هذا الحدث محور مكة وحديث شبابها ونسائها .

وتحدثنا أم سلمة أم المؤمنين عن هذه المهمة فتقول :

فخرجا حتى قدما علي النجاشي ، ونحن بخير دار عند خير جار . فلم يبق بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي ثم انهما قدما هداياهما إلى النجاشي فقبلها منهم . ثم كلماه فقالا له :

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (عن الزهري) ١ / ٢٢٤ .

أيها الملك إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء . فارقوا دين قومهم . ولم يدخلوا في دينك وجاؤوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم فهم أعلى بهم عيناً ،و أعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه .

قالت : ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص أن يسمع كلامهم النجاشي وقالت . فقال بطارقته حوله :

صدقا أيها الملك قومهم أعلى بهم ينا ، وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم ...)

لقد كان عمرو بن العاص هو أذكى وأدهى قريش فبعد أن هيأ الجو النفسي للنجاشي وبطارقته . راح يتحدث بعبقرية فذة في تسفيه وضع المسلمين .

فهم ـ غلمان سفهاء ليس فيهم من ذوي الرأي والحُجى أحد .

وجريمتهم أنهم خرجوا على دين قومهم أولا ولو أنهم دخلوا في دين الملك لغفرت لهم هذه الجريمة ولكنهم لم يدخلوا في دين الملك وهذه جريمة ثانية أن يأووا اليه وهم خارجون على دينه . ومحاربون له وهذه هي الجريمة الثانية أما الجريمة الثالثة فهم زناديق جاؤوا بدين جديد ابتدعوه لا يعرفه قومهم ولا يعرفه الملك .

وأشراف مكة وقادتها هم الذين بعثوا بعمرو وصاحبه يطلبون تسليم هؤلاء السفهاء اليهما لتأديبهم والضرب على سفاهتهم بأيد من حديد وأولو الشرف أعلم بعيوبهم ونقائصهم وأدرى بما ضيهم وأوضاعهم . وهذه الخطة قد أجمعت عليها مكة في قطع الطريق على المسلمين أن يصلو الى النجاشي وذلك حين أوصت عمرا وعبد الله أن يوزعوا هداياهم على البطارقة بصفتهم مستشارين للملك .

وقد تم هذا فعلا ونفذت الخطة بدقة كاملة ، وبمستوى عال من الذكاء لكن العنصرالذي لم يكن بالحسبان هوشخصية النجاشي العبقرية واسعة الأفق فبعد أن سمع مشورة دهاقنة سياسته صدقا أيها الملك ، قومهم أعلى بهم عينا ، وأعلم بما عبوا عليهم ، فأسلم اليهما فليرداهم الى بلادهم وقومهم .

قالت : فغضب النجاشي ، ثم قال :

لاها(١) الله إذن لا أسلمهم اليهما ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي حتي دعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم اليهما ورددتهم الى قومهم وان كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاوروني .

قالت : ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهم فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض : ما تقولون للرجل إذا جئتموه ؟ قالوا : نقول والله ماعلمنا وما أمرنا به نبينا صلى الله عليه وسلم كائناً في ذلك ما هوكائن ، فلما جاؤوا وقد دعى النجاشي أساقفته . فنشروا مصاحفهم حولهم وسألهم فقال لهم :

ما هذا الذي فارقتم به قومكم ، ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من الملل ؟

فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب فقال له :

أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف . فكنا على ذلك حتى

---

(١) لاها الله الهاء بدل من لاو أي لا والله هكذا جاء في الحديث لاها الله إذن وقال ابن مالك في اللفظ بها أربعة أوجه .

بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه . فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع من كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان . وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم وحسن الحوار والكف عن المحارم والدعاء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام .

قالت : فعدّو عليه أمور الإسلام فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من عند الله فعبدنا الله وحده . ولم نشرك به شيئا ، وحرمنا ما حرّم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا الى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، وخرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك .

قالت : فقال له النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله شيء ؟ فقالت ، فقال له جعفر : نعم . فقال له النجاشي : فاقرأه علي قالت : فقرأ عليه صدرا من كهيعص ﴾ . قالت : فبكي النجاشي حتى اخضلت[1] لحيته ، وبكت أساقفته [2] حتى اخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم ، ثم قال لهم :إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة . انطلقا . فلا والله لا أسلمهم إليكما ..)

كان عمرو بن العاص بعد أن حنق كثيراً الدعوة جعفر وأصحابه ، وصك أسنانه غيظا لهذه الدعوة لكنه لا يستطيع أن يواجه النجاشي بعد أن حسم الأمر

(١) فضلت لحاهم ابتلت .

(٢) أساقفته : علماء النصارى .

مع بطارقته . بأنه لا يمكن إلا أن يسمع منهم . كان عمـرو وهو يستمع لجعفر كأنما يتجرع العلـقم جرعة بعد جرعـة ، وهو يرى بين عينيه بناءه ينهار لبنة بعـد لبنة بعد أن أحكمـه وأقامه وكـان يستـمع لجعـفر ولا يجـرؤ أن يرد عليه في مـجلس الملك وحين يسمع ما يقول جعفر يراه ينطق بالحكمة البالغة وحسن العرض والقدرة على الإقناع فيزداد قـهرا وغيظاً حتى ليكاد يتـفجر من جوانبـه . فقد استطاع جـعفر بن أبي طالب الهـاشمـي ابن عم محـمد بـن عبـد الله أن يعـرض دين قريش في أقـبح صورة ، وأن يقدم الاسلام في أجلى صورة وأجمل عرض .

كمـا استطاع من جهة ثانيـة وبعبقريـة نادرة حطمت عبقرية عـمرو أن يضع قادة مكة فـي قفص الاتهام ومـوقع الظلمة والطغـاة (فعـدا علينا قومنا ، فـعذبونا ، فتنونا عن ديننا ليـردونا الى عبادة الأوثان عن عـبادة الله تعالى وأن نستـحل ما كنا نستحل من الخبائث) بينـما عرض المسلمين في ثوب المضطرين الأبطال الصابرين على دين الله وشرعه وعلم كم يؤثر حسن أداء جعفر وهو يثني على الملك وحسن جواره وطيب أحدوثتـه وأن هذه هي أربح ورقة طرحها جعفر فـي حديثه ـ حسب تقدير عمرو ـ .

فلمـا قـهـرونا وضـيـقـوا علينـا وحـالوا بيننا وبين ديننـا ، خـرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك .

لكن الذي ذبحه من الوريد الى الوريد هو طلب النجاشي أن يستمع للقرآن فهـو يعرف سـحر كلام مـحمد الذي يقـول عنه أنه من عند الله لقـد ذهل به قادة قومه فعتبة بن ربيعة قال عنه .

(ورائي أني سمعت قولا والله ما سمـعت مثله قط . والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة ولا بالسـحر يا معشـر قريش اطيعوني واجـعلوها بين ، وخلوا بين هـذا

الرجـل وبين مـا هـو فيـه فـاعتـزلوه . فوالله ليكـون لقوله الذي سـمعت منه نبـأ عظيم [1] .

والوليد بن المغيرة سيد بني مخزوم وعظيم قريش قال فيه :

(والله إن لقـوله حـلاوة ، وإن أصلـه لمغـدق ، وأن فـرعـه لجناة ، ومـا أنتم بقائلين مـن هذا شيئـا إلا عرف أنه باطل ، وإن أقـرب القول فيـه لأن تقولوا سـاحر جاد بـقول هو سـحر يفـرق بين المرء وأبيه وبين المرء وأخـيه وبين المرء وزوجـه وبين المرء وعشيرته)[2].

فهـو نعم يفعل فـعل السحـر في النفوس ، فـماذا يفعل في نفس الـنجاشي . وكانت التلاوة ، وكان حسن اختيـار جعفر لصدر سورة مريم الرخي الندي الذي يعرفه الأساقفة والنجاشي على رأسهم . إنهم يقرأون قصة زكريا ويحيى عندهم . فما تفعل فيهم ما فعلت هذه التلاوة وكان البكاء والنحيب من الجميع .

كان عمرو يستمع ولأول مرة يجدنفسه وجها لوجه أمام كلام محمد الذي يقول عنه إنه من عند الله . ولا مجال له أن لا يستمع ، فهو لا يستطيع الانسحاب من مجلس الملك ، ويأتيه صوت ضعيـف من أعماق أعماقه أليس هذا بالحق ؟ من يستطيع أن يقول مثل هذا الكلام ، إلا من عند الله ، وأي بشـر يستطيعه؟ ثم يفيق من هول هذا النداء ويذكر أنه مبعوث قـريش . وأن مكة كلها تنتظر قدومه بهؤلاء الأسارى مقـرنين في الأغلال فتـمرد فيتـمر ويصبر وكـأنما هو على مرجل يغلي من نار إلى أن انفض المجلس وحسم الـنجاشي الأمر قائلا : لـعمر وصاحـبه انطلقا فلا والله لا أسلمهم اليكما .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ١٩٤ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١ /١٧٩ .

تخطيط وذكاء :

وكما خطط عمرو للقضاء على عمارة بن الوليد وهو صديقه وعلى دينه تفتقت عبقريته عن فكرة خبيثة غادرة كفيلة بأن تدمر الوجود الإسلامي كله في الحبشة .

تحدثنا أم سلمة عن هذا التخطيط الرهيب فتقول :

(فلما خرجا من عنده ، قال عمرو بن العاص : والله لآتينه غدا عنهم بما أستأصل خضراءهم فقال له عبد الله بن أبي ربيعة . وكان أتقى الرجلين فينا : لا تفعل فإن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا ، قال : والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد قالت ثم غدا عليه من الغد فقال له :

أيها الملك !! إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً . فأرسل إليهم ، فسلهم عما يقولون فيه . قالت : فأرسل إليهم ليسألهم عنه . قالت : ولم ينزل بنامثلها قط . فاجتمع القوم ثم قال بعضهم لبعض : ماذا تقولون في عيسى بن مريم إذا سألكم عنه ؟ قالوا : نقول والله ما قال الله فيه ، وجاءنا به نبينا كائنا في ذلك ما هو كائن .

قالت ، فلما دخلوا عليه ، قال لهم ما تقولون في عيسى بن مريم فقال جعفر : نقول فيه الذي جاء به نبينا صلى الله عليه وسلم ، يقول : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول) .

ورأى عمرو أنه قد قص أعناقهم بهذا الجواب ، فهو يعرف رأي البطارقة بتأليه عيسى بن مريم رغم أنه لا يعنى بأمور الدين والعقيدة . لكن السياسة علمته أن يتعرف على كل شيء . لكن جواب النجاشي جاء كوقع الصاعقة على رأسه :

(قالت : فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال. فقال : وإن نخرتم والله .

ذهبوا فأنتم شبوم[1] بأرضي ، من سبكم غرم من سبكم غرم ، من سبكم غرم ما أحب أن لي دبرا من ذهب[2] وأني آذيت رجلا منكم ، ردوا عليهم هداياهم ، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي مُلكي ، فآخذ الرشوة فيه وما أطاع الناس فيّ فأطيعهم فيه .

قالت : فخرجا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به ،وأقمنا عنده بخير دار عند خير جار)[3] .

هل دبر الانقلاب على النجاشي :

وهذا الاحتمال قوي جدا فصلته وثيقة مع البطارقة حيث قدم لكل بطريق هديته قبل لقاء النجاشي ، ولاحظ بعينه النفاذة أن البطارقة جمجموا وغضبوا حين رأو النجاشي يعترف بعبودية عيسى بن مريم والإهانة التي ألحقها النجاشي به وبصاحبه في رد هداياهم جميعا وغضب البطارقة لنفوسهم أن سحبت الهدايا منهم بعد الاعتراف بعبودية عيسى لله كل هذه الأمور لا تبعد أبداً أن يكون عمرو ابن العاص هو الذي أشعف فتيل الثورة ضد النجاشي .

تروي أم سلمة لناقصة هذه الثورة بالسند الصحيح الذي رواه أحمد عنها :

قال : (فوالله إنا لعلى ذلك إذ نزل به رجل من الحبشة ينازعه في ملكه . قالت : فوالله ماعلمنا حزنا قط كان أشد علينا من حزن حزناه عند ذلك

---

(١) شبوم : آمنون .

(٢) دبر أ من ذهب : جبلا من ذهب .

(٣) مجمع الزوائد ٦ / ٢٥ - ٢٧ وقال الهيمثي رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح إلا ابن اسحاق وقد صرّح بالسماع فالحديث صحيح ، وهو في السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٢٢٤ - ٢٢٦ .

تخوفا أن يظهر ذلك الرجل على النجاشي فيأتي رجل لا يعرف من حقنا ما كان النجاشي يعرف منه قالت :

وسار إليه النجاشي وبينهما عرض النيل ، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : من رجل يخرج حتى يحضر وقعة القوم ثم يأتينا بالخبر ؟ فقال الزبير بن العوام : أنا . قالوا : فأنت وكان من أحدث القوم سنا فنفخوا له قربة فجعلها في صدره ، ثم سبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التي بها ملتقى القوم ، ثم انطلق حتى حضرهم . قالت : فدعونا الله تعالى للنجاشي بالظهور علي عدوه . والتمكين له في بلاده قالت : فوالله : إنا لعلى ذلك متوقعون لما هو كائن . إذ طلع الزبير وهو يسعى فلمع مثبوبه وهو يقول : ألا أبشروا فقد ظفر النجاشي ، وأهلك الله عدوه ، ومكنَّ له في بلاده . قالت : فوالله علمنا فرحنا فرحة مثلها قالت : ورجع النجاشي وقد أهلك عدوه ، ومكَّن له في بلاده ، واستوسق عليه أمرالحبشة فكنا عنده في خير منزل ، حتى قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة)[١] .

لكن النجاشي كان أدهى من عمرو والثائرين عليه . كماتحدثنا رواية ابن اسحاق الثانية .

قال ابن اسحاق : وحدثني جعفر بن محمد عن أبيه قال :

اجتمعت الحبشة . فقالوا للنجاشي : إنك فارقت ديننا ، وخرجوا عليه فأرسل إلى جعفر وأصحابه فهيأ لهم سفنا وقالوا : اركبوا فيها وكونوا كما أنتم فإن هزمت فامضوا حتى تلحقوا بحيث جئتم . وإن ظفرت فاثبتوا ثم عمد إلى

---

(١) مجمع الزوائد ٢٧/٦ وقال فيه: رواه أحمد وراله رجال الصحيح ، الا ابن اسحاق وقد صرح بالسماع .

كتاب فكتب فيه أشهد أن لا إله الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ويشهد أن عيسى ابن مريم عبده ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم . ثم جعله في قبائه عند المنكب الأيمن ، وخرجإلى الحبشةوصفوا له . فقال :يا معشر الحبشة ألست أحق الناس بكم ؟ قالوا : بلى فكيف رأيتم سيرتي فيكم ؟ قالوا : خير سيرة . قال : فمابالكم ؟ قالوا : فارقت ديننا وزعمت أن عيسى عبدا قال : فما تقولون أنتم في عيسى ؟ قالوا : نقول : هو ابن الله ، فقال النجاشي ووضع يده علي صدره على قبائه : هو يشهد أن عيسى بن مريم ، لم يزد على هذا شيئا : وإنما يعني ما كتب . فرضوا وانصرفوا عنه . فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم . فلما مات النجاشي صلى عليه واستغفر له)[1] .

رواية أخرى تكشف جوانب من دهاء عمرو:

فعن عروة بن الزبيررضي الله عنه قال (... فبعثت قريش في آثارهم عمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومي[2] وعمرو بن العاص السهمي ، وأمروهما أن يسرعا السير حتى يسبقاهم إلى النجاشي ففعلا ، فقدما على النجاشي ، فدخلا عليه فقالا له :

إن هذا الرجل الذي بين أظهرنا ، وأفسد فينا وتناولك ليفسد عليك دينك وملكك وأهل سلطانك ونحن لك ناصحون . وأنت لنا عيبة صدق ، تأتي إلى عشيرتنا بالمعروف . ويأمن تاجرنا عندك فبعثنا قومنا إليك لننذرك فساد ملكك وهؤلاء نفر من أصحاب الرجل الذي خرج فينا ونخبر لك بما نعرف من خلافهم الحق انهم لا يشهدون أن عيسى بن مريم إلها ولا يسجدون لك إذا دخلوا عليك ، فادفعهم إلينا فلنكفيكهم .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٢٢٨ .

(٢) هذه الرواية تشير الى أن ما جرى بين عمرو وعمارة قد تم في هذه الرحلة .

فلما قدم جعفر وأصحابه وهم على ذلك من الحديث ، وعمرو عمارة عند النجاشي ، وجعفر وأصحابه على ذلك الحال ، فلما رأوا أن الرجلين قد سبقاه ودخلا وصاح جعفر على الباب : يستأذن حزب الله فسمعها النجاشي ، فأذن لهم فدخلوا عليه . فلما دخلوا وعمرو وعمارة عند النجاشي قال : أيكم صاح عند الباب ؟ فقال جعفر : أنا هو . فأمره فعاد لها . فلما دخلوا وسلموا تسليم أهل الإيمان ، ولم يسجدوا له ، فقال عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد .

ألم نبين لكخبر القوم ؟ فلما سمع النجاشي ذلك أقبل عليهم فقال :

أخبروني أيها الرهط ما جاء بكم ؟ وما شأنكم ؟ ولستم بتجار . ولا سؤال ؟ وما نبيكم هذاالذي خرج ؟ وأخبروني مالكم لا تحييوني كما يحييني من أتاني من أهل بلدكم وأخبروني ماذا تقولون في عيسي بن مريم ...) .

لم تنسج المؤامرة هنا من أمرواحد بل نسجت من ثلاث أمور كل واحد أخطر من الآخر .

الأمرالأول : تهديد الملك بالزوال والبوار تناولك ليفسد عليك دينك وملكك وأهل سلطانك فبعثنا قومنا لننذرك فساد ملك .

ولا شيء أخطر في حياة الحاكمين ممن يهددهم في حكمهم وسلطانهم فهم على استعداد أن يبدوه كائنا من كان ولوكان أقرب الناس اليهم وكم قتل أخ أخاه وولد أباه من أجل هذا السلطان .

الأمر الثاني : الكفر وإفساد العقيدة : إنهم لا يشهدون أن عيسى بن مريم إلها .

الأمرالثالث : تحدي النجاشي في سلطانه علنا وأمام الملأ . (ولا يسجدون لك إذا دخلوا عليك) ترى كم بقي عمرو ينسج الخيوط ويحبك العقد حتى

استقام له الأمر بهذه العبقرية وقد ظهر الأثر العملي لصحة كلام عمرو مباشرة فهم قد دخلوا على النجاشي ولم يسجدوا له وهم لم يحيوه بتيحة الملوك فهم مستخفون به خارجون على سلطانه داعون للقضاء على ملكه مبتدعون لدين جديد يتحدى النصرانية في صميمها إذ لا يؤمنون بألوهية المسيح .

لكن عمراً كلما نسج مؤامرة تفتقت عنها عبقريته كلما فوجيء بأدهى منه وأذكى وأمهر .

فهذا خصمه جعفربن أبي طالب ،قد رأى أنه قد ساقه إلى المقصلة وبدل أن يمضي ليدافع عن نفسه راح يطرح أموراً أخرى بين يدي النجاشي الذي وجَّه له الاتهامات الثلاث .

(فقام جعفر بن أبي طالب وكان خطيب القوم ، فقال : إنما كلامي ثلاث كلمات . إن صدقت فصدِّقني وإن كذبت فكذِّبني (فأمر أحدا من الرجلين فليتكلم ولينصت الآخر قال عمرو : أنا أتكلم

قال التجاشي : أنت يا جعفر فتكلم قبله فقال جعفر :

إنما كلامي ثلاث كلمات . سل هذا الرجل : أعبيد نحن أبقنا[1] من أربابنا؟ فأردنا إلى أربابنا ؟؟ فقال النجاشي: أعبيُدُهم يا عمرو؟ قال عمرو بل أحرار كرام .

قال جعفر: سل هذا الرجل وهل أهرقنا دما بغير حقه ؟ فادفعنا إلى أهل الدم. فقال : هل أهرقوا دما بغير حقه ؟ فقال : ولا قطرة واحدة من دم .

ثم قال جعفر :سل هذا الرجل أخذنا أموال الناس بالباطل ؟ فعندنا قضاء . قال النجاشي يا عمرو إن كان على هؤلاء قنطار من ذهب فهو علي . قال عمرو : ولا قيراط . فقال النجاشي : ماتطلبونهم به ؟

---

(١) أبقنا : هربنا .

قال عمرو : فكنا نحن على دين واحد ، وأمر واحد فتركوه ولزمناه . فقال النجاشي :

ما هذا الذي كنتم عليه فتركتموه ، وتبعتم غيره ؟

فقال جعفر : أما الذي كناعليه فدين الشيطان وأمر الشيطان نكفر بالله ونعبد الحجارة فأما الذي نحن عليه فدين الله عز وجل نخبرك : أن الله بعث إلينا رسولا كما بعث الى الذين من قبلنا فأتانا بالصدق والبر ونهانا عن عبادة الأوثان ، فصدقناه ، وآمنا به واتبعناه .

فلما فعلنا ذلك عادنا قومنا وأرادوا قتل النبي الصادق وردنا في عبادة الأوثان ففررنا إليك بديننا ودمائنا ولو أقرنا قومنا لاستقررنا فذلك خبرنا .

إن جعفر بن أبي طالب يقبس من مشكاة النبوة فهو أشبه برسول الله صلى الله عليه وسلم خَلْقا وخُلُقًا . وإذا كانت عبقرية عمرو قد بدت في التآمر والكيد ومحاولة الإيقاع بالمسلمين فإن نصاعة الحق الذي يحمله جعفر وعبقريته في تفتيت هذا التآمر وفضحه لتأخذ بالألباب .

فبعد أن تمكن عمر من وضع المسلمين بصيغة الجناة المجرمين الذين أفسدوا أمر مكة وجاؤوا ليفسد أمر النجاشي ، وابتدعوا دينا جديدا ينكر ألوهية عيسى ويرفض دين قريش ولا بد من تسليم هؤلاء المجرمين للحفاظ على ملك النجاشي نفسه ، استطاع جعفر رضي الله عنه أن يقلب السحر على الساحر حين عرض للنجاشي هذه الأمور الثلاثة . فالعبد الآبق يسلم لسيده ومهما بلغت أخلاقية عمرو من التدني فلها حد نقف عنده، لا يمكن أن يقبل أو ينقل عنه كذبة واحدة فيقول عنهم أنهم عبيد ، وبذلك تشتهر الكذبة عنه في العرب فيسقط مجده ،

وتسقط مروءته وبذلك أكد بقوله أنهم أحرار كرام . فالعبد الآبق يسلم لسيده وهؤلاء أحرار كرام .

وكان السؤال الثاني : هل سفكوا دما بغيرحق فالقاتل الفار من القتلة خطر في أي مكان يحل فيه ، فلا بد أن يسلم المجرم للعدالة وصدق عمرو في الإجابة قائلا ولا قطرة دم واحدة .

وكان السؤال الثالث : هل أخذنا أموال الناس بالباطل فعندنا قضاء والمدين والسارق قد يفران بأموال لغيرهم فهم مجرمون سوف يفسدون في بلد النجاشي بعد أن عاثوا في الأرض فسادا في مكة فأكد عمرو ولا قيراطا واحدا .

وبذلك قلب جعفر الموازين كلها لا لنقص في دهاء عمرو ، بل لحرصه على أن لا تؤثر عنه كذبة واحدة وإذا كان أبوسفيان بن حرب قد رفض فيما بعد أن يكذب على محمد كذبة واحدة عند قيصر فتؤثر عنه فعمرو يحمل التربية نفسها التي يحملها أبو سفيان ولو كان سيخسر الجولة أو المعركة .

وهكذا لم تعد القضية قضية مجرمين يسلمون ، أو عبيد آبقين يقادون بالسلاسل إنما القضية قضية صراع العقيدة بين الجانبين .

ونصاعة بيان جعفر بذَّت نصاعة بيان عمرو حين أبرز القضية للنجاشي أنهم ملاحقون لأنهم تركوا عبادة الأحجار والأوثان واعتصموا بدين الله وجعفر يدري مفهوم الدين عند النجاشي فصاح ابتداء عند الدخول : حزب الله يستأذن عليك .

وبعدها أخذ يحل عقد المؤامرة أحبولة أحبولة .

(وأما شأن التحية فقد حييناك بتحية رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي يحيي به بعضنا بعضا أخبرنا رسول الله أنها تحية أهل الجنة .

وأما السجود فمعاذ الله أن نسجد إلا لله وأن نعدلك به .

وأما في شأن عيسى بن مريم فان الله عز وجل أنزل في كتابه على نبينا أنه رسول قد خلت من قبله الرسل ولدته الصديقة العذراء البتول المصان ، وهو روح الله وكلته ألقاها الى مريم وهذا شأن عيسى ابن مريم .

فلما سمع النجاشي قول جعفر أخذ بيده عودا ثم قال لمن حوله : صدق هؤلاء النفر ، وصدق نبيهم والله ما يزيد عيسى بن مريم على ما يقول هذا الرجل ولا وزن هذا العود فقال لهم النجاشي : امكثوا فإنكم سيوم آمنون قد منعكم الله وأمر لهم بما يصلحهم فقال النجاشي :

أيكم أدرس الكتاب الذي نزل على نبيكم ؟ قالوا : جعفر فقرأ عليهم جعفر سورة مريم فلما سمعها عرف انه الحق وقال صدقتم وصدق نبيكم . نتم والله صديقون امكثوا على اسم الله وبركته آمنين ممنوعين وألقي عليهم المحبة من النجاشي) [(١)] .

---

(١) مغازي عروة بن الزبير / ١١١ - ١١٣ . وقد رواه عن عروة عمرو بن خالد (ثقة) عن ابن لهيعة (صدوق في حديثه ضعف) عن أبي الأسود (ثقة) . والرواية التي ذكرت أن الرسولين عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد تقول : وكان الله عز وجل قد ألقى العداوة بين عمرو بن العاص وعمارة في مسيرهما قبل أن يقدما الى النجاشي . ثم اصطلحا حين قدما علي النجاشي ليدركا حاجتهما التي خرجا إليها في طلب المسلمين فلما أخطأهما ذلك رجعا إلى ما كان بينهما من العداوة وسوء ذات البين ومكر عمرو بعمارة فقال : يا عمارة : إنك امرؤ جميل فاذهب الى امرأة النجاشي فتحدث عندها اذا خرج زوجها فإن ذلك عونا لنا في حاجتنا ، فراسلها عمارة حتى دخل عليها فلما دخل عليها انطلق عمرو الى النجاشي فقال له : إن صاحبي هذا صاحب نساء ، وإنه يريد أهلك ، فاعلم علم ذلك فبعث النجاشي فإذا عمارة عند أهله فأمر فنفخ في إحليله ثم ألقى في جزيرة من البحر فجن واستوحش مع الوحش ورجع عمرو الى مكة قد أهلك الله صاحبه وخيب مسيره ومنعه حاجته مجمع الزوائد (٦ / ٣١) وقال : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

وعاد عمرو بن العاص بآخسر صفقة مني بها في حياته وليعلن لقريش فشله في مهمته وكان رأسه يتأجج في دوامة الصراع الرهيب بين ماخطط للظفر به وما مني به من فشل ذريع في مهمته ، يحلل أسباب ذلك ويرفض أن يعيده إلى التفوق الفكري والعقلي عند جعفر عليه ويعلم في أعماق نفسه أنه إنما يدافع ابتداء عن قضية خاسرة فعبادة الأصنام والأوثان لا تشرفه وبحكم خبرته الواسعة وبعد ملاقاته التجارية والسياحية خارج مكة وتعرفه على عقائد الناس وأديانهم يرى أنه يستحي أن يدافع عن عبادة هذه الأصنام ، ويرى في الوقت نفسه ان العقائد الأخرى من النصرانية واليهودية فيها كثير من الخرافات التي لا يقبلها عقله الناضج، ما يطرحه محمد بن عبد الله الفتى الهاشمي ، وما سمعه من جعفر ابن عمه وعظمة البلاغة العربية التي سمعها في صدر سورة مريم تجعله يدرك أن هناك جانبا كبيراً من صدق محمد بن عبد الله الذي لم يكذب قط لكنه من جهة أخرى يرى أن هذه ليست مهمته ، فهو قلما يعنى بالعقائد وأمور الدين ويترك هذه الأمور للملأ من قريش يتخذون القرار المناسب فيها . ولكن الذي يعنيه هو النصر السياسي ، والكسب الشخصي وتثبيت الزعامة في هذا المجتمع المكي ومن هذه الزاوية التي تستأثر باهتمامه أكثر من أي شيء آخر يزداد إصراراً على حرب محمد وحزبه ودعوته فقد طُعن بشخصه ورُدَّ مقبوحاً من عند صديقه النجاشي وطعن من جعفر وصحبه وليس أمامه إلا الانتقام من جعفرومن معه ومحمد ومن معه وهو ليس من الذين يقبلون أن يلعقوا آثار الهزيمة في المعركة انما يترك الأمر للزمن حتى يحقق مأربه والحدث الذي أقلقه جدا في معركة مكة هو إسلام عمر بن الخطاب أكبر حلفاء بني سهم وانضمامه إلى محمد بن عبد الله وهو يدرك أن إجارة أبيه لعمر قد كفت قريش عنه وأثبتت زعامة العاص وسيادته . لكن على المدى البعيد فقد بدأت كفة محمد تميل إلى الرجحان حيث أصبحت الحبشة قاعدة آمنة

لحزب محمد وأصحب اسلام عمر شوكة في حلقه إذ أصبح يرى المسلمين يتحدون زعامة مكة ويُصلُّون آمنين حول الكعبة والمخرج من هذه الدوامات جميعا هو الهروب إلى الأسواق والتجارة فهو إن فشل في السياسة لكنه لم يفشل في الكسب والتجارة وليعوِّض عن هزيمته هذه بكسب مزيد من الثروة ومزيد من المال، فالناس ينسون أمام بريق المال كثيرا من بريق القيم والمبادىء .

عمرو وريث أبيه العاص :

كان عمرو كلما عاد من رحلاته في التجارة يعود ليسأل عن آخر أخبار مكة مع محمد صلي الله عليه وسلم . وسر سرورا عظيماً لأكبر نجاح حققته قريش حين استطاعت أن تعزل محمداً وحزبه مع بني هاشم في شعب أبي طالب فلا تنكح اليهم ولا تنكح منهم ولا تبيعهم ولا تبتاع منهم حتى يسلموا محمدا لها وكان قمة سروره في الإجماع بين قبائل مكة كلها على ذلك بما فيهم من بني عبد مناف بني عبد شمس وبني نوفل ، وسرَّه خروج ابي لهب على بني هاشم وانضمامه إلى مكة في هذا الموقف ورأى أن نهاية محد وحزبه قد حانت بهذا الحصار الذي تم عليهم في الشعب . كما استعمل سلطانه وسطوته في حبس أخيه هشام بن العاص في بيته لكن هشاما كان يجرح كبرياءه في إصراره على الإسلام والإيمان بمحمد رغم حبسه وتعذيبه . ولم يعد أمر مكة يعنيه كثيرا بعد هذا النجاح الباهر الذي حققته قريش كما كان يؤرقه كثيرا وجود الإسلام في الحبشة واذا كان النجاشي قد صدق محمدا في دعواه ونصر المسلمين هناك فهذا يعني أن الحصار قد لا يحقق هدفه ويبقى الإنهاء الحقيقي للإسلام هو في القضاء على محمد بن عبد الله وقتله وما دون ذلك فكثير من الشباب ينفلتون ويتحدون آباءهم وعشائرهم في انضمامهم الي الصف الإسلامي .

لم تطل فرحة عمرو كثيرا بهذا الحصار فقد شهد ذلك الموقف من أبي طالب حين جاء قريشا يقول لهم : (قد حدثت أمور بينكم لم نذكر هالكم فأتوا بصحيفتكم التي تعاهدتم عليها فلعله أن يكون بيننا وبينكم صلح وانما قال ذلك خشية أن ينظروا في الصحيفة قبل أن يأتوا بها فأتوا بصحيفتهم معجبين بها لا يشكون ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مدفوعا اليهم فوضعوها بينهم وقالوا : قد آن لكم أن تقبلوا وترجعو إلى أمر قومكم فإنما قطع بيينا وبينكم رجل واحد جعلتموه خطرا لهلكة قومكم وعشيرتكم وفسادهم فقال أبو طالب :

إنما أتيتكم لأعطيكم أمرا لكم فيه نصف[1] إن إبن أخي قد أخبرني ولم يكذبني : أن الله عز وجل بريء من هذه الصحيفة التي في أيديكم ومحا كل اسم هو له فيها وترك فيها غدركم وقطيعتكم ايانا ونظاهركم علينا بالظلم فإن كان الحديث الذي قال ابن أخي كما قال فأفيقوا فوالله لا نسلمه أبدا حتى نموت من عند آخرنا وان كان الذي قال باطلا دفعناه اليكم فقتلتم أو استحييتم قالوا : قد رضينا بالذي تقول ففتحوا الصحيفة فوجودوا الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم قد أخبر خبرها فلما رأتها قريش كالذي قال أبو طالب قالوا : والله إن كان هذا قط إلا سحر من صاحبكم فارتكسوا أو عادوا بشر ما كانوا عليه بكفرهم والشدة على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال أولئك النفر من بني عبد المطلب : إن أولى بالكذب والسحر غيرنا فكيف ترون فإنا نعلم أن الذي اجتمعتم عليه من قطيعتنا أقرب الى السحر والجبت من أمرنا ولولا أنكم اجتمعتم على السحر لم تفسد صحيفتكم وهي في أيديكم طمس الله ما كان فيها من اسم وما كان من بغي تركه أفنحن السحرة أم أنتم) .

---

(١) النصف : العدل .

وأدرك عمرو بثاقب نظره أن هذه الصحيفة على وشك الانهيار فإن كان الكبار في مكة مصرين عليها فقد هزموا في معركتهم مع أبي طالب كماهزم هو في معركته مع جعفر .

(فقال عند ذلك النفر من بني عبد مناف ومن بني قصي ورجال من قريش ولدتهم نساء من بني هاشم منهم أبو البختري بن هشام والمطعم بن عدي وزهير بن أبي أمية بن المغيرة ، وزمعة بن الأسود وهشام ابن عمرو وكانت الصحيفة عنده وهو من بني عامر بن لؤي في رجال من أشرافهم ووجوهم : نحن برآء من هذه الصحيفة فقال أبو جهل : هذا أمر دُبر بليل وأنشأ أبو طالب يقول الشعر في شأن صحيفتهم ويمتدح النفر الذين تبرأوا منها ونقضوا ما كان فيها من عهد ويمتدح النجاشي.

قال موسى بن عقبة : فلما أفسد الله عز وجل صحيفة مكرهم خرج النبي صلى الله عليه وسلم ورهطه فعاشوا وخالطوا الناس) [1] . وفي رواية للبلاذري : (ولما كان من خروج أبي طالب إلى قريش وإخبارهم بما حدث من أمر الصحيفة من أكل الأرضة إياها ما كان رجع أبو طالب إلى الشعب هو يقول لماذا يحبس وقد أبان الله الأمر ووضح الحق قالوا وشرب المطعم بن عدي وانتشى قال : من مثلي ؟ فقال له عدي بن قيس بن عدي السهمي فما بال بني عمك مظلومين ؟ فلما صحا لبس سلاحه ولبس أبو البختري ، وزهير بن أبي أميه ، وهشام بن عمرو وعتبة بن ربيعة وزمعة بن الأسود سلاحهم وصاروا إلى الشعب فأخرجوا بني هاشم وبني المطلب فلما رأت قريش ذلك سقط في أيديهم وعلموا أنهم لا يسلمونهم وأن

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٣١٣ - ٣١٤ .

عشائرهم تمنعهم وكان خروجهم من الشعب في السنة العاشرة من نبوة النبي صلى الله عليه وسلم وكـان موت أبي طالب بعد خـروجهم من الشعب في ذي القـعدة سنة عشر من المبعث)[1] .

وكان الخبر الذي اهتزت له مكة وأفاقت عليه مذعورة في الليل .

(يا أهل المبـاجب والجبـاجب : المنازل هل لكم في مـذمم والصـباة مـعه قـد اجتمعوا على حربكم ...)[2] (فلما رأت قريش مـا كان من فعل الأوس والخزرج جاء اليهم بنو عـمه الأقربين منهم أبو جهل وعتبة وأبو سـفيان وشيبة وأمـية وسهيل ونبيه ومنبه والنضر بن الحارث وعمرو بن العاص)[3].

(فـقالوا : يا مـعـشر الخـزرج إنه قـد بلغنا أنكم قـد جئتم إلى صـاحـبنا هذا تستـخرجونه من بين أظهرنا وتبـايعونه على حربنا وإنه والله مـا من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم فانبعث من هناك من مشركي قومنا يحلفون بالله ما كان من هذ شيء وما علمناه . قـال : وصدقوا ، لم يعلموا .. قال ابن اسحاق وحدثني عبد الله بن أبي بكر أنهم أتوا عبد الله بن أبي بن سلول فقالوا له مثل مـا قال كعـب من القول فقـال لهم : إن هذا الأمر جسـيم . ما كـان قومي ليـتفـوتوا علي بمثل هذا وما علمـته كـان فـانصرفـوا عنه قال : ونفـر الناس من منى فتنطس الناس الخبر فوجدوه قد كان .. فخرجوا في طلب القوم .

قال ابن هشام : التنطس المبالغة [4] ..)[5] .

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري ١ / ٢٣٦ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٣٠٥ .

(٣) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب للألوسي / ١٩٠ .

(٤) المبالغة في البحث .

(٥) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٣٠٥ - ٣٠٦ .

وحين ننظر الي العلية من قريش ووفدهم إلى الخزرج والأوس ،نلاحظ غياب أكبر الشخصيات عن الوفد : الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل . والحارث بن قيس بن عدي والأسود بن المطلب .

وها هو عمرو الان يجد نفسه نيابة عن أبيه في وفد مكة فقد بلغ أبوه العاص من الكبر عتيا وصار طاعنا في السن ويراجع عمرو بعملية حسابية تتناسب مع طريقة تفكيره المنظم خط السير لدعوة محمد بن عبد الله وخط السير لدعوة قريش فيرى بعيدا عن المظاهر الخارجية أن دعوة محمد تعلو علوًا منكرا فاذا كانت قريش قد فشلت في الحبشة مع النجاشي . فيبقى الخطر على مكة بعيدا هناك . أما الفشل هنا والعجز عن كسر تحالف محمد مع الخزرج فهو أخطر من كل ما سبقه إن شريان حياة مكة هو في يثرب حيث يقيم الخزرج حلفاء محمد بن عبد الله فماذا تفعل مكة إذا انقطع هذا الشريان .

وينظر إلى القيادات الكبري من جلة قريش فيراها تتساقط عاجزة أو مصابة أو معتوهة وهي التي كانت تدير الرأي وتقود المعركة فسيد بن مخزوم - الوحيد - الوليد بن المغيرة ، وسيد بني سهم العاص بن وائل ، وسيد بني أسد الأسود بن المطلب ، وسيد بني زهرة الأسود بن عبد يغوث مع ا لسيد الثاني لبني سهم الحارث بن الطلاطلة[1] يسقطون وذلك كما روى ابن اسحاق .

قال ابن إسحاق فحدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير أو غيره من العلماء : أن جبريل أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يطوفون بالبيت فقام وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنبه فمر به الأسود بن المطلب فرمى بوجهه بورقة خضراء فعمي ومر به الأسود بن عبد يغوث ، فأشار إلى بطنه ،

(١) وهي أمه وهو الحارث بن قيس بن عدي .

فاستسقى بطنه فمات منه حبنا[١] . ومر به الوليد بن المغيرة ، فأشار إلى أثر جرح بأسفل كعب رجله كان أصابه قبل ذلك بسنين وهو يجر سبلة[٢] وليس بشيء فانتفض به فقتله ومر به العاص بن وائل . فأشار الى أخمص رجله فخرج على حمار له يريد الطائف فربض به على شبرقة[٣] فدخلت في أخمص رجله شوكة فقتلته ومرَّ به الحارث بن الطلاطلة[٤] فأشار الى رأسه فامتخض فقيحا فقتله)[٥].

ويرى الأحداث تتابع بسرعة وتفوت قريش الفرصة الذهبية في قتل محمد بن عبد الله قبل أن يهاجر إلى يثرب ومع أنه لم يحضر اجتماع دار الندوة الذي بيتت فيه قريش قتل محمد بن عبد الله . فقد كان نبيه ومنبه ابنا الحجاج من بني سهم قد شاركوا في هذا القرار ومنبه هو أبو امرأته .

وكان هذا العام هو عام الحزن بالنسبة له حيث نجح محمد بن عبد الله في السيادة علي يثرب كلها وأصبحت قيادتها بيده وفقد في هذاالعام كذلك أباه الذي كان يكل هموم المعركة مع قريش كلها عليه فإذا به يجد نفسه وجهالوجه أمام مسؤولياته التاريخية ليكون عوضا عن أبيه في مجالس قريش وقد قارب الخمسين من عمره وعليه أن يدير المعركة بكل ما أوتي من طاقات ودهاء لمواجهة الدولة الجديدة التي قامت على طريق القوافل بين الشام ومكة .

---

(١) مات حبنا : داء في البطن يعظم البطن فيه ثم تقبل به .

(٢) سبلة : ذبله .

(٣) شبرقة : منبس من الشول .

(٤) انفرد ابن اسحاق بذكر الحارث بن الطلاطلة وذكر أنه من خزاعة بينما تجمع المصادر الأخرى كالبلاذري والمصعب الزبيري والطبري على أنه الحارث بن الفيطلة أو العنطلة ، وهي أمه وهو الحارث بن قيس بن عدي ويذكرونه دائما من المستهزئين وفي كتب التفسير كذلك أنه ممن نزل فيه قول الله عز وجل ﴿ أفرأيت من اتخذ الهه هواه ﴾ .

(٥) ا السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٢٧٥ .

القافلة الكبرى وغزوة بدر :

لقد كان عمرو يدرك أن المعركة الاقتصادية هي أخطر المعارك فإما الحياة وإما الموت وجاء عمرو وخطط لأضخم قافلة في تاريخ مكة بالاشتراك مع قادة مكة وزعمائها الجدد بعد فقدان الشيوخ الكبار والجيل الأول من القيادات . فكان ما حدثنا عنه الطبري بسنده عن هشام بن عروة عن عروة بن الزبير أنه كتب إلى عبد الملك بن مروان :

أما بعد فإنك كتبت إلي في أبي سفيان ومخرجه تسألني كيف كان شأنه ! كان من شأنه أن أبا سفيان بن حرب أقبل من الشام في قريب من سبعين راكبا من قبائل قريش كلها كانوا تجارا بالشام فأقبلوا جميعا معهم أموالهم وتجارتهم فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وقد كانت الحرب بينهم قبل ذلك فقتلت قتلى وقتل ابن الحضرمي في ناس بنخلة وأسرت أسارى من قريش فيهم بعض بني المغيرة . وفيهم ابن كيسان مولاهم ... وكانت تلك الوقعة هاجت الحرب بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش ، أول ما أصاب به بعضهم بعضا في الحرب وذلك قبل مخرج أبي سفيان وأصحابه إلى الشام ثم ان أبا سفيان أقبل بعد ذلك ومن معه من ركبان قريش مقبلين من الشام فسلكوا طريق الساحل فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ندب أصحابه وحدثهم بما معهم من الأموال وبقلة عددهم فخرجوا لا يريدون إلا أبا سفيان والركب معه لا يرونها إلا غنيمة لهم ، لا يظنون أن يكون كبير قتال إذا لقوهم وهي التي انزل الله عز وجل فيها ﴿ وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ... ﴾ [1] .

---

(١) الأنفال / من الآية ٧ .

فلما سمع أبوسفيان أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم معترضون له بعث إلى قريش : إن محمدا وأصحابه معترضون لكم فأجيروا تجارتكم ، فلما أتى قريشا الخبر - وفي عير أبي سفيان - من بطون بني كعب بن لؤي كلها نفر لها أهل مكة وهي نفرة كعب بن لؤي ليس فيها من بني عامر أحد الا ما كان من بني مالك بن حسل ولم يسمع بنفرة قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه حتى قدم النبي صلى الله عليه وسلم بدرا وكان طريق ركبان قريش من أخذ منهم طريق الساحل الى الشام فخفض أبو سفيان عن بدر ولزم طريق الساحل وخاف الرصد على بدر وبعث النبي صلى الله عليه وسلم الزبير بن العوام في عصابة من أصحابه الى ماء بدر وليسوا يحسبون ان قريشا خرجت لهم فبينما النبي يصلي إذ ورد بعض روايا قريش ماء بدر وفيمن ورد من الروايا غلام لبني الحجاج أسود . فأخذه النفر الذين بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الماء فأقبلوا به حتى أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في معرّسة[1] فسألوه عن أبي سفيان وأصحابه لا يحسبونه إلا أنه منهم فطفق العبد يحدثهم عن قريش ومن خرج منها ...

فانطلق النبي صلى الله عليه وسلم فنزل الماء وملأ الحياض وصف عليها أصحابه حتى قدم عليه القوم فلما ورد رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرا قال « هذه مصارعهم » فوجدوا النبي صلى الله عليه وسلم قد سبقهم اليه ونزل عليه فلما طلعوا عليه زعموا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« هذه قريش قد جاءت بجلبتها وفخرها تحادك وتكذب رسولك اللهم اني أسألك ما وعدتني » فلما أقبلوا استقبلهم فحثا في وجوههم التراب فهزمهم الله وكانوا قبل أن يلقاهم النبي صلى الله عليه وسلم قد جاءهم راكب من أبي سفيان والركب الذين معه : أن ارجعوا والركب الذين يأمرون قريش بالرجعة بالجحفة

---

(١) معرسة : مكان مبيت ليلا .

فقالوا : والله لا نرجع حتى نرد بدرا فنقيم به ثلاث ليال ويرانا من غشينا من أهل الحجاز فإنه لن يرانا أحد من العرب وما جمعنا فيقاتلنا وهم الذين قال الله عز وجل « الذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئا الناس .. »(1) والتقوا النبي صلى الله عليه وسلم ففتح الله على رسوله وأخزى أئمة الكفر وشفى صدور المسلمين منهم)(2) .

أما خبر العير فقد انتهت قيادتها إلى ثلاثة (أبي سفيان بن حرب ، وعمرو بن العاص ، ومخرمة بن نوفل وكان عمرو بن العاص يحدث فيقول : لما كنا بالزرقاء بالشام بناحية معان من أذرعات على مرحلتين ونحن منحدرون إلى مكة . لقينا رجل من جذام فقال : قد كان عرض لكم محمد في بدأتكم مع أصحابه . فقلنا : ما شعرنا . قال : بلى . فأقام شهراً ثم رجع إلى يثرب وأنتم يوم عرض لكم محمد مخفون (3) . فهو الآن أحرى أن يعرض لكم ، إنما يعدلكم الأيام عدًا فاحذروه على عيركم وارتأوا آراءكم)(4) .

أما ابن اسحاق فقال : (وأقبل أبو سفيان بالعير وقد خاف خوفا شديداحين دنوا من المدينة واستبطأ ضمضم بن عمرو الغفاري النفير حتى ورد بدرا وهو خائف فلما كانت الليلة التي صبحون فيها على ماء بدرجعلت العير تقبل بوجوهها إلى ماء بدر وجعل أهل العير يقولون : هذا شيء ما صنعته معنا منذ خرجنا وتقدم أبو سفيان أمام العير حذرا حتى ورد الماء فوجد مجدي بن عمرو الجهني فقال له : هل أحسست أحدا ؟ قال : مارأيت أحدا أنكره إلا أني قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل ثم استسقيا في شن لهما ثم انطلقا فأتى أبو سفيان مناخهما(1) فأخذ من أبعار بعيريهما ففتّهُ فإذا فيه النوى فقال هذه والله علائف يثرب فرجع إلى

---

(1) الأنفال / من الآية ٤٧ .

(2) تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري / ٢ / ٤٢١ - ٤٢٤ مقتطفات .

(3) مخفون : خفيفون لم تحملوا أثقالاً .

(4) المغازي للواقدي ١ / ٢٨ .

أصحابه سريعا فضرب وجه عيره عن الطريق فساحل بها وترك بدرا بيسار وانطلق حتي أسرع فسار ليلا ونهارا فرقا من الطلب ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره أرسل إلى قريش قيس بن امرىء القيس . إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم وقد نجاها الله فارجعوا فأتاهم الخبروهم بالجحفة فقال أبوجهل ابن هشام والله لانرجع حتى نرد بدرا فنقيم عليه ثلاثا فننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبدا)[1] .

(قال ابن سعد : ولحق قيس بن امرئ القيس أبا سفيان فأخبره بمجيء قريش فقال : واقوماه هذا عمل عمرو بن هشام ترأس فبغى والبغي منقصة وشؤم)[2] .

لقد أدرك ابو سفيان ومن معه أن أباجهل بن هشام هو الذي يقود كبر هذه المعركة فقد انتهت اليه الرئاسة ولاشرف بعد موت الأكابر من قومه لكن أبا سفيان وعمرو قد أوصلوا القافلة إلى مأمنها لم يكن لهم بد من ان يشاركا قومهم في بدر فالتحق كثير منهم بالمعركة وكان عمرو واحدا منهم .

ولكن كيف كانت معركة بدر ؟ نسمع وصفها على لسان أبي سفيان بن الحارث الشاعر العدو اللدود للمسلمين يصفها لأبي لهب عمه (فبينما هو جالس ـ أي أبو لهب ـ إذ قال الناس : هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم فقال أبو لهب : هلم إلي فعندك لعمري الخبر . قال : فجلس إليه والناس قيام عليه. فقال : يا ابن أخي ! أخبرني كيف كان أمر الناس ؟ قال : والله ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاؤوا ، ويأسروننا كيف شاؤوا وايم الله مع ذلك مالمت الناس لقينا رجالٌ بيضٌ على خيل بلق بين السماء والأرض ولا يقوم لها

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٦١٨ - ٦١٩ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢ / والسيرة : الحلبية ٢ / ٣٩١.

شيء) فهو أبلغ وصف تعبيري وتصويري من أبلغ شعراء قريش وأشدهم عداوة للمسلمين .

ولو كان عمرو بن العاص يود وصف المعركة لماوصفها بأبلغ من ذلك.

وحين يذكر عمرو بن العاص رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب قبل المعركة والتي فيها : ثم أخذ صخرة من أبي قبيس فأرسلها . فأقبلت تهوي حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضت فما بقي بيت من بيوت مكة ولا دار من دورها إلا دخلته منه فلذة[1] . فكان عمرو بن العاص يحدث فيقول : لقد رأيت كل هذا ، ولقد رأيت في دارنا فلقة من الصخرة التي انطلقت من أبي قبيس . فلقد كان في ذلك عبرة . ولكن الله لم يرد أن نسلم يومئذ . لكن آخر إسلامنا إلى ما أراد[2] . خصوصا وقد كان مع الرأي الذي يرى تجنب المواجهة مع محمد بن عبد الله بعد أن نجى الله القافلة ومع الرأي الذي يرى أن الأمر كله أمرعمرو بن هشام ترأس وبغى والبغي منقصة وشوم .

وقد برزت آثار هذا البغي بعد بدر ويدرك عمرو بن العاص أنه قد نجا بأعجوبة من الموت المحقق ، كما يقول فيمابعد وهو يراجع رصيده : (حضرت بدرا فنجوت) .

وهناك رواية أوردها الحافظ ابن عساكر تلقي أضواء على هذه النجاة التي كادت أن تفوته فعن سفيان قال : اجتمع الزبير بن العوام وعمرو بن العاص في الحجر فقال له الزبيررحمه الله : يا أباعبد الله أما إنك كنت قد أهديت لي يوم بدر ولكني استبقيتك لمثل هذااليوم فقال عمرو : وأنت كنت قد أهديت لي ، وقد علمت العرب أني من أنسبها ، ولقد شهدت في الإسلام بضعة عشر زحفا وبضعا وعشرين زحفا ما يسرني أن لي بقربي منك ما شهدت[3] .

---

(١) فلذة :قطعة .

(٢) المغازي للواقدي ١ / ٢٩ .

(٣) تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر ١٣ / ٥١٣ .

وهذا يعني أنه قد تعرض للموت على يد الزبير وأنجاه الله تعالى على يده وكان من الممكن ان تنتهي بدرا بمراجعة قريش لحساباتها وفتح صفحة جديدة مع محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم حيث رأت المعجزة بعينها ورأت النصر الخارق النواميس الكون وعالم الأسباب . ورأت مدد إله محمد له بالرجال البيض على الخيل البلق وتعرف أنها إنما تروم المستحيل في القضاء عليه أو الانتصار عليه وأن تعيد حساباتها خاصة وقد سقط كل قياداتها وأكابرها قتلى في قليب بدر ؛ ثلاثة وعشرون صنديدا من صناديد قريش وأبطالها لقوا مصرعهم في بدر وكان يمكن أن يكون على رأس تيار السلام مع محمد الذين حكموا بالبغي على قومهم حين قاتلوه أبو سفيان وعمرو ومخرمة بن نوفل .

أما قوم مخرمة من بني زهرة فكانوا صادقين مع موقفهم حيث وقف زعيمهم الأخنس بن شريق قبيل المعركة يقول : (يا بني زهرة قد نجى الله لكم أموالكم وخلص لكم صاحبكم مخرمة بن نوفل وانما نفرتم لتمنعوه وماله فاجعلوا إلى جبنها وارجعوا فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا في غير ضيعة) فرجعوا فلم يشهدها زهري واحد)[1] .

لكن أنى يكون والثأر للدماء المراقة يملأ الحزن والجبل وقد دخل القتل لكل بيت ، والكارثة لكل حي ونظر أبو سفيان ، فإذا الأقدار تسوقه بعد سقوط القتلى من القيادات ليكون سيد قريش الأول بلامنازع وزوجه من ورائه تنفث السم للثأر من قتلة بكرها وأبيها وعمها وأخيها وابنه حنظلة قد فقده في المعركة وابنه الآخر أسير ذليل عند محمد .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٦١٩ .

وينظر عمرو بن العاص ، فإذا به في ضربة واحدة هو السيد الوحيد والمطاع في بني سهم فقد مضى القادة ، الأربعة من بني سهم الذين كانوا يملكون قيادتها العاص بن وائل والحارث بن قيس بن عدي ماتوا في عام واحد ونبيه ومنبه ابنا الحجاج قتلا في بدر فيمن قتل ومنبه ابو زوجة عمرو ريطة بنت منبه بن الحجاج ومن بني سهم بن عمرو هصيص بن كعب بن لؤي منبه بن الحجاج قتله أبو اليسر، أخو بني سلمة وابنه العاصي بن منبه قتله علي بن أبي طالب ونبيه بن الحجاج قتله حمزة بن عبد المطلب وسعد بن أبي وقاص اشتركا فيه وأبو العاص بن قيس بن عدي قتله علي بن أبي طالب ويقال النعمان بن مالك وعاصم بن أبي عوف قتله أبو اليسر خمسة نفر)[1] .

وغدا رأيه هو الرأي المعتمد في بني سهم ويعلم أنه لن يتمكن من تمتين جذور سيادته مالم يثأر لقتلى بني سهم وتحت هذا الاندفاع الأعمى كان هذا التيار تيار المصالحة هو الذي يقود الآن تيار الحرب لمحمد والثأر لقريش منه .

معركة الثأر في أحد :

قررت قريش بالإجماع أن تحول القافلة بما فيها من أرباح فتنفقها في حرب محمد صلى الله عليه وسلم (واجتمعوا على أن يبعثوا أربعة نفر من قريش يسيرون في العرب يدعونهم إلى نصرهم فبعثوا عمرو بن العاص ، وهبيره بن أبي وهب ، وابن الزبعرى وأبا عزة الجمجي فأطاع النفر وأبى أبو عزة أن يسير)[2] .

والملاحظ أن الأربعة الكبار الذين اختارتهم قريش ليكونوا سفراء لها في قبائل العرب هم شعراء مكة المشهورون ولكن عمرا تم اختياره لأكثر من جانب

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣ / ٧١٢ .

(٢) المغازي للواقدي ١٠ / ٢٠١ .

فهو في الشعر ليس من المبرزين فيه لكن في البلاغة والفصاحة والدهاء والقدرة على الإقناع لا يضارعه أحد ومضى يؤلب العرب ويحثهم على الانضمام لجيش مكة الذي سيغزو محمداً ويأخذ بثأر قريش .

هذا دوره في التعبئة للمعركة ثم كان في قلب المعركة قائد الفرسان على بعض الروايات بالاشتراك مع خالد بن الوليد (وأقبل المشركون قد صفوا صفوفهم واستعملوا على الميمنة خالد بن الوليد وعلي الميسرة عكرمة بن أبي جهل ،وجعلوا على الخيل صفوان بن أمية ويقال عمرو بن العاص وعلى الرماة عبد الله بن أبي ربيعة وفي قلب المعركة نشهد أعنف لحظاتها وأشدها هولا كان في داخلها يخوض غمارها بشراسة وهول : (حدثني عبد الله بن عمار عن الحارث بن الفضيل الخطمي قال : أقبل ثابت بن الدحداحة يومئذ والمسلمون أوزاع [1] قد سُقط في أيديهم فجعل يصيح : يا معشر الأنصار إلي ، إلي ! أنا ثابت بن الدحداحه ان كان محمد قد قتل فان الله حي لا يموت فقاتلوا عن دينكم فان الله مظهركم وناصركم فنهض اليه نفر من الأنصار . فجعل يحمل بمن معه من المسلمين وقد وقفت لهم كتيبة خشناء فيها رؤساهم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعكرمة ابن أبي جهل وضرار بن الخطاب فجعلوا يناوشونهم وحمل عليه خالد بن الوليد بالرمح ، فطعنه فأنفذه فوقع ميتا وقتل من كان معه من الأنصار فيقال إن هؤلاء لآخر من قتل من المسلمين ووصل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الشعب مع أصحابه ، فلم يكن هناك قتال)[2] .

---

(١) أوزاع : متفرقون .

(٢) المغازي للواقدي ١ / ٢٨١ .

وكما وجدنا لقطة خالدة لعمرو بن العاص عن غزوة بدر عامة وعن القافلة خاصة ها نحن نجد مثل هذه اللقطة من أحد قدمت المعركة بأوجز عبارة وأبلغها .

(قيل لعمرو بن العاص : كيف كان افتراق المشركين والمسلمين يوم أحد ؟

فقال :

ماتريد إلى ذلك ؟ قد جاء الله بالإسلام ونفى الكفر وأهله ثم قال :

لما كررنا عليهم أصبنا من أصبنا منهم ، وتفرقوا في كل وجه وفاءت لهم فئة بعد فتشاورت قريش فقالوا لنا الغلبة فلو انصرفنا فإنه بلغنا أن ابن أبي قد انصرف بثلث الناس وقد تخلف ناس من الأوس والخزرج ولا نأمن أن يكروا علينا وفينا جراح ،وخيلنا عامتها قد عقرت من النبل فمضينا فما بلغنا الروحاء[١] حتى قام علينا عدة منهم ومضينا)[٢] .

فقد تحدث عن المعركة بعد أن أشرق قلبه بنور الإسلام .

أما الجولة الأولى فلم يعرض لها حين قتل كبش الكتيبة وفر النساء ما دون أخذهن قليل ولا كثير وسقط اللواء .

الجولة الثانية : حين كر المشركون على المسلمين فأوقعوا فيهم القتل واثخنوهم بالجراح (وأصبنامن أصبنا منهم) .

الجولة الثالثة : وهي جولة نفسية في أعماق الجيش المشرك حيث شعر بنشوة النصر (فقالوا : لنا الغلبة فلو انصرفنا) إذ كان يرافق هذه النشوة خشية قدوم مدد من المدينة فتختلف موازين المعركة ويفقدون هذه الغلبة المؤقتة (فإنه قد بلغنا أن ابن

---

(١) الروحاء : تبعد عن المدينة مسافة ليلتين .

(٢) المغازي للواقدي ١ / ٢٩٩ .

أبي قد انصرف بثلث الناس ، وقد تخلف ناس من الأوس والخزرج ولا نأمن أن يكروا علينا .

الجولة الرابعة : تجاوز الخشية إلى واقع آثار المعركة (وفينا جراح ، وخيلنا عامتها عقرت من النبل فمضينا فما بلغنا الروحاء حتى قام علينا عدة منهم) .

لقد كان عمرو يدرك أبعد من المظاهر الخارجية للمعركة ويدرك أن هذا النصر هو نصر مؤقت لم يحقق هدفا ولم يحتل أرضا ولم يُفن قيادة فمحمد صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر لازالوا أحياء وكان من الممكن أن يسقط قتيلا مع من سقط من بني عبد الدار حملة اللواء ولكنه نجا من الموت .

نهاية المطاف في الخندق :

لقد ارتفعت معنويات قريش بعد أحد وازداد طموح أبي سفيان أن يتمكن من القضاء على محمد بن عبد الله لو جيش العرب في نجد وتهامة ضده فما أن جاء اليهود يدعون قريشا لتجديد الحرب ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلين نحن معكم حتى نستأصل محمدا قال أبو سفيان : هذا الذي أقدمكم ونزعكم قالوا : نعم جئنا لنحالفكم على محمد وأمثاله قال أبو سفيان مرحبا وأهلا أحب الناس الينا من أعاننا على عداوة محمد قال النفر (من اليهود) فأخرج خمسين رجلا من بطون قريش كلها أنت فيهم ندخل نحن وأنتم بين أستار الكعبة ثم نحلف بالله جميعا لا يخذل بعضنا بعضا ولتكون كلمتنا واحدة على هذاالرجل ما بقي منا رجل)[1] .

ونبحث عن عمرو بن العاص في الخندق فنجده في قلب المعركة ومن أكبر رؤساء المشركين فيها (فعن جابر بن عبد الله قال : لقد رأيتني أحرس الخندق ،

---

(١) المغازي للواقدي ٢ / ٤٢٢ .

وخيل المشركين تطيف بالخندق وتطلب غرة ومضيقا من الخندق فتقتحم فيه وكان عـمرو بن العاص وخـالد بن الولـيد همـا اللذان يفـعـلان ذلك يطلبـان الغـفلة من المسلمين فلقينا خالد بن الوليد في مائة فارس قد جال بخيله يريد مضيقامن الخندق يريد أن يُعبر فرسانه فنضحناهم بالنبل حتى انصرف) [1] .

وحين يذكررؤساء المشركين فيها لا بد أن يكون عمروبن العاص في الطليعة

(ثم إن رؤساءهم أجمعوا أن يغدو جميعـا ففدا أبوسفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وضرار ابن الخطاب وخـالد بن الوليد ، وعمرو بن العـاص وهبيرة بن أبي وهب ونوفل بن عـبد اللـه المخزومي وعـمرو بن عـبد ونـوفل بن معـاوية الديلي فجعلوا يـطيفون بالخندق ... فعبـر عكرمة بن أبي جهل ونوفل بن عـبد الله وضرار بن الخطاب وهبيرة بن أبي وهب وعمرو بن عبد ...)[2] .

وحين فشلت مكيـدة قريش وتحطمت أمام الخنادق النبوية . نتـابع مع عمرو اللحظات الأخيرة مـن المعركة وهو يستمع الى خطبـة أبي سفيان يدعـو قريشا إلى الجلاء عن الحصار والعـودة الى مكة لكننا نجد هنا من هو أذكى وأدهى ذلك العين المسلم الذي دخل صف العدو حـذيفة بن اليمـان ، والذي كان بجوار عـمرو ولم يشعر به عمـرو وبجواره الآخر معاوية ولم يشعـر به معاوية كما نشهـد معهم نهاية المعركة .

(فقام أبوسفيان فقال: احذروا الجواسيس والعيون ولينظر كل رجل جليسه . قال فالـتفتُ الى عمرو بن العـاص فقلت : من أنت ؟ وهو عن يميني فقـال : عمرو

---

(١) المغازي للواقدي ٢ / ٤٦٥ .

(٢) المصدر نفسه / ٤٧٠ .

ابن العاص ، والتفت الى معاوية بن أبي سفيان فقلت : من أنت ؟ فقال : معاوية بن أبي سفيان ثم قال أبو سفيان :

إنكم والله لستم بدار مقام لقد هلك الكراع والخف وأجدب الجناب وأخلفتنا بنو قريظة وبلغناعنهم الذي نكره وقد لقينا من الريح ماترون والله ما يثبت لنا بناء ولا يطمئن لنا قدر فارتحلوا فإني مرتحل وقام أبو سفيان وجلس على بعيره وهومعقول ثم ضربه فوثب على ثلاث قوائم فما اطلق عقاله الا بعد ما قام ولولا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إليّ « لا تحدث شيئا حتى تأتي » ثم شئت لقتلته فناداه عكرمة ابن أبي جهل إنك رأس القوم وقائدهم تقشع وتترك الناس فاستحيا أبو سفيا فأناخ جمله ونزل عنه وأخذ بزمامه وهو يقوده ، وقال : ارحلوا! قال : فجعل الناس يرتحلون وهوقائم حتى خف العسكر ثم قال لعمر بن العاص : يا ابا عبد الله لا بد لك ولي أن نقيم في جريدة من خيل بازاء محمد وأصحابه فإنا لا نأمن أن نطلب حتى ينفذ العسكر فقال عمرو : أنا أقيم ، وقال لخالد بن الوليد : ماترى يا أبا سليمان فقال : أنا أيضا أقيم ، فأقام عمرو خالد في مائتي فارس وسار العسكر إلا هذه الجريدة على متون الخيل)[1] .

لقد خاض غمار الحرب ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم بكل ما يملك من طاقة وهاهو يحمي ظهر قريش مع خالد بن الوليد بعد الانسحاب عن الخندق دون تحقيق أي هدف عسكري بأضخم قوة في الحجاز يمكن أن تعبئتها قريش ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعهم يهود بني قريظة وأربع قبائل من قبائل نجد الكبرى أسد وغطفان وسليم وعامر ولكن دون جدوى فأمر محمد لا يقاوم .

---

(١) المغازي للواقدي ٢ / ٤٨٩ ـ ٤٩٠ .

في الطريق إلى منبع النور

أصدق عرض لنفسية عمرو نشهدها وقد انصرف عن الخندق

(فيما رواه محمد بن عمر عن عبد الله بن جعفر عن عثمان بن محمد الأخنسي قال :

ولما انصرف عمرو بن العاص قال : قد علم كل ذي عقل أن محمدا لم يكذب فقال عكرمة بن أبي جهل : أنت أحق الناس ألا يقول هذا . قال عمرو : لم؟ قال : لأنه نزل على شرف أبيك وقتل سيد قومك ويقال : الذي تكلم به خالد بن الوليد ولا ندري لعلهما قد تكلما بذلك جميعا)[١] .

وكان عمرو من بين هؤلاء القادة أسرع الناس ادراكا لمصير المعركة بين حزب محمد وحزب قريش ولذلك انسحب بعد الخندق من المواجهة وقال :

كنت للإسلام مجانبا معاندًا فحضرت بدرا مع المشركين فنجوت ثم حضرت أحدا فنجوت ثم حضرت الخندق فقلت في نفسي : كم أنا أوضع[٢] والله ليظهرن محمد علي قريش فخلفت [٣] بما لي بالرهط وأفلَّتُ[٤] يعني من الناس فلم أحضر الحديبية ولا صلحها وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلح ورجعت قريش الى مكة ....) .

ها هي عبقرية عمرو بن العاص تتجلى في فهمه لتطورات الحرب العسكرية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أدرك بعد الخندق أن أمر محمد غالب ولا

---

(١) المغازي للواقدي ٢ / ٤٩١ .

(٢) أوضع البعير : إذا حمله على سرعة السير .

(٣) خلفت : الذي في البداية والنهاية لابن كثير فلحقت بمالي بالوهط هو الأصح .

(٤) وأفلت : الذي في البداية والنهاية عن ابن كثير وأقللت من الناس .

شك . فإلى متى يقذف في نفسه مسارعا في حرب محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فلن تستطيع مكة أن تحشد أضخم من هذا الحشد عشرة آلاف مقاتل ، وبعد حصار دام سبعة عشريوما عادت تجر أذيال الخيبة وقد فقدت أعز أبطالها عمرو بن عبدو ونوفل بن خويلد ولذلك اختار الانسحاب من المعركة الخاسرة بهدوء ومضى إلى أرضه في الوهط ومزرعته التي بذل جل ماله في اقتنائها وتحسينها وزراعتها كمامضى قائد الجيش العام أبو سفيان إلى تجارته في الشام .

لقد أدرك عمرو أنه صاحب القرار في موقفه من محمد صلى الله عليه وسلم وهو منار الناس لا ينتظر رأي أحد (فقد ذكر الزبير بن بكار أن رجلا قال لعمرو : ما أبطأ بك عن الإسلام وأنت أنت في عقلك قال : إناكنا مع قوم لهم علينا تقدم وكانوا ممن يوازي حلومهم الحبال فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم فأنكروا عليه لذنا بهم فلما ذهبوا وصار الأمراليناً نظرنا وتدبرنا فاذا حق بينٌ فوقع في قلبي الإسلام فعرفت قريش بذلك من ابطائي عماكنت أسرع فيه من عونهم عليه ..)[1] .

لقد كان هذا الأمر بالتأكيد بعد الخندق وبعد التخلف عن الحديبية وبعد الاعتزال في ماله بالوهط ولم تدع قريش عمرا بهذا الاعتزال فخسارتها جسيمة بذلك .

(.... فبعثوا الي فتى منهم فناظرني في ذلك فقلت :

أنشدك الله ربي ورب من قبلك ورب من بعدك أنحن أهدى أم فارس والروم ؟

---

(١) الإصابة في تاريخ الصحابة ٣ / ٢ / ت ٥٨٨٢ .

قال : نحن أهدى

قلت : فنحن أوسع عيشا أم هم ؟

قال : هم

قلت : فما ينفعنا فضلنا عليهم ان لم يكن لنا فضل الا في الدنيا وهم أعظم فينا فيها أمرا في كل شيء ؟ إنه بعد هدوئه وانقشاع سورة الغضب والحقد عنده راح يفكر بما يدعو اليه محمد وبما يتحدث به عن اليوم الآخر وأدرك بعد الغلبة التي مني فيها من محمد أنه لا بد من وجود اليوم الآخر فاذا كان هو أهدى من محمد فلم يُنصر محمد عليه ؟ وحيث لم يجرؤ أن يعرض هذه الفكرة على الفتى المناظر لأنه لا يرغب أن يواجه قومه عرض الأمر عليه بين العرب على دين ابراهيم وبين فارس والروم ثم ختم كلامه للفتى بقوله :

(وقد وقع في نفسي أن الذي يقوله محمد من أن البعث بعد الموت ليجزي المحسن باحسانه والمسيء باساءته حق ولا خير في التمادي في الباطل) .

لقد بدأ الايمان يدب إلى قلبه دبيب النمل والقادة العظماء هم في أوج انتصارهم وقوتهم لايدركون الحق من الباطل بل ومنطق القوة هو الذي يحكمهم ويصدرون منه أحكامهم على الناس أما عندما يمنون بهزيمة ماحقة ويبتعدون عن الأضواء يُزاح منطق القوة الذي يغشى أبصارهم فيرون رأي العين الحق من الباطل .

وهذا هو الضوء الخافت الأول الذي تسلل الى قلب عمرو مع شدة كراهته لمحمد وبغضه له لكن هذه الكراهية لم تعمه عن الحق الأبلج في الايمان باليوم الآخر كخطوة أولى على الطريق .

وإذا كان المتسرعون من قيادات مكة رأوا أنهم حققوا نصرا باهراً في منع محمد من دخول مكة عام الحديبية وأعادوه خاسرا ومنعوه من الدخول لكن عمروا كان أبعد نظرا وأسد رأيا من هذا بكثير .

لقد أدرك بعد الحديبية أن مكة لن تسقط وحدها في يد محمد ، بل ستسقط مكة والطائف والأرض العربية كلها بيده فمن الذي سيقف في وجهه حين تتنحى قريش عن المواجهه .

(وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلح ، وجعت قريش الى مكة فجعلت أقول : يدخل محمد قابلا مكة بأصحابه مامكة لي بمنزل ولا الطائف ما من شيء خير من الخروج وأنا بعد ناء عن الإسلام وأرى لو أسلمت قريش كلها لم أسلم) .

وبعد دراسة مستفيضة للساحة المحلية والعالمية لم يجد حلا خيرا من الذهاب لصديقه النجاشي فهو الذي يعرف فضله ومجده كما رأى المسلمون قبل خمسة عشر عاما الحبشة هي الملجأ الوحيد الآمن .

وبعد هذه الحرب الطويلة من الأعوام الخمسة عشر تغيرت الأمور وأصبحت قيادات مكة تبحث عن المكان الآمن لها في الحبشة وبذكاء لماح دعا قومه الذين يدينون له بالزعامة وعرض عليهم رأيه ، وقرر أن يمضي مع وجهائهم الى الحبشة فهي مكان آمن على كل الحالات فلو انتصر محمد صلى الله عليه وسلم وهو الأرجح ليبقى بعيدا عن متناول يده لنأي الحبشة وبعدها ولو انتصرت مكة فأهل مكة يعرفون بلاء وفضله معهم من قبل فيشركونه في الغنيمة والنصر واتجه الأمر الى النجاشي بعمرو وصحبه .

(فجعلت أقول : يدخل محمد قابلا مكة بأصحابه ما مكة لي بمنزل ولا الطائف. وما من شيء خيرمن الخروج وأنا بعد ناء عن الإسلام أرى لو أسلمت

قـريش كلها لم أسـلم فقـدمت مكة فـجمـعت رجالا مـن قومي كـانوا يرون رأيي ويسمـعون مني فـيما نابـهـم من أمر فقلت لـهم : كيف أنا فيكم ؟ قـالوا : ذو رأينا ومدرهنا (١) مع يمن نفس وبركة أمر قال قلت : تعلمـون والله إني لأرى أمر محمد يعلو علوا منكرا واني قـد رأيت رأياً قالوا : مـا هو ؟ قال : نلحق بالنجـاشي فنكون عنده ، فإن كان يظهر محـمد كنا عند النجاشي ، فنكون تحت يد النجاشي أحب إلينا من أن نكون تحت يد محمد . وإن تظهر قريش فنحن من قد عرفوا قالوا : هذا الرأي ، قـال : فـاجمـعوا مـا تهدونـه لـه ، وكان أحب مـا يهدي اليـه من أرضنا الأدم (٢) قال : فـجمعنا أدما كـثيرا ثم خـرجنا حتى قدمنا على النجـاشي فوالله إنا لعنده إذ جاءه عـمرو بن أميـة الضمري وكـان رسول الله صلى الله عليـه وسلم قد بعثه بكتـاب كتبه اليه يزوجه أم حبـيبة بنت أبي سفيان فـدخل عليه ، ثم خرج من عنده فقلت لأصحابي : هذا عمرو بن أمـية ، ولو قد دخلت على النجاشي وسألته إياه فأعطانيه فضربت عنقه فـإذا فعلت ذلك سُرَّت قريش وكنت أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد .

قـال : فدخلت على النجـاشي (٣) فسـجدت له كـما كنت أصنع فـقال : مرحبا بصديقي ، أهديت لي من بلادك شيئا ؟ قلت : نعم أيها الملك ، أهديت لك أدما كثيرا ثم قربته اليه فأعجبه وفرق منه أشياءبين بطارقته ، وأمر بسائره فأدخل في موضع ، وأمر أن يكتب ويحتفظ به فلمـارأيت طيب نفسه قلت : أيها الملك : إني

---

(١) مدر هنا : سيدنا وشريفنا .

(٢) الأدم : الجلود .

(٣) نرجح أن هذاالنجـاشي هوغيرالنجـاشي الذي كان في السنة السـادسة للبعثة والذي زاره فـيهاعـمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة لاسترجاع المسلمين فلو كان هو ذاته لما اطمأن عمرو الى المضي إليه بعد رد هداياه له وطرده وهو الرأي الذي عليـه الأكثر من كتـاب السيرة . أن النجـاشي الذي بعث له رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب غير النجاشي الأول .

قد رأيت رجلا خرج من عندك وهو رسول رجل عدو لنا ، قد وترنا وقتل أشرافنا وخيارنا فأعطنيه فأقتله ...) .

إنه يريد أن يعيد الكرة التي أنهى بها عمارة بن الوليد صديقه في الجاهلية حيث أوقعه في الجرم المشهود وقضى به إلى الوحوش يهيم معها ويقيم فالقتل سهل عنده وهو هنا أنشط لذلك فقتل عمرو بن أمية هو قتل لرسول محمد عند النجاشي، وستحفظ له ولقومه قريش هذا الفضل انه يعيش في تناقض رهيب في أعماقه فهو يدرك أن محمدا لم يكذب قط ويدرك أنه لا بد من اليوم الآخر لتحقيق العدل بين الناس لكن صوتا آخر أشد وأعنف بشده من أعماقه يشده إلى أبيه العاص بن وائل الذي أوقف حياته على حرب محمد يشده إلى ذاته فظهور محمد انهاء زعامته الى الأبد وحين يؤمن به يعني أنه سيغدو جنديا في آخر الركب ومن أجل ذلك هو ناء على الاسلام يرى لو آمن الناس جميعا ما آمن .

إنه لا يرى حرمة لأحد. لقد قال له عبد الله بن أبي ربيعة يوم قرر أن يستأصل خضراء المسلمين عند النجاشي (لا تفعل فإن لهم أرحاما وإن كانوا قد خالفونا . قال : والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد) .

كان هذا آخر عهد بعمرو بن العاص الذي أوفى على الذروة في قمة الجاهلية. ويود قتل رسول محمد لنشهد بعد هذه اللحظات انسانا جديدا اسمه عمروبن العاص .

(فأعطنيه فأقتله فرفع يده فضرب بها أنفي ضربة ظننت أنه كسره وابتدر منخاري فجعلت أتلقى الدم بثيابي وأصابني من الذل مالو انشقت في الأرض دخلت فيها فرقا[1] منه ثم قلت له : أيها الملك لو ظننت أنك تكره ما فعلت ما سألتك .

---

(١) فرقا : خوفا .

قال واستحيي وقال : يا عـمرو تسألني أن أعطيك رسول رسول الله من يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى ، والذي كان يأتي عيسى بن مريم لتقتله ؟

(قال عـمرو : وغير الله قلبي عـما كنت عليـه وقلت في نفسـي عرف هذا الحق العـرب والعجم وتخـالف أنت قلت : أتشـهد أيهـا الملك بهذا ؟ قـال : نعم . أشهـد به عند الله يا عمرو ، فـأطعني واتبعه والله انه لعلـى الحق وليظهرن على كل دين خالفه كما ظهر موسى على فـرعون وجنوده . قلت أفتبايعني على الاسلام ؟ قـال : نعم فبسـط يده ثم بايعـته على الإسـلام ودعا لي بـطست فغـسل عني الدم وكساني ثيابا وكانت ثيابي قد امتلأت بالـــدم فألقيتها ثم خرجت الى أصحابي فلما رأوا كسوة الملك سُروا بذلك وقالـوا : هـل أدركت من صاحبك ما أردت ؟ فـقلت لهم كرهت أن أكلمــه في أول مرة وقلت أعــود إلـيـه ، قالوا : الرأي مـا رأيت ..) [1].

إنه فـشل جديد يسطره تاريخـه السيـاسي الجاهلي فـبعـد أن أعد كل الـعدة لهزيمة خصمـه محمد صلى الله عليه وسلم ورأى الفرصة مـواتية لقتل رسوله ونال من الترحـيب الملكي ما يفوق الوصف بعـد أن قدم له الهدايا الملائمة لمقـامه وألقى بكلمته بين يدي الملك وهو لا يشك لحظة واحدة بتسليم رسـول محمد اليه وكان ما لا يمكن أن يخطر له على بال .

(فرفع يده فضرب بها أنفي ضربة ظننت أنه كـسره وابتدر منُخاري فجعلت أتلقى الدم بثيابي، وأصابني من الذل مالو انشقت به الأرض دخلت فيها فرقا منه).

إن كل الهزائم العسكـرية التي هزم بها من قبل محمـد صلى الله عليه وسلم لم تؤثر فيه مثل تأثيرهذا الضرب من ملك صـديق عزيز عليه فكل ما فعلته الهزائم

---

(١) المغازي للواقدي ٢ / ٧٤١ - ٧٤٤ .

العسكرية أقنعته أن أمر محمد يعلو علوًا منكرا وكان يرتفع في أعماقه صوت فحيح ضعيف يدعوه الى الايمان بمحمد فمحمد صادق في دعواه ، ومحمد لا يكذب لكن أين يأخذ هذاالصوت مداه في بحر سيطرة الشهرة والسمعة والمركز المرموق في قريش ؟ أو الذي قام على عقيدة الجاهلية وعبادة اللات والعزى من دون الله ؟!!

لكن الوضع الجديد زلزل كل أعماقه ، وهز وجدانه ، وتله تلاً عنيفا ، حتى يرى بطن الأرض خير له من ظهرها أمام هذا الذل الذي أصابه .

وهنا وحيث سقطت كل الأقنعة ، وتفجر الدم من أنفه يغرق ثيابه ، وانهدمت القلعة الأخيرة التي يأوي اليها في حماية النجاشي .

(.. قال : أيها الملك لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتك)

قال واستحيا وقال : يا عمرو وتسألني أن أعطيك رسول رسول الله من يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى والذي كان يأتي عيسى بن مريم لتقتله) .

لقد انهار بناء الجاهلية كله بضربة نجاشية قاضية وتحطمت كل القلاع الحصينة الوثنية فوق قلبه واتصل التيار الكهربائي من الإيمان والهدى بقلبه الذي مسته لمسته الحياة فانتفض انتفاضة العصفور بلله القطر ورأى مباشرة بهذا النور الجديد .

« وغيَّر الله قلبي عما كنت عليه وقلت في نفسي عرف هذا الحق العرب والعجم وتخالف أنت ؟!

قلت : أتشهد أيها الملك بهذا ؟

قال أشهد به عند الله يا عمرو فأطعني واتبعه والله إنه لعلى الحق ، وليظهرن على كل دين خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده) .

أما ظهور محمد على مكة والعرب فقد رآه عمرو بعين بصيرته . لكن ظهوره على كل من نا وأه في الأرض فهذا معنى قد سكبه النجاشي في قلب عمرو .

وعندما يشتعل التيار الكهربي لا نستطيع أي قوة العمل في إطفائه فقد اتصل عمرو بمخزن الطاقة مباشرة ولم يتمالك أن قال :

أفتبايعني على الإسلام ؟ قال : نعم .

فبسط يده ، فبايعته على الإسلام .

ولم ينتظر حتى يخرج إلى أصحابه فيستشيرهم انه (هو ذو رأيهم مدرههم مع يمن نفسي وبركة أمر) فهم الذين يفيئون إليه وليس هو الذي يفيء إليهم .

وهكذا انضم قائد فذ جنديا جديداً في دعوة الله عز وجل ليصبح واحدا من خيار أهل الأرض الذين بدأوا يتجمعون ويتوافدون إلى المدينة .

صحيح أن وصوله إلى المدينة قد تأخر سنة كاملة عن إسلامه حتى صفر من السنة الثامنة لكن اسلامه ومبايعته للنجاشي على الإسلام كان قد تم في المجلس الملكي في صفر من السنة السابعة .

أول ابتلاء في سبيل الله :

روى ابن عساكر وغيره عن عمير بن إسحاق قال :

استأذن جعفر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ايدن لي حتى آتي أرضاً أعبد الله فيها لا أخاف أحدا قال فأذن له فأتى النجاشي قال (يعني عمير) حدثني عمرو بن العاص قال . لما رأيت مكانه حسدته فقلت : والله لا ستقبلن

لهذا وأصحابه فأتيت النجاشي فدخلت عليه فقلت إن بأرضك رجلا ابن عمه بأرضنا وإنه يزعم أنه ليس للناس إلا إله واحد وانك والله إن لم تقتله وأصحابه لا أقطع هذه النطفة اليك ابدا أنا ولا أصحابي . قال : ادعه ، قال قلت : إنه لا يجيء معي فأرسل معي رسولا قال : فجاء فلما انتهينا الى الباب ناديت : ايذن لعمرو بن العاص قال : وناداهم من خلفي : ايذن لحزب الله قال : فسمع صوته فأذن له ولأصحابه ، قال : اذن لي فدخلت فإذا هو جالس فذكر أين كان مقعده من السرير فلما رأيته طبت حتى قعدت بين يديه فجعلته خلف ظهري قال : وأقعدت بين كل رجلين من أصحابه رجلا من أصحابي .

لقد بلغ عمرو من الدالة عند الملك والثقة عنده أن يستجيب لكل طلباته ويبعث معه رسولا ليأتيه بجعفر بن أبي طالب وليس عنده هدف الا قتل جعفر وعمرو على بعده عن الاهتمام بالعقائد لكنه يعلم ما في النصرانية من وثنية وتثليث فركز على كفر جعفر في زعمه أن ليس في الكون إلا اله واحد وربط المصلحة بالعقيدة حيث أكد للنجاشي أن أي تساهل مع جعفر وأصحابه يعني القطيعة مع قريش والمقاطعة التجارية الكاملة لكنه لم يدرك أغوار النجاشي الجديد ويحسب أنه يختلف عن سابقه لكن الزلزلة التي نزلت به حين استأذن هو وجعفر فأذن لجعفر قبله حين نادى : ايذن لحزب الله وكانت الصفعة السياسية الجديدة التي لم تكن له على بال وعندما أذن له وجد جعفر بين يدي النجاشي فتصرف بالثقة التي يملكها وتقدم بجرأة نادرة فأجلس جعفر خلفه وأجلس بين كل اثنين من المسلمين أحد أصحابه فهو مغامر من الدرجة الأولى . وحلم النجاشي عليه ثم قال: (نجروا - أي تكلموا - قال عمرو فقلت) :

إن ابن عم هذا بأرضنا وانه يزعم أنه ليس إلا إله واحد وأنك والله إن لم تقتله وأصحابه لا نقطع هذه النطفة إليك أبدا ولا أحد من أصحابي .

فتشهد فإني أول ماسمعت التشهد يومئذ قال ـ يعني جعفر ـ .

صدق وهو ابن عمي وأنا على دينه .

فصاح ـ أي النجاشي ـ صياحا وقال : أوه ، حتى قلت : ما لا بن الحبشية لا يتكلم فقال : أنا موس كناموس موسى : قال : ما تقولون في عيسى بن مريم ؟

قال : أقول هو روح الله وكلمته قال فتناول شيئا من الأرض فقال : ما أخطأ في أمره مثل هذا فوالله لولا ملكي لا تبعتكم وقال لي : ماكنت أبالي أنك لا تأتيني أنت ولا أحد من وأصحابك . وقال لجعفر : أنت آمن في أرضي من ضربك قتلته ومن سبك غرمته ، وقال لآذنه متى استأذنك هذا فأذن له الا أن أكون عند أهلي فإن أبى فأذن له ...) .

ويتتابع الفشل عند عمرو مع النجاشي الأول والنجاشي الثاني ، ويخفق في قتل ابن عم محمد ومقدر أن دخول عمرو على النجاشي من أجل عمرو بن أمية الضمري انماكان بعد هذه الوفادة . وأنه أسلم على يدي النجاشي في المرة الثانية وقرر أن يكون اسلامه الحقيقي على يد جعفر بعد أن بايع النجاشي لنتمكن من الجمع بين الروايات القريبة من الصحة والتي يكمل بعضها بعضا لنأخذ من هذه الرواية اسلامه علي يد جعفر . (.. وتفرقنا ، قال عمرو فلم يكن أحد أحب إلي أن أكون قد لقيته خاليا من جعفر فاستقبلني في طريق مرة ولم أر أحدا فنظرت خلفي فلم أر أحدا قال فدنوت منه فأخذت بيده فقلت : تعلم أني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله قال فقال : هداك الله فاثبت . وتركني وذهب قال : فأتيت أصحابي فكأنما شهدوه معي فأخذوني فألقوا علي قطيفة أو شيئا قال وجعلوا يغموني وجعلت أخرج رأسي من هذه الناحية مرة ومن هذه مرة حتى أفلتّ وما علي قشرة .

إنه يذوق اليوم ما كان يحلم أن يذيقـه المسلمين وإن أصحابه الذين جاء بهم الى الحبشة ليثبتوا على دين قريش ها هو يخـونهم ويسلم فقد بيتوا قتله وخنقه كما بيت صاحـبه عمارة بن الوليـد من قبل ذلك به وكمـا بيت في كل مرة قتل جعـفر واستئـصال شأفة المسلمين وقتل عـمرو بن أمية لكنه أفلت منهم بأعـجوبة وتركوه عارياً من كل شيء .

(... وما علي قـشرة فلقـيته حـبشيـة فأخَـذْتُ قناعها فـجعلتـه على عورتي فقالت كذا وكذا فـقلت : كذا وكذا ، قال : فأتيت جعفرا حـتى أدخل عليه فقال مالك ؟ فقلت : ذُهبِ بـكل شيء لي حتى ما بقي علي قشـره فما الذي ترى علي إلا قناع حبشية ...) .

وها هو عمرو وجـعفر الآن في خندق واحد وجعفـر هو الأقرب والأحسب للملك يستأذن عليه متى شاء قال فانطلق وانطلقت معه حتى انتهى الى باب الملك فـقال : إيذن لحـزب الله عـز وجل فـقـال آذنه إنه مع أهله قـال : استـأذن لي عليـه فاسـتأذن فأذن له فـقال : إن عـمرا قد بايعني على دينـي قال : كلا قـال : بلى قال لانسان :

اذهب فان كان فعل فلا يقولن لك شيا الا كتبته فجعل يكتب ما أقول حتى يدلنا كل شيء حتى القدح وان شئت أن آخذ من أموالهم الى ما لي لفعلت)[1].

وعند ابن عساكـر رواية أخرى تحدد الزمن والحادثة مـعاً في وقت واحد عن أبي نعيم الحافظ يقول فيها (عمـرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سعد بن سهم بن عمرو بن هصيص ابن كعب بن لؤي بن غالب يكنى أبا عبد الله ، أمه النابغـة من بني عنزة بن أسد بـن ربيعـة بن نزار كان يخـضب بالسواد . خـرج إلى

(١) مجمع الزوائد ٩ / ٣٧ وقال الهيثمي :رواه الطبراني والبزار ، وعمير بن إسحاق وثقه ابن حبان وغيره ، وفيه كلام لا يضر ، وبقية رجاله رجال الصحيح ، وروى ابو يعلي بعضه ورواه ابن عساكر ٤٩٢/١٣ .

الحبشة إلى النجاشي بعد الأحزاب . فأسلم عنده بالحبشة فأخذه أصحابه بالحبشة فغموه . فأفْلت منهم مجردًا ليس عليه قشرة . فأظهر للنجاشي إسلامه فاسترجع من أصحابه جميع ماله وردَّه عليه . فقدم هو وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة مهاجرًا إلى المدينة)[1] .

لقد دفع ثمن اسلامه مباشرة كما دفعه من قبل عمر بن الخطاب في مكة بعد اسلامه (فما زال يضر بهم ويضربونه حتى زالت الشمس) .

وكانت بيعة النجاشي ثم بيعة جعفر ، ثم طمحت نفسه الى بيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم . (ثم خرجت عامدا لرسول الله صلى الله عليه وسلم)[2] .

الهجرة الى الله ورسوله :

فعمدت إلى موضع السفن فأجد سفينة قد شحنت تدفع فركبت معهم ودفعوها حتى انتهوا الى الشعيبة وخرجت من الشعيبة ومعي نفقة فابتعت بعيرا وخرجت أريد المدينة حتي خرجت على مر الظهران ثم مضيت حتى إذا كنت بالهدة اذا رجلان قد سبقاني بغير كثير يريدان منزلا وأحدهما داخل في خيمة والآخر قائم يمسك الراحلتين فنظرت فإذا خالد بن الوليد فقلت : أبا سليمان ؟ قال : نعم فقلت : أين تريد ؟ قال : محمداً ، دخل الناس في الإسلام فلم يبق أحد به طمع والله لو أقمت لأخذ برقابنا كما يؤخذ برقبة الضبع في مغارتها فقلت: وأنا والله أريد محمدا وأردت الإسلام وخرج عثمان بن طلحة فرحب بي فنزلنا جميعا في المنزل ثم ترافقنا حتى قدمنا المدينة .

رمتكم مكة بأفلاذ أكبادها :

وانطلق الركب الثلاثة ميممين صوب المدينة ، وهم سادة مكة بلا منازع.إلا أبا سفيان بن حرب فالذين تركوهم بمكة عكرمة وصفوان وسهيل لا يبلغون شأو خالد في العبقرية الحربية ولا يبلغون شأو عمرو بن العاص في الدهاء ونصاعة الرأى

(١) تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر ١٣ / ٤٨٩ .

(٢) تاريخ ابن عساكر ١٣ / ٤٩٣ .

والعبقرية السياسية ولا يبلغون شأن عثمان بن طلحة في الموقع الديني ، فعثمان بن طلحة سادن الكعبة التي قُدِّست مكة من أجلها والذي يعترف العرب بفضل قريش عليهم لأنه جيران بيت الله وسدنة البيت وهم خواص هؤلاء الجيران وهم الذين انتهت اليهم الحجابة ويبرز عثمان بن طلحة على رأس هؤلاء جميعا ويحمل عثمان بن طلحة شرفا آخر ومجدا عريقًا تقره قريش عليه ألا وهو اللواء فاللواء في قريش كان في بني عبد الدار وعثمان بن طلحة سيد بني عبد الدار بلامنازع ومعنى مضي هؤلاء الثلاثة ليسلموا هو أن مكة قد ألقت قيادها بعدهم كما ذكر الذي رآهم قادمين الى الإسلام .

(... فما أنسى قول رجل لقينا ببئر أبي عنبة يصيح يا رباح يا رباح ، فتفاءلنا بقوله وسرر نا ثم نظر إلينا فأسمعه يقول : قد أعطت مكة المقادة بعد هذين فظننت أنه يعنيني ويعني خالدا ثم ولى مدبراً إلى المسجد سريعا فظننت أنه سيسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدومنا فكان كما ظننت وانخنا بالحرة فلبسنا من صالح ثيابنا ونودي بالعصر فانطلقنا جميعا حتى طلع علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن لوجهه تهللاً والمسلمون حوله سُروا بإسلامنا) .

وفي رواية أخرى رواها الحافظ ابن عساكر عن الزبير قال : وهاجر عمرو بن العاص في القضية التي كانت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش هو وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة فلمارآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « رمتكم مكة بأفلاذ أكبادها » [1].

ولا يوجد أي تعبيرأعظم وأدق من هذا التعبير النبوي الذي حدد فيه موقع هؤلاء الثلاثة من قريش فهم فلذة الكبد وهم أغلى وأنفس ما فيها .

اللقاء السعيد :

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم سعيدا فرحا بأغلى هدايا مكة له ، هؤلاء القادة الكبار وهذه الكنوز الخالدة وكما قال الوليد بن الوليد لأخيه: « أسرع

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ١٧ / ٤٩٧ .

فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سُر بقدومك وهو ينتظركم فأسرعت المشي فأطلعت عليه فما زال يبتسم الي حتى وقفت عليه) [1] .

وذاك عمرو بن العاص يصف هذا اللقاء السعيد بقوله : وإن لوجهه تهللا ، والمسلمون حوله قد سروا بإسلامنا لقد جاء هذا اللقاء بعد حرب ضروس بين هؤلاء القادة الكبار ، وبين محمد صلى الله عليه وسلم استمر ثماني سنوات لا يهدأ لها أوار عُبئت له كل الطاقات المجاورة . وها هم الآن يأتون مسلمين لله ولرسوله . ولقد كانت قضية واحدة تقلق القائدين عمرو وخالد هذه القضية هي مسح ذلك الماضي الذي ينزف دما وحقدا على الإسلام والمسلمين .

يقول خالد رضي الله عنه : يا رسول الله قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معاندا في الحق فادع الله أن يغفرها لي . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام يحب ما قبله) [2].

ومع ذلك وبعد أن التقى خالد ببؤرة النور واتصل بالمصدر الأساسي في الأرض لهذا النور ﴿ .. **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ..** ﴾ فيود أن ينال شرف هذا التضرع من رسول رب العالمين في طلب المغفرة لخالد فعاد يكرر: قلت: يا رسول الله ! على ذلك ؟ فقال : « اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع من من صد عن سبيلك »[3] .

أما عمرو بن العاص رضي الله عنه فيعطينا اضاءة أخرى عن نفسه وقد ترك زميليه يتقدمانه إلى البيعة لشدة حيائه من رسول الله صلى الله عليه وسلم (.. فتقدم خالد بن الوليد فبايع ، ثم تقدم عثمان ابن طلحة فبايع ثم تقدمت ،

---

(١) و (٢) و (٣) المغازي للواقدي ٢ / ٧٤٩ .

فوالله ما هو إلا أن جلست بين يديه فما استطعت أن أرفع طرفي إليه حياء منه . فبايعته على أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي ولم يحضرني ما تأخر فقال : « إن الإسلام يجب ماكان قبله ، والهجرة تجب ما كان قبلها) فقد كان شعورالحياء من ذلك الماضي الآسن هو الذي يسيطر عليه وما يستطيع أن يحيل طرفه بوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يضع عينه بعينه .

ومثل هذا الدخول في الإسلام من القادة الأعداء لو كان في غير مدرسة النبوة لكان عليهم أن يوضعوا سنوات تحت التجربة ، سنوات قبل الاطمئنان إليهم، ومراقبتهم والحذر منهم وتحذير المسلمين من الاتصال بهم أما في مدرسة النبوة التي تتعامل مع المعادن التي علاها الركام والران ولا تتعامل مع الركام والران نفسه . في هذه المدرسة ومنذ اللحظات الأولى للاسلام يتقدم هذا العدو ليأخذ موقعه المناسب مع كفاءاته وامكاناته وخبراته وكأنما هومن أهل دار الأرقم أو الرعيل الأول من المهاجرين يقول عمرو : (.. فوالله ماعدل بي رسول الله صلى الله عليه وسلم وبخالد بن الوليد أحداًمن أصحابه في أمر حزبه منذ أسلمنا ...) لقد احتلوا الموقع الأول من الصدارة في المسؤولية والمواجهة العسكرية منذ لحظات إسلامهما الى أن توفى الله تعالى نبيه .

(... ولقد كناعند أبي بكر بتلك المنزلة ، وكان عمر على خالد كالعاتب)[1].

أما عمر بن الخطاب مع عمروبن العاص فلم يكن عاتبا عليه وكلام عمرو رضي الله عنه يحمل في ثناياه أدب تربية النبوة فالذي كان بين عمر وخالد وصل

---

(١) المغازي للواقدي ٢ / ٧٤١ - ٧٤٥ والإمام أحمد في المسند ح ١٧١٠٩ مسند الشاميين .

به إل أن عزله عن القيادة في أول لحظة أو سد الأمر اليه فيه وصارخليفة للمسلمين ومع ذلك فيصوغ هذا الأمر ابن العاص صياغة الأدب الإسلامي الرفيع وكان عمر على خالد كالعاتب .

بينماكان الجو بين عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص جو ثقة متبادلة منذ الجاهلية فبعد أن دخل عمرو حظيرة الإسلام أمكن لعمر رضي الله عنه ان يبث ما في قلبه لعمرو بن العاص فهو الذي كان يتمناه إلى جواره منذ أسلم قبل سبعة عشرعاما وهذاهو موقعه الحقيقي قال عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص لقد عجبت لك في ذهنك وعقلك كيف لم تكن من المهاجرين الأولين فقال له عمرو: وما يعجبك يا عمر من رجل قلبه بيد غيره لا يقدر التتخلص منه إلا ما أراد الذي هو بيده ؟ فقال عمر : صدقت)[1] .

لقد بلغ عمرو رضي الله عنه من الفقه في دين الله أن يَحُجَّ عمر بن الخطاب وهو يتعجب من تأخر إسلامه ويذكره أن القلوب بيد الله عندما تأتيها ساعة الرحمة تُعطى ذلك الفيض الرباني وإلا ما الذي أخَّر عمر بن الخطاب ست سنين عن الإسلام وعقله عقله ؟؟ .

(١٢) تاريخ ابن عساكر (ج ١٣/ ٤٩٧ .

المجد الإسلامي الأول : غزوة ذات السلاسل

مضت غـزوة مؤتة بعـد شهرين من إسـلام عمرو وخـالد وحضـرهاخالد بن الوليد ابتداءً جنديا مغـمورا وانتهاء قائدا فذا عظيمـا حصل على أعلى وسام حربي في الإسلام مـن رسول الله صلى الله عليـه وسلم (سيف الله) وغـدا على كل فم وكل لسان فماذا عن عمرو ؟

(ثم نظر إلينا فـأسـمعـه يقول قـد أعطت مكة المقـادة بعـد هذين فظننت أنه يعنيني ويعني خالد (ابن الوليد) . وعمـرو ينتظر على أحر من الجمر أن تمسه تلك الثقة الغالية من قائده الحبيب وكانت غزوة ذات السلاسل نعرض نصوصها ابتداء ثم نعيش في ظلال هذه النصوص وكانت في جمادى الآخرة سنة ثمان .

١ ـ يحدثنا عمرو بن العاص رضي الله عنه فيقول :

(قال لي رسول الـله صلى الله عليه وسلم :يا عمرو أشـدد عليك سلاحك وثيابك وائتني ففعلت فجئته وهو يتوضأ فصعَّد في البصر وصوبه وقال : « يا عمرو إني أريد أن أبعثك وجها فيسلمك الله ويغنمك وأرغب لك من المال رغبة صالحة» قـال ، قلت : يا رسـول الله : إني لم أسلم رغبـة في المال ، إنما أسلـمت رغبـة في الجهاد والكينونة معك . قال: « يا عمروا نعما بالمال الصالح للرجل الصالح »[1] .

٢ ـ محمد بن عمر عن رواته :

(بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن جـمعا من بلي وقضاعة قـد تجمعوا يريدون أن يدنوا إلـى أطراف رسـول الله صلى الله عليـه وسـلم فـدعـا رسـول الله

---

(١) رواه أحمد بإسناد صحيح ١٧١٣٤ .

عـمـرو بن العـاص فعـقـد له لواء أبيض وجـعل مـعـه راية سوداء وبـعثـه في سـراة المهاجـرين والأنصار في ثلاثمـائة (عامـر بن ربيعـة وصهيب بن سـنان وأبو الأعور سعـيد بن زيد وسعـد بن أبي وقاص ومن الأنصار أسـيد بن حضـير وعبـاد بن بشر وسلمة بن سلامة وسعد بن عبـادة وأمره ان يستعين بمن مر به من العرب وهي بلاد بلي وعذرة وبلقين . وذلك أن عمرو بن العـاص كان ذا رحم بهم كانت أم العاص بن وائل بلوية فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتألفهم بعمرو)[1] .

٣ ـ قال ابن عقبـة وابن اسحاق وابن سعد ومحمـد بن عمرواللفظ له : بلغ رسول الله صلى الله عليـه وسلم أن جمعا من قـضاعة قد تجمـعوا يريدون أن يدنوا من أطراف رسول الله صلى الله عليـه وسلم فدعا رسول الله عمـرو بن العاص بعد إسلامه بسنة) [2] .

٤ ـ عن ابن إسحـاق قال : حدثنا مـحمد بن عـبد الرحمن بن عـبد الله بن الحصين التميمي عن غزوة ذات السلاسل من أرض بلي وعذرة وقال :

بعث رسول الله صلى الله عـليه وسلم عمرو بن العـاص ليستنفـر العرب إلى الإسلام وذلك أن أم العـاص بن وائل كانت امـرأة من بلى فبـعثه رسـول الله صلى الله عليـه وسلم يستـألفهم بذلك حتى إذا كـا على مـاء بأرض جذام يـقال لهـا السـلاسل ، وبذلك سميت تلك الغـزوة ذات السلاسل ـ فـلما كـان عليه خـاف فبعث الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستـمده وبعث اليه أبا عبيدة بن الجراح

---

(١) المغازي للواقدي ٢ / ٧٧٠ .

(٢) سبل الهدى والرشـاد ٦ / ٢٦٢ والمقصود بعد إسلامـه على يد النجاشي بالمدينة حيث مر عليـها سنة أما اسلامه في المدينة فلم يمرعليه أكثر من اربعة أشهر .

في المهاجرين الأولين فيهم أبو بكر وعمر وقال لأبي عبيدة حين وجهه: « لاتختلفا» فخرج أبو عبيدة حتى اذا قدم عليه قال له عمرو : إنما جئت مددا لي فقال أبو عبيدة لا ولكني أمير على ما أنا عليه وأنت على ما أنت عليه ، وكان أبو عبيدة رجلاً ليناً سهلاً هيناً عليه أمر الدنيا فقال له عمرو أنت مدد لي فقال أبو عبيدة : يا عمرو : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تختلفا » وإنك إن عصيتني أطعتك فقال له عمرو : فإني أمير عليك ، وإنما أنت مدد لي قال : فدونك . فصلى عمرو بالناس) [١].

(قال : وحدثنا يونس عن أبي معشرعن بعض مشيختهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إني لأؤمر الرجل على القوم فيهم من هو خيرمنه لأنه أيقظ عيناً وأبصر بالحرب) [٢] .

٥ - (وانطلق المغيرة بن شعبة إلى أبي عبيدة فقال :

(إن رسول الله استعملك علينا وإن ابن فلان قد ارتبع أميرا لقوم فليس لك معه أمر ، فقال أبو عبيدة : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا أن نتطاوع ، فأنا أطيع رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن عصاه عمرو)[٣] .

٦ - وروى ابن حبان والطبراني برجال الصحيح عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه في غزوة ذات السلاسل فسأله أصحابه أن يوقدوا نارا فمنعهم فكلموا أبا بكر رضي الله عنه فكلمه فقال :لا يوقد أحد منهم نارا إلا قذفته بها)[٤] .

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٤ / ٣٩٩ - ٤٠٠ .

(٢) رواه البيهقي في الدلائل عن معشر عن بعض شيوخه .

(٣) مسند الإمام أحمد ١ / ١٩٦ .

(٤) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٦ / ٢٦٤ .

٧ ـ وروى الحاكم عن بريدة رضي الله عنه قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص في سرية منهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما . فلما انتهوا الى مكان الحرب أمرهم عمرو ألا يوقدوا ناراً فغضب عمر بن الخطاب وهم أن يأتيه فنهاه أبو بكر وأخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يستعمله إلا لعلمه بالحرب فهدأ عنه .

فسار عمرو بالليل وكمن النهار حتى وطىء بلاد العدو ودوخها كلها حتى انتهى إلى موضع بلغه أنه كان به جمع فلما سمعوا به تفرقوا فسار حتى انتهى إلى أقصى بلادهم . ولقي في آخر ذلك جمعا ليس بالكثير فاقتتلوا ساعة ، وحمل عليهم المسلمون فهزموهم ، وتفرقوا . ودوخ عمر ما كان هنالك وأقام أياما لا يسمع لهم بجمع ولا مكان صاروا فيه الا قاتلهم ، وكان يبعث أصحاب الخيل فيأتون بالشاء والغنم فكانوا ينحرون ويأكلون ، ولم يكن أكثر من ذلك ولم يكن في ذلك غنائم تقسم كذا قال جماعة) (١).

(قال البلاذري : فلقي العدو من قضاعة وعاملة ولخم وجذام ، وكانوا مجتمعين ففضّهم . وقتل منهم مقتلة عظيمة وغنم وروى ابن حبان والطبراني عن عمرو أنهم لقوا العدو فأراد المسلمون أن يتبعوهم فمنعهم ، وبعث عمرو عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه بشيرا إلى رسول الله صلي الله عليه وسلم بقفولهم وسلامتهم وما كان من غزاتهم) .

٨ ـ احتلام عمرو بن العاص : روى الإمام أحمد عن عمرو بن العاص قال :

---

(١) المستدرك للحاكم ٣ / ٤٢ .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٦ / ٢٦٤ .

(احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل ، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك فتيممت ثم صليت بأصحابي الصبح فذكروا ذلك للنبي صلى الله لعيه وسلم فقال : « يا عمرو أصليت بأصحابك وأنت جنب ؟ » فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال وقلت : إني سمعت الله يقول : ولا تقتلوا أنفسكم ان الله كان بكم رحيما » فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقل شيئا)[1] .

وفي رواية لأبي داود عن ابي قيس مولى عمرو بن العاص أن عمرو بن العاص كان على سرية وذكر الحديث نحوه فقال فغسل مغابنه[2] وتوضأ وضوءه للصلاة ثم صلى بهم ، فذكر نحوه ولم يذكر التيمم قال أبو داود وروى هذه القصة عن الأوزاعي عن حسان بن عطيه قال فيه فتيمم)[3] .

٩ ـ روى ابن حبان والطبراني عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن الجيش لما رجعوا ذكروا لرسول الله صلى الله عليه وسلم منعي لهم من إيقاد النار ومن أتباعهم العدو فقلت : يا رسول الله إني كرهت أن يوقدوا ناراً فيرى عدوهم قلتهم وكرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مدد فيعطفوا عليهم فحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره [4] .

١٠ ـ روى البخاري عن أبي عثمان النهدي رحمه الله تعالى موقوفا عليه ومسلم والاسماعيلي والبيهقي عنه قال : سمعت عمرو بن العاص يقول : بعثني

---

(١) مسند أحمد ٤ / ٢٦٣ .

(٢) المغابن : بواطن الأفخاذ والآباط .

(٣) سنن أبي داود ١ / ٩٢ ح ٣٣٥ كتاب الطهارة .

(٤) سبل الهدى والرشاد ٦ / ٢٢٨ .

رسـول الله صلى الله علـيه وسلـم على جيش ذات السـلاسل وفي القـوم أبو بكر وعمـر فحدثت نفسي انه لم يـبعثني على أبي بكر وعمـر الا لمنزلة عنده قال فأتيـته حتى قعدت بين يديه وقلت : يا رسـول الله من أحب الناس اليك ؟ قال : « عائشة » قلت : إني لست أسألك عن أهلك قال : « فأبوها » قلت : ثم من ؟ قال : « عمر » قلت ثم من ؟ حتى عد رهطا . قلت في نفـسي لا أعود أسأل عن هذا وفي رواية الشيخين .فسكت مخافة أن يجعلني في آخرهم)[1] .

١ ـ المال ا لصالح للرجل الصالح :

لقـد كان رسول اللـه صلى الله عليه وسلم يبني الـرجال وأنشأ الجـيل الأول على يديه . أما عـمرو فقـد جاءت صياغـته كاملة وبلغ مـرحلة القيادة في الجـاهلية ويود صلى الله عليـه وسلم أن يسخر هذه الطاقـات في سبيل الـله فكانت الاشارة النبوية : « يا عمرو : أشدد عليك سلاحك وأتني » وكم شـد عمر سلاحه وثيابه وتهيأ لحرب الإسلام والمسلمين . أما الآن فإنه للمرة الأولى يشد ثياب الحرب عليه ويعد سلاحـه بأمررسول الله صلى الله عليه وسلم فهـو يمضي الى المجهول لكنه في قمة السعادة فقد آن الأوان ليمضي مجاهدًا في سبيل الله واذا كان خالد بن الوليد رضي الله عنه ، وهو الأبرع والأكفأ في الحرب مـنه ، لم يوله عليه الصلاة والسلام القيادة في مؤتة انماتركه يمضي جنديا مغمورا في هذه الآلاف الثلاثة ، ثم اختاره الناس أميرًافيما بعد فعمرو اذن سيكون مثل خالد في خطواته الجهادية الأولى .

وها هو النبي صلي الله عليـه وسلم يصعـد فيه النظر ويصـوبه وفي ذهنه هذ المعدن ا لذي يتلألأ رجولة وشهامة فقال له :

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٦ / ٢٦٨ ، وهي عند البخاري ج ٣٣٨٩ ومسلم ح ٤٣٩٦ .

« يا عمرو إني أريد أن أبعثك بعثا فيسلمك الله ويغنمك وأرغب لك في المال رغبة صالحة » لقد تجاوز عمرو الخمسين من عمره . ولم يعد ذلك الشاب الطموح الهائج لجمع المال وتكوين الثروة وتصيد المجد فقد غدا كهلا وقورا . فراح قلبه يخفق وهو يسمع هذاالتكليف النبوي العظيم ولا يكاد يجرؤ ان يرفع بصره الى رسول الله صلى الله عليه وسلم حياء منه وهيبة منه لكنه وهو يسمع هذا الأمر المحبب اليه دار بذهنه صورة قاتمة مع هذا الأمر فرسول الله صلى الله عليه وسلم يعده بالسلامة والغنيمة ويحب له أن تكون غنيمته وافرة في هذا البعث ترُى هل هل هان في عين المصطفى صلى الله عليه وسلم فراح يعامله لتأليف قلبه بالمال ، وهو قد آمن الإيمان الذي يراه في قلبه يضارع الجبال والإخلاص لله وحده والتخلي عن زينة الدنيا من المال والولد هو الذي يربي عليه النبي صلى الله عليه وسلم أحبابه والخلص من أصحابه لديه ؟! .

كان لا بد أن يزيل هذا القلق الذي ارتسم على وجهه بعد أن نهب قلبه .

قال : يا رسول الله إني لم أسلم رغبة في المال إنما أسلمت رغبة في الجهاد والكينونة معك) .

فقد صغرت الدنيا في عينيه كلها منذ تلك الصفعة النجاشية في الحبشة له والتي أعادت تركيبه وصياغته من جديد فله من مال في الوهط ما يجعله من أغنى أهل مكة وعندما بايع النجاشي على الإسلام ثم بايع بعده رسول الله صلى الله عليه وسلم انما باع دنياه كلها مؤثرا آخرته وسلامته فيها ويود أن يتفرغ للجهاد في سبيل الله وعلى هذا جاء وبايع النبي صلى الله عليه وسلم وبعد أن أفنى عمره مخلصا للصد عن سبيل الله وما كان المال مطمعه في الجاهلية في هذه الحرب فكيف في الإسلام . ؟ !

إنه يرى نفسه صغيرا جدا في عيني نبيه عندما يود أن يتألفه بالمال ، وأعاظم الرجال يبقى المال . عندهم وسيلة للمجد لا غاية فالمال سلم المجد عندهم وصغار النفوس الذين يعبدون المال أما في الإسلام فالمال والمجد والشهرة أدوات الطاعة لله تعالى .

فكان جواب السيد العظيم :

(يا رسول الله إني لم أسلم رغبة في المال إنما أسلمت رغبة في الجهاد والكينونة معك ويا له من تعبير رائع (والكينونة معك) فقد ربط نفسه بقائده وحبيبه ورسوله حتى الموت ، وأدرك عليه الصلاة والسلام ما كان يعتمل في نفس عمرو ، وأزال تلك الغشاوة الثقيلة الجاثية على قلبه ولو كان عليه الصلاة والسلام يعلمه أن عمرا يقبل الدنية ويعشق لمال لفطمه عن ذلك ولم يرغبه به ، وحذره منه ولكنه صلى الله عليه وسلم يعرف خلو قلب عمرو منه وأن المال في الجاهلية والإسلام انما كان عنده وسيلة وليس رغبة وهدفا في حد ذاته فأعلمه إنما يفعل ذلك به لأنه رجل صالح « ونِعِمّا بالمال الصالح للرجل الصالح » .

والطريق طويل أمام عمرو . أما زيد وجعفر وابن رواحة فقد كانت خاتمة الطريق عندهم ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضعهم عى رأس القيادة وعلى طريق الشهادة .

« ... فإن أصب زيد فجعفر بن أبي طالب فإن أصيب فعبد الله بن رواحة فإن أصيب فليصطلح المسلمون على أمير » لقد أدى القادة الثلاثة ما عليهم وأفنوا عمرهم في سبيل الله ومضوا الى ربهم وقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه أما عمرو فهذه أول خطواته الجهادية في سبيل الله بعد عُمْرٍ مثقل بالصد عن سبيل الله

ولهـذا قـال عليه الصـلاة والسـلام « فـيسلـمك ويغنمك » و « نعم المال الصـالح للرجل الصـالح » فهو يوجـهه عليـه الصلاة والسلام من طريـق آخر . إلى أن يضع ماله في سبـيل الله صدقة وزكاة وإنماء وعمارا في الأرض لأنه من أصـحاب الهمم العـاليـة في هـذه الحيـاة فـلم لا يوظف هذا المال في البناء والتنمـيـة والإثـمار والاتفاق ؟؟

٢ - إلى بلي وقضاعة ولخم وجذام :

إلى الخط نفسه الذي مـضى إليـه سلفه خـالد بن الوليـد الى تلك القبـائل العربيـة الضاربة شـمالا والتي صحت بعـد هول الصدمـة الفاجعـة التي تلقتـها من خالد ولـم تكد تصدق أنهـا خسـرت المعركة مـع ثلاثة آلاف مقـاتل وهل ستـبقى تحمل هذا العار إلى الأبد ولم لا تغسل المدينة كـلها من المسلمين كي تغسل العار الذي لحقها بذلك .

لقد رأينا العرب الذين قـادهم مالك بن رافلة الأراشي المائة ألف بجوار الروم المائة ألف (انضم اليـهم مائة الفا من لخم وجـذام وقبائل قـضاعة مـن بلقين وبهراء وبلى عليهم رجل من بلى ثم أحد أراشه يقال له مالك بن رافلة)(١) .

هذا في مـؤتة وفي ذات السلاسل قـال البـلاذري : فلقي العدو من قـضاعـة عامة ولخم وجذام وكانوا مجتمعين ففضهم وقتل منهم مقتلة عظيمة) (٢) .

ولكن عمرو بن العاص لم يكن اختياره اعـتباطاً بل كان ضمن هدف محدد فان كـانت الآلاف الثلاثة الأولى مضت لتثأر لمقتل رسول رسـول الله صلى الله

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٦ / ٢٣٤ .

(٢) المصدرنفسه / ٦ / ٢٨٤ .

عليه وسلم الـذي قتله شرحبيل الغسـاني فعمـرو بن العاص هو ولد قـضاعة عـامة وولد بلى خاصـة وأم العاص بن وائل من بلى ولا يبعـد أن يكون عمرو في طفـولته قد مضى لزيارة أخواله بلى هناك .

ومن أجل هذا وجدنا أن ما ذكر عن هذه الغزوة هو هدف مزدوج .

الهدف الأول الـذي رجحتـه الروايات والذي يشيـر الى أن جمـوع قضـاعة ولخم وجذام تتأهب لغزو المدينة ثأراً لمانزل بهم في مؤتة .

الهـدف الثاني الذي ذكـرته رواية واحدة لابن اسـحاق أوردها البـيهـقي في دلائله بعث رسول الله صلى الـله عليه وسلم عمرو بن الـعاص ليستنفـر العرب الى الإسلام وذلك أن أم العـاص بن وائل كانت امـرأة من بلي فبـعثه رسـول الله صلى الله عليه وسلم يستألفهم لذلك)[1] .

وقد رجح الحـافظ بن حجر في الفـتح الهدف الأول إذ قال: (فهـذا السبب أصح إسنادًا من الذي ذكره ابن اسحاق لكن لا يمنع الجمع) [2] .

ووجـه الجـمع بين الروايات كلـهـا هو أن رواية ابن اسـحـاق قـد وردت في صيغتين .

الصيـغة الأولى : ليسـتنفر العرب الى الإسـلام وقد ذكرها الحـافظ في الفتح والبيهقي في الدلائل .

الصيـغة الثانية : (لـيستنفر العـرب إلى الشام ، وقد وردت في السـيرة لابن هشام وعند الصالحي في السيرة الشامية .

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٤ / ٤٠٠ / ٣٩٩ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٨ / ٧٥ .

وبالتدقيق في الرواية نرى أن المعنى يستقيم (إلى الشام) أكثر مما يستقيم (إلى الإسلام) وعلى هذا تكون الرواية الواردة الوحيدة على الصورة التالية .

(وغزوة عمرو بن العاص ذات السلاسل من أرض عذرة وكان من حديثه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه يستنفر العرب الى الشام وذلك أن أم العاص بن وائل كانت امرأة من بلي فبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم يستألفهم لذلك)(١) .

وبذلك تصبح كل الروايات منصبة على الجانب الحربي وان كان الاختلاف يبقى كبيرا بين الروايات التي تذكر أن الحرب ضد قبائل قضاعة الذين يريدون أن يدنوا من المدينة أو الاستعانة بهذه القبائل لاستنفارها إلى الشام ويجمع بين هذين الهدفين بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يستفيد من قرابة عمرو في استنفار بعض قبائل قضاعة ضد بعضها الآخر وهذا ما ترجحه رواية الواقدي التي تذكر تفصيلات تامة نوردها لذلك .

(بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن جمعا من بلي وقضاعة قد تجمعوا يريدن أن يدنو أطراف رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص فعقد له لواء أبيض وجعل معه راية سوداء وبعثه في سراة المهاجرين والأنصار في ثلاثمائة عامربن ربيعة وصهيب بن سنان وأبو الأعور وسعيد بن زيد بن عمر بن نفيل وسعد بن أبي وقاص ومن الأنصار أسيد بن حضير وعباد بن بشر وسلمة بن سلامة وسعد بن عبادة وأمره ان يستعين بمن مر به

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٦٢٣ .

من العـرب وهي بلاد بلي وعذرة وبلـقين وذلك ان عمـرو بن العاص كـان ذارحم بهم كـانـت أم العـاص بن وائل بلويه فـأراد رسـول الله صلى الله علـيـه وسلم أن يتألفهم بعمرو)[1] .

يقول الصـالحي : فإن عمـراً كان احد دهـاة العرب وكون العـرب الذين أمر رسول الله صـلى الله عليه وسلم أن يسـتعين بهم أخـوال أبيه كمـا ذكر في القـصة فهـم أقرب اليه إجابة من غيره)[2] .

وعظمة شخصية عمرو أن يستعمل دهاءه في تحقيق الأهداف الثلاثة .

حرب المحـاربين ، وتعبـئة المسلمين معـه ضدهـم والدعـوة الى الإسلام مهـمة تحتاج عبقريا وكان عمر وهو ذاك الرجل .

٣ ـ ومعه سراة المهاجرين والأنصار :

ونلحظ أن عدد السرية المتـجهة إلى شمال الجزيرة هو عُشْرُ عدد سرية مؤتة فليست المهمـة مواجهة مبـاشرة بمقدار ماهي مهـمة حرب عصابات ومهـمة دعوة لدين الله فكان مـعه رضي الله عـنه كبـار المهاجـرين والأنصار لقـد كانت السـرية ثلاثمائة وجـد فيهـا من سراة المهـاجرين اثنان من العشـرة المبشريـن في الجنة وهما سعيـد بن زيد وسعد بن أبي وقاص ووجد فـيها أعظم قيـادات الأنصار لم يتخلف من هؤلاء الأعاظم أحد ففـيهـم سيد الخزرج سعد بن عبـادة وسيدا الأوس عباد بن بشر وأسيد بن حـضير فيها كذلك أمـا ثالثهم سعد فقد استـشهد في الخندق تقول عائشة رضي الله عنها : ثلاثة من الأنصار لم يكن أحد يعتد عليهم فضلاكلهم من بني عبد الأشهل سعد بن معاذ وعباد بن بشر وأسيد بن حضير) .

---

(١) المغازي للواقدي ٢ / ٧٧٠ .

(٢) مسبل الهدي والرشاد للصالحي ٦ / ٢٧٠ .

لقد وضع تحت إمرته رضي الله عنه وهو ابن الأشهر الخمسة في الإسلام خير السابقين من المهاجرين والأنصار وذلك ليوطن هذا الجيل نفسه فيما بعد كيما يستفيد من هذه العبقرية النادرة يسمع لها ويطيع في مجال المواجهة والحرب .

وهي تجربة لعمرو بن العاص كذلك يرى نفسه أميرا على هذه القيادات جميعا ولما يفقه الاسلام بعد ويراقب تصرفه وسلوكه .

٤ ـ مدد جديد بخيار أهل الأرض :

ومضى عمرو بن العاص رضي الله عنه في هذه الصحراء حتى وصل إلى أرض العدو فبلغه أن جمعا كبيرا قد استعد لمواجهته وحتى إذا كان بأرض جذام يقال لها السلاسل ويقال السلسل وبذلك سميت الغزوة ذات السلاسل بلغ أن لهم جمعا كثيرا فبعث عمرو رافع بن مكيث الجهني إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره أن لهم جمعا كثيرا ويستمده فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه وعقد له لواء وبعث معه سراة المهاجرين كأبي بكر وعمر بن الخطاب وعدة من الأنصاررضي الله عنهم وأمررسول الله صلى الله عليه وسلم أبا عبيدة أن يلحق بعمرو بن العاص وأن يكونا جميعا ولا يختلفا وكان أبو عبيدة في مائتي رجل) (١).

وإذا كان جيش عمرو فيه خيرة الأنصار على الإطلاق وعدد من المهاجرين فإن مدد عمرو فيه خيرة المهاجرين وخيرة أهل الأرض على الإطلاق فيه صدّيق الأمة وفاروقها وأمينها أبو بكر وعمرو وأبو عبيدة ويكاد يظهر أن مثل هذا الجمع

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ١ / ٣٣٧ وقال محققه أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي .

من زعـماء الأمة لـم يلتق أبدا وبهذه الكثـافة تحت راية أحـد وقيـادته الا تحت راية رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغـزوات التي كان يقودها وها نحن نجده الان يمضي مددا الى عمرو بن العاص .

ولا ننسى أن نشيـر إلى حسن اختيـار عمرو لرسوله فـرافع بن مكيت جهني وهذه ديار جذام قريبة أومجاورة لديار جهينة وطريقها واحد الى المدينة وخبرة رافع في الصـحراء وكـفـاءته الذاتية لا تـبارى ولذلك اسـتطاع أن يذهب ويعـود بالمدد بسرعة فائقة لأنه خبيرالصحراء وابنها الذي تربى فيها وكان اللقاء المثير الغريب بين القائدين عمرو بن العاص وأبي عبيدة بن الجراح .

٥ ـ الدرس الأول

لم يكن يشك أحـد مـن هذه القـيـادات أن عـمـرو بن العـاص ابن الأشـهـر الخمـسة في الإسـلام سوف يدع القـيادة لأمين الأمـة أبي عـبيـدة بن الجـراح ثالث الثـلاثة أبي بكر وعمـر . أما عـمرو فلم يملك بعـد أي لقب أو أية رتبة عـسكرية أو سياسـية . وأن يكون الجميع تحت راية أبي عـبيدة بن الجراح هو الأصل الطـبيعي . لكن المفاجأة كانت مـذهلة . فعمرو بن العاص يرفض أن يكون تبعـاً لأبي عبيدة . وقـد أمَّرَه رسـول الله صلى الله عليه وسلـم على الجيش ، وتبـقى هذه المفاجـأة في الحدود المعقولة ، فـلا غرابة أن يُصرّ عمرو على قيادته للثـلاثمائة الذين كان عليهم أميراً من قـبل . وإن كان هذا لم يكن مصدر راحة لكبـار المسلمين في الجيش لكن طموح عمرو كان أبعد من ذلك بكثيـر . إنه يريد أن يكون أمير الجيشين معاً . ولم يعرض هذا الأمـر بتحرج أو حـياء . وإنما عرضه بقناعـة كاملة . ومن خلال خـبرته الحربية السابقة .

(فلما قدموا أراد أبو عبيدة أن يؤم النـاس فقال عمرو : إنما قدمت عليَّ مدداً لي . وليس لك أن تؤمني وأنا الأمير وعمرو لا يقبل إمامة أبي عبيدة . ولا يرضى إلا إمرته على الجميع وأخذ الأمر في صفوف المسلمين وقيادتهم حيِّزاً واسعاً واهتماماً كبيراً ولغطاً وبلبلة . فلم يعهدوا في تاريخهم كله مثل هذه الجرأة عند الرعيل الأول ، ولم يشهدوا مثل هذا الإصرار على الإمارة والحرص عليها . والأصل أن يتقاذفوها لا أن يتنازعوها وتفاديا لتصدع خطير في الجيش (قال المهاجرون : كلا بل أنت أمير أصحابك ، وهو أمير أصحابك) .

ورفض عمرو هذا الرأي من خلال خبرته وتجربته في الحرب فلا يمكن لجيشين صغيرين بأميرين أن يحققا هدفاً ذا بال في المعركة . وإذا تقرر أن يكون التشاور مستمراً فإذا اختلف فأي رأي يمكن أن ينفذ ؟ !!

أصر عمرو على رأيه قائلاً : لا أنتم مدد لنا .

وفي الوقت الذي كان عمرو بن العاص يكافح وينافح لتبقى له القيادة كلها ها هو يتلقى درساً عظيماً في التربية من الرعيل الأول ، من أبي عبيدة بن الجراح

وألقى أبي عبيدة درسه النظري إبتداءً فقال :

(يا عمرو إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تختلفا »، وإنك إن عصيتني لأطيعنك » ومضى عمرو يُغذي طموحه بعد أن رأى ذلك اللين والذلة بين المؤمنين من أمين الأمة الذي تمثلت به مواصفات الجيل الخالد ﴿ **محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم** ﴾ فقد بلغ من شدته على الكفار أن لا تأخذه في الله لومة لائم . أن قتل أباه في بدر حتى ضربه الله تعالى مثلاً حيا لحزب الله .

﴿ **لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب في قلوبهم الإيمان ، وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون** ﴾(1) .

(قال سعيد بن عبد العزيز وغيره : أنزلت هذه الآية ﴿ **لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر** ﴾ إلى آخرها في أبي عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح حين قتل أباه يوم بدر)(2) .

ولن تجد في الدنيا كلها أعظم بطولة ، وأشد رجولة ممن يقتل أباه في سبيل الله فهذا هو حزب الله ومن هو في هذه البطولة وفي هذه الشدة وفي هذه العظمة هو هونفسه الذي يلين لإخوانه ،يلين لهذا الوافد الجديد ليربيه على مفهوم الطاعة ، ويربيه على مفهوم الإيثار ويربيه على مفهوم الذل للمؤمنين أن يقول له :(ولئن عصيتني لأطيعنك) .

وقال عمرو : فإني أمير عليك وإنما أنت مدد لي

قال أبو عبيدة : فدونك .

ثم نفذ الدرس العملي مباشرة وعلى الملأ (فصلى عمرو بالناس) .

وها هو عمرو بن العاص وخلال خمسة أشهر يصبح أميراً على قادة الدنيا وسادة أهل الأرض يصبح أميرا على جيش فيه قادة الأمة الثلاثة الصديق والفاروق

---

(1) سورة المجادلة / الآية الأخيرة .

(2) تفسير ابن كثير ٦ / ٥٩١ .

والأمين وفيـه سادة الأنصـار سعد بن عـبادة ، وأسيـد بن حضيـر ، وعبـاد بن بشر ويقوم ليـصلي بهؤلاء جميعا يسـمعون له ويطيـعون وجاء المغيـرة بن شعبـة خريج دورة الحديبية الى أميره أبي عبـيدة قائلا له : (إن رسول الله استعملك علينا ، وإن ابن فـلان قد ارتـبع أمر القـوم ، فليس لك معـه أمـر فقـال أبو عـبيـدة وهو خـريج الدورات كلهـا والجامـعات كلهـا ، العـهد السـري ، دار الأرقم ، الهجـرة ، بدر ، الحديبية يعود لتربية أخيه المغيرة بن شعبة قائلا :

(إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمـرنا أن نتطاوع . فأنا أطيع رسول الله صلى الله عليه وسمل وإن عصاه عمرو) .

هذا الهدف العظيم والدرس الخـالد الذي قدمه أبو عـبيدة ليس لعمـرو فقط ،وليس للمغيرة فقط وإنما لجميع المسلمين استفادة من قول المصطفى صلى الله عليه وسلم : لا تختلفا .

٦ - وجاء الدرس العظيم الثاني من الصدّيق :

لقد كانت حركـة الجيش في موسم البرد ووصف بردها عمرو بـنفسه بقوله في (... ليلة باردة كـأشـد ما يكون البـرد) وراح يتـحدث عـنها أمـام نبـيه عليـه الصلاة والسلام .

(والذي بعثك بالحق لو اغتسلت لمت ، لم أجد بردا قط مثله)

وفي مثل هذه الأجـواء وحين يجلس الجيش للنوم يحس بلسـعة البرد أكـثر ولن يتمكن أحـد من النوم فيه فراحـوا يجمعون الحطب ليـوقدوا النار وإذا لغظ بدأ بنتشر في الجيش كله إن الأمير ينهـاكم أن توقدوا ناراً وليست لحظة وليست ساعة إنها الليل كله ، فكيف يفعلون إذن في هذا البرد القارس .

وراحوا يلجأون لكبار الصحابة يرجونهم أن يراجعوا الأمير لعله يغيررأيه ، فقد كادوا يقتلون من البرد وتململ الجيش وتذمر الجيش وحاول بعضهم أن يوقد النار فجاء الجواب على لسان الأميرعمرو : إن الأمير ينهاكم أن توقدوا نارا .

وبحث المسلمون عن أفضلهم وأحبهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ففيهم رئيس الوزراء أبو بكر الصديق جاؤوا إليه يستشفعونه عنه فقال عمرو للصديق : (لا يوقد أحد منهم نارا إلا قذفته فيها) .

لقد تكلم بخشونة مع الصديق كما تكلم بها من قبل مع أبي عبيدة .

ترى أينزغ الشيطان بين الإخوة ويقول لهم ان عمرو بن العاص هذا دخيل الإسلام وهذه فرصته السانحة في إهلاك خيار المسلمين في هذه الصحراء. وهي فرصته للانتقام من عدوه محمدوصحبه . خرج الصديق ذو القلب الرحيم يكاد يكون دامع العينين للذع الجواب الفج الغليظ ولم يتنازل عمرو ليشرح لرئيس وزراء المسلمين وشيخهم وجهة نظره ويطلب مساعدته في إقناع الجيش بذلك إنما اكتفى بقوله : (لا يوقد أحد منهم نارا إلاقذفته فيها) .

فلا يعظمُ الأميـر أحد ولا يقبل شفاعة أحد وخرج أبو بكر للناس وقرأوا الجواب بعينيه فالأمير مصر على موقفه ، وهم يطلبون الإشارة منه أو من عمر أو من أبي عبيدة حتى ينفذوا ما يريدون بتوجيههم ولعله اعتمل في قلوب الكثيرين من المسلمين أن عمرو بن العاص لا يزال على جاهليته ، وقد تظاهر بالإسلام ، وهو يريد أن ينتقم من المسلمين ويعذبهم ويقتلهم بردا في هذا الليل فهل يُسكت عنه ؟

ولا يمكن أن يكشف هذا الأمر ويقوم على مواجهته إلا عمر رضي الله عنه . جاؤوا اليه يوغرون صدره على عمرو بن العاص ، ليس بحاجة إلى أن يوغر أحد

صـدره على عمـرو لكنه لا يريد أن يتـفـرد برأي عن أميـره الحقيـقي وهو يعلم أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم قال له ولأبي بكر : « لـو اجتـمعتمـا على رأي ما خالفتكما » . فإذا اجتمعا على أمر فلا خيار لعمرو في مخالفتهما ، لأن رسول الله صلى الله عليـه وسلم لا يخالفهـما ومضى متوترا لأعصـاب غاضبـا إلى الصديق ليتـخذا رأيا واحدا يواجـهان به عمـرو بن العاص ، أو يدعـه يتصرف مع الأمـير بما يجرحه لهذا الموقف .

(فغضب عمر ، وهمَّ أن يأتيه فنهاه أبوبكر) .

ويتساءل عمر في نفسه وهو يرى نهي الصديق له : أتصبح قيادات المسلمين كلها تحت إمرة عمرو بن العاص وهو يطلـب منها الآن أشق مايكون على نفسها ، أن تعاني مـن آلام البرد وشدته في هذه الصـحراء التي لا بيت فـيهـا ولا مأوى ولا ظل يقي منه ، والحطب متوافر يمكن أن يوقد النار ويبعث الدفـء في كل جسد أما عمرو بن العاص القائد الجديد ، فيتوقع في كل لحظة تمرداً أو ثورة وكل ما يخشاه أن يشارك فيها أحد القادة الثلاثة أبي بكر وعـمر وأبو عبيدة ،أو قادة الأنصارالثلاثة عباد بن بشر وسعد بن عبادة وأسيد بن حضير وقد جاءه أبو بكر فرده لكنه مايفعل إن جاء عمر؟ فهل يتم الأمر دون أزمة عنيفة بينهما قد تخرج ملاك الأمر من يده .

لكن أبا بكر رضي الله عنه أحكم الموقف وأقنع عمـرا بقوله : « وان عَمْرا لم يستعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا لعلمه بالحرب » .

وطاعة أولي الأمر والخبرة واجبة وليس أبو بكروعمر بأقل خـبرة بالحرب من عـمـرو ولكنه الآن هو الأمـيـر وأثبت هذا الجيش أعظم مـستـوى من الانضبـاط والطاعة ، رغم الهـياج الضخم والـغضب الشديد من عـدم ايقاد النار ونفذ عـمرو

مخططه كاملا ليبدأ الهجوم مع الفجر على العدو ولم توقد نار واحدة ولم تسجل مخالفة واحدة لأن المشرف على الأمة سادتها وقادتها يربونها على السمع والطاعة للأمير ، مهما كانت المشقة فيها .

ب

فقد صدرت الأوامر أن لا يتبع أحد جنديا من جنود الأعداء إن فرّ منه ولا يثبت النصر إلا بملاحقة الجندي الفار وقتله وأخذ سلبه ولم يبين عمرو رضي الله عنه سبب هذا المنع وغدا الجيش كله يتململ من شدة أوامره والغنيمة التي يطمع بها المقاتل في سلب العدو كثيرة حين يقتل عدوه .

أزمات نفسية تواجه المسلمين من هذه القيادة ويذكرون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي أمره فيصمتون طاعة لله ولرسوله .

لكن القياد ةالفذة للمعركة برزت في اليوم الثاني ، وبرزت العبقرية في هذه القيادة فهؤلاء الخمسمائة (سار الليل وكمن النهار حتى وطىء بلاد العدو ودوخها كلها حتى انتهى إلى موضع بلغه أنه قد كان به جمع فتفرقوا ، فسار حتى إذا انتهى إلى أقصى بلادهم ، ولقي في آخر ذلك جمعا ليسوا بالكثير فاقتتلوا ساعة، وحمل علهيم المسلمون فهزموهم وتفرّقوا ، ودوّخ عمرو ما هناك وأقام أياما لا يسمع لهم بجمع ، ولا مكان صاروا فيه إلا قاتلهم ، وكان يبعث أصحاب الخيل فيأتون بالشاء والنعم فكانوا ينحرون ويأكلون ، ولم يكن أكثر من ذلك ولم يكن في ذلك غنائم تقسم كذا قال جماعة) فقد أصبح اسم المسلمين يثير الرعب في صفوف هذه القبائل . ولا يكاد جمع منهم يهم بالهجوم الا ويرى المسلمين قد انقضوا عليه فينفض الجمع وينشر الرعب والخوف في صفوف جيرانه والمسلمون

في أرض أعدائهم كـأكلة جزور ولم يضربوا ويهـربوا وانتهى الأمر ، بل يهجـمون ويتحدون وينتشرون ويلاحقون وصاروا سادة الساحة كلها .

(قـال البلاذري : فـلقي العدو مـن قضـاعـة وعاملة ولخـم وجذام ، وكـانوا مجتـمعين ففضـهم وقتل مهم مقـتلة عظيمة وغنم وروى ابن حبـان والطبراني عن عمرو أنهم لقـوا العدو فأراد المسلمون أن يتبعوهم فمنعهـم وبعث عوف بن مالك الأشـجـعي رضي الله عنه بشـيـرا إلى رسـول الله صلى الله عليـه وسلم بقـفـولهم وسلامتهم وما كان في غزاتهم)[1] .

وقفل عمـرو رضي الله عنه عائدا بجيشـه المظفر وهومتأهب للمـواجهة وفي طريق العودة .

٨ ـ كانت الأزمة الثالثة :

وهي التي أعـادت ثانية جـو الريبة والتـململ من القـائد . فقـد أصبح عـمرو رضي الله عنه جنبا وسأل المسلمين وكلهم فقـهاء في دين الله ، فأعلموه أن الغسل من الجنابة هو الحل وكيف يتم الغـسل في هذه الصحراء المهلكة والبرد وقـد جمد النبات فكيف بالإنسان ورأى عمـرورضي الله عنه خطورة الاغتسال في هذه الليلة الباردة ، فغسل مغابنه وتوضأ وفي رواية أنه تيمم تيممه للصلاة وآن الأوان لصلاة الفجـر فتقـدم وصلى بالناس وانتشـر الخبر في الجـيش كله صلى بالناس وهو جنب ولا شك أن الناقـمين عليه كانوا يـزيدون في نشر هذا الخـبر فهـو يمنع عنهم النار ، ويدعهم يعانون من شدة القر . وها هو الآن يخاف البرد ولا يغتسل ويصلي بالناس

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٦ / ٢٦٤ من رواية بريدة في الحاكم للمستدرك ٣ / ٤٢ .

وهو على جنابه لا ترتفع الجنابة الا بالغسل ويكاد يسود في صف بعضهم الشك في إسلامه وضعف دينه فهم قد غضبوا منه ابتداء حين رأوه يصر على الترؤس وحب السيادة ولا يتنازل عن الإمارة لسادة الدنيا أمثال أبي بكر وعمر واجتمعت هذه العوامل فشكلت تيارا كبيرا ضده .

ومع وصول عمرو رضي الله عنه إلى المدينة ، ومع وصول الأخبار السارة عن النصر ، لكن رُفعت عليه ثلاث دعاوى أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم وانعقدت المحاكمة الميدانية التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو القاضي فيها وكان عمرو بن العاص الأمير هو المتهم فيها ، وهذه هي وقائع المحكمة المثيرة العظيمة التي انتهت في دقائق حيث وصل لنا ملف الدفاع كاملا كما رواه الحافظ الطبراني وابن حبان .

الدعوي الأولى والثانية : أن الجيش لما رجعوا ذكروا لرسول الله صلى الله عليه وسلم منعي لهم من إيقاد النار ومن اتباعهم العدو .

الدفاع : يا رسول الله إني كرهت أن يوقدوا ناراً فيرى عدوهم قلتهم وكرهت أن يتبعوهم ، فيكون لهم مدد فيعطفوا عليهم .

الحُكم : فحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره .

وخرج من المحكمة بريئاً من التهم مشهودا له بالعبقرية الحربية حيث حمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره .

أما الدعوى الثالثة : فنأخذها من لسانه رضي الله عنه كما رواها أحمد وأبوداود رحمهما الله .

(احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل . فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك فتيممت ثم صليت بأصحابي الصبح .

الدعوى : فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

رسول الله : « يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب ؟ » .

المتهم : فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال . وقلت : إني سمعت الله تعالى يقول : ﴿ **ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما** ﴾ .

الحكم : فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم

وانفضت المحكمة بالبراء ة .

١٠ ـ عمرو بعد البراءة :

وفاز عمرو رضي الله عنه بأعظم (الميداليات) بعد هذه الغزوة وهي :

١ ـ اختاره رسول الله صلى الله عليه وسلم أميرا على الجيش .

٢ ـ أثنى على عبقريته الحربية بعد النصر المؤزر الذي حققه وحكم على خصومه ضده .

٣ ـ فاز بما لم يفز به أحد أن يكون أميرا على أعظم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين . وعلى رأسهم : أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ومن الأنصار وعلى رأسهم : عباد بن بشر ، وأسيد بن حضير وسعد بن عبادة .

وشمخت نفسه به ورأى أنه خلال خمسة أشهر غدا فوق هؤلاء الناس جميعا . ولا بد له أن يأخذ من حبيبه المصطفى صلى الله عليه وسلم وثيقة بذلك . يشهد الناس له بها أنه أفضل الجميع ، وأحب الجميع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فجاء إلى قائده وحبيبه محمد عليه الصلاة والسلام يكاد رأسه يطال السحاب ليسمع ويسمع أنه أفضل الناس وأحب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما أنه كان أميرا عليهم جميعا .

ويحدثنا عن هذه المقابلة التاريخية قائلا :

(بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم على جيش ذات السلاسل ، وفي القوم أبو بكر وعمر فحدثت نفسي إنه لم يبعثني على أبي بكر عمر إلا لمنزلة عنده. قال : فأتيته حتى قعدت بين يديه وقلت : يا رسول الله ! من أحب الناس إليك ؟ قال : عائشة . قلت : إني لست أسألك عن أهلك . قال : « فأبوها » قلت : ثم من قال « عمر » قلت ، ثم من ؟ حتى عذر رهطا . قلت في نفسي لا أعود أسأل عن هذا . وفي رواية البخاري ومسلم : (فسكت مخافة أن يجعلني في آخرهم)[1] .

لقد دخل عمرو بن العاص رضي الله عنه في نفسية ، وخرج في أخرى وتلقى أبلغ درس في حياته بعد إسلامه ، ورأي أن هذه المناصب والميداليات التي نالها لا يمكن أن تجعله فوق هام هؤلاء الرجال جميعا ، وأن كل واحد من هؤلاء يعدل الأمة كلها . وعرف أن العبقرية الحربية لا تكفي لتكون الميزان الوحيد في الفضل والميزان الوحيد في الحب ، وانتظر أن يكون له دور بين الرجال الأوائل الذين أحبهم عليه الصلاة والسلام . فرأى أن المسافة شاسعة من الرجال حتى يصل العد إليه وصمت حتى لايكون آخر القوم .

إنه حديث عهد بالاسلام ، وأكرمه النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الإمرة تأليفا لقلبه وفسحا للمجال أمامه كي يفتح صفحة جديدة إسلامية هامة في حياته ولم يكتب بعد في هذه الصفحة إلا هذه الغزوة خلال خمسة أشهر فكيف تقارن صحيفته بالصحائف التي لا تزال تكتب منذ عشرين عاما من الصبر والجهاد والعبادة ، والطاعة والإيثار والمجاهدة والمكابدة والجوع واحتمال الأذى والذي كتب في صفحة هؤلاء العظماء في هذه الغزوة هو أعظم مما كتب في صفحته

(١) البخاري ، المغازي / ٤٤ ح ٤٠١٠ ، ومسلم في فضائل الصحابة ٤٣٩٦ والترمذي في المناق ٣٨٢ - ٣٨٢١ .

فيها. فقبولهم امارته وطاعتهم له وانضباطهم بتوجيهاته هو مرتقى من أعظم المراقي في الدنيا وبينه وبين عمرو مسافات شاسعات فهو قد رفض رضي الله عنه امرة أبي عبيدة فقبل أبو عبيدة أن يكون جنديه وهذه النفسية من التنافس على الدنيا وغياب نفسيات الذين يؤثرون على أنفسهم هي التي تحطم الأمم وتحطم الشعوب وتحطم الانتصارات وتحطم التاريخ .

لقد أتاح رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمرو رضي الله عنه الفرصة ليأخذ موقعه في الحرب ضد الكفار بعد أن أمضى عشرين عاماً مع الكفار يحارب المسلمين . وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع عمرو أحب قادته إليه . وآثره بهم كي يتربى على يديهم ويتعلم منهم هذه الأخلاق الإسلامية الخالدة التي لا توجد في مدرسة من مدارس الدنيا إلا في مدرسة الإسلام ، ومدرسة النبوة لكن هذا لا يعني أن ميزان الرجال قد اختل وأنه أصبح الأول على الجميع وأدرك أن التفاضل في الاسلام غيره في الجاهلية ففي الجاهلية لا يزيد التفاضل عن البطولة أو البلاغة في الشعر أوالحكمة في الرأي . أما في الإسلام فالتفاضل في التقوى وفي العمل الصالح وقد تكون البطولات والبلاغات ان كانت للثناء والشهرة سقوطا في ميزان الله وتجعل صاحبها وقودا لجهنم ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾[1] « ولا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى » [2] .

والتقوى هاهنا » [3] وأشار إلى قلبه ثلاثا » فليبدأ سلم الإسلام درجة درجة من جديد .

---

(١) سورة الحجرات / من الآية ١٣ .

(٢) سند أحمد ٥ / ٤١١ .

(٣) مسلم ٤ / ١٩٨٦ من خ ٢٥٦٤ .

عمـرو الداعيــــة

عاد عـمرو رضي الله عنه من غزوة ذات السـلاسل مظفرا منصوراً بريئـا بعد المحاكمة التي عـقدت له ودخل شهر رجب وشعبان لـيسمع منادي رسول الله ﷺ في رمضان يدعو إلى الاستنفار العام الشامل . ويبعث الرسل إلـى قبائـل العرب : « من كـان يؤمن بالله واليـوم الآخر فليحـضر رمـضان بالمديـنة » وفي العاشـر من رمضان تحرك أكبر جيش إسـلامي جهة مكة والطائف دون أن يدري أحد وجهته. وتذكر الآلاف العشرة التي سـاهم في تعبئتـها ضد رسـول الله ﷺعام الأحزاب وكيف عاد بعد الأحزاب خـائباً موقنا أن محمداً سيظهر وكـانت هذه فاتحة اتجاهه نحـو الإسلام رغم أنه كـان يرى أن لو أسلم الناس جـميـعاً مـا أسلم ولهذا مـضى لاجئاً سياسياً إلى الحـبشة فأسلم هناك على يدي النجاشي وهو يتوق إلى أن يكون الرسول ﷺ قـاصداً مكة اليـوم في هذا الجيـش العرمـرم وشتـان بين الجيـشين وبين الحزبين وبين الفئتين جيش الأحزاب لغزو المدينة وجيش حزب الله لفتح مكة .

فتحت مكة ، وأقرَّ الله عـينه بانهيار الشرك والوثنية حيث غـدت مكة معقلا من معاقل الإسلام بعد أن كانت عاصمة دارالكفر والشرك والحرب لدين الله .

وتوجـهت الأوامـر للرفـيـقين الحـمـيـمين والصـديقين القـديمين ، والقـائدين العظيمين عمرو بن العاص وخالد بن الوليـد بالاتجاه لهدم آلهة العرب التي تعبد من دون الله . وذلك بعد أن عاشا ذروة التـربية السعيدة العظيمة لسبـعة أيام بعد الفتح وأخذا من رحـيق هذا الدين وجناه ما يكون زاداً لهـما عمـرهما كله . وبرز عـمرو وخالد للمـهمات الصـعبة والحروب الحـاسمة كـما يقول عـمرو رضي الله عنه في قصة إسـلامه .(ما عدل بي رسول الله صلى الله عليـه وسلم وبخالد بن الوليد في أمر حَزَبَهُ منذ أن أسلمنا أحدا !) (١) .

---

(١) المغازي للواقدي ٧٤٥/٢ . وتاريخ دمشق ٥٠٢/١٩ ودلائل النبوة للبيهقي ٣٤٦/٤ .

١ ـ هدم العزى :

كانت المهمة الضخمة لخالد هدم العزى وكانت المهمة الضخمة لعمر هدم سواع أما اللات فقد كان في منعة ثقيف وحمايتها ، ومضى خالد إلى العزى فهدمها بينما مضى عمرو إلى سواع وهدمه ولعل ذلك تم في يوم واحد في الخامس والعشرين من رمضان . حتى يأتي العيد على المسلمين وراية الإسلام خفاقة على ربوع الجزيرة .

قال محمد بن عمرو ابن سعد : بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص إلى سواع صنم هذيل بن مدركة[1] وكان على صورة امرأة ليهدمه) .

يحدثنا عمر رضي الله عنه عن هذه الحرب الخاطفة :

قال : (فانتهيت إليه وعنده السادن . فقال : ما تريد ؟ فقلت : (أمرني رسول الله ﷺ أن أهدمه . قال : لاتقدر على ذلك قلت : لِمَ ؟ قال : تمنع) .

وكانت فرصة سانحة لعمرو رضي الله عنه أن يلقي درسه النظري في التوحيد ثم يتبعه بالتطبيق العملي .

(قلت : حتى الآن أنت على الباطل ، ويحك ... هل يسمع أو يبصر ؟

وانتهى الدرس النظري ليبدأ التطبيق العملي كما يقول تعالى عنه وعن أمثاله .

﴿ والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ﴾[2] .

---

(١) جاء في كتاب الأصنام لهشام بن محمد بن السائب الكلبي ٩ ، ١٠ وكان أول من اتخذ تلك الأصنام هذيل بن مدركة اتخذوا سواعًا فكان لهم برهاطه من أرض ينبع وكان سدنته بنو لحيان أما الجوهري فقال: سواع اسم صنم . أما الجوهري فقال سواع اسم صنم لهذيل وكان برهاط على ثلاثة أميال من مكة ساحل البحر يحجون إليه .

(٢) سورة الأعراف الآيتان ١٩٧ ، ١٩٨.

وما الدليل على ذلك ؟

(فدنوت منه فكسرته وأمرت أصحابه به فهدموا بيت خزائنه ...) .

فهو لم ينصر نفسه حين هدم ولم ينصر أصحابه حين أمر بهدم خزائنه ، وهو ينظر إليهم ولكنه لا يبصر .

(وأمرت أصحابه فهدموا بيت خزائنه فلم نجد فيه شيئا) .وجاء استثمار الحادث في اللحظة المناسبة وفي قمة الصاعق الكهربي الذي يذكر مثله من قبل عند النجاشي .

(ثم قلت للسادن : كيف رأيت ؟ قال : أسلمت لله تعالى)[1].

وظفر بالسادن الذي هداه الله تعالى به .

« لئن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم »

وهذا أعظم من أي ثروة يملكها أو سيملكها فيما بعد من الدنيا والله تعالى يدخر له الكثير الكثير فيما بعد .

٢ - إلى عُمان :

حضر عمرو رضي الله عنه الدورة التربوية كاملة مع رسول الله ﷺ والتي استمرت شهرين ونيف منذ العاشر من رمضان حتى نهاية (ذو القعدة) .

(وقدم رسول الله ﷺ يوم الجمعة لثلاث بقين من ذي القعدة)[2] .

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٣٠٣/٦ والمغازي لمحمد بن عمر ٧٨٩/٢ والطبقات الكبري لابن سعد ١/٢ .

(٢) المغازي للواقدي ٣ / ٩٦٠ .

وكانت تنتظره مهمة أخرى غير مهمة القتل والقتال هي مهمة الدعوة إلى الله عز وجل .

بعثة رسول الله ﷺ المصدقين :

قال : حدثنا محمد بن عبد الله بن مسلم عن الزهري وعبد الله بن يزيد عن سعيد بن عمرو قالا :

لما رجع رسول الله ﷺ من الجعرانه قدم المدينة يوم الجمعة لثلاث ليال يقين من ذي القعدة وذي الحجة . فلما رأى هلال المحرم بعث المصدقين ، فبعث بريدة بن الحصيب إلى أسلم وغفار بصدقتهم ويقال كعب بن مالك وبعث عباد بن بشر الأشهلي إلى أسلم ومزينه وبعث رافع بن مكيث الى جهينة وبعث عمرو بن العاص الى فزارة(١) . وبعث الضحاك بن سفيان الكلابي إلى بني كلاب وبعث بُسر بن سفيان الكعبي الى بني كعب وبعث بن اللتيبية الأزدي الى بني ذبيان وبعث رجلا من بني سعد بن هذيم على صدقاتهم)(٢) .

ويخالف ابن سعد في الطبقات رأي أستاذه الواقدي فيرى أن بعثة عمرو بن العاص رضي الله عنه انما تمت في السنة الثامنة نفسها وقبل انهائها .

(قالوا : وبعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص في ذي القعدة سنة ثمان إلى جيفر وعبد ابني الجلبندي وهما من الأزد والملك منهما جيفر يدعوهما إلى الإسلام وكتب معه اليهما كتابا وختم الكتاب) (٣).

---

(١) هذا ما ذكر في الكتاب المطبوع للمغازي وبالعودة الى المخطوطة التي في جامعة أم القرى للمغازي وجدت الكلمة أقرب إلى قضاعة منها إلى فزارة وهذا ما سنشهده فيما بعد وحيث أن النصوص الصحيحة الأخرى توكد هذا المعنى فنرجح أن المستشرق المحقق قد أخطأ في قراءة الكلمة المذكورة هذا ولم نجد أي مصدر آخر على الإطلاق يشير إلى بعث عمرو بن العاص رضي الله عنه الى فزارة وعيينه بن حص الفزاري أولى بذلك .

(٢) المغازي لمحمد بن عمر ٣ / ٩٧٣ .

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ٢٦٢ .

ونطالع في البخاري باب : قصة عمان والبحرين ويعلق الحافظ ابن حجر على الحديث بقوله .

(قصة عمان والبحرين : أما البحرين فبلد عبد القيس وقد تقدم بيانها في كتاب الجمعة وأما عُمان فبضم المهملة وتخفيف الميم قال عياض :هي فرضة بلاد اليمن لم يزد تعريفها على ذلك . وقال الرشاطي : عُمان في اليمن سميت بعُمان بن سبأ ينسب إليها الجلندي رئيس أهل عمان ذكر وثيمة أن عمر بن العاص قدم عليه من عند النبي ﷺ فصدقه ، وذكر غيره أن الذي آمن على يد عمرو بن العاص ولدا الجلندي عياذ وجيفر . وكان ذلك بعد خيبر ذكره أبو عمر انتهى وروى الطبراني من حديث المسور بن مخرمة قال : بعث رسول الله ﷺ إلى الملوك فذكر الحديث وفيه (وبعث عمرو بن العاص إلى جيفر وعياذ ابني الجلندي ملك عمان وفيه : فرجعوا جميعا قبل وفاة رسول الله ﷺ إلا عمرا فإنه توفي وعمرو بالبحرين وفي هذا إشعار بقرب عُمان من البحرين وبقرب البعث إلى الملوك من وفاته ﷺ فلعلها كانت بعد حنين فتصحفت ولعل المصنف أشار بالترجمة إلى هذا الحديث لقوله في حديث الباب : فلم يقدم مال البحرين حتى قُبض رسول الله)[1].

ويقدم لنا الحافظ ابن حجر صورة شيقة عن أهل عمان الذين كان عمر بن العاص رسول رسول الله ﷺ إليهم من خلال النصوص الصحيحة قائلا .

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٨/٩٥ - ٩٦ ج ٤٣٨٣ وهي عند أحمد ١/٤٤ و ٢/٣٠ وعند مسلم ٤/١٩٧١ ح٢٢٨ - ٢٥٤٤ باب فضل أهل عُمان .

(وروى أحمد من طريق أبي لبيد قال : خرج رجل منا يقال له بيرح بن أسد فرآه عـمر قال : ممن أنت ؟ قال : من أهل عـمان فأدخله على أبي بكر فـقال : هذا من أهل الأرض التي سمـعت رسول الله ﷺ يقول : « إنـي لأعلم أرضا يُقـال لها عمان ينضح بناصتيها البحـر لو أتاهم رسولي ما رموه بسهـم ولا حجر وعند مسلم من حديث أبي برزة قال بعث رسول الله ﷺ رجلا إلى قومه فسبوه وضربوه فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال : « لو أهل عمان أتيت ما سبوك ولا ضربوك)[1] .

هذا ويمكن الجمع بين الروايات على الصيغة التالية :

١ ـ البـعث إلى الملوك والأمـراء يدعوهم إلى الإسـلام . كـان في أول السنة السابعـة بعد الحديبيـة أو أواخر السنة السـادسة وفي أول المحرم . وكـان هذا البعث إلى الملوك الستة المشهورين)[2] .

إلى قـيـصرمـلك الروم ، وكـسرى ملك الـفرس والنجـاشي عظـيم الحبـشـة والمقوقس عظيم القـبط والحارث بن أبي شمر ملك الغسـاسنة في الشام وهوذة بن علي الحنفي ملك اليمامة .

٢ ـ بينما كانت بعثة عمر بن العاص رضي الله عنه في الدفعة الثانية بعدفتح مكة وحنين حيـث مضى رضي الله عنه إلى ابني الجـلندي في عمـان والحارث بن عمـير الأزدي إلى ملك بصـرى بالشام والعـلاء بن الحضرمي الى المـنذر بن ساوى أمير البحرين والذي يعنينا من هؤلاء رضي الله عنهم عمر بن العاص .

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٩٥/٨ ـ ٩٦ ج ٤٣٨٣ وهي عند أحمد ٤٤/١ و ٣٠/٢ وعند مسلم ١٩٧١/٤ ح٢٢٨ ـ ٢٥٤٤ باب فضل أهل عُمان

(٢) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد تفصيلا عن هؤلاء .

٣ - وكانت بعثة رسول الله ﷺ للمصدقين الذين يجبون الصدقات في بداية سنة تسع وهذه القبائل قد دخلت في الإسلام وأقرت فيه .

عمرو يحدثنا عن مهمته : يقول عمرو :

(خرجت حتى انتهيت إلى عُمان فلما قدمتها عمدت إلى عبد وكان أحلم الرجلين وأسهلهما خلقا فقلت : إني رسول رسول الله إليك وإلى أخيك . فقال : أخي المقدم علي بالملك والسن وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك .ثم قال لي : وما تدعو إليه ؟ قلت : أدعوك إلى الله وحده لا شريك له وتخلع ما عُبد من دونه وتشهد أن محمدا عبده ورسوله .

قال : ياعمرو ! إنك ابن سيد قومك فكيف صنع أبوك ؟ فإن لنا فيه قدوة فقلت : مات ولم يؤمن بمحمد ﷺ ووددت أنه كان أسلم وصدق به وقد كنت أنا على مثل رأيه حتى هداني الله للإسلام . قال : فمتى تبعته ؟ قلت : قريبا . فسألني : أين كان إسلامي ؟ فقلت : عند النجاشي وأخبرته أن النجاشي قد أسلم قال : فكيف صنع قومه بملكه ؟ قلت : أقروه واتبعوه . قال : والأساقفة والرهبان اتبعوه ؟ قلت : نعم . قال : انظر يا عمرو ما تقول إنه ليس من خصلة في رجل أفضح له من كذب قلت : ما كذبت وما نستحله في ديننا .

قال : ما أرى هرقل قد علم بإسلام النجاشي : قلت : بلى ! قال : بأي شيء علمت ذلك ؟ قلت : كان النجاشي يخرج له خرجا فلما أسلم وصدق بمحمد ﷺ قال : لا والله ولو سألني درهما واحدا ما أعطيته فبلغ هرقل قوله فقال له نياق أخوه : أتدع عبدك لا يخرج لك خرجا ويدين دينا محدثا : قال هرقل : رجل رغب في دين واختاره لنفسه ما أصنع به ! والله لولا الضن بملكي لصنعت كما صنع

قال : انظر يا عمرو ما تقول ! قال : لقد صدقتك .

قال : يا عمرو ! ما الذي يأمر به وينهى عنه ؟ قلت :

يأمر بطاعة الله عز وجل وينهى عن معصيته ، ويأمر بالبر ، وصلة الرحم وينهى عن الظلم والعدوان وعن الزنى وشرب الخمر وعن عبادة الحجر والوثن والصليب فقال : ما أحسن هذا الذي يدعو إليه لو كان أخي يتابعني لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به ولكن أخي أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنبا : قلت : إنه إن أسلم ملكه رسول الله ﷺ على قومه ، فأخذ الصدقة من غنيهم فردّها على فقيرهم . قال :

إن هذا الخلق حسن وما الصدقة ؟ فأخبرته بما فرض رسول الله ﷺ من الصدقات في الأموال حتي انتهيت إلى الإبل . فقال : ياعمرو ! تؤخذ من سوائم مواشينا التي ترعي الشجروترد المياه ؟ قلت : نعم . قال : والله ما أرى قومي في بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون بهذا .

فمكثت ببابه أياما وهو يصل إلى أخيه فيخبره كل خبري ثم إنه دعاني يوماً فدخلت عليه فأخذ أعوانه بضبعي . فال : دعوه فأرسلت فذهبت لأجلس فأبوا أن يدعوني أجلس فنظرت إليه فقال : تكلم بحاجنك ! فدفعت إليه الكتاب مختوما ففضَ خاتمه فقرأه حتى انتهى إلى آخره ثم دفعه إلى أخيه . فقرأه مثل قراءته إلا أنني رأيت أخاه أرق منه ثم قال : ألا تخبرني عن قريش كيف صنعت ؟ قلت : تبعوه إما راغب في الدين أو مقهور بالسيف قال : ومن معه ؟ قلت :

الناس قد رغبوا في الإسلام واختاروه على غيره ، وعرفوا بعقولهم مع هدى الله إياهم أنهم في ضلال . فما أعرف أحدا غيرك يقي في هذه الحرجة . وأنت إن

لم تسلم اليوم وتتبعه بوطئك الخيل وتبيد خضراءك فأسلم تسلم ويستعملك على قومك ولا تدخل عليك الخيل والرجال قال : دعني يومي هذا وارجع إلي غداً .

فرجعت إلى أخيه فقال : يا عمرو إني لأرجو أن يسلم أخي إن لم يضن بملكه !

حتي إذا كان الغد أتيت اليه فأبى أن يأذن لي . فانصرفت إلى أخيه فأخبرته أني لم أصل إليه فأوصلني إليه فقال : إني فكرت فيما دعوتني إليه . فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلا مما في يدي وهو لا تبلغ خيله إلى ها هنا وإن بلغت ألفت قتالا ليس كقتال من لاقى !

قلت : وأنا خارج غدا .

فلما أيقن بمخرجي خلا به أخوه قال : ما نحن فيما ظهر عليه وكل من أرسله قد أجابه ؟!

فأصبح فأرسل إلي فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه ، وصدق النبي ﷺ ، وخليا بيني وبين الصدقة وبين الحكم فيما بينهم وكانا لي عونا على من خالفني)[1].

أحد الثمانيه :

يحدثنا عمر بن العاص رضي الله عه عن أعماق نفسه حين أسلم . وطموحاته الكبرى بعد أن أسلم على يد النجاشي فيقول :

(أسلمت عند النجاشي ، وبايعته على الإسلام ، ثم قدمت على رسول الله ﷺ المدينة ، فأعلمته أني قدمت راغبا في الهجرة وفي ظهور الإسلام) .

---

(١) عيون الأثر ٢ / ٢٦٧ - ٢٦٩ وزاد المعاد لابن القيم ٣ / ٧٤ ٧٥ وانظر سفراء النبي ﷺ للواء محمود شيت خطاب ١٥٧ - ١٥٨ .

فقد صار هدفه بعد أن وُلد ولادته الجديدة هو ظهور الإسلام .

هذا هو الهدف العام . لكنه يود أن يكون له دور بارز في ذلك فيقول رضي الله عنه : (.. وفي ظهور الإسلام ، وأنا أحب أن يرى أثري وغناي في الإسلام وأهله فقد طال ما كنت عونا عليه) .

لقد رُوَى أثره وغناه عن الشرك والكفر في الجاهلية ولا يريد أن يكون في الإسلام رجلا مغمورا منكفئا على ذاته يُرجِّع آيات الندم ويمضي عمره في التأوهات والحسرات أسفا على ما فات وقد ناهز الخمسين من عمره . فبامكانه أن ينقطع لعبادته وتبتله . إنه ليس من هذه الأنماط من الرجال التي تعيش لذاتها ولراحتها وتنشد أمنها وسلامتها إنه من طراز الرجال الذين يصنعون التاريخ ولهذا فهويريد أن يصنع ويساهم في صناعة تاريخ ظهور الإسلام ويرى أثره وغناءه .

قال له عليه الصلاة والسلام (..فقال رسول الله ﷺ الإسلام يجب ما قبله.وأنا باعثك في أناس أبعثهم إن شاء الله) .

ومر الزمن وقاد غزوة ذات السلاسل ، وحضر فتح مكة وشهد نصر حنين وهدم صنم سواع وعاد من دورته التربوية التي تؤهله ليكون الرجل الداعية إلى الإسلام . إن مقدرته الحربية وكفاءته القتالية قد أبرزها مع الجيش الإسلامي في ذات السلاسل ولكن دور القوة انتهى فقد انصاع العرب للقيادة المحمدية طوعا أو كرها بعد إسلام مكة وأصبح الدور والأهم للدعوة لا للقوة ، وأصبح الإسلام بحاجة الآن إلى الإداري الكفء والمصدق الماهر الذي ينفذ شريعة الله على هذه القبائل التي دانت بالإسلام في الجزيرة وإلى الداعية العظيم المتشرب بروح الإسلام والمعجون فيه كي يدخل الإسلام إلى قلوب الناس رغبة بعد أن دخلوا رهبة .

واختار رسول الله ﷺ من حزبه ثمانية رجال . وكان أحد هؤلاء الثمانية عمرر بن العاص فيقول عمرو : (فلما كان بعد ذلك بعث رسول الله ﷺ ثمانية

سـماهم فكنت أنا المبـعوث إلى جيفـر وعبـد ابني الجنلدي كـانا من الأزد والملك منهما جيفر) .

إذن لقد تحقق الحلم وها هو بمفرده يكلف بدولة عُمـان ورفاقه السبعة كلهم قد مضـوا الى قبائل أعلنت إسـلامها ، أما هو فـيمضي إلى عُمـان ولا يزال ملكها على الشرك . لكن رسول الله ﷺ الخبير بالأرض والناس يدرك سماحة أهل عُمان ونفـاسة مـعدنهم وهـو يطمئن إلى حـسن اسـتقـبالهم ، وذلـك كمـا مر مـعنا في صحيح مسلم .

(ولو أهل عمان أتيت ما سبوك ولا ضربوك)

وها هو عليه الصلاة والسلام يحدد جغرافـية الأرض وطبيعة أهلها كما في الحديث الذي رواه أحمد (إني لأعلم أرضا يقال لها عُـمان ينضح بناحيتها البحر لو أتاهم رسولي مـا رموه بسهم ولا حجر) فـهو الوحي الرباني إلى رسوله بطبـيعة هذه البلد وأهلهـا والتي سيطأها عـمـر بن العاص لأول مـرة وبعـد أن أعطى عليـه الصلاة والسلام لجنديه عمرو هذه المـعالم العامة (كـتب اليهما كتـابا يدعوهما فيه إلى الإسلام ، وكتب ابي بن كعب الكتاب وختمه)[1] .

---

(١) أورد هذه الرواية ابن عساكـر في كتابه تاريخ دمشق ١٩ / ٥٠٧ وها نحن نوردها كـاملة نقلا عنه (عن عمرو بن شـعيب يخبر انه سـمع مولى لعمرو بن العاص يقـول سمعت عمرو بن الـعاص يقول : أسلمت عند النجاشي وبايعته عـلى الإسلام ، ثم قدمت على رسول الله ﷺ المدينة فأعلمتـه أني قدمت راغبًا في الهجـرة وفي ظهور الإسـلام وأنا أحب أن يُرى أثري وغنـاي عن الإسـلام وأهلـه فقـد طال مـا كنت عونا (عليه) فـقال رسول الله ﷺ : الإسلام يجب ما قـبله وأنا باعثك في أناس أبعثهم ان شـاء الله فلما كـان بعد ذلك بعث رسـول الله ﷺ ثمانيـة نفر سمـاهم فكنت أنا المبعوث الى جـيفر وعـبد بن الجلندي وكانا من الأزد والملك مـنهما جـيفر وكـتب رسول الله ﷺ معي إليهـما كتابا يدعوهما فـيه إلى الإسلام وكتب أبي بن كعب الكتاب وختمه رسول الله ﷺ) .

وهكذ ا تأهب عمرو لهذه المهمة التاريخية الخالدة ويشهد قدره العجيب.

إنه يسير من أقصي غرب الجزيرة من الحبشة حيث أعلن إسلامه هناك ويضع محطته بالمدينة مع رسول الله ﷺ ويتجه شمالا إلى الشام في ذات السلاسل ويمضي جنديا مع الجيش الى الجنوب الى فتح مكة وهوازن وحنين ويعود إلى المدينة ليستأنف مهمته الجديدة إلى أقصى شرق الجزيرة إلى عمان المتاخمة لأرض فارس من البحر الأحمر في الغرب والذي قطعه مرات إلى الحبشة في الجاهلية والإسلام إلى بحر عُمان في أقصى الغرب يجوب الصحراء العربية كلها وحيدا في مهمته التاريخية وهكذا يصنع التاريخ الرجال .

عند ملكي عمان :

لا ندري من أين استقى عمرو بن العاص رضي الله عنه معلوماته الخاصة عن عبد وجيفر ولدي الجلندي وعرف بثاقب نظره أن جيفر الملك أمامه عقد ضخمة تحول بينه وبين الإسلام بينما أخوه عبد أقل عقدا منه فهو أصغر منه سنا وهو بمثابة مستشار لأخيه الملك فمن الممكن التوغل إلى قلبه قبل قلب أخيه .

يقول عمرو : (خرجت حتى انتهيت إلى عمان . فلما قدمتها عمدت إلى عبد وكان أحلم الرجلين وأسهلهما خلقا فقلت : إني رسول رسول الله اليك والى أخيك فقال: أخي المقدم علي بالملك والسن وأنا أوصلك اليه حتى يقرأ كتابك) .

وكان من الممكن لدى غير ابن العاص أن يمضي وينتظر حتى يلتقي بجيفر لكنه يرى الفرصة سانحة للحديث عن الإسلام بين يدي عبد فلم لا يستغلها والظاهر أن عبدا أخا جيفر من طراز عمرو ذكاء ودهاء وفصاحة ولنشهد معركة الكر والفر بين الرجلين . ثم قال لي : وماتدعو إليه ؟

قلت : أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، وتخلع ما عُبد من دونه وتشهد أن محمدا عبده ورسوله) والتلجلج في العقيدة ليس دهاء ولا عبقرية فلا بد أن تتضح من اللحظات الأولى طبيعة الدعوة ومنطلقاتها لقد كان إعلان الوحدانية والحاكمية لله تعالى في كل شيء . والتلقي لكل هذه الأمور من رسول الله ﷺ هي هوية هذا الدين الذي لا يقوم ولا يعرف إلا به ويدرك عمرو بن العاص رضي الله عنه ذلك . وهو الذي خاض معركة العقيدة عشرين عاما يرفض الاعتراف بهذه الوحدانية . لكن ثبات رسول الله ﷺ وإصراره عليها « إنما جئتكم بـ لا إله إلا الله وتنبذون ما تعبدون من دونه فان قبلتم فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن أبيتم أصبر حتى يحكم الله بيني وبينكم وهو أحكم الحاكمين » .

وتَعلَّم من هذه المدرسة النبوية أن هذه الشهادة هي قوام هذا الدين ، والذي لا يعرف الدين الا به لكن عبد بن الجلندي أبرز جوانب عبقريته بهذا السؤال لعمرو:

(يا عمرو إنك ابن سيد قومك فكيف صنع أبوك فإن لنا فيه قدوة) .

وبذلك أوقع عمراً في معضلة لا يخلص منها إلا مثل عمرو ذكاء ودهاء وحسن حيلة .

وهو المنطق نفسه الذي استعمله الملأ من قريش مع رسول الله ﷺ

« ادع ربك أن يبعث لنا من مضى من آبائنا وليكن فيما يبعث قصي بن كلاب فقد كان شيخ صدق فإن آمن بك وصدقك آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق » .

أدرك عمرو مرامي ابن الجلندي وأخذ الكرة وألقاها ثانية في مرماه بقوله :

(مات ولم يؤمن بمحمد ﷺ وودت أنه كان أسلم وصدّق به) .

ويدرك ابن الجلندي ان عمرو بن العاص عريق في الجاهلية والكفر وأنه جديد على الإسلام . ومن السهل أن يتراجع عن هذا الدين الذي لم يمر عام واحد على اعتناقه في المدينة . وعرف عمرو ما يجول بذهن عبد فتابع كلامه (وقد كنت أنا على مثل رأيه حتى هداني الله للإسلام) .

وعاد ابن الجلندي فمضى بعمرو يرد سهمه نحوه مشيرا إلى حداثة عهده بالإسلام : (قال : فمتى تبعته : قال : قريبا فسألني : أين كان إسلامي ؟) .

وما أحرص عمرو على أن يقدم هذه المعلومات لعبد بن جلندي عن موطن إسلامه فالجلندي والنجاشي خاضعان لقيصر ملك الروم وكلاهما نصرانيان يمكن أن يقتدي أحدهما بالآخر [1] .

(فقلت : عند النجاشي وأخبرته أن النجاشي قد أسلم) .

وهوالخبر الذي استحوذ على اهتمام ابن جلندي فهذا هو المحور الرئيسي للحديث .

(قال : فكيف صنع قومه بملكه ؟ قلت : أقروه واتبعوه) .

ولم يكد عقل عبد يصدق هذا الخبر فدولة النصارى ضاربة أعماقها في جذور الجيش والأساقفة الرهبان الذين نخروا نخرة رجل واحد ضد سلفه السابق حين أعلن إيمانه بالوحدانية وعبودية عيسي ابن مريم . ولم يتراجعوا حتى حركوا

---

(١) يقول اللواء شيت خطاب في كتابه سفراء النبي : وهذه المحاورة تدل على أن الأخوين كانا من النصارى وأن هرقل لأنه ملك أكبر دولة مسيحية . كانت له هيمنة على نصارى الشرق بدون استثناء بصورة مباشرة أو غير مباشرة / ١٥٨ .

الجماهيـر في ثورة عنيفة ضده حتى اضطر الى التراجع عن إعـلان الإسلام وأخفى دينه في أعماقه .

(قال : والأساقفة والرهبان اتبعوه ؟! قلت : نعم) .

إن هذا ضد منطق الأحداث وعبقرية ابن الجلندي في حكمه على التطورات السياسـية الدينية لا تدعه يقبل هذاالـتطور المفاجىء وأمامه عمـرو بن العاص داهية العرب فكيف يكذبه وهو يعلن أمامه ذلك .

قـال (انظر يا عـمـرو مـانقول! إنـه ليس من خـصلة في رجل أفـضح له من كذب .

قلت : ما كذبت وما نستحله في ديننا) .

لقد تجازو الحديث المظاهر الديبلـوماسية والبروتوكلات الرسميـة ونفد عمرو إلى أعماق عبد بن الجلندي حين هزه بحديث النجاشي يقول ابن الجلندي متفاعلا مع الحدث (ما أرى هرقل قد علم بإسلام النجاشي ؟ قلت : بلى .

إن العقد المتكاثفة على قلب ابن الجلندي بدأت تنحل وتهوي ترى ما مصير النجاشي إن صدق عـمرو في معرفة قيـصر بإسلامه أليس اغتـياله أو عزله على أقل تقدير ؟!!

وتتابع المفاجأت كأنما يمضي عمرو بلب ابن الجلندي وعقله الى حيث يريد .

(قال : بأي شي علمت ؟ذلك ؟ قلت : كان النجاشي يُخرج له خرجا فلما أسلم وصدق بمحمد ﷺ قال : لا والله لو سألني درهما واحدا ما أعطيته .

انه إعلان تمرد على ملك الـدنيا هرقل وهذا يعني تعريض الحـبشة للاحـتلال المباشر من قيـصر الذي تربع على قمة الدنيا وهزم كسـرى ملك الملوك وحج ماشيا شكراً لله على هذا الانتصار

فهل يقبل هذا التحدي ؟؟

ولا يكاد ابن الجلندي يفيق من ضربة إلا وتأتيه الثانية تنهال كالمطارق على رأسه .

(فبلغ هرقل قوله فقال له (يناق) أخوه : أتدع عبدك لا يُخرج لك خرجا ويدين دينا محدثا . قال هرقل . رجل رغب في دين واختاره لنفسه ما أصنع به والله لولا الضن بملكي لصنعت كما صنع) .

ولم يكد يصدق ما سمع قال : (انظر ما تقول يا عمرو ! قال : والله صدقتك) .

إن ابن الجلندي الآن قد انزاحت أمامه اكبر عقدة من عقد الكفر والجاهلية وهي عقدة الخوف على الملك فله في النجاشي أسوة ولا خطر على ملكه لو أسلم إذن .

فليعد الى عمرو ويسأل عن هذا الدين

وكما نجح جعفر رضي الله عنه وحطم مؤامرات عمرو ضد الإسلام والمسلمين في الحبشة ونفذ الى قلب النجاشي فها هو عمرو بن العاص المسلم الآن يسجل انتصاراً باهرا في تحطيم عقدة الخوف على الملك من قلب ابن الجلندي في الوقت الذي كان عند النجاشي يهولها ويضخمها ليبعده عن الإسلام حين قال له: إن الرجل الذي بين أظهرنا أفسد فينا وتناولك ليفسدك عليك دينك وملكك وأهل سلطانك ونحن لك ناصحون وانت لنا عيبة صدق تأتي الى عشيرتنا بالمعروف ويأمن تاجرنا عندك فبعثنا قومنا اليك لننذرك فساد ملكك) .

وكم الفرق شاسع بين عمرو الجاهلي الذي يحذر النجاشي فساد ملكه وزواله لو اتبع الإسلام ، وبين عمرو والمسلم الذي يذلل نفسية ابن الجلندي ليقتدي

بالنجاشي الذي أسلم وتحـرر من سيطرة قيصـر وحافظ على ملكه ؟؟ **﴿ هو الذي أخرجكم من الظلمات إلى النور ﴾** .

قال عبد (فأخبرني ما الذي يأمر به وينهى عنه ؟

ولا يزال جـعـفـر الرمز فـي قلب عمـرو وعـقله كـيف عـرض الإسـلام على النجاشي فـأسر قلبه ولبه هو القـدوة والمثل الأعلى لعمرو فهـا هو يمضي على طريقه نفسه قائلا :

(يأمـر بطاعة الله عـز وجل وينهي عن مـعصـيتـه ويأمر بالبـر وصلة الرحم ، وينهى عن الظلم والعـدوان وعن الزنى وشرب الخـمر ، وعن عـبادة الحجـر والوثن والصليب فقال :

مـا أحسـن هذا الذي يدعو إلـيه ، لو كـان أخي يتـابعني لركـبنا حـتى نومن بمحمد ونصدق به ولكن أخي أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنبا .

قلت : إنه إن أسلم ملكه رسول الله ﷺ على قومه فأخذ الصدقة من غنيهم فردها على فقيرهم .

والجـديد عندعـمـرو رضي الله عنه هو أنه يريـد أن يقنع ابني الجلندي ليس بعقـيدة الإسـلام فقط إنما بشـريعة الإسلام كـذلك ولا يثبت هذا الملك الا بتـطبيق هذه الشريعة فلذلك أردف حديثه عن تثبيت ملك الجلندي بحديثه عن تطبيق نظام الإسلام في الصدقة .

قال : إن هذا الخلق حسن وما الصدقة ؟

فأخبرته بما فرض رسول الله ﷺ من الصدقات في الأموال حتى انتهيت الى الإبل فقال : يا عمرو نؤخذ من سـوائم مواشينا التي ترعى الشجر وترد المياه ؟ قلت : نعم فقال : والله ما أرى قومي في بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون بهذا .

وكانت نظرة عبد بن الجلندي بعيدة الغور فردة العرب معظمها كانت من أجل ذلك . فالملك سلطة مطلقة والعدل وانقاذ الفقير من فقره ليست سمة من سمات صاحب السلطان والصولجان . إن لم ترافقه عقيدة وازعة ودين رادع .

قال عمرو فمكثت ببابه أياما ، (وهو يصل إلى أخيه فيخبره كل خبري) فلقد كان يرسل نسائم الإسلام وأعلامه وأحكامه المرة بعد المرة إلى جيفر بن الجلندي عن طريق أخيه .

وكان اللقاء الحاسم .

(ثم إنه دعاني يوما فدخلت عليه فأخذ أعوانه بضبعي[1] فقال : دعوه فقال فأرسلت فذهبت لأجلس فأبو أن يدعوني أجلس فنظرت إليه فقال : تكلم بحاجتك ! فقدمت إليه الكتاب مختوماً ففض ختمه فقرأه حتى انتهى إلى آخره ثم دفعه إلى أخيه فقرأه مثل قراءته إلا أنني رأيت أخاه أرق منه ثم قال : ألا تخبرني عن قريش كيف صنعت ؟

وأدرك عمرو من الموقف كله طبيعة اللهجة التي يتكلم بها أمام هذا الملك البدوي الخشن الذي يعلم أن سعار الحرب كلها كانت بين محمد وقريش التي نصبت لحربه .

(قلت : تبعوه إما راغب في الدين ، وإما مقهور بالسيف) .

وإذا كان العدو الأول قد سقط رغبة أو رهبة فمن أتباعه . واستطاع عمرو رضي الله عنه بعبقريته النافذة أن يغوص إلى أعماق جيفر وأبعاد تفكيره ،

---

(١) الضبع : ما بين الإبط إلى نصف العضد .

وخفقات قلبه واستجمع كل بلاغته وكل شجاعته وكل إيمانه ليلخص الموقف كله فلن يستطيع الحوار الطويل مع هذا الملك المعتد بملكه وأتباعه قال :

(قال : ومن تبعه ؟ قلت : الناس قد رغبوا في الإسلام واختاروه على غيره ، وعرفوا بعقولهم مع هدى الله إياهم أنهم في ضلال . فما أعرف أحدا غيرك بقي في هذه الحرجة [1] وأنت إن لم تسلم اليوم وتتبعه يوطئك الخيل ويبيد خضراءك . فأسلم تسلم ويستعملك على قومك ولا تدخل عليك الخيل والرجال) .

قال : دعني يومي هذا وارجع إلي غدا .

وصدقت فراسة عمرو ، فلو لم ينقل الموقف كاملا بحيث أوضح فيه كل ما لديه من قوة في احتمال زوال ملكه وإبادته إن وقف في وجه الإسلام وكل ما لديه من حكمة في ثبات ملكه لو أسلم ودخل في دين الله.لو لم يتمكن من ايضاح هذا الموقف الجلي تماما لما أمكن لجيفر أن يفكر تفكيرا صحيحا في اتخاذ الموقف المناسب.ولم يقف عمرو مع هذا مكتوف الأيدي فهو يريد أن يتابع الأمر من كل جهة حرصا على اعتناق هذا الملك للإسلام . حيث يتبعه قومه كلهم بذلك .

(فرجعت إلى أخيه فقال: يا عمرو : إني لأرجو أن يسلم إن لم يضن بملكه!)

حتى إذا كان الغد أتيت إليه ، فأبى أن يأذن لي فانصرفت إلى أخيه فأخبرته أني لم أصل إليه فأوصلني إليه . فقال :

إني فكرت فيما دعوتني إليه . فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلا ما في يدي وهو لا تبلغ خيله ها هنا وإن بلغت ألفت [2] قتالا ليست كقتال من لاقى) .

---

(١) الحرجة : غيضة الشجر الملتفة لا يقدر أحد أن ينفذ فيها .

(٢) ألفت : وجدت .

وعوضا عن أن يلجأ عمرو إلى الحوار والكلام لجأ إلى أسلوب زعزع به شخص جيفر بكلمة واحدة (قال : وأنا خارج غدا) . وهذا يعني أن الموقف النهائي سيتحمل تبعته كاملة .

فلما أيقن بمخرجي خلا به أخوه فقال :

ما نحن فيما ظهر عليه !! وكل من أرسل قد أجابه ؟!

فأصبح فأرسل إلي فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه ، وصدقا النبي ﷺ وخليا بيني وبين الصدقة وبين الحكم بينهم . وكانا عونا لي على من خالفني) .

وندع التعليق للواء شيث خطاب على هذه الدعوة قائلا :

(لقد كان جيفر أكبر من أخيه عبد سنا فكان هو الملك . ولكن أخاه عبدا كان أكثر عقلا واتزانا وروية من أخيه وأرحب صدرا وأوسع أفقاً . لذلك تأثر بكتاب النبي ﷺ قبل أخيه ومال إلى الإسلام .

أما جيفر ففكر بملكه أولا وخشي عليه من الإسلام فما تجاوب مع الكتاب النبوي تجاوبا سريعا كما تجاوب أخوه فطلب جيفر أن يمهل عمرو يوما واحدا ليفكر في أمره مليا وليقرر ما يفعله بعد أن يقلب الأمور كما ينبغي .

وهنا بروز دور أخيه عبد في حث جيفر على اعتناق الإسلام ، وحمل أخاه على الإيمان بدين الله وأن لا يرد عمرو بن العاص من عُمان إلى المدينة المنورة خائبا.

واقتنع جيفر بالإسلام كما اقتنع أخوه عبد فأسلما عن قناعة كاملة لا غبار عليها لذلك قدما الصدقات طوعا ، وعاونا عمر بن العاص على جمع الصدقات

من الأغنياء وردها على الفقراء وجمع الجزية من المجوس وكان خير عون له في النهوض بمهمته في واجبات الحكم والإدارة في عُمان وما حولها من البلاد كما أنهما ثبتا علي الإسلام . ولم يرتدا كماارتد غيرهما من أهل عُمان وتعاونا مع القائد الذي بعثه أبوبكر الصديق الى عُمان ومع جيشه في حرب المرتدين حتى عادت عُمان إلى الاسلام .

أما عمرو فقد كان بحق سفيرا متمرسا مارس السفارة مرتين قبل الإسلام ، ومارسها هذه المرة الثالثة بعد الإسلام فلا عجب أن يكون تصرفه في هذه السفارة تصرفا حصيفا يدل علي الألمعية والذكاء الخارق . فكان حاسما في جوابه لجيفر بعد يوم من لقائه الأول . إذ أظهر له أنه راحل غدا فخاف جيفر من عواقب الأمور بخاصة أن العرب دخلوا في دين الله أفواجا ، وفُتحت مكة المكرمة وأصبحت وفود العرب تتقاطر إلى المدينة من كل حدب وصوب معلنة إسلامها وإنها انضوت تحت راية الوحدة والتوحيد في ظل الاسلام .

وقد أخفق عمرو في سفارتيه قبل الإسلام ولكنه نجح أعظم النجاح في سفارته النبوية بعد الإسلام مع أنه حشد الهدايا للنجاشي ملك الحبشة في سفارته الأولى والثانية ولرجالات النجاشي من رجال الدين ورجال الدنيا . أما في سفارته الثالثة التي كانت بعد الإسلام فلم يحشد شيئا من متاع الدنيا يستعين به على إنجاح سفارته فنجحت بحوافز الروح لا بحوافز المادة وانتصر الإسلام بمبادئه ولم ينتصر بشيء آخر من مغريات الحياة .

وهكذا استطاع عمرو أن يضم عددا ضخما من العرب إلى الاسلام وأن يضم بلادا شاسعة إلى بلاد المسلمين) (١) .

---

(١) سفراء النبي ﷺ اللواء الركن محمود شيث خطاب ٢ / ١٥٦ .

مع الجلندي الأب :

ويحدثنا وثيمة في كتاب الردة عن ابن اسحاق :

(أن النبي ﷺ بعث إلى الجلندي عمرو بن العاص يدعوه إلى الإسلام ..)

ويرجح للجمع بين الرويات أن عبدا وجيفر ولدى الجلندي بعد أن أسلما أدخلا عمر بن العاص على أبيهما الجلندي . ولعله لتقدمه في السن قد تنازل عن الملك لوالديه . وكان لدى عمر من الوقت والسعة والاطمئنان ما يدخل الإسلام هنيئا طريا إلى قلبه . فيقول بعد أن نجح عمرو رضي الله عنه في اسلام بيت الجلندي كله أبا وأبناء يقول الجلندي والإسلام قد عشش في قلبه وفؤاده :

(لقد دلني على هذا النبي الأمي أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به ولا ينهى من شر إلا كان أول تارك له وأنه يغلب فلا يبطر ، ويُغلب فلا يهجر وأنه يفي بالعهد وينجز الوعد وأشهد أنه نبي ثم أنشد :

أتاني عمروٌ بالتي ليس بعدها … من الحق شيء والنصيح نصيح

فقلت له : ما زدت أن جئت بالذي … جلندي عُمان في عُمان يصيح

فيا عمرو قد أسلمت لله جهرة … ينادي بها في الواديين فصيح[1]

ولا شك أن هذه الرواية تحمل في ثناياها أن الجلندي متعمق في كتب النصرانية ، وعارف أن هناك نبيا سيبعث بهذه الصفات وأنه كان يبشر بهذا النبي ولم يأت عمرو إلا بما كان يبشر به الجلبدي قومه وهنا يعلن أن ما قرأه قد تحقق تماما بهذا النبي الأمي الذي وجد وصفه في التورارة والانجيل كما سمع . ولا يبعد

---

(١) الإصابة في تاريخ الصحابة لابن حجر ١ / ٢٧٥ ت ١٢٦٢.

أن يكون إسـلام ولديه قد تجـاوب مع قناعـة أبيهـما. فـأسلم الثـلاثة كلهم لله رب العالمين.

وماذا بعد إسلام الثلاثة ؟

لقد أصبح عـمرو رضي الله عنه سيد الساحـة ، وهوصاحب رسول الله ﷺ فلقد هيأ الله تعالى له عاماً كاملاً في صحبته منذ أن أسلم في صفر في السنة الثامنة للهجرة حـتى مضى في محرم من السنة الثامنة أو في أواخـر ذي الحجة . ولم تبلغ الصحبة سنة فقـد مضي فيـها وحده في تجـربة عسكرية في غـزوة ذات السلاسل يتـربى على أيدي أصحـابه من الرعيل الأول حـيث بعث مـعه ﷺ أغلى أصـحابه عليـه وأعلاهم عنده الصـديق والفاروق والأمين ليـتابعـوا تربيـته ويتـابعوا مـراقبـته ويتابعـوا عملية بنائه . لكنه ولا شك كـان أسعد ما يـكون في تلك الدورة التربوية العظمى التي كان فيها بجوار رسول الله ﷺ طيلة الشهرين والنصف منذ أن تحرك الجـيش في العـاشر مـن رمضـان إلى أن عـاد في ثلاث بقين من ذي القـعـدة تلقى الإسلام فكرا وسلوكا من سيد البـشرية محمد ﷺ مباشرة وعاشـه واقعاً حيا ونوراً مضيـئا وها هو الآن في عُمان مـوفد رسول الله ﷺ وسفيره وداعـيته يحمل على كتفيه أعبـاء دولة كاملة ينشر فيها الدعوة ، ويطبق فيها الـشريعة ومضى داعية إلى الله تعالى دون قـيد ولا حد بعـد أن فوضه الملك بذلك فـكان هو النور الذي أضاء في عُمان فنقل أهلها من الجاهلية الى الإسلام .

(روى عبد الله بإسـناد صحيح إلى الزهري عن عبد الـرحمن بن القارى أن رسول الله ﷺ بعث عمرو بن العاص إلـى جيفر وعباد ابني الجلبدي أمـيري عُمان

فمضى عمرو إليهما فأسلموا وأسلم معهما بشر كثير ووضع الجزية على من لم يسلم) [1].

وكل هذا الخلق الكثير الذين أسلموا إنما هم بصحيفة عمرو بن العاص رضي الله عنه .

ومع الأساقفة والرهبان :

لم يكن يدور بخلد عمرو رضي الله عنه أن يكون هذا اللقاء الذي ودع فيه حبيبه المصطفى ﷺ أن يكون هو الوداع الأخير وأن تكون هي النظرة الأخيرة للرسول عليه الصلاة والسلام ، ولو كان يعلم الغيب لاعتذرعن المضي إلى عمان ليمضي هذه السنة الأخيرة مع حبيبه المصطفى عليه الصلاة والسلام ولكنه القدر الذي لا مرد له ولنعش مع تجربته الدعوية الأخيرة الكبرى والتي بلغه فيها نبأ وفاة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه كما أوردها الحافظ ابن عساكر بسنده عن عمرن بن العاص قال: (بعثني رسول الله ﷺ واليا على عُمان فأتيتها فخرج إلي أساقفتهم ورهبانهم فقالوا : من أنت ؟ فقلت : عمر بن العاص بن وائل السهمي رجل من قريش قالوا : من بعثك ؟ قلت : رسول الله ﷺ قالوا : من هو ؟ قلت : محمد بن عبد الله بن عبد المطلب) . وعمرو ليس مبلغا فقط ، إنما هو داعية إلى الله تعالى . وليس هوفي محاكمة حتى يكون جوابه على قدر السؤال أو في تحقيق موجه . إنه مع أكبر مثقفي عصره آنذاك وأكبر مفكريهم من الأساقفة والرهبان الذين انتهى علم ا لكتاب عندهم فلا يصلح لهم الإجابة المتقطعة المقتضبة فتابع حديثه معهم قائلا (محمد بن عبد الله بن عبد المطلب هو رجل منا قد عرفناه

---

(١) الإصابة في تاريخ الصحابة ٢ / ٥٧٧ ت ١٣٠٥ .

وعـرفنا نسبـه ، أمـرنا بمكارم الأخلاق ونهـانا عن مـساوئهـا . وأمـرنا أن نعبـد الله وحده) .

وأحس الأساقفة والرهبان أنهم أمام عملاق عظيم يبشر برسالة نبي (فصيروا أمرهم الى رجل منهم فقال : هل من علامـة ؟) وعرف عمرو ما وراء هذا السؤال وسـمع صفـة النبي ﷺ في الكتب المـقـدسـة ولعله تدارسـهـا مع الجلندي الملك العماني قبل جيفر ابنه (فقلت : نعم لحمـا تراكما بين كتفيه يقال هل (خاتم النبوة قال : فهل يأكل الصدقة ؟ قلت : لا . قال : فهل يقبل الهدية ؟ قلت : نعم ويثيب عليها) .

لقد أسلم سلمان رضي الله عنه بهـذه الصفات الثلاث وهو الذي طوَّف في الآفاق في فـارس وتركيه بهـذه الصفات الثـلاث ورأينا قيـصر ملك الروم ، يصف بعض الصفات الجديدة للتثبت من نبوة محمد ﷺ وهي علاقته مـع عدوه فجاء هذا الأسقف الكبـير يتـابع على النهج نفسه وعـمرو بحر في عـلمه ودهائه من أي النواحي أتيته .

(قال : فكيف الحرب بينه وبين قومه ؟ فقلت : سجالا مرة له ومرة عليه .

ولم يعـد لدي الشيخ الأسـقف شيـئا يقـوله : فقـد تأكد من نسـبه وصـدقه والعلامات الفارقة فيه وحربه مع عدوه) .

وهنيئا لك يا عمرو هذا الرصيد الجديد في ديوانك .

(فأسلم « أي الشيخ » وأسلموا « أي الأساقفة والرهبان ») .

وجاء الحوار الجديد الذي نقل إلى عمرو وأعظم كارثة في حياته كلها :

(ثم قال لي : والله لئن صدقتني لقد مات في هذه الليلة أو لقد أتى على أجله هذه الليلة) .

وكاد عمرو الأريب الحليم الداهية يفقد صوابه لما يسمع هل جُن هذا الأسقف الشيخ .

(قلت : ما تقول ؟ قال : إن كنت صدقتني فقد صدقتك) .

وترك الأسقف الشيخ والقلق ينتهبه انتهابا فلا يجد النوم مذاقا إلى عينيه فإنما تكلم الأسف بما عنده من الكتاب وجاء الخبر المروّع (فمكث أياما فإذا هو ركب يسأل عن عمرو بن العاص فقمت إليه مفزوعا) .

وإذا كان الكتاب من رسول الله ﷺ فقد كذب الأسقف الشيخ وهذا هو دليل دامغ على كذبه ووقع ما كان يخشاه (فقمت إليه مفزوعا فناولني كتابا فإذا عنوانه من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ إلى عمرو بن العاص ، وها هو الأسى يعتصر قلبه اعتصارا ويحس أن كبده يحترق لكنه يتمالك أمام الناس (فأخذت الكتاب ففككته فإذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ إلى عمرو بن العاص : سلام عليك . أما بعد فإن الله عز وجل بعث نبيه ﷺ حيث شاء وأحياه ما شاء ثم توفاه حين شاء . وقد قال في كتابه الصادق ﴿ **إنك ميت وإنهم ميتون** ﴾ وإن المسلمين قلدوني أمر هذه الأمة على غير إرادة مني ولا محبة فأسأل الله العون والتوفيق . فإذا أتاك كتابي هذا فلا تحلل عقالا عقله رسول الله ﷺ ، ولا تعقل عقالاً حله رسول الله ﷺ والسلام) .

وكانت دموعه تنهمر غزارا وهو يقرأ الخبر فهو حق لا مرية فيه . وهذا الصدّيق يعزيه فيه ووضع الكتاب بجواره ، واستسلم لبكاء طويل طويل استعاد به

تاريخ حياته كلها وقرعة الندم كثيرا أنه لم يحظ بصحبة نبيه أكثر من بضعة أشهر وسلخ معظم حياته حربا لله ورسوله ولكنه مع ذلك قرير العين فقد هيأ الله تعالى له الإسلام قبل وفاة النبي ﷺ وتُوُفِي نبيه وهو عنه راض ، وجعله رسول الله ﷺ قائدا الجيش فأظفره الله تعالى على عدوه وجعل نكايته في المشركين وجعله رسول الله ﷺ داعية لملك وشعب الى الإسلام فأقر الله تعالى عينه بايمان الملك وشعبه وجعله رسول الله ﷺ حاكما لدولة منفذا لشرع الله واليا عليها فأنفذ حكم الله تعالى فيها ، ولو أنه ختم حياته الآن لما ندم فما لذة الحياة بعد الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه . وإذا كانت الهجرة تجب ما قبلها كما علمه رسول الله والإسلام يجب ما قبله فقد أصبحت صفحته نظيفة ناصعة ليس فيها الا الجهاد في سبيل الله جنديا وقائدا ، والدعوة الى الله والحكم بما أنزل الله وفي صحيفته شعب بكامله دخل في الإسلام وقد ختم هذه الصحفة بإسلام هؤلاء الأساقفة والرهبان ، وأفاق من غيبوبته تلك وحرقة الألم تحز كبده فلا يلقى الا البكاء سبيلا ليطفئ هذه الحرقة .

(فبكيت بكاء طويلا ثم خرجت عليهم فبكوا وعزوني) .

ولفت انتباهه أن هؤلاء الأساقفة والرهبان قد وجدوا في كتبهم وفاة رسول الله ﷺ أفلا يمكن أن يكون في هذه الكتب حالة الأمة بعده وبطابع الفضول وحب الاستطلاع راح يسأل الأساقفة (فقلت : هذا الذي ولينا بعده تجدونه في كتابكم ؟ قال : يعمل صاحبه اليسير ثم يموت)

وعادت سحائب الخوف من الفتنة تملأ كيانه فإذا مات الصدّيق فما هي حال المسلمين بعده .

(قلت ثم ماذا ؟ قال : يليكم قرن الحديد فيملأ مشارق الأرض ومغاربها قسطا وعدلا لا تأخذه في الله لومة لائم) .

وابتهج في أعماقه أن يبلغ هذا الإسلام مشارق الأرض مغاربها وتدين الأرض بهذا الدين ، ويسود القسط والعدل بعد أن ملئت الأرض جورا .

(قلت : ثم ماذا قال : يقتل ، قلت : يُقتل ؟ قال : أي والله يقتل)

هذا الذي ملأ مشارق الأرض ومغاربها قسطاً وعدلا كيف يقتل بعدها .

(قلت : عن ملأ أو من غيلة . قال : بل غيلة . فكانت أهون علي

فقتله عن ملأ بعني ارتداد الأرض كفرًا أو جوراً بعد ذلك وأن جولة الإسلام قصيرة ، وعندما عرف أنه عن غيلة فهان الأمر عليه .

(قلت : ثم ماذا ؟ وانقطع كتاب الشيخ)[1].

فلا شيء بعدها حيث ينتهي خبر هذه الأمة في هذا الكتاب عند الأسقف وراح عمرو رضي الله عنه يحلم أن يكون أحد هذه العناصر التي تساهم في نقل الإسلام إلى هذه الأرض عند الصديق ، وعند قرن الحديد إن كان أجله طويلا في ذلك ولم لا يفعل وهذه أول جولاته حيث نقل الإسلام من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق من المدينة المنورة المجاورة لبحر القلزم إلى عُمان حيث يسمع أهلها صوت البحر في أقصى الشرق ولا عجب فدور قريش دور الريادة في الأمة ، وعليهم أن يحملوا عبء هذا الأمر ويقودوا الأمة حتى بأذن الله تعالى بهذه القيادة باتبلاج فجر جديد يطل على البشرية كلها فيملأها هدى ونوراً فقد سمع من

---

(١) روى الحادثة بطولها الحافظ ابن عساكر في كتابه تاريخ دمشق ١٣ / ٥٠٧ - ٥٠٩ .

رسول الله ﷺ أن قريشًا ولاة هذا الأمر وهو من قـريش فلا بد أن يساهم في صنع الأحداث عند خلفاء رسـول الله كما ساهم في صنعها عنده فـعن عبد الله بن أبي الهديل قـال : كان عمرو بن العـاص يتخولنا فـقال رجل من بكر بن وائل : لئن لم تنتـه قريش ليضـعن الله هذا الأمر فـي جمهـور من جمـاهير العـرب سواهم فـقال عمـرو بن العاص : كذبت سمـعت رسول الله ﷺ يقول : قـريش ولاة الناس في الخير والشر إلى يوم القيامة)[1] .

(١) أخرجـه الترمـذي في باب الفتن ٢٢٢٧ وقـال فيه وفي البـاب عن ابن مـسعود وابـن عمرو وجـابر وهذا حديث حسن غريب صحيح ٤ / ٤٠٥ .

عمرو في ميزان رسول الله ﷺ

إننا نود في هذا الفصل أن نتعرف على عمرو بن العاص رضي الله عنه من فم رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى وبذلك نقطع دابر الظن والتقول عليه من قبل أن نضيع في متاهة الأحداث فتؤثر علينا في الحكم عليه وبذلك نصحح الأحداث بالميزان النبوي الخالد ، ونرمي بالحدث مهما كان شأنه إذا تعارض مع نص نبوي صحيح . وذلك قبل أن نمضي مع عمرو رضي الله عنه في قلب هذه الأحداث ، بعد وفاة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه التي تأتي مصداقا لتقويم رسول الله ﷺ لجنديه وصاحبه عمرو رضوان الله عليه .

١ ـ رمتكم مكة بأفلاذ أكبادها :

أخبرنا أبو غالب وأبو عبد الله ابنا أبي علي قالا أنا أبو جعفرالمسلمة أنا أبو طاهر المخلص أنا أحمد أنا الزبير قال :

وهاجر عمرو بن العاص في الهدنة التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين قريش هو وخالد ابن الوليد وعثمان بن طلحة . فلما رآهم رسول الله ﷺ قال : رمتكم مكة بأفلاذ أكبادها) [1] .

فعمرو إذن قائد من قادة مكة وسيد من ساداتها . وهو مع رفيقيه خالد وعثمان خيرة الخيرة من مكة وأفلاذ كبدها .وليس عمرو عند رسول الله ﷺ امرءا مغمورا أو نكرة مجهولة بل هو في موضع السيادة والقيادة من قومه .

يؤكد هذا المعنى ما رواه عمر ورضي الله عنه في قصة إسلامه قائلا :

---

(١) أخرجه الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٣ / ٤٩٧ مخطوط .

فو الله ما عدل بي رسول الله ﷺ وبخالد بن الوليد أحدا من أصحابه في أمر حزبه)[1].

ويؤكد هذا المعنى كذلك ما رواه وكيع عن منذر بن ثعلبة عن ابن بريدة قال عمر لأبي بكر : لم يدع عمرو بن العاص الناس أن يوقدوا نارا ألا ترى إلى ما صنع بالناس يمنعهم منافعهم ، فقال أبو بكر : فإنما ولاه رسول الله علينا لعلمه بالحرب[2] .

عن ابن بريدة أن عمر قال لأبي بكر حين شيَّع عمرًا أو تزيد الناس ناراً ألا ترى إلى ما يصنع هذا بالناس فقال : دعه . فإنما ولاه علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلمه بالحرب [3] .

٢ ـ رسول الله صلى يضرب المثل بشجاعته :

أحمد : حدثنا ابن مهدي عن موسى بن علي ، عن أبيه ، عن عمرو بن العاص قال : كان فزع بالمدينة فأتيت سالما مولى أبي حذيفة وهو محتب بحمائل سيفه ، فأخذت سيفاً ، فاحتبيت بحمائله فقال رسول الله ﷺ :

« ألا كان مفزعكم إلى الله ورسوله، ألا فعلتم كما فعل هذان المؤمنان »[4].

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمي وقال فيه : رواه الطبراني في الأوسط والكبير ورجاله ثقات ٩ / ٣٥٠ .

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي ٦٣/٣ وهو عند ابن عساكر ٢٥٤/١٣ ب

(٣) مجمع الزوائد للهيثمي ٦ / ٣٥٢ وقال فيه : رواه الطبراني مرسلا ورجاله رجال الصحيح غير المنذر بن ثعلبة وهو ثقة .

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبي ٦٥/٣ وقال المحقق فيه : إسناده حسن وهو في المسند ٢٠٣/٤ وتاريخ ابن عساكر ٢٥٢/١٣ .

٣ - ويضرب المثل بكرمه وجوده :

أحمد : حدثنا يحيى بن إسحاق ، أخبرنا الليث عن يزيد عن سويد بن قيس عن زهير بن قيس البلوي من علقمة بن رمثة أن رسول الله ﷺ بعث عمرو بن العاص إلى البحرين فخرج رسول الله ﷺ فخرج وخرجنا معه ، فنعس وقال : « يرحم الله عمرا » فتذاكرنا كل من اسمه عمرو قال : فنعس رسول الله ﷺ ثم قال : « رحم الله عمرا » ثم نعس الثالثة فاستيقظ فقال : « رحم الله عمرا » قلنا : يا رسول ! من عمرو هذا ؟ قال : « عمرو بن العا ص» قلنا : وما شأنه ؟ قال : «كنت إذا ندبت الناس إلى الصدقة جاء فأجزل منها . فأقول : يا عمرو : أنى لك هذا ؟ فقال : من عند الله قال : وصدق عمرو : إن لك عند الله خيرا كثيرا)[٢] .

٤ - وأثنى على المال بين يديه وحرص له عليه :

موسى بن علي عن أبيه سمع عمرا يقول : بعث إلى رسول الله ﷺ فقال: « خذ عليك ثيابك وسلاحك ثم ائتني فأتيته وهو يتوضأ فصعّد فيّ البصر ، وصوبه فقال : « إني أريد أن أبعثك على جيش ، فيسلمك ويغنمك وأرغب لك رغبة صالحة من المال » قلت يا رسول الله ! ما أسلمت من أجل المال ولكني أسلمت رغبة في الإسلام و ولأن أكون مع رسول الله ﷺ قال « يا عمرو : نعما بالمال الصالح للرجل الصالح »[٢] .

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ٦٥/٣ وقال المحقق فيه : رجاله ثقات خلا زهير بن قيس البلوي فقد ترجمه البخاري ٤٢٨/٢ ، وابن أبي حاتم ٥٨٦/٣ ولم يذكرا فيه جرحا ولا تعديلا وأورده الحافظ في الإصابة ونسبه للبخاري في تاريخه ٤٠/٧ ..

(٢) سير أعلام النبلاء ٦٦/٣ وقال المحقق فيه : أخرجه أحمد ١٩٧/٤ و٢٠٢ والبخاري في الأدب المفرد ٢٩٩ من طرق عن موسى بن علي عن أبيه عن عمرو بن العاص وهذا سند صحيح وصححه ابن حبان ١٠٨٩ والحاكم ٢/٢ ووافقه الذهبي وهو في ابن عساكر ٢٥٣/١٣ ب

وحين يعلم رسـول الله ﷺ جنديه عـمراً أنه يرغب له رغـبة صالحـة في المال فإنما يعني هذا أن ثـقته بحكمـته واقتـصاده وحسن تعـامله في المال هي ثقة كبـيرة لاننا نرى في كـثيـر مـن الأحـاديث الأخـرى يحـذر رسـول الله ﷺ العـديد من صحابتـه من المال فهو إذن من الرجال الذين أوكل لهم عمـارة الدنيا بأموالهـم ولا خشـية على قلوبهم ونفوسـهم من أن تستأثـر بهم الدنيا أو نستـهويهم مغـرياتها أو تقعد بهم عن جليل الأعـمال من الجهاد والتضـحية في سبيل الله وقد سـبر رسـول الله ﷺ نفسيته واعتبرها مثـلا يحتذى حين قال عنه في الحديث السابق (فأقول : « يا عمـرو ! أنى لك هذا ؟ فقال : من عند الله وصـدق عمرو ان له عند الله خـيرا كثيرا » .

وحين خشي عمرو على نـفسه أن يكون رسول الله ﷺ قد اختـاره للجهاد كي يغنم فيتألف قلبه وجزع من هذا المعنى فقال لحبيبه المصطفى ﷺ :

يا رسول الـله : ما أسلمت من أجل المال ولكني أسلـمت رغبة فـي الإسلام ولأن أكون مع رسـول الله ﷺ فيأتيـه جواب قائده ومربيه : « يا عمـرو نعما بالمال الصالح للرجل الصالح » .

فصلاح عـمرو يقوده إلى صلاح المـال الذي يستثمـره في وجوه الخير مـهما عظم في يده وكثر في اقتنائه فهو موظف عنده لا يدخله قلبه ولا يسكنه نفسه فهو الرجل الصالح الذي يتـعامل مع المال الصالـح بأخذه من حلة وينفقـه في محله ولا يضيرنا بعد ذلك أي شيء نسمعه عن ثروة عمرو بن العاص بعد شهادة رسول الله ﷺ بصلاحه وصلاح ماله ، وبعد قول رسول الله ﷺ له : « إني أرغب لك رغبة صالحة في المال .

وحين نقرأ بعدها مثلا أنه ما رواه ابن عينية قال حدثنا عمرو أخبرني مولى لعمرو بن العاص أن عمرا أدخل في تعريش الوهط ـ بستان بالطائف ـ ألف ألف عود ، كل عود بدرهم)[1] .

(ونقرأ عنه أنه خلف أموالا كثيرة وعبيدا وعقارا)[2] نعلم أنه استعمله في الصلاح وكان أهلا له لأنه نعم المال الصالح للرجل الصالح .

٥ ـ عمرو بن العاص من صالحي قريش :

وإذا كان الحديث السابق « نعما بالمال الصالح للرجل الصالح » هو حديث عام لا يذكرعمرا بالصلاح بشكل مباشر فيأتينا هذا الحديث المروي عن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه أحد العشرة المبشرين في الجنة كما ذكر الذهبي في السير قال :

روى عبد الجبار بن الورد ، عن ابن أبي مليكة قال طلحة : ألا أحدثكم عن رسول الله ﷺ بشيء إني سمعته يقول : « عمرو بن العاص من صالحي قريش ، نعم أهل البيت أبو عبد الله ،وأم عبد الله ، وعبد الله)[3] .

وفي رواية عند أحمد عن المطلب بن عبد الله بن حنطب قال قال النبي ﷺ : نعم أهل البيت عبد الله وأبو عبد الله وأم عبد الله)[4] .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٧٤/٣ وتاريخ ابن عساكر ١٣/ ٢٦٦ أ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٧٧/٣ يقال : خلف من الذهب سبعين رقبة جمل مملوءة ذهبا .

(٣) سير أعلام النبلاء ٥٦/٣ وقال المحقق فيه أخرجه أحمد ١٦١/١ من طريق وكيع ورجاله ثقات لكنه منقطع لان ابن ابي مليكه لم يدرك طلحة) أما الحافظ ابن عساكر فقد رواه عن سليمان أيوب بن سليمان بن عيسى بين موسي بن طلحة بن عبيد الله حدثني أبي عن جدي عن موسى ابن طلحة عن ابيه طلحة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « عمرو بن العاص لمن صالحي قريش) ٥٠٠/١٣ وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩ / ٣٥٤ وقال فيه : رواه الترمذي باختصار ورواه ابو يعلي وأحمد بنحوه ورجاله ثقات .

(٤) فضائل الصحابة ٢/ ٩٤٤ وقال المحقق فيه مرسل ورجاله ثقات .

فقد خصه عليه الصلاة والسلام بأنه من صالحي قريش ، وأثنى على البيت كله على عمرو بن العاص رضي الله عنه وعن زوجته وابنه عبد الله رضوان الله عليهم أجمعين .

٦ - وعمرو وأخوه يشهد لهما بالايمان :

وإذا كان الحديث السابق يتناول بيت عمرو رضي الله عنه أبا وزوجا وابنا فهنا يرد الحديث الذي يتناول عمرا وأخاه بفضيلة عظمى وهي الشهادة لهما بالايمان .

روى محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ :

« ابنا العاص مؤمنان ، عمرو وهشام »[1] .

وإن كانت هشام رضي الله عنه قد سبق عمرا بالايمان ، وهاجر إلى الحبشة واستشهد باليرموك لكن عمرا رضي الله عنه لنفاسة معدنه لحق بأخيه وإن كان دائما يفضل أخاه عليه رحمه الله فعن محمد بن الأسود بن خلف قال : كنا جلوسا في الحجر في أناس من قريش إذ قيل قدم الليلة عمرو بن العاص فما أكثرنا أن دخل علينا ، فمددنا إليه أبصارنا فطاف ، ثم صلى في الحجر ركعتين وقال : أقرصمتوني ؟ ! قلنا : ما ذكرناك إلا بخير ، ذكرناك وهشام بن العاص فقلنا : أيهما أفضل قال بعضهم هذا ، وقال بعضنا هشام . قال :

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥٦/٣ وقال المحقق فيه إسناده حسن أخرجه أحمد ٣٠٤/٢ و ٣٥٣ وابن سعد ١٩١/٤ والحاكم ٣/ ٢٠ و ٤٥٢ وابن عساكر ١٣ / ٢٥٠ من طرق وله شاهد عند ابن سعد ٤ /١٩٢ عن عمرو بن حكام عن شعبة عن عمرو بن دينار عن ابي بكر محمد بن عمرو بن حزم عن عمه وهذا سند حسن في الشواهد لأن عمرو بن مكام يكتب حديثه على ضعفه للاستشهاد وقال عنه صحيح ص٧٨ .

آنا أخبركم عن ذلك ، أسلمنا ، وأحببنا رسول الله ﷺ وناصحناه ، ثم ذكر يوم اليرموك فقال : أخذت بعمود الفسطاط ، ثم اغتسلت وتحنطت ثم تكفنت فعرضنا أنفسنا على الله عز وجل فقبله فهو خير مني يقولها ثلاثا)[1] .

وفي رواية عند الذهبي في السير

قال ابن عيينة : قالوا لعمرو بن العاص : أأنت خير أم أخوك هشام . قال : أخبركم عني وعنه عرضنا أنفسنا علي الله فقبله وتركني)[2] .

وفي رواية ثالثة يتحدث فيها عن فضائل أخيه فيقول :

(أسلم قبلي وأمه بنت هاشم بن المغيرة وأمي سبية وكان أحب إلى أبيه مني وتعرفون فراسة الوالد)[3].

وهكذا ذُكرت شهادة رسول الله ﷺ بإيمان جنديه مرتين .

الأولى : عندما ذكره مع سالم مولى أبي حذيفة قائلا : ألا فعلتم كما فعل هذان المؤمنان .

الثانية : عندما ذكره مع أخيه هشام بن العاص قائلا : ابنا العاص مؤمنان عمرو وهشام .

٧ ـ أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص :

وها هو رضي الله عنه يتفرد في مزية من بين خلق الله كافة كانت أعلى وسام يمنحه إياه رسول الله ﷺ .

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمي ٩/٣٥٣ وقال فيه : رواه الطبراني وفيه أبو عمرو مولى أبي أمية ولم أعرفه وبقية رجاله ثقات .

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي ٣/ ٧٩ .

(٣) الاستيعاب في أسماء الأصحاب لابن عبد البر هامش الإصابة ٤ / ٥٩٤ .

حدثنا عبد الله قال حدثني أبي قال حدثنا عبد الله بن يزيد قال حدثنا ابن لهيعة قال نا مشرح بن هاعان قال : سمعت عقبة بن عامر يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص »[1] .

وهذه الخصوصية لعمرو رضي الله عنه تتحدث عن عظمة الإيمان عنده ، وإذا كان تفاضل الناس بالإيمان في قلوبهم يقف عمرو بن العاص رضي الله عنه في الذروة والقمة بشهادة رسول الله ﷺ ولا ندري سر هذه الخصوصية التي خص بها رسول الله ﷺ عمرا . وإذا كان الأمر بظاهر اللفظ فهذا يعني أنه قد غزا الايمان بالله تعالى قلبه وفؤاده فاستجاب له وجاء فأعلن إسلامه بين يدي رسول الله عليه الصلاة والسلام ونقف أمام هذا النص دون ابداء للرأي ونربط بينه وبين قول الرسول ﷺ الذي يقول عنه فيه :

« صدق عمرو إن له عند الله خيرا كثيرا » .

لقد شهد رسول الله ﷺ بالإيمان لكثير من صحابته لكن الميزة هنا هي تفرد عمرو بهذا الوصف من بين الناس وإن دل على شيء فإنما يدل على تمكن الايمان من أعماقه ، وكل ذرة من ذرات جوارحه .

٨ ـ فإنه يحبك ويحب رسولك :

وننتقل هنا إلى ثلاثة أحاديث هي أدنى درجة مما سبق وها هو عليه الصلاة والسلام يضعه مع قادة الأمة الذين لا يبلغ شأوهم أحد فقد أخرج الحافظ ابن

---

(١) فضائل الصحابة ٢/ ٩١٢ ح ١٧٤٤ وقال المحقق فيه : اسناده صحيح وابن لهيعة مختلط إلا أن الراوي عنه عبد الله بن يزيد المقري وروايته عنه صحيحة وأخرجه الترمذي ٦٨٧/٥ .

عساكر عن ابن يخامر السكسكي أن رسول الله ﷺ قال : « اللهم صل على أبي بكر فإنه يحبك ويحب رسولك اللهم صل على عمر فإنه يحبك ويجب رسولك اللهم صل على عثمان فإنه يحبك ويحبك ويحب رسولك اللهم صل على أبي عبيدة بن الجراح فإنه يحبك ويحب رسولك اللهم صل على عمرو بن العاص فإنه يحبك ويحب رسولك » (١) .

ويكفيه من الفخر أن يذكر مع هؤلاء السادة العظام في الإسلام ، وأن يدعو رسول الله ﷺ له بالصلاة عليه ويشهد له أنه يحب الله ورسوله .

٩ - إن عمرو بن العاص لرشيد بالأمر :

سليمان بن أيوب الطلحي حدثنا أبي عن إسحاق ين يحيى عن عمه موسى بن طلحة عن أبيه سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن عمر بن العاص لرشيد الأمر » (٢).

وفي رواية أخرى عن طلحة رضي الله عنه يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يا عمرو إنك لذور أي رشيد في الإسلام)(٣) .

وقد صدق واقع عمرو في رأيه الرشيد إذ قاد جحافل الإسلام إلى النصر بشجاعته وعبقريته وسداد رأيه .

---

(١) تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر ١٣/٥٠٠ وقال فيه : هذا الحديث على إرساله فيه انقطاع بين يزيد ومالك بن يخامر كما ذكره الحافظ الذهبي في سير أعلام النبلاء ٣/٦٥ وقال عنه منقطع .

(٢) سير أعلام النبلاء ٣/٦٤ وقال المحقق فيه : إسناده ضعيف لضعف اسحاق بن يحيى وجهالة راويه عنه .

(٣) تاريخ دمشق ١٣ / ٤٩٩ .

١٠ ـ عمرو بن العاص في الجنة :

عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « ابنا العاص مؤمنان وعمرو بن العاص في الجنة » .

وهذه الزيادة إن ثبتت فقد قطعت كل تقولات المتقولين في النيل منه رضوان الله عليه وحسب الذين يتجرأون على عمرو أن يسمعوا بهذه الأحاديث كلها ، ثم يبيحون لأنفسهم الطعن فيه ، وفي دينه وقد شهد له الرسول ﷺ بالايمان وحب الله ورسوله وشهد بشجاعته وشهد بجوده وشهد أن له عند الله خيرا كثيرا، شهد له بأنه ذو الرأي الرشيد والسديد في الإسلام وأفرده بقوله صلوات الله وسلامه عليه : أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص .

والذي سنشهده فيما بعد عما أكرمه الله تعالى به من الفتوحات على يديه ، وثقة أبي بكر وعمر وعثمان به وولايته أمر المسلمين سنوات طويلة يقيم فيهم شريعة الله تعالى بالعدل والقسطاس وما كتب الله تعالى على يديه من إيمان الخلق الكثير لجدير بأن يكف لسان المتطاولين والمتجنين عليه .

لقد رسم رسول الله ﷺ معالم شخصيته التي تؤهله للقيادة العليا في الأمة .

فالشجاعة والكرم ، هما أعظم ما في المرء من فضائل بعد الايمان .

إن الشجاعة في الفتى والجود من خير الغرائز .

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمي وقال فيه : رواه الطبراني في الأوسط والكبيروأحمد إلا أنه قال عمرو وهشام ورجال الكبير وأحمد رجال الصحيح غير محمد بن عمرو وهو حسن لحديث لكن هذه الزيادة وعمرو بن العاص في الجنة ليست عند أحمد في المسند (٢ / ٣٢٧ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤) وليست عند الطبراني في الكبير (٢٢ / ١٣٧ / ح ٤٦١) فبقيت عند الطبراني في الأوسط وفي سنده ضعف .

والايمان الذي ورد له في ثلاثة مواضع أفرد في واحد منها .

وسداد الرأي : ورشده وهي الحكمة المطلوبة ممن يتصدر لقيادة الأمة .

والعبقرية في إدارة المال : حيث رغب له رسول الله ﷺ فيه رغبة صالحة ، وهي التي تؤهله لتولي ولاية أمر المسلمين بحيث يقودها إلى الازدهار والرفاهية والتقدم .

والعلم بالحرب والخبرة والتجربة فيها والتي تؤهله لقيادة الجيوش ومصارعة العدو .

والصلاح والرشد الذي يحفظ هذا كله فهو من صالحي قريش وحب الله وحب رسوله الذي يفوق في قلبه كل حب فينشيء جيلا وحضارة منطلقة من الإيمان والهدي الرباني .

وثقة رسول الله ﷺ به حيث بعثه قائدا حربيا فعاد مظفرا منتصرا بذات السلاسل . وبعثه داعية الى الله تعالى ووالياً على عمان فأسلم أهل عمان على يديه وعلى رأسهم ملكي عمان عبد وجيفر وأسلم على يديه خلق كبير وتوفي رسول الله ﷺ وهو عنه راض وصحبته لرسول الله ﷺ هذه المواصفات العشر والشهادات النبوية فيه تؤهله للمشاركة في قيادة العالم كله وقد كان ذلك .

عمرو بن العاص تلميذ في مدرسة النبوة

هذه الأشهر المعدودة التي عاشها عمرو بن العاص رضي الله عنه في مدرسة النبوة علمته الكثير الكثير من هذا الدين . وكانت هي محور بنائه وصياغته وسنقف مع ما تعلمه من هذه المدرسة ونشهد أثرها فيه فيما بعد وندع التعريف به وبعلمه وتلقيه من مدرسة النبوة للحافظ الذهبي رحمه الله حيث يقول :

(عمرو بن العاص بن وائل الإمام أبو عبد الله ويُقال : أبو محمد السهمي داهيه قريش ورجل العالم ومن يُضرب به المثل في الفطنة والدهاء والحزم . هاجر إلى رسول الله ﷺ مسلما في أوائل سنة ثمان مرافقا لخالد بن الوليد وحاجب الكعبة عثمان بن طلحة ففرح النبي ﷺ بقدومهم وإسلامهم وأمر عمرا على بعض الجيش وجهزه للغزو .

له أحاديث ليست بالكثيرة تبلغ بالمكرر نحو الأربعين . اتفق البخاري ومسلم على ثلاثة أحاديث منهاوانفرد البخاري بحديث ومسلم بحديثين وروى ايضا عن عائشة .

حدث عنه ابنه عبد الله ومولاه أبو قيس وقبيصة بن ذؤيب وأبوعثمان النهدي وعلي بن رباح وقيس بن أبي حازم وعروة بن الزبيروجعفر بن المطلب بن أبي وداعة وعبد الله بن مُنين ، والحسن البصري مرسلا وعبد الرحمن بن شماسة المهري وعمارة بن خزيمة بن ثابت ومحمد بن كعب القرظي وأبو مرة مولى عقيل وأبو عبد الله الأشعري وآخرون) (١) .

---

(١) سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي ٣ / ٥٤ - ٥٥.

في الإسلام والهجرة والحج :

أخرج مسلم عن ابن شماسة المهري قال : حضرنا عمرو بن العاص في سياقه الموت فبكى طويلا ، وحول وجهه إلى الجدار فجعل ابنه يقول يا أبتاه أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا ، أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا ؟ قال فأقبل بوجهه فقال : إن أفضل ما نعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله إني كنت على أطباق ثلاث لقد رأيتني وما أحد أشد بغضا لرسول الله ﷺ مني ولا أحب إلي أن أكون قد استمكنت من قتله فقتلته ، فلو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار .

فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتتيت النبي ﷺ فقلت : ابسط يمينك فلأبايعك فبسط يمينه ، قال فقبضت يدي قال : « مالك يا عمر ؟ » قلت : أردت أن اشترط . قال : « تشترط بماذا ؟ » قلت : أن يُغفَر لي ؟ قال : « أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأن الحج يهدم ما كان قبله ؟ » وما كان أحد أحب إلي من رسول الله ﷺ ولا أجل في عيني منه ، وما كنت أطبق أن أملأ عيني منه إجلالاً له ولو سئلت أن أصفه ما أطقت لأني لم أكن أملأ عيني منه ولو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة ..) [1] .

لقد تعلم عمرو رضي الله عنه أول درس في هذه المدرسة النبوية العالية أن الاسلام والهجرة والحج تهدم ما كان قبلها من الذنوب وتفتح صفحة ناصعة جديدة .

---

(١) صحيح مسلم ١ / ١١٢ ح ١٩٢ - ١٢١ .

وتعلم مع هذا الدرس العلمي الدرس الروحي العاطفي ، تعلم الحب لله ولرسوله وهو الذي يهدم ما كان قبله من البغض والكراهية والحقد ،ويقتلعه من جذوره ويصبح القلب بنور الإسلام جاهزا لينبت فيه حب رسول الله ﷺ بعد أن كان يحلم بقتله .

ومع هذا الحب العظيم للرسالة والنبوة فهو ليس مع خصم لدود بل مع نور الوجود مع الرحمة المهداة وأنى له أن يتمكن من النظر في هذا النور الباهر تعلم الحب والاجلال بوقت واحد .

وانتقل فما كان أحد أبغض إلي منه إلى ما كان من أحد أحب إلي منه

وانتقل من أن لو أسلم أهل الأرض كلها ما أسلم إلى أن لا يجد في صحيفته أعظم من شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ولو كان في صحيفته فتح بلدان الأرض والحكم بشريعة الله فيها وادخال شعوب في الإسلام على يديه فهو يرى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله أعظم من هذا كله وانتقل من مرحلة أن لا يطيق رؤيته بغضا وكرها له وحقدا عليه إلى (ولو سئلت أن أصفه ما أطلقت لأني لم أكن أملأ عيني منه فلا يطيق رؤيته تعظيما له وانبهارا بنوره الذي يملأ عليه كيانه ووجوده وغدا عندنا عمرو جديد وبعقل جديد وبناء جديد هدم كل ما كان قبله من ذنب ومعصية وجرم وبغض وحقد ولم يهدم معدنه النفيس الغالي وقيمه ، وشهامته ومرؤته ورجاحة عقله ودهاءه وحكنته لكنها كلها دخلت في معمل جديد هو معمل الإسلام فصبغت به ومن أحسن من الله صبغة ونجد عند أحمد اضافة جديدة (... ولا راجعته فيما أريد حتى لحق بالله عز وجل حياء منه) [1] .

---

(١) مسند أحمد ٤ / ٢٠٤ ـ ٢٠٥ .

أي العمل أفضل ؟

ويسرعمراً أن يأتي الأعرابي فيسأل رسول الله ﷺ فيتعلم هو من هذا الأعرابي فلا يزال الحياء يلجمه من أن ينظر بوجه حبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام وها هو يقص علينا قصة ذلك الدرس الذي تعلمه في مدرسة النبوة .

(حدثنا يحيى بن غيلان قالت ثنا رشد ين حدثني موسى بن علي عن أبيه عن عمرو بن العاص قال ، قال رجل يا رسول الله : أي العمل أفضل ؟ قال : إيمان بالله وتصديق وجهاد في سبيل الله وحج مبرور قال الرجل : أكثرت يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ : فلين الكلام ، وبذل الطعام وسماح وحسن خلق . قال الرجل : أريد كلمة واحدة . قال له رسول الله ﷺ : إذهب فلا تتهم الله على نفسك)[1] .

لقد تعلم عمرو رضي الله عنه أن الايمان بالله والتصديق به عمل ، وهو أفضل الأعمال عند الله عز وجل من أجل هذا ورأيناه يتحدث في مرض موته .. أرجى أعماله عند الله عز وجل هي شهادة أن لا إله الا الله وشهادة أن محمدا رسول الله .. وتعلم من الدرس السابق كذلك أن الحج المبرور يهدم ما قبله وأن ليس له جزاء إلا الجنة أما الإضافة الجديدة له في هذا الدرس فهو لين الكلام وبذل الطعام وحسن الخلق لقد كان يملك هذه المواصفات في الجاهلية لكنه كان يريدها للسمعة والصيت والشهرة ويتبارى الناس في الحديث عن حسن خلقه وجوده أما اليوم ، فقد دخلت هذه العناصر معمل الإيمان ، وخرجت مختومة بختمه لتكون أفضل الأعمال بعد الايمان والحج والجهاد وهذه يملكها كل عربي أصيل أو يعرفها على الأقل فهي سجية من سجايا العرب . أقرها الإسلام بصيغتها الجديدة لتكون خالصة لله سبحانه وتقرباً وزلفى إليه .

---

(١) مسند أحمد ٤ / ٢٠٤ .

٣ ـ الايمان وموطنه :

فعن عبد الله بن الحارث قال : سمعت عمرو بن العاص يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (بينما أنا في منامي أتتني الملائكة ، فحملت عمود الكتاب من تحت وسادتي فعمدت به إلى الشام ألا فالايمان حين تقع الفتن بالشام)[١] .

لقد كان لعمرو رضي الله عنه مع الشام تاريخ طويل من الفتوحات ولعل هذا الحديث كان له دور غير مباشر في انضمامه الى معاوية رضي الله عنه في قلب هذه الفتنة فإذا كان عمود الكتاب قد رحل اليها فلم لا يرحل هو اليها وأي فتنة أعظم من خلاف المسلمين واقتتالهم فيما بينهم .

وإذا كان سند الحديث ضعيفا فهذا لا يعني أن المعنى غير صحيح فقد أخرج أحمد في كتابه فضائل الصحابة عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ بينا أنا نائم إذ رأيت عمود الكتاب احتمل من تحت رأسي فظننت أنه مذهوب به فأتبعته بصري ، فعُمد به إلى الشام . ألا وإن الايمان حين تقع الفتن بالشام)[٢] .

---

(١) مسند أحمد ٤ / ١٩٨ . والحديث ضعيف لضعف عبد العزيز بن عبد الله بن حمزة بن صهيب كما في كتاب فضائل الصحابة ٢ / ٩٠١ هامش .

(٢) فضائل الصحابة ٢ / ٩٠١ ح ١٧١٧ وقال المحقق فيه إسناده صحيح وأخرجه في المسند (٥ : ١٩٨ - ١٩٩) بهذا الإسناد والفسوي في تاريخه (٢ / ٢٩٠) وأبو نعيم في الحلية (٦ : ٩٨) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠ / ٢٥٧) وقال : رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح وأخرجه ابن عساكر في تاريخه ١ / ١٠ أ . ولو شاهد عن عمرو بن العاص رواه أحمد إسناده ضعيف وأخرجه الحاكم في المستدرك (٤ / ١٠٩) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي .

٤ - ومن الايمان إلى القرآن :

وبالقرآن يفقه الناس الإيمان وهذا درس عملي من أهم الدروس العملية التي تلقاها رضي الله عنه في مدرسة النبوة .

(فعن أبي قيس مولى عمرو بن العاص قال : سمع عمرو بن العاص رجلا يقرأ آية من القرآن قال : من أقرأ كها ؟ قال : رسول الله ﷺ قال : فقد أقرأ نيها رسول الله ﷺ على غير هذا . قال : فذهبا الى رسول الله ﷺ « هكذا أنزلت » فقال الاخر : يا رسول الله ! فقرأها على رسول الله ﷺ فقال : أليس هكذا يا رسول الله ؟ قال : « هكذا أنزلت » فقال رسول الله ﷺ : « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فأى ذلك قرأتم فقد أحسنتم ولا تماروا فيه فان المراء فيه كفر أو آية الكفر » [1] .

ولو لم يكن رضي الله عنه في مدرسة النبوة لكونت هذه القضية أزمة عنده. إذ هو متأكد أن رسول الله ﷺ قد علمه هذه الآية بغير ما يقرأ بها أخوه في الله وتحريف القرآن من الأمور الخطيرة الكبرى التي لا يتساهل بها في الدين ، فهو دستور البشرية كافة وهو منقول بالتواتر من فم رسول الله ﷺ عن جبريل عن ربه. ولكن هذا التنازع قد وقع وامام المربين في الوجود ، ولا تزال البشرية تسعد بنوره فليحتكما إليه . وأدلى عمرو بحجته ونصره رسول الله ﷺ وصدقه وأحس أنما ملك الدنيا بذلك ثم أدلى أخوه بحجته فسرعان ما قال له هكذا نزلت .

---

(١) مسند أحمد ٤/٢٠٥ وسنده : (حدثنا أبو سلمة الخزاعي (ثقة بنت حافظ) قال أخبرنا عبد الله بن جعفر بن المسور بن مخرمة (ليس به بأس) قال : أخبرني يزيد بن عبد الله بن أسامة (ثقة) عن يسر بن سعيد (ثقة جليل) عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص (ثقة) قال : سمع عمر بن العاص ...) فرجال الحديث ثقات ، وهناك رواية أخرى لأحمد ٤ / ٢٠٤ بالسند نفسه باضافة (أبي سعيد مولى بني هاشم صدوق ربما أخطأ) .

ثم كان الدرس النبوي العظيم .

« إن هذا القرآن إنما أنزل على سبعة أحرف » .

ليستوعب لهجات العرب كلها ويحمل العرب كلهم لا قريش وحدها عبء التبليغ :

« وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون »

« فأي ذلك قرأتم فقد أحسنتم » .

ولا فضل لقراءة على قراءة ما دامت ثابتة إنما الخطر هو في المراء فيه فالمراء فيه كفر أو أخو الكفر لقد تكفل الله تعالى بحفظ كتابه والقراءات السبع المشهورة كلها متواترة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون في الأرض يتلون هذا الكتاب بهذه القراءات ولو لم نسمع هذا الدرس من تلميذ مدرسة النبوة لكان هذا الأمر من أكبر القضايا التي تتمزق الأمة بسببها وجاء ختام الحديث أن مجرد المراء فيه وليس الخلاف أو الاختلاف أو الشقاق هو الكفر أو دليل الكفر ومضى عمرو رضي الله عنه بها الى الأرض كلها التي دخلها وفتحها هاديا في هذا المجال .

٥ ـ السجدات الخمسة عشر :

تعلم هذا الدرس من القرآن من رسول الله ﷺ وهذا يبين أنه كان يفد يوميا إلى رسول الله ﷺ يتعلم منه كتاب الله خلال هذه المدة القصيرة التي أمضاها معه ولا يتلقاها منه فقط ، إنما يسمعها لرسول الله ﷺ ويقول له : هكذا أنزلت وتعلم أن في القرآن خمس عشرة سجدة نقل هذا العلم الى الأجيال اللاحقة كلها وروته عنه الأئمة كلهم كذلك .

« فعن محمد بن عبد الرحيم بن البرقي [1] حدثنا ابن أبي مريم [2] أخبرنا نافع بن يزيد [3] عن الحارث بن سعيد العتقي [4] عن عبد الله بن قنين من بني عبد كلال [5] عن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن منها ثلاث في المفصل في سورة الحج سجدتان » [6] .

ويؤكد هذاالحديث أن عمرا رضي الله عنه كأنما تلقى القرآن كله عن رسول الله ﷺ إذ استوعبه كل سجدات القرآن المتوزعة عليه كله .

٦ - في أحكام العبادات :

آ - في الوضوء والتيمم :

وحين نذكر موقفه في غزوة ذات السلاسل يوم أذاع الجيش عنه أنه صلى بالناس وهو جنب ورأينا فقهه العظيم في التوقف عن الغسل لشدة البرد مجيبا نبيه المصطفى ﷺ إني سمعت الله يقول : ﴿ لا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما ﴾ فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئا واختلفت الروايات فيما فعله عوضاً من الغسل ففي رواية عن مولاه أبي قيس فغسل مغابنه ، وتوضأ وضوءه للصلاة [7] .

وفي رواية عن حسان بن عطية قال فيها : فتيمم والله أعلم أي ذلك كان .

(١) ثقة من الحادية عشرة .

(٢) ضعيف من السابعة .

(٣) ثقة عابد من السابعة .

(٤) مقبول من السابعة .

(٥) وثقة يعقوب بن سفيان من الثالثة .

(٦) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة م ١ ج ٢ ١٤٠١/٥٩ باب تفريع أبواب السجود وكم سجدة في القرآن وقال أبو داود وروي عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم احدى عشر سجدة وإسناده واهٍ ورواه اب ماجة ٣٣٤/١ ج /١٠٥٣ بالسند نفسه غير محمد بن يحيى وهو ثقة من الحادية عشر .

(٧) أخرجه أبو داود ٩٢/١ ج ٣٣٤ وأحمد ٢٠٣/٤ - ٢٠٤ ورجال أحمد ثقات الا ابن لهيعة صدوق .

ودليل رجاحة عقل عمرو رضي الله عنه في أن التيمم شرع فيما بعد عند الخوف من استعمال الماء وليس عند فقدانه فقط ، وما رواه أبو داود رضي الله عنه يؤكد هذا المعنى .

فعن جابر قال خرجنا في سفر فأصاب رجل منا حجر فشجه في رأسه ثم احتلم فسأل أصحابه فقال هل تجدون لي رخصة في التيمم ؟ قالوا : مانجد لك رخصة وأنت تقدر علي الماء فاغتسل فمات فلما قدمنا على النبي ﷺ أخبر بذلك فقال : « قتلوه قتلهم الله ألا سألوا إذا لم يعلموا فإنما شفاء العي السؤال انما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر (أو يعصب : شك موسى) على جرحه خرقه ثم يمسح عليها ثم يغسل سائر جسده)[1] ولا شك أن ضحك رسول الله ﷺ لقوله هو إقراره باجتهاده .

وها هو يروي لنا رضي الله عنه حديث اتمام الوضوء ليظهر بعد الحديث السابق في أعماقه فليس التساهل على ما يخطر في الذهن هو منطلقه بل الفهم والعلم المنبثق نور النبوة .

فهو أحد الأربعة من الصحابة الذين رووا احديث اتمام الوضوء كما أخرجه ابن ماجه قال : (حدثنا العباس بن عثمان وعثمان بن اسماعيل الدمشقيان قالا حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا شيبة ابن الأحنف عن أبي سلام الأسود عن أبي صالح الأشعري حدثني أبو عبد الله الأشعري عن خالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنه وعمرو بن العاص كل هؤلاء سمعوا من رسول الله ﷺ قال : « أتموا الوضوء ويل للأعقاب من النار »)[2] .

---

(١) أخرجه أبو داود ١/٩٣ ج ٣٣٦ وصححه الألباني في الجامع الصغير م / ٤/ ١٣١ .

(٢) سنن ابن ماجه ١ / ١٥٥ ح ٤٥٥ وفي الزوائد اسناده حسن ما علمت في رجال ضعفا وقد صححه الألباني ١/٩٢ ح ٢٣ أو في الجامع الصغير .

والطريف أن هؤلاء الرواة الأربعة هم من قـادة الفتح الإسلامي ، وهم الذين قادوا جنود الإسـلام وانساحوا في الأرض بهـذا الدين يعلمونه للناس ويفقـهونهم به .

ب ـ في الصلاة :

وكـما تعلمنا من عـمـرو رضي الله عنه خريـج مدرسـة النبوة ضـرورة إتمام الوضوء والويل للأعقاب من النار تعلمنا منه كذلك فضل صلاة الوتر حتى ليعتبرها النبي ﷺ صلاة جديدة تضاف إلى الصلوات الخمس كـما أخرج الإمام أحمد في مسنده قال :

(حدثنا عبد الله حدثني أبي حدثنا يحيى بن اسحاق[1] أنا ابن لهيعة[2] أنا عبد الله بن هبيرة[3] قال : سمعت أبا تميم الحبشياني[4] يقول سمـعت عمرو بن العاص يـقول : أخبـرني رجل من أصحـاب النبي ﷺ يقـول : أن رسـول الله ﷺ قال: « إن الـله عز وجل زادكم صـلاة فصلوها فـيمـا بين صلاة العـشاء إلى صـلاة الصـبح الوتر الـوتر »ألا وإنه أبو بصـرة الغـفـاري . قـال أبو تميم فـكنت أنا وأبو ذر قاعدين ، فأخذ بيدي أبو ذر فـانطلقنا إلى أبي بصرة فوجدناه عند الباب الذي يلي دارعمـرو بن العاص فقـال أبو ذر : يا أبا بصرة آنت سـمعت النبي ﷺ يقـول : إن الله عز وجل زادكم صلاة صلوها فيما بـين صلاة العشاء إلى صلاة الصبح الوتر ؟ قال نعم قال : أنت سـمعته ؟ قـال : نعم . قال : أنت سمعـته ؟ قال : نعم »[5] .

---

(١) صدوق .

(٢) صدوق اختلط .

(٣) ثقة .

(٤) ثقة .

(٥) مسند أحمد ٦ / ٣٩٧ . وقد صحح الألباني الحديث نفسه والمروي بسند آخر عن عبد الله بن عمرو بن العاص انظر الجامع الصغير ١٠٣/٢/١ ح ١٧٩٨ .

وتبرز لنا عظمة التربية النبـوية في الحرص على التثبت مما يُروى عن النبي ﷺ حيث لم يكتف أبو ذر بشـهادة عـمـرو على المنبر وهو ينقـل عن أبي بصرية الحـديث بل مضى إليه وأعـاد عليه الكلام ثلاثا يتأكـد منه من سماعه قصـة الوتر من رسول الله ﷺ .

كما تشهد عظمة التبليغ للأمة التي يقوم بها الأمير ابن العاص على المنبر لأن أبا بصيرة لايملك هذاالمنبر فـيحدث به الناس جميعا بحـيث يتسابق المؤمنون بعدها على أداء صلاة الوتر ويحرصون عليها فهى أفضل القربات بعد الصلوات المكتوبة .

جـ - في الصيام :

ويطالعنا في مبحث الصـيام حديثان رواهما لنا عـمرو رضي الله عنه وروعة الحـديث هو ارتباطه بالقـصة الحية التي تأتـي مناسبـة لها فـلا تأتي هكذا مقطوعـة أومبتورة بلا أساس .

الحديث الأول : حدثني أبي حدثنا يزيد ثنا موسى قال : سمعت أبي يقول : حـدثني أبو قيس مـولى عمـرو بن العـاص أن عمـرو بن العاص كـان يسرد الصـوم وقلمـا كان يصـيب من العـشـاء أول الليل أكثـر مـا كان يصـيب من السـحر قـال وسمعته يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن فـصلا بين صيامنا وصـيام أهل الكتاب أكلة السحر »[١] .

ففي كل -ـديث يرويه تبرز لنا منقبة من مناقبه وفضيلة من فـضائله وأدرى الناس به مولاه أبو قـبس الذي يعايشـه طيلة وقته فـهو يحدثنا عن أن عـمرا رضي

---

(١) مسند أحمد ١٩٧/٤ - ١٩٨ ، ومسلم ٧٧١/٢ ح ٤٦ - ١٠٩٦ وأبو داود ٣٠٢/٢/١ - ٣٠٣ ح ٢٣٤٣ والترمذي ٨٨/٣ ح ٧٠٨ - ٧٠٩ والنسائي ١٢٠/٤/٢ .

الله عنه كان يسرد الصوم ومع الفطور يتناول اليسير من الطعام بينما يقوي نفسه معتمدا على السحور متيمنًا برسول الله ﷺ الذي سن السحور وقال : « تسحروا فإن في السحور بركة »[1] ويضاف هنا معنى جديد من فقه السحور في الإسلام نقله لنا عمرو رضي الله عنه هذا المعنى هو المفاصلة عن أهل الكتاب حتى في صيامهم وهذه المفاصلة هي طعام السحور ولقد روى هذا الحديث أئمة الحديث الستة ما عدا البخاري وابن ماجة ورواه الدارمي كذلك وحيث قد رواه مسلم فلا حاجة لنا إلى تخريجه . وكل هذه الروايات عن عمرو بن العاص رضي الله عنه .

الحديث الثاني : ومع أن عمرو بن العاص رضي الله عنه كان يسرد الصوم وقلبه موصول دائما بالله ها هو ابنه عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما يدخل عليه. فيعرض عليه الطعام فيأبى قائلا : إني صائم فيعلم عمراً ابنه أن هذه الأيام أيام التشريق قد نهى رسول الله عن صيامها .

(حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا روح ثنا مالك عن يزيد بن عبد الله بن الهاد عن أبي مرة مولى أم هانئ أنه دخل مع عبد الله بن عمرو على ابنه عمرو بن العاص فدعاه إلى الغداء فقال : إني صائم قال عمرو كل فهذه الأيام التي كان رسول الله ﷺ يأمرنا بفطرها وينهي عن صيامها قال مالك : وهي أيام التشريق وفي رواية أخرى لأحمد أن عبد الله بن عمرو بن العاص دخل على عمرو بن العاص فدعاه إلى الغداء فقال : إني صائم ثم الثانية كذلك ثم الثالثة كذلك فقال : لا إلا أن تكون سمعته من رسول الله ﷺ فقال إني سمعته من رسول الله ﷺ)[2] .

---

(١) مسلم ٢/٧٧٠ ح ٤٥ - ١٠٩٥ .

(٢) مسند أحمد ٤/١٩٧ ، والحديث صحيح لرواية مالك له في الموطأ ح ٧٤١ وأخرجه أبو داود في الصوم ١/٢/٣٢٠ ح ٢٤١٨ ، وأخرجه الدارمي في الصوم ١٧٠٢ .

وبذلك تعلمت الأمـة من عمرو أن أيام التـشريق هي أعيـاد المسلمين ومنهي عن الصوم فيها مثل الأضحى والفطر .

٧ ـ في العدة :

وحيث أن طريقه الطويل هو طريق الجهاد في سبيل الله ففي هذا الطريق بعد الشـهادة دائمـا آثار في زوج الشهـيد وأهله وولده ، وأهم مـا في ذلك من اثار هو عدة المـتوفى عنهـا زوجهـا ، ولئن جاءت في صـريح كتـاب الله أنها أربـعة أشـهر وعشرا ﴿ يتـربصن بأنفسهن أربعة أشـهر وعشرا ﴾ لكنهـا لم ترد كذلك لأم الولد وهي الأمة التي يتوفى عنها زوجها وقد أنجبت من سيدها ولدا .

ونفياً لهذا اللبس قـال رضي الله عنه فيما أخرجه أحـمد وأبوداود وابن ماجة عن رجاء ابـن حيوة عن قـبيـصة ابن ذويب عن عـمرو بن العـاص قال : لا تلبـسوا علينا سنة نبينا عدة أم الولد إذا توفي عنها سيدها أربعة أشهر وعشرا » [(١)] .

وحيث أن أم الولد قـد يخطر في الذهن أن تختلف عـدتها عن عـدة الحرة . وقد وقع هذا في الطلاق حيث تختلف عدة الأمة عن عدة الحرة . فكان لا بد من هذا الايضاح في أن الأمـة التي يتوفي عنهـا سيدها وقـد أنجبت له ولدا منه فعـدتها عـدة الحرة أربعـة أشهـروعشـرا ورواية أبي داود : ولا تلبـسوا علينا سنة (قـال ابن المثنى سنة نبينا) صلى الله عليـه وسلم : عدة المتوفى عنها أربعة أشهـر وعشر يعني أم الولد » .

ورواية ابن ماجه : « لا تفسدوا علينا سنة نبينا محمد ﷺ عدة أم الولدأربعة أشهر وعشرا) [(٣)] .

---

(١) مسند أحمد ٢٠٣/٤ .

(٢) سنن أبي داود ٢٩٤/٢/١ ح ٢٣٠٨ .

(٣) سنن ابن ماجهة ١/ ٦٧٣ ، ح ٢٠٨٣ .

٨ - في المرأة :

وحيث علمناتلميذ مدرسة النبـوة فيماتلقاه عن نبيه ﷺ عدة أم ا لولد . فـها هو يعلمنا فقه الأستئذان على النساء المتزوجات من غير محار مهن .

(حدثنا سويد حدثنا عبد الله أخبرنا شعبة عن الحكم عن ذكوان مولى عمر بن العـاص أن عمرو بن العـاص أرسله إلى علي يسـتأذنه على أسـماء بنت عـميس فأذن له حـتى إذا فرغ من حاجـته سأل المولى عـمر بن العاص عن ذلك فـقال : إن رسول الله ﷺ نهـانا أو نهى أن ندخل على النساء بغـير إذن أزواجـهن)[1] وفي الباب عـن عقبـة بن عامـر وعبـد الله بن عمـرو وجابر قـال ابو عيسى هـذا حديث حسن صحيح ورواية أحمد[2] مثلها .

هذه رواية عند أحمد تضيف علما جديدا وتقدم اضاءة جديدة .

(حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي صالح قال : استـأذن عمـرو بن العاص على فـاطمة فـأذنت له قال : ثم علـي : قالوا : لا قال: فرجع . ثم استأذن عليها مرة أخرى فقال : ثم علي ؟ قالوا نعم فدخل عليها . فقـال له علي : ما منعك أن تدخـل حين لم تجدني هنا ؟ قـال : إن رسول الله ﷺ نهانا أن ندخل على المغيبات)[3] .

والجـديد الذي تعلمناه من عمـرو رضي الله عنه أن إذن الزوجـات لا يكفي وأن التي غاب عنـها زوجهـا لا يدخل عليهـا لأنها من المغيـبات كـما نلاحظ في النص الثقـة العظيمـة بين على رضي الله عنه وعـمرو بحيث يعاتب عمـرا حين لم يدخل على فاطمة رضي الله عنها وقد أدنت له .

---

(١) سنن الترمذي ١٠٢/٥ ح ٢٧٧٩ .

(٢) مسند الإمام أحمد ٢٠٣/٤ .

(٣) مسند أحمد ٢٠٥/٤ .

وتبدو هذه الثقة أعظم في الرواية الثالثة التي رواها أحمد باختلاف يسير جدا عن رواية الترمذي عن شعبة عن الحكم قال سمعت ذكوان أبا صالح يحدث عن مولى لعمر بن العاص أن عمر بن العاص أرسله إلى علي يستأذنه على امرأته أسماء بنت عميس فأذن له فتكلما في حاجة فلما خرج المولى سأله عن ذلك فقال عمرو : نهانا رسول الله ﷺ أن نستأذن عى النساء إلا بإذن أزواجهن)[1] .

والاضافة الجديدة هنا (فتكلما في حاجة) وعلي رضي الله عنه لا يصر على عمرو أن يعرف حاجته إلى أسماء زوجه بل يدعه يمضي ليحدثها ثم يخرج دون أن يلح على عمرو أو على زوجه أسماءبمعرفة هذه الحاجة وهو دليل عظمة ثقة علي رضي الله عنه بزوجه وبأخيه عمرو بن العاص حيث يسمح له أن يدخل على زوجته ويكلمها في حاجة لهما ويخرج .

٩ ـ المرأة والجنة :

وبصدد الحديث عن المرأة نقل لنا عمر بن العاص رضي الله عنه ندرة النساء في الجنة من خلال القصة التالية : (حدثنا سليمان بن حرب وحسن بن موسى قالا ثنا حماد بن سلمة عن أبي جعفر الخطمي عن عمارة بن خزيمة بن ثابت) قال:

كنا مع عمرو بن العاص في حج أو عمرة حتى إذا كنا بمر الظهران ، فإذا امرأة في هودجها قد وضعت يدها على هودجها قال : فمال فدخل الشعب ، فدخلنا معه فقال : كنا مع رسول الله ﷺ في هذا المكان فإذا نحن بغربان كثيرة فيها غراب أعصم[2] أحمر المنقار والرجلين فقال رسول الله ﷺ : « يدخل الجنة من النساء إلا مثل هذا الغراب في هذه الغربان » . قال حسن : فإذا امرأة في هودجها في يديها حبائرها [3] وخواتيمها قد وضعت يديها ولم يقل حسن بمر الظهران)[4] .

---

(١) مسند أحمد ١٩٧/٤ .

(٢) الاعصم : الأبيض المنقار .

(٣) الحبائر جمع حبرة وهي الثياب المخططة من قطن وغيره .

(٤) مسند أحمد ٢٠٥/٤ ورجاله ثقات عدا ابي جعفر الخطمي وهوصدوق روى له الأربعة .

وهو حث للمرأة أن تجتهد وتسعى لتكون من هؤلاء الثلة القليلة : ﴿ ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ﴾ وفي الحديث الصحيح الآخر حين جاء عليه الصلاة والسلام يحث النساء على الصدقة قائلا : « يا معشر النساء تصدقن وأكثرن من الاستغفار ، فإني رأيتكن أكثر أهل النار انكن تكثرن اللعن وتكفرن العشير .. »[١]

وفي رواية مسلم « .. فقالت امرأة منهن جزلة[٢] : وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار ؟ قال : « تكثرن اللعن وتكفرن العشير »[٣] .

وبإمكان المرأة المسلمة أن تحذر هذين الشيئين اللذين سبا دخولهن النار هي كثرة اللعن وكفران العشير فتكن مثل لك الغراب الأعصم بين الغربان .

إن المسابقات الكبرى في الدنيا يكون الفائز فيها أعداداً قليلة جدا فكيف بمسابقة دخول الجنة التي فيها لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر والله تعالى يدعو الرجال والنساء معا إلى هذه المسابقة .

﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ﴾[٤] .

ويشيرراوي الحديث إلى تساهل المرأة في هودجها وقد أبدت حبائرها وخواتيمها ليكون حافزاً الى حرص المرأة على الستر ولا داعي لأن تبرز محاسنها وهي في الهودج .

---

(١) مسلم وأحمد والترمذي وابن ماجة .

(٢) جزلة : عاقلة ذات رأي .

(٣) مسلم ١/٨٦ ح ١٣٢ - ٧٩ .

(٤) سورة الحديد / ٢١ .

١٠ ـ مع قلب ابن آدم :

وليست المرأة وحدها هي المعرضة للخطر فالرجل والمرأة سواء في ذلك حين تستهويهم الدنيا وتحوم الشهوات في قلوبهم . نلحظ ذلك من خلال هذا الحديث الذي يسوقه لنا عمرو رضي الله عنه حين تربى عليه وبُني به في مدرسة النبوة .

(حدثنا اسحق[١] بن منصور أنبأنا أبوشعيب[٢] صالح بن رزيق العطار حدثنا سعيد[٣] بن عبد الرحمن الجمحي عن موسى[٤] بن علي بن رباح عن أبيه[٥] عن عمرو بن العاص قال قال رسول الله ﷺ : « إن من قلب ابن آدم بكل واد شعبة فمن اتبع قلبه الشعب لم يبال الله بأي واد أهلكه ومن توكل على الله كفاه الشعب » [٦] .

مع ضعف هذا الحديث من حيث المتن لكنه صحيح من حيث المعنى فقد روى ابن ماجه عن زيد بن ثابت قال : • سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من كانت الدنيا همه فرّق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له ومن كانت الآخرة نيته جمع الله له أمره ، وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة » [٧] .

---

(١) صدوق تكلم فيه .

(٢) مجهول .

(٣) صدوق له أوهام .

(٤) صدوق ربما أخطأ .

(٥) ثقة .

(٦) ابن ماجة ١٣٩٥/٢ ح ٤١٦٦ .، وقال في الزوائد : إسناده ضعيف وصالح بن رزيق ليس له الا هذا الحديث .

(٧) سنن ابن ماجة ٢ / ١٣٧٥ ح ٤١٠٥ كتاب الزهد وفي الزوائد اسناده صحيح ورجال ثقات .

فهذا القلب إنما أن يكون متشعبا في كل واد من أودية الدنيا جاهها أو مالها أو نسائها أو ملذاتها أو فتنها فلا يبالي الله تعالى به أين هلك في هذه الأودية ومن ترك هذه الأودية الدنيوية جميعا وربط قلبه بالله ووثق بما عنده ، و كفى الله قلبه ذلك الضياع والتشرد في هذه الشعاب وأعطاه من الدنيا رغما عنها ما كتب له فيها .

١١ ـ الزهد في الدنيا :

وقد أدرك عمرو رضي الله عنه هذا المعنى الإسلامي الأصيل في الزهد في الدنيا والرغبة بما عند الله والترفع عن سفاسفها ومغرياتها . وأصبح هذا الأمر جزءا من حياته ويحمل عبء دعوة الأمة لهذا الزهد والتوجيه اليه والحث عليه .

(حدثنا يحيى بن اسحاق قال ثنا ليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب عن علي بن رباح قال : سمعت عمر بن العاص يقول : لقد أصبحتم وأمسيتم ترغبون فيما كان رسول الله ﷺ يزهد فيه أصبحتم ترغبون في الدنيا وكان رسول الله ﷺ يزهد فيها والله ما أتت على رسول الله ﷺ ليلة من دهره إلا كان الذي عليه أكثر مما له . قال فقال له بعض أصحاب رسول الله ﷺ قد رأينا رسول الله ﷺ يستسلف)[1] .

إنه ينقل رضي الله عنه لجنده ورعيته ما كان عليه رسول الله ﷺ من الزهد في الدنيا في الوقت الذي يصبح المسلمون يمسون في عهدهم وهم يرغبون في الدنيا وآية زهده ﷺ أنه لم يمر عليه ليلة من دهره إلا الذي عليه أكثر من الذي له وجاء صحابي آخر فشهد لعمرو رضي الله عنه فبما رواه عن نبيه عليه الصلاة

---

(١) مسند أحمد ٤ / ٢٠٤ ورجاله ثقات عدا يحيى بن اسحاق وهو صدوق .

والسلام أنه كان يستسلف وفي الحديث الصحيح أنه توفي ودرعه مرهون عند يهودي وتطالعنا الروايات الأخرى ، بأن هذا الحديث كان على المنبر في مصر كما رواه أحمد في مسنده فعن موسى بن علي عن ابيه قال : سمعت عمرو بن العاص يخطب الناس بمصر يقول : أما بعد هديكم عن هدي نبيكم ﷺ أما هو فكان أزهد الناس في الدنيا وأما أنتم فأرغب الناس فيها »[1] .

وفي رواية ثالثة عن علي بن رباح يقول : (سمعت عمر بن العاص يقول للناس وهو على المنبر للناس ما أبعد هديكم من هدي نبيكم ﷺ ، أما هو فأزهد الناس في الدنيا وأما أنتم فأرغب الناس فيها)[2] .

وهذا الهدي العظيم هو الذي يمثل أصالة الفتح الاسلامي وروح الحضارة الإسلامية فالقادة الفاتحون تلاميذ مدرسة النبوة قد طبعوا بهذا الهدي فقد فتحوا الدنياوملكوها وما رفت قلوبهم لها ، ولا تعلقت قلوبهم بها انما كانوا يمثلون الجيل الرباني الذي قدم النور للبشرية وأخرجها من الظلمات الى النور من دون أن يكون منكبا على شهواتها متصارعا على حطامها بل مجاهدا لتحقق شريعة الله فيها .

١٢ ـ سنن الله في هلاك الأمم :

وحيث كان عمرو رضي الله عه قد أعده رسول الله ﷺ ليقود الجيوش في الأرض لإعلاء كلمة الله ، كما أعده ليكون الحاكم المسلم في الأرض فهو القائد العسكري وهو الأمير الإداري ، وهو الداعية الإسلامي فقد تعلم فيما تلقاه بن مدرسة النبوة كيف تهلك الأمم حين يفسد حكامها ، ويشيعون الربا والرشوة فيها

---

(١) مسند أحمد ٢٠٤/٤ .

(٢) مسند أحمد ١٩٨/٤ .

ولا يأخذون على يد المفسدين فيها (حدثنا موسى بن داود قال أخبرنا ابن لهيعة عن عبد الله بن سليمان عن محمد بن راشد المرادي عن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من قوم ظهر فيهم الربا ألا أُخذوا بالسنة ، وما من قوم يظهر فيهم الرشا إلا أخذوا بالرعب »[1] ونقص الثمرات قد جاء في حديث آخر أنه عقوبة الذين يمنعون زكاة أموالهم . ومن يمنع زكاة ماله على الغالب لا يجد حرجاً من الربا فيستحل الحرام ويحرم الحلال في واقعه كما في الحديث « ما منع قوم زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا ولم ينقصوا الميكال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة)[2] أما العقوبة بشكل عام لمن ينتشر فيهم الربا والزنا فهذا قد صح في حديث آخر عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : « ما ظهر في قوم الزنا والربا إلا أحلوا بأنفسهم عقاب الله)[3] .

١٣ ـ الأمثال الألف :

وها هي ثقافة عمرو بن العاص رضي الله عنه تنمو وترتفع وتعلو في مدرسة النبوة التي أقام فيها قرابة العام . ولكونه من أصحاب المواهب العظمى فقد كانت قدرته على الاستيعاب وأخذ أعظم قدر من الثقافة في أقل فترة من الزمن لا توجد إلا عند أعاظم الرجال فهو يحدثنا أنه عقل عن رسول الله ﷺ ألف مثل كما في الحديث التالي :

---

(١) مسند أحمد ٢٠٥/٤ وقال الهيثمي فيه الزوائد ١١٨/٤ رواه أحمد وفيه من لم أعرفه .

(٢) من حديث رواه ابن ماجة والحاكم وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير ٣٠٦/٦ ح ٧٨٥٥ .

(٣) مجمع الزوائد للهيثمي ١١٨/٤ وقال فيه رواه ابو يعلي وإسناده جيد .

(حدثنا إسحاق[1] بن عيسى قال : حدثني ابن لهيعة[2] عن أبي قبيل [3] عن عمرو بن العاص قال : عقلت عن رسول الله ﷺ ألف مثل)[4] .

١٤ ـ التجوز في القول :

وفي الوقت الذي وعى فيه هذه الحصيلة الضخمة من الأمثال يحدثنا عن قلة كلام رسول الله ﷺ وتوجيهه إلى الوجيز والمفيد فيه فكثرة الكلام ينسي بعضه بعضا أما الحديث فهو (حدثنا سليمان عبد الحميد البهراني [5] أنه قرأ في أصل اسماعيل بن عياش وحدثه محمد[6] بن اسماعيل ابنه قال : حدثني [7] أبي قال حدثني ضمضم[8] عن شريح [9] بن عبيد قال : حدثنا أبو ظبية عن عمرو بن العاص قال يوما ـ وقام رجل فأكثر القول ـ فقال عمرو : لو قصد في قوله لكان خيرا له سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لقد رأيت أو أُمرتُ أن أتجوز في القول فإن الجواز هوخير »[10] .

وعلى ضعف الحديث سندا لكن معناه ورد في الأحاديث الصحيحة التي تنهى عن « قيل وقال وكثرة السؤال » والتي نصف رسول الله ﷺ بندرة الكلام ، وإعادته ليفهم عنه والبلاغة الإيجاز وليست الأمثال التي تعلمها عمرو رضي الله عنه من رسول الله ﷺ إلا قمة البلاغة والايجاز فيها والتي صاغت العديد من الحوادث بالمثل الواحد أما هديه ﷺ في الكلام فكان كما روى أنس عنه « كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا حتى تفهم عنه »[11] و « كان كلامه فصلا يفهمه كل من سمعه » [12] .

---

(١) صدوق من التاسعة .
(٢) صدو ق حسن الحديث .
(٣) صدوق من الثالثة وهو حجاج بن ناصر .
(٤) مسند أحمد ٢٠٣/٤ .
(٥) صدوق رمي بالنصب .
(٦) عابوا عليه روايته عن ابيه ولم يره .
(٧) صدوق في روايته عن اهل بلده .
(٨) صدوق مبهم .
(٩) مقبول من الثانية .
(١٠) الحديث ضعيف لأكثر من علة .
(١١) رواه البخاري وأحمد والترمذي .
(١٢) أخرجه أبو داود عن عائشة وقد حسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير .

١٥ ـ الولاية لله وصالح المؤمنين :

والصلاح والتقوى هو ميزان الولاية لرسوله وليس النسب والقربى فإذا كان النسب مع الصلاح والتقوى فتلك الحسنى وزيادة أما النسب بدون صلاح فالبراءة منه هي الأصل : (حدثنا عمرو بن عباس حدثنا محمد بن جعفر حدثنا سشعبة عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم أن عمرو بن العاص قال : سمعت النبي ﷺ جهاراً غير سر يقول : « إن آل أبي (قال عمرو في كتاب محمد بن جعفر بياض) ليسوا بأوليائي إنما وليي الله وصالح المؤمنين » زاد عنبسة بن عبد الواحد عن بيان عن قيس عن عمرو بن العاص قال : سمعت النبي ﷺ « ... ولكن لهم رحم أبلهما ببلالهما » يعني أصلها بصلتها قال ابو عبد الله ببلاها هكذا وقع وببلالهاأجود وأصح وببلاها لا أعرف له وجها)[1] .

هذه رواية البخاري أما رواية مسلم (سمعت رسول الله ﷺ جهارا غير سر يقول : « ألا إن آل أبي (يعني فلانا) ليسوا لي بأولياء إنما وليي الله وصالح المؤمنين)[2] .

حيث شرحت البياض الموجو في صحيح البخاري يقول الراوي يعني فلانا أي آل أبي فلان وجاءت في رواية أحمد صريحة (عن عمر بن العاص قال : سمعت رسول الله ﷺ جهارا غير سر يقول : « إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء إنما ولي الله وصالح المؤمنين » [3] .

---

(١) البخاري ك الأدب ٣/٧/٧ .

(٢) مسلم ١/١٩٧ ح ٣٦٦ ـ ٢١٥ .

(٣) مسند أحمد ٤/٢٠٣ .

ولعل عَمْرًا رضي الله عنه قد أبهم اسم هؤلاء الآل قصدا حتى لا يشنع عليهم (قال النووي : هذه الكناية من بعض الرواة خشي أن يصرح بالاسم فيترتب عليه مفسدة اما في حق نفسه أوحق غيره واما معا)[1] لكن المهم هو أن حق الرحم قائمة لكن الولاية مع غير الاسلام مرفوضة حيث يشرح الحافظ ابن حجر رحمه الله هذا المعنى بقوله : . فنقل ابن السني عن الداودي ان المراد بهذا النفي من لم يسلم منهم أي فهو من إطلاق الكل وإرادة البعض والنفي على هذا المجموع لا الجمع)[2] كما شرح لنا صلة الرحم بقوله (والبلال بمعنى البلل وهو النداوة وأطلق ذلك على الصلة كما أطلق اليبس على القطيعة لأن النداوة من شأنها تجميع ما يحصل فيها وتأليفه بخلاف اليبس فان من شأنه التفريق)[3] .

١٦ ـ ومع هذا فالولاية في قريش :

وكا روى عمرو بن العاص رضي الله عنه لنا هذا الحديث في الولاية في الله وصالح المؤمنين لم يمنع هذا الأمر العام من تخصيص قريش بولاية الناس وقيادتهم في الخير والشر .

(حدثنا حسين بن محمد البصري حدثنا خالد بن الحارث حدثنا شعبة عن حبيب بن الزبير قال : سمعت عبد الله بن أبي الهذيل يقول : كان ناس من ربيعة عند عمرو بن العاص فقال رجل من بكر بن وائل لتنتهين قريش أو ليجعلن الله هذا الأمر في جمهور من العرب فقال عمر بن العاص : كذبت سمعت رسول الله ﷺ يقول : قريش ولاة الناس في الخيروالشر الى يوم القيامة »[4] .

---

(١) فتح ا لباري شرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر ١٠/٤٢٠ .

(٢) المصدر نفسه /٤٢٠ .

(٣) المصدرنفسه /٤٢٢ .

(٤) سنن الترمذي ٤/٤/٥ ح ٢٢٧ ، وفيه : قال ابو عيسى : وفي الباب عن ابن مسعود وابن عمر وجابر وهذا حديث حسن غريب صحيح .

ورواية أحمـد لا تختلف بـشيء عن رواية الترمـذي وتؤكد أن ا لخـلافة في قريش والأحاديث الأخرى الكثيرة والصـحيحة تؤكد هذا المعنى أبرارها أمراء على أبرارها وفجارها أمراء على فجـارها ، ولئن طغت قريش وبغت فإنما تحمل وزر هذا الطغيـان لكن لا تنزع منها الخلافة وهي عـقيدة أهل السنة والجمـاعة وهي الأرجح مقابل الرأي الآخر الذي لا يشترط فيها ذلك بدليل لحديث الصحيح :

« وولي عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة ما أقام فيكم كتاب الله » .

وهذا يعني أن الإمرة الخاصة تكون لكل الناس بشروطها المعهودة بغض النظر عن أنسابهم .

١٦ ـ مع عمار بن ياسر رضي الله عنه :

ثلاثة أحـاديث يرويها عـمرورضي الله عـنه لنا عن فضل عـمار بن ياسـر مع أنهما كان خصمين متحاربين فيمـا بعد فقد كان عمرو مع معاويةرضي الله عنهما ، وكـان عــمـار مع علي رضي اللـه عنهـمـا وسـندع الخـوص في تفـاصـيل هذه الأحاديث إلى وقتها المناسب حين نتحدث عن الفـتنة لكننا هنا نشهد عظمة عمرو الذي لا يجد حرجا في أن يـقدم أعظم الثناء وأعطره على أكبر خصومـه ويقدمها شهادة من رسول الله ﷺ .

أ ـ حب رسول الله ﷺ لعمار :

(حدثنا عـفان حدثنا الأسـود بن شيبـان قال حدثنا أبو نوفل بن أبي عـقرب قال : جزع عمر بن العاص عند الموت جـزعا شديدا فلمارأى ذلك ابنه عبد الله بن عـمـر قـال : يا أبا عـبـد الله مـا هذا الجـزع ، وقـد كـان رسـول الله ﷺ يدنـيك ويستعملك ؟ قال : أي بني ! قد كـان ذلك وسأخبرك عن ذلك إني والله ما أدري

أحبـا ذلك أم تألفاً يتـألـفني ولكني أشـهـد على رجلـين أنه قـد فـارق الدنيـا وهو يحبهما، إبن سمية وابن أم عبد)[1] .

وفي الحديث الآخر يصرح باسمهما وهي رواية ثانية عند أحمد .

حدثنا أسـود بن عامر قال ثنا يعني ابن حـازم قال : سمعت الحـسن قال قال رجل لعمروبن العـاص : أرأيت رجلا مات رسول الله ﷺ وهو يحبـه أليس رجلا صالحا ؟ قال :بلى . قـال : قد مـات رسول الله ﷺ وهويحبك وقد استعملك . فـقال : قـد استـعملنـي فوالله مـا أدري أحـبـا كان لي منـه أو استـعـانة بي ولكن سأحدثك برجلين مات رسول الله ﷺ وهو يحبهما ، عبـد الله بن مسعود وعمار بن ياسر)[2] .

ويدلنا الحديث من طرف آخـر غير مـوضوعيـة عمرو ونزاهتـه وتجرده ، يدلنا على تواضعـه وتذلله وبعده عن المباهاه ولاعـجب حين يقول : (ما أدري أحـبا لي ذلك أم تألفا وفي الرواية الثـانية (أحبًا كـان له مني ام استعانة بي) حـتى لا يأخذه الغرور بذلك ومن يدري بهذا الأمر أحد الا هو عند ربه عز وجل .

ب ـ قاتل عمار وسالبه في النار :

حدثناعفان قال : حدثنا حمـاد بن سلمة قال : أخبرنا أبو حفص وكلثوم بن جبير عن أبـي غادبة قال : قُتل عمار بن ياسـر فأخبر عمرو بن العـاص قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن قاتله وسالبه في النار » فقيل لعمرو فإنك هو ذا تقاتله :

---

(١) مسنـد أحمد ٤/٢٠٠ وقـال الهيـثمي في مـجمع الزوائد /٩/٢٩٠ رواه أحـمد والطبرانـي إلا أنه قال : مات الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهما راض ورجال أحمد رجال الصحيح .

(٢) مسند أحمد ٤/٢٠٣ .

قال : إنما قال قـاتله وسالبه) (١) وعن عبـد الله بن عمـرو أن رجلين أتيا عـمرو بن العاص يختـصمان في دم عمار وسلبه فـقال عمرو : خليا عنه فإني سـمعت رسول الله ﷺ يقول : قاتل عمار وسالبه في النار »(٢) واقترب الخطر أكثرومع ذلك فلم ينثن عـمـر رضي الله عنه عـن نقل هذا الحـديث وهو يعلم أن عـمـارا انما كـان في جيش علي يقاتل عمـرا ومعاوية حتى أحرجه المستمع فـقال له : فإنك هو ذا تقاتله ليكون هو المتـهم في القـضـية وصـحـحهـا بقـوله رضي الله عنه : « انما قـال قـاتله وسالبه» وهذا يعني أنه لم يقل مقاتله وهذا المستوى من التجرد والموضوعية لن نجده إلا في هذا الجيل الرائد . فمـا الذي يضطره لأن يعلن هذا على الملأ وهو في أعنف معركة يخوضها مع علي رضي الله عنه وصحبه .

جـ ـ تقتله الفئة الباغية :

وإذا كان الحـديث السابق يـكاد يمسه أمـا الحديث فهـوهنا يمسـه بلااخلاف وليس الحديث هنا عن القـاتل والسالب انما الحديث عن الفـئة كلها التي كـان منها القاتل فإذا كـان القاتل في النار فالفئة التي ينتمي اليـهاهي الفئة الباغـية وقد أقضت هذه القضـية مضـجع عمرو عندمـا رأى عمار يقتل فـي المعركة نفسـهـا وكثـير من الصحـابةكانوا ينتظرون مـقتل عمـار ليحـددوا موقفـهم على ضوئه وها هو عـمرو رضي الله عنه ينقل لنا الحديث نفسه : (حدثنا عبـد الرزاق قال . حدثنا معمر عن ابن طاوس عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه قال : لما قتل عمار بن ياسر دخل عمرو بن حزم على عمرو بن العاص فقال قتل عمار وقد قال رسول الله ﷺ :« تقتله الفئة الباغية فقام عـمرو بن العاص فزعا يرجع حتى دخل على معاوية

---

(١) مسند أحمد ١٩٨/٤ .

(٢) مجمع الزوائد ٢٩٧/٩ وقال فيه رواه الطبراني ، وقد حدث لبث بالتحديث ورجاله رجال الصحيح .

فقال له معاوية ما شأنك قال : قُتل عمار فقال له معاوية : قد قتل عمار فماذا ؟ قال عمرو : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « تقتله الفئة الباغية » فقال له معاوية: دحضت في بولك أونحن قتلناه ؟! إنما قتله علي وأصحابه جاؤوا به حتى القوه بين رماحنا أو (بين سيوفنا)[1] (حدثنا محمد بن جعفر وحجاج قالا حدثنا شعبة أخبرنا عمروبن دينارعن رجل من أهل مصريحدث أن عمرو بن العاص أهدى إلى ناس هدايا ففضل عمار بن ياسر فقيل له فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : تقتله الفئة الباغية)[2] .

وأدرك عمرو بن العاص رضي الله عنه خطورة هذا الحديث الذي يمسه مباشرة ويمس الفئة التي يقاتل عمر ومعها أنها الفئة الباغية ففزع وترجع ثم خطط بعدها لانهاء المعركة فيما سندرسه بالتفصيل فميابعد وكمانرى في الحديث الثاني فقد حافظ عمرو رضي الله عنه على وُدِّ عمار وتخصيصه بالهدبة الأغلى لأنه سمع عنه هذا الوصف .

١٧ - يجبر على المسلمين أدناهم :

ووقع محمد بن أبي بكررضي الله عنهما أسيرا بيد عمر بن العاص اذ كان والي مصر لعلي وحرص على حياته يسأله إن كان أحد قد أجاره في الوقت الذي يحرص محمد بن أبي بكرعلى الشهادة فلايدعي شيئا من ذلك وبأبى اجارة أحد.

(حدثنا محمد بن جعفر وحجاج قالا حدثنا شعبة عن عمرو بن دينار عن جل من أهل مصر يحدث عن عمرو بن العاص أنه قال : أُسر محمد بن أبي بكر فأبى ، فجعل عمرو يسأله يعجبه أن يدعي أمانا قال فقال عمرو قال رسول الله ﷺ : يجير على المسلمين أدناهم)[3] .

---

(١) مسند أحمد ١٩٩/٤ ورجال أحمد رجال الصحيح وقال فيه محقق سير أعلام النبلاء ٤١٩/١ إسناده صحيح وقد روى الحديث البخاري في الصلاة (٤٤٧) ومسلم في الفتن (٢٩١٥) وغيرهم عن عدد كبير من الصحابة .

(٢) مسند أحمد ١٩٧/٤ .

(٣) مسند أحمد ١٩٧/٤ وقال الهيثمي فيه ٣٢٩/٥ راه أحمد وأبو يعلي والطبراني وفيه رجل لم يسمه وبقية رجال أحمد رجال الصحيح .

١٨ ـ إذا حكم الحاكم فاجتهد :

وقد روت الكتب الستة عدا الترمذي هذا الحديث عن عمرو بن العاص رضي الله عنه كما رووا مثله عن أبي سلمة عن أبي هريرة (حدثنا عبد الله بن يزيد المقرىء المكي ، حدثنا خبوة بن شريح حدثنا يزيد بن عبد الله بن الهاد عن محمد بن إبراهيم ابن الحارث عن بسر بن سعيد عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص عن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر » .

قال : فحدثنت بهذا الحديث أبا بكربن عمرو بن حزم فقال : هكذا حدثني أبوسلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة ، وقال عبد العزيز بن المطلب بن عبد الله بن أبي بكرعن أبي سلمة عن النبي ﷺ مثله)[١] .

وفي حديث آخر عند أحمد بأمر رسول الله ﷺ عمرا أن يحكم بين المتخاصمين ليؤهله ويدربه على حكم الأمة فيمابعد وسياستها بهذا الدين .

(حدثنا أبو النضر قال ثنا الفرج قال / ثنا محمد بن عبد الأعلى عن أبيه عن عبد الله بن عمرو عن عمر بن العاص قال : جاء رسول الله ﷺ خصمان يختصمان فقال لعمرو : اقض بينهما يا عمرو فقال : أنت أولى بذلك مني يا رسول الله قال : « وإن كان » قال : فإذا قضيت بينهما فما لي ؟ قال : « إن أنت قضيت بينهما فأصبت القضاء فلك عشر حسنات . وإن انت اجتهدت فأخطأت فلك حسنة »[٢] حدثناهاشم قال ثناالفرج عن ربيعة بن يزيد عن عقبة بن عامر

---

(١) صحيح البخاري ١٣٢/٦/٣ باب اجر الحاكم اذا اجتهد وأخرجه مسلم في الأقضية (٣٠٤٠) وابن ماجه في الأحكام (٢٣٠٥) وأحمد في مسند المكثرين من الصحابة (٦٤٦٦) وفي مسند الشاميين (١٧١٠٦ - ١٧١٤٨) .

(٢) مسند أحمد ٢٠٥/٤ .

عن النبي ﷺ مثله غير أنه قال : « فإن اجتهدت فأصبت القضاء فلك عشرة اجور وان اجتهدت فأخطأت فلك أجرواحد »[1] وهذايعني أن عمرا هو من أهل الاجتهاد ولولا ذلك لما أمره رسول الله ﷺ بذلك لأن الذي يقضي بدون علم لا يدخل ضمن هذين النصبين كما في الحديث الذي رواه الأربعة عن بريدة قال : القضاة ثلاثة ، اثنان في النار وواحد في الجنة رجل علم الحق فقضى به فهوفي الجنة ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار ورجل عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار) [2] .

والحديث الذي رواه الطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما .

(القضاة ثلاثة : قاضيان في النار ، وقاضي في الجنة قاضي قضى بالهوى فهو في النار ، وقاض قضى بغير فهو في النار ، وقاض قضى بالحق فهو في الجنة) [3] .

وتحرج عمرو رضي الله عنه عن القضاء بين يدي نبيه ﷺ انما هوخشية الزلل والأثم والتقدم بين يدي رسول الله عليه الصلاة والسلام ولم يقدم على الحكم حتى سأل حبيبه المصطفى عمّاله عند الله ان قضى فكان الجواب أجران عند الاصابة وأجر عند الخطأ ، وفي الرواية الثانية عشر أجور إن أصاب الحق وأجر واحد إن أخطأه وها نحن الان نودع عَمْراً التلميذ وخريج مدرسة النبوة لنمضي بعدها مع الوالي والقائد والأمير والداعية فيما بعد .

---

(١) وقال الهيثمي في المجمع ١٩٥/٤ ورواه الإمام أحمد باسناد رجاله رجال الصحيح .

(٢) صحيح الجامع الصغير ١٥١/٤ .

(٣) المصدر نفسه / ١٥١ .

من عُمان إلى المدينة إلى قضاعة

تركنا عمرارضي الله عه يذرف الدموع الغزار على وفاة حبيبه المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ويتلقى التعزية من الأسقف والرهبان معه ، ويستمع إلى كتبهم وهي تتحدث عن هذا الجيل الخالد في البشرية ، وعن صاحبي رسول الله ﷺ ورأى أنه لا خيارله من العودة الى المدينة يتعرف على أوضاع المسلمين وأحوالهم بعد وفاة قائدهم ﷺ وولاية خليفته أبي بكر الصديق وأخذ يشم رائحة الردة عن الإسلام تبرز هنا وهناك وتتناقض الأخبار عن أحوال العرب بعد وفاة رسول الله رب العالمين .

(وكان مجفية بن النعمان العتكي شاعر الأزد - وكان النبي ﷺ أمرّ عليهم عمرو بن العاص - فلما مات وارتدت العرب فخشي عمرو بن العاص أن يرتدوا فاستأذنهم في الرجوع الى المدينة فقال له مجفية :

يا عمرو ان كان النبي محمدا قد آتى به الأمرالذي لا يدفع

فقلوبنا قرحى وماء ودموعنا جارٍ وأعناق البرية تخضع

يا عمرو إن حياته كوفاته فينا وننظر ما يقول ويسمع

فأقم فإنك لا تخاف رجوعنا يا عمرو ذاك هو الأعز الأمنع[1]

وقُرّت عين عمرو بهذه العواطف الجياشة والايمان المتوقد عند الشاعر الأزدي العماني غير أن بصيرته النافذة وخبرته في الحياة والرجال توحي له بعكس ذلك فشكر للشاعر صدقه وايمانه وبقي مصرا على الاستئذان من جيفر وعبد في العودة إلى ا لمدينة .

(١) الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ٤٥/٦/٣ ت ٧٧٢٦ .

وعندما رأيا إصراره على المضي ودَّعوه بعيون ودموع حرىّ عبَّر شاعرهم عنها عقبة بن النعمان العتكي اذ يقول :

وفينا وفينا يفيض الوفاء   وفينا يفرخ أفراخه

كذاك الوفاء يزين الرجال   كما زين الصدق شمراخه

وفينا لعمر وقلنا له   وقد نفخ الرأي نفاخه (١)

ويقول كذلك :

وفينا لعمرو يوم عمرو كأنه   طريد نفته مذحج والسكاسك

رسول رسول الله أعظِم بحقه   علينا ومن لا يعرف الحق هالك

ونحن أناس يأمن الجاروسطنا   إذا كان يوم كاسف الشمس هالك(٢)

ولم يكتفيا بذلك بل جند له سبعين فارسا ليرافقوه في رحلته إلى المدينة حيث عليه أن يقطع الجزيرة العربية كلها من أقصاها إلى أقصاها ، من مشرقها لمغربها وسط هذا البحر المتلاطم من الشرك .

المحطة الأولى :

وكانت المحطة الأولى له في أقرب قطر إسلامي في البحرين عند المنذر بن ساوى رضي الله عنه والذي كان يعاني من سكرات الموت . وذكر أبوجعفر الطبري أن المنذر هذا مات بالقرب من وفاة النبي ﷺ وحضره عمرو بن العاص . فقال له : كم جعل النبي ﷺ للميت من ماله عند الموت ؟

قال : الثلث

قال : فماترى أن أصنع بثلثي .

---

(١) المصدر نفسه ٣/٥/١١٠ ت ٦٤٣٥ .

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ٣/٥/١١٠ ت ٦٤٣٤ .

قال : إن شئت قسمته في سبيل الخير وإن شئت جعلته تجري غلته على من شئت بعدك .

قال : ما أحب أن أجعل شيئا من مالي كالسائبة ولكني أقسمه)[1] .

وما ندري لعله شيعه إلى مثواه الأخير ، ثم تابع رحلته في هذه البيد حيث نزل على أخطر المتنبئين مسيلمة الكذاب بن الحنفي .

المحطة الثانية :

وما كان له أن ينزل في اليمامة عند مسيلمة إلا بعد أن يأخذ أمانا لنفسه فشخصيته الحذرة التي تبصر عواقب الأمور تجعله يعد لكل أمرعدته .

(قال عمرو : فأقبلت حتى مررت على مسيلمة فأعطاني الأمان ثم قال : إن محمدا أرسل في جسيم الأمور وأرسلت في المحقرات . قلت : اعرض علي ما تقول . فقال :

يا ضفدع نقي ماتنقين لا واردا تنخرين ولا ما تكدرين ثم قال : ياوبر ، ياوبر صدر وشأن خلقه حقر حقر .

ثم أتي بأناس يختصمون اليه في نخلات قطعها بعضهم لبعض فتسجا بقطيفة ثم كشف رأسه ثم قال : والليل الأدهم ، والذئب الأصحم ما جاء ابن أبي مسلم من محرم .

ثم تسجا الثانية فقال والليل الدامس والذئب الهامس ما حرمته رطب إلا كحرمته يابس قوموا فلا أرى علكيم في ما صنعتم بأسا)[2] .

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ١٣٩/٦/٣ ت ٨٢١٢ .

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ١٣ / ٥٠٩ مخطوط .

وأدرك عـمرو رضي الله عـنه أن هذا المتنبئ التـافه الذي يتـطاول على مقـام النبوة . وقد غرر بقومه وعشيرته ، أدرك أن علـيه واجبا ضخما في قول كلمة الحق ولكنه يعـرض نفسـه للموت وهـو وحده عند مـسيلمـة ولو كان مـعه وفـد عمـان السبعـون فماذا يفعلون أمـام مدينة اليمامـة وسكانها بني حنيفة لقـد كان عنده من جرأة القلب وعـظمة الثقـة بنفسه مـا يدفعـه لأن يقول الحق لا يهاب فـي الله لومة لائم .

قال عمرو : أما والله إنك لكاذب وإنا لنعلم أنك لمن الكاذبين) .

كان بين يديه وفي مجلسـه سيد بني عامر بن صـعصعة ، قرة بن هبـيرة وقام مسيلمة فتوعد عَمْراً وهدده وشارك قرة في الحديث قائلا كما يروي عمرو .

(فتوعدني ، ثم قال لي قرة بن هبيرة : مافعل صاحبكم ؟

قلت : إن الله اختار له ماعنده على ما عندنا

قال لا أصدق أحدا منكم بعده)[1] .

المحطة الثالثة :

وكانت عند قرة بن هبيرة نفسه في ديار بني عامربن صعصعة أعز العرب .

(حدثنا السـري قال : حدثنا شعـيب عن سيف عن هشام بن عـروة عن أبيه قال : نزل عـمرو بن العاص منصرفـه من عُمان بعد وفـاة رسول الله ﷺ بقـرة بن هبيرة بن سلـمة بن قشير وحـوله عسكر من بني عامرمن أفنائهـم ، فذبح له وأكرم مثواه . فلما أراد الرحلة خلا به قرة فقال :

يا هذا ، إن العرب لا تطيب لكم نفسا بالأتاوة فإن أنتم أغضيتموها من أخذ أموالها تسمع لكم وتطيع وان أبيتم فلا أرى أن تجتمع عليكم .

فقال عمرو : أكفرت يا قرة !

---

(١) تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر ١٣ / ٥٠٩ .

وحولـه بنو عامـر ، فكره أن يبوح بمتـابعتـهـم (أي المسلمين) فيكـفروا (أي قومـه) بمتابعتـه (للمسلمين فينفـر في شر . فقـال : لنردنكم الى فئتكم وكان من أمره الإسلام اجـعلوا بيننا وبينكم موعدا) كـان لا بد لقرة أن يحافظ على زعـامته لقومـه دون أن يواجه المسلمين وكان على عـمرو موقفـه آخر أرهب من موقـفه في بني حنيـفة . كان عليـه أن ينقل له عظمة الإسـلام ورجال الإسـلام في وكره وفي عرينه وبين قومه ، وأي بطل يجرؤ على مـثل هذا الموقف غيرعمرو بن العاص الذي يملك من شجاعة القلب ما يتصاغر أمامه الأبطال العظام هووحده . وفي أرض بني عامروديارها ، ها هو يواجه سيد بني عامرقرة بن هبيرة قائلا له .

(فقال عمرو : أتوعدنا بالعرب[1] وتخوفنا بها ! موعدك حفش[2] أمك ؛ فوالله لأوطئن عليك الخيل)[3] .

المحطة الثالثة المدينة :

قال الـطبري حـدثنا السري قـال حدثنا شـعيب عن سـيف عن الحجـاج عن عمرو بن شعيب قال :

(... مات رسـول الله ﷺ وعمرو بعُمان . فأقبل حتى انتهى إلى البحرين وجـد المنذر ابن سـاوى في الموت فـقـال لـه المـنذر : أشـر علي في مـالي بأمـر لي

---

(١) روى الطبري قال حدثنا حميد قال حدثنا سلمة قال عن ابن اسحاق قال : لما فرغ خالد من أمر بني عامر وبيتهم على ما بايعـهم عليه أوثق عبيينه بن حصن وقـرة بن هبيرة فبعث بهما الى أبي بكر فلمـا قدما عليه قال له قـرة : يا خليفة رسـول الله اني قد كنت مسلمـا ولي من ذلك على إسلامي عند عمـرو بن العاص شهادة قد مر بي فأكرمته وقربته ومنعته قال فدعا أبو بكر عمرو بن العاص ، فقال ما تعلم من أمر هذا ؟؟ قص عليه الخبر حتى انتهى الى ما قاله من أمـر الصدقة . قال له قرة : حسبك رحمك الله . قال : لا والله حتى أبلغ كل ما قلت فبلغ له فتجاوز عنه أبو بكر وحقن له دمه الطبري ٣/٢٦٠ .

(٢) حفش أمك : حقيبة المرأة تضع فيها زينتها يريد تحقيره .

(٣) تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري ٣ / ٢٥٩ .

ولاعلي . قال (صدّق بعقار صدقه تجري من بعدك ففعل ، ثم خرج من عنده فسار في بني تميم ثم خرج منها إلى بلاد بني عامر . فنزل على قرة بن هبيرة ، وقرة يقدم رجلا ويؤخر رجلا وعلى ذلك بنو عامر إلا خواص ثم سارحتى قدم المدينة فأطافت به قريش وسألوه ، فأخبرهم أن العساكرمعسكرة من دبا إلى حيث انتهيت إليكم ...) .

فقد كان رائدا لقومه ولو كان مبعوثا خاصة لهذه المهمة بحيث يتنقل بين القبائل العربية كلها ويأتي بخبرها لمافعل أكثر مما فعله ووضع المسلمين في صورة الأمر الواقع فالجزيرة تموج بالردة والشرك من عمان الى المدينة وسمع عمر بن الخطاب بمقدم عمرو فهرول يسلم عليه ويسأله عن أمر المسلمين .

(... فتفرقوا وتحلقوا حلقا وأقبل عمر بن الخطاب يريد التسليم على عمرو، فمر بحلقة وهم في شي من الذين سمعوا من عمرو وفي تلك الحلقة علي وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن وسعد ، فلما دنا عمر منهم سكتوا فقال : فيم أنتم ؟ فلم يحبيوه فقال « ما أعلمني بالذي خلوتم عليه فغضب طلحة وقال : والله يا بن الخطاب لتخبرنا بالغيب ؟!) .

وكاد الأمر أن يتوتر بين الأخوين القائدين لكن عُمَرَ تلافاه قائلا

(... قال : لا يعلم الغيب الا الله ولكن أظن قلتم : ما أخوفنا علي قريش من العرب وأخلقهم [1] ألا يقروا بهذا الأمر قالوا : صدقت) .

وينظر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعين بصيرته إلى الأفق البعيد . وقد ارتسم في ذهنه على هذا الأفق تمكين الله لدينه في الأرض . وتمكين الخلافة

(١) أخلقهم: أجدرهم .

لقريش كما قال عليه الصلاة والسلام وستكون سلامة الأمة بوحدة كلمة قريش فلا خوف بعدها على الأمة من شيء .

(قال .. فلا تخافوا هذه المنزلة ، أنا والله منكم على العرب أخوف مني من العرب عليكم ، والله لو تدخلون معاشر قريش جحرا لدخلته العرب في آثاركم فاتقوا الله فيهم) .

وصدق الفاروق فما تمزقت الأمة إلا عندما اختلفت قريش وعندما اختلف هؤلاء النفر الذين هم صفوة الأمة وقادتها علي وعثمان وطلحة والزبير وعبدالرحمن وسعد وعمرو بن العاص) .

(... ومضى إلى عمرو فسلم عليه ثم انصرف إلى أبي بكر)[1] .

أحد القواد الأحد عشر :

والتقى عمرو رضي الله عنه بالخليفة الصديق وبايعه ورحب بوفد الحراسة العماني الذي رافقه من عُمان الى المدينة واستمع الصديق إلى صورة الجزيرة العربية كاملة كماعرضها عمرو بن العاص بصفته شاهد عيان وليس راء كمن سمعا وشمَّر الصدِّيق عن ساعد الجد وصمم على رمي هؤلاء المرتدين بعظماء الأمة وقادتها يدعونهم الى الإسلام أو القتل .

(حدثنا السري قال ، حدثنا شعيب ، عن سيف عن سهل بن يوسف ، عن القاسم بن محمد قال: لما أراح أسامة وجنده ظهرهم وجموا . وقد جاءت صدقات كثيرة تفضل عنهم قطع أبوبكر البعوث وعقد الألوية عقد أحد عشر لواء: عقد لخالد بن الوليد وأمره بطليحة بن خويلد فإذا فرغ سارالى مالك بن نويرة

---

(١) تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري ٢ / ٢٥٨ - ٢٥٩ .

بالبطاح إن أقام له ولعكرمة بن أبي جهل وأمرة بمسيلمة وللمهاجر بن أبي أمية وأمره بجنود العنسي ومعونة الأبناء على قيس بن مكشوح المرادي ومن أعانه من أهل اليمن علهيم ، ثم يمضي إلى كندة بحضر موت ولخالد بن سعيد بن العاص وكان قدم على تفيئة[1] ذلك من اليمن وترك عمله وبعثه الى الحمقتين من مشارف الشام ولعمرو بن العاص إلى جماع قضاعة ووديعة والحارث ولحذيفة بن محصن الغلفاني وأمره بأهل دبا ، ولعرفجة بن هرثمة وأمره بمهرة وأمرهما أن يجتمعا كل واحد منهما في عمله على صاحبه ، وبعث شرحبيل بن حسنة في أثرعكرمة بن أبي جهل . وقال : إذا فرغ من اليمامة فالحق بقضاعة وأنت على خيلك تقاتل أهل الردة . ولطريفة بن حاجز وأمره ببني سليم ومن معهم من هوازن ولسويد بن مقرن وأمره بتهامة اليمن وللعلاء بن الحضرمي وأمره بالبحرين)[2] .

هؤلاء القادة الأحد عشر وضع لهم الصديق رضي الله عنه منهجا لمسيرتهم، وخطابًا لمن يقاتلونهم قبل وقتالهم يقرأ عليهم ليعلم الناس ان الحرب حرب عقيدة ودين وليست حرب عصبية قبلية أو جاهلية .

كتاب الخليفة الى المرتدين :

(ففصلت الأمراء من ذي ا لقصة ، ونزلوا على قصدهم ، فلحق كل أمير جنده وقد عهد اليهم عهده وكتب الى من بعث إليه من جميع المرتدين .

بسم الله الرحمن الرحيم من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ الى من بلغه كتابي هذا من عامة وخاصة أقام على إسلامه أورجع عنه سلام على من اتبع الهدى ولم يرجع بعد الهدى الى الضلالة والعمى . فإني أحمد اليكم الله الذي لا

---

(١) على تفيئة ذلك : حين ذلك .

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٣ / ٢٤٩ .

إله الا هو وأشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله نقر بما جاء به ، ونكفر من أبى ، ونجاهده أما بعد .

فإن الله تعالى أرسل محمدا بالحق من عنده إلى خلقه بشيرا ونذيرا وداعياً اليه باذنه وسراجاً منيراً ، لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين فهدى الله بالحق من أجاب إليه وضرب رسول الله ﷺ بإذنه من أدبر عنه حتى صار الى الإسلام طوعا أو كرها ثم توفى الله رسوله ﷺ وقد نفذ لأمر الله ونصح لأمته وقضى الذي عليه وكان الله قد بين له ذلك ولأهل الإسلام في الكتاب الذي أنزل فقال : ﴿ **انك ميت وانهم ميتون** ﴾ وقال ﴿ وماجعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون ﴾ وقال للمؤمنين ﴿ **وما محمد إلارسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين** ﴾ .

فمن كان إنما يعبد محمد أفإن محمداً قد مات ومن كان إنما يعبد الله وحده لا شريك فان الله له بالمرصاد حي قيوم لا يموت ولا تأخذه سنة ولا نوم حافظ لأمره منتقم من عدوه يجزيه واني أوصيكم بتقوى الله وحظكم ونصيبكم من الله وماجاءكم به نبيكم ﷺ وأن تهتدوا بهداه وأن تعتصموا بدين الله فإن كل من لم يهده الله ضال وكل من لم يعافه مبتلى ، وكل من لم يعنه الله مخذول فمن هداه الله كان مهتديا ومن أضله كان ضالا قال الله تعالى : ﴿ **من يهده الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا** ﴾ ولم يقبل منه عمل في الدنيا حتى يقر به ولم يقبل منه في الآخرة صرف ولا عدل وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقر بالإسلام وعمل به ، اغترارا بالله ، وجهالة بأمره ، وإجابة للشيطان ، قال الله تعالى ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من**

الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا ﴾ وقال ﴿ **إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير** ﴾ وإني بعثت إليكم فلانا في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان وأمرته ألا يقاتل أحدا ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحا قُبِل منه وأعانه عليه ومن أبى أمرته أن يقاتله على ذلك ، ثم لا يبقى على أحد منهم قدر عليه وأن يحرقهم بالنار ويقتلهم كل قتلة وأن تسبى الذراري والنساء، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام ، فمن اتبعه فهو خير له ، ومن تركه فلن يعجز الله وقد أمرت رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم ؛ والداعية الأذان فإذا أذن المسلمون فأذنوا كفوا عنهم . وان لم يؤذنوا عاجلوهم وإذا أذنوا اسألوهم ما عليهم فان أبوا عاجلوهم وان أقروا قُبل منهم وحملهم على ما ينبغي لهم)[1] .

وقد حرصنا على نقله كله لنتعرف على طبيعة هذه الحرب المشبوبة المستعرة بين المرتدين والمسلمين وحيث أن عَمْراً رضي الله عنه أحد هؤلاء القادة فلا بد أن يتضح دوره داعية أولا ثم قائدا ثانيا في كل مهمة تلقى على عاتقه وقد خاض أعلى دورة تدريبية في حياة رسوله الحبيب ﷺ . دورة أركان حرب في غزوة ذات السلاسل وكان بشهادة رسوله من أكبر المتفوقين ودورة أركان دعوة فظفر بقلب الجلندي وابنيه وأهل عمان من ورائهما بحنكته وحكمنه وسياسته ودهائه وعقله وعلمه وها هو أبو بكررضي الله عنه يدعوه إلى ذات السلاسل ثانية إلى قضاعة التي مضى إليها في حياة حبيبه المصطفى ﷺ وكان أبو بكرالصديق خليفة رسول الله أحد جنوده .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك لابن جرير الطبري ٢/٢٥٠ - ٢٥١ .

إلى قضاعة :

وكانت قضاعة قد ارتدت بعد التحاق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى وكان عمرو قد حاربها في حياة النبي ﷺ في ذات السلاسل كما ذكرنا ذلك فلما أنفذ أبو بكر إلى قضاعة عمرا سارعمرو على رأس جيشه في الطريق الذي سلكه من قبل حتى وصل إلى بلاد قضاعة فأعمل السيف في رقابهم وغلبهم على أمرهم . فعادوا إلى الإسلام وعاد عمرو إلى المدينة المنورة حاملا لواء النصر وكان ذلك في السنة الحادية عشر الهجرية .

ولا نعرف شيئا عن تعداد جيش عمرو ، ولاعن تعداد مقاتلي قُضاعة ولا عن خطة عمرو في حرب المرتدين من قضاعة ويبدو أن التفوق العددي كان الى جانب المرتدين ، ولكن جيش عمروكان منظماً له هدف واضح وتسيطر عليه عقيدة واحدة وقيادة واحدة والجيش المنظم الذي يتحلى بالعقيدة الراسخة التي تشيع الانسجام الفكري في صفوفه ينتصر دوما على الجيش الكبير غير المنظم الذي لا يتحلى بالعقيدة يخلو من الانسجام الفكري)[1] .

انهى عمرو رضي الله عنه مهمته وقابل الصديق بعد نصره المؤزر ، وهو لا يزال يحن إلى قُضاعة التي خبرها والقبائل الأخرى التي عرفها في طريقه اليها . وكان رسول الله ﷺ قد ولى عَمْرًا رضي الله عنه قبل بعثه الى عُمان صدقات سعد هديم ومن لفها من جذام وحوس ثم استدعاه ﷺ للمهمة العسيرة التي لا يصلح لها الا هو . وهي مبعثه الى الجلندي ووعده أن يعيده الى عمله على ولايته التي كان عليها بعد عودته من عُمان لكن مهمته في عُمان استغرقت سنة كاملة من حياته حتى أنجز فيها مهمته داعية وحاكماً وادارياً واقتصادياً ناجحاً عاد ليرى

---

(١) سفراء النبي صلى الله عليه وسلم للواء الركن محمود شيت خطاب ٣٩٦.

مهمته العسكرية تنتظره نحو قضاعة فأداها قائدا عسكرياً فذاً وحقق انتصاره العظيم .

وكان الصديق رضي الله عنه حريصًا أشد الحرص على تنفيذ كل ما أمر رسول الله ﷺ ووعد به وهويعلم وعد رسول الله لعمرو بإعادته إلى ولايته التي خبر شؤونها في شمال الجزيرة فأعاده رضي الله عنه الى ولايته التي كان فيها من قبل والتي وعدها بها عليه الصلاة والسلام .

(وقد كان أبو بكر ردّ عمرو بن العاص على عمالة كان رسول الله ﷺ ولاه اياها من صدقات سعد بن هذيم وعذرة ومن لفها من جذام وحدس قبل ذهابه إلى عُمان وهوعلى عدة[1] من عملهم إذا هو رجع فانجز له ذلك أبو بكر)[2] .

وكان شريكه في مهمته الوليد بن عقبة وفي نوع من الإكرام والتقدير من خليفة رسول الله ﷺ لواليبه الجديدين على الصدقات عمرو والوليد ، خرج معهما يشيعهما ماشيا ويوصيهما بالمسؤولية التي انيطت بهما .

وقد كان أبوبكر شيعهما مبعثهما على الصدقة وأوصى كل واحد منهما بوصية واحدة : اتق الله في السر والعلانية فإنه من يتق الله يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب . ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا ، فإن تقوى الله خير ما تواصى به عباد الله إنك في سبيل من سبل الله لا يسعك فيه الإذهان[3] والتفريط والغفلة عما فيه قوام دينكم وعصمة أمركم فلاتن ولا تفتر)[4].

---

(١) على عدة من عملك على وعد بأن يعود إلى عمله بعد عودته من عمان فأنجز أبو بكر وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٢) تاريخ الطبري ٣ / ٣٨٩ .

(٣) الإذهان : اللهو والتفريط .

(٤) فلا تن : فلا تضعف .

وكان لـوصية الـصديق أبلغ الأثر عند عـمرو رضي الله عنه وهي مـنسجـمة تماما مع طبيعته وحذره ويقظته . وتقوى الله تعالى والوصية فيه تعني دائما إخلاص القلب لله والخلوص من حظوظ الـنفس ورغبـتهـا في السلطة والحكم إلا أن يكون لتنفيذ شـريعة الله كما قـال له الصديق : إنك في سبيل من سـبل الله . ومضى مع رعـيتـه يدعوهم إلى الله عـز وجل ، ويستـحثـهم على الصـدقات ، ويهـديهم بنور كـتاب الـله وسنة رسـوله ليزدادوا ايمـانا مع إيمانهم ، ولكنه لا يزال مـشـتت الفكر مـبلبل الخاطر حـول الأرض التي ماجت بالـردة وقد شـرفه الله تعـالى بانهائهـا في قُضاعـة وها هو على بعض قضاعة وجـذام وحدس وقد استتب فـيها الأمن ودانت لدولة الإسلام ونفسه تتوق الى مهمة أخرى أوسع من نطاق هذه القبائل وأبعد أثرا في خدمة دين الله فما لبث أن جاءه ولشريكه الوليد بن عقبة الرسالة العاجلة التالية المختصرة الموجزة .

(استخلفا على أعمالكما ، واندبا من بليكما)[1] .

فتـفاعلت نفسـه مع هذه الأوامر الجديدة وراح يبث في الناس روح الجـهاد ويدعـوهم الى التطوع له ودرب أحـد أبناء هذه القـبائل ليكون خليفـة له في هذه الأرض ولبث ينتظر على أحـر من الجمـر الأوامر الجديدة وأعلن الـتعبـئة العـامة في جنده .

(فولّى عمرو على عليا قضاعة عـمرو بن فلان العذري وولى الوليد بن عقبة على ضاحـية قضاعـة مما يلي دومة امرأ القـيس وندبا الناس فتنام اليهـما بشر كثـير وانتظرا أمر أبي بكر)[2] .

---

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبري ٣ / ٣٩٠ .

(٢) المصدر نفسه / ٣٩٠ .

وقضاعة من الضخامة والكثرة بحيث ذكرها النسابة أنها ثالث فروع العرب الضخمة عدنان وقحطان وقضاعة كما يذكر ابن حزم في الجمهرة (جميع العرب يرجعون إلى ولد ثلاثة رجال وهم عدنان وقحطان وقضاعة) (١) . ويقول : (وبلاد قضاعة متصلة بالشام وببلاد اليونان والأمم التي بادت ممالكهم بغلبة الروم عليها ، وببلاد بني عدنان ولا تتصل ببلاد اليمن أصلا ووجدنا في كتب بطليموس وفي كتب العجم القديمة ذكر القضاعيين ونبذة عن أخبارهم وحروبهم فالله أعلم أهم أوائل قضاعة هذه وأسلافهم أم هم غيرهم (٢) فلا عجب ان نرى واليين لها هما عمرو والوليد وأن نرى فاتحين لها كذلك عند الردة هما عمرو وشرحبيل بن حسنة الذي أوصاه الصديق إن فرغ من معونة عكرمة ان يمضي الى قضاعة اذا تكاد تكون شمال الجزيرة كله منها .

ولا عجب أن ينتدب عمرو والوليد جيشان كبيران على أهبة الاستعداد للمواجهة والمضي في سبيل الله .

الشام تؤرق أبا بكر :

لم يكن في ذهن الصديق ابتداءً ان يفتتح جبهة الشام عليه قبل أن يفرغ من الجزيرة العربية ، وكان خالد بن سعيد بن العاص هو الشرارة التي أشعلت الحرب في الشام :

قال الطبري : (كتب الي السري عن شعيب عن سيف عن أبي إسحاق الشيباني عن أبي صفية التيمي تيم بن شيبان وطلحة عن المغيرة ومحمد عن ابي عثمان قالوا :

أمر أبو بكر خالدا بأن ينزل تيماء ؟ ففصل ردءاً حتى ينزل بتيماء وقد أمره أبوبكر أن لا يبرحها وأن يدعو من حوله للانضمام اليه وألا يقبل إلا ممن لم يرتد ،

(١) جمهرة أنساب العرب لابن حزم / ٧ .

(٢) المصدرنفسه / ٨ .

ولا يقاتل إلا من قاتله حتي يأتيه أمره . فأقام فاجتمع اليه جموع كثيرة وبلغ الروم عظم ذلك العسكر فضربوا على العرب الضاحية البعوث بالشام إليهم فكتب خالد ابن سعيد الى أبي بكر بذلك وبنزول من استنفرت الروم ، ونفر اليهم من بهراء وكلب وسليح وتنوخ ولخم وجذام وغسان من دون زيزاء بثلاث فكتب اليه أبو بكر : أن أقدم ولا تحجم واستنصر الله فسار إليهم خالد فلما دنا منهم تفرقوا وأعروا منزلهم فنزله ودخل عامة من كا ن تجمع له في الإسلام وكتب خالد إلى أبي بكر بذلك فكتب اليه أبو بكر . أقدم ولا تقتحم حتى لا تؤتى من خلفك فسار فيمن كان خرج معه من تيماء وفيمن لحق به من طرق الرمل حتى نزلوا فيما بين آبل وزبزاء والقسطل فسار اليه بطريق من بطارقة الروم يدعى باهان فهزمه وقتل جنده وكتب بذلك الى أبي بكر واستمده وقد قدم على أبي بكر أوائل مستنفري اليمن ومن بين مكة واليمن وفيهم ذو الكلاع وقدم عليه عكرمة قافلا وغازيا فيمن كان معه من تهامة وعُمان والبحرين والسرو فكتب لهم أبو بكر إلى أمراء الصدقات أن يبدلوا من استبدل فكلهم استبدل فسمي ذلك الجيش جيش البدال فقدموا على خالد بن سعيد ، وعند ذلك اهتاج أبو بكر للشام وعناه أمره)[1] .

وصمم الصديق بعد الدراسة الكاملة للساحة العربية أن يفتح جبهة الشام فراح يستعرض أعظم القادة العسكريين عنده . ليكونوا هم قادة الفتح فيها ووقع اختياره على أربعة قواد هم يزيد بن أبي سفيان ، وأمين الأمة أبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة وعمرو بن العاص .

رسالة تاريخية :

وكانت الرسالة التاريخية التي بعث بها الصديق رضي الله عنه الى عمرو بن العاص وهو واليه في سعد بن هذيم عذرة وبعض جذام وحدس وكان ان أبلغ ومع شريكه الوليد بن عقبة من قبل ان يعلنا التعبئة العامة عندهما كما ذكرنا ، ويُعيِّنا

(١) تاريخ ا لرسل والملوك لابن جرير الطبري ٣ / ٣٨٩ .

خلفا لهما في قضاعة ويستعدا لتلقي الأوامر الجديدة وعمرو كأنما يتقلب على جمر ينتظر الأوامر من الخليفة حيث جاءته الرسالة التالية بعد طويل انتظار .

(.. إني كنت قد رددتك على العمل الذي ولاكه رسول الله ﷺ مرة وسماكه لك أخرى مبعثك الى عُمان إنجازا لمواعيد رسول الله ﷺ فقد وليته ثم وليته وقد أحببت أبا عبد الله أن أقر عنك لما هو خير لك في حياتك ومعادك منه إلا أن يكون الذي أنت فيه أحب إليك)[1] .

وبمقدارما كان آسى رسالة تلقاها في حياته هي رسالة الصديق اليه في عُمان يوم أبلغه نبأ وفاة رسول الله ﷺ فكان أفجع خبرتلقاه في حياته بمقدار ما كانت هذه الرسالة أسعد نبأ وصلة في حياته حيث يرى ثقة الخليفة الصديق فيه والذي كان جنديا عنده ذات يوم وتعلم من رسول الله ﷺ ان الصديق أحب خلق الله إلى رسول الله ﷺ وكان اختيار المسلمين له خليفة هو أفضل اختيار .

لم يستطع عمرو رضي الله عنه أن يكتم ما يكنه من غبطة وفرح ورضا لهذا الاختيار فأعد هذا الجواب التاريخي الخالد للصديق فكان :

(فكتب اليه عمرو : إني سهم من سهام الإسلام ، وأنت بعد الله الرامي بها والجامع لها فانظر أشدها وأخشاها وأفضلها فارم به شيئا إن جاءك من ناحية من النواحي)[2] .

(وكتب الى الوليد بن عقبة بنحو ذلك فأجابه بايثار الجهاد)[3] .

ووفد عمرو والوليد بالجيوش التي عبآها للمواجهة وابتدأت مرحلة جديدة من تاريخ هذه الأمة يخطها عمرو بن العاص رضي الله عنه في أرض الشام في فلسطين .

---

(١) ، (٢) تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري ٣ / ٣٨٩ .
(٣) المصدر نفسه / ٣٨٩ .

عمرو بن العاص شريك في فتح الشام

الاتجاه الى الشام :

(وقـام أبو بكر في الناس خطيبـاً فحـمد للـه وأثنى عليه وصلى على رسـوله وقال :

ألا إن لكل أمـر جوامع ، فـمن بلغهـا فهـي حسـبه ومن عـمل لله كفـاه الله عليكم بالجد والقصد فإن القـصد أبلغ ألا إنه لا دين لأحد لا إيمان له ، ولا أجر لمن لا حسبة له ولا عمل لمن لا نية له ألا وأن في كتاب الله من الثواب على الجهاد في سبـيل الله لما ينبغي للمسلم أن يحـب أن يخص به هي التجارة التي دل الله عليـها ونجىّ بها من الخزي ، وألحق بها الكرامة في الدنيا والآخرة)[1] .

ولم يعد الأمرمجرد الايمان والإسلام للمسلمين بل لا بد من الجهاد في سبيل هذا الدين .

ويحدثنـا الرائد بسام العسلـي عن مؤتمر دعا له الصـديق قبـيل التوجـه للشام يقول عنه

(لم يكن الصـديق يقرر أمـراً يتعلق بالمسلمين ومـستـقبلهم دون أخـذ رأيهم وهو الذي شهد الرسول القائد ينزل عند رأي الصحابة إذ لم يكن في ذلك تشريع إلهي . ولهذا قـرر توجيه الدعـوة الى كبار الصـحابة من أنصار وومـهاجرين لعـقد مـؤتمريناقش فكرة غزو الشـام التزاما بالآية الكريمة وأمـرهم شـورى بينهم وحضـر الموتمر علي بن أبي طالب وعمر بـن الخطاب وعثمان بن عفان ، وعـبد الرحمن بن عوف ، وسـعد بن أبي وقـاص وسعـيد بن زيد وأبو عـبيـدة بن الجراح ،وعـمرو بن

---

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٣٩٠ .

سعيد ، وخالد بن الوليد ، وطلحة والزبير وغيرهم واستهل الصديق المؤتمر بقوله : « حمدا لله أن جمع كلمتكم وأصلح ذات بينكم وهداكم إلى الإسلام ونفى عنكم الشيطان فليس يطمع أن تشركوا به ولا تتخذوا الهـا غيره فالعرب اليوم بنو أب وأم وقدر رأيت ان استنفر المسلمين الى جهاد الروم بالشام ليؤيد الله المسلمين بحبل الله كلمته العليا مع أن للمسلمين في ذلك الحظ الأوفر لأنه من هلك هلك منهم شهيدا وما عند الله خير للأبرار ومن عاش عاش مدافعا عن الدين مستوجبا على الله الثواب . ووقف ابن الخطاب أول من وقف مؤيدا ومشجعا وتابع بقية الصحابة تأييدهم ومبايعتهم الصديق على مخططه وجاء دور عبد الرحمن بن عوف فوقف يقول :

يا خليفة رسول الله انها الروم وبنو الأصفر حد حديد وركن شديد ما أرى أن تقتحم عليهم اقتحاما ولكن تبعث الخيل فتغير في قواصي أرضهم ثم ترجع اليك واذا فعلوا ذلك مرارا وأضروا بهم وغنموا من أداني أرضهم فقعدوا بذلك عن عدوهم ثم تبعث الى أراضي اليمن وأقاصي ربيعة ومضر ثم تجمعهم جميعا إليك ثم ان شئت بعد ذلك غزوتهم بنفسك وان شئت أغزيتهم)[١] .

ونفذ الصديق رضي الله عنه رأي عبد الرحمن بن عوف في حشد القوات الإسلامية وتعبئتها من أقاصي الأرض العربية (وكانت طلائع القوات المستنفرة قد أخذت في الوصول إلى المدينة وكان في قوات اليمن .

قوات قبائل حميروفي مقدمتها ذو الكلاع الحميري .

(١) فن الحرب الإسلامي : بسام عسلي ٩١/١ ، والنص من تاريخ ابن عساكر .

قوات مذحج وفي مقدمتها قيس بن هبيرة المرادي .
وقوات طيئ وفي مقدمتها حارث بن سعيد الطائي
قبائل الأزد وفي مقلعتها جندب بن عمرو الدوسي
قوات بني عبس وفي مقدمتها ميسرة بن مسروق العبسي [1]
قوات بن كنانه وفي مقدمتها غنيم بن أسلم الكناني) [2]

والملاحظ حول المؤتمر الذي عقده الصديق أن العشرة المبشرين في الجنة وهم خيرة هذه الأمة بعد نبيهـا قد حضروا هذا المؤتمر فهم قادة الأمة الأوائل وأهل الحل والعقد فيها .

ويحدثـنا البلاذري عن ذلك (قـالوا : لما فرغ أبو بكر رضي الله عنـه من أمر أهل الردة رأى توجيـه الجيوش الى الـشام فكتـب الى أهل مكة والطائف واليـمن وجميع العرب بنجد والحجاز يستنفرهم للجهاد ، ويرغبهم في غنائم الروم فسارع الناس اليه من بين محتسب وطامع وأتوا المدينة من كل أوب)[3] .

القادة الأربعة الكبار :

(فـأمد عَـمْراً بيـعض من انتدب الى من اجـتـمع اليه وأمـره على فلسطين) وأمره بطريق سمـاها إليه وكتب إلى الوليد وأمره بالأردن ودعا يزيد بن أبـي سفيان فـأمـره على جند عظيم هم جـمـهور مـن انتدب لـه وفي جنده سـهيل بن عـمـرو وأشباهه من أهل مكة وشيعه ماشيا . واستعمل أبا عبيدة بن الجراح على من اجتمع إليه وأمره على حمص . وخرج معه وهمـا ماشيان والناس معهما خلفهما وأوصى كل واحد منهما)[4] .

---

(١) قوات عبس وكنانة من مضر الحجاز وليست من اليمن .
(٢) فن الحرب الإسلامي له : بسام علي ٩٤/١ .
(٣) فتوح البلدان للبلاذري / ١١٥ .
(٤) تاريخ الطبري ٣ / ٣٩٠ .

ولما قدم الوليد علي خالد بن سعيد فسانده وقدمت جنود المسلمين الذين كان أبو بكر أمده بهم وسموا جيش البدال وبلغه عن الأمراء وتوجههم اليه اقتحم على الروم طلب الحظوة وأعرى ظهره وبادر(١) الأمراء بقتال الروم واستطرد(٢) له باهان فأرز(٣) هو ومن معه إلى دمشق واقتحم خالد في الجيش ومعه ذو الكلاع وعكرمة والوليد حتى ينزل مرج الصُفَّر من بين الواقوصة فانطوت مسالح(٤) باهان عليه وأخذوا عليه الطرق ولا يشعر ، وزحف له باهان فوجد ابن سعيد بن خالد يستمطر(٥) في الناس فقتلوهم وأتى الخبر خالدا فخرج هاربا في جريدة (٦) فأفلت من أفلت من أصحابه على ظهور الخيل والإبل وقد أجهضوا في عساكرهم ولم تنته بخالد بن سعيد الهزيمة عن ذي المروة(٧) وأقام عكرمة في الناس ردءا (٨) لهم فرد عنه باهان وجنوده أن يطلبوه وقد قدم شرحبيل بن حسنه (٩) وافدا من عند خالد بن الوليد فندب معه الناس ثم استعمله أبو بكر على عمل الوليد (أي الأردن) وخرج معه يوصيه فأتى شرحبيل على خالد ففصل بأصحابه إلا القليل)(١٠) .

---

(١) بادر : سبق .

(٢) استطرد : أوهمه بالتراجع .

(٣) أرز : دخل .

(٤) أنطونت مسالح باهان عليه : انقضت عليه قواته من كل جانب .

(٥) يستمطر في الناس : يطلب المدد من الناس .

(٦) في جريدة : في قطعة من الخيل .

(٧) ذي المروة : موقع على الساحل شمال المدينة بثلاثمائة كيلو متر .

(٨) ردءاً لهم : حماية لهم من الخلف .

(٩) شرحبيل بن حسنه حليف بني جمح وحسنة أمة ، شرحبيل فيما ذكر الواقدي ابن عبد الله بن المطاع الكندي من السابقين الأولين ومن مهاجرة الحبشة .

(١٠) تاريخ الطبري ٣ / ٣٩١ .

وكـان من الممكن لهـذه المعركـة السـابقـة لأوانها أن تفت عـضـد المسلمين وتحطم معنوياتهم فـهي أول معركة بين المـسلمين والروم في الشام خسروها نهـائيا وهرب الجيش الإسـلامي إلى ذي المروة ولولا عبقـرية عكرمة وثباته ورباطة جـأشه لزحـفت جيـوش الروم إلى أرض الجزيرة مـتجـهـة إلـى المدينة لكنه هو الذي أوقف زحف باهان ومطاردته للجـيش الاسـلامي وهكذا صار شـرحـبيل بن حـسنة رابع الأربعة عوضا عن الوليد بن عقبة .

وأمـرا أبو بكر رضي الله عنه عـمرو بـن العاص أن يسلك طـريق أيلة عامـداً لفلسطين وأمـر يزيد أن يسلك طريق تبـوك وكـتب الى شرحـبـيل أن يسلك طريق تبوك وكـان العقـد لكل أميـر في بدء الأمر علـيي ثلاثة آلاف رجل فلم يزل أبوبكر يتبعهم الأمداد حتـى صارمع كل أمير سبعة آلاف وخمسمائة ثم تـتام جمعهم بعد ذلك أربعة وعـشرون ألفا)[(١)] وقال للأمـراء : إن كان بكم قـتال فأمـيركم الذي تكونون في عمله وروي ايضـا انه أمر عمرًا مشـافهة أن يصلي بالناس اذا اجتـمعوا اذاتفرقوا صلى كل أمير بأصحابه)[(٢)] .

عمرو بن العاص إلى فلسطين :

(ثم أمـر الناس بالمسـير تحت رايتـه فـساروا ، وتـقدم أهل مكة وتبـعـهم بنو كلاب وطيء وهوازن وثقيف وتخلف المهاجرون والأنصار ليـسيروا مع أبي عبيدة بن الجـراح وتقدم عـمـرو بن العاص وسـار)[(٣)] ، ولعـلم أبي بـكر رضـي الله عـنه بعبقـرية عمرو الحربية لم تكن وصـيته له تنصب على أمور الحرب بمقـدار ما كانت تنصب على التذكير بالله عز وجل والبناء النفسي له في تعـامله مع المسلمين (قال

(١) فتوح البلدان للبلاذري / ١١٦ .

(٢) المصدر نفسه / ١١٧ .

(٣) فتوح الشام للواقدي / ٨ .

أبو الدرداء كنت مع عمرو بن العاص في جيشه فسمعت أبا بكر يقول وهو يوصيه :

اتق الله في سرك وعلانيتك واستحيه خلواتك ، فإنه يراك في عملك وقد رأيت تقدمتي لك على من هو أقدم منك سابقة وأقدم حرمة . فكن من عمال الآخرة وأرد بعملك وجه الله وكن والدا لمن معك وارفق بهم في السير فان فيهم أهل ضعف والله ناصر دينه ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون واذا سرت بجيشك فلا تسر في الطريق الذي سار فيه يزيد وربيعة وشرحبيل بل اسلك طريق إيلياء حتى تنتهي الى أرض فلسطين وابعث عيونك يأتوك بأخبار أبي عبيدة فان كان ظافر ابعدوه فكن أنت لقتال من في فلسطين وان كان يريد عسكر فانفذ اليه جيشا في اثر جيش) .

وعاد يذكره بفضل القيادات الكبرى في جيشه فتابع وصيتة قائلا :

وقدم سهيل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل ، والحارث بن هشام ، وسعيد بن خالد ، وإياك أن تكون وانيا عما ندبتك اليه واياك والوهن أن تقول : إنما جعلني ابن أبي قحافة في العدو ولا قوة لي به وقد رأيت يا عمرو ونحن في مواطن كثيرة ونحن نلاقي ما نلاقي من جموع الشرك ونحن في قلة من عددنا ثم رأيت يوم حنين نصرنا الله عليهم) .

ثم أوصاه بالمهاجرين والأنصار الذين معه خيرا وهم لذلك أهل :

(واعلم يا عمرو أن معك المهاجرين والأنصار من أهل بدر فأكرمهم واعرف حقهم ولا تتطاول عليهم بسلطانك ولا تداخلك نجدة الشيطان فتقول : انما ولاني أبو بكر لأني خيرهم واياك وخدائع النفس وكن كأحدهم وشاورهم فيما تريد من أمرك ...)

ثم أوصاه بالصلاة وأهميتها بقوله :

(والصلاة ثم الصلاة ، أذن بها إذا دخل وقتها ولا تصل صلاة إلا بأذان يسمعه أهل العسكر ثم ابرد وصل بمن رغب في الصلاة معك فذلك أفضل له ومن صلاها وحده أجزأته صلاته) .

أما بالنسبة للعدو ولصحبه فقال له :

واحذر من عدوك وأمر أصحابك بالحرس لتكن أنت بعد ذلك مطلعاً عليهم وأطل الجلوس بالليل على أصحابك وأقم بينهم واجلس معهم ولا تكشف أستار الناس واتق الله اذا لاقيت العدو واذا وعظت اصحابك فأوجز ، وأصلح نفسك تصلح لك رعيتك فالإمام ينفرد الى الله تعالى فيما يعلمه وما يفعله في رعيته) .

ومع قبائل العرب (وإني قد وليتك على من قد مررت من العرب فاجعل كل قبيلة على حميتها وكن علهيم كالوالد الشفيق الرقيق وتعاهد عسكرك في سيرك وقدم قبلك طلائعك فيكونوا أمامك لك وخلف على الناس ما ترضاه واذا لقيت عدوك فاصبر . ولا تتأخر فيكون ذلك منك فخراً.

ثم عاد بعدها يؤكد وصايته بجنده (وألزم أصحابك قراءة القرآن وانههم عن ذكر الجاهلية وما كان منها فإن ذلك يورث العداوة بينهم وأعرض عن زهرة الحياة الدنيا حتى تلتقي بمن مضى من سلفك وكن من الأئمة الممدوحين في القرآن اذ يقول الله تعالى : ﴿ **وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات واقام الصلاة وايتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين** ﴾ [1] [2] .

وبقيت هذه الوصية في روح عمرو وقلبه دستور حياته . ولم يكن يدور بخلده أنه إنما يودع أبا بكر الصديق الوداع الأخير كما ودع حبيبه المصطفى الوداع الأخير .

---

(١) سورة الأنبياء / ٧٣ .

(٢) فتوح الشام للواقدي ١ / ٧ - ٨ .

وضع الجيش الروماني وتقييم مستواه العسكري :

ونقتطف هذه الفقرة من محمد أحمد باشميل في كتابه حروب الإسلام في الشام :

(يقول الجنرال جلوب في كتابه (الفتوحات العربية الكبرى) يصف الوضع الذي كانت عليه العسكرية الرومانية بصفة عامة وفي الشام بصفة خاصة :

ولم تكن المهمة سهلة أمام قادة المسلمين الذين قرروا الدخول في حرب مع البيزنطيين فقد كانت الامبراطورية الرومانية تقوم وتستند منذ أربعة قرون على أكتاف المشاة الرومانيين الذين اعتبرت فيالقهم المشهورة المثل الأعلى للانضباط العسكري وقد تمكن الامبراطور جستنيان بجيوش من هذا النوع استعادة الامبراطورية الرومانية السابق عهدها بين عامي خمسمائة وثلاث وخمسين وخمسمائة وخمسة وستين وكانت الكتيبة هي الوحدة في الجيش الروماني وتضم نحو من أربعمائة جندي ويتألف اللواء من ثلاث كتائب وأكثر بينما تتألف الفرقة من ثلاثة ألوية وكان لكل كتيبة شارتها الخاصة واللون الخاص برجالها .

ثم يقول الجنرال جلوب : وكان البيزنطيون على خلاف العرب قد نظموا الخدمات الادارية والتنظيمية في جيشهم على أحسن منوال فقد كان لكل فصيل من المشاة مؤلف من ستة عشر رجلا عربة خاصة بالفصيل تحمل لجنوده الفؤوس والمجارف لأعمال الحفر ومطحنة لطحن القمح وغير ذلك من الأدوات والمعدات وتسير مع الجيش وحدة إسعاف تضم الأطباء والجراحين وناقلات الجرحى وكان التدريب العسكري والتعبوي ينفذ بدقة ونظام ومثابرة كما توافرت لطلبة العلوم العسكرية كتب عدة لدراسة الفنون الحربية) .

ورغم صليبية الجنرال جلوب فإنه كان منصفا حين اعترف في كتابه الآنف الذكر بأن الجيوش الرومانية رغم حسن تسليحها وتفوقها التكنولوجي والعددي على المسلمين فإن هؤلاء ا لمسلمين تغلبوا على هذه الجيوش التي تعتبر آنذاك من أرقى جيوش العالم ويقر في كتابه (وهذا مهم جدا) أن عامل العقيدة الذي هو مصدر الروح المعنوية الرائعة لدى العرب حل محل التفوق المادي على اختلاف أنواعه لدى الرومان حيث قال :

(وأمام هذا الجيش الرومايْن النظامي الرفيع التدريب يقف العرب من أبناء القبائل غير المدربين فهم لا يعرفون شيئا عن التعبئة وفنون الحرب التي يعرفها الرومان ولا النظام ولا الكتب العسكرية وليست لديهم رواتب أطباء وكان سلاحهم أقل شأنا وأهمية من سلاح عدوهم ومع ذلك فإنهم بعد مؤتة لم يخسروا أية معركة في حربهم مع الروم .

ومن المحتمل أن يكون شظف العيش الذي ألفوه باحتمال المشاق وافتقارهم لأي تدريب منظم ، قد جعل منهم قوة أسرع على الحركة من عدوهم لكن الفضل الأول والأخير في انتصارهم يجب أن يُعزى الى روحهم المعنوية العالية فهم بالاضافة إلى كونهم ناريي المزاج محاربين بطبيعتهم قد أدى تطلعهم الى الاستشهاد وفي سبيل الله طمعاً في فراديس الجنان التي وعدهم الله بها أدى إلى أن يقاتلوا بحمية تفوق تماما ما كان لدى أعدائهم من الروم من تفوق في السلاح والانضباط)[1] .

---

(١) حروب الإسلام في الشام : محمد أحمد باشميل / ٥٩ .

وهرقل ملك الروم :

ورغم أنه كان في عنفوان انتصاراته على الفرس لكنه أدرك نبوة محمد أنها حق وقال لأبي سفيان : لئن صدقت ليملكن موطىء قدمي هاتين ولو كنت عنده لغسلت الأرض عن قدميه . وكانت محاولته الأخيرة بعد أن فشلت المحاولات السابقة في حملهم على الإسلام ، وخاف على ملكه فتراجع وارتد على عقبه ها هو ذا يقوم بالمحاولة الأخيرة لثني قومه عن حرب المسلمين ودفعهم الى مصالحتهم لأن الله ورسوله لا يغلبان .

(واتصل الخبر للملك هرقل من قوم من عرب اليمن المتنصرة كانوا في المدنية فلما صح عند الملك ذلك جمع بطارقته في عسكره وقال لهم : يا بني الأصفر إن دولتكم قد عزمت على الانهزام « لقد كنتم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتقيمون الصلاة وتؤتون الزكاة التي أمركم بها الآباء والأجداد والقسس والرهبان وتقيمون حدود الله التي أمركم بها في الإنجيل لا جرم انكم ما قصدكم ملك من ملوك الوشاة ونازعكم على الشام الا قهرتموه وقد قصدكم كسرى بجنود فارس فانكسروا على أعقابهم والآن قد بدلتم وغيرتم فظلمتم وجرتم وقد بعث اليكم ربكم قوما لم يكن في الأمم أضعف منهم عندنا وقدر رمتهم شدة الجوع الينا وأتى بهم الى بلادنا وبعثهم صاحب نبيهم ليأخذوا ملكنا من أيدينا ويخرجونا من بلادنا)[1] .

لكن قوم هرقل رفضوا هذاالموقف وأخذتهم العزة بالاثم فلم يكن له خيار من مسايرتهم حفاظا على ملكه وعندما بلغه التخطيط الاسلامي بارسال أربعة جيوش

---

(١) فتوح الشام للواقدي / ٤ .

وأربعة قواد اعتبرها فرصة سانحة للقضاء على كل جيش على حدة فيفتك بالمسلمين متفرقين .

(وأوعب القواد بالناس نحو الشام وعكرمة ردء للناس وبلغ الروم ذلك فكتبوا الى هرقل وخرج هرقل حتى نزل بحمص فأعد لهم الجنود وعبى لهم العساكر وأراد اشتغال بعضهم عن بعض لكثرة جنوده وفضول رجاله . وأرسل الى عمرو أخاه تذارق لأبيه وأمه فخرج نحوهم في تسعين الفا وبعث من يسوقهم حتى نزل صاحب الساقة ثنية جلق بأعلى فلسطين وبعث جرجة بن توذرا نحو يزيد بن أبي سفيان فعسكر بإزائه وبعث الدراقص فاستقبل شرحبيل بن حسنة وبعث الفيقار بن نسطوس في ستين ألفا نحو أبي عبيدة فهابهم المسلمون وجميع فرق المسلمين واحد وعشرون ألفا سوى عكرمة في ستة آلاف)[1] .

عمرو يحبط هطة هرقل :

وحرص القادة الكبار على التشاور أمام هذا الزحف البشري الهائل وجميعهم يعرفون أن عمرو بن العاص هو أعرق الناس خبرة في الحرب وقد اختاره رسول الله ﷺ أميرا في ذات السلاسل على كبار صحبه وأثبت كفاءة عالية فيها .

(ففزعوا جميعا بالكتب والرسل إلى عمرو : أن ما الرأي ؟

فكاتبهم وراسلهم .

إن الرأي الاجتماع ، وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يغلب من قلة واذا نحن تفرقنا لم يبق الرجل منا في عدد يقرن[2] فيه لأحد ممن استقبلنا وأعد لكل طائفة منا . فاتعدوا اليرموك ليجتمعوا به)[3] .

---

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٣٩٢ .

(٢) يقال : أقرن له : إذا غلب عليه .

(٣) تاريخ الطبري ٣ / ٣٩٢ - ٣٩٣ .

وفي الوقت نفسه بعثوا بالأمر إلى الخليفة الصديق يستشيروه فكان رأي الصديق رضي الله عنه هو رأي عمرو بن العاص .

(فاتعدوا اليرموك ليجتمعوا به وقد كتب الى أبي بكر بمثل ما كاتبوا به عمرا فطلع عليهم كتابه بمثل رأي عمرو بأن : اجتمعوا فتكونوا عسكرا واحدا والقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين فانكم أعوان الله والله ناصر من نصره وخاذل من كفره ولن يؤتى مثلكم من قلة وانما يؤتي العشرة آلاف والزيادة على العشرة آلاف إذا أتوا من تلقاء الذنوب فاحترسوا من الذنوب واجتمعوا باليرموك متساندين وليصل كل رجل منكم بأصحابه) [1] .

عمرو أمام التذارق :

لقد كان هذا الرأي من الناحية النظرية وهو الاجتماع معا في اليرموك لكن من الناحية العملية فعمرو في فلسطين بعيدا عن إخوانه ، وإخوانه الثلاثة كان من السهل اجتماعهم معا فقد كان طريقهم واحدا هوطريق تبوك بينما سلك عمرو الطريق الساحلي ، ودخل من ميناء إيلة الى فلسطين ولم يكن من السهل أمامه أن ينضم لإخوانه وقد صارت قوات الروم بإزائه ولهذا اضطر إلى أن يخوض العديد من المعارك مع العدو ، ويحتل بعض المواقع ثم ينسحب منها لينفذ الخطة التي اتفق عليها وهو الذي وضع خطوطها الرئيسية (ونتيجة الخطة الجديدة خطة تجمع الجيوش الأربعة باليرموك والتي اقترحها عمرو بن العاص وصادق عليها الخليفة أخذت الجيوش الأربعة تتجمع في اليرموك وتنسحب من كل المناطق التي سبق وأن سيطرت عليها في بداية الزحف في الشام فقد انسحب أبو عبيدة من منطقة حمص وانسحب يزيد من أبي سفيان من منطقة دمشق وانسحب شرحبيل بن

---

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٣٩٢ - ٣٩٣ .

حسنة من الأردن وأخذ عمرو بن العاص في الانسحاب تدريجيا من فلسطين ولكنه لم يتمكن من الانسحاب منها حتى أنجده خالد بن الوليد قبل اليرموك لأن القائد الروماني لمنطقة الساحل كان يطارده محاولا سحق جيشه الصغير وهوينسحب في اتجاه اليرموك فظل عمرو يناور في بئرالسبع حتى وصل اليه خالد وشن بالاشتراك معه هجوما مضادا على الرومان فكانت معركة أجنادين[١] الرهيبة التي فقد فيها الرومان قبل اليرموك حوالي ثمانين ألفا وبعد أن حطم خالد مع عمرو جيش الروم في فلسطين انسحب الاثنان مع بقية القادة الى اليرموك في فلسطين .

ويحدثنا الواقدي عن معارك عنيفة تمت بين المسلمين والروم قبل قدوم خالد لخصها الرائد العسلي بقوله : (عندما وصل عمرو بن العاص الى فلسطين تقدم اليه عدي بن عامر من المسلمين وكان قد قدم إلى الشام بتجارة له وأعلم ابن العاص عن تقدم جيش كبير للروم يزيد على مائة ألف .

ونظم عمرو بن العاص قوة استطلاع من ألف مقاتل ودفعه في اتجاه محور تقدم الروم ووضع على قيادتها عبد الله بن عمر بن الخطاب وتقدمت هذه القوة واصطدمت بطليعة من الروم وحدثت معركة طاحنة أبدى فيها عبد الله بن عمر وعكرمة بن أبي جهل صمودا كبيرا وقيادة حازمة وأمكن قتل قائد هذه القوة واستطاع عبد الله انتزاع النصر وتمزيق قوة العدو وانتهت المعركة بسقوط ستمائة قتيل مقابل سبعة من المسلمين .

عادت قوة الاستطلاع ومعها بعض الأسرى فاستجوبهم عمرو وعلم منهم أن جيش العدو بقيادة روبس[٢] وأن قوته تقارب المائة ألف .

---

(١) يرى الطبري أن معركة أجنادين إنما تمت بعد اليرموك بينما يخالفه بقية المورخين في ذلك .

(٢) وهو غير تزارق أخي هرقل وقبل قدوم قواته .

وعرف عمرو أن خصمه روبيس سيحاول مباغته بالهجوم فنظم قواته كالتالي : الميمنة بقيادة الضحاك بن قيس والميسرة بقيادة سعيد بن خالد بن العاص السافة بقيادة أبي ا لدرداء والقلب بقيادة عمرو بن العاص ونظم عمرو جيشه (لا يخرج سنان عن سنان ولا عنان عن عنان ولا ركاب عن ركاب كأنهم بنيان مرصوص وهم يقرؤون القرآن .

وقام جيش الروم بهجومه بعد أن كان عمر بن العاص قد انهى استعداده للقتال وصمد المسلمون ونجحوا في تحطيم حدة هجوم خصمهم وتصاعد القتال ، واشتد الموقف ، عندما شعر المسلمون بتمزق قوة جيش روبيس قاموا بهجومهم المضاد ونجحوا في تدمير العدو وارغامه على الفرار وترك ميدان المعركة وتابع الفرسان أعمال مطاردة القوات المنسحبة وانتهت المعركة بسقوط ١٥٠٠٠ قتيل من جيش الروم مقابل ١٣٠ من جيش المسلمين[١] .

بينما يذكر البلاذري عن ذلك قوله :

قالوا : فأول وقعة كانت بين المسلمين وعدوهم بقرية من قري غزة يقال لها داتن كانت بينهم وبين بطريق غزة فاقتتلوا فيها اقتتالا شديدا ثم إن الله تعالى أظهر أولياءه وهزم أعداءه وقضى جمعهم وذلك قبل قدوم خالد بن الوليد الشام)[٢] .

ويحدثنا باشميل عن وضع عمرو رضي الله عنه وجيشه فيقول :

(أما الفيلق الرابع الذي بقيادة عمرو بن العاص والذي كانت مهمته من أشق المهمات فقد سلك طريقا بعيدا جدا عن الفيالق الثلاثة حيث سلك طريق

(١) فن الحرب الإسلامي للرائد بسام العسلي ١ / ٩٧ - ٩٨ ، وهو ملخص عن الواقدي ١ / ٩ - ١٢ .

(٢) فتوح البلدان البلاذري / ١١٧ .

ساحل خليج العقبة الشرقي فدخل العقبة في فلسطين ثم اتجه شمالا ماراً بوادي عربا فالناحية الغربية من البحر الميت .

وكان هدف الفيلق الرابع هذا تحرير مدينة القدس والفيلق الرابع الذي يقوده عمرو بن العاص هو الفيلق الوحيد من بين الفيالق الأخرى ، الذي خاض أعنف المعارك في المنطقة المخصصة له « فلسطين » قبل التجمع في اليرموك الذي دارت فيه المعركة التي قررت مصير الشام كلها .

فبالرغم من أن الفيلق الرابع قد احتل مساحة واسعة من فلسطين إلا أنه اصطدم في النهاية بمقاومة شديدة تحولت الى مطاردة من القائد الروماني تيودر أخي الملك هرقل الذي أرسله للدفاع عن القدس والقضاء على الفيلق الرابع فكان تيودورا يقود أكثر من سبعين ألفا بينما الفيلق الرابع لا يزيد عن سبعة آلاف مقاتل[٣] .

وكان لعمرو مع هذا البطريق قبيل المعركة جولة فريدة حدثنا عنها الحافظ ابن عساكر بقوله (لما سار أمراء المسلمين الي الشام فنزلوا بقرية يقال لها باذن من قرى غزة مما يلي الحجاز فلقيهم بطريق من بطارقة الروم فأرسل اليهم أن يخرجوا اليه أحد القواد ليكلمه فتوكلوا ذلك وقالوا لعمرو بن العاص أنت لذلك فخرج عمرو بن العاص فلما انتهى اليه رحب به البطريق وأجلسه معه على سريره ومَتَّ اليه بقرابة العيص بن اسحاق بن إبراهيم وإسماعيل بن إبراهيم فكلمه عمرو ودعاهم إلى الدخول في الإسلام أو الجزية عن يدوهم صاغرون فأبى وضن بدينه

(١) و (٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ١٢٣ / ٥١٠ - ٥١١ .

(٣) حروب الإسلام في الشام لـ : محمد أحمد باشميل / ٥٧ .

فقال عمرو : قد أعذرت ولم يبق الا السيف فافترقا فاقتتلوا فكانت بينهم معركة عظيمة) .

كما نقل لنا تفاصيل عن هذا اللقاء فيقول : (خرج عمرو بن العاص إلى بطريق في نفرٍ من أصحابه عليه قباء عليه صدأ الحديد ، وعمامة سوداء وفي يده سيف وعلي ظهره ترس فلما طلع عليه ضحك البطريق وقال : ما كنت تصنع بحمل السلاح ؟ قال : خفت أن ألقى دونك فأكون قد فرطت فالتفت إلى أصحابه فقال بيده عقدة على إبهامه ثم قال : مرحبا بك وأجلسه على سريره وحادثه فأطال ، ثم كلمه بكلام كثير ودعاه الى الإسلام فلما سمع البطريق كلامه وبيانه وأداءه وقال بالرومية يا معشر الروم أطيعوني اليوم واعصوني الدهر . أمير القوم كلما كلمته أجابني عن نفسه لا يقول أشاور أصحابي وأذكر لهم ما انتهى اليه علمي وليس إلا أن نقتله قبل أن يخرج فقال من حوله من الروم : ليس هذا برأي وقد كان دخل مع عمر بن العاص من أصحابه من يعرف كلام الروم فألقى الى عمرو ما قال الملك ثم قال الملك ألاتخبرني هل في أصحابك مثلك ويؤدي أداءك؟ فقال عمرو : أنا أقل أصحابي لسانا وأدناهم في أصحابي من لو كلمته لعرفت اني لست هناك قال فأنا أحب أن تبعث إليَّ رأسكم في البيان والتقدم والأداء حتى أكلمه فقال عمرو : أفعل . وخرج عمرو من عنده فقال البطريق لأصحابه : لأخالفنكم لئن دخل فرأيت منه ما يقول لأضربن عنقه . فلما خرج من الباب كبرَّ وقال لا أعود لمثل هذا أبداً وأتى منزله فاجتمع اليه أصحابه يسألونه فخبرهم بخبره وخبر البطريق فأعظم القوم ذلك وحمد الله على ما رزق من السلامة ، وكتب عمرو بذاك إلى عمر فكتب اليه عمر : الحمد لله على إحسانه إلينا وإياك وإياك والتغرير بنفسك وبأحد من المسلمين في هذا وبحسب العلج

منهم أن يكلم في مكان سواء بينك وبينه فيكفينا من غايته ويكون أكسر فلما قرأ عمرو بن العاص كتاب عمر قال : ما الأب البر بولده بأبر من عمر بن الخطاب برعيته) .

خالد بن الوليد مدد للمسلمين :

قالوا : فلما صارعمرو بن العاص إلى أول عمل فلسطين كتب الى أبي بكر بعلمه كثرة عدد العدو وعدتهم وسعة أرضهم ونجدة مقاتلتهم فكتب أبو بكر الى خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي وهو بالعراق يأمره بالمسير إلى الشام فيقال : إنه جعله أمير على الأمراء في الحرب وقال قوم : كان خالد أميرا على أصحابه الذين شخصوا معه وكان المسلمون اذا اجتمعوا لحرب أمره الأمراء فيها لبأسه وكيده ويمن نقيبته)[1] .

(وسار خالد مسرعا في تسعة آلاف وخمسمائة ودليله رافع بن عميرة الطائي فأخذ به على السماوة حتى انتهى الى قراقر ، وسلك به أراضي ، لم يسلكها قبله أحد ، فاجتاب البراري والقفار وقطع الأودية وتصعد على الجبال وسار في غير مهيع[2] وجعل رافع يد لهم في مسيرهم على الطريق وهو في مفاوز [3] معطشه وعطش النوق وسقاها الماء عللا بعد نهل وقطع مشارفها وكعمها[4] حتى لا تجتر وحل أدبارها واستاقها معه فلما فقدوا الماء نحرها فشربوا ما في أجوافها من الماء ، ويقال بل سقاه الخيل وشربوا ما كانت تحمله من الماء وأكلوا لحومها ووصل ولله الحمد والمنة في خمسة أيام فخرج على الروم من ناحية

---

(١) فتوح ا البلدان للبلاذري / ١١٧ .

(٢) مهيع : طريق بين .

(٣) مفاوز فلوات منقطعة .

(٤) كممها : شد أفواهها .

تدمر فصالحه أهل تدمر وأركه ولما مر بعذراء أباحها وغنم لغسان أموالا عظيمة وخرج من شرقي دمشق ثم سار حتى وصل إلى قناة بصرى فوجد الصحابة تحاربها فصالحه صاحبها وسلمها اليه فكانت أول مدينة فتحت من الشام ولله الحمد وبعث خالد بأخماس ما غنم من غسان مع بلال بن الحارث المزني إلى الصديق ثم سار خالد وأبو عبيدة ويزيد وشرحبيل الى عمرو بن العاص وقد قصده الروم بأرض العربا من الغور فكانت واقعة أجنادين)[1] أما سبب توجهه الى عمرو رضي الله عنه بفلسطين مع الجيوش الإسلامية فنشهد هذا التحليل العميق له عند باشميل اذ يقول: (ثم إن خالدا بعد سيطرته على مدينة بصرى عاصمة الجولان عقد اجتماعا على مستوى عال حضره قادة الفيالق الثلاثةوبقية كبار قادة الوحدات وأهل الخبرة الحربية ومن يمكن تسميتهم هيئة أركان حرب وعقد مع هؤلاء اجتماعا تدارس فيه معهم الوضع في الشام وبعد الدراسة والتشاور والتقييم من جميع النواحي تبين لخالد أن هناك للرومان في الشام جيشين رئيسين جيش في الشمال ومقره انطاكية وهو الجيش الثاني وقوامه مائتا ألف مقاتل وجيش في فلسطين قريبا من الساحل وقوامه مائة ألف مقاتل غربي فلسطين بأجنادين جنوب جبرين فنظر خالد فوجد أنه في قلب الشام بقوات الإسلام الرئيسية بين جيشين عظيمين للعدو ، أحدها وهو الأول بالغرب من الضفة الغربية ولا يوجد أمامه سوى سبعة آلاف مقاتل يتحاشون الالتحام الحاسم معه وجيش في أقصى الشمال وبالقرب من آسيا الصغرى مصدر امدادات الجيوش الرومانية)[2] .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٧/ ٦ .

(٢) حروب الإسلام في الشام بالباشميل / ١١٣ .

خطة هرقل وخطة خالد :

وكانت خطة الملك هرقل قبل وصول خالد إلى العراق لتصفية التجمع الإسلامي في اليرموك تقضي بتعزيز الجيش الأول في فلسطين ثم صدرت إليه الأوامر (وقد بلغ مائة ألف مقاتل) أن يتتبع الفيلق الرابع الذي يقوده عمرو ويقضي عليه بسرعة وبعد ذلك يتجه نحو مؤتة خلف خطوط المسلمين في اليرموك وكلفه بالسيطرة على جميع الطرق والممرات المؤدية من جزيرة العرب إلى الشام كي يقطع على الجيش المحتشد في اليرموك خط الرجعة ويمنع وصول أي امدادات اليه من الجزيرة) [1] ..

أما خطة خالد رضي الله عنه فقد أحبطت خطة هرقل وذبحت الجيش الروماني الأول وانقذت جيش عمرو رضي الله عنه فكانت بالتشاور مع القادة الثلاثة حيث (قرر الانسحاب بالجيش الرئيسي من بصرى واليرموك وكل المناطق الوسطى التي فتحتها جيوش الإسلام وأخذ يزحف بسرعة جنوبا واضعا نصب عينيه أولا التخلص من الجيش الروماني الأول في فلسطين وكل الحاميات الرومانية المتواجدة في بئر السبع وغور الأردن لينقذ جيش عمرو وليجعل خطوط مواصلاته مع جزيرة العرب مأمونة ثم بعد أن يدمر الجيش الرماني الأول في الجنوب يعود ثانية بالجيش وقد انضم اليه فيلق عمرو بن العاص نحو الشمال للمواجهة الحاسمة التي حدثت في اليرموك فيما بعد)[2].

معركة أجنادين :

ثم كانت وقعة أجنادين وشهدها من الروم زهاء مائة ألف ، سرَّب هرقل أكثرهم وتجمع باقوهم من النواحي وهرقل يومئذ مقيم بحمص فقاتلهم المسلمون

---

(١) حروب الإسلام في الشام / ١١٣ ، ١١٤ .

(٢) المصدر نفسه / ١١٦ ، ١١٧ .

قتالا شديدا وأبلى خالد بن الوليد يومئذ بلاء حسنا ثم إن الله هزم أعداءه ومزقهم شر ممزق وقُتل منهم خلق كثير واستشهد يومئذ عبد الله بن الزبير بن عبد المطلب وعمرو بن سعيد بن العاص وأخوه أبان بن سعيد وذلك الثبت .. والمطلب ابن عمير وغيرهم)[1] .

عبقرية عمرو :

لقد كانت عبقرية عمرو رضي الله عنه تكمن في محافظته على هذا الفيلق الذي يقوده فليس الهدف هو القتل والشهادة انما الهدف ان يوظف القتل وتوظف الشهادة في تحقيق هدف النصر على العدو وقد رأى عمرو أن عدم التكافؤ بينه وبين العدو يدفعه لكي لا يضحي بقطرة دم واحدة هدراً ولكن ليس الحل هو الهروب، كذلك فهو يمثل أمام العدو قوة دفاع وهجوم كبرى ولقد فوّت الهدف على خصمه في الاستقبال المباشر لا يجهز عليه ولم يرح خصمه لخطة واحدة دون مناوشات وكر وفر معه .

لقد كان وضع الفيلق الرابع بقيادة عمرو بن العاص حرج للغاية فهو يقود جيشا قوامه سبعة آلاف مقاتل تلاحقه بقيادة سرجيوس قوات رومانية قوامها مائة ألف مقاتل ومن المؤكد ان عَمْرًا وحده ليس باستطاعته مواجهة هذه القوة الرومانية منفردا ولذلك اعتصم عمرو بصحراء النقب حيث يستطيع جيشه المكون أكثره من البدو القيام بحرب الصاعقة التي يخشاها الرومان ولذلك يتهيبون دائما التصادم مع العرب في الصحارى المكشوفة ولولا أن عمراً اعتصم بالصحراء لأوقع به سرجيوس وأباد فيلقه ومع ذلك فقد ظل سرجيوس يتتبع القائد عمرا ويضايقه ولكن بحذر وذلك لاعتصام عمرو بالصحراء وقد ظل عمرو يناور في مناشات سرجيوس متجنبا الدخول معه في معركة حاسمة حتى يصله مدد يمكنه من مصادمة سرجيوس .

---

(١) فتوح البلادن للبلاذري / ١٢٠ - ١٢١ .

وكان سرجيوس حريصا كل الحرص على الاشتباك في معركة فاصلة مع عمرو ليحقق رغبة الملك هرقل في تطهير جنوب الشام من أي وجود عسكري للإسلام هناك ولو نجح في تدمير جيش عمرو بن العاص لتحرجت حالة الفيالق الثلاثة التي تولى خالد قيادتها ولكان احتمال انتصارهم في اليرموك احتمالا ضعيفا لأنهم سيكونون بين فكي الكماشة التي أقامها هرقل الجيش الأول في الجنوب والجيش الثاني في الشمال ومقره انطاكية وقوة المسلمين الرئيسية بينهما)[1] .

وقد أشار الجنرال جلوب في كتابه (فتوحات العرب الكبرى) إلى هذه الحقيقة فقال : (اعتمد هرقل على تحصينات اليرموك لوقف الزحف العربي على دمشق ولاحظ أن عمرو بن العاص وحيد في بئر السبع فراح يبعث بجيشه الرئيسي الى الجنوب نحو فلسطين عن طريق طبريا فالناصرة فقيساريه التي يستطيع أن يستعملها بعد الآن قاعدة أمامية وكان البيزنطيون يسيطرون على البحر ، وفي وسعهم تموين جيوشهم في فلسطين من ميناء قيساريه أو من ميناء يافا وغزة فيما بعد .

وكان الهدف من العملية كلها الانتصار على جيش عمرو بن العاص في منطقة بئر السبع في الوقت الذي تنشغل قوات المسلمين الرئيسية في اليرموك واعتقد هرقل أنه إذا حقق هذه الغاية فإنه يصبح قادرا على الزحف الى إيلة العقبة ليهدد منها طريق مواصلات المسلمين مع مكة والمدينة مرغما بذلك قواتهم على التراجع عن اليرموك)[2] ومن أجل هذا لم يتحرك عمرو للمواجهة الشاملة مع الجيش الروماني إلا بعد أن وصل مدد المسلمين بفيالقهم الثلاثة وكانت هذه

---

(١) حرب الإسلام في الشام لباشميل / ١١٤ - ١١٥ .

(٢) الفتوحات العربية الكبرى الجلوب ؟

المواجهة نفسها خطة للايقاع بجيش العدو رسمها عمرو وخالد معا بعد وصول خالد مع القوات الإسلامية كافة .

(وحسب الخطة المرسومة وبموجب تعلميات خالد اشتبك عمرو بن العاص مع جيش سرجيوس والملقب عند بعض المؤرخين بـ (التذارق) اشتبك مع جيشه متظاهراً بأنه وحيد في الميدان ففرح التذارق وظن أنه حصل على بغيته وهو انفراده بفيلق عمرو البالغ سبعة آلاف فقط فلم يكترث كثيرا بالأمر لأن لديه مائة ألف مقاتل وماذا عسى أن تفعل معها قوة سبعة آلاف مقاتل .

وبينما القتال ناشب بين فيلق عمرو وبعض وحدات سرجيوس ظهر خالد فجأة بقواته الرئيسية ودارت رحى معركة من أعنف المعارك في الشام انتهت بتدمير الجيش الروماني الأول تدميرا كاملا حيث لم ينج منه إلا الشريد وقد قتل في المعركة عدد كبير من قادة الرومان وحكام المقاطعات بفلسطين على رأسهم القائد العام لجيش الروم في المعركة . قتله خالد بيده)[1] .

(وقد اراد تذارق نصب كمين لخالد بن الوليد فطلب اليه التقدم للتفاوض معه في موقع حدده واستطاع خالد بن الوليد الحصول على المعلومات عن مكان الكمين وقوته فأرسل في الليل عشرة من أشجع قادته وتمكنوا من قتل أفراد قوة الكمين العشرة واحتلال مواضعهم وتقدم تذارق في اليوم التالي الي موضع الكمين وحده وهو يعتقد أنه محاط بجنده وتقدم خالد وبعد حوار قصير أمسك تذارق بخالد وطلب إلى قوة الكيمن الخروج لأخذه وانطلقت قوة الكمين فقتلت تذارق وحملت رأسه وألقته في مقدمة صفوف الخصم وبدأت على الفور معركة كانت فيها الروح المعنوية لدى الروم متدهورة بقدر ما كانت ارادة القتال والروح المعنوية للمسلمين عالية وأمكن تمزيق جيش الروم وهربت فلوله من المعركة فتلقتها قوات

---

(١) حروب المسلمين في الشام لباشميل / ١٢٣ - ١٢٥ .

الدعم التي كـان تتقـدم من الجزيرة العـربية ولم ينـج من جـيش الروم سـوى أعداد قليلة)[1] .

ترى هل كان يـدور بخلد عمرو وخـالد وهما يتـسامـران تحت ضوء القـمر الساطع في طريقـهما الى المـدينة ليعلنا اسلامـهما بعـد حرب عشـرين عاما لمحمد رسول الله ﷺ هل كان يـدور بخلدهما أنهـما بعد سـت سنوات سيحطـمان في الشـام وفي فلسطين جـيشًـا للروم قـوامه مـائة ألف مـقاتل في سـبيل اعلاء كلمـة التوحيـد في تلك الأرض أم كانت جل آمالهما أن يمضـيا بقية عمـرهما قبل الموت بين يدي قـائدهم الحـبيب المصطفى عليـه الصـلاة والسـلام ؟؟؟ وهل كـان يدور بخلدهمـا أنهم سيـمسكان بمقـود تاريخ الأرض ويغيـران حـركتـه من الظلمـات الجاهلية إلى نور الإسلام ، وأن هرقل ملك بني الأصفر سوف ينهار من عبقريتهما وكفاءتـهماالحربيـة عندما دمر جيـشه ؟؟؟ (وبتحطيم خالد الجـيش الروماني الأول في اجاندين طاش سهـم الملك هـرقل وبدا على ما يشبه اليقين بأن هزيمة جـيشه في اليرموك أمـر لا مفر منه) [2] وهذا القول قـاله الجنرال جلوب تعقيبا على اجنادين (وهكذا طاش سـهم هرقل في مـعـركـة اجنادين وتحطمت خطتـه السـوقـيـة لشن الهـجوم المعـاكس وعـادت قـوات المسلمين الرئـيسيـة الى اليـرمـوك حيث كـانت حصون الروم الدفاعية تقف سدا أمام الزحف العربي على دمشق)[3] .

وكانت معركة إجنادين في (يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى سنة ثلاثة عشر ويقال لليلتين خلتا من جمادى الآخرة [4] .

---

(١) فن الحرب الإسلامي لبسام العسلي / ١٠٨ .

(٢) حروب المسلمين في الشام / ١٢٧ .

(٣) الفتوحات العربية الكبرى دغلوب ؟

(٤) فتوح البلدان للبلاذري / ١٢١ .

من أجنادين الى اليرموك :

ونمضي الى ابن كثير في كتابه عن اليرموك لتقديم صورة مقتضبة ما أمكن عن المعركة يقول فيها :

(وعند ابن اسحاق والمدايني ايضا أن وقعة أجنادين قبل وقعة اليرموك وكانت قعة اجنادين لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة وقتل بها بشر كثير من الصحابة وهُزِم الروم وقُتِل أميرهم القيقلان وكان قد بعث رجلا من نصارى العرب يجس له أمر الصحابة فلما رجع اليه قال له : وجدت قوما رهبانا بالليل فرسانا بالنهار والله لو سرق فيهم ابن ملكهم لقطعوه أو زنى لرجموه فقال له القيقلان : والله لئن كنت صادقا لبطن الأرض خير من ظهرها وقال سيف بن عمر في سياقه : ووجد خالد الجيوش متفرقة فجيش أبي عبيدة وعمرو بن العاص ناحية وجيش يزيد وشرحبيل ناحية فقام خالد في الناس خطيبا فأمرهم بالاجتماع ونهاهم عن التفرق والاختلاف فاجتمع الناس وتصافوا مع عدوهم في أول جمادى الآخرة وقام خالد بن الوليد فحمد الله وأثنى عليه وقال :

إن هذا يوم من أيام الله ، لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي ، أخلصوا جهادكم وأريدو الله بعملكم ، وإن هذا يوم له ما بعده ولو رددناهم الي خندقهم فلا نزال نردهم وان هزمونا لانفلح بعدها أبدا فتعالوا فلنتعاور[1] والإمارة ، فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غدا ، والاخر بعد غد ، حتى يتأمر كلكم ودعوني الكيم اليوم فأمروه عليهم وهم يظنون أن الأمر يطول جدا فخرجت الروم في تعبئة لم ير مثلها قبلها قط وخرج خالد في تعبئة لم تعبئها العرب قبل ذلك . فخرج في ستة وثلاثين كردوسا إلى الأربعين كل كردوس ألف رجل عليهم أمير ، وجعل أبا عبيدة في

---

(١) فلنتعاور : من الاستعارة أي تبادلها كل يوم أمير.

القلب وعلى الميمنة عمرو بن العاص ومعه شرحبيل بن حسنة وعلى الميسرة يزيد بن أبي سفيان وأمر على كل كردوس أميرا وعلى الطلائع قباب بن أشيم وعلى الاقباض عبد الله بن مسعود والقاضي يومئذ أبو الدرداء وقاصهم الذي يعظهم ويحثهم على القتال أبو سفيان بن حرب وقارئهم الذي يدور على الناس فيقرأ سورة الأنفال وآيات الجهاد المقداد بن الأسود وذكر ابن اسحاق بإسناده أن أمراء الأرباع يومئذ كانوا أربعة أبو عبيدة وعمر بن العاص وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان وخرج الاس على راياتهم وعلى الميمنة معاذ بن جبل وعلى الميسرة نفاثة بن أسامة الكناني وعلى الرجالة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص وعلى الخيالة خالد بن الوليد وهو المشير في الحرب الذي يصدر الناس كلهم عن رأيه ولما أقبلت الروم في خيلائها وفخرها وقد سدت أقطار تلك البقعة سهلها ووعرها كأنهم غمامة سوداء يصيحون بأصوات مرتفعة ورهبانهم يتلون الانجيل ويحثون على القتال وكان خالد في الخيل بين يدي الجيش فساق بفرسه الى أبي عبيدة فقال له إني مشير بأمر فقال قل ما أمرك الله أسمع لك وأطيع فقال خالد : إن هؤلاء القوم لا بد لهم من حملة عظيمة لا محيد لهم عنها وإني أخشى على الميمنة والميسرة وقد رأيت أن أفرق الخيل فرقتين وأجعلها وراء الميمنة والميسرة حتي إذا صدموهم كانوا لهم ردءا فنأتيهم من ورائهم فقال له : نعم ما رأيت فكان خالد في أحد الخيلين من وراء الجيش كله لكي إذا رأه المنهزم استحيا منه ورجع الى القتال فجعل أبو عبيدة مكانه في القلب سعيد بن زيد أحد العشرة رضي الله عنهم وساق خالد إلى النساء من وراء الجيش ومعه عدد من السيوف وغيرها فقال : من رأيتموه موليا فاقتله ثم رجع الى موقفه رضي الله عنه .

ولما تراءى الجمعان وتبارز الفريقان وعظ أبوعبيدة المسلمين فقال يا عباد الله انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم يا معشر المسلمين اصبروا فان الصبر منجاة من الكفر ومرضاة للرب ومدحضة للعار .

ولا تبرحوا مصافكم ولا تخطو إليهم خطوة ولا تبدأوهم بالقتال وشرّعوا الرماح واستتروا بالدرق والزموا الصمت الا من ذكر الله في انفسكم حتى آمركم إن شاء الله تعالى .

قالوا : وخرج معاذ بن جبل على الناس فجعل يدكرهم ويقول يا أهل القرآن ومتحفظي الكتاب وأنصارالهدى والحق إن رحمة الله لا تنال وجنته لا تدخل بالأماني ، ولا يؤتي الله المغفرة والرحمة الواسعة الا الصادق والمصدق ألم تسمعوا لقول الله ﴿ **وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم** ﴾ فاستحيوا رحمكم الله من ربكم أن يراكم فُراراً من عدوكم وأنتم في قبضته وليس لكم ملتحدٌ من دونه ولا عز بغيره .

وقال عمرو بن العاص : يا أيها المسلمون غضوا الأبصار واجثوا علي الركب واشرعوا الرماح فاذا حمل عليكم عدوكم فأمهلوهم حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة فثبوا وثبة الأسد فوالذي يرضى الصدق ويثيب عليه ويمقت الكذب ويجزي بالإحسان إحسانا لقد سمعت أن المسلمين سيفتحونها كفرا كفرا وقصر قصرا فلا يهولنكم جمعهم ولا عددهم فإنكم لو صدقتموهم الشد تطايروا تطاير أولاد الحجل ..) وخرج ماهان فأمر صاحب الميسرة وهو الدبريجان وكان عدو الله متنسكا فيهم فحمل على الميمنة وفيها الأزد ومذحج وحضرموت وخولان فثبتوا حتى صدو أعداء الله ثم ركبهم من الروم أمثال الجبال فزال المسلمون عن الميمنة الى القلب وانكشف طائفة من الناس الى العسكر وثبت صدر من المسلمين عظيم يقاتلون تحت راياتهم وانكشفت زبيد ثم تنادوا فتراجعوا وحملوا حتى نهنهوا من أمامهم من الروم واشغلوهم عن اتباع من انكشف من الناس استقبل النساء من انهزم من سرعان الناس يضربنهم بالخشب والحجارة وجعلت خولة بنت ثعلبة تقول : يا هاربا من نسوة تقيات فعن قليل ما ترى سبيات

ولا حظيات ولا رضيات

وثبت كل قوم تحت راياتهم حتى صارت الـروم تدور كأنها الرحا فلم تر يوم اليرموك الا مخاً ساقطاً ومعصما نادرا وكفا طائرة من ذلك الموطن .

ثم حـمل خالد بمن معه من الخيـالة على الميسـرة التي حـملت على ميـمنة المسلمين فـأزالوهم الي القلب فقـتل في حملتـه تلك ستة آلاف مـن الروم ثم قال : والذي نفسي بيـده لم يبق عندهم من الصبـر والجلد غير مـا رأيت واني لأرجو أن يمنحكم الله أكتافهم ... ثم نهد خالد بالقلب حتى صاروا وسط خيول الروم فعند ذلك هربت خـيالتـهم وأسندت بهم في تلك الصحـراء وأفرج المسلـمون لخيـولهم حتى هربوا وأخر الناس صلاتي العشاءين حتى استقر الفـتح وعمد خالد الى رحل الروم وهم الرحالة ففصلوهم آخرهم حتى صاروا كأنهم حائط قد هدم ثم تبعوهم من فـرّ من الخيـالة واقـتحم خـالد عليـهم خندقـهم وجـاء الروم في ظلام الليل إلى الواقوصة فجعل الذين تسلسلوا وقيـدوا بعضهم اذا سقط واحد منهم سقط الدين معه قال ابن جرير وغيره فسقط فـيها وقتل عندها مائة الف وعشرون ألفا سوى من قتل في المعركة وانتهت الروم منهزمة الى هرقل وهو بحمص والمسلمون في آثارهم يقتلون ويأسرون ويغنمون فلما وصل الخبر الى هرقل ارتحل من حمص وجعلها بينه وبين المسلمـين وترس بهـا وقـال هرقل امـا الشـام فـلا شـام وويل لـلروم من المولود المشؤوم)[1] .

هذا هو الوصف العام للمـعركة والذي لا يمكن أن نمر على اليـرموك دون أن نعرضه لكننا نبحث عن عمرو بن العاص - رضي الله عنه - أحد الأربعة الكبار فلا نجده إلا لمامـا لكننا نلقاه في التـحليل العظيم الذي قدمـه باشميـل لمعركة اليـرموك

(١) البداية والنهاية لابن كثير ، مقتطفات من ٧ - ١٤ / ح ٧ م ٤ .

حيث نعرض ما يتسع له البحث في عرض دوره في هذه المعركة الفاصلة التي غيرت مجرى التاريخ وسلمت قيادته من أمة إلى أمة .

أ ـ القيادة العليا للجيش :

(أما القوة الرئيسية التي جعلها القائد خالد ثلاث فرق ، والفرقة كما قلنا تسمى عند الرومان في ذلك العصر لجيون فقد أسند قيادتها إلى ثلاثة من خيرة وأمهر القادة وهم :

١ ـ أبو عبيدة بن الجراح الذي سماه النبي ﷺ أمين الأمة أسند إليه قيادة القلب .

٢ ـ يزيد بن أبي سفيان ، الأموي أسند إليه قيادة الميسرة .

٣ ـ عمرو بن العاص ـ السهمي ـ أسند اليه قيادة الميمنة يسانده شرحبيل بن حسنه.

هؤلاء القادة الثلاثة الذي يمكن أن يطلق على كل واحد منهم اسم رتبة (لواء) [1] هم الذين تولوا قيادة الجيش الرئيسي وأدار دفة المعركة الحاسمة في اليرموك تحت إشراف خالد بن الوليد الذي يمكن أن يطلق عليه اسم مشير لأنه القائد العام للجيش .

ب ـ أعباء عمرو القيادية :

(ثم وزع مهمات القتال على جنده وقادته كما يلي :

ـ أبو عبيدة (القلب) ومهمته منازلة العدو .

ـ عمرو بن العاص (الميمنة) ومهمته منازلة ميسرة العدو .

---

(١) وحسب المصطلحات الحديثة في الجيوش العربية يصلح أن يطلق عليه اسم (فريق ركن) لأنه على رأس فرقة كبري في الجيش إذ الجيش لثلاث فرق آنذاك والفرقة مجموعة ألوية .

قلت وبالاضافة إلى تكليف القائد خالد عمرا قيادة الميمنة لمواجهة الميسرة للعدو فقد كلفه ايضا بالعمل على ضرب العدو في مجنبته ومن خلفه ثم الوصول الى قلب جيشه في حركة التفاف مغطاه سريعة ومباغتة كما كلفه أول الأمر بأن يسد الثغرة التي تركها الروم مفتوحة بين ميسرتهم وميمنة المسلمين لتكون ممرا لإمداداتهم الآتية إليهم من العاصمة دمشق ولتكون لهم ايضا ممرا للانسحاب اذا ما رأوا سير القتال لغير صالحهم وأنهم سيخسرون المعركة وكان خالد خبيرا بالرجال فخالد يعرف أن عمرا من طراز خالد نفسه من حيث الخبرة العسكرية وبعد الدراية الحربية والقدرة الخارقة على اتخاذ القرارات وسرعة تنفيذهاالتصيب مرماها الا أن خالدا ولا شك يتفوق على عمرو في كثير من المزايا وهي التي جعلته في مقدمة عظماء القادة في التاريخ لذلك لم يكن خالد مخطئا حين اختار عَمْراً لهذه المهمة الخطيرة التي أشرنا اليها فقد قام بها عند احتدام المعركة خير قيام فقد نجح في سد الثغرة التي تركها لخط لتموينهم أثناء القتال من دمشق فأكمل بذلك محاصرتهم وهو الذي قال : (قلما يأتي محصور يخير) بسد الثغرة فانقطعت عنهم امداداتهم من دمشق العاصمة القريبة من الميدان .

ثم إن القائد عمرا ولتغير الظروف وبأمر من القائد العام خالد عاد وفتح نفس الثغرة المشار إليها وذلك عندما احتدمت المعركة ورجحت كفة المسلمين في القتال فتحير فرسان الروم وعددهم ثمانون الفا وصاروا يجولون بخيلهم وهم في حالة فوضى يبحثون عن ثغرة يخرجون عن طريقها من الميدان فأدرك خالد ذلك وأصدر أمره إلى عمرو بأن يسحب المفارز التي تسد الثغرة التي تؤدي الى دمشق ليهرب عن طريقها فرسان الروم ففعل عمرو وهنا سار ثمانون ألف فارس روماني وانسحبوا عبر الثغرة دون ان نتعرض لهم قوات الميمنة التي يقودها عمرو فبقيت القوات الرومانية الرئيسية الضاربة (وهم المشاة) دون حماية وبانسحاب الفرسان من الميدان تحقق لخالد ما يهدف اليه من انسحابهم سالمين إذ سهَّل على جيشه أن

يبيد القوة الرومانية الضاربة (المشاة) حيث أبيدوا عن آخرهم في هجوم صاعق شنه عليهم المسلمون ولم ينجح منهم إلا الشريد كما سيأتي تفصيله في موطنه من هذا البحث ان شاء الله)[1] .

جـ - عمرو يعاني هول الحرب :

(قام القائد ماهان بهجوم كاسح عنيف فتخلخلت صفوف المسلمين ، وكان الهجوم الأول من ماهان على ميمنة المسلمين التي تضعضت بعد مقاومة عنيدة شرسة ولكن التفوق العددي الهائل في ميسرة الروم التي يقودها ماهان أجبرت المسلمين على التراجع حتى خالط الروم المسلمين ودخلوا معسكرهم وكان ميمنة المسلمين التي تلقت الهجوم الأول فيها قبائل شتى من الأزد وحضرموت ومذحج وحمير وخولان وزبيد وهؤلاد معروفون في التاريخ ا لقديم والحديث بالشجاعة النادرة فقاوموا الهجوم الروماني مقاومة شرسة عنيدة ولكنهم لم يستطيعوا الثبات الدائم للكثرة الرومانية الهائلة الغامرة فأخذ بعضهم ينفذ صبره فتركوا مواقعهم منهزمين وكان قائد الميمنة عمرو بن العاص ومعه أصحاب الرايات من أهل النجدة والصبرفصبر عمرو وصبر أصحاب الرايات مكانهم لم يتزحزحوا وكما ثبت عمرو وأصحاب الرايات في الميمنة ثبت قائد الميسرة يزيد بن أبي سفيان وأصحاب الرايات لم يتزحزحوا وجالدوا الرومان بثبات منقطع النظير .. غير أن الذي خفف من وقع الكارثة أن قلب الجيش الإسلامي رغم انكشافه بانهزام الميمنة والميسرة من الجانبين - ظل بقيادة خالد وأبي عبيدة صامدا لم يصل الخلل الى صفوفه رغم الهجوم الشرس الضاري الذي شنته قوات الرومان .

وتمكن عمرو بن العاص من تنظيم قوات الميمنة وهي التي (بعد القلب) تعرضت لأشد الهجمات وتمزقت لأنها كانت تقوم بسد الثغرة التي بين جيش

---

(١) حروب المسلمين في الشام / ١٧٣ - ١٧٤ .

الروم وبين طريق امداداتهم من دمشق وتمكن عمرو من اعادة تنظيم قواه وعاد المنهزمون الى مواقعهم وأخذوا في شن هجوم معاكس على الرومان فاستعادوا مواقعهم في الميمنة التي فقدوا ثم بدأوا في مطاردة الروم وكذلك فعل يزيد بن أبي سفيان قائد الميسرة إذ عاد اليه المنهزمون فأعاد تنظيم قوات الميسرة وشن بهم على الرومان هجوما عنيفا فاشتد ساعد القلب وأدرك الروم الذي يحاولون تحطيم قلب جيش الإسلام واحتلال مقر القائد العام أدركوا تغيير الوضع والهجوم العنيف المعاكس الذي قامت به قوات ميمنة وميسرة المسلمين فسادهم الاضطراب وتوقف هجومهم بل أخذوا بالتراجع بحثا عن السلامة واغتنم القائد خالد الذي كان في أشد الصراع مع الروم الفرصة عندما رأى الميمنة والميسرة تعودان الى حالتهما من الثبات فأمر بالهجرم العام على الرومان فاستجاب المسلمون وقام الجيش الاسلامي كله بهجوم شامل معاكس على الروم وبالتنسيق مع الميمنة والميسرة نجح هذا الهجوم المعاكس فقد تحول الى مطاردة للرومان وهكذا تحول الوضع وتغير لصالح المعسكرالإسلامي وبدأت علائم النصر الحاسم تلمع في الأفق ولو لاثبات أصحاب الرايات وقادة الفرق والكتائب وأهل النجدة بصفة خاصة وحدة الفدائيين التي قادها عكرمة وأبيدت عن اخرها حين تصديها لهجوم الروم على قلب الجيش الإسلامي ومقر القيادة العامة لكانت هزيمة الجيش الإسلامي كاملة منكرة ... وأخذ جيش الإسلام يضغط بشراسة على الجيش الروماني الذي قد نال منه التعب الى حد الإعياء لمباشرته الهجوم العنيف على المسلمين دون جدوى طوال النهار ولم يستطع الجيش الروماني المرهق الصمود في وجه هجوم المسلمين المعاكس فاضطربت قواته وانفرط عقد نظامها .

وكان أقوى ما في الجيش الروماني سلاح الفرسان وهو ثمانون ألفا وهذا السلاح أيضا نال الفتور وكان خالد يخشاه وكان عمرو بن العاص عندما أعاد

تنظيم الميمنة التي تمزقت طوابيره رجع فقفل الثغرة التي تركها الرومان مفتوحة نحو دمشق لتكون خطا للتموين ومنفذا للانسحاب نحو دمشق إذا ساءت الحالة بالنسبة لهم وهنا وعندما لاحظ خالد أن فرسان الروم يبحثون عن مخرج يهربون منه بعد أن يئسوا من النصر أصدر أمره السريع الى قائد الميمنة عمروبن العاص بأن لا يقاتل فرسان الروم ، وأن يأمر وحداته بفتح الثغرة بين الميمنة والميسرة ليذهبوا عبرها سليمين حيث شاؤوا .. وسارع عمر الى تنفيذ أمرالقائد خالد ففتح الثغرة نحو دمشق فتدفق عبرها حوالي ثمانين ألف فارس من الروم تاركين الميدان وتاركين القوات الرومانية الضاربة المشاه دونما حماية وتحول الوضع لصالح المسلمين مائة في المائة لأنهم انفردوا بالمشاه الرومان الذين تركوا بدون حماية بعد انسحاب فرسانهم من الميدان وزادت حالة الروم سوءا أن كان لدى ا لمسلمين في الميدان عشرة آلاف فارس ليس في الميدان فارس روماني واحد يواجههم وزادت حالة الروم سوءا أكثر فأكثر أن ثمانين ألفا من مشاتهم كانوا مترابطين في السلاسل مما سهل على جند الإسلام إبادتهم عن بكرة أبيهم إما ضربًا بالسيف أو دفعا الى الواقوصة وهي هاوية سحيقة بين جبلين في اليرموك لقد سيطرت القوات الإسلامية بعد فرار فرسان الروم على ميدان المعركة وصاروا يضعون السيف حيث شاؤوا وصار المقرنون في السلاسل من الرومان يهوي بعضهم ببعض في الواقوصة حتى أبيد الجميع عن بكرة أبيهم فكانت هزيمة مدمرة لم يشهد الرومان مثلها في تاريخهم ولم تنج الا قلة قليلة من المشاة تمكنوا من الهرب ويقدر الاستاذ بسام العسلي في كتابه (فن الحرب) قتلى الرومان بمائة وعشرين الفا وقتلى المسلمين بثلاثة آلاف وقد اعترفت المصادر الأجنبية [1] بالانتصار الساحق الذي حققه

---

(١) راجع كتاب حروب الإسلام في الشام الصفحات ٢٠٣ ـ ٢٢٨ حيث ساق العديد من أقوال القادة الغربيين عن ذلك .

المسلمون على الرومان في اليرموك كما اعترفت بإبادة الجيش البيزنطي ومحوه من الوجود.

وفي الواقع أن عمرو بن العاص كان باستثناء القلب أكثر الجبهات تعرضا لشراسة الهجوم الروماني لأنه يواجه ميسرتهم التي تحمي خطوط امداداتهم من دمشق ولأنه تمكن من قطع هذه الخطوط لهذا صارعرضة لثقل الهجوم الروماني فعانى الأهوال منهم بدليل أن الروم هدموا صفوف ميمنته مرتين ففي المرة الأولى اخترقوها فصابر وجاهد حتى أعاد تنظيمها وسد ثغراتها فكروا عليه من جديد واخترقوا ميمنته فاشتد عليه الأمر ولكن موقف عمرو بن معد يكرب وأبي هريرة وقبيلتيهما وعملية الفدائيين الأربعمائة بقيادة عكرمة خففا عليه الوطأة فتمكن للمرة الثالثة من تنظيم صفوف ميمنته ثم شارك بفعالية في الهجوم المعاكس على الروم الذي انتهى بهزيمتهم الساحقة(١) .

وكان أهم ما غامر به أن أخذ الراية من صاحبها الذي بدأ يتراجع . وتقدم زاحفاً أمام المسلمين . فاستحيا الأبطال من ذلك ومضوا خلفه رغم جبال الروم التي أمامهم كما يقول موسى بن عمران بن نفاح (لما رأى عمرو بن العاص يوم اليرموك صاحب الراية ينكشف بها أخذها منه ثم جعل يتقدم وهو يصيح إلي إلي يا معاشر المسلمين . فجعل يطعن بها قدمًا وهو يقول : إصنعوا كما أصنع وهو يرفعها وكأن عليها المطر من العلق والدم)(٢) .

من اليرموك الى دمشق بأمر عمر :

وأما سيف فيما ذكر من السري عن شعيب عنه عن أبي عثمان عن خالد وعبادة فإنه ذكر في خبر أن البريد قدم على المسلمين من المدينة بموت أبي بكر

---

(١) حروب الإسلام في الشام لمحمد أحمد باشميل مقتطفات/ من ٢٠٢ ـ ٢٢٢ .

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر أحمد ١٣ / ٥١١ .

وتأمير أبي عبيدة وهم باليرموك وقد التحم القتال بينهم وبين الروم ، وقصّ من خبر اليرموك وخبر دمشق غير الذي اقتصه ابن اسحاق وأنا ذاكر بعض الذي اقتص من ذلك)[1] .

وندع لشيخ المورخين الطبري يحدثنا عن فتح دمشق برواته السري عن شعيب عن سيف حيث كان دور عمر رضي الله عنه دور المشاركة في هذا الفتح ونشهد من خلال حديث الطبري تجديد مهمة عمرو رضي الله عنه في فتح فلسطين من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

كتب إلى السري عن شعيب عن سيف عن أبي عثمان عن خالد وعبادة قالا: لما هزم الله جند اليرموك وتهافت أهل الواقوصة وفرغ من المقاسم والأنفاق وبعث بالأخماس وسُرِّحَت الوفود استخلف أبو عبيدة على اليرموك بشير بن كعب بن أبي الحميري كي لا يغتال بردة ولا تقطع الروم على مواده وخرج أبو عبيدة حتى ينزل بالصفر وهو يريد اتباع الفالة[2] ولا يدري يجتمعون أو يفترقون فأتاه الخبر بأنهم أرادوا الى فحل وأتاه الخبر بأن المدد قد أتى أهل دمشق من حمص فهو لا يدري أبدمشق يبدأ أم بفحل من بلاد الأردن فكتب في ذلك الى عمر وانتظر الجواب وأقام بالصفر فلما جاء عمر فتح اليرموك أقر الأمراء على ما كان استعملهم عليه أبو بكر الا ما كان من عمرو بن العاص وخالد بن الوليد فانه ضم خالدًا الى أبي عبيدة وأمر عَمْرًا بمعونة الناس حتى يصير الحرب الى فلسطين ثم يتولى حربها ولما جاء عمر الكتاب من أبي عبيدة بالذي ينبغي أن يبدأ به كتب إليه: أما بعد فابدأوا بدمشق فانهدوا لها فإنها حصن الشام وبيت مملكتهم واشغلوا

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٤٣٥ .

(٢) الفالة : المنهزمون .

عنكم أهل فحل بخيل تكون بازائهم في نحورهم وأهل فلسطين وأهل حمص فإن فتحها الله قبل دمشق كان فذاك الذي تحب وان تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق فلينزل بدمشق من يقيم بها ودعوهم . وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تغيروا على فحل فان فتح الله عليك فانصرف أنت وخالد إلى حمص ودع شرحبيل وعمرا وأخلهما بالأردن وفلسطين وأمير كل بلد وجند على الناس حتى يخرجوا من بلده فسرح أبو عبيدة الى فحل عشر قواد ... وعمارة بن مخش قائد الناس ومع كل رجل خمسة قواد وكان الرؤساء تكون من الصحابة حتى لا يجدوا من يحتمل ذلك منهم . فساروا من الصفر حتى نزلوا قريبا من فحل فلما رأت الروم أن الجنود تريدهم ثبقوا الماء حول فحل فأردغت[2] الأرض ثم وحلت واغتم المسلمون من ذلك فحبسوا عن المسلمين بها ثمانين ألف فارس وكان أول محصور بالشام أهل فحل ثم أهل دمشق وبعث أبو عبيدة ذا الكلاع حتى كان بين دمشق وحمص ردءا وبعث علقمة بن حكيم ومسروقًا فكان بين دمشق وفلسطين والأمير يزيد ففصل وفصل بأبي عبيدة من المرح وقدم خالد بن الوليد وعلى مجنبته عمرو وأبو عبيدة وعلى الخيل عياض وعلى الرُجَّل شرحبيل فقدموا على دمشق وعلهيم نسطاس بن نسورس فحصروا أهل دمشق ونزلوا حواليها فكان أبو عبيدة على ناحية وعمرو على ناحية ويزيد على ناحية وهرقل يومئذ بحمص ومدينة حمص بينه وبينه فحاصروا أهل دمشق نحوا من سبعين ليلة حصارا شديدا بالزحوف والترامي والمجانيق وهم معتصمون بالمدينة يرجون الغياث وهرقل منهم قريب وقد

---

(١) يذكر ابن عساكر في تاريخه أن أبا عبيدة بعث عمرو بن العاص بعد فراغه من اليرموك إلى قنسرين فصالح أهل حلب وكتب لهم كتاباً.

(٢) أردغت : توحلت كثيرا .

(٣) الرُجَّل : المشاة .

استمدوه وذو الكلاع بين المسلمين وبين حمص على رأس ليلة من دمشق كأنه يريد حمص وجاءت خيول هرقل معينة لأهل دمشق فأشجتها الخيول التي مع ذي الكلاع وشغلتها عن الناس فأرزوا ونزلوا بازائه وأهل دمشق على مالهم فلما أيقن أهل دمشق أن الأمداد لاتصل الى دمشق فشلوا ووهنوا وأبلسوا[1] وازداد المسلمون طمعا فيهم وقد كانوا يرون (أي الروم) أنها كالغارات قبل ذلك اذا هجم البرد قفل الناس فسقط النجم والقوم مقيمون فعند ذلك انقطع رجاؤهم، وندموا على دخول دمشق وولد للبطريق[2] الذي دخل على أهل دمشق مولود فصنع[3] عليه فأكل القوم وشربوا وغفلوا عن موقفهم وكان لا يشعر بذلك أحد من المسلمين الا ما كان من خالد فانه كان لا ينام ولا ينيم [4] فلما أمسى من ذلك اليوم نهد[5] ومن معه من جنده الدين قدم بهم عليهم وتقدمهم هو والقعقاع بن عمرو ومذعور بن عدي وأمثالهم من أصحابه في أول يومه وقال : إذا سمعتم تكبيرنا على السور فارقوا[6] الينا وانهدوا للباب فلما انتهى الى الباب الذي يليه هو وأصحابه المتقدمون رموا بالحبال الشرف وعلى ظهورهم القرب التي قطعوا بها خندقهم فلما ثبت لهم وهقان تسلق فيهما القعقاع ومذعور ثم لم يدعا أحبولة الا اثبتاها والأوهاق بالشرف وكان المكان الذي اقتحموا منه أحصن مكان يحيط بدمشق أكثره ماء وأشده مدخلا وتوافوا لذلك فلم يبق ممن دخل معه أحد الا ما

---

(٢) أبلسوا : تحيروا وصعقوا وأسقط في أيديهم .

(٣) البطريق : القائد من قواد الروم .

(٤) الأوهاق : جمع وهق بالتحريك الحبل في طرفيه انشوطة يطوح في عنق الدابة أو الانسان حتى يؤخذ .

(٥) نهد : نهض مضى على كل حال .

(٦) فارقوا الينا : فاصعدوا الينا .

(١) حدر : نزل .

أودنا من الباب حتى استووا على السور حدر[1] عامة أصحابه وانحدر معهم وخلف من يحمي ذلك المكان لمن يرتقي وأمرهم بالتكبير فكبر الذين على رأس السور فنهد المسلمون الى الباب ، ومال إلى الحبال بشر كثير وثبتوا فيها وانتهى خالد إلى أول من يليه فأنا مهم[2] وانحدر إلى الباب فقتل البوابين وثارا أهل المدنية وفزع سائر الناس فأخذوا مواقفهم ولا يدرون ما الشأن وتشاغل أهل كل ناحية بما يليهم وقطع خالد بن الوليد ومن معه أغلاق الباب بالسيوف وفتحوا للمسلمين فأقبلوا علهيم من داخل حتى ما بقي من باب خالد مقاتل الا أنيم ولما شد خالد على من يليه وبلغ منهم الذي أراد عنوه أرز[3]من أفلت الى أهل الأبواب التي تلي غيره وقد كان المسلمون دعوهم الى المشاطرة[4] فأبوا وأبعدوا فلم يفجأ هم إلا وهم يبوحون لهم بالصلح ، فأجابوهم وقبلوا منهم وفتحوا اليهم الأبواب فدخل أهل كل باب صلحاً مما يليهم ودخل خالد مما يليه عنوة فالتقى خالد والقواد في وسطها هذا استعراضًا وانتهابا وهذا صلحا وتسكينا فأجرو ناحية خالد مجرى الصلح وبعثوا بالبشارة الى عمر وقدم على أبي عبيدة كتاب عمر بأن اصرف جند العراق الى العراق وأمرهم بالحث الى سعد بن مالك ... وخرج علقمة ومسروق الى إيلياء فنزلا على طريقها وبقي بدمشق مع يزيد بن أبي سفيان من قواد أهل اليمن عدد وبعث يزيد دحية بن خليفة الكلبي في خيل بعدما فتح دمشق الى تدمر وأبا الزهراء القشيري الي البثنية وحوران فصالحوهما على صلح دمشق وليا القيام على فتح ما بعثا إليه)[5] .

---

(١) حدر : نزل .

(٢) أنامهم : قتلهم .

(٣) أرز : أوى .

(٤) المشاطرة : المصالحة على النصف .

(٥) تاريخ الطبري ٣ / مقتطفات من ٤٣٦ - ٤٤٢ .

وقال محمد بن إسحاق : كان فتح دمشق في سنة أربع عشرة في رجب .

من دمشق إلى فحل وبيسان :

لقد كانت القيادة في الشام ليزيد بن أبي سفيان والقيادة في الأردن لشرحبيل بن حسنة والقيادة في فلسطين لعمرو بن العاص أما أبو عبيدة فقد انتهت له القيادة العامة وجرت بفحل في الأردن معركة من أعنف وأشرس المعارك بين المسلمين بقيادة شرحبيل ومعاونيه عمرو بن العاص وأبي عبيدة بن الجراح (فأسلمتهم - أي الروم - هزيمتهم وحيرتهم إلى الوحل فركبوه ولحق أوائل المسلمين بهم وقد وحلوا فركبوهم وما يمنعون يد لامس فوخزوهم بالرماح فكانت الهزيمة في فحل وكان مقتلهم في الرداع وأصيب الثمانون ألفا من الروم لم يفلت منهم الا الشريد وانصرف ابو عبيدة بخالد من فحل الى حمص وصرفوا شمير بن كعب معهم ومضوا بذي الكلاع ومن معه وخلفوا شرحبيل ومن معه ولما فرغ شرحبيل من وقعة فحل نهد في الناس ومعه عمرو بن العاص الى أهل بيسان وأبو الأعور والقواد معه على طبريه وقد بلغ افناء أهل الأردن ما لقيت دمشق وما لقي سقلار والروم بفحل وفي الردعة ومسير شرحبيل اليهم ومعه عمرو بن العاص والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو يريد بيسان وتحصنوا بكل مكان فحصروهم أياما ثم إنهم خرجوا علهيم فقاتلوهم فأنا موا من خرج اليهم وصالحوا بقية أهلها فقيل ذلك على صلح دمشق وبلغ أهل طبرية الخبر فصالحوهم وأهل بيسان على صلح دمشق) [1] .

---

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبري ، مقتطفات ٣ / ٤٤٥ - ٤٤٤ .

عمرو فاتح فلسطين

لقد كانت المهمة الأولى التي كُلّف بها عمرو بن العاص من الصديق هي فتح فلسطين .

(لما قفل أبو بكر من الحج سنة اثنتي عشرة جهز الجيوش إلى الشام . فبعث عمرو بن العاص قبل فلسطين فأخذ طريق المعرقة على أيله وبعث أبا عبيدة ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل ابن حسنة وأمرهم أن يسلكوا التبوكية على البلقاء من علياء الشام)(١).

وشهدنا عمرو بن العاص في فلسطين حيث بقي قرابة عام كامل يتجنب الاصطدام مع جيش الروم الذي كان قوامه مائة الف بينما كان عدد الجيش الإسلامي سبعة آلاف إلى أن توجهت القوات الإسلامية إلى أجنادين وكانت المعركة الفاصلة الأولى في فلسطين وقتل قرابة ثمانين الفا من جيش الروم ثم توجهت القوات مجتمعة فخاضت معركة اليرموك وفتحت دمشق .

ثم عاد التكليف بالمهمة نفسها من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

(وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تغيروا على فحل فإن فتح الله عليكم فانصرف انت وخالد إلى حمص ودع شرحبيل وعمرا وأخلهما بالأردن وفلسطين وأمير كل بلد وجند على الناس حتى يخرجوا من امارته) (٢) .

وعاد القائدان عمرو وشرحبيل حيث شارك عمرو شرحبيل وتحت إمرته في فتح الأردن . وبقيت المهمة الأخيرة العسيرة مهمة فتح جنوب الشام والتي أوكلت الى عمرو بن العاص .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبري ٣ / ٣٨٧ .

(٢) المصدر نفسه ٣ / ٤٣٨ .

ولنتابع معه رحلته في ذلك الفتح المبين .

وقيل أن تتابع هذه الرحلة نلاحظ أن عمرو قد فتح ا لعديد من البلدان قبل وصوله الى أجنادين أيام الصديق كما يشير البلاذري بسنده عن مشايخه بقوله :

قالوا : كانت أول وقعة واقعها المسلمون الروم في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه أرض فلسطين وعلى الناس عمرو بن العاص ثم ان عمرو بن العاص فتح غزة في خلافة أبي بكر رضي الله عنه)[1] .

لكن تلك الفتوحات عادت فسيطر الرومان عليها ثانية حين شغل الجيش الإسلامي باليرموك وشمال الشام فكانت عودة جديدة لهذه الأرض .

(ولكن الرومان تمكنوا من السيطرة من جديد على اجنادين في حالة انشغال المسلمين بالقتال في المحور الشمالي بالشام وأسند الرومان قيادة حاميات أجنادين إلى أشجع وأدهى قائد من قوادهم وهو الأرطبون الذي لم يستطع قهره والتغلب عليه الا داهية العرب الأمير عمرو بن العاص الذي أطلق عليه الخليفة عمر ابن الخطاب لقب (أرطبون العرب) إعجابا بذكائه ودهائه وقدرته على تدبيرالمكائد في الحروب ولا أحد أعلم بالرجال من عمر بن الخطاب ولذلك أسند إلى عمرو بن العاص مهمة معالجة الاستيلاء على المحور الجنوبي الغربي الذي أصعب وأخطر ما فيه قوة الأرطبون الرابض في موقع أجنادين التي كتب لها أن تشهد الصدامات الدامية المريعة مرات ومرات بين المسلمين والروم حيث قتل فيها وفي معركتين ضاريتين ما يقارب المائتي ألف من الجنود والرومان وحلفائهم العرب المتنصرة في المرة الأولى على يد خالد بن الوليد وفي المرة الثانية علي يد عمرو بن

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري / ١٤٤ .

العاص حيث بالحيلة والدهاء الحربي تمكن من التغلب علي ثعلب بيزنطا المسمى الأرطبون وانتزع منه أجنادين بعد معارك ضارية ومبارزة بالحيل والمكائد فاز فيها عمرو بن العاص)[١] .

قوات الروم الرئيسية :

وذكر سيف عن أبي عثمان وحارثة عن خالد وعبادة قالا :

انصرف أبوعبيدة وخالد الى حمص من فحل ونزل عمر وشرحبيل على بيسان فافتتحاها وصالحته الأردن واجتمع عسكر الروم بأجنادين وبيسان وغزة وكتبوا إلى عمر بتفرقهم فكتب الى يزيد بأن يدفئ ظهورهم بالرجال وأن يسرح معاوية إلى قيساريه[٢] وكتب إلى عمرو بأمره بصدم الأرطبون وإلى علقمة بصدم الفيقار) [٣].

لقد كانت مواقع الروم التي تجمعت فيها جيوشهم خمسة هي قيسارية وغزة وأجنادين والرملة وإيلياء وحين راجع عمو هذه الخريطة وجد أن انشغاله بجبهة من هذه الجبهات قد يؤدي الى انقضاض جبهة أخرى عليه فتجعله بين فكي الكماشة وتقضي عليه وبطبيعته اليقظة الحذرة الواعية ومعرفته بامكانيات جيشه رأى أنه لا يستطيع بهذه القوات أن يواجه هذه الجبهات الخمس .

فقرر أن يبعث بكتابه إلى عمر يستشيره ويستمده وعمرو يعلم أنه أمام قادة عظام من ساسة العالم ودهاته وعباقرته العسكريين فلا بد أن يعد لهذا الأمر أهبته .

---

(١) حروب المسلمين بالشام لباشميل /

(٢) قيسارية مدينة بين عكا ويافا على ساحل البحر .

(٣) حروب المسلمين بالشام لباشميل / ٤٧٥ .

(وصمد عمرو بن العاص الى الأرطبون ومر بإزائه ، وخرج معه شرحبيل بن حسنة على مقدمته واستخلف على عمل الأردن أبا الأعور وولى عمرو ابن العاص مجنبته عبد الله بن عمرو [١] وجنادة بن تميم المالكي (مالك بن كنانه) فخرج حتى ينزل على الروم بأجنادين . والروم في خنادقهم وحصونهم وعليهم الأرطبون وكان الأرطبون أدهى الروم وأبعدها غورا وأنكاها فعلا وقد كان وضع بالرملة جندا عظيما وبايلياء جندا عظيما وكتب عمرو الى عمر بالخبر ..) [٢] .

إنه يعلم الآن أنه مسؤول عن فلسطين كلها وليس بجواره خالد بن الوليد يضعان الخطط معا أو يتلقى منه الخطة لتنفيذ ما يخصه منها . فأي خلل سوف يتحمل نتائجه والقائد البصير هو الذي يدرك الساحة كلها قبل أن يخطو أي خطوة وهذا ما فعله عمرو رضي الله عنه لقد وجد أن القوات التي لديه يمكن أن تسد ثلاث جبهات فقط جبهة ايلياء وجبهة الرملة وجبهة أجنادين ولا يزال أمامه جبهتا قيسارية وغزة وليس لديه من القوات ما يكفي لسد هاتين الجبهتين . وتجربته في العام الماضي والذي قبله في فلسطين علمته صعوبة المواجهة بقوات قليلة وكيف بقي عاما كاملا يتجنب المواجهة مع قائد الروم في أجنادين ويكتفي بالمناوشات الجانبية لكن الزمن له قيمته عند القادة الكبار فهو لن ينتظر عاما آخر قبل المواجهة ولهذا سرعان ما كتب الى عمر رضي الله عنه يعلمه بتفرق الروم وتعدد جبهاتهم وحاجته الى قوات جديدة اذا قرر خوض المعركة الفاصلة مع دهاة الأرض تذارق والأرطبون (وكتب عمرو الى عمر بالخبر فلما جاءه كتاب عمرو

---

(١) لأول مرة يبرز ابنه عبد الله أحد القادة الكبار في الفتوح .

(٢) المصدر نفسه / ٦٠٥ .

قال قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظروا عم نتفرج وجعل عمر رحمه الله من لدن وجّه أمراء الشام يمد كل أمير جند ويرميه بالأمداد حتى إذا أتاه كتاب عمرو بتفريق الروم كتب الى يزيد ان يبعث معاوية بخيله الى قيساريه وكتب الى معاويه بإمرته على قتال أهل قيساريه وليشغلهم عن عمرو وكان عمرو قد استعمل علقمة بن حكيم الفراسي ومسروق بن فلان العكي على قتال أهل إيلياء فصاروا بإزاء أهل إيلياء فشغلوهم عن عمرو ، وبعث أبا أيوب المالكي الى الرملة وعليها التذارق وكان بازائهما ولما تتابعت الأمداد على عمرو بعث محمد بن عمرو [1] مددا لعلقمة ومسروق وبعث عمارة بن عمرو بن أمية الضمري مددا لأبي أيوب وأقام عمرو على أجنادين) [2] .

أما غزة فقد جاءت الأوامر إلى علقمة بن مجزز من أمير المؤمنين أن يتجه إلى غزة لمواجهة قائد ثالث من قادة الروم التاريخيين هو الفيقار وهكذا غدت الجبهات الرئيسية ثلاثة هي غزة وقيسارية وأجنادين (ولما توجه علقمة الى غزة وتوجه معاوية الى قيساريه صمد عمرو بن العاص الى الأرطبون)[3] والجبهات الفرعية جبهتان جبهة إيلياء وجبهة الرملة وعلى قيادة جبهة ايلياء علقمة بن حكيم الفراسي ومعه مسروق بن فلان العكي وعلى قيادة جبهة الرملة أبو أيوب المالكي ولا نعني بأن هاتين الجبهتين فرعيتان أنهما ليستا ذات أهمية إنما نعني أنهما بقيتا تحت قيادة عمرو بينما أعطي معاوية في قيساريه وعلقمة بن مجزز في غزة حرية القيادة لمواجهة العدو حيث جاء هما تكليف مباشر من أمير المؤمنين .

---

(١) وها هو ابنه الثاني محمد يشارك في قيادات المعارك بجوار أبيه وأخيه .

(٢) تاريخ الطبري ٣ / ٦٠٠٥ .

(٣) المصدر نفسه ٤/ ٦٠٥.

(فكتب الى يزيد بأن يدفيء ظهورهم بالرجال وأن يسرح معاوية إلى قيسارية وكتب الى عمرو يأمره بصدم الأرطبون وإلى علقمة بصدم الفيقار)[1] .

معاوية ومعركة قيساريه :

كان معاوية رضي الله عنه شابا مغمورا بجوار أخيه يزيد لكن معالم النجابة والعبقرية كانت تلوح فيه ولعلم عمر رضي الله عنه بالرجال وفراسته فيهم لم يكتف بتكليف يزيد لأخيه معاوية بالاتجاه الى قيسارية بل وجه له كتابا خاصا منه ليضعه على محك التجربة فولاه هذه الجبهة الضخمة بقوله :

(أما بعد فإني قد وليتك قيساريه فسر إليها واستنصر الله علهيم وأكثر من قول : لا حول ولا قو إلا بالله الله ربنا وثقتنا ورجاؤنا ومولانا نعم المولى ونعم النصير)[1] .

لقد كان معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما من مدرسة عمرو ؛ ودهاء وحكمة وفيادة وعبقرية . وكانت هذه أول فرصة تتاح له لممارسة هذه الكفاءات العالية وعمر رضي الله عنه في المدينة يعيش هذه المعركة بأعصابه وينتظر أخبارها على أحر من الجمر .

(وسار معاوية في جنده حتى نزل على أهل قيسارية وعليهم أبنى فهزمه وحصره في قيساريه ثم إنهم جعلوا يزاحفونه وجعلوا لا يزاحفونه مرة إلا هزمهم وردهم الى حصنهم ثم زاحفوه آخر ذلك وخرجو من صياصيهم فاقتتلوا في حفيظة واستماته فبلغت قتلاهم في المعركة ثمانين الفا وكملها في هزيمتهم مائة ألف)[2] .

---

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٦٠٤ .

(٢) المصدرنفسه ٣ / ٦٠٤ .

ولا شك أن هذا الظفر العظيم قد كان صفحة ناصعة في تاريخ معاوية أثبتت جدارته وعبقريته المغمورتين ولا نعرف هذه عند أمير المؤمنين الا من خلال البشائر بالفتح .

(وبعث بالفتح مع رجلين من بني الضبيب ثم خاف منهما الضعف فبعث عبد الله بن علقمة الفراسي وزهير بن الجلاب الخثعمي وأمرهما ان يتبعاهما ويسبقاهما فلحقاهما وطوياهما[1] وهما نائمان وابن علقمة يتمثل وهي هجيراه [2] .

أرّق عيني أخوا جذام . كيف أنام وهما أمامي

إذ يرحلان والهجير طامي أخو حشيم وأخو حرام

وانتهى بريد معاوية إلى عمر بالخبر فجمع الناس وأباتهم على الفرح ليلاً فحمد الله وقال : لتحمدوا الله على فتح قيساريه) [3] .

وإن كان البلاذري يشير إلى أن قيسارية حوصرت عدة مرات وفتحت على يد معاوية اذ يقول : (حدثني محمد بن سعد قال : حدثني الواقدي قال : اختلف علينا في أمر قيسارية فقال قائلون : فتحها معاوية وقال آخرون : بل فتحها عياض ابن غنم بعد وفاة أبي عبيدة وهو خليفته وقال قائلون : بل فتحها عمرو بن العاص، وقال قائلون : خرج عمرو بن العاص الى مصروخلف ابنه عبد الله فكان الثبت في ذلك والذي اجتمع عليه العلماء : أن أول الناس الذي حاصرها عمروبن العاص نزل عليها في جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة فكان يقيم عليها ما أقام .

---

(١) طوياهما : تجاوزهما .

(٢) هجيراه : دأبه وشأنه .

(٣) المصدر نفسه / ٦١٤ .

فإذا كـان للمسـلمين اجتـماع في أمر عـدوهم سار إليـهم فشـهد أجنادين وفـحل والمرج ودمشق واليـرموك ثم رجع الى فلسطـين فحاصـرها بعد إيليـاء ثم خرج الى مصـر من قيسـارية وولي يزيد بن أبي سفـيان بعد أبي عـبيـدة فوكل أخاه ومـعاوية بمحاصرتها وتوجه الي دمشق مطعونا فمات بها .

وقال غـير الواقدي : ولى عـمر يزيد بن أبي سـفيان فلسـطين مع ما ولاه من أجناد الشام وكـتب اليه يأمره بغـزو قيساريه وقـد كانت حوصـرت من قبل فنهض اليها في سبعة عشر الفا فقاتله أهلها ثم حصرهم . ومرض في آخرسنة ثماني عشرة فمـضى إلى دمشق واستـخلف على قيسـارية أخاه معـاوية بن أبي سفيـان ففتحـها وكتب اليـه بفتحـها فكتب به يزيد الى عمـرو ولما توفي يزيد بن أبي سفيـان كتب عمر الي مـعاوية بتوليه ما كـان يتولاه فشكر أبو سفيـان ذلك له وقال : وصلتك يا أمير المؤمنين رحم)[1].

والذي لا شك فيه أن معاوية رضي الله عنه قد افتتح قيسارية إنما الخلاف في سنة هذا الفتح .

علقمة وفتح غزة :

ولا شك ان عَمْـرا رضي الله عنه قـد ابتهج كـثيرا بسـقوط جبهـة قيـساريه حيث تجعله غـير قلق لأن يؤتي من خلفه وأن هذا سيفت من عضـد الروم ويساعد على انهيار روحهـم المعنوية وبقي ينتظر أخبار أخيه علقـمة في غزة .

(وانطلق علقمة بن مجـزز فحصر الفيقار بغـزة ، وجعل يراسله فلم يشفه مما يريد أحد فأتاه كـأنه رسول علقمة ، فأمر الـفيقار رجلا أن يقعـد له بالطريق فإذا مر قتله ففطن علقمة فقال : إن معي نفـراًشركائي في الرأى فأنطلق فأتيك بهم فيبعث إلى ذلك الرجل لا تعـرض له فـخـرج من عنده ولم يعـد وفـعل كـمـا فعل عـمـرو بالأرطبون) [2] .

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري / ١٤٥ ـ ١٤٦ .

(٢) تاريخ الطبري ٣ / ٦٠٤ .

(وهكذا نجحت حيلة علقمة الألمعي فنجا من الاغتيال الذي كان مدبرا له وبعد أن وصل علقمة مقر قيادته وكان قد عرف مواطن الضعف في التحصينات الرومانية بالمدينة أمر في الحال بهجوم حاسم مباغت على غزة مستفيدا من معلوماته الخاصة .

فهجمت قوات الإسلام على غزة في ضراوة وتنظيم هجمة رجل واحد في الحال فهب القائد الفيقار واستيقن انه لم يكن مخطئا أول الأمر حين اعتقد أن الذي كان يفاوض في مجلسه داخل المدينة وعدل عن اغتياله هو القائد العام لقوات الإسلام التي تتولى محاصرة غزة .

وأمام الهجوم الصاعق المفاجيء المنظم عل غزة عن طريق مواقع الضعف في التحصينات ارتبكت القوات الرومانية المدافعة عن المدينة وتخاذلت ثم انهارت مقاومتها فاقتحم المسلمون المدينة ، وما هي الا لحظات حتي أصبحوا وسط المدينة يشددون قبضتهم عليها ويتمركزون في معاقلها ويضعون السيف في المحاربين الروم المكلفين بالدفاع عنها حتى تمت لهم السيطرة الكاملة عليها .

وهكذا وبعد حصار طويل ومصاولات ومجاولات حربية وسياسية نجح البطل علقمة بن مجزز في فتح تلك المدينة الاستراتيجية الهامة (غزة) وأصبح بعد فتحها الطريق مفتوحا للمسلمين إلى مصر براً وبحراً حيث كانت غزة تمثل خط الدفاع الأول عن الإقليم الغربي من أقاليم الأمبراطورية الرومانية وهو (مصر) وسقوط قيسارية وتدمير الجيش العظيم المدافع عنها على يد جيش معاوية. وبسقوط غزة نفسها وتوابعها من المرافىء الصغيرة ثم للمسلمين الاستيلاء على جميع الشريط الساحلي في الشام الممتد من الاسكندرونة شمالا حتى رفح جنوبا ولم يبق من الموانئ البحرية سوى مدينة طرابلس التي استعصت على المسلمين حتى

تمكن الأمير معاوية من فتحها في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان)[1] .

هزيمة الأرطبون وفتح أجنادين :

وأطمأن عمرو رضي الله عنه بعد فتح قيسارية وغزة الى أنه قادر بعدها على خوض المعركة الفاصلة الثانية باجنادين بعد أن خاض المعركة الأولى مع أخيه خالد بن الوليد وانتهت بمقتل مائة ألف أو تزيد من الروم وفناء الجيش الثاني بأكمله وكان عمرو مطمئنا الى حاميته في الرملة وحاميته في ايلياء فتفرغ لخوض معركته مع الأرطبون في أجنادين وقد شارك ولداه في المعركة عبد الله ومحمدا . إذا كان عبد الله على رأس ميمنة جيشه . أما ولده الآخر محمدا فقد أرسل مددا لعلقمة ومسروق في إيلياء .

(وأقام عمرو على أجنادين لا يقدر من الأرطبون على سقطة ولا تشفيه الرسل فوليه بنفسه فدخل عليه كأنه رسول ، فأبلغه ما يريد وسمع كلامه وتأمل حصونه حتى عرف ما أراد وقال أرطبون في نفسه والله ان هذا لعمرو أو إنه بالذي يأخذ عمرو برأيه ما كنت لأصيب القوم بأمر أعظم عليهم من قتله . ثم دعا حرسيا فساره بقتله فقال :

اخرج ، فقم مكان كذا وكذا فاذا مر بك فاقتله وفطن له عمرو) .

انها مغامرة جريئة جدا لا تتناسب مع شخصية عمرو الحذرة الواعية اليقظة التي تحسب كل الحسابات ومن جميع الجهات قبل أن تقع في مثل هذا المأزق الصعب . فلقد جنب نفسه المواجهة سنة كاملة مع قائد الروم وبقي معه بين كروفر حتى أتته قوات خالد.

---

(١) حروب المسلمين في الشام لمحمد أحمد باشميل / ٤٨٢ - ٤٨٣ .

كيف نجمع بين هذين الجانبين في شخصية عمرو رضي الله عنه .

جانب الحذر والتريث واليقظة ، وجانب المغامرة والتعرض للأخطار الماحقة.

يظهر ابتداء أن هذين الجانبين متناقضان لكن في سبر أغوارهما ، نلاحظ أنهما يتممان بعضهما البعض فالقائد الذي يخشى المغامرة لا يحقق انتصارات هائلة وما مغامرة خالد رضي الله عنه بجيشه الذي مضى به من العراق إلى الشام الا صورة من صور البطولة الفذة في التاريخ إنه يعد للأمر أهبته بكل ما يملك ويبقي جانبا رئيسيا للمغامرة التي تغير التاريخ.

كما أن القائد المتسرع المغامر سرعان ما يسقط ويفشل حين لا يحسب حسابات قوته وحسابات قوة عدوه .

القائد العبقري الفذ هو الذي لا يتردد لحظة واحدة ولا يتلكأ ثانية واحدة حين يرى أنه قد آن الآوان للهجوم ولكنه هو نفسه الذي لا يهاجم العدو أبدا قبل أن يكون قد فقه كل نقاط ضعفه وقوته كان عمرو من هذا الطراز التاريخي النادر .

إنه لن يقوم بهجوم شامل على الأرطبون قبل أن يتعرف يقينا على قوات عدوه ونقاط ضعفها وحاول الوصول الى المعلومات التي تشفيه عن طريق غيره لكن دون جدوى فقرر أن يكون هو الذي يحصل على المعلومات بنفسه . وهذا جزء رئيسي من الحذر والوعي واليقظة وقد ظهر في إطار أكبر مغامرة تاريخية أن يدخل أرض عدوه ويلتقي معه ولو كشف أمره لانتهى أمره وأمر جيشه وهو عند عدوه وحده يقدر أن يأخذه ويقتله في كل لحظة .

ولم يدفع عمرو لهذه المغامرة الا معرفته بأنه يواجه قائدا تاريخيا لا نظير له دهاء وحنكة وعبقرية وهو الذي قال فيه أمير المؤمنين عمر :

لقد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظروا عم تتفرج .

لكن عمرو يعلم من جهة ثانية أن عنده من الدهاء وسعة الحيلة وشدة اليقظة ما يجعله يتمكن من الافلات من قبضة عدوه لو وقع بين يديه فقد قالوا عنه مع أصحابه دهاة العرب .

(الدهاة أربعة معاوية للروية وعمرو بن العاص للبديهة .. والمغيرة للمعضلات وزياد لكل صغيرة وكبيرة [1] .

(وقد قال معاوية يوماً لعمرو : مابلغ من عقلك ؟ فقال : ما دخلت في شيء قط الا خرجت منه)[2] .

ومن أجل هذا أدرك أن احتمال كشفه أمام الأرطبون وارد فأسعفته عبقريته بما جال في خاطره ولعله أدرك ذلك من تقاطيع وجهه) .

(وفطن له عمرو فقال : قد سمعت مني وسمعت منك . فأما ما قلته فقد وقع مني موقعًا وأنا واحد من عشرة بعثنا عمر بن الخطاب مع هذا الوالي لنكاتفه ويشهدنا أموره . فأرجع فآتيك بهم الآن فان رأوا في الذي عرضت مثل الذي أرى فقد رآه أهل العسكر والأمير . وإن لم يروا رددتهم الي مأمنهم وكنت على رأس أمرك فقال : نعم) [3] .

وتجلت عبقرية الأرطبون في رغبته في اهلاك جيش عمرو حين يهلك هؤلاء القادة وبديهة حاضرة وسرعة نافذة وحرصا على قتل عشرة بدلاً من واحد أصدر أوامر معكوسة بالابقاء على حياته .

---

(١) العقد الفريد ٥ / ٧ .

(٢) المصدر نفسه / ٢ - ٢٤٢ .

(٣) تاريخ الطبري ٣ / ٦٠٧ ، ٦٠٨ .

(.. ودعا رجلاً فساره وقال : اذهب الى فلان فرُدَّه إلي فرجع اليه الرجل وقال لعمرو انطلق فجيء بأصحابك فخرج عمرو ورأى أن لا يعود لمثلها وعلم الرومي بأنه قد خدعه فقال :

خدعني الرجل : هذا ادهى الخلق)[1]

وهنا ندرك سر هذا الدهاء العظيم الذي اعترف به ألد أعدائه الأرطبون (فبلغت عمر) وهو الذي كان ينتظر عم تنفرج فأدرك أن عمراً منتصر لا محالة بعد هذه المغامرة الفذة ورأى انها ستنفرج عن نصر مؤزر له .

(بلغت عمر فقال : غلبه عمرو لله در عمرو) [2] .

وعاد عمرو بن العاص رضي الله عنه بالمعلومات الكافية له عن عدوه وعن تحصيناته وقواته ودهائه وعبقريته والان يستطيع أن يخوض المعركة الفاصلة معه .

(وقد عرف مأخذه وعاقبته والتقوا ولم يجد من ذلك بدا فالتقوا بأجنادين فاقتتلوا قتالا شديدا كقتال اليرموك حتى كثرت القتلى بينهم ثم أن ارطبون انهزم في الناس فأوى الى ايلياء ونزل عمرو أجنادين ولما أتى أرطبون إيلياء أفرج له المسلمون حتى دخلها ثم أزالهم إلى أجنادين)[3] .

وهكذا خاض عمرو يرموك جديدة وحده بدون خالد وانتصر وخاض اجنادين ثانية وحده بدون خالد وانتصر .

---

(١) ، (٢) ، (٣) تاريخ الطبري ٣ / ٦٠٧ ، ٦٠٨ .

فتح بيت المقدس :

ثم إن أرطبون انـهزم في الناس فأوى إلى إيـلياء ونزل عمـرو أجنادين ولما أتى أرطبون إيليـاء أفرج له المسلمون حتى دخلها ثم أزالهم الى أجنادين فانضم علقـمة ومسروق ومحمد بن عمر وأبو أيوب الى عمر بأجنادين)[1] .

لقـد تطورت الأمور بسـرعـة وحُصـر العـدو في موقع واحـد هو إيليـاء لكنه حصـر بقائد تاريخي فـذ هو الأرطبون سرعـان ما تحرك ونـازل القوات الإسلامـية المحاصرة فتـغلب عليها وانضمت إلى الجيش الرئيسي الذي يـقوده عمرو رضي الله عنه وانتقلت الحرب من جديد بين أرطبون الروم وأرطبون العرب الى إيلياء القدس بعد هزيمة الأرطبون في أجنادين .

وإيلياء هي قـدس الأقداس بالنسبة للنصـراينة والتي يحجون اليهـا من انحاء العالم كـما يحج لهـا اليهود حـيث كان هيكل سليـمان فـيما يزعـمون فـهي مثل الكعـبة عـند المسلمين فلو تخلوا عن كل من مـوقع في الأرض مـا تخلوا عنهـا ولو ماتوا عن آخرهم فهي تمثل أقدس ما عندهم في الوجود .

(وكتب أرطبـون إلى عمرو بأنك صـديقي نظيري أنت في قـومك مثلي في قومي واللـه لاتفتح من فلسطين شـيئا بـعد أجنادين فارجـع ولا تغر فتلقـى ما لقي الذين قبلك من الهزيمة) [2] .

وأدرك عمرو من ثنايا الرسالة صدق الأرطبـون ترجيحا لكنه خشي أن يكون الحديث عن الهـزيمة حربا مـعنوية نفسـية لتحطيـم أعصابه فـقرر استـعمـال الحرب نفسها معه ليصل الى الحقيقة الناصعة .

(فـدعا عـمـرو رجلا يتكـلم بالروميـة فـأرسله الى أرطبـون وأمره أن يعـرب ويتنكر وقال : استمع إلى ما يقول حتى تخبرني إذا رجعت ان شاء الله[3] .

(١) تاريخ الطبري / ٣ / ٦٠٦ .

(٢) ، (٣) المصدر نفسه / ٦٠٦ .

وضرب عمرو على الوتر نفسه الذي ضرب عليه الأرطبون في احترام عدوه وتقديره قائلا له :

(جاءني كتابك وأنت نظيري ومثلي في قومك لو أخطأتك خصلة تجاهلت فضيلتي وقد علمت اني صاحب فتح هذه البلاد واستعدي عليك فلانا وفلانا وفلانا لوزرائه فأقرئهم كتابي ولينظروا فيما بيني وبينك)[1] .

إنها حرب الدهاة وتختلف كثيرا عن حرب الأبطال فقد تنتهي الحرب بينهما بكلمة أو رسالة حرب عقول تقود أمما تخطط للسيطرة عليها . فقد اعترف بفضل الأرطبونين أنه لم تخطئه خصلة من الفضل ولو أخطأته لما عرف فضل عمرو فلا يعرف الفضل الا ذووه ولأول مرة في تاريخ الحروب بين الأمم حيث رمى عمر الأرطبونين ببعضهما يضع عمرو والحكم بينه وبين خصمه وزراءه الذين سماهم بأسمائهم .

لكن الدهاء الحقيقي لعمرو ليس في الرسالة انما قمة دهائه في أنه يريد أن يستمع الى المحادثة الخاصة السرية بين الأرطبون ووزرائه حيث أثاره بهذه الكلمة دون أن ينتبه الأرطبون ثانية إلى احتمال أن يكون الرسول يعرف الرومية وحين يتكلم مع وزرائه بذات نفسه لا يجد حرجا في ذلك بينما يلتقط رجل المخابرات الإسلامي العالم بكل خطط العدو وتخطيطاته .

حقاً ان عمراً للبديهة هذا الدهاء أن يوهم خصمه شيئا فيدفعه فيه ليصل من وراء هذا الإيهام إلى شيء آخر . إنها قمة العبقرية التي لم يعرف التاريخ مثيلا لها إلا في أمثال هذه القيادات ووقع الأرطبون ثانية في فخ عمرو بينما تمكن عمرو له

---

(١) المصدر نفسه / ٦٠٦ .

في الجولة الماضية في أجنادين أن يفلت من فخ الأرطبون بأعجوبة حقٌّ لأرطبون أن يقول عنه: إنه أدهى الخلق ولكن هيهات هيهات أن يُفلت الأرطبون من فخ عمرو .

(فخرج الرسول على ما أمره به حتي أتى ارطبون فدفع اليه الكتاب بمشهد من النفر فاقرأه فضحكوا وتعجبوا وأقبلوا على أرطبون فقالوا : من أين علمت انه ليس بصاحبها ؟)[1] .

ولم يأمرالأرطبون بإخراج الرسول تحرزا من أن يكون يعرف الرومية فهذه البديهة البسيطة جدا خانته ولم تخن عمرو من قبل . فافضى بما عنده من أسرار أمام الرسول وهو يحس أن يتكلم مع خاصته وزرائه . فقالوا من أين علمت أنه ليس بصاحبها ؟ قال : صاحبها رجل اسمه « عمر »[2] .

وتحقق هدف عمرو كاملا (فرجع الرسول الى عمرو فعرف انه عمر)[3] .

ولم يضيع عمرو الفرصة بعد أن عرف الحقيقة عند خصمه ا للدود (فكتب الى عمر يستمده ويقول : إني أعالج حربا كئوداً صدوماً وبلاداً ادخرت لك فرأيك) [4] .

(ولما كتب عمرو إلى عمر بذلك عرف أن عمرًا لم يقل إلا بعلم فنادى في الناس ، ثم خرج فيهم حتى نزل بالجابية وقد كتب مخرجه أول مرة إلى أمراء الأجناد أن يوافوه بالجابية ليوم سماه لهم في ا لمجردة ، وأن يستخلفوا على أعمالهم فلقوه حيث رفعت لهم الجابية فكان أول من لقيه يزيد ، ثم أبو عبيدة ثم خالد على الخيول ... وركب حتى دخل الجابية وعمرو وشرحبيل بأجنادين لم يتحركا من مكانهما)[4] .

---

(١) ، (٢) ، (٣) تاريخ الطبري ٣ / ٦٠٦ .

(٤) المصدر نفسه / ٦٠٧ .

لقد بلغت ثقة عمر رضي الله عنه بعمرو حداً يفوق الوصف بأن يلبي نداءه مباشرة ومنذ أن وصله كتابه (... وبلاداً ادخرت لك) وعلم أنه لم يقل ذلك إلا بعلم فترك دفة الخلافة كلها وترك العاصمة ومضى الى الشام ليتحقق الفتح على يديه .

وكان أحبار اليهود وأحبارالنصارى يجدون في كتبهم أن بيت المقدس لا يفتحها من المسلمين الا عمر بن الخطاب .

وقد أشار الى هذا الأرطبون حين أجاب عمرو بن العاص على خطابه)[1] .

(وعن سالم بن عبد الله قال : لما قدم عمر الجابية قال له رجل من يهود : يا أمير المؤمنين لا ترجع الى بلادك حتى يفتح الله عليك إيلياء فبينا عمر بن الخطاب بها إذ نظر الى كردوس من خيل مقبل فلما دنوا منه سلوا السيوف فقال عمر : هؤلاء قوم يستأمنون فأمنوهم . فأقبلوا فإذا هم أهل إيلياء فصالحوه على الجزية وفتحوها له فلما فتحت عليه دعا ذلك اليهودي فقيل له : إن عنده لعلماً فسأله عن الدجال وكان كثير المسألة عنه فقال له اليهودي وما مسألتك عنه يا أمير المؤمنين : فأنتم والله معشر العرب تقتلونه دون باب لد ببضع عشرة ذراعا)[2] .

(وعن سالم قال لمادخل عمر الشام تلقاه رجل من يهود دمشق فقال : السلام عليك يا فاروق ! أنت صاحب إيلياء لا والله لا ترجع حتى يفتح الله إيلياء وكانوا قد أشجوا عَمْراً و أشجاهم ولم يقدر عليها ولا على الرملة . فبينا عمر معسكراً بالجابية فزع الناس الى السلاح ، فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : ألا ترى الخيل

(١) حروب المسلمين في الشام / ٥٠٠ .

(٢) تاريخ الطبري ٣ / ٦٠٧ .

والسيوف فنظر فإذا كردوس يلمعون بالسيوف فقال عمرو : مستأمنه ولا تراعوا فأمنوهم وإذا هم أهل إيلياء فأعطوه واكتبوا منه على إيلياء وحيزها والرملة وحيزها فصارت فلسطين نصفين نصف مع أهل إيلياء ونصف مع أهل إيلة وهم عشر كور وفلسطين تعدل الشام كله وشهد ذلك اليهودي الصلح فسألهم عمر عن الدجال فقال : هومن بني بنيامين وأنتم والله يا معشر العرب تقتلونه على بضع عشرة ذراعا من باب لد)(١) .

التطور الجديد في المعركة هو أنه صعب جدا على الأرطبون ان يتجرع غصص الهزيمة مرتين ويوقع بيده ميثاق الصلح والاستسلام للمسلمين فلم يجد بدًا أمامه من مغادرة فلسطين الى مصر تاركا لأهل ايلياء أن يقوموا هم بتوقيع وثيقة الصلح .

(ففي هذه السنة أي سنة ١٥هـ وقيل سنة ١٦ ، فتح بيت المقدس وسبب ذلك أنه لما دخل أرطبون إيلياء (القدس) وفتح عمرو وغزة ثم فتح سبسيطية وفيها قبريحي بن زكريا عليه السلام وفتح نابلس بأمان على الجزية وفتح مدينة لد (يعني اللد) ثم فتح تبني وعمواس وبيت جبرين ويافا وبرج عيون فلما تم ذلك الى عمرو أرسل الى الأرطبون رجلا يتكلم بالرومية وقال له : اسمع ما يقول وكتب معه كتابا فوصل الرسول ودفع الكتاب الى أرطبون وعنده وزراءه فقال أرطبون : لا يفتح الله عمرو شيئا من فلسطين بعد أجنادين فقالوا له : من أين علمت هذا ؟ فقال : صاحبها رجل صفته كذا وكذا وذكر صفة عمر بن الخطاب)(٢) .

---

(١) المصدرنفسه / ٦٠٨ .

(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير / ٤٩٨ .

ويشير بامشيل الى سبب اخر دعا الأرطبون لمغادرة القدس فيقول : غير أن الحصار لم يدم طويلا رغم كثافة القوة التي تدافع عن القدس فقد حدث خلاف بين حاكم القدس المدني (سفرنيوس) وبين قائد حاميتها العسكرية الأرطبون .

كان سفرنيوس يميل الى مصالحة المسلمين وتجنب سفك الدماء وتسليمهم المدينة المقدسة والأرطبون مصر على المقاومة وأخيرا مالت الأغلبية من أهل القدس إلى رأي حاكمها فعرضوا الصلح على القائد عمرو ولكنهم اشترطوا أن يتولى عقد الصلح واستلام المدينة الخليفة عمر بن الخطاب نفسه فأجابهم عمرو الى طلبهم ووعدهم بأنه سيخبر الخليفة ... وقد كفى الله المؤمنين القتال ففتح الله القدس للمسلمين على يد الخليفة عمر صلحا حيث خرج اليه حاكم القدس (سفريونيوس) بعد أن اتبعت الأكثرية رأيه من الروم خرج ومعه أعيان المدينة المقدسة من أحبارومدنيين وسياسيين وعسكريين (بعد أن هرب منها الأرطبون والتذارق الى مصر) فعقد مع الخليفة نفسه الصلح الذي على أساسه سلم حبر القدس الأكبر الخليفة عمر مفتاح المدينة فدخلها المسلمون دون أن تسفك قطرة دم وذلك ما أثلج صدر الخليفة والمسلمين لأنهم يكرهون أشد الكره أن تراق قطرة دم في تلك البلدة المقدسة الطاهرة)(١) .

ونشير إلى أن عمرا رضي الله عنه عندما اطمأن الى خروج وفد أهل القدس للمصالحة مضى مع أخيه شرحبيل بن حسنة وهما من قادة الأجناد الذين حرص عمر بن الخطاب رضي الله عنه على اللقاء بهم مضيا بعد أن استخلفا على المسلمين بعض القادة ليلتقيا مع عمر في الجابية وحضرا وثيقة الصلح وشهدا عليها

---

(١) حروب المسلمين في الشام لباشميل / ٤٩٧ .

قال : وانضم عمرو وشرحبيل إلى عمر بالجابية حين جرى الصلح فيما بينهم فشهد الكتاب .

نص وثيقة الصلح :

وعن خالد وعبادة قالا : صالح عمر أهل إيلياء بالجابية وكتب لهم فيها الصلح لكل كورة كتابا واحدا ماخلا أهل إيلياء .

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان أعطاهم أمانا لانفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بإيلياء أحد معهم من اليهود وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن عليهم ان يخرجوا منها الروم واللصوت[1] فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ومن أحب من أهل ايلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويحلي بيعهم وصلبهم فانهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان فمن شاء منهم قعدو عليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع الى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم وعلى ما في هذا لكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية .

شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان وكتب وحضر سنة خمس عشرة) [2] .

---

(١) اللصوت : جمع لصت وهو اللص .

(٢) تاريخ الطبري ٣ / ٦٠٩ .

فأما سائر كتبهم فعلى كتاب لُدّ

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل لُدٍّ من ودخل معهم من أهل فلسطين أجمعين أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبهم وسقيمهم وبريئهم وسائر ملتهم أن لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا مللها ولان صلبهم ولا من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم وعلى أهل لد ومن دخل معهم من أهل فلسطين أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل مدائن الشام ، وعليهم إن خرجوا مثل ذلك الشرط إلى آخره) (١) .

وقسمت فلسطين نصفين لاقامة الحكم المدني فيها بعد أن صالح جميع أهلها بين العلقمتين ابن حكيم وابن مجزز (وفرق فلسطين على رجلين فجعل علقمة بن حكيم على نصفها وأنزله الرملة وعلقمة بن مجزز على نصفها وأنزله إيلياء فنزل كل واحد منهما في عمله في الجنود التي معه)(٢) .

وعن سالم قال: استعمل علقمة بن مجزز على إيلياء وعلقمة بن حكيم على الرملة في الجنود التي كانت مع عمرو وضم عَمْراً وشرحبيل اليه بالجابية فلما انتيها الى الجابية وافقا عمر رحمه الله راكبا فقبلا ركبتيه وضم عمر كل واحد منهما محتضنا) (٣) .

وعن عبادة وخالد قالا : ولما بعث عمر بأمان أهل إيلياء وسكنها الجند شخص إلى بيت المقدس من الجابية فرأى فرسه يتوجى(٤) فنزل عنه وأتي يبرذون

(١) ، (٢) تاريخ الطبري / ٦٠٩ - ٦١٠ .

(٣) المصدرنفسه / ٦١٠ .

(٤) يتوجى : يجد وجعاً في حافره .

فركبه فهزّه فنزل فضرب وجهه بردائه ، ثم قال : قبح الله من علمك هذا : ثم دعا بفرسه بعد ما أجمه[1] أياما حتى يوقحه[2] فركبه ثم سارحتى انتهى الى بيت المقدس)[3] .

وهذه الأمجاد العظيمة التي خلدها الدهر لم ينقل لنا تاريخ الأدب إلا هذه الأبيات لزياد بن حنظلة يتحدث فيها عن عمرو وجهاده واستمداده عمر وقدومه اذ يقول :

تذكرت حرب الروم لما تطاولت	واذ نحن في عام كثير نزائله[4]
واذنحن في أرضى الحجاز وبيننا	مسيرة شهر بينهن بلابله
وأذ أرطبون الروم يحمي بلاده	يحاوله قرم [5] هناك يساجله
فلما رأى الفاروق أزمان فتحها	سما بجنود الله كيما يصاوله[6]
فلما أحسوه وخافوا صواله[7]	أتوه وقالوا أنت ممن نواصله[8]
وألقت اليه الشام أفلاذ بطنها	وعيشا خصيبا ما تعد مآكله
أباح لنا ما بين شرق ومغرب	مواريث أعقاب بنتها قرامله[9]
وكم مثقل لم يضطلع باحتماله	تحمل عبئا حين شالت شوائله [10]

---

(١) أجم : استراح .

(٢) يوقحه : تركه أياما حتى صلب صافره .

(٣) تاريخ الطبري / ٦١٠ .

(٤) نزائله ج نازلة وهي مصائبه وخطوبه .

(٥) قرم : بطل شجاع ويعني به عمر بن العاص .

(٦) يصلي وله : يواجهه وينازله .

(٧) الصوال : الحرب .

(٨) المواصلة: هنا الصلح والمسالمة .

(٩) الفرامل : ج قرمل وهو الشجر ذي الشول الضعيف .

(١٠) تاريخ الطبري ٣ / ٦١٢ - ٦١٣ .

ويلخص البلاذري فتوح فلسطين بقوله :

حدثني أبو حفص الدمشقي عن سعيد بن عبد العزيز عن أشياخه وعن بقية بن الوليد عن مشايخ من أهل العلم قالوا : كانت أول وقعة واقعها المسلمون الروم في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه أرض فلسطين وعلى الناس عمرو بن العاص ثم إن عمرو بن العاص فتح غزة في خلافة أبي بكر رضي الله عنه ثم فتح بعد ذلك سبسطية ونابلس على أن أعطاهم الأمان على أنفسهم وعلى أموالهم ومنازلهم وعلى أن الجزية على رقابهم والخراج على أراضيهم ثم فتح مدينة لد وأرضها ثم فتح يبني وعمواس وبيت جبرين واتخذ بها ضيعة تدعى عجلان باسم مولى له وفتح يافا ويقال فتحها معاوية وفتح عمرو رفح على مثل ذلك وقدم عليه أبو عبيدة بعد أن فتح قنسرين ونواحيها وذلك في سنة ستة عشرة وهو محاصر ايلياء وايليا مدينة بيت المقدس فيقال : إنه وجهه الى أنطاكية وقد غدر أهلها ففتحها ثم عاد فأقام يومين أو ثلاثة ثم طلب أهل ايليا الأمان والصلح من أبي عبيدة على مثل ما صولح عليه أهل الشام من أداء الجزية والخراج والدخول فيما دخل فيه نظراؤهم على أن يكون المتولى للعقد لهم عمر بن الخطاب نفسه فكتب أبو عبيدة إلى عمر بذلك فقدم عمر فنزل الجابية من دمشق ثم صار الى ايلياء فأنفذ صلح أهلها وكتب لهم به وكان فتح ايلياء في سنة سبع عشرة (١)) (٢) .

وقد حضر عمرو توقيع وثيقة الصلح وعاد إلى الشام في قيادة الأركان العامة عند أبي عبيدة رضي الله عنه ولم يرشحه الفاروق ليكون أميرا على فلسطين وانما

---

(١) والمشهور أن الفتح عام خمس عشر وهو الأصح .

(٢) فتوح البلدان للبلاذري / ١٤٤ .

أبقاه مستشارا عند القائد العام أبي عبيدة رضي الله عنه وتنقطع أخبار عمرو عنا الى أن كان طاعون عمواس عام سبع عشرة .

(حدثنا ابن حميد قال حدثنا سلمة عن محمد بن اسحاق عن أبان بن صالح عن شهرين حوشب الأشعري عن راية رجل من قومه وكان قد خلف على أمه بعد أبيه كان شهد طاعون عمواس قال :

لما اشتغل الوجع قام أبو عبيدة في الناس خطيبا فقال : أيها الناس ان هذا الوجع رحمة بكم ودعوة نبيكم محمد ﷺ وموت الصالحين قبلكم وان أبا عبيدة يسأل الله أن يقسم له منه حظه فطعن فمات واستخلف على الناس معاذ بن جبل . قال : فقام خطيبا بعده فقال : أيها الناس : إن هذاالوجع رحمة ربكم ودعوة نبيكم ودعوة نبيكم وموت الصالحين قبلكم وإن معاذا يسأل الله تعالى أن يقسم لآل معاذ منه حظهم فطعن ابنه عبد الرحمن بن معاذ فمات ثم قام فدعا به لنفسه فطعن في راحته ، فلقد رأيته ينظر إليها ثم يقبل ظهر كفه ثم يقول : ما أحب أن لي فيك شيئا من الدنيا فلما مات استخلف على الناس عمرو بن العاص فقام خطيبا في الناس فقال: أيها الناس إن هذا الوجع إذا وقع فإنما يشتعل اشتعال النار فتجبلوا منه في الجبال فقال أبو وائلة الهذلي : كذبت والله لقد صحبت رسول الله ﷺ وأنت شر من حماري هذا . قال : والله ما أرد عليك ما تقول ، وايم الله لا نقيم عليه ثم خرج وخرج الناس فتفرقوا ورفعه الله عنه . قال . فبلغ ذلك عمر بن الخطاب من رأي عمرو بن العاص فوالله ما كرهه)[1] لقد كان عمرو رضي الله عنه يتحدث عن جانب غير الجانب الذي يتحدث عنه الأميران العظيمان أبو عبيدة ومعاذ بن جبل وكان يؤرقه الوقوف استسلاما أمام امتداد الطاعون ونهشه في الأمة . وكان

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٤ / ٧ / ٨٠ .

رأي عمر أمير المؤمنين مواجهة هذاالاستسلام حيث أشار على أبي عبيدة بقوله : (سلام عليك أما بعد فإنك أنزلت الناس أرضا عميقة فارفعهم الى أرض مرتفعة نزهة)[1] ولكن إصابة أبي عبيدة رضي الله عنه حالت دون ذلك . وجاء عمرو رضي الله عنه لينطلق ومنطلقات أمير المؤمنين نفسها في دعوة الأمة إلى الصعود للجبال هربا من الطاعون . غير أن أبا وائل رضي الله عنه رأى قول عمرو يختلف عن رأي سابقيه فأغلظ القول لأميره عمرو قائلا: « والله لقد صحبت رسول الله ﷺ وأنت شر من حماري هذا) ولم يغضب الحليم العظيم ، وقال لأخيه الجندي المتطاول على أميره : والله ما أرد عليك ما تقول ، تعظيما للصحبة النبوية عنده . ولكن هذا لم يثنه عن توجيه أوامره للأمة لصعوده الجبال وصرف الله البلاء عن الأمة بذلك وأقر أمير المؤمنين عَمْرًا على اجتهاده وما كره ذلك الاجتهاد وكتب الله تعالى للأمة العافية على يديه كما كتب الفتح على يديه كذلك وبقي ينتظر الأوامر العليا من أمير المؤمنين

---

(١) المصدرنفسه / ٨٠ .

عمرو بن العاص : فاتح مصر

مصر والإسلام :

قال ابن عبد الحكم : حدثنا هشام بن اسحاق وغيره قال : لما كانت سنة ست من مهاجرة رسول الله ﷺ ورجع رسول الله ﷺ من الحديبية بعث إلى الملوك

حدثنا أسعد بن موسى ... عن ابن شهاب قال : حدثني عبد الرحمن بن عبدالقارئ أن رسول الله ﷺ قام ذات يوم على المنبر فحمد الله وأثنى عليه وتشهد ثم قال :

أما بعد فإني أريد أن أبعث بعضكم إلى ملوك العجم فلاتختلفوا علي كما اختلفت بنو اسرائيل علي عيسى بن مريم ... فبعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس صاحب الأسكندرية وشجاع بن وهب الأسدي الى كسرى ، وبعث دحية بن خليفة إلى قيصر وبعث عمرو بن العاص إلى ابني الجلندي أميري عمان ثم ذكر الحديث رجع الى حديث هشام بن إسحق وغيره قال :

فمضى حاطب بكتاب رسول الله ﷺ فلما انتهى إلى الإسكندرية وجد المقوقس في مجلس مشرف على البحر ، فركب البحر ، فلما حاذى مجلسه أشار بكتاب رسول الله ﷺ بين أصبعيه فلما رآه أمر بالكتاب فقبض وأمر به فأوصل إليه . فلما قرأ الكتاب قال : ما منعه إن كان نبيا أن يدعو علي فيسلط علي . فقال له حاطب : ما منع عيسى بن مريم أن يدعو على من أبى عليه أن يُفعل به ويُفعل ؟! فوجم ساعة ثم استعادها فأعادها عليه حاطب فسكت فقال له حاطب : إنه قد كان قبلك رجل زعم أنه الرب الأعلى فانتقم الله به ثم انتقم منه فاعتبر بغيرك ولا يعتبر بك ، وإن لك دينا لن تدعه إلا لما هو خير منه وهو الإسلام الكافي

لله به فقد ما سواه وما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكنا نأمرك به ثم قرأ الكتاب : بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام فأسلم تسلم يوتك الله أجرك مرتين « يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون » فلما قرأه أخذه فجعله في حق في عاج وختم عليه ثم دعا كاتباً يكتب بالعربية فكتب : لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط : سلام ، أما بعد فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت وما تدعو إليه وقد علمت أن نبيا قد بقي وكنت أظن أنه يخرج من الشام وقد أكرمت رسولك وبعثت لك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم وبكسوة وأهديت إليك بغلة لتركبها والسلام) [1] .

وقال : (وحدثناعبد الله بن سعيد المذحجي عن ربيعة من عثمان عن أبان بن صالح قال: أرسل المقوقس الى حاطب ليلة وليس عنده أحد إلا ترجمان له فقال : ألا تخبرني عن أمور أسألك عنها ، فإني أعلم أن صاحبك قد تخيرك حين بعثك . قال : لا تسألني عن شيء إلا صدقتك . قال : إلى ما يدعو محمد ؟ قال : أن تعبد الله لا تشرك به شيئا وتخلع ما سواه ويأمر بالصلاة . قال : فكم تصلون . قال : خمس صلوات في اليوم والليلة وصيام شهررمضان ، وحج البيت والوفاء بالعهد والنهي عن أكل الميتة والدم . قال : من أتباعه . قال : الفتيان من قومه وغيرهم . قال : فهل يقاتل قومه ؟ قال : نعم . قال : صفه لي . قال : فوصفته

---

(١) فتوح مصر لابن الحكم / ٤٥ ـ ٢٦ .

بصفة من صفاته لم آت عليها ، قال : قد بقيت أشياء لم أرك ذكرتها . في عينيه حمرة قل ما تفارقه وبين كتفه خاتم النبوة يركب الحمار ، ويلبس الشملة ، ويجتزيء بالتمرات والكسر لا يبالي من لاقى عم ولا ابن عم قلت : هذه صفته قال : قد كنت أعلم أن نبيا قد بقي وقد كنت أظن أن مخرجه الشام ، وهناك كانت تخرج الأنبياء من قبله فأراه قد خرج في العرب في أرض جهد وبؤس ، والقبط لا تطاوعني في اتباعه ولا أحب أن يعلم بمحاورتي إياك وسيظهر على البلاد وينزل أصحابه من بعد بساحتنا هذه حتى يظهره على ما هنا و وأنا لا أذكر للقبط من هذا حرفا فارجع الي صاحبك)[1] .

مصر والنصرانية :

(المذهب اليعقوبي ، وهو مذهب الكنيسة المصرية والذي اعتنقه أغلب المسيحيين المصريين وكان ينادي بأن الطبيعتن الإلهية والبشرية في السيد المسيح امتزجتا فكان فيه طبيعة واحدة وعليه فلم يعد انسانا كاملا فكان عند التجسد ذا طبيعتن وأما بعده فصار ذا طبيعة واحدة .،.. المذهب الملكاني : نسبة إلى الملك أو الامبراطور وهو مذهب الكنيسة في الدولة الرومانية ومذهب حزب الملك والبلاط وكان أتباعه من أصل أغريقي أو أوربي ويقول هذا المذهب : إن الابن ٠ وهو السيد المسيح) مولود من الأب قبل الدهور ، غير مخلوق ،وهو جوهره ونوره ، واتحد الابن بالانسان المأخوذ من مريم فصاروا واحداً هو المسيح)[2] .

مصر والفرس :

هددت الدولة الفارسية حدود الامبراطورية الرومانية الشرقية ، ونجحت بالفعل في التوغل الى داخل الأمبراطورية ذاتها فاستولت على سورية وفلسطين ثم

---

(١) فتوح مصر وأخبارهاالابن عبد الحكم / ٤٦ - ٤٧ .

(٢) عمرو بن العاص بين يدي التاريخ لعبد الخالق سيد أبو رابية ٩٦ - ٩٧ .

مصر عام ٦١٦ م وقد أباح كسرى فارس لبطريك الأقباط أن يبقى في الأسكندرية حتى موته وألا ينازعه منازع في رئاسة الدين ثم خلفه البطريق (بنيامين) في سهولة ويسر فقضى أول سني ولايته مستظلاً بحكم الفرس هادئة مطمئنة إذا قيست بسائر مدة ولايته الطويلة المليئة بالأحداث الجسام . غير أن الاحتلال الفارسي لمصر لم يدم أكثر من عشرة أعوام تمكن بعدها هرقل من إعادة هذه الولايات جميعها إلى حظيرة الأمبراطورية من جديد ، وعاود الامبراطور هرقل جهوده في التفاهم مع الأقباط والمصريين على عقيدة دينية واحدة أساسها إدخال فكرة جديدة هي بدعة الإرادة الواحدة . ولكن الأقباط المصريين لم يكونوا مستعدين للتفاهم على الإطلاق فعين الأمبراطور هرقل أسقف الإسكندرية الملكاني (قيرس) ليكون حاكما لمصر أيضا وكان قيرس هذا (المعروف باسم المقوقس) يوصف بالقسوة والكراهية المطلقة لأصحاب الطبيعة الواحدة . وقد منحه الأمبراطور سلطة مطلقة لتحقيق سياسته في مصر فانطلق في حملة من الاضطهاد العنيف على المصريين الأقباط بما زادهم كراهية ونفورا من الحكم الروماني)[١] .

عمرو بن العاص ومصر :

ونعيد الى الذاكرة القصة التي ساقها لنا ابن عبد الحكم عن الصلة الوشيحة بين عمرو ومصر منذ أيام شبابه الأولى بسنده حيث يقول :

(وكان عمرو قد دخل مصر في الجاهلية ، وعمر طرقها ، ورأى كثرة ما فيها . وكان سبب دخول عمرو إياها كما حدثنا يحيى بن خالد العدوي عن ابن لهيعة ويحيى بن أيوب عن خالد بن يزيد أنه بلغه أن عمرا قدم إلى بيت المقدس لتجارة في نفر من قريش فإذا هم بشماس من شمامسة الروم من أهل الإسكندرية

---

(١) عمرو بن العاص لراية / ١٢٢ - ١٢٣ .

قدم للصلاة في بيت المقدس فخرج في بعض جبالها يسبح وكان عمر يرعى إبله وإبل أصحابه ، وكانت رعية الإبل نوبًا بينهم . فبينما عمرو يرعى إبله إذ مرَّ به ذلك الشماس وقد أصابه عطش شديد في يوم شديد للحر ، فوقف على عمرو فاستسقاه فسقاه عمرو من قربة له فشرب حتى رُوي ، ونام الشماس مكانه ، وكانت إلى جانب الشماس حيث نام حفر . خرجت منها حية عظيمة ، فبصر بها عمرو ، فنزع لها بسهم فقتلها . فلما استيقظ الشماس نظرا إلى حية عظيمة قد نجاه الله منها فقال لعمرو : ما هذه ، فأخبره عمرو أنه رماها فقتلها ، فأقبل إلى عمرو فقبل رأسه وقال : قد أحياني الله بك مرتين مرة من شدة العطش ، ومرة من هذه الحية فما أقدمك هذه البلاد . قال : جئت مع أصحاب لي نطلب الفضل في تجارتنا . فقال له ا لشماس : وكم تراك ترجو أن تصيب في تجارتك : قال رجائي أن أصيب ما أشتري به بعيرا فإني لا أملك إلا بعيرين ، فأملي أن أصيب بعيرا آخر فتكون ثلاثة أبعرة . فقال له الشماس : أرأيت دية أحدكم بينكم كم هي ؟ قال : مائة من الإبل . قال له الشماس : لسنا أصحاب إبل ، إنما نحن أصحاب دنانير . قال : يكون ألف دينار فقال له الشماس :

إني رجل غريب في هذه البلاد ، وإنما قدمت أصلي في كنيسة بيت المقدس وأسيح في هذه الجبال شهرا جعلت ذلك نذرا على نفسي وقد قضيت ذلك ،. وأنا أريد الرجوع إلى بلادي . فهل لك أن تتبعني إلى بلادي ولك عهد الله وميثاقه أن أعطيك ديتين لأن الله أحياني بك مرتين . فقال له عمرو : أين بلادك ؟ قال : مصر في مدينة يقال لها الاسكندرية فقال له عمرو : لا أعرفها ، ولم أدخلها قط . فقال له الشماس : لو دخلتها لعلمت أنك لم تدخل قط مثلها . قال له عمرو : وتفي لي بما تقول وعليك بذلك العهد والميثاق ؟ فقال له الشماس : نعم لك الله

علي بالعهد والميثاق أن أفي لك ، وأن أردك إلى أصحابك . فقال عمرو : وكم يكون مكثي في ذلك ؟ قال : شهراً تنطلق معي ذاهبا عشرا ، وتقيم عندنا عشرا وترجع في عشر. ولك علي أن أحفظك ذاهبا وأن أبعث معك من يحفظك راجعا. فقال له عمرو : انظرني حتى أشاور أصحابي في ذلك فانطلق عمرو إلى أصحابه ، فأخبرهم بما عاهده عليه الشماس وقال لهم : تقيموا علي حتى أرجع إليكم ولكم علي العهد أن أعطيكم شطر ذلك على أن يصحبني رجل منكم آنس به فقالوا : نعم ، وبعثوا معه رجلا منهم فانطلق عمرو وصاحبه مع الشماس إلى مصر حتى انتهى إلى الإسكندرية فرأى عمرو من عمارتها وكثرة أهلها وما بها من الأموال والخير ما أعجبه وقال ما رأيت مثل مصر قط وكثرة ما فيها من الأموال ونظر إلى الاسكندرية وعمارتها وجودة بنائها وكثرة أهلها ومابها من الأموال فازداد عجبا ، وو [illegible] عمرو الإسكندرية عيداً فيها عظيما يجتمع فيه ملوكهم وأشرافهم ولهم أُكرةٌ من ذهب مكلله يترامى بها ملوكهم ، وهم يتلقونها بأكمامهم ، وفميا اختبروا من تلك الأكرة على ما وضعها من مضى منهم أنها من وقعت الأكرة في كمه واستقرت فيه لم يمت حتى يملكهم . فلما قدم عمرو الإسكندرية أكرمه الشماس الإكرام كله ، وكساه ثوب ديباج ألبسه إياه ، وجلس عمرو والشماس مع الناس في ذلك المجلس حيث يترامون بالأكرة ، وهم يتلقونها بأكمامهم ، فرمى بها رجل منهم فأقبلت تهوي حتى وقعت في كم عمرو فعجبوا من ذلك وقالوا : ما كذبتنا هذه الأكرة قط إلا هذه المرة ، أترى هذا الأعرابي يملكنا هذا ما لا يكون أبدا وإن ذلك الشماس مشى في أهل الإسكندرية ، وأعلمهم أن عَمْرًا أحياه مرتين وأنه قد ضمن له ألفي دينار وسألهم أن يجمعوا ذلك له فيما بينهم ففعلوها ودفعوها إلى عمرو فانطلق عمرو وصاحبه وبعث معهما

الشماس دليلا ورسولا ، وزودهما وأكرمهما حتى رجع صاحبه إلى أصحابهما ، فبذلك عرف عمرو مدخل مصر ومخرجها ، ورأى منها ما علم أنها أفضل البلاد وأكثرها مالاً فلمارجع عمرو إلى أصحابه دفع إليهم فيما بينهم ألف دينار وأمسك لنفسه ألفا قال عمرو :

فكان أول مال اعتقدته وتأثلته)[1].

أقصى ماكان يدور بخلد عمرو من أمجاد يوم زار مصر مع الشماس هو أن يزورها ثانية ويستمتع بجمالها ، وأن يتمكن مقابلة ملكها لعله بفوز ببعض الهدايا منه ، ومن يشمخ على أقرانه بهذاالمجد ولم يكن يدور بخلده أنه سيكون صانع التاريخ الإسلامي العظيم في مصر ، أما الآن ، وقد أنجز فتح فلسطين ودخلت الشام كلها في حوزة الإسلام ، وأصبح أحد بناة التاريخ الإسلامي العظام ، غدا يحس بالمسؤولية الجسيمة الملقاة على عاتقه في فتح مصر ، وعله دون غيره بعد أن خبرها وخبر كنوزها وأموالها وجيرانها . كما خبر خطرها فقد فرّخصمه الأرطبون إلى مصر ، وما لم تفتح مصر فستبقى الشام كلها في خطر . لأن البحر سوف يحمل لجنوده المؤن والأسلحة والأمداد من القسطنطينية لاستعادة أرض الشام درة الامبراطورية البيزنطية لكنه يعلم كذلك أن مثل هذا الأمر ليس قراراً شخصيا يتخذه . بمقدار ما هو قرار الخليفة عمر رضي الله عنه . فلذلك كان همه الأول أن يفضي بهذا السهم وهذا السر العظيم . للأرأف برعيته من الأم بولدها لعمر بن الخطاب الذي يعلم أنه لن يدفع بالمسلمين إلى مغامرة مجهولة عنده وأدرك أنه إذا نجح باقناع أمير المومنين بذلك فستلقى مصر قيادها اليه ويصبح جناحا الإسلام في أمن وسلام كاملين .

---

(١) فتوح مصر وأخبارها / ٥٣ ـ ٥٥ .

الانطلاقة الأولى :

وبسند رجاله ثقات يحدثنا الإمام ابن عبد الحكم في كتابه فتوح مصر عن هذا القرار الذي نفذ للتو بعد اتخاذه .

حدثنا عثمان بن صالح حدثنا ابن لهيعة عن عبيد الله بن أبي جعفر وعياش بن عباس وغيرهما يزيد بعضهم على بعض قال :

(لما قدم عمر بن الخطاب الجابية[1] قام إليه عمرو فخلا به وقال : يا أمير المؤمنين آذن لي أن أسير إلى مصر وحرضه عليها وقال : إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم ، وهي أكبر الأرض أموالا وأعجزها عن القتال والحرب فتخوف عمر بن الخطاب على المسلمين وكره ذلك ، فلم يزل عمرو يعظم أمرها عند عمر بن الخطاب ويخبره بحالها ، ويهون عليه فتحها حتى ركن لذلك عمر ، فعقد له على أربعة آلاف رجل كلهم من عك ويقال بل ثلاثة آلاف وخمسمائة . فقال له عمر سرو أنا مستخير الله في مسيرك ، وسيأتيك كتابي سريعا إن شاء الله. فإن أدركك كتابي ، وأنا آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئا من أرضها فانصرف وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره .

---

(١) قدم عمر بن الخطاب الجابية أربع مرات الأولى قبيل فتح المقدس والثانية بعد فتح المقدس والثالثة في أيام طاعون عمواس ، ولكنه عاد أدراجه الى المدينة لانتشار الوباء في المنطقة والرابعة بعد الطاعون سنة ثمان عشر الهجرية ،ومعنى هذا أن عمرو بن العاص كان في أرض ا لشام حتى نهاية سنة ثماني عشرة الهجرية ويبدو أن عمرو بن العاص سار إلى مصر سنة تسع عشره ولكنه فتحها سنة عشرين الهجرية ، وبذلك يمكن التوفيق بين ما جاء في المصادر المعتمدة عن تاريخ فتح مصر مع استبعاد ما جاء في تلك المصادر قبل سنة تسع عشر ةلأن ذلك يناقض ما جاء في أحداث التاريخ) انظر شيث خطاب في كتاب سفراء النبي / ٤١٢ .

فسار عمرو بن العاص من جوف الليل ولـم يشعربه أحد من الناس واستخار عمر الله فكأنه تخوّف على المسلمين في وجههم ذلك فكتب إلى عمرو بن العاص أن ينصرف بمن معه من المسلمين فأدرك الكتاب عمرا وهو يرفح فتخوف عمرو بن العاص إن هو أخذ الـكتاب وفتحه أن يجـد فيه الانصراف كـما عهد إليـه عمر . فلم يأخذ الكتاب من الرسول ودافعه وسار كما هو حتى نزل في قرية فيما بين رفح والعريش[1] فسـأل عنها فقـيل إنها من مـصر ، فدعـا بالكتاب فقـرأه على المسلمين فقال عمرو لمن معه : ألستم تعلمون أن هذه القربة من مصر ؟ قالوا : بلى قال : فإن أمير المؤمنين عـهد إلي وأمرني إن لحقني كتـابه ولم أدخل أرض مصر أن أرجع ولم يلحقني كتابه حتى دخلنا أرض مصر فسيروا وامضوا على بركة الله)[2].

ويقال بل كان عمر بفلسطين متقدم بأصـحابه إلى مصر بغير إذن فكتب فيه إلى عـمر فكتب اليـه عمـرو وهودون العريش فـحبس الكتـاب فلم يقرأه حـتى بلغ العريش فـقرأه فإذا فـيه : من عمـر بن الخطاب إلى العاص بن العـاص . أمابعد فـقد سرت إلى مـصر ومن معـك وبها جمـوع الروم ، وإنما معك نفر يسـير فلعـمري لو كانوا ثكل أمك ما سرت بهم فإن لم تكن بلغت مصـر فارجع فقال عمرو : الحمد لله أية أرض هذه ؟ فقـالوا : مصر فتـقدم . كمـا هو حدثنا ذلك عثمـان بن صالح عن ابن لهـيـعـة عن يزيد بن أبـي حبـب .. يقـال بل كـان عـمـرو في جنده على قيـسارية مـع من كان بهـا من أجناد المسلمين وعمـر بن الخطاب إذ ذاك بالجابـية . فكتب سرا فـاستـأذن إلى مصر ، وأمـر بأصحابه فـتنحوا كالـقوم الذين يريدون أن ينحوا من منزل إلى منزل قريب ثم سار بهم ليلاً فلمـا فقده أمراء الأجناد استنكروا

---

(١) العريش : من أراضي مصر ، ورفح آخر مواني فلسطين ، ومنها يدخل الراكب إلى مصر .

(٢) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم (٧٥ - ٧٧) .

الذي فعل ، ورأوا أنه قد غرر . فرفعوا ذلك إلى عمر بن الخطاب فكتب اليه عمر : إلى العاص بن العاص أمابعد فإنك قد غررت بمن معك . فإما أدركك كتابي ولم تدخل مصر فارجع وإن أدركك وقد دخلت فامض واعلم أني ممدك . فيما حدثنا عبد الملك بن مسلمة ويحيى بن خالد عن الليث بن سعد قال ويقال : إن عمر بن الخطاب كتب إلى عمرو بن العاص بعدما فتح الشام ان اندب الناس إلى المسير معك إلى مصر فمن خف معك فسر به وبعث به مع شريك بن عبدة فندبهم عمرو فأسرع الى الخروج مع عمرو ، ثم إن عثمان بن عفان دخل على عمر بن الخطاب على كتابه إلى عمرو اشفاقا مما قال عثمان : فكتب إليه إن أدركك كتابي قبل أن تدخل مصر فارجع إلى موضعك وان كنت دخلت فامض لوجهك) [١] .

يقول الأستاذ عبد الخالق أبي رابية :

(ولو أقدم عمرو بن العاص على ذلك الفتح من تلقاء نفسه كما يروي المؤرخ البلاذري : وأن عَمْرًا حاصر قيسارية ، ثم استخلف عليها ابنه ، ومضى إلى مصر من تلقاء نفسه . فغضب عمر لذلك وكتب اليه يعنفه ويأمره بالرجوع إلى موضعه إن وافاه كتابه دون مصر ، فورد إليه وهو بالعريش[٢] أو ما يذكر المؤرخ الكندي (إن أمير المؤمنين عمر كره الإقدام على من في مصر من جموع الروم وجعل عمرو يهون أمرها وقد أمر أصحابه أن يتسللوا بالليل ثم اتبعهم) أجل ، لو أقدم على ذلك لوجد عند خليفة المسلمين عصا غليظة تحسن تأديبه وترده الى الطاعة والجماعة . كما لم يرد في أي مصدر آخر من مصادرالتاريخ الإسلامي عبارة أو إشارة إلى غضب أمير المؤمنين على قائده عمرو من أجل عصيان أو خروج

(١) تبقى الرواية الأولي هي المعتمدة بينما سيقت الروايات الأخرى برواية التضعيف .

(٢) فتوح البلدان للبلاذري / ٢١٤ .

على المألوف صدر عنه كما لم يسبق لأحـد من أمراء الأجناد على عهد عمر ، من افتأت عليه برأيه حتى نصدق مـا نسب إلى عمرو من المروق والعصيان وسنرى من سياق حديثنا عن سيرة عمـرو بن العاص ، كيف أنه ما كان يبت في أمر ذي شأن إلا بإذن من خليفته كما حدث قبل زحفه إلى الاسكندرية ثم في غزوة لأفريقيا[1].

بينما يعلق أستاذنا شيث خطاب على ذلك بقوله :

ولبس من المعـقول ولا من المـنطق في شيء أن يمضي عمـرو لفـتح مصـر من تلقاء نفسـه ، بدون استشارة عمـر بن الخطاب وأخذ موافقـته على هذا الفتح ، ولا أن يقدم عـمرو على المغامرة بفـتح مصر خـلافا لرغبة عـمر بن الخطاب وموافقـته الكاملة الصريحـة ، وعمرو يكتب إليـهه موبخا مـعنفاً ، وعمـر بن الخطاب أقوى وأصلب من أن يفسح المجال لعـامل من عماله أن يخالف رغباته ، ويـتحدى أوامره ويخرج على طاعـته . فـلا بد أن عمرو بن العـاص أقنع عمر بن الخـطاب على فتح مصر ، فكانت موافقة عمر بن الخطاب على فتح مصر موافقة صريحة لا لبس فيها ولا غموض)[2] .

لكن تبقى الـقضيـة ذات الإشكال في تاريخ فتح مصـر هي قضـية مشـاركة عمرو رضي الله عنه في حل أزمـة الطعام للمسلمين عام الرمادة (وبالجـملة فينبغي أن يكون فتحهـا قل عام الرمادة لأن عمرو بن العاص حـمل الطعام في بحر القلزم من مصر الى المدينة في عام الرمادة الذي كان سنة ثماني عشرة الهجرة أوسنة سبع عشرة . أي أن الفتح كان سنة ست عشرة)[3] ولكن الأمر لا يستقيم حيث تذكر المصـادر وجـود عمـرو في الشام حـتى عام ثـماني عـشرة عند قـدوم أميـر المؤمنين الجابية .

---

(١) عمرو بن العاص بين يدي التاريخ / ١٢٦ .

(٢) سفراء النبي صلى الله عليه وسلم لشيث خطاب .

(٣) الولاة والقضاة للكندي . كتاب ولاية مصر / ٧ .

الفتوحات الأولى في مصر :

فلما بلغ المقوقس قدوم عمر بن العاص إلى مصر ، توجه إلى الفسطاط فكان يجهز على عمرو الجيوش ، وكان على القصر رجل من الروم يقال له الأعيرج واليا عليه وكان تحت يدي المقوقس وأقبل عمرو حتى إذا كان بجبل الحلال نفرت معه راشدة وقبائل من لخم فتوجه عمرو حتى إذاكان في العريش أدركه النحر فضحى عمرو عن أصحابه يومئذ بكبش فتقدم عمرو بن العاص فكان أول موضع قوتل فيه الفرما قاتلته الروم قتالا شديدا نحوا من شهر ثم فتح الله على يديه . ثم توجه عمرو لا يدافع الا بالأمر الخفيف حتى نزل القواصر فيقدم عمرو لا يدافع الا بالأمر الخفيف حتى أتى بلبيس فقاتلوه بها نحوا من شهر حتى فتح الله عليه ثم مضى لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى أتى أم دنين فقاتلوه بها قتالا شديدا وأبطأ عليه الفتح، فكتب إلى عمر يستمده ، فأمده بأربعة آلاف تمام الثمانية آلاف فقاتلهم . وبعث خمسمائة عليهم خارجة بن حذافة ، فكما كان في وجه الصبح نهض القوم فصلوا الصبح ثم ركبوا خيلهم .عدا عمر بن العاص على القتال فقاتلهم من وجههم وحملت الخيل التي كان وجّه من ورائهم وأفحمت عليهم فانهزموا .

وفي حديث ابن وهب عن عبد الرحمن بن شريح عن شراحيل بن يزيد . قال: فجاء رجل إلى عمرو بن العاص فقال اندب معي خيلاً حتي آتيهم من ورائهم عند القتال فأخرج معه خمسمائة فارس فساروا من وراء الجبل حتى دخلوا مغار بني دائل قبل الصبح . وكانت الروم قد خندقوا خندقا وجعلوا له أبوابا وبثوا في أفنيتها حسك الحديد . فالتقى القوم حين صبحوا ، وخرج اللخمي بمن معه من ورائهم فانهزموا حتى دخلوا الحصن)[1] .

---

(١) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم مقتطفات / ٥٨ ـ ٥٩ .

لقد تحرك عمرو رضي الله عنه ليفتح أمة كاملة بأربعة آلاف مقاتل . وهو تحرك الخبير الحذر المجرب واستطاع أن يمضي من شمال مصر إلى وسطها ، ويخوض معارك عنيفة بآلافه الأربعه وفي الفرما بقي يقاتل العدو شهرا كاملا حتى فتحها الله عليه ، وفي بلبيس يلقى المقاومة نفسها فيصمد نحوا من شهر ثم يفتحها الله عليه ولكن المعركة الأعنف والأصعب كانت في أم دنين حيث لم يكفه شهر من الحصار للعدو وأرسل يطلب المدد من أمير المؤمنين لكن يتابع بعقليته الجبارة الحرب . فالصدام المباشر بغير خطط وتكتيك مناسبين لا يمكن أن ينهيها وقد وردت روايات عديدة عن كيفية انتصاره في أم دنين يتحدث عنها أبو رابية بقوله : ثم سار عمرو بن العاص جنوباً بمدنية هليوبولس سائراً على جانب الصحراء حتى وصل إلى قرية تندوبناس كما سماها الأسقف النقوشي ، وقد سماها العرب بعد ذلك (أم دنين) وكانت إلى الشمال من حصن بابليون ثم سميت المقيس فيما بعد وموضعها الآن حديقة الأزباكية في قلب القاهرة . وهنا فقط تنبه الروم إلى خطر الحرب عليهم بعد أن كانوا يظنون أن الأمر لا يعدو أن يكون غارة من غارات البدو. وما كان الروم ليرضوا أن تقع تلك القرية في يد العرب ، وهي موقع حصين يجاوره مرفأ على النيل فيه سفن كثيرة ، وفي ذلك ما فيه من القيمة في الحرب . وكانت في أم دنين مسلحة قوية ، وإلى الجنوب يوجد جيش الروم الأكبر في حصن بابليون الذي كان في استطاعته أن يقاوم العرب في أي وقت يشاء ثم يعود إلى حصنه آمنا وراء أسواره الضخمة .

وكان قائد الروم واسمه (تيودور) رجلا نكولاً عاجزا عن الحرب لذلك مضت عدة أسابيع نشب فيها قتال خفيف بين الفريقين لم يؤذ الروم أذى كثيرا ولكنه أجهد العرب بمن كان يُقتل منهم حتى صاروا في قلة لا تستطيع إتمام فتح

مصر وقد أيد المؤرخون العرب ذلك فيقول المقريزي : (إنه كان قتال شديد عند أم دنين ، وإن الفتح أبطأ على المسلمين » ويقول أبو المحاسن كان قتال شديد ولم يدر الناس لمن تكون الغلبة ـ أما ابن عبد الحكم فيقول : (وكانت في أم دنين مسلحة قوية » وقوتل عمرو قتالا شديدا وأبطأ عليه الفتح فكتب الى أمير المؤمنين يستمده ثم ضاعف جنوده على أم دنين حتى فتح الله عليه) ولما رأى عمر بن العاص حرج موقفه في حصاره لأم دنين لكثرة من قُتل من جنوده أيام الحصار وبعث الى الخليفة عمر يطلب منه المدد ، ويستحثه على إرساله على جناح السرعة ، ولكن المدد أبطأ عنه وكان كل يوم من أيام إبطائه غنما لأعداء العرب حتى أصبحت كفتا الحرب مترددتين وخيل الى الناس أن النصر في إحداهما لا يدري أحد أيتهما يترجح ولم تكن إلا عشية أو ضحاها حتى اقتحم المسلمون الحصن وغلبوا الروم على أمرهم فسقطت أم دنين في أيديهم)[1] .

الفتح الأكبر حصن بابليون :

أو باب ليون كما أطلق العرب عليه والذي كان الفاتحة الحقيقية لفتح مصر.

ونعود إلى رواتنا الثقات يحدثونا عن هذا الحصار والفتح .

حدثنا عثمان بن صالح أخبرنا ابن لهيعة[2] عن عبيد الله بن أبي جعفر وعياش بن عباس وغيرهما يزيد بعضهم على بعض أن عمرو بن العاص حصرهم بالقصر الذي يقال له بابليون حينا وقاتلهم قتالا شديدا يصبحهم ويمسيهم فلما أبطأ الفتح عليه كتب إلى عمر بن الخطاب يستمده ويعلمه ذلك فأمده عمرو بأربعة آلاف رجل على كل ألف رجل منهم رجل وكتب اليه عمر بن الخطاب ،

---

(١) عمرو بن العاص بين يدي التاريخ لعبد الخالق أبو رابية / ١٣٨ - ١٣٩ .

(٢) ابن لهيعة : صدوق يخطئ وباقي رجال السند ثقات .

إني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل على كل ألف رجل منهم رجل مقام الألف الزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلّد .. وقال آخرون بل خارجة بن حذافة الرابع لا يعدون مسلمة وقال عمر بن الخطاب : اعلم أن معك اثنى عشرا ألفا [١] . ولا يغلب اثنا عشر ألفا من قلة)[٢] .

وقال غير عثمان : فكانوا قد خندقوا حول حصنهم وجعلوا للخندق أبوابا . وجعلوا اسكك الحديد موتده بأفنية الأبواب . وكان عمر قد قدم من الشام في عدة قليلة . فكان يفرق أصحابه ليرى العدو أنهم أكثر مما هم فلما انتهى إلى الخندق نادوه : أن قد رأينا ما صنعت وإنما معك من أصحابك كذا وكذا فلم يخطئوا برجل واحد فأقام عمرو على ذلك أياما يغدو في السحر فيصف أصحابه على أفواه الخندق عليهم السلاح . فبينا هو على ذلك إد جاءه خبر الزبير بن العوام[٣] ثم قدم الزبير بن العوام في اثنى عشر ألفا فتلقاه عمرو ثم أقبلا ثم لم يلبث الزبير أن ركب ، ثم طاف بالخندق ثم فرق الرجال حول الخندق[٤] .

(ثم رجع إلى حديث عثمان عن ابن لهيعة . قال : فلما قدم المدد على عمرو بن العاص ألح على القصر ووضع عليه المنجنيق ، وقال عمر يومئذ .

يوم لهمدان ويوم للصدف   والمنجنيق في بلي تختلف

وعمرو يرقل إر قال الشيخ الخرف

---

(١) وهذا غيرالرواية ا لتالية التي تشير إلى أن الزبير رضي الله عنه جاء بمدد اثني عشر ألفا بينما يرى الواقدي أن هذا المدد تكامل فيمابعد إلى هذاالرقم .

(٢) فتوح مصر وأخبارها / ٣٦١ .

(٣) يذكر أبو رابية في كتابه / ١٤٣ أن المدد وصل على وجه التقريب من منتصف جمادي الأولى ١٩هـ ـ ٦٤٠م ونهاية جمادي الآخرة من السنة المذكورة .

(٤) فتوح مصر / ٦١ - ٦٢ .

وكان عمرو إنما يقف تحت راية بلي .

فلما أبطأ الفتح على عمرو بن العاص ، قال الزبير إني أهب نفسي لله ، أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين فوضع سلماً الى جانب الحصن من ناحية سوق الحمام ثم صعد وأمرهم إذا سمعوا تكبيره أن يحيوه جميعا . قال غير عثمان فما شعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبر معه ا لسيف ، وتحامل الناس على السلم حتى نهاهم عمروخوفا من أن ينكسر . قال ثم رجع إلى حديث عثمان .

قال : فلما اقتحم الزبير وتبعه من تبعه ، وكبر وكبر معه وأجابهم المسلمون من خارج لم يشك أهل الحصن أن العرب قد اقتحموا جميعا فهربوا ، فعمد الزبير وأصحابه إلى باب الحصن ففتحوه واقتحم المسلمون الحصن . فلما خاف المقوقس على نفسه ومن معه فحينئذ سأل عمرو بن العاص الصلح ودعاه اليه على أن يفرض للعرب على القبط دينارين دينارين عن كل رجل منهم ، فأجابهم عمرو إلى ذلك)[1] .

المفاوضات الصعبة :

وتطالعنا رواية ثانية أقل صحة من تلك ساقها ابن عبد الحكم ، وتلقي إضاءات على المفاوضات الصعبة التي تمت بين الفريقين قبل عملية الفتح .

(حدثنا عثمان بن صالح [2] أخبرناخالد بن نجيح [3] عن يحيى بن أيوب[4] وخالد بن حميد[5] قالا حدثنا خالد بن يزيد[76] عن جماعة من التابعين بعضهم

---

(١) المصدر نفسه / ٦٣ .
(٢) ثقة من الحادية عشرة .
(٣) مجهول .
(٤) من السابعة صدوق ربما أخطأ .
(٥) من السابعة لا بأس به .
(٦٧) ثقة فقيه من السادسة .

يزيد على بعض أن المسلمين لما حاصروا حصن بابليون وكان به جامعة الروم وأكابر القبط ورؤساهم وعليهم المقوقس فقاتلوهم بها شهرا فلما رأى القوم الجد منهم على فتحه والحرص ورأوا من صبرهم على القتال ورغبتهم فيه خافوا أن يظهروا عليهم فتنحى المقوقس وجماعة من أكابر القبط وخرجوا من باب القصر القبلي ودونهم جماعة يقاتلون العرب فلحقوا بالجزيرة موضع الصناعة اليوم وأمره بقطع الجسر وذلك في جري النيل ، فأرسل المقوقس الى عمرو بن العاص إنكم قوم قد ولجتم في بلادنا وألححتم على قتالنا وطال مقامكم في أرضنا وإنما أنتم عصبة يسيرة وقد أظلتكم الروم وجهزوا عليكم ومعهم من العدة والسلاح وقد أحاط بكم هذا النيل وإنما أنتم أسارى في أيدينا فابعثوا الينا رجالا منكم نسمع من كلامهم فلعله أن يأتي الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب وينقطع عنا وعنكم هذا القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه ولعلكم أن تندموا إن كان الأمر مخالفا لطلبتكم ورجالكم فابعثوا إلينا رجالا من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به من شيء فلما أتت عمرو بن العاص رسل المقوقس حبسهم عنده يومين وليلتين حتى خاف عليهم المقوقس فقال لأصحابه : آترون أنهم يقتلون الرسل ويحبسونهم ويستحلون ذلك في دينهم ؟! وإنما أراد عمرو بذلك أن يروا حال المسلمين ، فرد عليهم عمرو مع رسله أنه ليس بيني وبينكم إلا ثلاث خصال إما دخلتم في الإسلام فكنتم إخواننا وكان لكم مالنا وإن أبيتهم فأعطيتم الجزية عن يدٍ أنتم صاغرون ، وإما أن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ..)[1] .

(١) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم / ٦٥ .

هذا هو المعهود في العرب منذ عشرات القرون يغزون القرى المجاورة للروم طلبا للسلب والنهب وطمعا في القرى والمال والغنائم وقد أزعج المقوقس هذا الإصرار الذي لم يعهده من قبل من هذه الأمة . وجاء الجواب من صانع التاريخ العظيم عمرو بما صعق به المقوقس من جواب لم يألفه ، وروح لم يعهدها حين يخيره بين هذه الثلاث وراح المقوقس بعبقرية يتعرف من وفده على هذا الطارق الجديد لأبواب مصر فلما جاءت رسل المقوقس إليه قال لهم : كيف رأيتموهم ؟ قالوا : رأينا قوما الموت أحب إلى أحدهم من الحياة ، والتواضع أحب إليه من الرفعة ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولانهمة إنما جلوسهم على التراب وأكلهم على ركبهم وأميرهم كواحد منهم ما يعرف رفيعهم من وضعهم ولا السيد فيهم من العبد وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد يغسلون أطرافهم بالماء ، ويتخشعون في صلاتهم)[1] .

هذا هو الوصف الذي سمعه المقوقس ، والمقوقس شخصية دينية عريقة اضافة إلى شخصيته المدنية والعسكرية ويعرف أنه يحارب طرازا جديدا من البشر. فاقوا أتباع الأنبياء من قبلهم بل بشرت بهم كتب الأنبياء السابقة وبجيلهم المتفرد في التاريخ فقال :

والذي يحلف به لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها ، وما يقوى على قتال هؤلاء أحد ولئن لم نغنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل لم يجيبونا بعد اليوم إذا أمكنتهم الأرض وقووا على الخروج من موضعهم)[2] .

هذه هي الحرب العظيمة التي خاضها عمرو فهو يحارب بعقله قبل أن يحارب بسيفه وإن هذه الهزيمة النفسية التي أوقعها عمرو بغريمه المقوقس أضخم

---

(١) ، (٢) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم / ٦٥ .

من أية معركـة هائلة قوامها مائة ألف سيف وذلك حين حبس هؤلاء الرسل يومين في المعسكر الإسلامي ليشهدوا الجيل النبوي العظيم .

(فـرد اليهـم المقوقس رسلـه ابعثـوا لنا رسـلا منكم نعـاملهم ونتـداعى نحن وإياهم الى من عسـاه أن يكون فيه صلاح لنا ولكم فـبعث عمرو بن العـاص عشرة نفر أحـدهم عبـادة بن الصامت[1] وأمـره عـمـرو أن يكون مـتكلم القـوم [2] وألا يجيبـهـم إلى شيء دعوه إليه إلا إحدى هذه الثـلاث خصال فإن أميـر المؤمنين تقدم إلي وأمرني أن لا أقبل شـيئا سوى خـصلة من هذه الثلاث خصال ، وكـان عبادة بن الصامت أسـود فلما ركبـوا السفن الى المقوقس ودخلوا عليـه تقدم عبادة فـهابه المقوقس لسواده فقال : نحوا عني هذا الأسود . قدموا غيره يكلمني فقالوا جميعا : إن هذا الأسـود أفضلـنا رأيا وعلما ، وهـو سيـدنا وخـيرنا والمقـدم فـينا وانما نرجع جمـيعا الى قـوله ورأيه وقد أمره الأمـير دوننا بما أمره به ، وأمـرنا أن لا نخالف رأيه وقوله قال، وكـيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفـضلكم وانما ينبغي أن يكون هو دونكم . قالوا : كلا إنه وإن كان أسود كما ترى ، فإنه من أفضلنا موضعا وأفضلنا سابقـة وعقلا ورأيا وليـس ينكر السواد فينا فـقال المقوقـس لعبادة : تقـدم يا أسود كلمني برفق فـإني أهاب سـوادك وان اشتـد كلامـك علي ازددت لذلك هيبـة)

وصـدق الوفد فليس في هؤلاء العشـرة أعظم فضـلا وأسبـق سابقـة من عبـادة بن الصـامت رضي الله عنه ، وعمـرو رضي الله عنه يوم اختـارعبـادة لرئاسة الوفـد لم

---

(١) ذكرابن عبـد الحكم عن سعيد بن عفيـر قال : أدرك الإسلام من العرب عشـرة نفر طول كل واحد منهم عشرة أشبار (٢٦٠ سم) عبادة بن الصامت أحدهم / ٦٦ .

(٢) وصل مع المدد عـدد لا بأس به من الصحـابة منهم عـبادة رضي الله عنـه بينما لم يكن في الجـيش الأول أحد من السابقين الأولين من المـهاجرين والأنصار وعمـرو هو أقدمهم وكان إسلامـه كما تعلم في أوائل السنة الثامنة للهجرة .

تكن القضية عنده مجرد طول هامته وعظم قامته وهيبته وسواده ، وهذه مهمة عرضا في بث الرعب في قلب العدو . لكن الأصل في ذلك أنه من أعرق المسلمين عظمة وفضلا وسيادة فعبادة رضي الله عنه قاتل عمرو بن العاص على الإسلام ثماني سنين ، وعبادة كان أحد الأثني عشر الأوائل من الأنصار والذين بايعوا على الإسلام في بيعة العقبة الأولى وعنه رويت أخبارها ، وعبادة أحد النقباء الإثني عشر وهي أول حكومة اسلامية في الأرض وهو عضو هذه الحكومة وهو الذي ضربه الله تعالى مثلا للمؤمنين في الأرض يوم عز المثل في ولائه لله ولرسوله ولجماعة المؤمنين يوم بني قينقاع : (قال محمد بن اسحاق : فحدثني أبي إسحاق بن يسار عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت قال : لما حاربت بنو قينقاع رسول الله ﷺ تشبث بأمرهم عبد الله بن أبي وقام دونهم ومشى عبادة بن الصامت الى رسول الله ﷺ وكان أحد بني عوف بن الخزرج له من حلفهم مثل الذي لعبد الله بن أبي فجعلهم إلى رسول الله ﷺ وتبرأ الى الله ورسوله من حلفهم وقال : يا رسول الله أبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم وأتولى الله ورسوله والمؤمنين وأبر من حلف الكفار وولايتهم ففيه وفي عبد الله بن أبي نزلت الآيات في المائدة ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض** ﴾ إلى قوله ﴿ .. **ومن يتول الله ورسوله والدين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون** ﴾[1] وأخيرا عبادة هو أحد الأربعة الكبار ، الذين بعثهم عمر أمير المؤمنين على رأس الجيش فعمرو يعلم أن عبادة بن الصامت رائده وأستاذه في دين الله ولئن عاش عمرو مع رسول الله ﷺ عاما واحدا في رفقته وصحبته فقد عاش عبادة عشرة أضعاف ذلك مع رسول الله ﷺ. وعظمة عمرو إذن عبقريته في اختيار هذه الكفاءة العظيمة الخالدة في مكانها المناسب ولنستمع الى هذا الجيل العظيم في دين الله ماذا فعل بأعداء الله .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٥٩٤ .

(فتقدم اليه عبادة فقال : قد سمعت مقالتك وان فيمن خلفت من أصحابي ألف رجل أسود كلهم أشد سواد امني وأفظع منظرا ولو رأيتهم لكنت أهيب لهم منك لي وأنا قد وليت وأدبر شبابي واني مع ذلك بحمد الله ما أهاب مائة رجل من عدوي لو استقبلوني وكذلك أصحابي وذلك أنا رغبتنا وهمتنا الجهاد في سبيل الله واتباع رضوانه وليس غزونا عدونا ممن حارب الله ورسوله لرغبة في دنيا ولا طلبا للاستكثار منها ، إلا أن الله قد أحل لنا ذلك ،جعل ما غنمنا من ذلك حلالا وما يبالي أحدنا أن كان له قنطار من ذهب أم كان لا يملك إلا درهما لأن غايتنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بهاجوعته لليله ونهاره وشملة يلتحفها فإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه وان كان له قنطارمن ذهب أنفقه في طاعة الله واقتصر على هذا الذي هو بيده ويبلغه ما كان في الدنيا لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم ورخاءها ليس برخاء من إنما النعيم والرخاء بالآخرة وبذلك أمرنا ربنا وأمرنا به نبينا وعهد الينا ألا تكون همة أحدنا من الدنيا إلا ما يمسك جوعته ويستر عورته وتكون همته وشغله في رضاء ربه وجهاد عدوه .

فلما سمع المقوقس ذلك منه ، قال لمن حوله : هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط ؟ لقد هبت منظره وإن قوله عندي لأهيب من منظره إن هذا وأصحابه أخرجهم الله لخراب الأرض وما أظن ملكهم إلا سيغلب على الأرض كلها ثم أقبل المقوقس على عبادة بن الصامت فقال : أيها الرجل الصالح ، قد سمعت مقالتك وما ذكرت ولعمري ما بلغتم ما بلغتم الا بما ذكرت ، وما ظهر تم على من ظهرتم عليه الا لحبهم الدنيا ورغبتهم فها . وقد توجه لقتالكم من جمع الروم ما لايحصى عدده قوم معروفون بالنجدة والشدة ما يبالي أحدهم من لقي ولا من قاتل وإنا لنعلم أنكم لن تقدروا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقوتهم وقد أقمتم بين أظهرنا

أشهراً وأنتم في ضيق وشدة من معاشكم وحالكم ونحن نرق عليم لضعفكم وقلتكم وقلة ما في أيديكم ونحن تطيب انفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين دينارين ولأميركم مائة دينار ، ولخليفتكم ألف دينار فتقبضونها وتنصرفون الى بلادكم قبل أن يغشاكم ما لا قوام لكم به)[1] .

لقد بذل المقوقس كل ما يملكه من دهاء في تدمير أعصاب المسلمين وتوهين قوتهم وتحطيم روحهم المعنوية وإذا كان يرضيهم القليل من الدنيا فلكل جندي ديناران وللأمير مائة وللخليفة ألف فهذا يمكن أن يقنعهم ليجنبهم خطر الإبادة بعد هذه الأشهر العديدة من الحصار دون جدوى وقبل أن تأتي أمواج الروم للقضاء عليهم عن آخرهم .

وكان جواب عبادة رضي الله عنه بالمستوى العالي نفسه الذي يتناسب مع شموخ المقوقس واستعلائه في الظاهر على الأقل .

فقال عبادة بن الصامت : يا هذا لا تغرن نفسك وأصحابك . أما ماتخوفنا من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وأنا لا نقوى عليهم ، فلعمري ما هذا بالذي تخوفنا به ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيه إن كان ما قلتم حقا فذلك والله أرغب ما يكون في قتالهم ، وأشد لحرصنا عليهم لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا إذا قدمنا عليه إذ قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا في رضوانه وجنته وما من شيء أقر لأعيننا ولا أحب إلينا من ذلك ، وإنا منكم حينئذ لعلى إحدى الحسنيين ، إما أن تعظم لنا بذلك غنيمة لنا إن ظفرنا بكم أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا وانها لأحب الخصلتين الينا بعد الاجتهاد منا والله عز وجل قال لنا في كتابه : ﴿ **كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين** ﴾ وما منا رجل إلا وهويدعو ربه صباح

---

(١) فتوح المغرب وأخبارها لابن عبد الحكم / ٦٦ - ٦٧ .

مساء أن يرزقه الشهادة وأن لا يرده إلى بلده ولا إلى أرضه ولا إلى أهله وولده وليس لأحد منا هم فيما خلفه وقد استودع كل واحد منا ربه أهله وولده وأما قولك أننا في ضيق وشدة من معاشنا فنحن في أوسع السعة لو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لأنفسنا أكثر مما نحن عليه فانظر الذي تريد فبينه فليس بيننا وبينكم خصلة نقبلها منك ولا نحييك إليها إلا خصلة من ثلاث فاختر أيها شئت ولا تطمع نفسك في الباطل وبذلك أمرني الأمير وبها أمره أمير المؤمنين هو عهد رسول الله ﷺ الينا من قبل)[1] .

وهنا تبرز عظمة عُبادة في حرصه على الظفر بالمقوقس دينا وقلبا قبل أن يظفر به قتيلا أو أسيرا فأحسن تماما عرض وضع المقوقس وصحبه حين يدخلون في دين الله ثم عند الجزية ثم عاقبة الاصرار بالسيف : (قال : إما إذا جئتم الى الإسلام الذي هو الدين الذي لا يقبل الله غيره وهو دين أنبيائه ورسوله وملائكته أمرنا الله أن نقاتل من خالفه ورغب عنه حتى يدخل فيه ، فإن فعل كان له ما لنا وعليه ما علينا وكان أخانا في دين الله فإن قبلت ذلك أنت وأصحابك فقد سعدتم في الدنيا والآخرة ، ورجعنا عن قتالكم ولم نستحل أذاكم ولا التعرض لكم فإن أبيتم إلا الجزية فأدوا الجزية عن يدٍ أنتم صاغرون نعاملكم على شيء نرضى به نحن وأنتم كل عام أبدا ما بقينا وبقيتم ونقاتل عنكم من ناوأكم وعرض لكم في شيء من أرضكم ودمائكم وأموالكم ، ونقوم بذلك عنكم ان كنتم في ذمتنا وكان لكم به عهد علينا وإن أبيتهم فليس بيننا وبينكم إلا المحاكمة بالسيف حتى نموت عن آخرنا ونصيب ما نريد منكم ، هذا ديننا الذي ندين الله ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينه غيره فانظروا لأنفسكم فقال المقوقس : هذا ما لا يكون أبدا ما تريدون إلا أن

---

(١) فتوح مصر وأخبارها / ٦٧ - ٦٨ .

تأخذونا نكون لكم عبيدا ما كانت الدنيا قال عبادة ، هو ذلك ، فاختر ما شئت . فقال له المقوقس : ألا تجيبونا الى خصلة غير هذه الثلاث خصال فرفع عبادة يديه فقال : لا ورب هذه السماء ، وهذه الأرض وبكل شيء مالكم عندنا خصلة غيرها فاختاروا لأنفسكم فالتفت المقوقس عند ذلك إلى أصحابه فقال قد فرغ القوم فما ترون ؟ فقالوا : ويرضى أحد بهذا الذل أما ما أرادوا من دخولنا في دينهم فهذا ما لا يكون أبدا أن نترك دين المسيح ابن مريم وندخل في دين غيره لا نعرفه وأما ما أرادوا من أن يَسبُونا ويجعلونا عبيدا فالموت أيسر من ذلك لو رضوا منا أن نضعف لهم ما أعطيناهم مرارا كان أهون علينا فقال المقوقس لعبادة قد أبى القوم فما ترى؟ فراجع صاحبك على أن نعطيكم في مرتكم هذه وما تمنيتم وتنصرفون . فقام عبادة وأصحابه فقال المقوقس عند ذلك لمن حوله .

أطيعوني وأجيبوا القوم الى خصلة من هذه الثلاث فوالله ما لكم بهم من طاقة ولئن لم تجيبوا اليها طائعين لتجيبنهم إلى ما هو أعظم منها كارهين . فقالوا : وأي خصلة نجيبهم إليها ؟ قال :

إذا أخبركم . أما دخولكم في غير دينكم فلا آمركم به ، وأما قتالهم فأنا أعلم أنكم لن تقدروا عليهم ولن تصبروا صبرهم ولا بد من الثالثة قالوا أفنكون لهم عبيدا أبدا ؟! قال : نعم تكونون عبيدا مسلطين في بلادكم آمنين على أنفسكم وأموالكم وذراريكم خير لكم من أن تموتوا عن آخركم وتكونوا عبيداً تباعوا وتمزقوا في البلاد مستعبدين أنتم وأهلوكم وذراريكم قالوا الموت أهون علينا وأمروا بقطع الجسر من الفسطاط .

إن القائد عندما يهزم إنما ينهزم جيشه مهما كان قويا وسنجد أن هذه الهزيمة التي الحقها عبادة بالمقوقس لن تنتهي به فيما بعد إلا بالاستسلام .

(وأمروا بقطع الجسر من الفسطاط . وبالجزيرة وبالقصر من جمع القبط والروم جمع كثير فألح عليهم المسلمون عند ذلك بالقتال على من في القصر حتى ظفروا وأمكن الله منهم فقُتل منهم خلق كثير ، وأسر من أُسر وانحازت السفن كلها إلى الجزيرة ، وصار المسلمون قد أحدق بهم الماء من كل وجه ، لا يقدرون على أن ينفذوا نحو الصعيد ولا إلى غير ذلك من المدائن والقرى . والمقوقس يقول لأصحابه :

ألم أعلمكم هذا وأخافه علكيم ما تنتظرون فوالله لتجيبنهم إلى ما أرادوا طوعا أو لتجيبنهم إلى ما هو أعظم منه كرها فأطيعوني من قبل أن تندموا فلما رأو منهم ما رأوا ، وقال لهم المقوقس ما قال (أذعنوا)[1] .

وثيقة الصلح :

وأرسل المقوقس إلى عمرو بن العاص : إني لم أزل حريصا على إجابتك إلى خصلة من تلك الخصال التي أرسلت إلى بها . فأبى ذلك علي من حضرني من الروم والقبط . ولم يكن لي أن أفتات عليهم في أموالهم وقد عرفوا نصحي لهم ، وحبي صلاحهم ورجعوا إلى قولي فأعطني أمانا أجتمع أنا وأنت في نفر من أصحابي وأنت في نفر من أصحابك . فإن استقام الأمر بيننا تم ذلك لنا جميعا وإن لم يتم رجعنا الى ما كنا عليه فاستشار عمرو وأصحابه في ذلك فقالوا لا نجيبهم إلى شيء من الصلح ولا الجزية حتى يفتح الله علينا وتصير الأرض كلها لنا فيئا وغنيمة. كما صار لنا القصر وما فيه قال عمرو : قد علمتم ما عهد إلي أميرالمؤمنين في عهده فإن أجابوا إلى خصلة من الخصال الثلاث التي عهد إليَّ فيها أجبتهم إليها وقبلت منهم مع ما قد حال هذا الماء بيننا وبين ما نريد من قتالهم فاجتمعوا على

---

(١) فتوح مصر وأخبارها / ٧٠ .

عهد بينهم ، واصطلحوا على (أن يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط ديناران ديناران عن كل نفس شريفهم ووضعهم من بلغ الحلم منهم ليس على الشيخ الفاني ولا على الصغير الذي لم يبلغ الحلم ولا النساء شيء وعلى أن للمسلمين عليهم النزل لجماعتهم حيث نزلوا . ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة عليهم وأن لهم أرضهم وأموالهم لا يعرض لهم في شيء منها فشرط هذا كله على القبط خاصة وأحصوا عدد القبط يومئذ خاصة من بلغ منهم الجزية وفرض عليه الديناران رفع ذلك عرفاؤهم بالأيمان المؤكدة فكان جميع من أحصي يومئذ بمصر أعلاها وأسفلها من جميع القبط فميا أحصوا وكتبوا ورفعوا أكثر من ستة آلاف ألف نفس فكان فريضتهم يومئذ اثني عشر ألف ألف دينار في كل سنة)[1] .

وشرط المقوقس للروم أن تخيروا فمن أحب منهم أن يقيم على مثل هذا أقام على ذلك لازما له مفترضا عليه من أقام بالاسكندرية وما حولها من أرض مصر كلها ومن أراد الخروج منها إلى أرض الروم خرج وعلى أن للمقوقس الخيار في الروم خاصة حتى يكتب الى ملك الروم يعلمه ما فعل فإن قبل ذلك ورضيه جاز عليهم وإلا كانوا جميعا على ما كانوا عليه وكتبوا به كتبا)[2] .

هرقل يرفض الصلح :

(وكتب المقوقس إلى ملك الروم كتابا يعلمه على وجه الأمر فكتب إليه ملك الروم يقبح رأيه ويعجزه ويرد عليه ما فعل ويقول في كتابه :

---

(١) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم / ٧٠ ـ ٧٨ .

(٢) المصدر نفسه ٧٠ / ٧١ .

إنما أتاك من العرب اثنا عشر ألفا وبمصر ومن بها من كثرة عدد القبط مالا يحصى . فإن كان القبط كرهوا القتال وأحبوا أداء الجزية الى العرب واختاروهم علينا فإن عندك من الروم بالاسكندرية ومن معك أكثر من مائة ألف معهم العدة والقوة . والعرب وحالهم وضعفهم على ما قد رأيت فعجزت عن قتالهم ورضيت أن تكون أنت ومن معك من الروم في حال القبط أذلاء ألا تقاتلهم أنت ومن معك من الروم ؟! حتى تموت أوتظهر عليهم فإنهم فيكم على قدر كثرتكم وقوتكم وعلى قدر قلتهم وضعفهم كأكلة رأس فناهضهم القتال ولا يكون لك رأي غير ذلك وكتب بمثل ذلك كتابا الى جماعة الروم فقال المقوقس لما أتاه كتاب ملك الروم : والله إنهم على قلتهم وضعفهم أقوى وأشد منا على قوتنا وكثرتنا إن الرجل الواحد منهم ليعدل مائة رجل منا وذلك أنهم قوم الموت أحب إلى أحدهم من الحياة يقاتل الرجل منهم وهو مستقبل يتمنى أن لا يرجع إلى أهله ولا بلده ولا ولده ويرون أن لهم أجرا عظيما فيمن قتلوا منا ويقولون أنهم إن قتلوا دخلوا الجنة وليس لهم رغبة في الدنيا .

ونحن قوم نكره الموت ،ونحب الحياة ولذتها . فكيف نستقيم نحن وهؤلاء وكيف صبرنا معهم واعلموا يا معشر الروم ، والله إني لا أخرج مما دخلت فيه ولا صالحت العرب عليه ، وإني لأعلم أنكم سترجعون غدا إلى رأيي وقولي وتتمنون أن لو كنتم أعطيتموني وذلك أني قد عاينت ورأيت وعرفت ما لم يعاين الملك ولم يره ولم يعرفه ويحكم أما يرضى أحدكم أن يكون آمنا على نفسه وماله وولده بدينارين في السنة ثم أقبل المقوقس الى عمرو بن العاص فقال له : إن الملك قد كره ما فعلت وعجزني وكتب الي والى جماعة الروم أن لا نرضى بمصالحتك ، وأمرهم بقتالك حتى يظفروا بك أو تظفر بهم ولم أكن لأخرج مما دخلت فيه وعاقدتك عليه وإنما سلطاني على نفسي ومن أطاعني وقد تم صلح القبط فيما بينك وبينهم ، ولم يأت من قبلهم نقض وأنا متِمٌّ لك على نفسي والقبط متمون لك على الصلح

الذي صالحتهم عليه وعاهدتهم ، وأما الروم فأنا منهم بريء ، وأنا أطلب منك ثلاث خصال ، قال له عمرو : ما هن قال : لا تنقض بالقبط وأدخلني معهم وألزمني ما لزمهم وقد اجتمعت كلمتي وكلمتهم على ماعاهدتك عليه فهم متمون لك على ماتحب .

وأما الثانية : إن سألك الروم بعد اليوم أن تصالحهم فلاتصالحهم حتى تجعلهم فيئا وعبيدا فهم أهل لذلك لأني نصحتهم فاستغشوني ، ونظرت لهم فاتهموني وأما الثالثة أطلب إليك إن أنا مت أن تأمرهم أن يدفنوني في أبي يحنس بالاسكندرية . فانعم له عمرو بن العاص بذلك ، وأجابه إلى ما طلب على أن يضمنوا له الجسرين ففعلوا فخرج عمرو بن العاص بالمسلمين حين أمكنهم الخروج، وخرج معه جماعة من رؤساء القبط أعوانا على ما أرادوا من قتال الروم ، وسمعت بذلك الروم فاستعدت واستجاشت وقدمت عليهم مراكب كثيرة من أرض الروم فيها جمع عظيم من الروم بالعدة والسلاح فخرج اليهم عمرو بن العاص من الفسطاط متوجها إلى الاسكندرية)[1] .

الفتح : وحيث رفض قيصر نتائج المفاوضات كان لا بد من العودة إلى استئناف الحرب من جديد وإن كان الصلح يبقى نافذا على القبط والمقوقس لكن عظماء الروم أصروا على المواجهة .

(واستمر الحصار سبعة أشهر فرأى الزبير بن العوام خللا في سور الحصن فنصب سلما وأسنده إلى الحصن ، وقال : إني أهب نفسي لله تعالى فمن شاء أن يتبعني فليفعل فتبعه جماعة حتى أوفى على الحصن فكبر وكبروا . فلما رأى الروم أن المسلمين قد ظفروا بالحصن انسحبوا ففتحت الفسطاط أبوابها للمسلمين)[2] .

---

(١) فتوح مصر وأخبارها / ٧٣ .

(٢) سفراء النبي ﷺ لمحمود شبيث خطاب / ٤١٩ .

فلما اقتحم الزبير وتبعه من تبعه . وكبر وكبر من كان معه وأجابهم المسلمون من خارج لم يشك أهل الحصن أن العرب قد اقتحموا جميعا فهربوا فعمد الزبير وأصحابه إلى باب الحصن ففتحوه ، واقتحم المسلمون الحصن فلما خاف المقوقس على نفسه ومن معه فحينئذ سأل عمرو الصلح ودعاه إليه على أن يفرض للعرب على القبط دينارين دينارين على كل رجل منهم فأجابه عمرو الى ذلك)[1] .

وهكذا يمكن الجمع بين الروايتين إذ أن كليهما عن عثمان بن صالح حول المفاوضات والحرب وحول فتح مصر صلحا أم عنوة (ولما فتح عمرو حصن بابليون، وكانت معركة فتح هذا الحصن من المعارك الإسلامية الحاسمة في التاريخ الإسلامي فتحت مصر على مصراعيها للفاتحين المسلمين . كما فتحت معركة القادسية الحاسمة أبواب العراق ومعركة اليرموك الحاسمة أبواب أرض الشام ومعركة نهاوند الحاسمة (معركة فتح الفتوح) أبواب بلاد فارس للفاتحين المسلمين وبدأ عمرو بمعارك استثمار الفوز التي تعقب عادة كل معركة حاسمة فوجه عبد الله ابن حذافة السهمي إلى (عين شمس) فغلب على أرضها وصالح أهل قراها على صلح الفسطاط كما وجه خارجة بن حذافة العدوي إلى الفيوم والأشمونين وإخميم والبشر ودات وقرى الصعيد فصالحها ايضا على مثل صلح الفسطاط .

كما وجه عمير بن وهب الجمحي إلى تنيس ودمياط وتونة ودميرة وشطاو ودهقيلة وبنا وبوصير فصالحها على مثل صلح الفسطاط أيضا ووجه عقبة بن عامر الجهني ويقال مولاه وردان مولى عمرو إلى سائرقرى أسفل مصر ففعل مثل ذلك وبذلك استجمع عمرو فتح مصر فصارت أرضها أرض خراج)[2] .

---

(١) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم / ٦٣ .

(٢) سفراء النبي ﷺ / ٤٢١ - ٤٢٢ .

لقد بدأت انتصارات عمرو الكبرى والحاسمة منذ وصول المدد الجديد لعمرو رضي الله عنه الذي كان فيه العشرات من السابقين الأولين وكان به المئات من الصحابة وعلى رأس هؤلاء جميعا أولئك الأربعة الأفذاذ الذين كانوا في حساب عمر رضي الله عنه أربعة آلاف من الرجال لكل واحد منهم بألف .

فالمعركة الكبرى التي سبق وعرضنا لها في بابليون ولاحظنا أن الذي أنهاها سلماً وهزم المقوقس فيها في أعماقه هو عبادة بن الصامت أحد هؤلاء الأربعة وأن الذي أنهاها حربا واحتل حصنها هو الزبير بن العوام أحد العشرة المبشرين ، وأحد هؤلاء الأربعة وأن خارجة بن حذافة الذي انهى حرب الفيوم والأشمونيين واخميم والبشر ودات وقرى الصعيد هو أحد هؤلاء الأربعة وأن الذي فتح دنيس ودماي طوتونة ودميرة وشفاد دقهلية وبنا وبوصير هو عمير بن وهب الجمحي أحد هؤلاء الأربعة على اختلاف الروايات وكان من غرر وسادة الصحابة والسابقين الأوليين الذين حضروا مددا لعمرو : الزبير بن العوام وعمرو بن العاص وعبد الله بن عمرو وخارجة بن حذافة وعبد الله بن عمر وقيس بن أبي العاص السهمي والمقداد بن الأسود ونافع بن عبد القيس الفهري وابو رافع مولى رسول الله ﷺ وعبد الرحمن وربعة ابنا شرحبيل بن حسنة ووردان مولى عمرو وسعد بن أبي وقاص بن أبي سرح العامري وشهد الفتح من الأنصار : عبادة بن الصامت ومحمد بن مسلمة ومسلمة بن مخلد وأبو أيوب الأنصاري وأبو الدرداء عويمر بن عامر .

الفتح الكبير بالاسكندرية :

ثم رجع الى حديث عثمان قال :

فخرج عمرو بن العاص بالمسلمين حين أمكنهم الخروج وخرج معه جماعة من رؤساء القبط وقد أصلحوا لهم الطرق وأقاموا لهم الجسور والأسواق وصارت

لهم القبط أعوانا على ما أرادوا من قتال الروم وسمعت بذلك الروم فاستعدت واستجاشت .. قدمت عليهم مراكب كثيرة من أرض الروم فيها جمع من الروم عظيمه بالعدة والسلاح فخرج إليهم عمرو بن العاص من الفسطاط متوجها الى الإسكندرية . فلم يلق منهم أحدا حتى بلغ قرنوط فلقي بها طائفة من الروم فقاتلوه قتالا خفيفا فهزمهم الله ومضى عمرو بمن معه حتى لقي جمع الروم بكوم شريك فاقتتلوا به ثلاث أيام ثم فتح الله للمسلمين وولى الروم أكتافهم وابن العاص شريك بن نمي في آثارهم ثم التقوا بسلطيس فاقتتلوا بها قتالا شديدا ثم هزمهم الله ثم التقوا بالكربون فاقتتلوا بها بضعة عشريوما وكان عبد الله بن عمرو على المقدمة وحامل اللواء يومئذ وردان مولى عمرو ثم فتح الله للمسلمين وقتل منهم المسلمون مقتلة عظيمة واتبعوهم حتى بلغوا الاسكندرية فتحصن بها الروم وكانت علهيا حصون مبنية لا ترام حصن دون حصن فنزل المسلمون مابين حلوة إلى قصر فارس إلى ما وراء ذلك ومعهم رؤساء القبط يمدونهم بما احتاجوا إليه من الأطعمة والعلوفة ورسل ملك الروم تختلف إلى الاسكندرية في المراكب بمادة الروم ، وكان ملك الروم يقول : لئن ظهرت العرب على الاسكندرية . إن ذلك انقطاع ملك الروم وهلاكهم لأنه ليس للروم كنائس أعظم من كنائس الإسكندرية وانما كان عيد الروم بالاسكندرية حيث غلبتالعرب على الشام فقال الملك : لئن غلبونا على الاسكندرية لقد هلكت الروم وانقطع ملكها ، فأمر بجهازه ومصلحته لخروجه إلى الاسكندرية حتى يباشر قتالها بنفسه اعظاما لها وأمر ألا يتخلف عنه أحد من الروم ، وقال : ما بقاء الروم بعد الاسكندرية فلما فرغ من جهازه صرعه الله فأماته وكفى المسلمين مؤنته ، وكان موته في سنة تسع عشرة فكسر الله بموته شوكة الروم فرجع جمع كثير مما كان توجه إلى الاسكندرية واستأسدت العرب عند ذلك وألحت بالقتال فقاتلوهم قتالا شديدا .

ثم رجع إلى حديث عثمان بن صالح[1] قال : حدثني خالد بن نجيح قال أخبرني الثقة أن عمرو بن العاص قاتل الروم بالاسكندرية يوما من الأيام قتالا شديدا فلما استحر القتل بينهم بارز رجل من الروم مسلمة بن مخلد فصرعه الرومي وألقاه عن فرسه ، وهوى اليه ليقتله حتى حماه رجل من أصحابه وكان مسلمة[2] لا يقام سبيله[2] ولكنها مقادير ، ففرحت بذلك الروم ، وشق ذلك على المسلمين ، وغضب عمرو بن العاص لذلك . كان مسلمة كثير اللحم ثقيل البدن فقال عمرو بن العاص عند ذلك : ما بال الرجل المسنه[3] الذي يشبه النساء يتعرض مداخل الرجال ، ويتشبه بهم فغضب من ذلك مسلمة ولم يراجعه ثم اشتد القتال حتى اقتحموا حصن الاسكندرية فقاتلتهم العرب في الحصن ، ثم جاشت عليهم الروم حتى أخرجوهم جميعا من الحصن إلا أربعة نفر بقوا في الحصن وأغلقوا عليهم باب الحصن أحدهم عمرو بن العاص ، والاخر مسلمة بن مخلد ولم نحفظ الآخرين .

مسلمة ينقذ أميره :

(.. حالوا بينهم وبين أصحابهم ولا تدري الروم من هم فلما رأى ذلك عمرو بن العاص وأصحابه التجأوا إلى ديماس من حماماتهم فدخلوا فيه فاحترزوا به فأمروا روميًا أن يكلمهم بالعربية فقال لهم : إنكم صرتم بأيدينا أسارى فاستأسروا ولا تقتلوا أنفسكم . فامتنعوا عليهم ثم قال لهم : إن في أيدي أصحابكم منا رجالا أسروهم ونحن نعطيكم العهود نفادي بكم أصحابنا ولا

---

(١) وهو السند المقبول السابق : حدثنا عثمان بن صالح أخبرنا خالد بن نجيح عن يحى بن أيوب وخالد بن صدوقون . قال حدثنا خالد بن يزيد عن جماعة من التابعين بعضهم يزيد على بعض وكل رواة ا لسند صدوقون .

(٢) في إحدى الروايات السابقة أن أحد الأربعة الذين بعثهم عمر رضي الله عنه وعده بألف رجل .

(٣) المسنه : الكثير اللحم .

نقتلكم فأبوا عليهم فلما رأى ذلك الرومي منهم قال لهم هل لكم إلى خصلة وهي نصف فيما بيننا وبينكم أن تعطونا العهد ونعطكيم مثله على أن يبرز منكم رجل ومنا رجل ، فإن غَلَبَ صاحبنا صاحبكم استأسرتم لنا وأمكنتمونا من أنفسكم وإن غَلَبَ صاحبكم صاحبنا خلينا سبيلكم إلى أصحابكم فرضوا بذلك ، وتعاقدوا عليه ، وعمرو ومسلمة وصاحباهما في الحصن في الديماس فتداعوا إلى البراز فبرز رجل من الروم قد وثقت الروم بنجدته وشدته وقال : يبرز رجل منكم لصاحبنا ، فأراد عمرو أن يبرز فمنعه مسلمة . وقال : ما هذا ؟ تخطيء مرتين ، تشذ عن أصحابك وأنت أمير وإنما قوامهم بك ، وقلوبهم معلقة نحوك ولا يدروون ما أمرك، ثم لا ترضى حتى تبارز وتتعرض للقتل فإن قتلت كان ذلك بلاء على أصحابك مكانك وأنا أكفيك إن شاء الله فقال عمرو : دونك فربما فرجها الله بك . فبرز مسلمة والرومي فتجاولا ساعة ، ثم أعانه الله عليه فقتله فكبر مسلمة وأصحابه ووفى لهم الروم بما عاهدوهم عليه ففتحوا لهم باب الحصن فخرجوا ولا تدري الروم أن أمير القوم فيهم حيث يبلغهم بعد ذلك فأسفوا على ذلك .. وأكلوا أيديهم تغيظاً على ما فاتهم . فلما خرجوا استحيي عمرو مما كان قال لمسلمة حين غضب فقال عمرو عند ذلك استغفر لي ما كنت قلت لك فاستغفر له ، وقال عمرو ما أفحشت قط إلا ثلاث مرار ، مرتين في الجاهلية وهذه الثالثة وما منهن مرة إلا وقد ندمت واستحييت ، وما استحييت من واحدة منهم أشد مما استحييت مما قلت لك والله إني لأرجو ألا أعود إلى الرابعة ما بقيت)[1] . قال ثم رجع الحديث إلى عثمان[2] عن ابن لهيعة[3] عن يزيد بن أبي حبيب [4] .

---

(١) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم / ٦٨ - ٦٩ .

(٢) ثقة من الحادية عشرة .

(٣) صدوق من السابعة .

(٤) ثقة فقيه من الخامسة وكان يرسل .

أمير المؤمنين وتأخر الفتح :

(.. قال : أقام عمرو بن العاص محاصر الاسكندرية أشهرا فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب قال : ما أبطأوا بفتحها إلا لما أحدثوا) .

حدثنا يحيى بن خالد عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه قال : لما أبطأ على عمر بن الخطاب فتح مصر كتب إلى عمرو بن العاص : أما بعد فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر إنكم تقاتلونهم منذ سنتين وما ذلك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم وان الله تعالى لا ينصر قوما الا بصدق نياتهم وقد كنت وجهت إليك أربعة نفر وأعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ما كنت أعرف إلا أن يكونوا غيرهم ما غير غيرهم فإذا أتاك كتابي هذا فاخطب الناس وحضهم على قتال عدوهم ورغبهم في الصبر والنية وقدم أولئك الأربعة في صدور الناس وأمر الناس جميعا أن يكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة فإنها ساعة تنزل الرحمة ووقت الإجابة وليعج الناس إلى الله ويسألوه النصر على عدوهم فلما أتى عمرو الكتاب جمع الناس وقرأ عليهم كتاب عمر ، ثم دعا أولئك النفر فقدمهم أمام الناس وأمر الناس أن يتطهروا ويصلوا ركعتين ثم يرغبوا إلى الله عز وجل ويسألوه النصر ، ففتح الله عليهم .

ويقال إن عمرو بن العاص استشار مسلمة بن مخلد كما حدثنا عثمان بن صالح عمن حدثه وقال :

---

(١) فتوح مصر ربما .

(٢) يحيى بن خالد (مجهول) .

(٣) عبد الرحمن بن زيد : ضعيف .

(٤) زيد بن أسلم ، مولى عمر ، ثقة عالم وكان يرسل .

أشر عليٌّ في قتال هؤلاء ، فقال له مسلمة : أرى أن تنظر إلى رجل له معرفة وتجارب من أصحاب رسول الله ﷺ فتعقد له على الناس فيكون هو الذي يباشر القتال ويكفيك . قال عمرو : ومن ذلك ؟ قال : عبادة بن الصامت قال : فدعا عمرو عبادة فأتاه وهو راكب على فرسه فلما دنامنه أراد النزول فقال له عمرو : عزمت عليك إن نزلت[1] ناولني سنان رمحك ، فناوله إياه ، فنزع عمرو عمامته عن رأسه وعقد له ، وولاه قتال الروم فتقدم عبادة مكانه فصاف الروم وقاتلهم ففتح الله على يديه الاسكندريه من يومهم ذلك .

حدثنا أبي عبد الله بن عبد الحكم قال : لما أبطأ على عمرو بن العاص فتح الإسكندرية استلقى على ظهره ثم جلس فقال : فكرت في هذا الأمر فإذا هو لا يُصلح آخره إلا من أصلح أوله يريد الأنصار فدعا عبادة بن الصامت فعقد له ففتح الله على يديه الإسكندرية في يومه ذلك .

ثم رجع إلى حديثه يحيى بن أيوب عن خالد بن حميد قال : حاصروا الاسكندرية تسعة أشهر بعد موت هرقل وخمسة قبل ذلك ، وفُتحت يوم الجمعة المستهل المحرم سنة عشرين ، وحدثنا عبد الملك بن مسلمة[2] عن مالك بن أنس[3] أن مصر فتحت سنة عشرين)[4] .

أما البلاذري فيرى أن هذا الفتح قد تم سنة إحدى وعشرين :

قالوا : لما فتح عمرو بن العاص مصر أقام بها ثم كتب إلى عمر بن الخطاب يستأمره في الزحف إلى الاسكندرية ، فكتب إليه يأمره بذلك فسار إليها في سنة

---

(١) إن نزلت : ما نزلت

(٢) عبد الملك بن مسلمة (مجهول) .

(٣) مالك بن أنس : ثقة عالم فقيه رأس المتقين وكبير المثبتين .

(٤) فتوح مصر والمغرب / ٨٠ .

إحدى وعشرين واستخلف على مصر خارجة بن حذافة .. وكان ما دون الاسكندرية من الروم والقبط قد تجمعوا له ، وقالوا : نغزوه بالفسطاط قبل أن يبلغنا ويروم الاسكندرية فلقيهم بالكريون فهزمهم وقتل منهم مقتله عظيمة وكان فيهم أهل سخا وبلهيت والخيس وسلطيس وغيرهم قوم رفدوهم وأعانوهم ثم سارعمرو حتى انتهى إلى الاسكندرية فوجد أهلها معدين لقتاله إلا أن القبط في ذلك يحبون الموادعة . فأرسل اليه المقوقس يسأله الصلح والمهادنة الى مدة فأبى عمرو ذلك فأمر المقوقس النساء أن يقمن على سور المدينة مقبلات بوجوههن الى داخله ، وأقام الرجال في السلاح مقبلين بوجهوهمم الى المسلمين ليرهبم بذلك . فأرسل إليه عمرو : إنا قد رأينا ما صنعت وما با لكثرة غلبنا من غلبنا فقد لقينا هرقل ملككم فكان من أمره ما كان ، فقال المقوقس لأصحابه قد صدق هؤلاء القوم أخرجوا ملكنا من دار مملكته حتى أدخلوه القسطنطينية ، فنحن أولى بالإذعان فأغلظوا له القول وأبوا إلا المحاربة فقاتلهم المسلمون وحصروهم ثلاثة أشهر ثم إن عَمْراً فتحها بالسيف وغنم ما فيها واستبقى أهلها ولم يقتل ولم يسب وجعلهم ذمة كأهل ليونة فكتب الى عمر بالفتح مع معاوية بن خديج الكندي ثم السكوني وبعث إليه معه بالخمس)[1].

أمير المؤمنين يتلقى خبر الفتح :

وبعث عمرو بن العاص كما حدثنا عثمان بن صالح عن ابن لهيعة معاوية بن حُديج وافدا الى عمر بن الخطاب بشيراً بالفتح فقال له معاوية : ألا تكتب معي ! فقال له عمرو : وما أصنع بالكتاب ألست رجلا عربيا تبلغ الرسالة وما رأيت وحضرت فلما قدم على عمر أخبره بفتح الإسكندرية فخرَّ عمر ساجدا وقال

(١) فتوح البلدان للبلاذري / ٢٢١ - ٢٢ .

الحمد لله وحدثنا عبد الله بن يزيد المقرىء [١] حدثنا موسى بن علي عن أبيه[٢] أنه سمعه يقول سمعت معاوية ابن خديج يقول بعثني عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب بفتح الاسكندرية فقدمت المدينة في الظهيرة فأنخت راحلتي بباب بالمسجد ثم دخلت المسجد فبينما أنا قاعد فيه إذ خرجت جارية من منزل عمر بن الخطاب فرأتني شاحبا على ثياب السفر فأتتني فقالت : من أنت ؟ فقلت : أنا معاوية بن حديج رسول عمرو بن العاص الأمير فانصرفت عني ، ثم أقبلت تشتد أسمع حفيف إزارها على ساقها أو ساقيها ، حتى دنت مني فقالت : قم ، فأجب أمير المؤمنين يدعوك . فتبعتها فلما دخلت فإذا بعمر بن الخطاب يتناول رداءه بإحدى يديه ويشد إزاره بالأخرى . فقال : ما عندك ؟ فقلت : خير يا أمير المؤمنين فتح الله الإسكندرية فخرج معي إلى المسجد فقال للمؤذن أذن في الناس؛ الصلاة جامعة فاجتمع الناس ثم قال لي : قم فأخبر أصحابك فقمت فأخبرتهم ، ثم صلى ودخل منزله واستقبل القبلة فدعا بدعوات ثم جلس فقال : يا جارية هل من طعام، فأتت بخبز وزيت . فقال : كل فأكلت على حياء . ثم قال : كل فإن المسافر يحب الطعام فلو كنت آكلا لأكلت معك فأصبت على حياء ثم قال : يا جارية : هل من تمر ؟ فأتت بتمر في طبق ، فقال كل ، فأكلت على حياء ، ثم قال : ماذا قلت يا معاوية حين أتيت المسجد . قال قلت : أمير المؤمنين قائل[٣] قال : بئس ما قلت : أو بئس ما ظننت لئن نمت النهار لأضيعن الرعية ولئن نمت الليل لأضيعن نفسي فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية) [٤] .

---

(١) من شيوخ مالك ثقة من السادسة .

(٢) موسى بن علي عن أبيه (مجهول) .

(٣) قائل : من القيلولة وهي النوم في النهار .

(٤) فتوح مصر والمغرب وأخبارها / ٨١ .

هذا هو رأس الأمة الربانية الذي يعيش قلبه مع جنده والزيت أدم له وهو الذي يضع الخطط لهم من المدينة ، وهذا أميره عمرو قد بدأ يدرك رضي الله عنه أن آخرهذه الأمة لا يصلح إلا بما صلح به أولها من الأنصار من أصحاب رسول الله ونفذ وصية أمير المؤمنين في الدعاء والتضرع والتلبية وسلم القيادة لعبادة بن الصامت كما نعجب من هذا القائد العظيم عمرو بن العاص الذي لا يعرف اليأس سبيلا إليه فيبقى في الحصار تسعة أشهر دون أن يثني هذا الحصار عزيمته أو يفل همته ، والصبر هذا يرافقه الجوع والعطش والحر والبرد واختلاف الأجواء وتغير البيئة كل هذا أبقاه يواجه أعتى دول الأرض وأقواها فهو لم يعرف لحظة من لحظات حياته الراحة فقد مضى إلى عُمان ومن عمان إلى الشام ومن الشام إلى فلسطين والأردن ومن فلسطين الى مصر يجوب الجزيرة العربية شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ماضٍ في سبيل الله لتحقيق موعود الله وقد شارف على الستين من عمره أو زاد عنها يريد أن يصنع فجرا جديدا لهذه الأمة ويتعرض لأشد أنواع الخطر ، ويحبس في أرض العدو ولا يهن ولا يضعف ولا يستكين . ولولا هذا الصبر العظيم والشجاعة الفائقة والوعي والتخطيط للمواجهة لما أمكن أن يتغلب على هذه المصاعب جميعا وقهر الروم وامبراطورهم الذي مضى كمدا وحسرة وهو الذي كان يقول : لئن غلبونا على الإسكندرية لقد هلكت الروم وانقطع ملكها وسنرى فيما بعد أن الروم عادوا فاحتلوا الاسكندرية بعد أربع سنوات وأخرجهم منها عمرو بن العاص وهدم أسوارها ، وأنهى الوجود الروماني منها إلى الأبد .

عمرو بن العاص ، فاتح ليبية وعمرو القائد

ذكر فتح الفيوم :

حدثنا سعيد بن عفير وغيره قال : لما تم الفتح للمسلمين بعث عمرو جرائد الخيل إلى ا لقرى التي حولها فأقامت الفيوم سنة لم يعلم المسلمون بمكانها حتى أتاهم رجل فذكرها لهم . فأرسل عمرو معه ربيعة بن حبيش بن عرفطة الصدفي فلما سلكوا في المجابة فلم يروا شيئا فهموا بالانصراف فقالوا لا تعجلوا سيروا فإن كان كذب فما أقدركم على ما أردتم فلم يسيروا إلا قليلا حتى طلع لهم سواد الفيوم فهجموا عليها فلم يكن عندهم قتال وألقوا بأيديهم) (١) .

وبعث عمرو بن العاص نافع بن عبد القيس الفهري : وكان نافع أخا العاص بن وائل لأمه . فدخلت خيولهم أرض النوبة صوائف كصوائف الروم . فلم يزل الأمر كذلك حتى عزل عمرو بن العاص عن مصر وأمر عبد الله بن سعد بن أبي سرح فصالحهم) (٢) .

ذكر فتح برقة :

قال : فسار عمرو بن العاص في الخيل حتى قدم برقة فصالح أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار يؤدونها إليه جزية) (٣) .

(وحدثني محمد بن سعد بن عن الواقدي عن مسلمة بن سعيد عن اسحاق بن عبد الله بن أبي فروة قال : كان أهل برقة يبعثون بخراجهم الى والي مصر من

---

(١) فتوح مصر وأخبارها / ١٦٩ .

(٢) المصدر نفسه / ١٧٠ .

(٣) المصدر نفسه / ١٧٠ .

غير أن يأتيهم حاث أو مستحث فكانوا أخصب قوم بالمغرب ولم يدخلها فتنة قال الواقدي وكان عبد الله بن عمرو بن العاص يقول : لولا مالي بالحجاز لنزلت برقة فما أعلم منزلا أسلم ولا أعزل منها) [1] .

(وحدثني بكر بن الهيثم قال : حدثنا عبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح قال : كتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب يعلمه أنه قد ولى عقبة بن نافع الفهري المغرب فبلغ زويلة وأن من بين زويلة وبرقة سلم كلهم حسنة طاعتهم قد أدى مسلمهم الصدقة وأقر معاهدهم بالجزية ، وأنه قد وضع على أهل زويلة ومن بينه وبينها ما رأى أنهم يطيقونه وأمر عماله جميعا أن يأخذوا الصدقة من الأغنياء فيردوها الى الفقراء ويأخذوا الجزية من الذمة فتحمل اليه بمصر وأن يؤخذ من أرض المسلمين العشر ، ونصف العشر ومن أهل الصلح صلحهم) [2] .

فتح أطرابلس :

قال [3] : ثم سار عمرو بن العاص حتى نزل أطرابلس في سنة اثنتين وعشرين حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير عن الليث بن سعد قال : غزا عمرو بن العاص طرابلس في سنة ثلاث وعشرين ، ثم رجع الى حديث عثمان فنزل على القبة التي على الشرف من شرقها فحاصرها شهراً لا يقدر منهم على شيء فخرج رجل من بني مدلج ذات يوم في معسكر عمرو متصيدا في سبعة نفر فمضوا غربي المدينة حتى أمعنوا عن العسكر ثم رجعوا فأصابهم البحر فأخذوا على ضفة

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري / ٢٢٦ .

(٢) المصدر نفسه / ٢٢٦ ..

(٣) كل روايات ابن عبد الحكم عن سعيد بن عفير قال عند ابن حجر : صدوق عالم بالأنساب وغيرها ، قال الحاكم : يقال إن مصر لم تخرج أجمع للعلوم منه .

البحر وكان البحر لاصقا بسور المدينة ولم يكن فيما بين البحر والمدينة سور وكانت سفن الروم شارعة في مرساها إلى بيوتهم فنظر المدلجي وأصحابه فإذا البحر قد غاض من ناحية المدينة ووجدوا مسلكا إليها من الموضع الذي غاض فيه البحر، فدخلوا منه حتى أتوا من ناحية الكنيسة وكبروا فلم يكن للروم مفزع إلا سفنهم، وأبصر عمرو وأصحابه السلة في جوف المدنية فأقبل بجيشه حتى دخل عليهم فلم تفلت الروم الا بما خف لهم من مراكبهم وغنم عمرو ما كان في المدينة)[1] .

(وكان من بسبرت متحصنين واسمها نبارة وسبرت السوق القديم فلما بلغهم محاصرة مدنية أطرابلس وأنه لم يصنع فيهم شيئا ولا طاقة له بهم أمنوا فلما ظفر عمرو بن العاص بمدنية أطرابلس جرد خيلاً كثيفا من ليلته وأمرهم بسرعة السير فصحبت خيله مدينة سبرت وقد غفلوا وقد فتحوا أبوابهم لتسرح ماشتيهم فدخلوها فلم ينج منهم أحد واحتوى عمرو على ما فيها ورجعوا الى عمرو)[2] .

الاستئذان في غزو أفريقية :

(وأراد عمرو أن يوجه إلى المغرب فكتب إلى عمر بن الخطاب كما حدثنا عبد الملك بن مسلمة عن ابن لهيعة عن أبي تميم الجيشاني : إن الله قد فتح علينا أطرابلس وليس بينها وبين أفريقية إلا تسع أيام ، فإن رأى أمبر المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل فكتب اليه عمر : إنها ليست بأفريقية ولكنها المفرقة غادرة مغدور بها لا يغزوها أحد ما بقيت)[3] .

---

(١) فتوح مصر وأخبارها / ١٧١ .

(٢) المصدر نفسه / ١٧٢ .

(٣) المصدر نفسه / ١٧٣ .

(وذلك أن أهلها كانوا يؤدون إلى ملك الروم شيئا فكانوا يغدرون به كثيرا وكان ملك الأندلس صالحهم ثم غدر بهم وكان خبرهم قد بلغ عمر) [١] .

(قال : ثم رجع إلى حديث عثمان بن صالح وغيره قال : فأتى عمرو بن العاص كتاب المقوقس يذكر فيه أن الروم يريدون نكث العهد ونقض ما كان بينهم وبينه ، وكان عمرو قد عاهد المقوقس على أن لا يكتمه أمرا يحدث فانصرف عمرو راجعا مبادرًا لما أتاه وقد كان عمرو يبعث الجريدة من الخيل فيصيبون الغنائم ثم يرجعون) [٢] .

الفتح الثاني للاسكندرية :(فلما هزم الله تبارك وتعالى وفتح الاسكندرية كما حدثنا عبد الله بن صالح عن الليث وهرب الروم في البر والبحر ، خلف عمرو بن العاص بالاسكندرية ألف رجل من أصحابه ومضى عمرو ومن معه في طلب من هرب من الروم) .

قال : وكانت الإسكندرية كما حدثنا عبد الله بن صالح [٣] عن الليث بن سعد [٤] عن يزيد بن أبي حبيب [٥] انتقضت وجاءت الروم عليها منويل الخصي في المراكب حتى أرسوا في الأسكندرية فأجابهم من بها من الروم ولم يكن المقوقس تحرك ولا نكث وقد كان عثمان بن عفان عزل عمرو بن العاص وولى عبد الله بن سعد فلما نزلت الروم الإسكندرية سأل أهل مصر عثمان أن يقر عَمْرًا حتى يفرغ من قتال الروم فإن له معرفة بالحرب وهيبة في العدو ففعل وكان على

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري / ٢٢٧ .

(٢) فتوح مصر وأخبارها / ٨٠ .

(٣) صدوق كثير الغلط كاتب الليث وثبت في كتابه .

(٤) ثبت فقيه إمام مشهور .

(٥) ثقة فقيه وكان يرسل .

الإسكندرية سورها فحلف عـمرو بن العاص لئن أظهره الله عليهم ليـهدمن سورها حتى تكون مثل بيت الزانية تؤتى من كل مكان فخرج الـيهم عمرو في البحر والبر قال غيـر الليث وضوى إلى المقوقس من أطاعه من القبط فـأما الروم فلم يطعه منهم أحد فـقال خـارجة بن حـذافة لعـمرو : ناهضـهم قـبل أن يكثر مـددهم ولا آمن أن تنقض مصر كلها فقال له عمرو :

لا ولكن أدعـهم حتى يسيروا إلى فـانهم يصيبـون من مـروا به فيخـزي الله بعـضـهم ببعـض ، فخـرجـوا من الاسكندرية ومـعـهم من نقض من أهل القـرى ، فجعلوا ينزلون القـرية فيشربون خمورها ويأكلون أطعـمتها وينتهبـون مامروا به فلم يعرض لهم عمرو حتى بلغوا نقيوس فلـقوهم من البر والبحر ، فبدأت الروم والقبط فرموا بالنشاب في الماء رمـيا شديدا حتى أصابت النشاب فرس عـمرو في لبته وهو في البر فـعقر فنزل عنه عمـرو ، ثم خرجوا من البحـر فاجتمعـوا هم والذين في البر فنضحوا المسـلمين بالنشاب فاستأخـر المسلمون عنهم شيئـا وحملوا على المسلمين حـملة ولى منها المسـلمون وانهـزم شريك بن سـمي في خيله . وكانت الروم قـد جعلت صفوفا خلف صفوف وبرز يومئذ بطريق ممن جاء من أرض الروم على فرس له عليـه سلاح مـذهب فـبرز اليـه رجل من زبيـد يقال له حـومل يكنى أبا مـذحج فاقتتلا طويلا برمحين يتطاردان ثم ألقى البطريق الرمح وأخذ السيف وألقي حومل رمحـه وأخذ سيـفه وكان يُعرف بالـنجدة وجعل عمـرو يصيح أبا مذحج فـيجيـبه لبيـك والناس على شاطئ النيل في البـر على تعبـئتـهم وصفوفـهم فتـجاولا سـاعة بالسيفين ثم حمل عليه البطريق فاحتمله وكـان نحيفا ويخترط حومل خنجرا كان في منطقـته أو في ذراعـه فضـرب به نحر العلج أو ترقـوته فأثبـته ووقع عـليه فـأخذ سلبـه ثم مات حـومل بعد ذلك بأيام رحـمه الله . فـرئي عمـرو يحمل سـريره بين

عمودي نعشه حتى دفنه بالمقطم ثم شد المسلمون عليهم فكانت هزيمتهم فطلبهم المسلمون حتى ألحقوهم بالاسكندرية ففتح الله عليهم وقتل منويل الخصي .

وبني في ذلك الموضع الذي رفع فيه السيف مسجده وهو المسجد الذي بالإسكندرية الذي يقال له مسجد الرحمة وانما سمي مسجد الرحمة لرفع عمرو السيف هنالك وهدم سورها كله .

وجمع عمرو ما أصاب منهم فجاء أهل القرى ممن لم يكن نقض فقالوا : كنا على صلحنا وقد مر علينا هؤلاء ا للصوص فأخذوا متاعنا ودوابنا وهو قائم في يديك فرد عليهم عمرو ما كان لهم من متاع عرفوه وأقاموا عليه البينة وقال بعضهم لعمرو : ما حل لك ما صنعت بنا . كان لك أن تقاتل عنا لأنا في ذمتك ولم ننقض فأما من نقض فأبعده الله فندم عمرو وقال : يا ليتني لقيتهم حين خرجوا من الاسكندرية .

وكان سبب نقض الإسكندرية هذا كما حدثنا عن حيوة بن شريح عن الحسن بن ثوبان عن هشام ابن أبي رقية أن صاحب إخنا قدم على عمرو بن العاص فقال: أخبرنا ما على أحدنا من الجزية فيصير لها فقال عمرو وهو يشير إلى كنيسة: لو أعطيتني من الركن إلى السقف ما أخبرنك . إنما أنتم خزانة لنا إن كثر علينا كثرنا عليكم وان خفف عنا خففناعنكم فغضب صاحب اخنا فخرج الى الروم فقدم بهم فهزمهم الله وأسرالقبطي فأتي به عمرو . فقال الناس : اقتله : فقال: لا انطلق فجئنا بجيش آخر .

حدثنا سعيد بن سابق قال كان اسمه طلما وأن عمرا لما أتي به سوّره وتوجه وكساه برنس أرجوان وقال له : ايتنا بمثل هؤلاء . فرضى بأداء الجزية فقيل لطلما: لو أتيت ملك الروم فقال :

لو أتيته لقتلني وقال . قتلت أصحابي) [1] .

وها نحن قبل أن نودع عمرا القائد ننقل عن أبرز الشخصيات العسكرية الإسلامية المعاصرة [2] . تحليله لشخصية عمرو القيادية فهو أجدر من أي مؤلف آخر يعرض هذا الجانب وذلك في مقتطفات من كتابه سفراء النبي ﷺ .

(فلا عجب أن يمتد نشاط عمرو القيادي من عُمان إلى تونس وعبر آلاف الأميال في قارتين من قارات العالم آسيا وأفريقيا ، ثم لا يرتد له لواء في حروبه بل يقود رجاله من نصر الى نصر ويبقى فتحه فتحا مستداما عبر القرون والأحقاب مما يثبت أنه كان قائدا عبقريا حقا .

١ ـ وصفات عمرو القيادية واضحة كل الوضوح من معاركه ونتائجها فقد كان قادراً بكفاءة نادرة على إصدار القرارات السريعة الصحيحة في مختلف الظروف والأحوال والقرار السريع الصريح يستند على عاملين رئيسيين : القابلية العظمى للقائد أولا والحصول على المعلومات عن العدو والأرض ثانيا [3] .

وقد تطرقنا الى قابلية عمرو الفدة بما فيه الكفاية وبقي علينا أن نتطرق إلى العامل الثاني وهو الحصول على المعلومات عن العدو والأرض لقد كان عمرو يقدر حق التقدير قيمة الاستطلاع لهذا كان يواجه عدوه وهو يعرف عنه كل شيء تقريبا فيتحرك نحوه مفتوح العينين في النور لا في الظلام .

---

(١) فتوح مصر وأخبارها / ١٧٥ ـ ١٧٧ .

(٢) هو اللواء الركن محمود شبث خطاب والذي كان مستشارا عسكريا للجامعة العربية ومن الذين خاضوا حرب فلسطين عام ٤٩ ، وأكبر مؤلف في المجال العسكري الإسلامي . وقد توفي رحمه الله .

(٣) غيرت الأرقام لتتناسب مع المقتطفات .

فقد كان من أسباب نجاحه في سرية ذات السلاسل أن أم العاص بن وائل والد عمرو من بني بلي) لذلك عاونه أخواله في تيسير مهمته وأمدوه بالمعلومات الضرورية لإحراز النصر .

وكان لمعرفة عمرو لطبيعة بلاد الشام وفلسطين بخاصة طبيعة أرضها ومناطقها المناسبة للقتال وبالطرق التقريبية الى تلك المناطق وبمزايا أهلها المحليين ومزايا الروم الدخلاء ، أثر حاسم في انتصاره على الروم وحلفائهم في معارك فتح بلاد الشام والظاهر أنه لم يكتف بالمعلومات المتيسرة لديه عن فلسطين بالذات فأقدم على مغامرة استطلاعية فذة فقام باستطلاع شخصي لمقر قائد الروم (أرطبون) واطلع على نقاط الضعف في مواضع الروم وقواتهم عامة وقائدهم وبذلك انتصر عليهم بعد مناوشات طالت كثيراً ولكن هذه المغامرة الاستطلاعية كادت أن تكلفه حياته لولا دهاؤه وحسن تخلصه من موقفه العصيب .

وكان لزيارة مصرالتي قام بها قبل إسلامه أثر كبير في معرفته أحوال مصر وأخبارها وطرقها وطبيعة أرضها ومدى الاضطهاد الديني والسياسي الذي يعانيه المصريون من الروم فلا عجب أن يقدم عمرو على فتح مصر وبقيادته ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل فقط إذ لولا تيسر المعلومات الكافية لديه عن مصروأهلها وعداوتهم للروم واستعدادهم لمعاونة المسلمين دون الروم لما كان من المعقول أن يقدم على فتح مصر بمثل هذا العدد الضئيل من الرجال .

٢ ـ وكان عمرو يتمتع بحاسة تأثير الأرض في سير القتال فهو الذي أشار على قادة المسلمين في بلاد الشام بالاجتماع في اليرموك فلما نزل الروم معسكرهم انتقل المسلمون من معسكرهم القديم الى معسكر جديد مناسب فنزلوا على طريق

انسحاب الروم وليس للروم طريق إلا على المسلمين ، حينذاك هتف عمرو : أيها الناس أبشروا حصرت والله الروم وقلما جاء محصور بخبر .

وكما كان يحرص على جمع المعلومات عن العدو والأرض كان يحرص على منع العدو من جمع المعلومات عن قواته وأرضه فقد منع رجاله في سرية ذات السلاسل وفيهم كبار الصحابة : أبو بكر وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح وغيرهم من كبار المهاجرين والأنصار من إشعال النار ليلاً عل الرغم من شدة البر وقسوته ليحول دون كشف مواضعهم للعدو وكشف عددهم القليل للعدو أيضا .

وهذا المثال يدل على إيمان عمرو بأهمية الضبط والطاعة والسيطرة لذلك كان يفرض على رجاله ضبطا عاليا ويطالبهم بالطاعة المطلقة لأوامره(١) ويسيطرعليهم سيطرة تامة ، وهو يدل على شدة ضبط عمرو وسيطرته النافذة على مرؤوسيه بصرف النظر عن قيمهم الاجتماعية والدينية والسياسية .

٣ - وكان على جانب عظيم من الشجاعة الشخصية فقد كان من فرسان قريش وأبطالهم في الجاهلية مذكورا بذلك فيهم . وكان جريئا مقداما وقد وصفه عثمان بن عفان لعمر بن الخطاب رضي الله عنهم بقوله : إن عمرًا لمجرأ وفيه إقدام وحب للإمارة .. » وقد باشر القتال في القلب أيام صفين فلما كان يوم من تلك الأيام اقتتل أهل العراق وأهل الشام حتى غابت الشمس ثم اقتتلوا ساعة من الليل حتى كثرت القتلى بينهم فصاح عمرو بأصحابه : « الأرض الأرض يا أهل الشام ، فترجلوا ودب بينهم ، وترجل أهل العراق أيضا فكان عمرو يقاتل وهو يقول :

---

(١) ولا أدل على ذلك من موقفه في غزوة ذات السلاسل من قضية منع إيقاد النار فسأله أصحابه أن يأذن لهم أن يوقدوا نارا ليلا فمنعهم فكلموا أبا بكر أن يكلمه في ذلك ، فأتاه فقال (أي عمرو) : « قد أرسلوا إلي لا يوقد أحد منهم نارا إلا ألفيته فيها » فلقوا العدو فهزموهم) انظر تاريخ ابن عساكر ٥٠٣/١٣ .

وصبرنا على مواطن ضنك　　　وخطوب تري البياض الوليدا

فأقبل رجل من أهل العراق فضرب عَمْراً ضربة جرحه على العاتق فأدركه عمرو فضربه ضربة قضت عليه ومواقفه البطولية التي تدل على شجاعته الشخصية أكثر من أن تعد وتحصى [1] .

٤ ـ ولكنه كان يحارب بعقله كما كان يحارب بسيفه بل كان عقله أمضى حدا من سيفه فيستعمل عقله .

في الحرب أكثر مما يستعمل سيفه .) [2] .

ففي فتح مصر استهان القبط بالفاتحين وقال قائلهم (ما أرث العرب ما رأينا مثلنا دان لمثلهم) فخاف عمرو أن يطمعهُم ذلك فأرى عمرو المصريين حال العرب في بلادهم قبل الفتح ، وكيف أصبحوا بعد الفتح في تمتعهم بأسباب الحياة، وحالهم في الحرب ثم قال للمصريين علمت حالكم حين رأيتم اقتصاد

---

(١) نذكر من أهمها موقفين اثنين : الأول موقفه يوم أجنادين (فعن خلف بن معدان قال : لماانهزمت الروم يوم أجنادين انتهوا إلى موضع لا يعبره إلا انسان وجعلت الروم تقاتل عليه وقد تقدموه وعبروه وتقدم هشام بن العاص بن وائل فقاتل عليه حتى قتل ووقع على تلك الثلمة فسدها فلما انتهى المسلمون إليها هابوا أن يوطئوه الخيل فقال عمرو بن العاص : أيها الناس إن الله قد استشهده ورفع روحه وانما هو جثة فأوطئوه الخيل ثم أوطأه هو وتبعه الناس حتى قطعوه فلما انتهت الهزيمة (وهزيمة الروم) ورجع المسلمون الى العسكر كر عليه عمرو بن العاص فجعل يجمع لحمه وأعضاءه وعظامه ثم حمله في نطع فواره) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤ / ١٩٤ . والموقف الثاني : عن موسى بن عمران بن مناح قال : لما رأى عمرو بن العاص يوم اليرموك صاحب الراية ينكشف بها أخذها ثم جعل يتقدم وهو يصيح إلي يا معاشر المسلمين فجعل يطعن بها قدما وهو يقول : اصنعوا كما أصنع حتى إنه ليرفعها وكأنه عليها ألسنة المطر من العلق (أي الدم) تاريخ دمشق لابن عساكر ١٣ / ٥١١ .

(٢) تركنا هذا الاستشهاد من حرب صفين لأن لنا موقفا يختلف عن موقف استاذنا العالم اللواء محمود شيث خطاب في قضية الفتنة ودور عمرو رضي الله عنه فيها وهو ما سنعالجه فيما بعد إن شاء الله .

العرب فخشيت أن هلكوا فأردت أن أريكم حالهم في أرضهم كيف كانت ثم حالهم في أرضكم ثم حالهم في الحرب فقد رأيتم ظفرهم بكم وذلك عيشهم وقد كلبوا على بلادكم بما نالوا في اليوم الثاني فأردت أن تعلموا أن ما رأيتم في اليوم الثالث غير تارك عيش اليوم الثاني وراجع الى عيش اليوم الأول) .

وتفرق المصريون وهم يقولون : (لقد رمتكم العرب برجلهم) .

وبلغ ذلك عمر بن الخطاب فقال : والله ان حربه للينة مالها سطوة ولا سورة كسورات الحروب من غيره) .

لقد كان عمرو يجيد حرب الدعاية ويؤمن بمبدأ : الحرب خدعة . وكان يحارب بعقله وسيفه ، ولا يحارب بسيفه إلا إذا أعيته الحرب بعقله ولم يبق أمامه لتحقيق أهدافه إلا السيف وكان يمتلك في الحربين الشجاعة الشخصية التي تقود إلى النصر ولا تقود إلى الهزيمة .

٥ ـ وكان يتحلى بالإرادة القوية الثابتة قبل إسلامه كانت إرادته القوية الثابتة قبل إسلامه تتركز على محاربة الإسلام والمسلمين فحارب هذا الدين والذين اعتنقوه حربا لا هوادة فيها في ميدان القتال فقاتل المسلمين في أحد والأحزاب .

وكانت تلك الإرادة تتركز بعد إسلامه في خدمة الإسلام والمسلمين فحقق ذلك عن طريق سفارته النبوية وولايته على عُمان وتولية جمع الصدقات أحد عمالها للنبي ﷺ فلما التحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى حقق إرادته في خدمة الإسلام والمسلمين عن طريق حرب الردة وفتوح الشام ومصر وليبية والتمهيد المؤثر في فتح افريقية .

ولكن ارادته القوية الثابتة تتمثل في تحقيق طموحه في فتح مصر واقناع عمر بن الخطاب للموافقة على هذا الفتح ، ومسيرته الطويلة الشاقة في فتح مصر

بالسيف تارة ، وبالمفاوضات تارة أخرى وبالقتال مرة وبالسلام مرة أخرى حتى حقق طموحه في فتح مصر [1] .

٦ ـ وكانت له نفسية لا تتبدل في حالتي النصروالاندحار والواقع أنه لم يُصب باندحار حقيقي في معاركه بل أصيب بمواقف حرجة للغاية كموقفه بعد ردة العرب فمر في طريقه من عُمان الى المدينة المنورة بمسيلمة الكذاب في ديار بني حنيفة في طريق عودته الى المدينة فما انهارت معنوياته ولا استكان ولا هان بل استطاع التلخص من مسيلمة الذي كان يقضي بالموت على المسلم الذي لا يرتد عن دينه ويتبع مسيلمة وبخاصة إذا كان من قريش وكان من قادة قريش ومن ولاة النبي ﷺ وقادته وسفرائه ومن المسلمين البارزين ولم تتبدل نفسية عمرو حين تأخر فتح الاسكندرية حتي سمع لوم عمر بن الخطاب وتقريعه على التأخير بل بقي يفكر ويدبر ويستيشر ويخطط حتى تملك فتح الاسكندرية بالصبر والمعاناة والعمل الدؤوب وثبات المعنويات .

ولعل تبدل النفس البشرية تكون في حالة النصر أشد خطرا من حالة الاندحار إذ تصاب النفس بالغرور والكبرياء والاستعلاء والظلم والعدوان وقد انتصر عمرو كثيرا فما عرفنا أن نفسيته تبدلت في حالة النصرفوقع في شباك الأنفس الأمارة بالسوء بل بقيت نفسيته كما كانت تلتزم بالحق وتأمر به وتبتعد عن الظلم وتنهي عنه ولا تتقاذفها الهواجس والانفعالات .

٧ ـ وكان يتمتع بمزية سبق النظر فيحسب لكل شيء حسابه بدقة واتقان ولا يترك أمرا مهما يكن طفيفا تحت رحمة الصدف وحين فزع أهل المدينة المنورة على عهد النبي ﷺ لبس عمرو سلاحه وقصد المسجد على حين تفرق المسلمون فخطب رسول الله ﷺ فقال : « ألا كان مفزعكم إلى الله ورسوله ألا فعلتم كما

---

(١) ولا أدل على تلك الآراء القوية الثابتة من إصراره تسعة أشهر على حصار الإسكندرية دون أن يهن أو يتراجع حتى فتحها .

فعل هذان الرجلان المؤمنان » والرجلان : كانا عمرو بن العاص وسالم مولى أبي حذيفة كما أن بعد نظره جعله تحول بين رجاله ومطاردة قضاعة بعد هزيمتها في سرية ذات السلاسل خوفا من وجود مدد لها فيقع رجاله في كمين يكبدهم خسائر فادحة أو يجعلهم يقاتلون عددا متفوقا عليهم دون مسوغ وكل المعارك التي خاضها في حرب الردة وفي فتوح الشام ومصر وليبيا فيها شواهد كثيرة على تمتعه بمزية بعد النظر كما أن أعماله غير العسكرية في الإدارة والسياسة وحتى في علاقاته الشخصية كان بعيد النظر ويقظا أشد اليقظة حذرا أشد الحذر وكان في قيادته لا ينام ولا ينيم تحسبا لأسوأ الحالات فلا يؤخذ على حين غرة أبدا .

٨ ـ وكان من أولئك القادة الذين يعرفون حق المعرفة نفسيات رجاله وقابلياتهم لأنه يعايشهم في حلهم وترحالهم وأمنهم وخوفهم وسلمهم وحربهم أكثر مما يعايش أهله الأقربين ويعيش بينهم أكثر مما يعيش بين أهله وعشيرته[١] وهذه المعرفة الوثيقة جعلته يكلف كل فرد من أفراد قوته بالواجب الذي يناسب نفسيته ويقارب كفايته ويجعله يقبل على واجبه اقبال محب له لا كاره وقادر عليه لا عاجز عنه مما جعل رجاله ينهضون بواجباتهم بشوق ولهفة وحماسة وينجحون في أدائها نجاحا كبيرا وبالنسبة للقابليات والنفسيات كان يلقي على عواتق قسم منهم واجبات القتال الفردي وعلى قسم منهم واجبات القيادات التي تعمل بسيطرته المباشرة ، وعلى قسم منهم واجبات القيادة التي تعمل بسيطرته غير

---

(١) عن عبد الرحمن بن شماسة قال : أتيت عائشة أسألها عن شيء . فقالت : ممن أنت ؟ فقلت : رجل من أهل مصر . فقالت : كيف كان صاحبكم لكم في غزاتكم هذه ؟ فقال : ما نقمنا منه شيئاً إن كان ليموت للرجل منا البعير فيعطيه البعير ، والعبد فيعطيه العبد ، ويحتاج إلى النفقة فيعطيه النفقة . أخرجه أحمد ٦/ ٩٣ ومسلم ٦ / ٧ والنسائي .

المباشرة كالقيادة المستقلة في فتح أنحاء مصر بعد استسلام حصن بابليون في المعركة الحاسمة كما كان يكلف قسما منهم بواجب السفراء بينه وبين العدو . وواجب المفاوضين وغيرها من الواجبات الأخرى التي جاء ذكرها في معاركه الكبيرة شرقا وغربا .

والسبب الوحيد لنجاح رجاله في أداء الواجبات التي ألقاها عمرو على عواتقهم هو معرفته التامة بنفسيات وقابليات رجاله فكان لا يضع الرجل المناسب إلا في المكان المناسب .

ويبدو أنه كان في تعيينه القادة المرؤوسين بخاصة واختيارالاداريين ورجال الشرطة والقضاء لا يتأثر إلا بالكفايات العالية المتميزة والايمان الصادق العميق واستعراض أسماء قادته المرووسين وأصحاب المناصب الأخرى الذين اختارهم عمرو خير دليل على ذلك .

٩ ـ وكان يثق برجاله ثقة تامة ويثقون به ثقة لا حدود لها والدليل على ثقته برجاله هو أنه كان يقودهم مدة طويلة في فتوح بلاد الشام وعندما سمح له بفتح مصر واختار رجاله من الذين عملوا بقيادته ردحا طويلا وخبر كفاياتهم ومزاياهم ونفسياتهم . ولولا ثقته الكاملة بهم لما أقدم على محاولة فتح مصر بهم وعددهم يومئذ كان ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل لأن تعداد رجاله بالنسبة لواجبهم في الفتح قليل جدا ولكنه أقدم على محاولة فتح مصر وبقيادته هؤلاء الرجال القليلون عددا لأنه كا ن يثق بهم ثقة تامة وقد أثبتت قوات عمرو بأنها حرية بثقته الكاملة فقد أنجزت له واجبات الفتوح بصورة تدعو الى التقدير والإعجاب كما أنها صبرت على حصار بابليون سبعة أشهرحتى استطاعت فتحه . وصبرت على حصار الاسكندرية حتى استطاعت فتحها ، ومن المعلوم أن الجيش الذي يصبر على الحصار طويلا يعد من الجيوش ذات التدريب العالي والضبط المتين والمعنويات

الرفيعة ومثل هذا الجيش يستحق كل الثقة من قائده في كل زمان ومكان وفي مختلف الظروف والأحوال .

أما ثقة رجال عمرو بعمرو فلأنه قائد منتصر يقود رجاله من نصر إلى نصر ولأنه يضرب أروع الأمثلة لرجاله في التضحية والفداء فكان يقود رجاله من الأمام يقول لهم : اتبعوني ، ولا يقودهم من الخلف فيأمرهم بالتقدم ويقبع في موقع أمين بعيد عن الأخطار .

وكان يستأثر بالخطر ، ويؤثر رجاله بالأمن فيدخل حصون أعدائه ويحاور قادة العدو ويعرض نفسه لأفدح الأخطار ولا يستأثر بالخير دونهم ولا يترفع عنهم ويعاملهم معاملة الآباء للأبناء .

١٠ ـ وكانت أخلاقه رضية جدا هو القائل : ما أفحشت قط إلا ثلاث مرات مرتين في الجاهلية وهذه الثالثة وما منهن مرة إلا وقد ندمت واستحييت وما استحييت من واحدة منهم أشد مما استحييت مما قلت لك ، والله إني لأرجو ألا أعود إلى الرابعة ما حييت وقد كان قال لرجل من رجاله في ساحة القتال كلمة نابية ، فقال : استغفر لي ما كنت قلت لك فاستغفر له .

وقد وصفه رجل من ثقات المسلمين فقال : صحبت عمر بن العاص فما رأيت رجلا أبين قرآنا ولا أكرم خلقا ولا أشبه سريرة بعلانية منه .

١١ ـ وكما كان موضع ثقة رجاله كان موضع ثقة رؤسائه فقد كان أحد سفراء النبي ﷺ وأحد قادته وأحد ولاته وأحد عماله على الصدقات ، ولا أعرف صحابيا غير عمرو بن العاص تولى للنبي ﷺ كل هذه المناصب السياسية والعسكرية والإدارية والمالية في حياته المباركة مما يدل على ثقة النبي ﷺ بعمرو سياسيا وعسكريا اداريا وماليا كما كلفه بالقضاء في قضية من القضايا وكان من أصحاب الفتيا من الصحابة والمجتهدين في الدين في حياة النبي ﷺ مما يدل على ثقته بعلم عمرو وكفايته القضائية .

وكان موقع ثقة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فقد كان أحد قادته (١) وكان موضع ثقة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ كان أحد قادته وولاته وكان موضع ثقة عثمان بن عفان رضي الله عنه لأنه كان أحد قادته وولاته وقد عزله عن مصر لأنه يستطيع أن يسيطر على خلفه ولا يستطيع السيطرة عليه وكان بعد عزله عن مصر موضع استشارته فيما يعرض له من معضلات جسام مما يدل على أنه كان موضع ثقته حتى بعد عزله عن مصر وتوتر العلاقات الشخصية بين الرجلين..

ومن الطبيعي أن يثق بالقائد المنتصر الذي يقود رجاله إلى الأمام و ويضرب لهم أروع الأمثال في الشجاعة والإقدام والتضحية والفداء ، والذي يتحلى بالخلق الكريم والكفاءة العالية رجاله الذين يعملون بقيادته ورؤساؤه الذي يعمل بإمرتهم، ويكون موضع ثقة أمته عامة . وأن يبادلهم ثقة بثقة والثقة المتبادلة هي التي تشيع الانسجام والضبط والتعاون بين الرئيس والمرؤوس والقائد والمقود من أجل تحقيق النصر المؤزر .

١٢ - وكان يحب رجاله ، وكان رجاله يحبونه ، وكانت المحبة المتبادلة شائعة بين القيادة والجنود وقد قال له حرسه حين حضرته الوفاة : كنت لنا صاحب صدق ، تكرمنا وتعطينا ، وتفعل وتفعل) مما كان ينعم به عليهم ويهبه لهم ويكرمهم به .

ولكن عمرو كان يعرف واجباته فيؤديها كاملة ، ويحاسب نفسه على أدائها قبل أن يحاسبه غيره . ويعرف حقوقه فيطالب بها ويحاسب غيره عليها ولا يتغاضى عنها ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

---

(١) وهو الذي اختاره ورشحه ليكون أحد قادة الفتح الأربعة في الشام .

كما كـان يعرف حقوق رجاله فـيؤديها لهم أداء كاملا ، ويعـرف واجباتهم فلا يسكت عل إهمالهـا ، أو أدائها غير كاملة أو بشكل غـير متقن والمحبـة المتبادلة شيء ، والحقـوق والواجبـات شيء آخر وما كـانت المحبة المتـبادلة تؤثر في مـجرى حقوق عمرو وواجباته ، وحقوق رجاله وواجباتهم .

وكان الذي لا يعـرفون عمرو بن العاص لا يستيطيعون أن يميـزوه عن رجاله في شيء إذ كان أحـدهم (ما يعرف رفـيعهم من وضـيعهم ، ولا السـيد منهم من العبد) كـما وصف رسل المقوقس عمـرو بن العاص ورجاله . لقد كـان عمرو من أولئك القادة الذين يبادلون رجالهم حـبا بحب ولكن ليس على حساب الواجب ، ولا تناقض بين المحبة المبتادلة والحرص على الواجب لدى القائد حقا ورجاله ، فهما متلازمان وعليهما تبنى الثقة المتبادلة التي لا تكون إلا بالمحبة المتبادلة والعمل الدائب المتواصل من زجل إحراز النصر .

١٣ ـ إن عمْرًا كان يطبق مبادئ الحرب بكفاية دون أن يتعلمها في المدارس العسكرية والمعاهد والكليات بل تعلمها من تجاربه فـي الحياة ولكن عمرا لم يقتصر على مزايا القـيادة وصفـاتها وعلى تطبـيق مبادئ الحـرب بكفاية بل كـان ينسجم بمزايا قيادية اضافـية من النادر أن يتسم بها القادة الاخـرون الا في عدد محدود من القـادة ... وأول هذه المزايا هي المسـاواة فـقـد كان عـمـرو يسـاوي نفـسه بغـيـره ويساوي غيره نفسـه لا فرق بين المسلمين وكان مـبدأ المساواة مطبـقاً في مجتمع عـمرو أيام السـلام أمـا أيام الحرب فكـان عـمـرو يستـأثـر بالأخطار ويؤثـر رجـاله بالأمن .

والمزية الثانية هي مزية الاستشارة ، فقد كان عمرو يستشير أصحابه في كل المواقف الصعبة كما كان يستـشيره رؤساؤه المباشرون وغيرهم من الناس ولم يكن

يتحيز لـرأيه ولا يتعصب لفكره بل كان يحاول الأخذ بكل رأي راجح مـهما يكن مصدره ومكانة صاحبه الاجتماعية .

لقد كان يتقن فن الاستشارة وهو فن لا يتقنه الا ذوو العقول والأحلام (١) .

والمزية الثالثة الأخيـرة من مزايا عمرو القيادية الأسلوب القتـالي المتميز الذي استخـدمه عمرو في حـروبه فهو لا يشابه أسلوب من قـبله من القادة ولا أسلوب من عاصره من القادة ، ولا أسلوب من جاء بعده من القادة . هذا الأسلوب القتالي المتميز الفريد (٢) الذي اختص به عمرو دون سواه أو ركز عليه في عملياته الحربية كافة أكثر من غيره من القادة حتى يمكن أن نطلق عليه الأسلوب العمري في القتال يتلخص في استـعمال العـقل أولا واستعمـال السلاح ثانيا ، بمعنى أن سـلاح العقل يجب أن يعـمل عـــمله في العـدو أولا فـإذا انتـصـر هذا الـسـلاح بدون الأسلحـة الأخـرى ، فذلك هو المطلوب وإلا أكـملت الأسلحـة الحربيـة عـمل سلاح العـقل لاحراز النصر بالسلاحين معا سلاح العقل أولا والسلاح التقليدي ثانيا .

---

(١) ومن أقواله العظيـمة المشهورة في هذا المجـال قوله : الرجال ثلاثة فرجل وتام ونصف رجـل ولا شيء فأما الرجل التام فـالذي يكمل الله له دينه وعقله ، فـإذا أراد أمرا لم يمضه حتى يستـشيـر أهل الرأي والألباب فإن وافقوه حمـد الله وأمضى رأيه فلا يزال كذلك مصيباموفقا والنصف رجل الذي يكمل الله له دينه وعقله فإذا أراد أمرا لم يستشر أحدا قال أي الناس أطيعه أترك رأيي له فيصيب ويخطيء والذي لا شيء لادين له ولا عقل له ولا يستشير فلا يزال كذلك مخطئا مدبرا انظر تاريخ ابن عساكر ٥٢٧/١٣.

(٢) حقيقة الأمر في هذا الأسلوب ه المدرسة النبوية الخالدة فرسول الله ﷺ هو الذي تفرد به من دون الخلق لأنه الرحمة المهداة فكان يقدم دائما عليه الصلاة والسلام رغبته في هدى عدوه والسيطرة عليه دون اراقة قطرة دم وفتح مكة أبرز نموذج على ذلك وعمرو بن العاص قد تتلمذ على هذه المدرسة في جاهليته وهو يحارب مـحمدا عليـه الصـلاة والسـلام وفي إسلامه وهو لا يجـرؤ أن يرفع بصره حيـاء إلى رسول الله ﷺ .

وكان عمرو يصول بسلاح العقل في كل معركة خاضها بما يناسبها من تعبية تفيد رجاله وتوحدهم وتضاعف من قوتهم وترفع من معنوياتهم وتضر عدوه وتفرقهم وتقلل من قوتهم وتزعزع معنوياتهم فيكون لرجاله بفضل سلاح العقل الغنم دائما، ويقع على عدوه بتأثير هذا السلاح فيه الغرم أبدا .

وكان عمرو أدهى من أن يستعمل سلاح العقل في فراغ بل كان دائما يستعمله في ايجاد حقيقة راهنة ، واستغلالها وتعميق أثرها وتأثيرها ، ثم توجيهها الوجهة التي يريد لمصلحة المسلمين ومصلحة الفتوح ومصلحة فئته أيضا . كما عمل في استعمال سلاح العقل لمصلحة فئته [1] في الفتنة الكبرى .

ذلك هو عمرو وتلك هي سمات قيادته فلا عجب أن يترك بصماته على بلاد شاسعة من ديارالعرب تمتد من الخليج العربي الى البحر الأبيض المتوسط في حياته وتبقي بصماته من بعده حتى اليوم وستبقى حتى يرث الله الأرض ومن عليها لأن فتحه كا فتحا مستداما لأنه كان فتح مبادئ لا فتح سيوف ، والمبادىء الى بقاء والاستعباد الى فناء . لقد كانت خسائر عمرو في حروبه في الفتوح من المسلمين قليلة ، وكانت أرباحه للإسلام بالفتوح كثيرة ، فأدى الذي عليه قائدا من أبرز قادة الفتح الإسلامي وأبرز قادة المسلمين على الاطلاق منذ أن جاء الإسلام حتى اليوم وإذا كان هناك مجال للاختلاف في تقويمه إنسانا[2] فلا مجال للاختلاف في تقويمه قائدا فقد عجزت النساء أن يلدن مثل عمرو وهو من القادة الذين لا يتكررون إلا نادرًا إنه ليس من أعظم قادة العرب والمسلمين فحسب بل هوى من أعظم قادة الأمم الأخرى بشهادة مفكري الأمم الأخرى المنصفين) [3] .

---

(١) ونرى أنه استعملها لمصلحة الإسلام والمسلمين كما سنتعرض لذلك فيما بعد .

(٢) ذلك لأن أستاذنا محمود شيث خطاب لم يحقق في قضية الفتنة غفر الله وأثابه فتأثر ببعض الروايات الضعيفة والموضوعة . .ونسأل الله تعالى له واسع الرحمة فقد توفي بعد عمر مديد مليء بجلائل الأعمال جعل الله الجنة مثواه .

(٣) مقتطفات من سفراء النبي ﷺ ٥٢٥ ـ ٥٨٥ .

الإسكندرية :

هؤلاء ا لبداة رعـاة الإبل تفتح بين أيديهم خـيرات الأرض وكنوزُها وها هي الاسكندرية من أعظم معالم الحضارة آنذاك . لم ير الراؤون مثلـها يصفها عمرو بن العاص القائد الفاتح لأمير المؤمنين .

(ثم كتب عمرو بن العاص بعد ذلك كما حدثنا ، إبراهيم بن سعيد البلوي إلى عمر بن الخطاب .

أما بعد فإني فتحت مدينة لا أصف ما فيـها غير أني أصبت فيها أربعة آلاف منية [1] بأربعـة آلاف حمـام وأربعين ألف يهودي علـهيم الجـزية وأربعمـائة ملهي للملوك) .

(قال : حدثنا عبد الملك بن مسلمة حدثـنا ضمام بن اسماعيل عن أبي قبيل أن عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية وجد فهيا اثني عشر ألف بقال يبيعون البقل الأخضر .

حدثنا هانيء بن المتـوكل حدثنا محمـد بن سعيد الهاشـمي قال : ترحل من الإسكندرية في الليلة التي أدخلهـا عمرو بن العاص ، أو في الـليلة التي خافوا فيـها دخول عمرو سبعون ألف يهودي .

حدثنا هانئ بن المتـوكل عن موسى بن أيوب ورشد ين بن سعـد عن الحسن بن ثوبان عن الحسين بن شـفي ابن عبيد قـال : كان بالاسكندرية فيمـا أحصي من الحمـامات اثنا عشر ديماسـا أصغر ديماس فيـها يسع ألف مجلس كل مـجلس منها

(١) المنية : القرية الصغيرة .

يسع جماعة نفر ، وكان عدة من بالاسكندرية من الروم مائتي ألف من الرجال فلحق بأرض الروم أهل القوة وركبوا السفن وكان بها مائة مركب من المراكب الكبار فحمل فيها ثلاثون ألفا مع ما قدروا عليه من المال والمتاع والأهل وبقي من بقي من الأسارى فمن بلغ الخراج فأحصي يومئذ ستمائة ألف سوى النساء والصبيان فاختلف الناس على عمرو في قسمهم وكان أكثر الناس يريدون قسمها فقال عمرو : لا أقدر على قسمها حتى أكتب الى أمير المؤمنين فكتب اليه يعلمه بفتحها وشأنها ويعلمه أن المسلمين طلبوا قسمها فكتب إليه عمرو : لا تقسمها وذرهم يكون خراجهم فيئا للمسلمين وقوة لهم على جهاد عدوهم فأقرها عمرو وأحصى أهلها ، وفرض عليهم الخراج فكانت مصر صلحا كلها بفريضة دينارين دينارين على كل رجل لا يزاد على أحد منهم في جزية رأسه أكثر من دينارين ، إلا أنه يُلزم بقدر ما يتوسع فيه من الأرض والزرع إلا الإسكندرية فانهم كانوا يؤدون الخراج والجزية على قدر ما يرى من وليهم لأن الإسكندرية فتحت عنوة بغير عهد ولا عقدو لم يكن لهم صلح ولا ذمة) (١) .

أما ما ذكر عن المستوى الحضاري العالي الذي وصلت له الإسكندرية فقد حافظ المسلمون عليه أعظم محافظة من خلال التعامل مع أهلها وأرضها إذ كان من الممكن أن يتحول أهلها جميعا الى عبيد حسب شرعة ذلك العصر الجاهلي وأن تتحول أراضيها إلى أملاك للحكام الفاتحين ويسود الإقطاع خلال سنوات قصيرة وتتحول الأرض ومن فيها الى عبيد يقسمون على الفاتحين .

إن بين يدي عمرو بن العاص رضي الله عنه ستمائة ألف أسير عد النساء والصبيان والجيش الفاتح الذي يبلغ تعداده اثنى عشر ألف جندي على أبعد تقدير

---

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم / ٨٢ .

يمكن أن تُوزع هذه الأسرى عليهم ، وهذه الأراضي لتصبح ملكا لهم كما يفعل الفاتحون في التاريخ لكن حس عمرو رضي الله عنه لم يستجب لفكرة القسمة رغم إلحاح الجيش عليها ولذلك بعث يستشير أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه في الأمر وكان عمر رضي الله عنه قد تعرض للأزمة من الفاتحين يطالبونه بتوزيع الأرض والناس ورفض بحسه ابتداء ذلك ، ثم انطلق بعد من الآية القرآنية ﴿ **والذين جاؤوا من بعدهم ..** ﴾ إلى آخر الآية . وقال كلمته المشهورة :

والله ليصلن الراعي في صنعاء حقه من هذا المال [1] .

وبذلك بقيت الأرض بيد أهلها يعملون ويؤدون خراجها ولا حق للمسلمين إلا في ذلك .

(فأقرها عمرو وأحصى أهلها وفرض عليهم الخراج فكانت مصر صلحا كلها بفريضة دينارين دينارين لكن الاسكندرية وحيث فتحت عنوة (فإنهم كانوا

---

(١) أورد أبو عبيد في كتابه الأموال بسنده قال : حدثنا اسماعيل بن إبراهيم عن أيوب عن عكرمة بن خالد عن مالك بن أوس ابن الحدثان عن عمر بن الخطاب نحو الحديث الذي ذكرنا في دخول العباس وعلي عليهما السلام وزاد في آخر حديثه وبعضه عن أيوب عن الزهري عن مالك بن أوس عن عمر نحو الحديث الذي ذكرناه قال :

(ثم قرأ : « واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول ولذي القربى اليتامى والمساكين وابن السبيل » هذه لهؤلاء « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل » هذه لهؤلاء « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله للرسول والذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » أو قال : « للفقراء والمهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم » « والذين تبؤوا الدار والإيمان من قبلهم » « والذين جاؤوا من بعدهم .. » فاستوعبت هذه الآية الناس فلم يبق أحد من المسلمين إلا له فيها حق - أوقال خط - حتى يأتي الراعي بسرو حمير ولم يعرق فيه جبينه) قال : أبو عبيد : السرو الخيف النغف : كل موضع فيه انحدار وارتفاع . انظر الأموال/٢٣ ط ثانية ١٩٧٥م ت خليل الهراس . دار الفكر .

يؤدون الخراج والجزية على قدر ما يرى من وليهم لأن الإسكندرية فتحت عنوة بغير عقد ولا عهد ولم يكن لهم صلح ولا ذمة) .

ولم يشأ عمر رضي الله عنه وواليه عمرو أن يزاحموا أهل الاسكندرية في سكناهم و ويغتصبوا ديارهم وأراضيهم أما رواية ابن عبد الحكم فتقول :

قال : حدثنا عثمان بن صالح حدثنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب أن عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية ورأى بيوتها وبناءها مفروغا منها همَّ أن يسكنها وقال : مساكن قد كفيناها . فكتب إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في ذلك فسأل عمرو الرسول : هل يحول بيني وبين المسلمين ماء ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل . فكتب عمر الى عمرو إني لا أبيح أن تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولاصيف فتحول عمرو بن العاص من الإسكندرية الى الفسطاط)[1] .

عمرو يصف مصر للخليفة :

ونأخذ هذا المقطع كله من كتاب عمرو بين يدي التاريخ إذ يقول : لما تم لعمرو بن العاص فتح مصر أرسل إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه كتابا يصفها له ويشرح فيه السياسة التي سوف يسير عليها في حكمها وقد رواه كثير من المؤرخين المتأخرين وشككوا في أن ألفاظه الحديثة المنمقة صدرت عن عمرو في صدرالإسلام فإن لم يكن هذا الوصف من كلام عمروحقا فهو من صميم رأيه وثاقب فكره والذي لا خلاف فيه أن الفاروق عمر تلقى من عامله عمرو وصفا لمصر يشبه هذا الوصف المعجز ولا يحيد عنه ويقول فيه :

---

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم / ٩١ .

مصر تربة غبراء (١) وشجرة خضراء طولها شهر وعرضها عشر يكتنفها جبل أغبر (٢) ورمل أعفر (٣) في وسطها نهر ميمون الفروات مبارك الروحات يجري بالزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر وله أوان تظهر به عيون الأرض وينابيعها حتى إذا عج عجاجه(٤) وتعظمت أمواجه لم يكن وصول بعض أهل القرى إلى بعض إلا في خفاف القوارب وصغار المراكب فإذا تكامل في زيادة نكص (٥) على عقبه كأول ما بدأ في شدته وطما في حدته(٦) فعند ذلك يخرج القوم ليحرثوا بطون أوديته وروابيه يبذرون الحب ويرجون الثمار من الرب حتى إذا أشرق وأشرف سقاه من فوقه الندى وغذاه من تحته الثرى فعند ذلك يدر حلابه(٧) ويغني ذبابه (٨) فبينما هي يا أمير المؤمنين درة بيضاء إذا هي غبرة سوداء إذا هي زبر جدة خضراء فتعالى الله لما يشاء الذي يصلح هذه البلاد وينميها ويقر قاطنها فيها ألا يقبل قول خسيسها (٩) في رئيسها وألا يستأذى خراج ثمرة إلا في أوانها وأن يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وتراعها فاذا تقرر الحال مع العمال في هذه الأحوال تضاعف ارتفاع المال والله تعالى يوفق في المبتدأ والمآل ويقول أبو المحاسن(١٠) .

---

(١) غبراء : سهلة الانبات .

(٢) جبل أغبر : ضارب للسواد .

(٣) أعفر مائل للصفرة .

(٤) عج عجاجه . عظم ماؤه .

(٥) نكص : رجع .

(٦) طما في شدته : نقص بشدة كمازاد بقوة .

(٧) يدرحلا به يعطي خيره كما تعطي البقرة حليبها .

(٨) يغني ذيابه : يعظم محصوله .

(٩) الخسيس : الضعيف .

(١٠) أبوالمحاسن مؤلف النجوم الزاهرة فيمن ملك مصر والقاهرة والنص في ٣٣/١ .

فلما ورد هذا لكتاب على عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال :

لله درك يا بن العاص لقد وصفت لي خبرا كأني أشاهده .

وقد ترجم كتاب عمرو المستشرق الفرنس أو كتاف أوزان) في جريدة الفيجارو ووصفه بأنه من أكبر آيات البلاغة في كل لغات العالم وقال عنه : إنه من الفرائد في إيجازه وإعجازه . واقترح وجوب تدريسه في جميع مدارس المعمورة حتى يتعلموا منه مع قوة الوصف ومتانة التعبير صحة الحكم على الأشياء وكيفية تنظيم الممالك وسياسة الاستعمار)[1] .

بناء الفسطاط :

وكان أول انجاز حضاري له بعد الفتح ومتابعة عمارة الأرض والاستفادة من الطاقات والكفاءات المحلية في عمارتها هو بناء مدينة الفسطاط ليشعر المجاهدون أن هذه البلد بلدهم وعلهيم أن يتحملوا مسؤولية الإسلام فيها ونقل أهلها من الظلمات إلى النور وكان مركز المدينة هو فسطاط عمرو رضي الله عنه حيث حقق المواصفات المطلوبة للعاصمة الإسلامية كما طلبها أمير المؤمنين وكما اختارها عمرو لذلك حيث كان المسجد هو أساس البناء فيها وانما سميت الفسطاط ما حدثني أبي عبد الله بن عبد الحكم وسعيد بن غفير أن عمرو بن العاص لما أراء التوجه إلى الاسكندرية لقتال من بها من الروم أمر بنزع فسطاطه فإذا فيه يمارقد فرخ فقال عمرو : لقد تحرم منا بمحترم فأمر به فأقر كما هو وأوصى به صاحب القصر فلما قفل المسلمون من الاسكندرية فقالوا : أين ننزل ؟ قالوا : الفسطاط لفسطاط عمرو الذي كان خلفه وكان مضروبا في موضع الدارالتي تعرف اليوم بدارالحصى عند دارعمرو الصغيرة اليوم وبنى عمرو بن العاص المسجد كما حدثنا عبد الملك بن مسلمة عن الليث بن سعد وكا ما حوله حدائق وأعنابا

---

(١) عمرو بن العاص لعبد الخالق سيد أبي رأبيه .

فنصبوا الحبال حتى استقام لهم ووضعوا أيديهم فلم يزل عمرو قائما حتى وضعوا القبلة وإن عمرا وأصحاب رسول الله ﷺ الذين وضعوها) [1] .

ثلاث مخالفات :

وجرت أثناء عمليات البناء ثلاث مخالفات رفضها عمر أمير المؤمنين .

الأولى : المنبر (واتخذ فيه منبرا كما حدثنا عبد الملك بن مسلمة عن ابن لهيعة عن أبي تميم الجيشاني قال : فكتب إليه عمر بن الخطاب . أما بعد فإنه بلغني أنك اتخذت منبرا ترقى به على رقاب المسلمين .

أو ما بحسبك أن تقوم قائما والمسلمون تحت عقبيك فعزمت عليك لماكسرته .

وكسر عمر رضي الله عنه بذلك فكرة التمييز بين المسلمين حتى ولو كان منبر الخطابة للأمير .

الثانية : دار عمر : وأراد المسلمون تكريم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بأن يهبوه داراً بين دور المسلمين لو جاء إلى مصر نزل بها ، وبقيت ذكرى ودليلاً على مشاركته في الفتوح فماذا كان رأي أمير المؤمنين : (فعن أبي صالح الغفاري قال : كتب عمرو بن العاص الى عمر أميرالمؤمنين أنا قد اختططنا لك دارا عند المسجد الجامع فكتب اليه عمر : أنى لرجل بالحجاز تكون له دار بمصر وأمره أن يجعلها سوقا للمسلمين)[2].

الثالثة : غرفة خارجة : وكان خارجة بن حذافة أحد الأربعة الكبار الذين أعدهم أمير المؤمنين كل واحد بألف . أراد أن يغاير البناء الاسلامي القائم بغرفة

(١) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم / ٩١ - ٩٢ .

(٢) فتوح مصر وأخبارها / ٩٢ .

يرتفع فيها على البناء العادي ولم يسمح له بهذا التجاوز فقد كان أمير المؤمنين يتدخل بكل صغيرة وكبيرة حتى بناء غرفة في مدينة ويطلعه الوالي على كل شيء أو تصل له الأخبار من أبناء الأمة ، وألغيت هذه المخالفة مثل إلغاء دارعمر بن الخطاب ومثل كسر المنبر (فعن يزيد بن أبي حبيب أن خارجة بن حذافة أول من بنى غرفة بمصر فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فكتب إلى عمرو بن العاص : سلام عليك أما بعد فقد بلغني أن خارجة بن حذافة بنى غرفة ولقد أراد خارجة أن يطلع على عورات جيرانه . فإذا أتاك كتابي هذا فاهدمها إن شاء الله والسلام)[١] .

المهاجرون والأنصار :

وهم الأساس في بناء هذه المدينة (واختط حول عمرو والمسجد قريش والأنصاروأسلم وغفار وجهينة ومن كان في الراية ممن لم يكن لعشيرته في الفتح عدد مع عمرو) [٢] .

وبعد المهاجرين والأنصار وأهل الراية جاءت القبائل العربية على منازلها لها أما أهل الراية (فيقال إنما سميت الراية أن قوما من أفناء القبائل من العرب كانوا قد شهدوا مع عمرو بن العاص الفتح ولم يكن من قومهم عدد فيقفوا مع قومهم تحت رايتهم وكرهوا أن يقفوا تحت راية غيرهم فقال لهم عمرو : أنا أجعل راية لا أنسبها إلى أحد أكثر من الراية التي يقفون تحتها فرضوا بذلك) [٣] .

ثم الذين يلونهم :

وكانت أولى القبائل بلي وهي التي كانت العضد الرئيسي لعمرو في حربه وهم أخواله فأم العاص ابن وائل من بلي وكان يقول ثلاث قبائل من مصر أما مهرة فقوم يقتلون ولا يقتلون وأما غافق فقوم يقتلون ولا يقتلون وأما بلي فأكثرها رجلا صحب رسول الله ﷺ وأفضلها فارسا)[٤].

---

(١) فتوح مصر وأخبارها / ١٠٤ .   (٢) ، (٣) المصدر نفسه / ١١٦ - ١١٧ .

(٤) المصدر نفسه / ٧٦ - ٧٧ .

(وكان عمرو إنما يقف تحت راية بلي فيما يزعمون) [1] .

ثم الحجر من الزأد ثم عدوان ومهرة ولخم وغافق والصدف وحضرموت وبطن من يحصب ثم اختطت تجيب وخولان ومذحج ومراد وحمير ويافع ورعين. وأما قريش والأنصار وبقية المهاجرين فهم المدد الذي جاءه من المدينة والملاحظ أن أغلبية الجيش الإسلامي من قبائل اليمن وهم الذين كانوا رصيد عمرو بن العاص رضي الله عنه ابتداء ومنذ أن تحرك من المدينة .

بناء الجيزة :

واختارت بعض القبائل العربية مكانا آخر تختط فيه مدينة أخرى غير الفسطاط (حدثنا عثمان بن صالح حدثنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب وابن هبيرة يزيد أحدهما علي صاحبه قال : فاستحيت همدان ومن والاها الجيزة فكتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب يعلمه بما صنع الله للمسلمين ، وما فتح عليهم وما فعلوا في خططهم ، وما استحبت همدان ومن والاها من النزول بالجيزة فكتب اليه عمر يحمد الله على ما كان من ذلك ويقول له : كيف رضيت أن تفرّق عنك أصحابك ، لم يكن ينبغي لك أن ترضى لأحد من أصحابك أن يكون بينك وبينهم بحر لا تدري ما يفجأهم فلعلك لا تقدر على غياثهم حتى ينزل بهم ما تكره ، فأجمعهم إليك ، فإن أبو عليك وأعجبهم موضعهم فابن علهيم من فيء المسلمين حصنا فعرض ذلك عمرو عليهم ، فأبوا ، وأعجبهم موضعهم بالجيزة ومن والاهم على ذلك من رهطهم يافع وغيرها ، وأحبوا ما هنالك فبنى لهم عمرو بن العاص الحصن الذي بالجيزة سنة إحدى وعشرين وفرغ من بنائه سنة اثنتين وعشرين. وقال غير ابن لهيعة من مشائخ أهل مصر ان عمرو

---

(١) المصدر نفسه / ٦٢ .

بن العاص لما سأل أهل الجيزة أن ينضموا الى الفسطاط قالوا : متقدماً قدمناه في سبيل الله ما كنا لنرحل منه إلى غيره فنزلت يافع الجيزة فيها فبرح به شهاب وهمدان وذو أصبح فيهم أبو شمر بن أبرهة وطائفة من الحجر منهم علقمة بن جنادة أحد بني مُلك بن الحجر) [1].

إلى رباط الدعوة :

وفي محاولة للحفاظ على الوجود الإسلامي المستقل من جهة والذي مثله بناء هاتين المدينتين وعدم إيذاء السكان الأصليين في أراضيهم وأموالهم من جهة ثانية بحيث تركت لهم حرية الحياة والعقيدة من دون تدخل في شؤونهم الداخلية والمحافظة على نشر الدعوة للإسلام لدى أهل مصر من جهة ثالثة بقيت القيادات الكبرى في الاسكندرية تحمل عبء الدعوة الى الله في صفوف هؤلاء الناس مع نصف الجيش المرابط على الساحل . قال : (وأما الإسكندرية فلم يكن بهاخطط غير أن أبا الأسود النضر بن عبد الجبار حدثنا عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبب أن الزبير بن العوام اختط بالاسكندرية وإنما كانت أخائذ من أخذ منزلاً نزل فيه هو وبنو أبيه . وأن عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية أقبل هو وعبادة بن الصامت حتى علوا الكوم الذي فيه مسجد عمرو بن العاص فقال معاوية بن خديج : ننزل فنزل عمرو بن العاص القصر الذي صار لعبد الله بن سعد بن أبي سرح ويقال أن عمراًوهبه له لماولي البلد . ونزل أبوذر الغفاري منزلاً كان غربي المصلى الذي عنده مسجد عمرو ونزل معاوية بن حُديج موضع داره التي فوق هذا التل ، وضرب عبادة بن الصامت بناء فلم يزل فيه حتى خرج من الاسكندرية ، ويقال أن أبا الدرداء كان معه والله أعلم) [2] .

---

(١) فتوح مصر وأخبارها / ١٢٨ - ١٢٩ .

(٢) فتوح مصر وأخبارها / ١٣٠ .

هذا عن القيادات الكبرى فماذا عن المرابطين والمجاهدين .

(حدثنا عثمان بن صالح ، حدثنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب وابن هبيرة في حديثهما قال : فلما استقامت لهم البلاد و قطع عمرو بن العاص من أصحابه لرباط الاسكندرية ربع الناس . وربع في السواحل . والنصف مقيمون معه ، وكان يصَّيِّر بالاسكندرية خاصة الربع في الصيف بقدر ستة أشهر ويعقب بعدهم شاتية ستة أشهر وكان لكل عريف قصر ينزل فيه بمن معه من أصحابه واتخذوا فيه أخائذ)[1] .

ولا شك أن الروم الذين ارتحلوا وفروا وقدروا بأكثر من ثلاثين ألفا قد تركوا ديارهم بعد مغادرتهم الإسكندرية والتي كانت فيئا للمسلمين .

(حدثنا عبد الملك بن مسلمة حدثنا ابن لهيعة حدثنا يزيد بن أبي حبيب أن المسلمين لما سكنوها في رباطهم ثم قفلوا ثم غزوا ابتدروا فكان الرجل يأتي المنزل الذي كان فيه صاحبه قبل ذلك فيبتدره فيسكنه فلما غزوا قال عمرو : إني أخاف أن تخربوا المنازل أن كنتم تتعاورونها فلما كان عند الكربون قال لهم : سيروا على بركة الله فمن ركز منكم رمحه في دار فهي له ولبني أبيه فكان الرجل يدخل الدار فيركز رمحه في منزل منها ثم يأتي الآخر فيركز رمحه في بعض بيوت الدار فكانت الدار تكون لقبيلتين أو ثلاث وكانوا يسكنونهاحتي إذا قفلوا سكنها الروم وعلهيم مرمتها فكات يزيد بن أبي حبيب يقول : لا يحل من كرائها شيء ولا بيعها ولا يورث منها شيء انما كانت لهم يسكنونها في رباطهم)[2] فهي أقرب الى الملك العام منه الى الخاص وهي مساكن عسكرية خاصة لرباط المجاهدين .

(١) المصدرنفسه / ١٣٠ .

(٢) المصدر نفسه / ١٣٠ - ١٣١ .

عمرو ويخطط لجنده حياتهم :

إنه الحاكم الذي يعيش همَّ جنده في ليله ونهاره ويعيش همَّ شعبه كله ؛ المسلمين منهم والأقباط ويتعهد هذا البناء لبنة لبنة ويتعهد هذا الغراس غرسة غرسة وقد اتيح لنا أن نستمع الى خطبة عظيمة من خطب عمرو الأمير رضي الله عنه ينقلها لنا يجير بن ذاخر المعافري .

(خطبة عمرو بن العاص ، حدثنا سعيد بن ميسرة عن إسحاق بن الفرات عن ابن لهيعة عن الأسود بن معد الحميري عن بحير بن ذاخر المعافري قال :

رحت أنا ووالدي إلي صلاة الجمعة تهجيرا وذلك آخر الشتاء أظنه بعد حميم النصارى بأيام يسيرة فأطلنا الركوع إذ أقبل رجال بأيديهم السياط يزجرون الناس فذعرت فقلت : يا أبت ما هؤلاء ؟ قال : يا بني هؤلاء الشرط فأقام المؤذنون الصلاة ، فقام عمرو بن العاص على المنبر . فرأيت رجلا ربعة قصد القامة وافر الهامة أدعج أبلج عليه ثياب موشيه كأن به العقيان تأتلق عليه حلة وعمامة وجبه فحمد الله وأثنى عليه حمداً موجزا وصلى على النبي ﷺ ووعظ الناس وأمرهم ونهاهم فسمعته يحض على الزكاة وصلة الأرحام ويأمر بالاقتصاد وينهى عن الفضول وكثرة العيال وقال في ذلك :

يا معشر الناس : إياي وخلالا أربعا فانها تدعو إلى النصب بعد الراحة وإلى الضيق بعد السعة وإلى المذلة بعد العزة . إياي وكثرة العيال واخفاض الحال وتضيييع المال والقيل بعد القال في غير درك ولا نوال .

ثم إنه لا بد من فراغ يؤول اليه المرء في توزيع جسمه والتدبير لشأنه وتحليته بين نفسه وبين شهواتها ، ومن صار الى ذلك فليأخذ بالقصد والنصب الأقل ولا يضيع المرء في فراغه نصيب العلم من نفسه فيحور من الخيرعاطلا وعن حلال الله وحرامه غافلا .

يا معشر الناس : إنه قد تدلت الجوزاء وذكت الشعرى، وأقلعت السماء وارتفع الوباء وقل الندى وطاب المرعى ووضعت الحوامل ودرجت السخائل ، وعلى الراعي بحسن برعتيه حسن النظر فحيٌّ لكم على بركة الله الى ريفكم فنالوا من خيره ولبنه وخرافه وصيده وأربعوا خيلكم وصونوها وأكرموها فانها جنتكم من عدوكم وبها مغانمكم وأثقالكم واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيرا وإياي والمشمومات والمعسولات فانهن يفسدن الدين ويقصرن الهمم .

« إن الله سيفتح عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فإن لكم منهم صهرا وذمة فعفوا أيديكم وفروجكم وغضوا أبصاركم » .

ولا أعلمن ما أتى رجل قد أسمن جسمه وأهزل فرسه واعلموا أني معترض الخيل كاعتراض الرجال فمن أهزل فرسه من غير علة حططته من فريضته قدر ذلك واعلموا أنكم في رباط الي يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم وتشوف قلوبهم اليكم وإلى داركم معدن الزرع والمال والخيرالواسع والبركة النامية

وحدثني عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله ﷺ يقول :

إذا فتح الله عليكم مصر ، فاتخذوا فيها جندا كثيفا فذلك الجند خير أجناد الأرض فقال له أبو بكر ولم يا رسول الله قال : لأنهم وأزواجهم في رباط الى يوم القيامة فاحمدوا الله معشر الناس على ما أولاكم .

فتمتعوا في ريفكم ما طاب لكم فإذا يبس العود وسخن العمود وكثر الذباب وحمض اللبن وصوح البقل وانقطع الورد من الشجر فحي على فسطاطكم على بركة الله .

ولا يقدمن أحد منكم ذو عيال على عياله إلا ومعه تحفة لعياله على ما أطاق من سعته وعسرته أقول قولي هذا واستحفظ الله عليكم .

قال : فحفظت ذلك عنه . فقال والدي بعد انصرافنا إلى المنزل لما حكيت له خطبته إنه يا بني يحدو الناس اذاانصرفوا اليه على الرباط كما حداهم على الريف والدعة) [١] .

لقد التقينا مع عمرو بن العاص رضي الله عنه مرتين قبل الآن مرة وهو يحدثنا عن قصة إسلامه ومرة وهو يحدثنا عن رحلته الى أميري عمان وها نحن الآن نلتقي معه أميرا على مصر فننفذ الى أعماقه ونتعرف على نفسيته لرعيته وشعبه من خلال هذه الخطبة الفاذة الجامعة التي نقل لنا منها بحير بن ذاخر المغارفي ماحفظه منها وسنعيش مع كل قطعة منها كما نعيش مع حبات عقد الجوهر .

١ ـ هذا هو مظهره الخارجي الوسيم الذي يحافظ عليه وهو الذي حدا بأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه عندما رآه أن يقول عنه ما ينبغي لأبي عبد الله أن يمشي على الأرض إلا أميرا حيث كان من الوسامة والجمال والجسم الممتلىء والقامة المتسقة مثل أبيه العاص بن وائل الذي وصفه عبد الله بن عمر يوم أجار أباه بقوله : (إذا جاءه العاص بن وائل السهمي أبو عمر وعليه حلة حبره وقميص مكفوف بحرير) [٢] وفي رواية عنه (فجاءه رجل عليه قباء من ديبا ج[٣] وها هو عمرو بن العاص (رجل ربعة قصد القامة وافر الهامة أدعج [٤] أبلج[٥] عليه ثياب موشية كأن به العقبان[٦] انه يشد الأنظار إليه هيبة ومحبة (تأتلق عليه حلة وعمامة وجبة).

---

(١) فتوح مصر وأخبارها / ١٣٩ ـ ١٤١ .

(٢) ، (٣) صحيح البخاري ٢ / ٤ / ٢٤٢ باب اسلام عمر .

(٤) أدعج : شديد سواد العين مع سعتها .

(٥) أبلج : نقاوة ما بين ا لحاجبين .

(٦) العقيان : الذهب .

٢ ـ والذي يرى هذا المنظر الوسيم الجميل يخطر بذهنه الشموخ والكبرياء وراء هذا المنظر كما يخطر بذهنه التنافس في الدنيا بين الأمير ورعيته لكنه بعد حمد الله والثناء عليه ركز على أمور يخشاها كما يخشى العقارب والحيات من أن تفتك بجنده الذين يعيش معهم كظلهم .

(قال : إياي وخلالاً أربعا فإنها تدعو إلى النصب بعد الراحة وإلى الضيق بعد السعة وإلى المذلة بعد العزة ، إياي وكثرة العيال واخفاض الحال وتضييع المال ، والقيل بعد القال في غير درك ولا نوال فحين ينصبُّ هم المرء على تروية دافع الجنس والاكثار من الولد والتباهي به تنشد قدمه الى الأرض ويحرص على الدنياويكدو وينصب حتى يهيئ لهم الرزق الحلال .

وحين يحافظ المرء على مستوى الترف ودعة العيش ولينه لا بد أن يقدم الثمن للمحافظة على هذا المستوى الذي اختاره والدنيا غرارة لا تشبع فهي تدعو دائما الى المزيد فـ (إخفاض الحال) مدعاة الى الركون الي الدنيا وإلى المذلة بعد العزة . فعظمة المسلم في استغنائه عن الدنيا لا استعباد هالها (وتضييع المال) والتبذير به يدعو الى البحث عن الجديد من المال كل يوم ومستفرق جهداً ونصبا بعد أن يذوق لذة هذا الانفاق والدنيا حلوة خضرة وان الله مستخلفكم فيها فناظر ما تعملون)[1] . ورسول الله ﷺ نهى عن (إضاعة المال)[2] .

(وقيل وقال) وهو ترك لذة شهوة الكلام بعد لذة شهوة المال ولذة شهوة العيال وفضول الكلام يقود الى كل أمراض اللسان من الغيبة والنميمة والكذب وغير ذلك .

---

(١) رواه مسلم ح ٢٧٤٢ .

(٢) رواه مسلم ح ١٧١٥ .

إنه ممسك بزمام جيشه أن يغوص في وحل الشهوة فيفقد قابليته العليا للجهاد والمواجهة كما يقول عليه الصلاة والسلام للمسلمين مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد نارا فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها وهو يذبهن عنها وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدي » (١) .

٣ ـ وعمرو الذي يعلم أن أعظم رصيد عنده وأعظم كنزهم هؤلاء الجنود الذين صاروا جزءا من حياته لا بد أن يثلج صدورهم بالمتعة الحلال التي لا تتجاوز القصد فقال : (ثم إنه لا بد من فراغ يؤول اليه المرء في توزيع جسمه والتدبير لشأنه وتخليته بين نفسه وشهواتها ومن صار إلى ذلك فليأخذ بالقصد والنصيب الأقل) .

فالنفوس إذا كلّت عميت ولا بد من الاستجمام ولراحة بعد الجهاد والصبرعليه وللنفس حقها وللزوج حقه ولله تعالى حقه فاعط كل ذي حق حقه انه المنهج النبوي الذي استوعبه الأمير عمرو رضي الله عنه في التوازن الذي ينشده لجيشه حتى يكونوا معه في ساحة الموت كما يكونوا معه في المتعة الحلال .

لكن هذا الفراغ فراغ المجاهدين بحاجة الى شيء آخر غيرالمتعة الحلال والزينة التي أخرجها الله تعالى لعباده والطيبات من الرزق بحاجة إلى المزيدمن العلم والتعرف على الحلال والحرام انه ليس فراغ الدواب والبهائم بل فراغ الدعاة والمجاهدين .

(... ولا يضيع المرء في فراغه نصيب العلم من نفسه فيحوز عن الخير عاطلا وعن حلال الله وحرامه غافلا) .

---

(١) رواه مسلم . ج ٥ ٨٥ ٢ ٢

٤ ـ ها هو يتنفس برئات أصحابه بعد أن أطل الربيع ببهائه على الدنيا فيفتح هذه النفوس عليها قائلا كأنما هو شاعر يتغنى بجمال هذا الربيع .

(يا معشر الناس ، إنه قد تدلت الجوزاء ، وذكت الشعرى وأقلعت السماء وارتفع الوباء وقل الندى وطاب المرعى ، ووضعت الحوامل ودرجت السخائل ، وعلى الراعي بحسن رعيته حسن النظر . فحي لكم على بركة الله الى ريفكم ، فنالوا من خيره ولبنه وخرافه وصيده ، واربعوا خيلكم وأسمنوها وصونوها وأكرموها فإنها جنتكم من عدوكم وبها مغانمكم وأثقالكم) .

إنها الدعوة الى المتعة المباح التي أخرجها الله تعالى لعباده وهي خالصة للذين آمنوا وهؤلاء هم جند الله في هذه الأرض ، والمحافظون على ثغره وآن الآوان للاستمتاع بطيبات الحياة الدنيا .

(فحى على بركة الله إلى ريفكم فنالوا من خيره ولبنه وخرافه وصيده) .

كما يدعوهم إلى الاهتمام بخيلهم التي هي جزء من حياتهم فأربعوا خيلكم وأسمنوها ، فهي الفرصة المتاحة في هذا الربيع لها تستجم وتستعد فتأكل وتتنعم ويطيب مرعاها .

ويحذرهم من الإغراق في الطيب والإغراق في المطاعم (وإياي والمشمومات والمعسولات فإنهن يفسدن الدين ويقصرن الهمم .

٥ ـ وينبه الأمير جيشه إلى أنهم دعاة بالاضافة الى أنهم مجاهدون فسيجاورون القبط من أهل الذمة وحسن تعاملهم هو الذي يحبب الإسلام لهم .

(واستوصوا بالقبط خيرا حدثني عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : إن الله سيفتح علكيم بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فإن منهم صهرا وذمة) فعفوا أيديكم وفروجكم وغضوا أبصاركم) .

وهوالهدى النبـوي الذي علمه النبي ﷺ لجنديه عـمرو فكان هو اليـوم رائد الأمة في تطبيق هذا الهدى انه الزهد عما في أيدي الناس حتى يحبه الناس .

(.. وأزهد فيما عند الناس يحبك الناس)[1] .

فهـو يطالب جنده بعـفة أيديهم عن حـرام المال ، وعفـة فروجهـم عن حرام الجنس ، وغض بصـرهم عن الأجانب وبذلك يطمـئن هؤلاء الجيـران الذميـون إلى ترفع هؤلاء الجيـران عن الطمع فيـهم وانهم أصحـاب قضيـة واتباع نبي فـيفتـحون آذانهم وقلوبهم لهم ولهؤلاء الذميين خاصية خاصة فهم صهر رسول الله ﷺ إنهم قوم مارية رضوان الله عليها أم المؤمنين وفي رواية (فإن لهم نسبا وصهرا) فهم قوم هاجر ام اسماعيل أبي العرب ﷺ .

٦ ـ الدعوة والجهاد صنوان لا يفترقان ﴿ **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتـاب والميـزان ليقـوم الناس بالقـسط وانزلنا الحـديد فـيه بأس شـديد ومنافع للناس** ﴾[2] .

وقد غدت الخيل عنوانا علي الجهاد (فالخيل معقود في نواصيها الخير الي يوم القيامة)[3] ، ﴿ **وأعدو لهم ما استطعـتم من قوة ومن رباط الخل ترهبون به عدو الله وعدوكم** ﴾[4] .

ولهذا هدد المؤمنين المجاهدين بحرمانهم من العطاء لو أهزلوا خيلهم فقال :

(ولا أعلمن ما أتى رجل قد أسمن جسمه وأهزل فرسه واعلموا أني معترض

---

(١) من حديثه حسن رواه ابن ماجه ٢ / ح ٤١٠٢ .

(٢) سورة ا لحديد / ١٥ .

(٣) متفق عليه .

(٤) سورة الأنفال / ٦٠ .

الخيل كاعتراض الرجال فمن أهزل فرسه من غير علة حططت من فريضته قدر ذلك .

لأن للفارس دائما سهمين وللراجل سهم واحد وهذا يعني فقدان نصف راتبه لو لم يهتم بفرسه اهتمامه بنفسه .

٧ ـ وهو يريد أن تبقى هذه الجذوة حية متقدة وأن تبقى هذه الشعلة وهاجة شعلة الجهاد وأن لا ينسوا أنهم مرابطون على اعظم ثغر من ثغور الاسلام .

(واعلموا أنكم في رباط الى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم وتشوف قلوبهم إليكم وإلى داركم معدن الزرع والمال والخيرالواسع والبركة النامية حدثني عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إذا فتح الله علكيم مصر فاتخذوا فيها جندا كثيفا فذلك لجند خير أجناد الأرض فقال له أبو بكر ولم يا رسول الله ؟ قال : لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة).

٨ ـ وبعد هذه التنبيهات الهامة التي كانت بمثابة أوامر عسكرية بأسلوب تربوي من خلال صلاة الجمعة عاد فأنهى خطبته بقوله :

(فاحمدوا الله معشر الناس على ما أولاكم فتمتعوا في ريفكم ما طاب لكم) .

وهو يدعوهم بعد اجتناب هذه المحظورات أن يمارسوا متعتهم كما يحبون خلال فصل الربيع فصل الخير والنماء والبركة .

٩ ـ وها هو يخطط لعودتهم كما يخطط لذهابهم

(فإذا يبس العود وسخن العمود وكثر الذباب وحمض اللبن صوح البقل وانقطع الورد من الشجر فحي على فسطاطكم على بركة الله) .

١٠ - ولا ينسى أن يذكر بأبسط الأشياء حتى لا تنسى أن يذكر بهدية العيال والأولاد لإدخال الفرح على قلوبهم بقوله :

(ولا يقدمن أحد منكم ذو عيال على عياله إلا ومعه تحفة لعياله على ما أطاق من سعته أو عسرته) فعو يعيش بهم ولهم ومعهم وهو جزء منهم ...

وانهى وصاياه العشر هذه بقوله :

(أقول قولي هذا واستحفظ الله عليكم) .

ونعود بعدها الى راوينا الشاب الذي اتحفنا بهذه الخطبة الخالدة فينقل لنا حتى حديثه مع أبيه بعد انصرافه من الصلاة لنستمع لمشاعر الأب العظيم الذي يربي ابنه على حب عمرو الأمير الرحيم العبقري (قال : حفظت ذلك عنه فقال والدي بعد انصرافنا إلى المنزل لما حكيته له خطبته . إنه يا بني يحدو الناس اذا انصرفوا إليه على الرباط كما يحدوهم على الريف والدعة) .

الجريمة العظمى :

وكان من وعي عمرو رضي الله عنه أن يحول بين جنده وبين انشغالهم بالحرث والزراعة بل كانت هذه جريمة يحاسب ويعاقب من يقترفها حتى لا يخلدوا الى ا لأرض ويثاقلوا إليها .

(ثم ان عمر بن الخطاب فيما حدثنا عبد الملك بن مسلمة عن ابن وهب عن حيوة بن شريح عن بكر بن عمير عن عبد الله بن هبيرة أمر مناديه أن يخرج إلى أمراء الأجناد يتقدمون إلى الرعية أن عطاءهم قائم وأن رزق عيالهم سائل فلا يزرعون ولا يزارعون قال ابن وهب فأخبرني شريك بن عبد الرحمن المرادي قال : بلغنا أن شريك بن نمي الغطيفي أتى إلى عمرو بن العاص فقال : إنكم لا تعطونا ما

يحسبنا أفتأذن لي بالزرع فقال له عمرو : ما أقدر على ذلك فزرع شريك من غير إذن عمرو ، فلما بلغ ذلك عَمْرًا كتب إلى عمر بن الخطاب يخبره أن شريك بن سمي الغطيفي حرث بأرض مصر فكتب اليه عمر : أن ابعث إلي به فلما انتهى كتاب عمر الى عمرو قرأه شريكا فقال شريك لعمرو : قتلتني يا عمرو : ما أنا قتلتك ؟ أنت فعلت هذا بنفسك . قال : إذ كان هذامن رأيك فأذن لي بالخروج اليه من غير كتاب ولك علي عهد الله أن أجعل يدي في يده فأذن له بالخروج فلما و قف على عمر قال : تؤمنني يا أمير المؤمنين ؟ قال : ومن أي الأجناد أنت ؟ قال : من جند مصر . قال : فلعلك شريك بن نمي الغطيفي ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين قال : لأجعلنك نكالا لمن خلفك . قال : أو تقبل فيما ما قبل الله من العباد ؟ قال : وتفعل ؟ قال : نعم ، فكتب الى عمرو بن العاص :

إن شريك بن نمي جاءني تائبا فقبلت منه)(١).

ويقرأ المرء هذه الحادثة ، ويأخذه الدهش من كل جانب .

يعجب لشدة عمر أمير المؤمنين في هذا الخطر حتى كأنما هذه الزراعة رجس من عمل الشيطان . وإذا كان المسلمون منذ أربعة عشر قرنا قد وقاهم الله شر ظهور الاقطاع في أرضهم وديارهم فليحمدوا الله تعالى ثم ليحمدوا عمر أمير المؤمنين الذي قطع منابته من الجذور فألغى تملك الجيوش الغازية وألغى تحولها إلى مستعمرين تستبد الأرض والعباد وأبعدها عن الانشغال بالزراعة عن الجهاد .

والا لانتهى الإسلام من القرن الأول حين يخلد الناس الى الراحة والري والزراعة والحرث .

ويعجب المرء لأن أمرا يصدر من أمير مصر عمرو بن العاص بمنع الجيش على الزرع والحرث فلا يظهر في هذه الآلاف المؤلفة التي تملك القوة والسلاح إلا

---

(١) ؟

مخالفة واحدة لأحد قادة الفتح الكبار وهو يعجب أن هذه المخالف لم يغض الطرف عنه عمرو بن العاص ولم يقم هو بمعالجتها إنما رفعها إلى امير المؤمنين عمر ابن الخطاب في المدينة ليحكم فيها فهي من الجرائم العظمى التي يختص الخليفة في النظر فيها .

- ويعجب المرء لعتب شريك على عمرو وجواب عمرو له لكن الأعجب أن يرضى عمرو بن العاص لشريك أن يمضي إلى أمير المؤمنين دون رقابة الا رقابة عهد الله وميثاقه عليه وحتى بدون كتاب من عمرو ففي الوقت الذي يصر عمرو على إبلاغ أمير المؤمنين جريمة شريك وفي الوقت نفسه يبعث المجرم وحده الى عمر دون خشية أن يفر أو يمضي إلى ثغر آخر .

- ويعجب المرء من شريك وهو يمضي إلى عمر وبين عينيه القتل (كما قال لعمرو : قتلتني والله) فيسلم نفسه الى أميرالمؤمنين ويطلب منه الأمان على ما اقترفت يداه .

- ويعجب المرء لذهن الخليفة الهائل الذي يحصى في عقله مشاكل الأمة كلها ولا ينسى حتى مخالفة شريك في مصر وهو لا يعرفه من قبل ترى كيف كان يعيش هذا الخليفة العظيم هموم الأمة فمجرد أن ذكر له أنه من أجناد مصر أجابه : فعلك شريك بن نمي الغطيفي وتدل كذلك على خطورة هذه القضية في نفسه فلو مرت هذه الحادثة دون عقوبة لتجرأ الناس على المخالفة وكسر أمر أمير المؤمنين فكانت هاجساًفي نفسه حتى لقي المتهم شريك .

- ويعجب المرء من موقف شريك رضي الله عنه الهادئ المتزن الذي يقول لأمير المؤمنين : أو تقبل فيما ما تقبل الله من العباد واستطاع بهذه الكلمة الهادئة أن يغير مجرى تفكير عمر كله . فلا يشك فيه ولا يطعن فيه بل يصدقه مباشرة ويعفو عنه .

ـ ويعجب المرء من عفو أمير المؤمنين بكلمة واحدة يذكرها شريك فيرسل معه الكتاب الى عمرو بن العاص أنه قبل توبة شريك وسويت قضيته .

كتاب إلى النيل :

لقد كان عمرو على مستوى عمر رضي الله عنهما في فقه هذا الدين وأولوياته وفقه عمر بالرجال هو الذي دفعه لاختياره لهذا الموقع .

(لما فتح عمرو بن العاص مصر كما حدثنا عثمان بن صالح عن ابن لهيعة عن قيس بن الحجاج عمن حدثني أن أهلها (أي أهل مصر) حين دخل بؤونة من أشهر العجم فقالوا له :

أيها الأمير إن لنيلنا هذا سنة لا يجري إلا بها فقال لهم : وما ذاك ؟ قالوا :

إنه إذاكان لثنتي عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عهدنا إلى جارية بكر بين أبويها فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الحلي والثياب أفضل ما يكون ثم ألقيناها في هذا النيل فقال لهم عمرو :

إن هذالا يكون في الإسلام ، وإن الإسلام يهدم ما قبله .

فأقاموا بؤونة وأبيب ومسرى[1] لا يجري قليلا ولا كثيرا حتى هموا بالجلاء فلما رأى ذلك عمرو كتب الى عمر بن الخطاب بذلك فكتب إليه عمر :

قد أصبت ، إن الإسلام يهدم ما كان قبله وقد بعثت إليك ببطاقة فألقها في داخل النيل إذا أتاك كتابي فلما قدم الكتاب على عمرو فتح البطاقة فإذا فيها :

من عبد الله عمر أميرالمؤمنين إلى نيل أهل مصر . أما بعد ، فإن كنت تجري من قبلك فلا تجر وإن كان الله الواحد القهار الذي يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك .

---

(١) أسماء الأشهر في الأعجمية .

فألقى عمرو البطاقة في النيل قبل يوم الصليب بيوم وقد تهيأ أهل مصر للخروج منها والجلاء لأنه لا يقوم بمصلحتهم فيها إلا النيل فأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله ستة عشر ذراعا في ليلة وقطع الله تلك السنة السوء عن أهل مصر) [١] .

فقد رفض عمرو رضي الله عنه تلك السنة السيئة واعتبرها جاهلية قد هدمها الإسلام ، وتأخر فيضان النيل شهرين ونيف وصوب الخليفة رأيه وفاض النيل بتوفيق الله ثم ببطاقة أمير المؤمنين ستة عشر ذراعا في ليلة واحدة .

حفر خليج أمير المؤمنين :

وتختلف الروايات التي تتحدث عن حفر الخليج بين النيل والبحر في صاحب الفكرة فرواية تعيدها ذلك إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه صاحب الفكرة ، ورواية تعيدها الى عمرو بن العاص رضي الله عنه ، ورواية تعيدها إلى قبطي من أقباط مصر ، ولا نجد حرجا في ذكرالروايات جميعا لأنها تنتهي في النهاية إلى إشراف عمرو رضي الله عنه على حفره وفتح سبيل التجارة عن طريق البحر بعد أن كانت عن طريق البر وتحويل الدولة الإسلامية إلى قطعة واحدة في التعايش والحركة التجارية والعلاقات الاقتصادية وتعطينا الدليل على عبقرية الحاكم العظيم عمرو بن العاص .

(حدثنا عبد الله بن صالح أوغيره عن الليث بن سعد أن الناس بالمدينة ، أصابهم جهد شديد في خلافة عمر بن الخطاب في سنة الرمادة [٢] فكتب الى

---

(١) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم / ١ / ١٩٢ .

(١) فتوح مصر وأخبارها / ١٥٠ - ١٥١ .

(٢) هناك إشكال في هذه الرواية يتحدث عن نجدة عمرو رضي الله عنه لعمر أمير المؤمنين في عام الرمادة وكان هذا العام في سنة ثمانية عشرة ، وفتح مصر إنما كا سنة عشرين أي بعد عام الرمادة بسنتين ولعل هذا الجهد قد وقع في غير عام الرمادة ليحل الإشكال المذكور على الرواية الأرجح ، وإن كان هناك رواية مرجوحة ضعيفة تشير إلى أن فتح مصر كان عام سنة عشر للهجرة فلو أخذنا بهذه الرواية المرجوحة لزال

عمرو بن العاص وهو بمصر :

من عبد الله عمر أمير المومنين إلى العـاص بن العاص سلام أما بعد : فلعمري يا عمـرو ما تبالي إذا شبـعت أنت ومن معك أن أهلك أنا ومن معي فيـاغوثاه ثم يا غوثاه (يردد قولـه) فكتب إليه عمرو بن العـاص : لعبد الله عمر أمـير المؤمنين من عمـرو بن العاص أما بعـد : فيالبـيك ، ثم يا لبيك قد بـعثت إليك بعيـر أولها عندك وآخرها عندي والسلام عليك ورحمة الله .

فبعث إليه بعيـر عظيمة فكان أولها بالمدينة وآخرها مصر يتبع بعضـها بعضها فلمـا قدمت على عـمر ووسع بهـا على الناس ... فلمـا رأى ذلك عمـر حمـد الله وكتب إلى عمرو بن العاص يقدم عليه هو وجماعـة من أهل مصر معه فقدموا عليه فقال عمر :

يا عمـرو إن الله قد فتح على المسلمين مـصر وهي كثـيرة الخير والطعـام وقد ألقي في روعي لما أحـببت من الرفق بأهـل الحرمين والتـوسعـة عليهم حين فـتح الله عليهم مصر وجعلها قوة لهم ولجميع المسلمين أن أحفر خليجا من نيلها حتى يسيل في البحـر . فهو أسهل لما نريـد من حمل الطعام إلى المدينة ومكة فـإن حمله على الظهر يـعد ولا نبلغ منه ما نـريد فانطلق أنت وأصحـابك فتشـاوروا في ذلك حتى يعتدل فيه رأيكم .

فانطلق عمـرو فأخبر بذلك من كـان معه من أهل مصر وقـالوا : نتخوف أن يدخل ضرر على مصر ، فنرى أن تُعظِّم ذلـك على أمير المؤمنين وتقول له : إن هذا أمرلا يعـتدل ولا يكون ولا نجد إليـه سبيـلا فرجع عمـرو بذلك إلى عمر فـضحك عمر حين رآه وقال :

والذي نفسي بده كأني انظر إليك يا عمـرو وإلى أصحابك حين أخبرتهم بما أمرنا به مـن حفر الخليج فـثقل ذلك عليـهم وقالوا : يدخل في هذا ضـرر على أهل

مصر فنرى أن تعظم ذلك على أمير المؤمنين ... فعجب عمرو وقال : صدقت والله يا أمير المؤمنين لقد كان الأمر على ما ذكرت فقال له عمر :

انطلق يا عمرو بعزيمة من عندي حتى تجد في ذلك ولا يأتي عليك الحول حتى تفرغ منه إن شاء ا لله فانصرف عمرو وجمع لذلك من الفعلة ما بلغ منه ما أراد ، ثم احتفر الخليج الذي في حاشتيه الفسطاط والذي يقال له خليج أميرالمؤمنين فساقه من النيل الى القلزم فما أتى الحول حتى جرت فيه السفن فحمل فيه ما أراد من الطعام الى ا لمدينة ومكة فنفع الله بذلك أهل الحرمين وسمي خليج أمير المؤمنين) [1] .

(قال ويقال أن عمر بن الخطاب قال لعمرو بن العاص وقدم عليه كما حدثنا أخي عبد الحكم بن عبد الله بن الحكم حدثنا عبد الله بن وهب عن ابن لهيعة عن محمد بن عبد الرحمن قال حسبته عن عروة :

يا عمرو إن العرب قد تشاءمت بي وكادت أن تهلك على رجلي وقد عرفت الذي أصابها وليس جند من الأجناد أرجى عندي أن يغيث الله بهم أهل الحجاز من جندك . فإن استطعت أن تحتال لهم حيلة حتى يثبتهم الله فقال عمرو ما شئت يا أمير المؤمنين قد عرفت أنه كانت تأتينا سفن فيها تجار من أهل مصر قبل الإسلام فلما فتحنا مصر انقطع ذلك الخليج واستُدن وتركه التجار فإن شئت أن نحفره فننشىء فيه سفنا يحمل فيه الطعام إلى الحجاز فعلته فقال له عمر : فافعل .

فلما خرج عمرو من عند عمر بن الخطاب ذكر ذلك لرؤساء أهل مصر أرضه من قبط مصر فقالو له: ماذا جئت به ؟! أصلح اللـه الأمير تنطلق فتخرج طعام

الإشكال وإن كنا نرجح الحل الأول .

أرضك خصيبها إلى الحجاز وتخرب هذه فإن استطعت فاستثقل ذلك فلما ودَّع عمر بن الخطاب قال له : يا عمرو ! انظر إلى ذلك الخليج فلا تنسيَّنَّ حفره فقال له : يا أمير المؤمنين ! إنه قد انسد وتدخل فيه نفقات عظام فقال له عمر :

أما والذي نفسي بيده إني لأظنك حين خرجت من عندي حدَّثْتَ بذلك أهل أرضك فعظموه عليك وكرهوا ذلك اعزم عليك الا ما حفرته وجعلت فيه سفنا فقال عمرو : يا أمير المؤمنين إنه متى ما يجد أهل الحجاز طعام مصر وخصبها مع صحبة الحجاز لا يخفوا إلى الجهاد . قال : سأجعل من ذلك أمرا لا يُحمل في هذا البحر إلا رزق أهل المدينة ومكة .

فحفره عمرووعالجه وجعل فيه السفن) (١) .

قال ويقال إنما دل عمرو بن العاص على الخليج رجل من قبط أهل مصر .

حدثنا أبي عبد الله بن عبد الحكم حدثنا سفيان بن عيينة عن ابن أبي نجيح عن أبيه أن رجلا أتى إلى عمرو بن العاص من قبط مصر فقال :

أرأيت إن دللتك علي مكان تجري فيه السفن حتى تنتهي إلى مكة والمدينة أو تضع عني الجزية وعن أهل بيتي ؟ قال : نعم فكتب الى عمر فكتب اليه أن افعل فلما قدمت السفن الجار (٢) خرج عمر بن الخطاب حاجا أو معمرا فقال للناس : سيروا بنا ننظر إلى السفن التي سيرها الله إلينا من أرض فرعون حتى أتتنا قال رجل من بني ضمرة ، فأفردني السير معه في سبعة نفر فآوانا الليل الى خيمة أعراب فاذا ببرمة تغطى على النار فقال عمر : هل من طعام ؟ فقالوا : لا ولا لحم ظبي أصبناه بالأمس فقرَّبوه فأكل وهو محرم) (٣) .

---

(١) فتوح مصر وأخبارها / ١٦٤ ـ ١٦٥ .

(٢) هو ميناء أهل المدينة .

(٣) المصدر نفسه / ١٦٥ ـ ١٦٦ .

وحافظ عمر رضي الله عنه على التوازن في الحفاظ على خبرات مصر من جهة وبتأمين حاجة أهل الحرمين من جهة ثانية .

اسطورة حرق مكتبة الاسكندرية :

وندع الحديث عن هذا الموضوع للكاتب الفاضل أبي رابية ا لذي كفانا مؤنة التنقيب عنه وتفنيده تحت عنوان أقوال المورخين الذين رضوا اتهام عمرو اذ يقول : (وقد تصدت جمهرة من المؤرخين الأجانب لدحض هذه الفرية الظالمة وعلى رأسهم جيبون وجوستاف لوبون والدكتور بطلر واعتبروها سخافة مستبعدة ينكرها العقل ومن ثم فهم يرفضونها و وأنهارغم تداولها بين الناس في العصور الوسطى يحيط بها الشك بحيث يجعلها غير وثيقة في الدلالة ولا كافية بذاتها في البرهان.

وقد أثنى المورخ جيبون على سعة أفق عمرو بن العاص وقال : إن صداقته للفيلسوف حنا الأجرومي والنحوي) الملقب بفليونوس دليل على سماحته وحبه للمعرفة ثم يروي جيبون قصة أبي الفرج الملطي ويقول : إن حمامات الاسكندرية التي وزعت عليها هذه المجلدات كان عددها يومئذ أربعة ألف حمام وأن استمرار ايقادها بهذاالوقود الثمين الذي لا يضارعه وقود مدى ستة أشهركاملة أكبر دليل إن صحت الواقعة على ضخامة تلك المكتبة ثم يستطرد جيبون قائلا ان نشر كتاب أبي الفرج في الترجمة اللاتينية أتاح لهذه القصة أن تذاع بحيث كان كل دارس عالم يجد من حماسته للعلم ما يمده للحرارة للتشهير بعمرو) .

ثم يقول المؤرخ جيبون : « وأنا من جانبي أميل ميلا شديدا إلى جحد الواقعة نفسها وما ترتب عليها من نتائج ومن الغريب أن هذه الرواية يذكرهارجل (يقصد أباالفرج) من أطراف بلاد فارس بعد فتح الاسكندرية بستة قرون ولا يكتب عنها مؤرخان مسيحيان من مصر وهما سيد بن البطريق (اوتينحوس) والاسقف حنا

النقيوسي وكلاهما أسهم في فتح الإسكندرية وأفاض في تفصيلاته) ثم يضيف جيبون في حجة عقلية غير تلك الحجة التاريخية فيقول : إن الأمر الصارم المعزو الى عمر بن الخطاب ترفضه تعاليم الإسلام والسنة النبوية وأئمة المسلمين فكتب النصارى واليهود المأخوذة في الحرب لا يجوز إحراقها وأما كتب الفلسفة والطب والتاريخ والشعر وسواها من العلوم غير الدينية فإنه يجوز أن ينتفع بها المسلمون وأن يأخذوا منها ما ينفعهم في أمور دينهم ولا أرى داعيا لتكرار ما حل بمكتبة الاسكندرية وما أصابهامن الحريق غيرالمتعمد الذي أشعله يوليوس قيصر في مرافق المدنية عندما كان محاصرا الاسكندرية عام ٤٨ ق . م ولا ما أضمره النصارى من الكراهية للثقافة الوثنية فخربوا مدارس الفلسفة تخريبا مدروسا بعناية ... » .

أما العلامة جو ستاف لوبون فقد ناقش قصة احراق مكتبة الاسكندرية مناقشة علمية مختصرة فقال : إن أول مؤلف ذكر حريق العرب لهذه المكتبة هو عبد اللطيف الطبيب العربي البغدادي الذي توفي عام ١٢٣١ م أي بعد ٥٩١ سنة من وقوع الحادثة ، أما بخصوص حرق مكتبة الاسكندرية المزعوم فإنه همجية وعداوة للمدينة منافية لأخلاق العرب على خط مستقيم حتى أنه يمكن أن يسأل الإنسان نفسه كيف أن قصة كهذه قبلها منذ زمن طويل كثيرون من الذين يعتد بعلمهم ؟ وقد كذب العلماء هذه القصة في زماننا هذه مرات عدة ، فلا نرى حاجة في العودة إليها لتكذيبها وليس أسهل من الاستشهاد على ذلك بسرد أقوال كثيرة واضحة تثبت أن المسيحيين كانوا قد أعدموا الكتب الوثنية قبل العرب بزمن طويل وكسروا كل التماثيل أيضاً ويفهم من ذلك أنه لم يعد بالاسكندرية ما يحرق » . وقد حلل الدكتور بطلر رواية حريق مكتبة الاسكندرية بين عمرو بن العاص تحليلا رائعا وفند بالأدلة الدامغة أن حريق هذه المكتبة العظمى لم يحدث

بأمر من عمر بن الخطاب أو غيره من خلفاء المسلمين وأثبت أنها أحرقت قبل الفتح العربي للاسكندرية ... وإننا نجمل هذه الأدلة التاريخية الحاسمة التي ساقها بطلر للتدليل على فساد هذه القصة وأنها محض افتراء فيما يلي :

١ ـ إن القصة التي وردت بشأن حريق مكتبة الاسكندرية كما أوردها عبد اللطيف البغدادي وابن القفطي وأبو الفرج الملطي هي بلا شك قصة خلابة المظهر وتظهر لنا لأول وهلة عند تحليلها أنها عبارة عن أكاذيب وأضاليل نعثر على كثير منها في أسفار المتقدمين فلو أن كل الكتب قد قضي عليها بالحرق لأحرقت حيث هي ولا تكلف الناس حملها ليغرقوها بين أربعة آلاف حمام وأنها ظلت تسخن مياهها ستة شهور رغم أن معظم كتب هذه المكتبة كان من الكاغد (أي الرق المعالج بطريقة خاصة) وهو وإن كان يصلح لإيقاد النار لم يكن يصلح لبقائها متقدة لمدة طويلة كذلك لم يكن عمرو بن العاص بالرجل الساذج الذي يضع هذه الكتب تحت رحمة أصحاب الحمامات فلا يصعب بذلك على يوحنا النحوي أو أي انسان غيره أن يستولي على قدرعظيم من هذه الكتب بثمن بخس إن إيراد هذه القصة على هذه الصورة مضحك وإنه ليحق لنا أن نسمع ما فيها ونعجب ؟

٢ ـ برهن الدكتور بطلر على أن يوحنا النحوي الذي ذكره ابن القفطي وأبو الفرج في روايتهما لم يكن حيا يرزق وقت فتح الاسكندرية عام (٦٤٢م) ولو قلنا إنه عاش الى عام ٦٤٢ م فإن عمره لايكون عند ذلك أقل من مائة وعشرين عاما ومن الجلي أن يكون قد مات منذ ثلاثين أو أربعين عاما قبل أن يدخل عمرو الاسكندرية .

٣ ـ إن رواية عبد اللطيف البغدادي وابن القفطي وأبي الفرج الملطي ظهرت بعد مرور نحو ستة قرون على هذه الحادثة المزعومة ولو سلمنا جدلا بصحة هذه

الفرية لما أهملها مؤرخان شهيرا ن معاصران للفتح الإسلامي وكلاهما مسيحي هما سعيد بن البطريق (اوتنجوس) الذي فصَّل خبر فتح الاسكندرية تفصيلا مهما والأسقف يوحنا النقيوسي الذي كتب مؤلفه عن فتح مصر قبل نهاية القرن السابع الميلادي . كما لم يدون هذه الحادث ةأحد من المؤرخين المسلمين المتقدمين كالطبري واليعقوبي والكندي وابن عبد الحكم والبلاذري .

٤ ـ إن هذه المكتبة العظمى قد أصابها الحريق مرتين ، مرة في عهد يوليوس قيصر في حريق عام (٤٨ ق . م) فقد كان قيصر محاصرا في حي البروكببون يحيطه المصريون من كل جانب وعليهم قائدهم أوجلاس فأحرق السفن التي بالميناء وقيل إن النار امتدت من هناك وأحرقت المكتبة فأمنتها وهي مكتبة المتحف أو المكتبة الأم أما المكتبة الوليدة التي قامت في السرابيوم فانها كانت في حجرات متصلة ببناء معبد السرابيوم وقد أحرق هذا المعبد في عهد الأمبراطور ثيودوسوس (٢٩١م) على يد المسحيين بزعامة البطريق نيوفيلوس أثناء نضالهم الديني ضد حصون الوثنية .

٥ ـ إن احراق العرب لتلك المكتبة غير محتمل وإن القصة نسج من الأباطيل ذلك لأنهم لم يدخلوا الاسكندرية إلا بعد استيلائهم عليها بأحد عشر شهرا وقد ذكر في عهد الصلح أنه يجوز للروم أن يحملوا إلى بلادهم كل أمتعتهم وأموالهم ، وفي غضون هذه المدة كان البحر مفتوحا ولم تكن أمامهم أية صعوبة لحمل هذه المكتبة إلى بلادهم وما كان يصعب على يوحنا النحوي (بفرض وجوده) وأمثاله أن يقتنوا هذه الكتب قبل أن تقع الاسكندرية في يد محاربي الصحراء الذين لا علم لهم بقيمتها وهم على وشك أن يدخلوا المدينة)[1] .

---

(١) د . بكلر ، فتح العرب لمصر / ٣١٢ .

وأخيرا يجب أن يعرف الناس قاطبة أن العرب لم يكونوا قط في تاريخهم كقبائل التتار المتبربرة التي ألقت بخزائن الكتب ببغداد في نهر دجلة فأحالت بمدادها ماءه الرقراق إلى سواد حالك ولم يكونوا متعصبين إزاء أصحاب الأديان السماوية كتعصب بعضهم ازاء الاسلام ولا يزال التاريخ يذكر بأسىً بالغ ما قام به (اكريمينيس) رئيس أساقفة الأسبان والقاضي الأكبر بمحاكم التفتيش الرهيبة فقد أحرق ثمانين ألف كتاب من أعظم الكتب التي تحتوي على تراث العرب الحضاري في الأندلس بعد خروجه منها وهو يحسب أنه يستطيع أن يطمس آثار الحضارة العربية التي تألقت في إسبانيا على مدى ثمانية قرون كما نقل لنا التاريخ ايضا ان الفرنسيين عندما فتحوا مدنية قسطنطينة في شمال افريقية (الجزائر) أحرقوا كل الكتب والمخطوطات التي وقعت في أيديهم كأنهم من صميم الهمج .

وهكذا برئت ساحة عمرو بن العاص والفاروق عمر من جريمة حضارية شنعاء طالما لاكتها الألسنة بغير تثبت وان قصة أبي الفرج عن احراق العرب لمكتبة الاسكندرية لا تعدو أن تكون قصة من أقاصيص الخرافة التي لس لها أساس من التاريخ) [١] .

استخراج الكنوز :

فهذه الكنوز الذهبية حق الدولة كي توزع على مصالح الأمة عامة ، وليست حكرا لفرد يستحوذ عليها هو وذريته ، ومن أجل ذلك كان انذار عمرو رضي الله عنه بتسليم الكنوز للدولة ومن يجحد ذلك ثم يوجد عنده يقتل فأين كانت عبقرية عمرو في استخراج هذه الكنوز ؟

---

(١) عمرو بن العاص لعبد الخالق سيد أبورابية مقتطفات من ١٩٠ - ١٩٥ .

يحدثنا عن ذلك ابن عبد الحكم بقوله : (حدثنا عثمان بن صالح حدثنا ابن وهيب قال سمعت حيوة بن شريح قال سمعت الحسن بن ثوبان الهمذاني يقول : حدثني هشام بن أبي رقية اللخمي أن عمرو بن العاص لما فتح مصر قال لقبط مصر : أن من كتمني كنزا عنده فقدرت عليه قتلته .

وأن نبطيا من أهل الصعيد يقال له بطرس ذُكر لعمرو أن عنده كنزا فأرسل إليه يسأله فأنكر وجحد فحبسه في السجن وعمرو يسأل عنه هل يسمعونه يسأل عن أحد فقالوا : لا إنما سمعناه يسأل عن راهب في الطور فأرسل عمرو الى القبطي فنزع خاتمه من يده ثم كتب إلى ذلك الراهب أن أبعث إلي بماعندك وختمه بخاتمة فجاء رسوله بقلة شامية مختومة بالرصاص ففتحها عمرو فوجد فيها صحيفة مكتوب فيها : ما لكم تحت الفسقية فحبس عنها الماء ، ثم قلع البلاط الذي تحتها فوجد فيها اثنين وخمسين أردبا ذهبا مضروبة فضرب عمرو رأسه عند باب المسجد .

فذكرابن أبي رقية أن القبط أخرجوا كنوزهم شفقا أن يبغى على أحد منهم فيقتل كما قتل بطرس)[1] .

اليقظة الدائمة :

فهو يعلم كل شيء عن جنده فكأنما هم في استنفار دائم حتى في أيام الربيع حيث ينطلقون في ربوع مصر وقراها فهو الذي يتعرف على أماكن وجودهم التي أحبوا المقام فيها بل يحددها لهم بناء على هذه المحبة فهم عدته وذخيرته ورأس ماله .

---

(١) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم / ٨٧ .

(قال : وكان إذا جاء وقت الربيع واللبن كتب لكل قوم بربيعهم ولبنهم الى حيث أحبوا وكانت القرى التي يأخذ فيها عظمهم منوف وسيبندس وأهنلس وطحا وكان أهل الراية متفرقين فكان آل عمرو بن العاص وآل عبد الله بن سعد يأخذون في منف ووسيم وكانت هذيل تأخذ في بناء بوصير وكانت عدوان تأخذ في بوصير وقرى علك التي يأخذ فيها عظمهم بوصير وسبندس ومنوف وأتريب وكانت بلي تأخذ في منف وطرابية وكانت فهم تأخذ في أتريب وعين شمس ومنوف وكانت مهرة تأخذ في تتاء ونمي وكانت الصدف تأخذ في الفيوم وكانت تجيب تأخذ في تمي ومبسطة ووسيم وكانت لخم تأخذ في الفيوم وطرابية وقريبط وكانت جذام تأخذ في طرابية وقريبط وكانت حضرموت تأخذ في ببا وعين شمس وأتريب وكانت مراد تأخذ في منف والفيوم ومعهم عبس بن زوف وكانت حمير تأخذ في بوصير وقرى أهناس وكانت خولان تأخذ في قرى أهناس البهنسي والقيس وآل وهلة يأخذون في سفط من بوصير وآل ابرهة يأخذون في منف وغفار وأسلم يأخذون مع من جذام أوسعد في بسطة وقريبط وطرابية وآب يسار بن ضنة في أتريب وكانت المعافر تأخذ في أرتيب وسخار ومنوف وكانت طائفة من تجيب ومراد يأخذون بالبدقون .

وكان بعض هذه القبائل ربما جاوز بعضا في الربيع ولا يوقع من معرفة ذلك على أحد إلا أن عظم القبائل كانوا يأخذون حيث وصفنا وكان يكتب لهم بالربيع فيربعون واللبن ما أقاموا ...) [1] .

---

(١) المصدرنفسه / ١٤١ - ١٤٢ .

الحاكم العادل

أن تجد حاكما عبقريا في فن السلطة والحكم هو أمر متوفر في تاريخ الأمم وليس خاصا في الأمة المسلمة ، لكن أن تجد حاكما عادلا ينطلق من دين في تعامله مع شعبه وخصومه فهو أمر نادر جدا في الأمم الأخرى ومن خواص هذه الأمة من حيث الوفرة والكثرة فيها .

هذا عمرو بن العاص الذي كان ملء سمع الدنيا وبصرها وهز أركان الأمبراطورية الرومانية وأطاح بسلطانها في الشام ومصر وليبية كم كان راتبه الذي يتقاضاه من الدولة .

(ثم كتب عمر بن الخطاب كما حدثنا شعيب بن الليث وعبد الله بن صالح ويحيى بن عبد الله بن بكير وعبد الملك ابن سمع عن الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب الى عمرو بن العاص :

« انظر من قبلك ممن بايع تحت الشجرة فأتم لهم العطاء مائتين وأتمها لنفسك لإمرتك وأتمها لخارجة بن حذافة لشجاعته ولعثمان بن أبي العاص لضيافته »(١) .

فالذين بايعوا تحت الشجرة ممن شهدوا بيعة الحديبية هو خيرة هذه الأمة بعد أهل بدر والرجل وبلاؤه في الإسلام فهم قمة جيل التضحيات فأعطوا مائتين بزيادة خمسين عن أقرانهم ووافق عمر أن يرفع عطاء هذاالأمير الى مستوى عطاء أهل الحديبية فلعل خدماته خلال هذه السنين العشر في خدمة الإسلام ، وإقبال الناس عليه لإمارته ، والمصاريف التي يتحملها لهذا الموقع جعلته مؤهلا أن يزيد راتبه

---

(١) فتوح مصر وأخبارهال لابن عبد الحكم / ١٤٥ .

خمسين عن أقرانه وجنوده . كما تم اعطاء هذا الراتب العالي لخارجة بن حذافة أحد الأربعة الذين بعثهم عمر رضي عنه مقام الألف إلى عمرو ، وتم اعطاء هذا الراتب لعثمان بن أبي العاص لضيافته . وهو عثمان بن قيس بن أبي العاص السهمي فغي رواية أخرى فيها : (وافرض لعثمان بن قيس بن أبي العاص في الشرف لضيافته)[1] فهو من قبيلة عمرو رضي الله عنه .

اقتسام المال :

ولكن ليت هذا الراتب السنوي بزيادة هذه الخمسين يسلم لأمير مصر عمرو بن العاص كما سلم لأصحاب بيعة الشجرة ولخارجة ولعثمان فقد كان موقعه في الإمارة ، مظنة الاستغلال والاثرة ويعسر ان يسلم لعمر بن الخطاب وال لا يحاسب حتى على الظنة لسلامة الأمة وهذه قصة عمرو مع اقتسام ماله .

ثم بعث عمر بن الخطاب محمد بن مسلمة كما حدثنا معاوية بن صالح[2] عن محمد بن سماعة الرملي [3] قال حدثني : عبد الله بن عبد العزيز شيخ ثقة إلى عمرو بن العاص وكتب إليه : أما بعد فإنكم معشر العمال قعدتم على عيون الأموال فجبيتم ا لحرام وأكلتم الحرام وأورثتم الحرام وقد بعثت اليك محمد بن مسلمة الأنصاري ليقاسمك مالك فأحضره مالك والسلام فلما قدم محمد بن مسلمة مصر أهدى له عمرو بن العاص هدية فردها عليه فغضب عمرو وقال : يا محمد لم رددت الي هديتي وقد أهديت الى رسول الله ﷺ مقدمي من غزوة ذات السلاسل فقبل . فقال له محمد .

---

(٢) المصدر نفسه / ٢٢١ .

(٢) صدوق من الحادية عشرة .

(٣) صدو ق من العاشرة .

إن رسول الله ﷺ تقبل بالوحي ما شاء ويمتنع مما شاء ولوكانت هدية الأخ الى أخيه قبلتها ولكنها هدية إمام شرٌّ خلفها فقال عمرو :

قبح الله يوما صرت فيه لعمر بن الخطاب واليا فلقد رأيت العاص بن وائل السهمي يلبس الديباج المزرر بالذهب وإن الخطاب بن نفيل ليحمل الحطب على حماره بمكة فقال له محمد بن سلمة .

أبوك وأبوه في النار وعمر خير منك ولولا اليوم الذي أصبحت تذم لألفيت معتقلا (١) عنزا يسرك غزرها(٢) ويسؤك بكؤها (٣) فقال عمرو :

هي فلتة المغضب . وهي عندك بأمانة (٤) ، وعند البلاذري (وأجابه ابن مسلمة : لا أذكر شيئا مما جرى بيننا وعمر حي)(٥) .

ثم أحضره ماله فقاسمه إياه ثم رجع .

فمنطق عمر رضي الله عنه أن التجار يحاولون إرضاء الأمراء والإتجار معهم ليسهلوا لهم أمورهم ويضمنون أرباحهم ولذلك سرعان ما يثري هؤلاء الأمراء من وراء التجارة قد فعل هذا عمررضي الله عنه مع ابنه عبد الله الذي لم يكن أميرا انما هو ابن أميرالمؤمنين حين أمره بالصدقة بإبله لأنها ابل ابن أمير المؤمنين وكان محمد بن مسلمة هو الممثل الشخصي للخليفة عمر . وهو الذي ينفذ أمره فهورئيس استخباراته كذلك ، ولم يجرؤ عمرو الوالي أن يمتنع عن التنفيذ وإن كان عبرَّ عن

---

(١) معتقلا : رابطا .

(٢) غزرها : درةُ لبنها .

(٣) بكؤها : قلة لبنها .

(٤) فتوح مصر لابن عبد الحكم/ ١٤٦ .

(٥) فتوح البلدان للبلاذري / ٣١٤ .

استيائه غاضبا على غير عهده فهو حليم قلما يستثار ولكنه فقد اتزانه وهو يرى مصادرة نصف ماله فذكر ثروته التي جمعها بعرق جبينه في الجاهلية والإسلام وذكر أيام كان أبوه العاص بن وائل يحتمي عمر بن الخطاب فيه وأيام كان العاص سيد مكة ثراء وكان الخطاب بن نفيل أبو عمر يحمل الحطب على حمار له بمكة ، وها هو اليوم يصادر نصف ماله لخزينة الدولة غير أن رئيس مخابرات دولة الإسلام كان من الاستقامة والفقه لدين الله ما جعل عمرو بعض أصابعه ندما على تفلت هذا الكلام منه في غضبه وكان جواب محمد بن مسلمة رضي الله عنه جواب مفحم لعبقري الأمة في البلاغة والحجة لعمرو بن العاص الذي كان يضرب عمر بن الخطاب المثل فيه في الحجة حين يرى عييا فيقول : سبحان الله ، خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد .

قال له : أبوك وأبوه في النار وعمر خير منك ولولا اليوم الذي أصبحت تذم لألغيب معتقلاً عنزًا يسرك غزرها ويسؤك بكؤها فهذا هو مستوى هذه الأمة في الجاهلية وقبل أن تدخل نطاق هذا العالم وهي منسية في ذاكرة التاريخ ممحية منه يعالج عبقريها عنزه ويحلم في المساء حين يحلب لبنها ويشربه ابتداء ويؤذيه بكؤها وانقطاع اللبن منها .

وأحس عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه وقع بين براثن الأسد فاعتذر لغضبه فعذر لكن المال انقسم ومضى به محمد بن مسلمة إلى أمير المؤمنين .

وقد دعا أحد الشعراء عمر رضي الله عنه الخليفة إلى تقاسم أموال أمرائه مشيرا الى أ ن هذا الثراء الغريب الذي ظهر لديهم رغم بعدهم من الحرام أو الاغتصاب إنما في تقديم الناس لهم في التعامل معهم (وكان سبب مقاسمة عمر بن الخطاب العمال كما حدثنا أبو الأسود النضر بن عبد الجباروعبد الملك بن

مسلمة عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن خالد بن الصعق قال شعرا كتب به الى عمر بن الخطاب .

أبلغ أمـــيـــرالمؤمنين رســـالـة — فـــأنت ولـي ا لله فـي المال والأمـــر

فــلا تدعن أهل الرســاتيق[1] والجرى — يسـيـفـون مـال الله في الأُدْم الوفـر

فارسل الى النعـمان[2] فـاعلم حسـابه — وأرسل إلى جزء[3] وأرسل إلى بشر[4]

ولا تنسين النافــعــيين[5] كليـهـمـا — وصهربني[6] غــزوان عنـدك ذا وفـــر

ولا تدعـــونّي لـلشـــهـــادة إنـني — أغــيـب ولـكنـي أرى عـــجب الـدهر

من الخيل كالغزلان والبيض كـالدمى — ومـا لـيس ينسى من قـرام ومن سـتـر

ومن ريطة مطوية في صـيـــانهـــا — ومن طي أسـتـار مـعـصـفـرة خـمـر

إذ التــاجــر الهندي جـــاء بفـــارة — من المسك راحت في مـفارقـهم تجري

نبـيـع أذا باعــوا ونغـــزو إذا غـــزوا — فـــأنى لـهم مـــال ولسنـا بذي وفـــر

فـقــاســمـهـم نفـسي فـداؤك إنهم — سيرضـون إن قاسـمتـهـم منك بالشطر

---

(١) أهل الرساتيق . أهل الأراضي .

(٢) النعمان هو . لعله النعمان بن نضلة والي عمر على ميسان أو النعمان بن مقرن والي كسكر .

(٣) جزء : هوجزء بن سهيل السلمي وكان واليا على العجم .

(٤) بشر : بشر بن عبد الله وجهه عمر بن الخطاب وسعد وولاه سعد على قيس

(٥) النافعين : نافع بن عبد القيس الفهري وكان واليا على برقة ونافع بن علقم والي مكة .

(٦) صهر بني غزوان : نافع بن الحارث الثقفي .

(٧) القرام : الستار الأحمر .

(٨) الربطة . الثوب الرقيق اللين .

(٩) فارة المسك : قطعة المسك التي تفور منها رائحته .

(١٠) المفارق . الأعناق .

(ويقال إن قائل هذه الأبيات كما حدثنا معاوية بن صالح عن يحيى بن معين عن وهب بن جرير عن أبيه عن الزبير ابن الخريت أبو المختارالنميري قال ... ولا تدعوني للشهادة إنني أغيب ولكني أرى عجب الدهر قال عمر فإنا قد أعفيناه من الشهادة ونأخذ منهم نصف أموالهم فأخذ النصف وكان عمر قد استعمل هؤلاء الرهط)[1] .

أزمة بين أمير المؤمنين وعمرو بن العاص :

وإذا كان الحدثان السابقان ينمان عن العدل عند أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه فالحدث الثالث يعطي صدى للبناء النفسي عند أمير مصر الذي يمكن أن يضحي بمنصبه ولا يضحي بعدله هذه الأزمة كانت حول خراج مصروجزيتها .

وننقل حول الجزية رأي المقوقس فيها عندما أمره قيصرالروم بقتال المسلمين فكان مما قاله : (... واعلموامعشر الروم والله إني لا أخرج مما دخلت فيه وصالحت العرب عليه وإني لأعلم أنكم سترجعون غداً إلى رأيي وقولي وتتمنون أن لو كنتم أطعتموني وذلك إني قد عانيت ورأيت وعرفت ما لم يعاين الملك ولم يره ولم يعرفه ، ويحكم أما يرضى أحدكم أن يكون آمنا في دهره على نفسه وماله وولده بدينارين في السنة ؟؟!! [2] مع خضوعهم للحاكمية الإسلامية .

وهذه هي فلسفة الجزية في الإسلام وخلاصتها كما قدمهما المقوقس ؛ أن يتعهد المسلمون حماية البلاد والعباد على دينارين في السنة .

(حدثنا عبد الملك بن مسلمة حدثنا ابن لهيعة عن يحي بن ميمون الحضرمي قال : لما فتح عمرو بن العاص مصر صالح جميع من فيها من الرجال من

(١) فتوح مصر وأخبارها / ١٤٨ .

(٢) المصدر نفسه / ٧١.

القبط ممن راهق الحلم إلى ما فوق ذلك ليس فيهم امرأة ولا شيخ ولا صبي فأحصوا بذلك على دينارين ودينارين فبلغت عدتهم ثمانية ألف ألف) (١) .

هذا عن الجزية على الأشخاص فماذا عن خراج الأرض .

(قال : ثم رجع الحديث إلى موسى بن أيوب ورشدين بن سعد عن الحسن بن ثوبان عن حسين بن شفي ان عمرا لما فتح الاسكندرية بقي من الأسارى فيها ممن بلغ الخراج وأحصي يومئذ ستمائة ألف سوى النساء والصبيان فاختلف الناس على عمرو في قسمهم فكان أكثر المسلمين يريدون قسمها فقال عمرو : لا أقدر على قسمها حتى أكتب إلى أمير المومنين فكتب اليه يعلمه بفتحها وشأنها وأن المسلمين طلبوا قسمها فكتب اليه عمر : لا تقسمهم وذرهم يكون خراجهم فيئا للمسلمين وقوة لهم على جهاد عدوهم . فأقرها عمرو وأحصى أهلها وفرض عليهم الخراج فكانت مصر كلها صلحا (٢) بفريضته دينارين دينارين على كل رجل لا يزاد على أحد منهم جزية رأسه أكثر من دينارين إلا أنه يلزم بقدر ما يتوسع به من الأرض والزرع إلا الاسكندرية فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد ولم يكن لهم صلح ولا ذمة)(٣) .

لم يكن هناك خلاف حول الجزية وواردها فواردها ثابت إلى بيت المال بعد الإحصاء الشامل انما الخلاف في الخراج الذي يختلف حسب غلة الأرض وسعتها وجدب العام وخصبه . وهنا كان موطن الخلاف ين الأميرين .

---

(١) المصدر نفسه / ٧٠ .

(٢) هناك رأي أن مصر فتحت عنوة كلها كما روى ابن الحكم قال : سمعت أشياخنا يقولون إن مصر فتحت عنوة بغيرعقد ولا عهد المصدر نفسه / ٨٩ .

(٣) فتوح مصر وأخبارها / ٨٤ .

لقد بقيت الأرض للعاملين فيها لأهلها الأصليين وعندما فكر معاوية رضي الله عنه باقطاع بعضها الي بعض المسلمين لم يستقم الأمر لهذا السبب .

فعن حبيب بن وهب قال : (كتب عقبة بن عامر الى معاوية يسأله يقيعا في قرية فيبنى فيه منازل ومساكن فأمر له معاوية بألف ذراع في ألف ذراع فقال له مواليه ومن كان معه : انظر إلى أرض تعجبك فاختط فيها وابني فقال :

إنه ليس لنا ذلك لهم في عهدهم ستة شروط ، منها أن لا يؤخذ من أرضهم شيء ولا يزاد عليهم ولا يكلفوا غير طاقتهم ، ولا تؤخذ ذراريهم ، وأن يقاتل عنهم عدوهم من ورائهم) [1] .

أما كيف كانت جباية الخراج فكانت على الشكل التالي :

قال : (وكان عمرو بن العاص لما استوسق[2] له الأمر أقر قبطها على جباية الروم . وكانت جبايتهم بالتعديل إذا عمرت القرية وكثر أهلها زيد عليهم وإن قلّ أهلها وخربت نُقصوا فيجتمع عرفاء كل قرية وما روتها ورؤساء أهلها فيتناطرون في العمارة والخراب حتى إذا أقرو منم القسم بالزيادة انصرفوا بتلك القسمة إلى الكور ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى فوزعوا ذلك على احتمال القرى وسعة المزارع ثم ترجع كل قرية بقسمهم فيجمعون قسمهم وخراج كل قرية وما فيها من الأرض العامرة فيبذرون فيخرجون من الأرض فدادين ؟ وحماماتهم ومعدياتهم من جملة الأرض ثم يخرج منها عدد الضيافة للمسلمين ونزول السلطان فاذا فرغوا نظروا الى ما في كل قربة من الصناع والأجراء فقسموا عليهم بقدر احتمالهم فإن كانت فيها جالية قسموا عليها بقدر احتمالها وقل ما كانت تكون إلا الرجل

---

(١) المصدرنفسه / ٨٦ .

(٢) استوسق : تمكن واستقر .

المنتاب أو المتـزوج . ثم ينظرون إلى ما بقي من الخرا ج فـيقسمـونه بينهم على عدد الأرض ثم يقـسمـون ذلك بين من يريد الـزرع منهم على قـدر طاقتـهم فـإن عجـز أحدهم وشكا ضـعفا عن زرع أرضـه وزعوا ماعجـز عنه على الاحتمـال وان كان منهم من يريد الزيادة أعطي مـا عجـز عنه أهل الضعف فـان تشاحـوا قسـموا ذلك على عدتهم وكانت قسمتهم على قراريط الدينار أربعة وعشرون قيراطا) .

لقد كـان مكمن الخلاف بين أميـر المؤمنين وواليه على مـصرهو حرص أمـير المؤمنين على وصول الخراج كاملا كما كان في عهد الروم حتى لا يستأثر به الأمير وكتب اليه بذلك بقوله :

(فلما استبطأ عمر بن الخطاب الخراج من قـبل عمرو بن العاص كما حدثنا عبد الله بن صالح بن سعد كتب إليـه : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أميرالمومنين إلى عمرو بن العـاص : سلام عليك . فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو . أمـا بعـد : فإني فكرت فـي أمرك . والذي أنت عليه . فـإذا أرضك أرض واسعـة عريضة رفيـعة قد أعطى الله أهلهـا عددا وجلدا وقوة في بر وبحر وإنهـا قد عالجتها الفراعنة وعملوا فيها عمـلا محكما مع شدة عتوهم وكفرهم فعجبت من ذلك وأعجب ماعـجبت أنها لا تؤدي نصف ماكانـت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قـحوط ولا جدوب ولقد أكـثرت في مكاتبك في الذي على أرضك من الخراج وظننت أن ذلك سيأتينا على غير نزر [١] ، ورجوت أن تفيق فترفع إلى ذلك فإذا أنت تأتيني بمعاريض [٢] تعتالها[٣] لا توافق الذي في نفسـي ولست قابلا منك

---

(١) على غير نزر : على غير قلة .

(٢) معاريض : خلاف التصريح .

(٣) تعتالها : تتعلل بها .

دون الذي كـانت تؤخذ به من الخـراج قبـل ذلك ولست أدري بعد ذلك مـا الذي أنفرك من كـتابي وقبضك فـلئن كنت مجزئا كافـئا صحـيحاً إن البراءة لنافـعة وان كنت مضيعا نطفا(١) ان الأمر لعلى غير ماتحدث به نفسك قد تركت أن ابتلى ذلك منك في العام الماضي رجاء أن تفيق فـترفع الي ذلك . وقد عُلمت أنه لم يمنعك من ذلك إلا عمـالك عمـال السوء ومـا تُوالسوا(٢) عليه وتلفـف . اتخذوك كهـفاً(٣) وعندي بإذن الله دواء فـهو شفـاء عما أسـألك عنه فلا تجـزع أبا عبـد الله أن يؤخذ منك الحق وتعطاه فإن النهز(٤) يخرج الدر والحق أبلج فدعني ومـاعنه تلجلج فانه قد برح الخفاء والسلام.

ولم يكن عمر رضي الله عنه ليغضي عن أمير مهما كان شأنه ولم يكن هناك أميـر أكبر من الحسـاب ولو كان شديدا قـاسيا ، لأنه يأخـذ نفسه بهذه الشـدة فلا عجب أن يكون كلذع النار عـلى عماله خوفـا من ظلمهم واستـئثارهم وكل أمـير متهم حـتى يثبت براءته عكس التعـامل مع أفراد الأمة فكل فرد في رعـيته لا بد أن يصله الحـق من هذا المال ولو كـان في أقـصى الأرض لكن مع الولاة فـلا بد أن يتعـرف منهم على كل درهم ويتأكـد من وضع صرفه من أين اكـتسب وأين أنفق وهذا ما جعل الكتـاب المذكور شديد اللهجة وعنيفهـا لاحتمال كتاب سـبقه كان أخف منه لهجة لم يجد الجواب الشافي له فيه .

فأجابه عمرو بن العاص :

(فكتب إليه عمرو بن العاص : بسم الله الرحمن الرحـيم لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عمرو بن العاص : سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو أما بعد :

---

(١) نطفا : متهما بريبة .

(٢) توالس : تخادع .

(٣) كهفًا : ملجأً .

(٤) النهز : شده الاستخراج .

فقد بلغني كتاب أمير المؤمنين في الذي استبطأني فيه من الخراج والذي ذكر فيها من عمل الفراعنة قبلي وإعجابه من خراجها على أيديهم ، ونقص ذلك منها منذ كان الإسلام ولعمري للخراج يومئذ أوفر وأكثر والأرض أعمر لأنهم كانوا على كفرهم وعتوهم أرغب في عمارة أرضهم منا منذ كان الإسلام .

وذكرت أن النهر يخرج الدر فحلبتها حلبا قطع ذلك درّها . وأكثرت في كتابك ، وأنبت وعرضت وثرّبْت وعلمت أن ذلك عن شيء تخفيه على غير خُبَر فجئت لعمري بالمفظعات المقذعات ولقد كان لك فيه من الصواب من القول رصين صارم بليغ صادق وقد عملنا لرسول الله ﷺ ولمن بعده فكنا مؤدين لأماناتنا حافظين لما عظم الله من حق أئمتنا . نرى غير ذلك قبيحا والعلم به سيئا فيعرف ذلك لنا ويصدق فيه قبلنا معاذ الله من تلك الطعم ومن شر لشيم والاجتراء على كل مأثم . فاقبض عملك فإن الله قد نزهني عن تلك الطعم الدنية والرغبة فيها بعد كتابك الذي لم تستبق فيه عِرْضا ولم تكرم فيه أخًا والله يا بن الخطاب لأنا حين يراد ذلك مني أشد لنفسي غضبا ولها إنزاها وإكراما وماعملت من عمل أرى عليَّ فيه متعلقا ، ولكني حفظت ما لم تحفظ ، ولو كنتُ من يهود يثرب ما زدت يغفر الله لك ولنا وسكتُّ عن أشياء كنت بها عالما . وكان اللسان بها مني ذلولا ولكن الله عظم من حقك ما لا تجهل والسلام) .

لقد كان جواب أمير مصر بعنف جواب أمير المؤمنين وكان يدور حوله الدفاع عن نفسه ، ورفض الاتهامات الموجهة إليه واستعداده للتخلي عن مصر إذا أصر أمير المومنين على هذه الاتهامات وأنه كان ثقة عند سلفيه محمد رسول الله ﷺ وأبي بكر الصديق وما اتهماه هذا الاتهام ولولا عظم حق أمير المؤمنين عليه لكان الجواب أعنف وآلم لكنه لم يكن جوابا مباشرا على الموضوع نفسه عن

استبطاء الخراج ونقصه عن غلته المعهودة ولم يكن الجواب كافيا ومقنعًا لأمير المؤمنين بأن همة الفراعنة أعظم والأرض أخصب ولم يكن لأمير المومنين مندوحة أن يتغاضي عن شقشفة الكلام ليصل إلى لب الموضوع . فلا يغضب لنفسه إنما يبحث عن الجواب الشافي لتأخر الغلة ونقصانها فكان الجواب الثاني أو الثالث التالي :

(فكتب إليه عمر بن الخطاب ـ كما وجدت في كتاب أعطانيه يحيى بن عبد الله بن بكير عن عبد الله بن أبي جعفر عن أبي مرزوق التجبي عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص .

من عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص وسلام عليك فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد فقد عجبت من كثرة كتبي إليك في إبطائك بالخراج ، وكتابك إليَّ ببنيات الطرق وقد علمت أني لست أرضى منك إلا بالحق المبين . ولم أقدمك إلى مصر أجعلها لك طعمة ولا لقومك ولكني وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك . فإذا أتاك كتابي هذا فاحمل الخراج ، فإنما هو فيء المسلمين ، وعندي من قد تعلم قوم محصورون والسلام .

فكتب إليه عمرو بن العاص : بسم الله الرحمن الرحيم لعمر بن الخطاب من عمرو بن العاص ، سلام عليك . .فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد فقد أتاني كتاب أمير المؤمنين يستبطئني في الخراج ويزعم أني أعند عن الحق وأنكب عن الطريق وإني والله ما أرغب عن صالح ما تعلم ولكن أهل الأرض استنظروني إلى أن تُدرك غلتهم فنظرت للمسلمين فكان الرفق بهم خيرا من أن يُخرق بهم فيصيروا إلى بيع ما لا غنى بهم عنه والسلام .

لقد كانت حجة عمرو رضي الله عنه في هذا الكتاب واضحة في الرد على استبطاء الخراج ، وكان الكتاب متناسبا مع مقام أمير المؤمنين لكن عملية نقص الواردات تحتاج الى تحقيق فلا تزال التساؤلات قائمة .

(حدثنا عبد الله بن صالح عن الليث بن سعد أن عمر أجباها اثني عشر ألف ألف قال غير الليث وجباها المقوقس قبله بسنة عشرين ألف ألف فعند ذلك كتب إليه عمر ما كتب) .

أما التحقيق فكان على الصيغة التالية :

(حدثنا هشام بن إسحاق العامري قال : كتب عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص أن يسأل المقوقس عن مصر من أين تأتي عمارتها وخرابها فسأله عمرو فقال له المقوقس :

تأتي عمارتها وخرابها من وجوه خمسة : أن يُستخرج خراجها في إبان واحد عند فراغ أهلها من زروعهم ويرفع خراجها في إبان واحد عند فراغ أهلها من عصر كرومهم وتحفر في كل سنة خلجها وتسد ترعها وجُسُرُها ولا يقبل محل أهلها (يريد البغي) فإذا فعل هذا فيها عُمرت وان عُمل فيها بخلافه خربت لقد أدرك رضي الله عنه من جواب المقوقس أن عمارة الأرض هي الأصل وليست عمارة الانسان . فلا بد من جمع هذا المبلغ من المال سواء كان أهلها قادرين عليه أم لا . فلا يُقبل محل أهلها بينما يشير عمر في كتابه السابق الى الخليفة أن عمارة الإنسان هي الأصل(ولكن أهل الأرض استنظروني إلى أن ندرك غلتهم فنظرت للمسلمين فكان الرفق بهم خيرا من أن يُخرق بهم فيصيروا إلى بيع ما لا غنى لهم عنه) .

واشارة عمرو رضي الله بنظرة الثاقب البعيد الي أن عمارة الأرض جزء من عمارة الانسان لتدل على مدى فهمه للواقع الذي يعيشه فالبغي مرتعة وخيم وإن بدا ابتداء محققا لمصلحة الأمة .

ومع هذا فلم يكتف عمر رضي الله عنه بهذا التحقيق الذي تم بصورة غير مباشرة مع أمير سابق لمصر فأعاد التحقيق مع شريحة من الشعب يمثلها أحد كبار العاملين الأقباط في الأرض .

---

(١) فتوح مصر وأخبارها / ١٦٠ - ١٦١ .

(٢) المصدر نفسه / ١٦١ .

(وفي كتاب ابن بكير الذي أعطاني عن ابن زيد بن أسلم عن أبيه قال :

لما استبطأ عمر بن الخطاب عمرو بن العاص في الخراج كتب إليه أن ابعث إلى رجلا من أهل مصر فبعث اليه رجلا قديما قديما من القبط فاستخبره عمر عن مصر وخراجها قبل الإسلام فقال :

يا أمير المؤمنين ! كان لا يؤخذ منها شيء الا بعد عمارتها وعاملك لا ينظر الى العمارة . وإنما يأخذ ما ظهر له كأنه لا يريدها الا لعام واحد فعرف عمر ما قال وقيل من عمرو ما كان يعتذر به فقد توافقت الاجابات بين الحاكم والمحكوم عن وضع الجباية قبل الإسلام اذ لا يتعاملون على الظاهر انما يتعاملون من خلال مبلغ من المال يجب أن يجبى سواء كان العاملون الكادحون قادرين على تأديته أم لا لتحقيق عمارة الأرض والاستئثار بالباقي أم أنهم سيضطرون الى الاستدانة أو بيع أملاكهم لتقديم ما وجب عليهم تأديته .

وأدرك عمر رضي الله عنه طينة عمرو وأن هذه الأزمة كلها بينه وبين الأمير إنما سببها مصالح الفئة الكادحة الصابرة من القبط وعدم إرهابهم بالسوط والخوف وهو ما يثلج صدر أمير المؤمنين .

الحرية الدنيية واعتناق الإسلام :

وندع الحديث في هذه الفقرة الهامة إلى الأستاذ أبي رابية فقد حللها تحليلارائعا معتمدا العديد من المصادر الغربية والعربية في ذلك .

يقول : (ثانيا : سياسية عمرو الدينية : كفالة الحرية الدينية للأقباط .

ورث عمر بن العاص عن حكم الروم في مصرتركة مثقلة بالاضطهاد الديني

لليعاقبة[1] الأقباط من قبل حكامهم الرومان الذين يخالفونهم في مذهبهم وإن ما أصاب القبط من الوطء والعسف في محنة تطاولت مدتها نحو عشر سنين على يد الأسقف قيرس كان مخيفارهيبا فقد كان هذا الأسقف الملكاني [2] لا يعرف الرحمة ولا تخطر على قلبه هوادة . وكان بطريق القبط بنيامين لا يزال على اختفائه طريدًا يضرب في أنحاء الصعيد ويهيم على وجهه فيه بعد أن خلف كرسي الأسقفية القبطية وراءه في الإسكندرية موصيا شعبه بالصبروالجلد على صنوف العسف والاضطهاد ورهبانه بالاعتصام في الصحراء وكهوف الجبال أما قلبه فكان يتلظى بالرغبة في الانتقام من الروم الذين أذاقوه وشعبه صنوف العسف والتعصب المقيت .

ولقد دامت هذه الشدة العظمى التي ابتلي بها القبط طيلة السنوات العشر بحيث أصبح كل أصل بعدها في الصلح والسلام بين القبط والروم محالاً لا سبيل إلى نشره ، وحلما يبعد تحقيقه . أما عمرو فقد كان يعي هذه الحقيقة جيدا كان يعرف أنه لكي يحكم مصر حكما مستنيرا يقبله المصريون جميعا فلا بد أن يقوم حكمه هذا على نهج العدل . وأن يضع مصلحة أهل مصر كافة نصب عينيه فإن لعوامل الاستقرار النفسي أثرا ضخما في إحساس المصريين بالطمأنينية والعدالة فإذا ما شعروا بهذ كله ، أخلدوا طواعية للحكم الإسلامي الجديد .

---

(١) اليعاقبة : هم أتباع الأسقف ديسفورس الذي يقول إن المسيح جوهر من جوهر بن وأقنوم من أقنومين وقد اختلف في تسمية اليعقوبية بهذا فقيل إن ديسقورس كان يسمي قبل بطريكية يعقوب وأنه كان يكتب وهو منفي إلى أصحابه بأن يثبتوا على أمانة المسكين المنفي يعقوب (الخطط للمقريزي٣/٩٥٢٩ .

(٢) الملكاني : نسبة إلى الملكانية وهي ديانة الملك مرقيا نوس ملك الروم الذي يرى أن المسيح جسد وقد فرض مذهبه هذا على شعبه المصدر نفسه / ٥٢٩ .

ولما لم يكن للحكام الجدد من المسلمين اهتمام بالمنازعات المذهبية وأحزاب المجامع الكنسية .رأى عمرو أن من حسن السياسة ألا يفرق بين الملكانية واليعقوبية. فلم يتحيز لأحد من الطرفين . بل أقر الحرية الدينية ورفع الاضطهاد على القبط ، وأظل الفريقين بعد له ، وحماهما بحسن تدبيره ، فعادت الحياة إلى المذهب اليعقوبي في هذا الجو الجديد ، جو الحرية الدينية حتى صار المذهب السائد في مصر كلها .

ولما عرف رهبان القبط هذا الأمر من عمرو بن العاص وتيقنوه . خرج عدد عظيم منهم من الأديرة التي كانوا قد اعتصموا بها خوفا من الاضطهاد والعسف ، وساروا في نحو من سبعين ألفًا كما يروي المقريزي [(١)] كل منهم يحمل في يده عصا إلى عمرو ويعلنون له الطاعة ، فأحسن لقاءهم ورحب بهم .

وكان عمر بن العاص من جهة أخرى حريصا على أن يعود البطريق بنيامين إلى رياسته الدينية لما عرف من محبة القبط له وتعلقهم به ، لذلك أرسل عمرو كتابا إلى بنيامين يقول فيه : (أينما يكون بطريق القبط بنيامين نعده بالحماية والأمان في عهد الله ، فليأت البطريق إلى هنا في أمان واطمئنان ليلي أمر ديانته ، ويرعى أهل ملته)[(٢)] أو كما جاء في عهد الأمان هذا في كتاب أبي صالح الأرمني (فليأت الشيخ البطريق آمنا على نفسه ، وعلى القبط الذين بأرض مصر والذين في سواها لا ينالهم أذى ، ولا تخفر لهم ذمة)[(٣)] .

---

(١) المقريزي الخطط ١/ ١٨٧ .

(٢) راجع سايروس / ١٠٦ . فتح العرب لمصر للدكتور بطلر / ٣٢٣ .

(٣) أبوصالح الأرمني : كتاب الجناح / ٢٣١ .

ولم يلبث عهد الأمان الذي كتبه عمرو بن العاص أن بلغ البطريق بنيامين ، فعاد من مخبئه ودخل الاسكندرية دخول الظافرين وفرح الناس برجوعه فرحا شديدا بعد غياب بلغت مدته ثلاثة عشرعاما ومن هذه المدة عشر سنين وقع فيها الاضطهاد الأكبر للقبط علي يد قيرس والثلاث الباقية في مدة حكم المسلمين [١] .

ولما استقر المقام بالشيخ البطريق بين أتباعه دعاه عمرو إليه . وأمر بأن يقابل بما يليق من الترحاب والتكريم وقد كان البطريق بنيامين ذا هيئة جميلة تلوح عليه سيماء الوقار والجلال وتحدث بنيامين إلى عمرو وكان عذب المنطق في تؤده ورزانة، فكان لذلك أثرعظيم في نفس عمرو حتى قال لأصحابه : إنني لم أر يوما في بلد من البلاد التي فتحها الله علينا رجلا مثل هذا بين رجال الدين ، وقد قيل إن بنيامين قال عند ذلك خطبة جليلة [٢] ولا شك أن عمرا لم يفهم من ذلك حرفا[٣] ولكنه عندما عرف ما يقصده وفهم مراميه أحسن تلقيها وقبولها وجعله أميرا على قومه لا يدافع فيهم أمره وجعل له ولاية أمر دينهم .

وخرج البطريق الشيخ من حضرة الفاتح الإسلامي ممتلىء النفس غبطة وابتهاجا وعاد إلى الإسكندرية وهو يلهج بحمده والثناء عليه . فكان لعودته إلى كرسي مرقس الرسول رنة طرب في قلوب أهل مصر جميعا فقد عاد لهم الراعي القديم ونالوا على يديه تاج الاعتراف)[٤] وأخذ بنيامين يقول لأتباعه : « عدت إلى بلدي الإسكندرية فوجدت بها أمنا من الخوف واطمئنانا بعد البلاء ، وقد صرف

(٤) يذكر المقريزي ٣ / ٢٥١ أن هذه الثلاث عشر سنة التي غاب فيها بنيامين عن كرسي بطريكية منها في ملك فارس لمصر عاش عشر سنين ، وباقيها بعد قدوم هرقل الى مصر .

(٢) د . بطر فتح العرب لمصر / ٣٢٤ .

(٣) هذا من الغمز فالمترجمون يقومون بنقل معانيها إليه .

(٤) ساويرس الكتاب الأول / ١٠٧ .

الله عنا اضطهاد الكفرة وبأسهم » [١] ولم تكن الأيام لتزيده إلا ثناء وحمدا فقد اجتمع القبط من حوله يقيمون شعائرهم الدينية في حرية دون خوف أو وجل فأصلح كنائسهم وذهب إلى أديرتهم المتناثرة في أعماق الصحراء فكانوا يقابلونه في مواكب يحملون فيها بين يديه المباخر وسعف النخل .

وقد بلغ من ابتهاج القبط بعودة الحرية الدينية إليهم مبلغا يعبر عنه ساويرس بقوله : « بأنهم فرحوا كما تفرح الأسخال (صغار المعاز) إذا حلت قيودها وأطلقت لترشف من لبان امهاتها » [٢] .

ولم يكن الملكانيون ضد المصريين والروم الذين أقاموا في مصر أقل تمتعا بحريتهم الدينية من القبط حقا إن الملكانيين كانوا قلة الى جانب اليعاقبة الأقباط، وإن عددا كبيرا من القبط الذين انتقلوا أيام الإرهاب إلى المذهب الملكاني لم يلبثوا حين عادت لهم حريتهم الدينية أن رجعوا إلى مذهبهم الأول والتفوا حول أسقفهم بنيامين لكن آخرين من القبط الذين انتقلوا الى المذهب الملكاني أصروا عليه فلم يسمح الحكم الإسلامي بحملهم قسرا على تغييره . ويذكر الأسقف ساويرس في كتابه أن أسقفا ملكانيا بقي على مذهبه حتى مات ولم يمسه أحد بأذى كما بقيت كثير من كنائس الملكانيين وأتباعها إلى ما بعد الحكم الإسلامي في الخمسين عاما ثم تناقصوا من بعد لأنهم شعروا بأن صلاتهم الاجتماعية تقتضيهم الدخول في مذهب اليعاقبة ، مذهب الجماعة ولأن من بقي من الروم في مصر آثر أن يندمج مع أهلها فاعتنق اليعقوبية مذهب الكثرة أو الإسلام دين الحكام المسلمين الجدد .

---

(١) ساويروس الكتاب الأول .

(٢) المصدرالسابق / ١١١ .

وكان من أثر هذه الحرية الدينيـة التي أطلق عمرو بن العاص عقـالها أن أقبل كثـيرون من عـقلاء الروم والمصـريين الأقبـاط على النظر في المذاهب المختلـفة ، ثم انتـهى أكثـر هؤلاء إلى قـبول الإسـلام والدخول فـيـه فقـد رأوا في تنازع المذاهب المسيحـية واضطهاد بعضـهم البعض ما زهدهم فيـها وجعلهم يلتمـسون من طريق الحرية العـقلية سبيـلا الى عقيدة يؤمنون بهـا مختارين دون ضـغط أو إرهاب وكان الإسلام في عـهده ا لأول يدعـو الى النظر في الكون نظرا حـرا مطلقا من كل قـيد فلم تكن قد نشـأت فيه المذاهب والفرق الدينيـة ولم يكن أهله قد عرفوا الـتعصب الذميم لمذهب مـن المذاهب أو شيعـة من الشيع ، بل كان بـاب الاجتهـاد مفتـوحا لكل ذي عـقل وبصيـرة وكان مـا ورد في القـرآن الكريم من المبادىء البـالغة غـاية السمو باباً إلى الإقبال عليه والاطمئنان إليه

وقد تداول بعض المؤرخين والكتاب من المسيـحيين في مؤلفاتهم أن المصريين الأقـباط الذيـن اعتنقـوا الإسـلام في ذلك العـهد انما اعـتنقـوه ليـتسـاووا بالفـاتحين المسلمـين في الحـقـوق والواجـبـات ولـكن ذلك لا يصـدق إلا على القلـة منهم أما كـثرتهم فقد دانت بـالإسلام عن بينة وإيمان ولا عجب في ذلك فـفطرة المحافظة على العقيدة الدينية أقوى في النفس مـن أن يزلزلها مثل هذا الاعتباروليس من شك في أن الذين أسلمـوا من الأقـبـاط فكروا مـلياً بكل الصـدق مع أنفسـهم ووازنوا عقـيدتهم القـديمة وعقيـدة المسلمين الفاتحين فـأثروا الدين الجديد عن رضـا واقتناع وإيمان شامخ وصـدق الدكتور بطلر في قوله وليس من العـدل أن يقال إن كل من أسلم من القـبط انما يقـصـد الدنيـاوزينتهـا وإذا كـان منهم من أسلم طمـعـا في أن يتساوى بالمسلمـين الفاتحين حتى يكون له ما لهـم وينجـو من دفع الجزية . فإن هذه المطامع ما كانت لتدفع الا من كانت عقيدتهم غيـر راسخة . أما الحقيقة المرة فهي أن كثيرين من أهل الرأي والحصافة قد كرهوا المسيحية لماكان من عصيان لصاحبها

إذ عصت ما أمر به المسيح من حب ورجاء في الله ونسيت ذلك في ثوراتها وحروبها التي كانت تنشب بين شيعها وأحزابها ومنذ بدأ لهؤلاء العقلاء لجؤوا الى الإسلام فاعتصموا بأمنه واستظلوا بوداعته وطمأنينته وبساطته)[1] .

ويبدو لنا في وضوح وجلاء مقدار عطف المسلمين الفاتحين وعلى رأسهم عمرو بن العاص على أقباط مصر بعد الفتح ما يجعلنا نحسه في أقوال الفاتح العربي وفي أفعاله ، وقد ذكره الإمام السيوطي (أن عمرو بن العاص في خطبة له بعد أن دعا الجند إلى الذهاب إلى الريف قال : واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيرا حدثنا عمر أمير المؤمنين أن سمع رسول الله ﷺ يقول : إن الله سيفتح عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خيرا ، فإن لكم منهم صهرا وذمة فعفوا أيديكم وفروجكم وغضوا أبصاركم)[2] كما ذكر المقريزي (أن من الثابت أن عمرو بن العاص أعاد البطريق بنيامين إلى كرسيه بالإسكندرية بعد أن ظل مبعدا ثلاث عشر سنة كما أنه أحسن استقبال رهبان أديرة وادي النطرون ومنحهم أمانا لأنفسهم وأديرتهم)[3] كذلك لم يعتد عمرو على الكنائس المسيحية .. خير شاهد على ذلك ماكتبه الأسقف حنا النقيوسي بعد الفتح بخمسين عاما وهولا يتورع عن أن يصف الإسلام بأشنع الأوصاف يتهم من دخل فيه بأشدالتهم ويقول في عمرو: (إنه تشدد في جباية الضرائب ولكنه لم يضع يده على شيء من ملك الكنائس ولم يرتكب شيئا من النهب والغصب بل إنه حفظ الكنائس وحماها إلى آخر مدة من حياته ...) [4] .

---

(١) د . بطلر ، فتح العرب لمصر / ٣٢٥ .

(٢) حسن المحاضرة للسيوطي ١/ ٦٧ .

(٣) المقريزي / الخطط ١/ ١٨٦ .

(٤) فتح العرب لمصر لبطلر / ٣٢٦ - ٣٢٧ .

ولا ينكر الباحث المنصف حسن معاملة العرب للقبط عند الفتح وبعده بل إن من المسيحيين في البلاد المفتوحة من أشادوا بعدل العرب وحسن معاملتهم وقد قيل إن أحد الأساقفة النطوريين بعد بدء الفتوحات العربية بنحو خمسة عشرعاما كتب يقول « إن العرب الذين وهبهم الله السيادة في أيامنا أصحبوا سادة لنا ولكنهم لا يحاربون الدين المسيحي فقط بل يحافظون على ديننا ويحترمون الأساقفة والقسسيين ويقدمون هدايا لكنائسنا وأديرتنا » [1] .

ثقة القبط بعدل الإسلام :

وقد لخص المقريزي تلخيصا جيدا وضع مصر يين يدي الفتح الإسلامي وبعده فقال : (اعلم أن أهل مصر لما دخلها الإسلام كانت بأجمعها مشحونة بالنصارى وهم على قسمين متباينين في أجناسهم وعقائدهم ، أحدهما أهل الدولة، وكلهم روم من جند صاحب القسطنطينية ملك الروم ، ورأيهم وديانتهم بأجمعهم ديانة الملكية (أو الملكانية) وكانت عدتهم تزيد على ثلثمائة ألف رومي.

والقسم الآخر عامة أهل مصر ويقال لهم القبط وأنسابهم مختلطة لا يتكاد يتميز منهم القبطي من الحبشي من النوبي من الإسرائيلي الأصل من غيره وكلهم يعاقبه : فمنهم كتاب المملكة ، ومنهم التجار والباعة ومنهم الأساقفة القسوس ونحوهم ومنهم أهل الفلاحة والزرع ، ومنهم أهل الخدمة والمهنة بينهم وبين الملكية أهل الدولة من العداوة ما يمنع مناكحتهم ويوجب قتل بعضهم بعضا ، ويبلغ عددهم عشرات آلاف كثيرة جدا . فإنهم في الحقيقة أهل مصر أعلاها وأسفلها .

---

(١) نقل هذا النص كاملا من كتاب عمرو بن العاص للأستاذ عبد الخالق سيد أبي راية من ٢٤٩ ـ ٢٥٥ مع بعض التصرف والعهدة على الراوي في صحته .

فلما قدم عمرو بن العاص بجيوش المسلمين معه إلى مصر ، قاتلهم الروم حماية لملكهم ودفعا لهم عن بلادهم فقاتلهم المسلمون وغلبوهم على الحصن كما تقدم ذكره فطلب القبط من عمرو المصالحة على الجزية فصالحهم عليها وأقرَّهم على مافي أيديهم من الأراضي وغيرها وصاروا عونا للمسلمين على الروم حتى هزمهم الله تعالى وأخرجهم من أرض مصر .

وكتب عمرو لبنيامين بطرك اليعاقبة أمانا في سنة عشرين من الهجرة فسره ذلك ، وقدم على عمرو وجلس على كرسي بطركيه بعدما غاب عنه ثلاث عشرة سنة منها في ملك فارس لمصر عشر سنين وباقيها بعد قدوم هرقل الى مصر فغلبت اليعاقبة على كنائس مصر ودياراتها كلها وانفردوا بها دون الملكية ..)[1] .

اضرب ابن الأكرمين :

وبلغت الثقة بعدل الإسلام عند القبط أن يمضي فرد من الأقباط عادي مغادرا مصر الى الحجاز ليشكو على ابن أمير مصر عمرو بن العاص حيث حسب أن هذا العدوان الذي تم عليه قد وقع بعلم والده . فلجأ إلى السلطة العليا سلطة الخليفة في الحجاز ليرفع ضربا ضربه ظلما عنه .

ها هو عمر رضي الله عنه يعلن منهجه ابتداء في الحكم بقوله على المنبر :

(... ألا إني إنما أبعث عمالي ليعلموكم دينكم ، ويعلموكم سنكم ولا أبعثهم ليضربوا ظهوركم ولا يأخذوا أموالكم ، ألا فمن أتي اليه شيء من ذلك فليرفعه إلي فوالذي نفس عمر بيده لأقصنه منه فقام عمرو بن العاص فقال : أرأيت يا أمير المؤمنين إن عتب عامل من عمالك على بعض رعيته فأدب رجلا من رعيته

---

(١) خطط المقريزي ٣ / ٥٣٤ ـ ٥٣٥ .

إنك لمقـصه منه ؟ قـال : نعم والذي نفس عـمـر بيده لأُقُـصنَّه منه ألا أقـصه وقـدر رأيت رسـول الله ﷺ يقص من نفسـه ؟ ألا لا تضـربوا المسلمين فـتـذلوهـم ، ولا تمنعـوهم حقـوقهم فـتكفـروهم ، ولا تجمـروا بهم فتـفتـنوهـم ولا تنزلوهـم الغيـاض فتضيعوهم).

وقد اشـتهـر هذا المنهج في الآفاق وعند جـماهيـر الأمة باختـلاف مشـاربها وأدبانها وأجناسـها (فأتى رجل من أهل مصـر كما حدثنا عن أبي عـبدة عن ثابت البناني [١] وحميد [٢]عن أنس الى عمـر بن الخطاب فقال : يا أميـر المؤمنين ! عائذ بك من الظلم . قال : عذت معـاذا قال : سابقت ابن عمرو العاص فسبـقته فجعل يضربـني بالسوط ويقـول : أنا ابن الأكرمين فكتب عـمر الى عـمرو يأمره بـالقدوم عليه ويقدم بابنه معه فقدم فقال عمر : أين المصري ؟ خذ السوط فاضرب . فجعل يضربه بالسـوط ويقول عمر : اضـرب ابن الأكرمين [٣] قال أنس : فضـرب فوالله لقـد ضـربه ونحن نحب ضـربه فـمـا أقلع حـتى تمنينا أنه يرفع عنه ، ثـم قال عـمـر للمصري : ضع على صلعة عمرو فقال :

يا أمير المؤمنين إنما ابنه الذي ضربني وقد اشتفيت منه فقال عمر لعمرو :

منذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟

قال : يا أمير المؤمنين : لم أعلم ولم يأتني)[٤] .

---

(١) ثقة عابد من الرابعة .

(٢) ثقة مدلس من الخامسة وهو أبوعبيدة كما في الرواية الأولى .

(٣) وفي مخطوطة أخرى للكتاب ابن الأمين .

(٤) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم / ١٦٧ - ١٦٨ .

تقديم الكفاءات :

ومن منطلق العدل الذي يؤمن به هو تقديمه للكفاءات بغض النظر عن الحسب والنسب والشهرة فقد أوكل الإمارة في الخراج حين مضى إلى المدينة شخصا مغمورا بين أصحاب السابقة والشهرة هو مولى لامرأة مسلمة .

(حدثنا عثمان بن صالح عن الليث بن سعد قال : عاش عمر بن الخطاب بعد فتح مصر ثلاث سنين ، قدم عليه عمرو فيها قدمتين . قال ابن عفير استخلف في إحداهما زكريا بن الجهم العبدري على الجند ومجاهد بن جبر مولى بني نوفل، ابن مناف على الخراج ، فهو جد معاذ بن موسى النفاط أبي اسحاق بن معاذ الشاعر فسأله عمر بن الخطاب : من استخلفت ؟ فذكر له مجاهد بن جبر فقال له عمر : مولى ابنة غزوان ؟

قال : نعم ، إنه كاتب فقال عمر : إن القلم ليرفع بصاحبه)[1] .

فلسفته في العدل :

وهو يرى أن أحوج الناس للعدل من كان تحت سلطته فهذه نظرة إلى حادثة جزئية في بيته تعطي فهمًا لشخصيته هو لمعنى العدل .

(فعن معاوية بن صالح عن أبي عمران الفلسطيني قال : بينا امرأة عمرو بن العاص تفلي رأسه إد نادت جارية لها فأبطأت عنها فقالت : يا زانية ! فقال عمرو: رأيتها تزني ؟ قالت : لا قال : والله لتضربن لها يوم القيامة ثمانين سوطا فقالت لجاريتها وسألتها تعفو فعفت عنها فقالت : هل تجزي عني ؟ فقال لها : وما لها لا تعفو وهي تحت يدك) فهو عفو العاجز الضعيف عن الثأر (فأعتقيها فقالت : هل

---

(١) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم / ١٧٦ .

تجزي عني ذلك ؟ قال : فلعل)[1] والقادر والسلطان هما مناط العدل الحقيقي فيمن تحت يدهما .

قيمة العدل في نفسه :

فالعدل عنده أعظم عطاء تُعطاه الأمة والظلم بالمقابل هو أعظم بلاء تبتلاه الأمة فعن سعيد بن عثمان حدثني أبو بكرقال ، قال عمرو لابنه :

يا بني إمام عادل خير من مطر وابل ، وأسد خطوم خير من إمام ظلوم ، وإمام ظلوم غشوم خير من فتنة تدوم)[2] .

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ١٣ / ٥٢٤ .

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ١٣ / ٥٢٤ .

مع عثمان من أمير المؤمنين

أول يوم من ولاية عثمان :

أول ما نلتقي مع عمرو وعثمان رضي الله عنهما في أول يوم من ولايته أميرا للمؤمنين وقد واجهته أدهى معضلة كادت تكون خلفها فتنة عظيمة ، هذه المعضلة هي قتل عبيد الله بن عمر بن الخطاب للهرمزان ومن معه دون بينة عنده على مشاركته في قتل أبيه ، وتحدي السلطان الذي بيده القصاص وكما عُرِف عن عمرو أنه للمعضلة . كان هو الذي حلها برأيه الحصيف البعيد الغور .

(وقد كان عمر قد أمر بسجنه (أي ابنه عبيد الله بن عمر) ليحكم فيه الخليفة من بعده ، فلما ولي عثمان وجلس للناس كان أول ما تحوكم إليه في شأن عبيد الله ، فقال علي ما من العدل تركه وأمر بقتله وقال بعض المهاجرين : أيقتل أبوه بالأمس ويُقتل هو اليوم ؟! فقال عمرو بن العاص : يا أمير المؤمنين قد برأك الله من ذلك قضية لم تكن في أيامك فدعها عنك .

فودى عثمان رضي الله عنه أولئك القتلى من ماله لأن أمرهم إليه إذ لا وارث لهم الا بيت المال)[1] .

وبذلك أنقذ عثمان رضي الله عنه من ذلك الحرج في أن يقتل عبيد الله بن عمر بعد قتل أبيه إذ أن قتل عبيد الله كان في غير سلطان عثمان وقبل أن تنعقد امارة المؤمنين له [2].

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٤/٧/١٥٤ .

(٢) المصدر نفسه / ١٥٠ .ولكن الأصح من ذلك ما رواه السري عن شعيب عن سيف عن أبي منصور قال: سمعت القماذبان يحدث عن قتل أبيه ، قال : كانت العجم بالمدنية يستروح بعضها إلى بعض . فمر فيروز بأبي ، ومعه خنجر له رأسان ، فتناوله عنه وقال : ما تصنع بهذا ؟ قال :"آنس به ، =

بين عمرو وعبيد الله بن أبي سرح وعثمان :

لقد كانت إمرة عثمان رضي الله عنه للمؤمنين وخلافته في رابع يوم من عام أربع وعشرين (ففي أول يوم من دفن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وذلك يوم الأحد في قول وبعد ثلاثة أيام بويع أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه) .

وكان عمرو رضي الله عنه والياً لمصر ولما ولي عثمان أقر عمرو بن العاص على عمله . وكان لا يعزل أحداً إلا من بشكاة أو استعفاه من غير شكاة ، وكان عبد الله بن سعد من جند مصر ..)(١) لكن كان يشاركه في الولاية على بعض أجزاء مصر كما عند ابن عبد الحكم في كتابه) .

(قال : فتوفي عمر رحمة الله عليه ، ومصر على أميرين عمرو بن العاص بأسفل الأرض وعبد الله بن سعد ابن ابي أسرح علي الصعيد قال : وكانت وفاة عمر كما حدثنا يحيى بن بكير عن الليث بن سعد مصدر الحاج (٢) سنة ثلاث وعشرين حدثنا سعيد بن عفير قال : إنما كان عمر بن الخطاب ولى عبد الله بن سعد من الصعيد الفيوم فلما استخلف عثمان بن عفان كما حدثنا عبد الله بن صالح أو غيره عن الليث طمع عمرو بن العاص لما رأى من عثمان أن يعزل له عبد الله بن سعد عن الصعيد فوفد إليه وكلمه في ذلك)(٣) .

= فرآه رجل فأنا أصيب عمر ، قال : رأيت هذا مع الهرمزان ، فدعه إلى فيروز . فأقبل عبيد الله فقتله . فلما وُلي عثمان دعاني فأمكنني منه ثم قال . يا بني هذا قاتل أبيك . وأنت أولى به منا ، فاذهب فاقتله ، فخرجت به وما في الأرض أحد إلا معي . إلا أنهم يطلبون إليَّ فيه . فقلت لهم : ألي قتله : قالوا : نعم وسبُّوا عبيد الله ـ فقلت : أفكلم أن تمنعوه ؟ قالوا : لا وسبوه فتركته لله ولهم فاحتملوني فوالله ما بلغت المنزل إلا على رؤوس الرجال وأكفهم . الطبري ٤ / ٢٤٣ ـ ٢٤٤ .

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبري ٢٥٣/٤ .

(٢) مصدر الحاج : أي عودة الحجاج إلى ديارهم ففي رواية وفاة عمر رضي الله عنه كانت آخر يوم من ذي الحجة عام ثلاثة وعشرين .

(٣) فتوح مصر وأخبارها / ١٧٣ .

لقد جاء من مصر خاصة لمعالجة هذا الأمر وإن كان لا يجرؤ على مفاتحة عمر رضي الله عنه فيمكن ذلك مع الخليفة فيطرح على عثمان وقد غدا أميرا للمؤمنين فكرة توحيد ولاية مصر له ولم يستجب عثمان لذلك انما أجابه :

(ولاه عمر بن الخطاب الصعيد وليس بينه وبينه حرمة ولا خاصة ولقد علمت أنه أخي من الرضاعة فكيف أعزله عما ولاه غيري وقال له فيما حدثنا سعيد بن عفير :

إنك لفي غفلة عما كانت تصنع بي أمه إن كانت لتخبىء لي العرق [١] من اللحم في ردنها[٢] حتى آتي)[٣] فهو وال لعمر ابتداء وأخو عثمان لأمه ثانية ولم يشكه أحد من جهة ثالثة ففيم يعزله عثمان .

(قال : ثم رجع الى حديث الليث بن سعد فغضب عمرو وقال : لست راجعا إلا على لك . فكتب عثمان بن عفان الى عبد الله بن سعد يؤمره على مصر كلها فجاءه الكتاب بالفيوم قال ابن عفير بقرية منها تدعى وموشة وقال الليث في حديثه : فجعل لأهل أطواب جعلا على أن يصبحوا به الفسطاط في مركبه فقدموا به الفسطاط قبل الصبح ، فأرسل الى المؤذن فأقام الصلاة حين طلع الفجر وعبد الله ابن عمرو ينتظر المؤذن يدعوه الى الصلاة لأنه خليفة أبيه فاستنكر الإقامة فقيل له صلى عبد الله بن سعد بالناس ... قال الليث في حديثه ، فأقبل عبد الله بن عمرو حتى وقف على عبد الله بن سعد فقال : هذا بغيك ودسك فقال عبد الله بن سعد ما فعلت وقد كنت أنت وأبوك تحسداني على الصعيد فتعال حتى أوليك

(١) العرق من اللحم : ما على العظم من لحم .

(٢) الردن : أصل الكم .

(٣) فتوح مصر وأخبارها / ١٧٣ - ١٧٤ .

الصعيد ، وأولي أباك أسفل الأرض ولا أحسد كما عليه . فلبث عبد الله عليها أميرا محمودا وغزا فيها ثلاث غزوات كلهن لها شأن ، أفريقية والأساد ويوم ذي الصواري وسأذكر لك في موضعه إن شاء الله قال : وكان عزل عمرو بن العاص عن مصر وتولية عبد الله بن سعد في سنة خمس وعشرين)[١] فهذه أصح الروايات[٢] في عزل عمرو رضي الله عنه .

لم يعزله عثمان . وكان حريصا على بقائه . إلا أن إصرار عمرو رضي الله عنه على تخليه عن العمل ما لم يعزل عبد الله بن سعد عن الصعيد هو الذي اضطر عثمان إلى ذلك وعبد الله سعد انما ولاه عمر ولم يوله عثمان ولا معنى لعزله وقد أثبت كفاءة إدارية عالية ، وقيادة ممتازة . فأي مبرر لعزله .

(ورواية السري عن شعيب عن سيف عن محمد وصلحة : مات عمر وعلى مصر عمرو بن العاص وعلى قضائها خارجة ابن حذافة السهمي ، فولي عثمان فأقرهما سنتين من إمارته . ثم عزل عمرا واستعمل عبد الله بن سعد بن أبي سرح) هي أقل صحة من سابقتها ومع ذلك فلا تتعارض معها انما نجد في الرواية السابقة تفصيلا أوضح .

ثبات عمرو على الحرب بعد عزله :

وكان سبب هذا هو الغزو الذي قامت به الروم للإسكندرية واحتلوها وأخرجوا حامية المسلمين منها .

---

(١) فتوح مصر وأخبارها / ١٧٣ - ١٧٤ .

(٢) رواة هذه الحادثة : يحيى بن بكير : ثقة في الليث خاصة الليث بن سعد : ثقة ثبت فقيه إمام . عبد الله بن صالح : صدوق كاتب الليث كثير الغلط سعيد بن كثير بن عفير : صدوق عالم بالأنساب وغيرها .

(قال : وكانت الاسكندرية كما حدثنا عبد الله بن صالح عن الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب انتقضت وجاءت الروم عليهم منويل الخصي في المراكب حتى أرسوا بالإكسندرية فأجابهم من بها من الروم ولم يكن المقوقس تحرك ولا نكث . وقد كان عثمان بن عفان عزل عمرو بن العاص وولى عبد الله بن سعد فلما نزلت الروم الإسكندرية سأل أهل مصر عثمان أن يقر عمر عمرا حتى يفرغ من قتال الروم ، فإن له معرفة بالحرب وهيبة في العدو ففعل . وكان على الإسكندرية سورها فحلف عمرو بن العاص لئن أظهره الله عليهم ليهدمن سورها حتى تكون مثل بيت الزانية تؤتى من كل مكان فخرج اليهم عمرو في البر والبحر...) (١).

لقد غدا اسم عمرو بن العاص اسما مرعبا للعدو وصار امبراطور الروم يحسب له ألف حساب وماندري هل تجرأ على غزو مصر حين بلغه عزل عمرو أم قبل ذلك لكن أهل مصر ووجوهها يدركون مَنْ عمرو بن العاص وبطولته ودهاءه وسمعته ، فرجوا أمير المؤمنين عثمان رضي الله عه أن يبقيه أو يعيده على عمله لهذه المواجهة الرهيبة مع الروم الذين زحفوا بكل امداداتهم واحتلوا الإسكندرية وقتلوا من قدروا عليه من حامية المسلمين وكان سور المدينة هو الذي حال دون الهجوم المضاد عليها فأقسم عمو ليهدمنه إن ظفر عليهم وحيث أن عمرو لا يقاتل الا لله ولم يكن لعزله عن الإسكندرية . ولم يشترط شيئا مقابل هذه المعركة الضارية التي قد تؤدي بحياته ، إنما كان على عهد المؤمنين به يستجيب إذا دعا الداعي للجهاد وحقق الله تعالى على يديه النصر المظفر على العدو (ثم شد المسلمون عليهم فكانت هزيمتهم حتى ألحقوهم بالإسكندرية ففتح الله عليهم وقتل

(١) فتوح مصر وأخبارها / ١٦٩ - ١٧٠ .

منويل الخصي (قائدهم) ، حدثنا الهيثم بن زياد أن عمروو بن العاص قتلهم حتى أمعن في مدينتهم فكلم في ذلك فأمر برفع السيف عنهم وبني في ذلك الموضع الذي رفع فيه السيف مسجد وهو المسجد الذي بالاسكندرية الذي يقال له مسجد الرحمة وانما سمي مسجد الرحمة لرفع عمرو السيف هنالك وهدم سورها كله)[١].

وانطلاقا من هذا النصرالمؤزر أراد عثمان رضي الله عنه أن يضع حلا جديدا يستبقي فيه كفاءة عمرو رضي الله عنه ويبقيه أميرا على مصر كلها على أن يرضي عبد الله بن سعد بن أبي سرح فيعطيه الخراج وجبايته على أن تكون لعمرو إمرة الحرب وعرض هذا الحل على عمرو فرفضه .

(ثم رجع إلى حديث ابن لهيعة[٢] عن يزيد بن أبي حبيب[٣] قال :

فلماهزم الله الروم أراد عثمان عَمْرًا أن يكون على الحرب، وعبدالله بن سعد على الخراج فقال عمرو: أنا إذن كماسك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها فأبى عمرو)[٤].

وأمام هذا الرفض استعفى عمرو ثانية فأعفاه وعاد ابن سعد لإمرة مصر كلها.

(وقال غير ابن لهيعة : وأقام عمرو بن العاص بعد فتح الإسكندرية شهرا ثم عزله عثمان وولى عبد الله بن سعد)[٥].

---

(١) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم .

(٢١) صدوق كثير الغلط .

(٣) ثقة فقيه من الخامسة .

(٤) فتوح مصر وأخبارها / ١٧٨ .

(٥) المصدر نفسه / ١٧٨ .

وكان هذا الأمر مرتبطا بالعرض السابق الذي رفضه عمرو رضي الله عنه .

سم في الدسم :

هذا هو الجو الذي ساد بين عمرو بن العاص وعثمان بن عفان أمير المومنين رضي الله عنهما لكن تطالعنا رواية بعد ذلك وهي أول رواية بثت السم في الدسم وحولت القضية بين عمرو وعثمان قضية أحقاد وصراعات لا تتناسب أبدا مع مستوى هذين الصحابيين العظيمين وسنشهد هذا الخط ينمو ويغذى بعد ذلك بالروايات الباطلة ليغير الصورة المشرفة كلها ويأتي المؤرخون بعد ذلك لينسجوا من هذه الروايات صورة وهمية يعرضون فيها عمراً طالب ملك وصولياً كما يهوون .

ولنبدأ في هدم هذا البنيان من أساسه فهذه الرواية التي قام عليها البنيان اثنان من مرواتها متركون وبعضهم يتهمهم بالوضع .

(وأما الواقدي فإنه ذكر أن ابن أبي سبرة حدثه عن محمد بن أبي حرملة عن كريب قال : لمانزع عثمان عمرو بن العاص عن مصر غضب عمر غضبا شديدا وحقد على عثمان فوجه عبد الله ابن سعد وأمره ان يمضي الى أفريقية وندب عثمان الناس الى أفريقية فخرج اليها عشرة ألاف من قريش والأنصار والمهاجرين)(١) .

(والواقدي على جلالة قدره وسعة علمه وإمامته المشهود له فيها في السيرة لكنه في الحديث متروك ومتهم عند النسائي بالوضع وفي أخبار التاريخ ورجالات المسلمين مردودة شهادته بكثرة ما يروي من سقطات للصحابة مع ملاحظة كثرة مانُسب اليه وهو غير صحيح فأصبح من العسير قبول رواياته التي لا يدري المرء أهي له أم لا حتى أن كتابه فتوح الشام للواقدي في جزأين واضح أنه مصنوع عليه

---

(١) تاريخ الطبري ٤ / ٢٥٦ .

ومنسوب إليه وهوأقرب الى الحكايات الشعبية منه إلى الرواية التاريخية فاذا وضع كتاب عليه فكيف لا توضع حادثة .

قال الذهبي فيه في الضعفاء : (محمد بن عمر بن واقد الأسلمي مولاهم الواقدي صاحب التصانيف مجمع على تركه وقال ابن عدي : يروي أحاديث غير محفوظة والبلاء منه ،قال النسائي : كان يضع الحديث وقال ابن ماجة : حدثني ابن أبي شيبة ثنا شيخ ثنا عبدالحميد بن جعفر . فذكر حديثا في لباس الجمعة، وحسبك بمن لا تجسر أن يسميه ابن ماجة)[1].

وأما ثاني الرواة فهو ابن أبي سبرة قال فيه الحفاظ ابن حجر في تقريب التهذيب (رموه بالوضع من السابعة وقال مصعب الزبيري كان عالماً)[2] ورواية بهذا السند وتتناقض مع الروايات الصححية .

ومما يتناقض مع هذا العرض لشخصية عمرو مع عثمان رضي الله عنهما طبيعة العلاقة بين الرجلين فيما بعد حين أقام عمرو بالمدينة بجوار أمير المؤمنين وحين ابتدأت الفتنة تطل على المسلمين في عام خمس وثلاثين وما قبلها كان عمرو بن العاص رضي الله عنه من أقرب المقربين إلى عثمان ومن خاصته يلجأ إلى رأيه ويعمد اليه يستشيره في النازلات عنده .

بيان عثمان إلى الأمة :

يقول الإمام ابن جرير :

كتب إلى السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وعطية قالوا[3] .

---

(١) الضعفاء للذهبي ٢ /٦١٩ .

(٢) تقريب التهذيب ٣٩٧/٢/٢ .

(٣) السري وشعيب وسيف هم أوثق الرواه عند الطبري وكل سند فيه هؤلاء الثلاثة هو أقرب ما يكون إلى الصحة والسري قالوا فيه ا لسري بن يحيى قال ابن ابي حاتم كان صدوقا من التاسعة (التقريب لابن حجر) وفي شعيب قال الذهبي في الضعفاء عنه ٢٩٨/١ : الراوي عن سيف كتبه فيه جهالة وفي تقريب التهذيب لابن حجر ٣٤٤/١ قال عن سيف : سيف بن عمر التميمي ضعيف في الحديث عمدة في التاريخ من الثامنة وهؤلاء مقبولون في الرواية التاريخية .

كتب عثمان إلى أهل الأمصار . أما بعد فإن آخذ العمال بموافاتي في كل موسم وقد سلطت الأمة منذ وليت على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا يرفع عليَّ شيء ولا على أحد من عمالي إلا أعطيته وليس لي ولعيالي حق قبل الرعية إلا متروك لهم وقد رفع إلي أهل المدينة أن أقواما يشتمون وآخرون يضربون فيا من ضرب سرا وشتم سرا من ادعى شيئا من ذلك فليواف الموسم فليأخذ بحقه حيث كان مني أو من عمالي أو تصدقوا فإن الله يجزي المتصدقين فلما قُرىء بالأمصار أبكى الناس ودعوا لعثمان وقالوا : إن الأمة لتمحض بشر وبعث إلى عمال الأمصار فقدموا عليه ؛ عبد الله بن عامر ، ومعاوية وعبد الله بن سعد وأدخل معهم في المشورة سعيدا وعمرا ...) .

فاللذين اختارهما من الأمة للمشورة هما سعيد بن العاص وعمرو بن العاص.

فقال : ويحكم ما هذه الشكاية ؟ وما هذه الإذاعة ؟ إني والله لخائف أن يكون مصدوقا عليكم وما يعصب هذا إلا بي فقالوا له : ألم تبعث ؟ ألم يرجع إليك الخير عن القوم ألم يرجعوا ولم يشافهم أحد بشيء ! لا والله ما صدقوا ولا بروا ولا نعلم لهذا الأمر أصلا وما كنت لتأخذ به أحدا فيقيمك على شيء ، وما هي إلا إذاعة لا يجل الأخذ بها ولا الانتهاء إليها .

قال : فأشيروا علي . قال سعيد بن العاص : هذا أمر مصنوع يصنع في السر ، فيُلقى به غير ذي المعرفة فيخبرُ به فيتحدث به في مجالسهم . قال : فما دواء ذلك؟ قال: طلب هؤلاء القوم ، ثم قتل هؤلاء الذين يخرج هذا من عندهم .

وقال عبد الله بن سعد : خذ من الناس الذي عليهم إذا أعطيتهم الذي لهم : فإنه خير من أن تدعهم قال معاوية : قد وليتني فوليت قوما لا يأتيك عنهم إلا الخير

والرجلان أعلم بناحيتهما ؛ قال : فما الرأي؟ قال : حسن الأدب ، قال . فماترى يا عمرو ؟ قال :

أرى أنك قد لنت لهم ، وتراضيت عنهم وزدتهم عما كان يصنع عمر ، فأرى أن تلزم طريقة صاحبيك فتشتد في موضع الشدة ، وتلين في موضع اللين . إن الشدة تنبغي لمن لا يألو الناس شراً . واللين لمن تخلف بالنصح وقد فرشتهما جميعا اللين .

وقام عثمان فحمد الله وأثنى عليه وقال :

كل ما أشرتم به علي قد سمعت ، ولكل أمرباب يؤتى منه ، إن هذا الأمر الذي يخاف على هذه الأمة كائن وإن بابه الذي يغلق عليه فيكفكف به هو اللين والمؤاتاه والمتابعة ، إلا في حدود الله تعالى ذكره التي لا يستطيع يبادي بعيب أحدها ، فإن سده شيء فرفق فذاك والله ليفتحن وليست لأحد عليَّ حجة حق وقد علم الله أني لم آل الناس خيرا . ولا نفسي ووالله إن رحا الفتنة لدائرة فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها كفكفوا الناس ، وهبوا لهم حقوقهم واغتفروا لهم وإذا تعوطيت حقوق الله فلاتدهنوا فيها)[١] .

لقد خالف عثمان رضي الله عنه رأي أخيه عمرو باتباع الشدة ولم يخالفه في اتباع سنة صاحبيه فرحى الفتنة دائرة ولا تعالج بالعنف لأن العنف هو الذي يدير هذه الرحى ،ولن يرضى أمير المؤمنين أن يكون صاحبها (فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها) وكان واضحا صريحا رضي الله عنه فيما لا هوادة فيه وهي حدود الله فلا مداهنة فيها وما غير ذلك فالرفق أولى والمغفرة أفضل ولا بد من تأدية الحقوق للأمة كلها .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك لابن جرير الطبري ٤ / ٣٤٢ - ٣٤٣ .

فنحن إذن مع خليفة اختار اثنين من خلصائه ومستشاريه ماعدا ولاته فكان عمرو بن العاص أحدهما فكيف يستقيم الأمر بعدها ، في وضع الحقد بين الأخوين من أجل عزل أمير المؤمنين عثمان لواليه عمرو وسند الرواية يجعلها مرفوضة عند أهل التاريخ وأهل الحديث .

وتطالعنا رواية أخرى مرفوضة عن الواقدي[1] وهي التي ساهمت في مسخ صورة عمرو بن العاص رضي الله عنه وتحويل علاقته به الى علاقة فاتك خطط لقتل أميره ثم عاد بانتهازية رخيصة ليطالب بدمه هذه الرواية ساقها الطبري وقدم لها بقوله :

(وأما الواقدي فإنه ذكر في سبب سير المصريين إلى عثمان ونزو لهم ذا خشب أموراً كثيرة منها ما تقدم ذكر يه [2] ومنها ما أعرضت عن ذكره كراهة مني لبشاعته ومنها ما ذكر أن عبد الله بن جعفر حدثه عن أبي عون مولى المِسوَر قال[3] .

كان عمر بن العاص على مصر عاملا لعثمان ، فعزله عن الخراج ، ثم جمعهما لعبد الله بن سعد . فلما قدم عمرو بن العاص المدينة جعل يطعن على عثمان . فأرسل إليه يوما عثمان خاليا به فقال : يا بن النابغة ما أسرع ما قمل جربان جبتك انما عهدك بالعمل عاما أول أتطعن علي وتأتيني بوجه وتذهب عني بآخر والله لولا أكله ما فعلت ذلك فقال عمرو : إن كثيرا مما يقول الناس وينقلون

---

(١) ذكريه : ذكري له .

(٢) وكم كنا نود لو أن الإمام الحافظ ابن جرير أعرض عن هذه الحادثة لشناعتها كذلك : الرواية متروكة مع ترك الواقدي راويها وجهالة مولى الميسور وضعف عبد الله بن جعفر .

(٣) جربان جتاب جيبها .

إلى ولاتهم باطل فاتق الله يا أمير المؤمنين في رعيتك ! فقال عثمان : والله لقد استعملتك على ظلعك[1] وكثرة القالة فيك[2] فقال عمرو قد كنت عاملا لعمر بن الخطاب ففارقني وهوعني راض قال فقال عثمان : وأنا والله لقد استعملتك بما آخذك به عمر لاستقمت ولكني لنت لك فاجترأت علي أما والله لأنا أعزمنك نفرا في الجاهلية وقبل أن ألي هذا السلطان فقال عمرو : دع عنك هذا فالحمد لله الذي أكرمنا بمحمد ﷺ وهدانا به قد رأيت العاصي بن وائل ورأيت أباك عفان فوالله للعاص كان أشرف من أبيك قال : فانكسر عثمان وقال : ما لنا ولذكر الجاهلية .

قال : وخرج عمرو ودخل مروان فقال : يا أمير المؤمنين وقد بلغت مبلغا يذكر عمرو بن العاص أباك ! فقال عثمان : دع عنك هذا من ذكر آباء الرجال ذكروا أباه .

قال : فخرج عمرو من عند عثمان وهو محتقد عليه يأتي علياً مرة فيؤلبه على عثمان ، ويأتي الزبيرمرة فيؤلبه على عثمان ويأتي طلحة مرة فيؤلبه على عثمان ويعترض الحاج فيخبرهم بما أحدث عثمان فلما كان حصر عثمان الأول خرج من المدينة حتى انتهى إلى أرض له بفلسطين يقال له السبع فنزل في قصر له يقال له العجلان وهو يقول : العجب ما يأتينا عن ابن عفان ! قال : فبينما هو جالس في قصره ذلك ومعه ابناه محمد وعبد الله وسلامه بن روح الجذامي إذ مر بهم راكب فناداه عمرو : من أين قدم الرجل ؟ فقال : من المدينة قال : مافعل الرجل ؟ يعني عثمان قال : تركته محصورا شديد الحصار قال عمرو :

---

(١) طلع البعير : غمز في مشيه بمعنى على عيوبك .

(٢) كثرة القالة : كثرة قول الناس فيك بالسوء .

أنا أبو عبد الله قد يضرط العير [١] والمكواه في النار [٢] فلم يبرح مجلسه ذلك حتى مر به راكب آخر فناداه عمرو : مافعل الرجل ؟ يعني عثمان قال : قتل . قال : أنا أبوعبد الله ، إذا حككت قرحة نكأتها ان كنت لأحرض عليه ، حتى إني لأحرض عليه الراعي في غنمه في رأس الجبل . فقال له سلامة ابن روح : يامعشر قريش . إنه كان بينكم وبين العرب باب وثيق فكسرتموه فما حملكم على ذلك ؟

فقال : أردنا أن نخرج الحق من حافرة الباطل وان يكون الناس في الحق شرعا سواء .

وكانت عند عمرو أخت عثمان لأمه أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ففارقها حين عزله) [٣] .

إنها الرواية الساقطة التي نقلت عَمْرًا من معسكرعثمان وأقرب خاصته الى عدوٍ لدود ليثأر لنفسه حين عزل ويحرض على قتل عمثان ويزعم أنه هو الذي هيج على قتله بل يفخر بذلك .

(أنا أبو عبد الله إذا حككت قرحة نكأتها إن كنت لأحرض عليه حتى إني لأحرض عليه الراعي في غنمه في رأس الجبل) إنه يخاف أن يدّعِي أحد أنه تآمر على قتله أكثر منه .

(عندنا رواية أخيرة أو روايتان بسند فيه ضعفاء ومجهولون بمعنى واحد نأخذ واحدة منها وهي : حدثنا جعفر قال حدثنا عمرو بن حماد وعلي بن حسين

---

(١) العير : الحمار .

(٢) مثل يضرب للرجل يخاف الأمر فيخرج قبل وقوعه فيه .

(٣) تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري ٤ / ٣٥٦ - ٣٥٧ .

قـالا : حدثنا حـسين عن أبيه عن عـمرو بـن أبي المقدام عن عـبد الملك ابن عـميـر الزهري أنه قـال : جمع عـثمـان أمراء الأجنـاد معـاوية بن أبي سفـيان وسـعيـد بن العاص ، عبـد الله بن عامر ، وعبـد الله بن سعد بن أبي سرح وعـمرو بن العاص ، فـقال أشـيروا علي فـإن الناس قـد تنمروا لـي فقـال له معـاوية أشـير عليك أن تأمـر أجنادك فيكفيك كل رجل منهم ما قبله وأكفيك أنا أهل الشام فقال له عبد الله بن عـامر أرى لـك أن تجمـرهم في هذه البـعوث حتى يهم كل رجل منهم دبر دابتـه وتشـغلهم عن الإرجـاف بك فـقـال عـبـد الله بن سـعـد أشـيـر عليك أن تنظر مـا أسخطهم فتـرضيهم ثم تخرج لهم هذا المال فـيقسم بينهم ثم قام عـمرو بن العاص فقال : يا عثمان : إنك قد ركبت الناس بمثل بني أمية فقلت وقالوا وزغت وزاغوا ، فاعتدل ، أو اعتزل فان أبيت فاعتزم عزماً وامض قدما ؛ فقال له عثمان : ما بالك قمل فردُك له أهذا الجد منك ! فأسكت عمرو حتى إذا تفرقوا قال : لا والله يا أمير المؤمنين ، لأنت أكـرم علي من ذلك ولكني قـد علمت أن بالبـاب قومـا قد علمـوا أنك جمعتنا لنشير عليك فأحببت أن يبلغهم قولي ، فأقود لك خيرا أو أدفع عنك شرا) [1] .

بيان ثانٍ لعثمان إلى الأمة وفضح المتآمرين :

ونعود إلى رواية السـري عن شعيـب عن سيف والتي استـشار فيـها عثـمان رضي الله عنه أمراءه وخصص عَمْرًا بالمشاركة فيـها لنتابع هذه الرواية كما يسوقها لنا الطبري حيث كان هذا البيان بعد بيانه إلى الناس ليوافوه بالموسم .

رجع الحديث الى حديث سيف عن شيوخه .

---

(١) وهذه الرواية على ضعفهـا يمكن قبولها حيث تتناسب مع شخصيـة عمرو ودهائه في تخطيطه للدفاع عن عثمان بحيث لا يتهم أنه من خاصتَة لكن تبقى رواية سيف هي الرواية الخالصة المقبولة .

وكان معاوية قد قال لعثمان غداة ودعه به وخرج : يا أمير المؤمنين انطلق معي إلى الشام قبل أن يهجم عليك ما لا قبل لك به فإن أهل الشأم على الأمر لم يزالوا فقال : أنا لا أبيع جوار رسول الله ﷺ بشيء ، وإن كان فيه قطع خيط عنقي قال : فأبعث إليك جندا منهم يقيم بين ظهراني أهل المدينة لنائبهة إن نابت المدينة أو إياك . قال : أنا أقتر على جيران رسول الله ﷺ الأرزاق بجند تساكنهم وأضيق على دار الهجرة والنصرة ! قال : والله يا أمير المؤمنين لتغتالن أو لتغزين ! قال : حسبي الله ونعم الوكيل . وقال معاوية : يا أيسار الجزور ، وأين أيسار الجزور: ثم خرج حتى وقف على النفر ثم مضى) .

خيوط المؤامرة الأولى :

(وقد كان أهل مصر كاتبوا أشياعهم من أهل الكوفة ، وأهل البصرة وجميع من أجابهم أن يثوروا خلاف أمرائهم . واتعدوا يوما حيث شخص امراؤهم فلم يستقم ذلك لأحد منهم ولم ينهض إلا أهل الكوفة . فإن يزيد بن قيس الأرجبي ثار فيها واجتمع إليه أصحابه ، وعلى الحرب يومئذ القعقاع بن عمرو . فأتاه وأحاط الناس بهم وناشدوهم فقال يزيد للقعقاع : ما سبيلك علي وعلى هؤلاء ! فوالله إني لسامع مطيع وإني ملازم جماعتي إلا أني استعفي ومن ترى من إمارة سعيد ، فقال تستعفي الخاصة من أمر قد رضيته العامة ! قال : فذاك إلى أمير المؤمنين فتركهم والاستعفاء) .

وليس من حق القعقاع رضي الله عنه أن يمنع مطالبة أمير المؤمنين بعزل أحد ولاته لكن الحقيقة المرة كانت مخبأة وأعقد من ذلك (ولم يستطيعوا أن يظهروا غير ذلك فاستقبلوا سعيدا ، فردوه من الجرعة واجتمع الناس على أبي موسى ، وأقره عثمان رضي الله تعالى عنه ولما رجع الأمراء لم يكن للسبيئة سبيل إلى

الخروج إلى الأمصار ، وكاتبوا أشياعهم من أهل الأمصار ليتوافوا بالمدينة لينظروا فيما يريدون ، وأظهروا أنهم يأمرون بالمعروف ويسألون عثمان عن أشياء لتطير في الناس ولتحقق عليه فتوافوا بالمدينة) .

وكان أمير المؤمنين من اليقظة والوعي ما يجعله يحقق بقلم استخباراته مع هؤلاء حيث بث في صفوفهم رجلين من المسلمين كانا قد عوقبا من الخليفة ليطمئن المتآمرون إليهم (وأرسل عثمان رجلين ، مخزوميا وزهريا فقال : انظروا ما يريدون واعلما علمهم وكانا ممن نال من عثمان أدب فاصطبر للحق ولم يضطغنا فلما رأوهما باثوهما وأخبروهما بما يريدون فقالا : من معكم على هذا من أهل المدينة ؟ قالوا : ثلاثة نفر فقالا : هل إلا ؟ قالوا : لا . قالا : فكيف تريدون أن تصنعوا ؟) .

وشرح هؤلاء القوم للرجلين أبعاد المؤامرة كاملة والخطة المقترحة . قالوا :

(نريد أن نذكر له أشياء قد زرعناها في قلوب الناس ثم نرجع اليهم فنزعم لهم أنا قررناه بها فلم يخرج ولم يتب ثم نخرج كأنا حجاج حتى نقدم فنحيط به فنخلعه فإن أبى قتلناه وكانت إياها فرجعا الى عثمان بالخبر فضحك وقال : اللهم سلم هؤلاء ، فإنك إن لم تسلمهم شقوا .. فأرسل الى الكوفيين والبصريين ، ونادى : الصلاة جامعة ! وهم عنده في أصل المنبر . فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى أحاطوا بهم فحمد الله وأثنى عليه وأخبرهم خبر القوم وقام الرجلان) ولم يكن يدري المتآمرون أن مؤامرتهم قد كشفت كاملة وصارت عند أمير المؤمنين حتى قام الرجلان فأخبر المسلمين خبر القوم وكان رأي العلية من أصحاب رسول الله ﷺ هو قتل هؤلاء غير أن أمير المؤمنين خالفهم في ذلك ورأى معالجة الأمر بحكمة وروية دون سفك دماء فوراءهما أقوام لو سفكت دماء هؤلاء لثاروا في أمصارهم وهويرفض رضي الله عنه أن يكون منطلق الفتنة وبداية القتل .

(فقالوا جميعا : اقتلهم فان رسول الله ﷺ قال : « من دعا إلى نفسه أو إلى أحد وعلى الناس إمام فعليه لعنة الله فاقتلوه » وقال عمر بن الخطاب : لا أحل لكم إلا ما قتلتموه وأنا شريككم » فقال عثمان : بل نعفو ونقبل ونبصرهم بجهدنا ولا نحاد أحداً حتى يركب حدا أو يبدي كفرا) .

وكان رأي أمير المؤمنين أن الفرصة قد غدت سانحة لإصدار بيان شاف إلى الأمة يوضح فيه ما يدرور في الخفاء ويزيل الالتباس من أذهان الناس ويعلنه على الملأ وتنقله الركبان إلى كل مكان .

نص البيان :

(إن هؤلاء ذكروا أمورا قد علموا منها مثل الذي علمتم إلا أنهم زعموا أنهم يذاكروا فيها [1] ليوجبوها علي عند من لا يعلم .

ـ وقالوا أتم الصلاة في السفر ، وكانت لا تتم إلا وإني قدمت بلدا فيه أهلي فأتممت لهذين الأمرين ، أو كذلك ؟ قالوا : اللهم نعم .

ـ وقالوا : وحميت حمى ، وإني والله ما حميت حُمِي قبلي . والله ما حموا شيئا لأحد ما حموا إلا غلب عليه أهل المدينة ثم لم يمنعوا من رعيه أحدا واقتصروا لصدقات المسلمين يحمونها لئلا يكون من بين من يليها وبين أحد تنازع ثم ما منعوا ولا نحوا منها أحدا إلا من ساق درهما ومالي من بعير غير راحلتين ومالي ثاغية ولاراغية وإني قد وليت وإني أكثر العرب بعيرا وشاء فمالي اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجي أكذلك ؟ قالوا : اللهم نعم .

---

(١) كانت هذه الأمور التي يعيبونها على عثمان رضي الله عنه قد تعرف عليها الرجلان من القوم ونقلاها إلى عثمان فرأى ايضاحها .

ـ وقالوا : كـان القرآن كتبـا و فتركـتها إلا واحدا . ألا وإن القـرآن واحد ، جاء من عند واحـد ، وإنما أنا في ذلك تابع لهؤلاء أكذلك ؟ قـالوا : نعم (وسألوه أن يقتلهم) .

ـ وقالوا : إني رددت الحَكَم وقد سيَّره رسول الله ﷺ والحكم مكي وسيره رسول الله ﷺ إلى الطائف ثم رده رسـول الله ﷺ فرسول الله ﷺ سيره ورسول الله ﷺ ردَّه أكذلك ؟ قالوا : اللهم نعم .

ـ وقالوا : استـعملت الأحداث ، ولم أستعـمل إلا مجتمعـا محتملا مـرضيا وهؤلاء أهل عملهم فـسلوهم عنهم وهؤلاء ، أهل بلده ولقد ولى من قـبلي أحدث منهم ، وقيل في ذلك لرسول الله ﷺ أشد ما قيل لي في استعماله أسامة ؟ أكذاك؟ قالوا : اللهم نعم ، يعيبون للناس ما لا يفسرون .

ـ وقالوا إني أعطيت ابن أبي سـرح ما أفاء الله عليه وإني انما نفلتـه خمس ما أفاء الله عليـه من الخمس فكان مائة ألف وقـد أنفذ مثل ذلك أبو بكر وعـمر رضي الله عنهمـا فزعم الجند أنهم يكرهون ذلك فرددته عليـهم وليس ذاك لهم أكذاك ؟ قالوا : نعم .

ـ وقـالوا : إني أحب أهل بيتي وأعطيـهم ، فـأما حـبي أهل بيتي فـإنه لم يمل معـهم إلى جور بل أحـمل الحقوق عليـهم وأما إعطاؤهم فـإني ما أعطيـتهم إلا من مالي ، ولا أستـحل أموال المسـلمين لنفسي ولا لأحد من الناس ولـقد كنت أعطي العطية الكبيرة الرغيبة من صلب مالي أزمان رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما وأنا يومئذ شحيح حريص فحين أتيت على أسنان أهل بيتي وفني عمري ودعت الذي لي في أهلي قال الملحدون ما قالوا وإني والله ماحملت على مصر من الأمصار فـضلا فيجوز ذلك لمن قـاله ولقد رددته عليهم وماقـدم علي إلا الأخماس

ولا يحل لي منها شيء فولي المسلمون وضعـها في أهلها دوني ولا يتفلت من مال الله من فلس فما فوقه وما أتبلغ منه ما آكل إلا مالي .

ـ وقالوا أعطيت الأرض رجالا وإن هـذه الأرضين شاركهم فيهـا المهاجرون والأنصار أيام افـتتحت فـمن أقام بمكان من هذه الفـتوح فهـو أسوة أهله ومن رجع إلى أهله لم يُذهب ذلك ما حوى الله له فنظرت بالذي يصيبهم مما أفاء الله عليهم فبعـته لهم بأمرهـم من رجال أهل عقار ببـلاد العرب فنفلت إليهم نصيبـهـم فهو في أيديهم دوني .

وكان عـثمان قـد قسم مـاله وأرضه في بني أميـة ، وجعل ولده كـبعض من يعطى فـبـدأ ببني أبي العـاص فـأعطى آل الحكم رجـالهم عـشـرة آلاف عـشـرة آلافأخـذوا مائة ألف وأعطى بني عثمان مثـل ذلك وقسم في بني العاص وفي بين العيص وفي بني حرب .

ولانت حاشـية عثـمان لأولئك الطوائف وأبى المسلمـون إلا قتلهم وأبى إلا تركهم فذهبـوا ورجعوا الى بلادهم على أن يغزوه مع الحـجاج كالحجـاج فتكاتبوا وقالوا مـوعدكم ضـواحي ا لمدينة في شوال حتى إذا دخل شوال من سنـة خمس وثلاثين ضربوا كالحجاج فنزلوا قرب المدنية (١) .

وهكذا أزال البيـان كل الشـبهـات والتـرهات والأباطيل التي أثيـرت حـول عـثمـان رضي الله عنه وآن الأوان ليرعـوي دعـاة الفتنة إن كـانوا قد غـرر بهم من أعداء الإسلام .

نحن مـضطرون للتفـصيل في الحـديث عن عثـمان أمـيرالمؤمنين وحـصاره وقتله لأن هذا الأمر كـان منه مفترق الأمة وانقـسامها إلى فريـقين عظيمين وأشعل نار الحرب فيهاوكاد أن يقضي عليها .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك لابن جرير الطبري من ٣٤٥ ـ ٣٤٨ .

(فعن جابر أن رسول الله ﷺ ذكر فتنة فقال أبو بكر : أنا أدركها ؟ قال : لا قال عمر أنا يا رسول الله أدركها ؟ قال : لا : فقال عثمان : يا رسول الله أنا أدركها قال : « بك يبتلون ») [1] .

حصار عثمان أمير المؤمنين :

وها نحن ننقل حصارعثمان رضي الله عنه عن أوثق رواة الطبري لنعيش الصورة التي انتهت اليها المدينة يوم اتخذ عمرو بن العاص رضي الله عنه قراره بمغادرتها .

(كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وأبي حارثة وأبي عثمان قالوا : لما كان في شوال سنة خمس وثلاثين خرج أهل مصر في أربع رفاق[2] على أربعة أمراء ، المقلل يقول : ستمائة والمكثر يقول ألف على الرفاق عبد الرحمن بن عديس البلوي وكنانه بن بشر التجيبي وعروة بن شبيم الليثي ، وأبو عمرو بن بديل بن ورقاء الخزاعي وعلى القوم جميعا الغافقي بن حرب العكي ، ولم يجترئوا أن يعلموا الناس بخروجهم إلى الحرب . وإنما خرجوا كالحجاج ومعهم ابن السوداء ، وخرج أهل الكوفة في أربع رفاق وعلى الرفاق زيد بن صوحان العبدي والاشتر النخعي ، وزياد بن النضر الحارثي وعبد الله بن الأصم أحد بني عامربن صعصعة وعددهم كعدد أهل مصر وعلهيم جميعا عمرو بن الأصم وخرج أهل البصرة في أربع رفاق وعلى الرفاق حكيم بن جبلة العبدي وذريح بن عباد العبدي وبشر بن شريح والحطم بن ضيعة القيسي وابن المحرش بن عبد بن عمر الحنفي وعددهم كعدد أهل مصر وأميرهم جميعا حرقوص بن زهير

(١) مجمع الزوائد للهيثمي ٧ / ٢٢٥ ، وقال فيه : رواه البزار فيه ماعز التميمي ذكره ابن حاتم ولم يجرحه أحد وبقية رجاله ثقات .

(٢) رفاق : جماعات .

السعدي سوى من تلاحق بهم مـن الناس فأما أهل مصر فإنهم كانوا يشـتهون عليا وأما أهل البصرة فإنهم كانوا يشتهون طلـحة وأما أهل الكوفة فإنهم كانوا يشتهون الزبير .

فخرجـوا وهم على الخروج جميع وفي الناس شـتى لا تشك كل فرقة إلا أن الفلج معـها وأن أمرها سيتم دون الآخـرين فخرجوا حـتى إذا كانوا في المدينة على ثلاث تقـدم ناس من أهل البصـرة ، فنزلوا ذا خشب وناس من أهل الكوفـة فنزلوا الأعوص وجاءهم نـاس من أهل مصر وتركوا عامـتهم بذي المروة ومشى فـيما بين أهل مـصر وأهـل البصـرة زياد بن النضـر الحـارثي وعبـد الله بن الأصم وقـالا : لا تعجلوا ولا تعـجلونا حتى ندخل لكم المدينـة ونرتاد فإنه بلغنا أنهم قـد عسكرو لنا فوالله إن كان أهل المدينة قد خافونا واستحلوا قتالنا ولم يعلموا علمنا فهم اذا علمو علمنا أشـد وأن أمرنا هذا الباطل وإن لـم يستحلوا قـتالنا ووجـدنا الذي بلغنا باطلا لنرجعن إليكم بالخبر .

قالوا : اذهبا فدخل الرجلان فلقيا أزواج النبي ﷺ وعلياً وطلحة والزبير قالا: إنما تأتم هذا البـيت وتستـعـفي هذا الوالي من بعض عـمـالنا مـا جـئنا إلا لذلك واستـأذناهـم للناس بالدخـول فكلهم أبى نهى وقال بيض مـا يفرخن فـرجعا إلـيهم فاجتمع أهل مصر نفر فأتوا علياً ومن أهل البصرة نفر فأتوا طلحة ومن أهل الكوفة نفـر فأتوا الزبيـر . وقـال كل فريق منهـم : إن بايعوا صـاحبـنا وإلا كدناهم وفـرقنا جـمـاعـتـهم ثم كـررنا حـتى نبغـتهم فـأتى المـصريـون عليـا وهو في عـسكر عند أحجـارالزيت عليه حـلة أفواف(١) معتم بشقـيقـه يمانية متـقلد السيف لـيس عليه قميص وقد سرح الحـسن الى عثمان فيمن اجتمع إليه فالحـسن جالس عند عثمان

(١) الأفواف : جمع فوف وهو القطن وفي اللسان : الفوف ضرب من برود اليمن .

وعلي عند أحجار الزيت فسلم عليه المصريون وعرضوا له فصاح بهم وطرّحهم وقال لقد علم الصالحون أن جيش ذي المروة وذي خشب ملعونون على لسان محمد ﷺ فارجعوا لاصبحكم الله قالوا : نعم فانصرفوا من عنده على ذلك .

وأتى البصريون طلحة وهو في جماعة أخرى إلى جنب علي وقد أرسل ابنيه الى عثمان فسلم البصريون وعرضوا له فصاح بهم وطردهم وقال لقد علم المؤمنون أن جيش ذي المروة وذي خشب والأعوص ملعونون على لسان محمد ﷺ وأتى الكوفيون الزبير وهو في جماعة أخرى وقد سرح ابنه عبد الله الى عثمان فسلموا عليه وعرضوا له فصاح بهم وطردهم وقال : لقد علم المسلمون أن جيش ذي مروة وذي خشب والأعوص ملعونون على لسان محمد ﷺ فخرج القوم وأروهم أنهم يرجعون فانفشوا عن ذي خشب والأعوصَ حتى انتهوا الى عساكرهم وهي ثلاث مراحل كي يفترق أهل المدينة ثم يكروا راجعين فافترق أهل المدينة لخروجهم .

فلما بلغ القوم عساكرهم كرو ا بهم فبغتوهم فلم يفجأ أهل المدينة إلا والتكبير في نواحي المدنية فنزلوا في مواضع عساكرهم وقالوا : من كف يده فهو آمن .

وصلى عثمان بالناس أياما ولزم الناس بيوتهم ولم يمنعوا أحدا من كلام فأتاهم الناس فكلموهم وفيهم علي فقال ما ردكم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم ؟ قالوا : أخذنا مع بريد كتابا بقتلنا .

وأتاهم طلحة فقال البصريون مثل ذلك وأتاهم الزبير فقال الكوفيون مثل ذلك وقال الكوفيون والبصريون فنحن ننصر اخواننا ونمنعهم جميعا وكأنما كانوا على ميعاد فقال لهم علي :

---

(١) اضاف ابن الأثير والأعوص وهو واد شمال شرقي المدينة وقد ذكر البلادي أنه على بعد ١٧ كم منها وذي المروة على بعد ثلاثمائة كم عن المدينة وذي خشب من أرض جهينة .

كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر وقد سرتم مراحل ثمـ طويتم نحونا ؟ هذا والله أمر أبرم بالمدينة قالوا فضعوه على ما شئتم ولا حاجة لنا في هذا الرجل ليعتزلناوهو في ذلك يصلي بهم وهم يصلون خلفه ويغشى من شاء عثمان وهم في عينه أدق من التراب وكانوا لا يمنعون أحدا من الكلام وكانوا زمرا بالمدنية يمنعون الناس من الاجتماع .

وكتب عثمان الى أهل الأمصار يستمدهم بسم الله الرحمن الرحيم .

أما بعد : فإن الله عز وجل بعث محمدا بالحق بشيرا ونذيرا فبلغ عن الله ما أمره به ، ثم مضى وقد قضى الذي عليه وخلف فينا كتابه فيه حلاله وحرامه ، وبيان الأمور التي قدر فأمضاها على ما أحب العباد وكرهوا فكان الخليفة أبو بكر رضي الله عنه وعمر رضي الله عنه ثم أدخلت في الشورى عن غير علم ولا مسألة من الأمة ثم أجمع أهل الشورى عن ملأ منهم ومن الناس علي على غير طلب مني ولا محبة فعملت فيهم ما يعرفون لا ينكرون تابعا غير مستتبع متبعا غير مبتدع مقتديا غير متكلف فلما انتهت الأمور وانتكث الشر بأهله بدت ضغائن وأهواء على غير إجرام ولا ترة فيما مضى إلا إمضاء الكتاب فطلبوا أمرا وأعلنوا غيره بغير حجة ولا عذر فعابوا علي أشياء مما كانوا يرضون وأشياء عن ملأ من أهل المدنية لا يصلح غيرها فصبرت لهم نفسي وكففتها عنهم منذ سنتين وأنا أرى وأسمع فازدادوا على الله جرأة حتى أغاروا علينا في جوار رسول الله ﷺ وحرمه وأرض الهجرة وثابت اليهم الأعراب فهم كالأحزاب يوم الأحزاب أو من غزانا بأحد إلاما يظهرون فمن قدر على ا للحاق بنا فليلحق . فأتى الكتاب أهل الأمصار فخرجوا على الصعبة والذلول . فبعث معاوية حبيب بن مسلمة الفهري وبعث عبدالله بن سعد معاوية بن خديج السكوني ،وخرج من أهل الكوفة القعقاع بن عمرو ..

ولما جاءت الجمعة التي على أثر نزول المصريين مسجد رسول الله ﷺ فصل بالناس ثم قام على المنبر فقال : يا هؤلاء العدى الله الله ! فوالله إن أهل المدينة ليعلمون انكم ملعونون على لسان رسول الله ﷺ فامحوا الخطايا بالصواب فإن الله عز وجل لا يمحوا السيء إلابالحسن فقام محمد بن مسلمة ، أنا أشهد بذلك فأخذه حكيم بن جبلة فأخذه فقام زيد بن ثابت فقال : ابغني الكتاب فثار إليه من ناحية أخرى محمد بن أبي قتيرة فقال فأفظع وثارالقوم بأجمعهم فحصبوا الناس حتى أخرجوهم من المسجد وحصبو ا عثمان حتى صرع عن المنبر مغشياً عليه فاحتمل فأدخل داره وكان المصريون لا يطمعون في أحد من أهل المدينة أن يساعدهم إلا في ثلاثة نفر كانوا يراسلونهم محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة وعمار بن ياسر وشمر أناس من الناس فاستقتلوا منهم سعد بن مالك وأبو هريره وزيد بن ثابت والحسن بن علي فأقبل اليهم عثمان بعزمه لماانصرفوا فانصرفوا وأقبل علي عليه السلام حتى دخل على عثمان وأقبل طلحة حتى دخل عليه ، وأقبل الزبير حتى دخل عليه يعودونه من صرعته ويشكون بثهم ثم رجعوا الى منازلهم .

كتب الى السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وأبي حارثة وأبي عثمان ، قالوا صلى عثمان بالناس بعدما نزلوا به في المسجد ثلاثين يوما ، ثم إنهم منعوه ا لصلاة ، فصلى بالناس أميرهم الغافقي ودان له المصريون والكوفين والبصريون ، وتفرق أهل المدنية في حيطانهم ولزموا بيوتهم لا يخرج أحد ولا يجلس إلا وعليه سيفه يمتنع به من رهق القوم وكان الحصار أربعين يوما وفيهن كان القتل ومن تعرض لهم وضعوا فيه السلاح وكانوا قبل ذلك ثلاثين يوما يكفون) (٢).

---

(١) ، (٢) تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري ٣٤٨/٤ - ٣٥٤ مقتطفات .

إن ما تم في المدينة هو انقلاب عسكري كامل سيطر فيه الثوارعلى المدينة سمحوا ابتداء بالكلام ثم منعوه وسمحوا ابتداء بالاجتماع ثم منعوه ثم منعوا تجول الناس وسيطروا بالقوة على المسجد وصار أمير الثوار هو الذي يصلي بالناس بعد أن منع عثمان عن الصلاة بالمسجد بعدما حصبوه وصرعوه وكان لا بد لعثمان بعد أن سيطروا بالقوة على المدينة أن يستنجد بالولاء من أهل الأمصار لينقذوا المدينة من احتلال المتمردين وفيها خيرة صحب النبي ﷺ وخيرة أهل الأرض وغاية ما يستطيعه الصحابي في المدينة أن يتوشح سيفه دفاعا عن نفسه بينما رابطت كتيبة فدائية على باب عثمان أمير المؤمنين لحمايته هذه المدنية الفاضلة وحكامها لم يكن يخطر لهم ببال أن الإجرام والجاهلية عاد من جديد لهذه الأمة فقد استعدوا قبل احتلال المدينة وطردوا الثوار ورأوا أن الثورة قد انتهت حين غادر الثوار المدينة وما حولها فتفرقوا لذهاب الفتنة وما توقعوا ان يصل الشر في الخبث والتخطيط الى هذا المدى ويعود المجرمون لاحتلال ا لمدينة وقدر الله واقع وهذه صورة مختصرة عن حصارعثمان من كتب الحديث .

وعن أبي سعيد مولى أبي اسيد قال بلغ عثمان أن وفد أهل مصر قد أقبلوا فتلقاهم في قرية له خارج المدينة وكره أن يدخلوا عليه أو كما قال : فلما علموا بمكانه أقبلوا إليه فقالوا ادع لنا بالمصحف فدعا يعني به فقال افتح : فقرأ حتى انتهى الى هذه الآية ﴿ قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم مه حراما وحلالا قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون ﴾ فقالوا : أحمى الله أذن لك أم على

(١) هناك رواية في سندها مجاهيل غير معروفين عن الحصار والروايات البقية كلها عن الواقدي تركناها لأنه متروك لا يتابع في هذا المجال انما يتابع في السير ، ولكثرة ما وضع على لسانه .

الله تفتري ؟ فقال : امض نزلت في كذاوكذا وأما الحمى فإن عمر حمى الحمى لإبل الصدقة فلما وليت فعلت الذي فعل وما زدت على مازاد ولا أراه إلا قال : وأنا يومئذ ابن كذا وكذا سنة قال ثم سألوه عن أشياء جعل يقول :امضه نزلت في كذا وكذا ثم سألوه عن أشياء عرفها لم يكن عنده فيها مخرج . فقال (استغفر الله ثم قال : ما تريدون ؟ قالوا نريد أن لا يأخذ أهل المدينة العطاء فإن هذا المال للذي قاتل عليه ولهذه الشيوخ من أصحاب محمد ﷺ قال : فرضي ورضوا قال : وأخذوا عليه قال وكتبوا عليه كتابا وأخذ عليهم أن لا يشقوا عصا ولا يفارقوا جماعة قال فرضي ورضوا قال : فأقبلوا معه الي المدينة فحمد الله واثنى عليه ثم قال : والله إني مارأيت وفدا هم خيرمن هذاالوفد ألا من كان له زرع فليلحق بزرعه ومن كان له ضرع فليحتلبه ألا إنه لا مال لكم عندنا انما هذا المال لمن قاتل عليه ولهؤلاء الشيوخ من أصحاب محمد ﷺ فغضب الناس وقالوا : هذا مكر بني أمية ورجع الوفد راضون فلما كانوا ببعض الطريق إذا راكبه يتعرض لهم ثم يفارقهم ويعود اليهم ويسهم فأخذوه فقالوا : ما شأنك قال : أنا رسول أميرالمؤمنين الى عامله بمصر ففتشوه فإذا معه كتاب على لسان عثمان عليه خاتمه أن يصلبهم أو يضرب أعناقهم أو يقطع أيديهم وأرجلهم قال فرجعوا وقالوا : قد نقض العهد وأحل الله دمه فقدموا المدينة فأتوا عليا فقالوا : ألم تر إلى عدو الله كتب فينا كذا وكذا قم معنا إليه . فقال : والله لا أقوم معكم . قال : فلم كتب إلينا قال : والله ماكتب إليكم كتابا قط فنظر بعضهم الى بعض ثم قال بعضهم ألهذا تقاتلون أم لهذا تغضبون وخرج علي فنزل بقرية خارج المدينة فأتوا عثمان فقالوا : كتب فينا بكذا وكذا فقال : إنما اثنتان أن تقيموا شاهدين أو يمين الله وما كتبت ولا أمليت ولا علمت وقد تعلمون الكتاب يكتب على لسان الرجل وقد ينقش الخاتم على الخاتم قال فحصروه فأشرف عليهم ذات يوم فقال : السلام علكيم فما أسمع

رد عليه أحدا إلا أن يرد رجل بنفسه فقال : أنشدكم الله أعلمتم اني اشتريت رومة من مالي استعذب بها فجعلت رشائي فيها كرشاء رجل من المسلمين؟ قيل : نعم قال: فعلام تمنعوني أشرب من مائها حتى أفطر على ماء البحر. قال : أنشدتكم الله فهل علمتم أني اشتريت كذا وكذا من مالي فزدته في المسجد . قالوا : نعم . قال: فهل علمتم أن أحدا منع فيه الصلاة قبلي ثم ذكر شيئا قاله له رسول الله ﷺ وأراه ذكر كتابته المفصل بيده ففشا الخبر وقيل : مهلا عن أمير المؤمنين)[1] .

عمرو بن العاص يغادر المدينة :

في هذه الأجواء ومنذ ابتدأ الحصار أدرك عمرو بن العاص رضي الله عنه ببعيد نظره أن البقاء في المدينة لا يجدي شيئا ولن يتمكن المسلمون في داخلها من مواجهة هذه الثورة المسلحة وأن الباقين في المدينة سيتحملون وزر ضعفهم عن نصرة الخليفة فعزم على مغادرة المدينة حتى لا يحمل هذا الوزر وندع الحديث لرواة الطبري المقبولين .

(لما أحيط بعثمان رضي الله عنه خرج عمرو بن العاص من المدينة متوجها إلى الشام وقال : والله يا أهل المدينة ما يقيم بها أحد فيدركه قتل هذا الرجل الا ضربه الله عز وجل بذل ، من لم يستطع نصره فليهرب فسار وسار معه ابناه عبدالله ومحمد وخرج بعده حسان بن ثابت وتتابع على ذلك ما شاء الله)[2]

(١) مجمع الزوائد للهيثمي ٢٢٨/٧ - ٢٢٩ وقال فيه : قلت : روى الترمذي بعضه رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير أبي سعيد مولى أسيد وهو ثقة .

(٢) تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري ٤ / ٥٥٨ وهي رواية السري عن شعيب عن سيف عن محمد طلحة وأبي حارثة وأبي عثمان .

شورى دهاة الأمة لعثمان :

لقدكان عثمان رضي الله عنه يمثل الحق الذي تلتقي عليه الأمة

وقد جاءه دهاة الأمة الثلاثة فعرضوا عليه الحلول التي عندهم .

لقد شهدنا حلول معاوية رضي الله عنه حين قال له :

وكان معاوية قد قال لعثمان حين ودَّعه وخرج :

يا أمير المؤمنين انطلق معي الى الشام قبل أن يهجم عليك من لا قبل لك به فإن أهل الشام على الأمر لم يزالوا فقال : أنا لا أبيع جوار رسول الله ﷺ بشيء وان كان فيه قطع خيط عنقي .

قال : فأبعث لك جندا منهم يقيم بين ظهراني المدينة لنائبة إن نابت المدينة أو إياك قال : أنا أقتر على جيران رسول الله ﷺ الأرزاق بجند تساكنهم وأضيق على أهل دار الهجرة والنصرة قال : والله يا أمير المؤمنين لتغتالن أو تغزين قال حسبي الله ونعم الوكيل)[1] .

أما المغيرة بن شعبة فهذه قصته مع أمير المؤمنين عثمان .

(وعن المغيرة بن شعبة أنه دخل على عثمان وهو محصور فقال : إنك إمام العامة وقد نزل بك ماترى وأنا أعرض عليكم خصالا ثلاثا فاختر إحداهن .

إما أن تخرج فتقاتلهم فإن معك عدد أوقوة وأنت على الحق وهم على الباطل ؟ وإما أن تخرق لهم بابا سوى الباب الذي هم عليه فتقعد وأهلك فتلحق بمكة فإنهم لن يستحلوك وأنت بها واما أن تلحق بالشام فإنهم أهل الشام وفيهم معاوية فقال عثمان :

---

(١) سبق أن عرضنا هذا القسم من الرواية بسنده المقبول عند الطبري .

أمـا أن أخـرج فـأقاتـلهم فلن أكـون أول من خلف رسـول الله ﷺ في أمـته بسفك الدمـاء واما أن أخرج إلى مكة فإنهم لن يسـتحلوني ، فإني سمـعت رسول الله ﷺ يقـول : يلحد رجل من قـريش بمكة يكون عليـه نصف عذاب العـالم فلن أكـون أنا إياه وأمـا أن ألحق بالشـام فـإنهـم أهل الشـام وفـيـهم مـعـاوية فلن أفـارق دارهجرتي ومجاورة رسول الله ﷺ)[1] .

وأما داهيتنا الـثالث عمرو بن العاص فـقد لخص مشورته بضـرورة استكمال الشدة مع هؤلاء العصاة .

(قال : فماترى ياعمرو : قال :

أرى أنك قـد لنت لهم وتراخـيت عنهم وزدتهم على مـا كـان يصنع عمـر فأرى أن تلزم طريقـة صاحبيك فتـشتد في موضع الشـدة وتلين في موضع اللين إن الشدة تنبغي لمن لا يألوا شرا واللين لمن يخلف الناس بالنصح)[2] .

ونلاحظ أن دهاة الأمة الثـلاثة يطالبون أمير المؤمنين عثـمان باستعـمال القوة والشدة مع هؤلاد الثائرين والمتـمردين لكن عثمان كان يحكمه امـران أوصاه بهما رسول الله ﷺ .

الأول : أن لا يتنازل عن الخلافـة لهؤلاء العصاة .

« يا عثمـان : إن الله مقمصك فمـيصا ، فإن أرادك المنافقـون على خلعه فلا تخلفه حتى تلقاني »[3] .

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمي ٢٢٩/٧ ـ ٢٣٠ وقال فيه : رواه أحمد ورجاله ثقات إلا أن محمد بن عبد الملك بن مروان لم أجد له سماعا من المغيرة قلت ولهذا الحديث طرق في فضل مكة في الحج .

(٢) سبق أن عرضناه في رواية سابقة .

(٣) صـحيح الجـامع الصـغيـر ٢٩٧/٦ . وقال عنه الألبـاني صـحيح وقـد رواه أحـمد وابن مـاجة والحـاكم والترمذي عن عائشة .

الثاني : أن لا يقاتل على سلطانه .

(فعن عثمان قال قال رسول الله ﷺ : إنك ستتبلى بعدي فلا تقاتلن)[1] .

أما أنه ميزان الحق عند الفتنة فحديث عبد الله بن حوالة يوضح ذلك .

(وعن عبد الله بن حوالة قال : أتيت رسول الله ﷺ وهوجالس في ظل دومة[2] قال : يا ابن حوالة ؟: كيف نفعل في فتن تخرج من أطراف الأرض كأنها صياصي البقر ؟ قلت : لا أدري ما خار الله لي ورسوله قال : فكيف تفعل في أخرى تخرج بعدها كأن الأخرى فيها انتفاجة أرنب ؟ قلت : لا أدرى ما خار الله لي ورسوله . قال :

ابتغوا هذا ورجل مقفى حينئذ فانطلقت فسعيت فأخذت في منكبه فأقبلت بوجهه إلى رسول الله ﷺ قلت هذا : قال : نعم . فإذا هو عثمان بن عفان)[4] .

مقتل عثمان أمير المؤمنين :

كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وأبي حارثة وعثمان قالوا :

كان الحصر أربعين ليلة والنزول سبعين فلما مضت من الأربعين ثمان عشر ة، قدم ركبان من الوجوه فأخبروا خبر من قد تهيأ إليهم من الآفاق : حبيب من الشام ومعاوية (بن حديج) من مصر والقعقاع من الكوفة ومجاشع من البصرة

---

(١) مجمع الزوائد للحافظ الهيثمي ٧/٢٢٥ وقال فهي : رواه ابو يعلي في الكبير عن شيخ غير منسوب ولم أعرفه وبقية رجاله ثقات .

(٢) دومة : شجرة .

(٣) انتفاجة أرنب : ثورته .

(٤) مجمع الزوائد للهيثمي ٧ / ٢٢٥ وقال فيه : رواه أحمد والطبراني ورجالهما رجال الصحيح .

فعندها حالوا بين الناس وبين عثمان ومنعوه كل شيء حتى الماء وقد كان يدخل عليٌّ بالشيء ممايريد ، وطلبوا العلل فلم تطلع عليهم علة فعثروا في داره بالحجارة ليرموا فيقولوا : قوتلنا وذلك ليلا فناداهم : ألا تتقون الله : ألا تعلمون أن في الدار غيري! قالوا :لاوالله ما رميناك . قال : فمن رمانا ؟ قالوا : الله . قال : كذبتم إن الله عز وجل لو رمانا لم يخطئنا وأنتم تخطئوننا وأشرف عثمان على آل حزم وهم جيرانه فسرح ابنا لعمرو إلى علي بأنهم قد منعونا الماء ، فإن قدرتم أن ترسلوا إلينا شيئا من الماء فافعلوا ، وإلى طلحة وإلى الزبير ،وإلى عائشة رضي الله عنها وأزواج النبي ﷺ فكان أولهم إنجادًا له علي وأم حبيبة جاء علي في الغلس فقال : يا أيها الناس إن الذي تصنعون لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين ، لاتقطعوا عن هذا الرجل المادة فإن الروم وفارس لتأسر فتطعم وتسقي وما تعرض لكم هذاالرجل فيم تستحلون حصره وقتله ؟ قالوا : لا والله ولانعمة عين لا نتركه يأكل ويشرب فرمى بعمامته في الدار بأني قد نهضت فيما أنهضتني فرجع وجاءت أم حبيبة على بغلة لها برحالة (٢) مشتملة على إداوة فقيل أم المؤمنين أم حبيبة ، فضربوا وجه بغلتها . فقالت : إن وصايا بني أمية إلى هذاالرجل فأحببت أن ألقاه فأسأله عن ذلك كيلا تهلك أموال أيتام وأرامل قالوا : كاذبة وأهووا لها وقطعوا حبل البغلة بالسيف فندت بأم حبيبة فتلقاها الناس ، وقد مالت راحلتها فتعلقوا بها وأخذوها وقد كادت تقتل فذهبوا بها إلى بيتها وتجهزت عائشة خارجة إلى الحج وبقي عثمان يسقيه آل حزم في الغفلات وعليهم الرقباء فأشرف عثمان على الناس وقال : يا عبد الله بن عباس فدعي له فقال : اذهب فأنت على الموسم وكان ممن لزم الباب فقال : والله يا أمير المؤمنين لجهاد هؤلاء أحب الي من الحج فأقسم عليه لينطلقن

(١) رجل مقضي : رجل ظهر قضاه .

(٢) الرحالة : السرج من الجلود .

فانطلق ابن عياس على الموسم تلك السنة ، ورمى عثمان إلى الزبير بوصيته ، فانصرف بها وفي الزبيراختلاف أدرك مقتله أوخرج قبله . وقال عثمان : ﴿ يا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ماأصاب قوم نوح .. ﴾[1] الآية اللهم حل بين الأحزاب وبين ما يأملون كما فُعل بأشياعهم من قبل) .

كتب إلى السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة ، وأبي حارثة وأبي عثمان . قالوا : فلما بويع الناس جاء السابق فقدم بالسلامة فأخبرهم من الموسم [2] انهم يريدون جميعا المصريين وأشياعهم وأنهم يريدون أن يجمعوا ذلك الى حجهم فلماأتاهم ذلك مع ما بلغهم من نفور أهل الأمصار وأعلقهم الشيطان ، وقالوا لا يخرجنا مما وقعنا فيه إلا قتل هذا الرجل فيشغل بذلك الناس عنا ولم يبق خصلة يرجون بها النجاة إلاقتله فراموا الباب فمنعهم من ذلك الحسن وابن الزبيرومحمد بن طلحة ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص ومن كان من أبناء الصحابة أقام معهم واجتلدوا فناداهم عثمان الله الله أنتم في حلٍ من نصرتي فأبوا ففتح الباب وخرج ومعه الترس والسيف لينهنههم فلما رأوه أدبر المصريون وركبهم هؤلاء ونهضهم فتراجعوا وعظم على الفريقين وأقسم على الصحابة ليدخلن فأبوا أن يَنصرفوا فدخلوا فأغلق الباب دون المصريين ، فاتخذ عثمان تلك الأيام القرآن نحبًا [3] يصلي وعند المصحف فإذا أعيا[4] جلس وقرأ فيه وكانوا يرون القراءة في المصحف من العبادة ... وكان القوم الذين كفكفهم بينه وبين الباب فلما بقي المصريون لا يمنعهم أحد من الباب ولا يقدرون على الدخول جاؤوا بنار فأحرقوا

---

(١) سورة هود / ٨٩ .

(٢) القصد بالموسم الحج وأن الناس قادمون بعد الحج لنصرة عثمان وحرب الثائرين عليه .

(٣) نحبًا : أي هنأ وعادة .

(٤) أعيا : تعب .

الباب والسقيفة فتأجج الباب والسقف حتى إذا احترق الخشب خرت السقيفة علي الباب فثار أهل الدار وعثمان يصلي حتى منعوهم من الدخول وكان أول من برز لهم المغيرة بن الأخنس وهو يرتجز :

قد علمت جارية عطبول [1] ذات وشاح ولهاجديل [2]

أني ينصل السيف خنشليل [3] لامنعن منكم خليلي

بصارم ليس بذي فلول

وخرج الحسن بن علي وهو يرتجز

لا دينهم ديني ولا أنا منهم حتى أسير إلى طمار شمام[4] .

وخرج محمد بن طلحة وهو يقول : أما ابن من حامى عليه بأحد ورد أحزابا على رغم معد وخرج سعيد بن العاص وهو يقول :

صبرنا غداة الروع والموت واقب [5] بأسيافنا دون ابن أروى نضارب

وكنا غداة الروع في الدار نصرة نشافههم بالضرب والموت ثاقب .

فكان آخر من خرج من الدار عبد الله بن الزبير وأمره عثمان أن يصير إلى أبيه في وصية بما أراده)[6] .

---

(١) العطبول : المرأة الفتية الجميلة الممتلئة الطويلة العنق .

(٢) جديل : من جدائل الشعر .

(٣) الخنشليل :العمول بالسيف الجيد الضرب به .

(٤) طمارشام : الجبل العالي المرتفع أو اسم لجبل في بلاد قشبر .

(٥) واقب : مُطل وظاهر .

(٦) تاريخ الأمم والملوك لابن جرير والطبري ٣٨٥/٤ - ٣٨٩ .

الساعات الأخيرة :

كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وأبي حارثة وأبي عثمان قالوا :

وأحرقوا الباب وعثمان في الصلاة وقد افتتح ﴿ طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ وكان سريع القراءة فما كرثه[1] ما سمع ، وما يخطىء وما يتتعتع[2] حتى أتى عليها قبل أن يصلوا إليه ثم عاد فجلس الى عند المصحف وقرأ : « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل .

وارتجز المغيرة بن الأخنس وهو دون الدار في أصحابه

قد عملت ذات القرون الميل والحلي والأنامل الطفول[3]

لتصدقن بيعتي خليلي بصارم ذي رونق مصقول

لا أستقيل إن أُقلتُ قيلي

وأقبل أبوهريرة والناس محجمون عن الدار إلا أولئك العصبة فقد سروا[4] فاستقتلوا فقام معهم وقال :أنا أسوتكم وهذا يوم طاب امضرب يعني أنه حل القتال وهذه لغة حمير ونادى : « يا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار » وبادر مروان يومئذ ونادى رجل رجل فبرز له رجل من بني ليث يدعى النباع فاختلفا فضربه مروان أسفل رجليه وضربه الاخر على أصل العنق فقلبه فانكب

---

(١) كرثه الأمر : إذا أغمه واثقله .

(٢) يتتعتع : يتردد به لسانه .

(٣٥) الطفول : الرفض الناعم والجمع طفال طفول .

(٤) دسروا : دفعوا .

مروان واستلقى فاجتر هذا صحابه واجتر الآخر أصحابه . فقال المصريون : والله لولا أن تكونوا حجة علينا في الأمة لقد قتلنا كم بعد تحذير فقال المغيرة : من يبارز؟ فبرز له رجل فاجتلد وهو يقول :

أضربهم باليابس ضرب غلام بائس   من الحياة آيس

فأجابه صاحبه ... وقال الناس : قتل المغيرة بن الأخنس ، فقال الذي قتله ، إنا لله فقال عبدالرحمن بن عديس مالك ؟ قال : إني أتيت فيما يرى النائم فقيل لي : بشر قاتل المغيرة بن الأخنس بالنار فابتليت به .

وقتل قباث الكناني نيار بن عبد الله الأسلمي واقتحم الناس الدار من الدور التي حولها حتى ملؤوها ولا يشعر الذين بالباب ، وأقبلت القبائل على أبنائهم فذهبوا بهم إذ غُلبوا على أميرهم وندبوا رجلا لقتله فانتدب له رجل فدخل عليه البيت . فقال : اخلعها وندعك فقال . ويحك والله ماكشفت امرأة في جاهلية ولا إسلام ولا تغنيت[١] ولا تمنيت[٢] ولا وضعت يميني على عورتي منذ بايعت رسول الله ﷺ ولست خالعا قميصا كسانيه الله عز وجل وأنا على مكاني حتى يكرم الله أهل السعادة ويهين أهل الشفاء .

فخرج وقالوا : ما صنعت ؟ فقال : علقنا والله والله ما ينجينا من الناس إلا قتله ومايحل لناقتله فأدخلوا عليه رجلا من بني ليث فقال : ممن الرجل؟ فقال : ليثي فقال : لست بصاحبي وقاله : وكيف ؟ قال : ألست الذي دعا لك النبي ﷺ في نفر أن يحفظوا يوم كذا وكذا ؟ قال : بلى ، قال : فلن تضيع ، فرجع وفارق

---

(١) صححها محقق تاريخ ابن عساكر بتعيت : من العتوه والتجبر .

(٢) لا تمنيت : كذبت .

القوم فأدخلوا عليه رجلا من قريش فقال ياعثمان ! إني قاتلك ، قال : كلا يا فلان لا تقتلني ، قال : وكيف :قال : إن رسول الله ﷺ استغفر لك يوم كذاوكذا فلن تقارف دما حراما فاستغفر ورجع وفارق أصحابه .

وأقبل عبد الله بن سلام حتى قام على باب الدار ينهاهم عن قتله وقال :

يا قوم لا تسلوا سيف الله عليكم فوالله إن سللتموه لاتغمدوه ويلكم ان سلطانكم اليوم يقوم بالدرة فإن قتلمتوه ولا يقوم إلا بالسيف ويلكم إن مدينتكم محفوفة بملائكة الله والله لئن قتلتموه لتتركتها فقالوا : يا ابن اليهودية[1] وما أنت وهذا ورجع عنهم .

قالوا : وكان آخر من دخل عليه ممن رجع إلى القوم محمد بن أبي بكر فقال له عثمان : ويلك أعلى الله تغضب ؟! هل لي اليك جرم إلا حقه الذي أخذته منك ! فنكل ورجع .

قالوا : فلما خرج محمد بن أبي بكروعرفوا انكساره ثار قتيرة ، وسودان ابن حمران السكونيان والغافقي فضربه الفافقي بحديدة معه وضرب المصحف برجله فاستدار المصحف فاستقر بين يديه وسالت عليه ا لدماء وجاء سودان بن عمران ليضربه فانكبت عليه نائلة ابنة الفرافصة [2] واتقت السيف بيدها فتعمدها ونفح أصابعها فأطن أصابع[3] يدها فولت فغمز أوراكها وقال : إنها لكبيرة العجيزة وضرب عثمان فقتله ودخل غلمه لعثمان مع ا لقوم لينصروه وقد كان عثمان أعتق

---

(١) يعيرونه باليهودية اذا كان من أحبار اليهود وأسلم وانزل ا لله تعالى في اسلامه قرآنا وغدا من كبار الصحابة .

(٢) وهي زوجته .

(٣) أطن أصابع يدها أطارها .

من كف منهم فلمارأوا سودان قد ضربه أهوى بعضهم فضرب عنقه فقتله ووثب قتيرة على الغلام فقتله وانتهبوا ما في البيت وأخرجوا من فيه ثم أغلقوه على ثلاثة قتلى . فلما خرجوا إلى الدار وثب غلام لعثمان اخر على قتيرة فقتله ودار القوم فأخذوا ما وجدوا حتى تناولوا ما على النساء وأخذ رجل ملاءة نائلة والرجل يدعى كلثوم بن تجيب فتنحت نائلة فقال ويح أمك من عجيزة ما أتمك وبصر به غلام لعثمان فقتله وقتل وتنادى القوم : أبصر رجل من صاحبه وتنادوا في الدار : أدركوا بيت المال لا تسبقوا اليه وسمع أصحاب بيت المال أصواتهم وليس فيه إلا غراراتان، فقالوا: النجاء فإن القوم إنما يحاولون الدنيا فهربوا وأتوا بيت المال فانتهبوه وماج الناس فيه فالتانئ[1] يسترجع ويبكي والطارىء يفرح . وندم القوم وكان الزبير قد خرج من المدنية فأقام على طريق مكة لئلا يشهد مقتله . فلما أتاه الخبر بمقتل عثمان وهو بحيث هو قال إنا لله وإنا اليه راجعون رحم الله عثمان وانتصر له وقيل: إن القوم نادمون ! فقال : دبروا دبروا « وحيل بينهم وبين ما يشتهون » الآية وأتى الخبر طلحة ، فقال رحمه الله عثمان وانتصر له وللإسلام وقيل له : إن القوم نادمون ، فقال تبًا لهم وقرأ « فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون وأتى علي فقيل : قُتِل عثمان . فقال : رحم الله عثمان وخلف علينا بخبر وقيل : ندم القوم فقرأ : « مثل الشيطان اذ قال للانسان اكفر » الآية و طلب سعد فإذا هو في حائطه. وقد قال : لا أشهد قتله فلماجاءه قتله فقال : فررنا الى المدينة بديننا[1] وقرأ : ﴿ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾ اللهم أندمهم ثم خذهم)[3] .

---

(١) التانيء : المقيم .

(٢) وتصحيحها كما وردت في تاريخ دمشق لابن عساكر (عثمان بن عفان / ٤٤٧) فررنا الى المدينة بديننا فصرنا اليوم نفر منها بديننا .

(٣) تاريخ الرسل والملوك لابن جرير الطبري ٤ / ٣٨٥ - ٣٩٢ مقتطفات .

وهذه صورة مختصرة عن مقتله من كتب الحديث :

وعن وثاب وكان ممن أدركه عتق عثمان وكان يقوم بين يدي عثمان قال :

بعثني عثمان فدعوت له الأشتر قال ابن عون فأظنه قال : فطرحت له وسادة ولأمير المؤمنين وسادة . قال : يا أشتر ، ما يريد الناس مني ؟ قال : ثلاثا ما من احداهن بد قال : ما هن ؟ قال : يخبرونك بين أن تدع لهم أمرهم فتقول : هذا أمركم فاختاروا له من شئتم وبين أن تقتص من نفسك فإن أبيت فإن القوم قاتلوك قال : ما من احداهن بد ؟! قال : ما من إحداهن بد قال : أما أن أخلع لهم أمرهم فما كنت لأخلع سربالا سربلته قال وقال الحسن قال : والله لأن أقدم فتضرب عنقي أحب إلي من أن أخلع أمر أمة محمد ﷺ ينزو بعضها على بعض وهذا أشبه بكلام عثمان وأما أن أقتص من نفسي فوالله لقد علمت ان صاحباي كانا يعاقبان وما يقوم بدني للقصاص وأما أن يقتلوني فوالله لئن قتلتموني لا تحابون بعدي أبدا ولا تقاتلون بعدي عدواً جميعا أبدا فقام الاشتر فانطلق فمكثنا فقلنا : لعل الناس إذ جاء رجل كأنه ذئب فاطلع من باب ثم رجع ثم جاء محمد بن أبي بكر في ثلاثة عشر رجلا حتى انتهوا الى عثمان فأخذ بلحيته فقال بها وقال بها حتى سمعنا وقع أضراسه فقال : ما أغنى عنك معاوية ما أغنى عنك ابن عامر ما أغنى عنك كتبك قال أرسل لحيتي يا بن أخي . قال فأنا رأيته استدعى رجلا من القوم بعينه فقام اليه بمشقص حتى وجأبه في رأسه قلت ثم مه قال : تعاونواو الله عليه حتى قتلوه) [1] .

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمي ٧/٢٣٢ ، وقال فيه : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير وثاب وقد ذكره ابن حاتم ولم يجرحه أحد .

وعن مسلم أبي سعيد مولى عثمان بن عفان أن عثمان بن عفان أعتق عشرين عبدا مملوكا ودعا بسراويل فشدها عليه ولم يلبسها في جاهلية ولا إسلام وقال : إني رأيت رسول الله ﷺ البارحة في المنام وأبا بكر وعمر فقالوا لي : اصبر فإنك تفطر عندنا القابلة ثم دعا بمصحف فنشره بن يديه فقتل وهو بين يديه) (١) .

وعن أبي معشر قال : وقتل عثمان لعشرة مضت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين كانت خلافته ثنتي عشرة سنة الا اثني عشر يوما)(٢) .

دفن عثمان :

وأما سيف فإنه روى فيما كتب به الى السري عن شعيب عنه عن أبي حارثة وأبي عثمان ومحمد وطلحة : أن عثمان لماقتل أرسلت نائلة إلى عبد الرحمن بن عديس فقالت له : إنك أمس القوم في رحما وأولاهم أن تقوم بأمري أغرب عني هؤلاء الأموات . قال فشتمها وزجرها حتى إذا كان في جوف الليل خرج مروان حتى أتى دار عثمان فأتاه زيد بن ثابت وطلحة بن عبيد الله وعلي والحسن وكعب بن مالك وعامة من ثم من أصحابه فتوافى إلى موضع الجنائز صبيان ونساء . فأخرجوا عثمان فصلى عليه مروان ، ثم خرجوا به حتى انتهوا إلى البقيع فدفنوه فيه مما يلي حش كوكب ، حتى إذا أصبحوا أتوا أعبد عثمان الذين قتلوا معه فأخرجوهم فرأوهم فمنعوهم من أن يدفنوا فأدخلوهم حش كوكب فلما أمسوا خرجوا بعيدين عنهم فدفنوهم إلى جانب عثمان ومع كل واحد منهما خمسة نفر وامرأة(٣) وفاطمة أم ابراهيم بن عدي ثم رجعوا فأتوا كنانة بن بشر فقالوا : إنك أمس القوم بنا رحمًا فأمر بهاتين الجيفتين (٤) اللتين في الدار أن تُخرجا فكلمهم في ذلك فأبوا فقال : أنا جار لآل عثمان من أهل مصرومن لفَّ لفهم فاخرجوهما

(١) المصدرنفسه ٧/٢٣٢ ، وقال فيه رواه عبد الله وأبويعلي في الكبير ورجالهما ثقات .

(٢) المصدر نفسه / ٢٣٢ وقال فيه : رواه أحمد وإسناده منقطع .

(٣) أي مع كل عبد مقتول خمسة نفر يحملونه .

(٤) وهما جثتا قبرة وسودان قتلة عثمان اللذين قتلا على يد غلاميه .

فارموا بهما فجُرا بأرجلهما فرمي بهما على البلاط فأكلتهما الكلاب وكان العبدان اللذان قتلا يوم الدار يقال لهما نجيح وصبيح فكان اسماهما الغالب على الرقيق لفضلهما وبلائهما ولم يحفظ الناس اسم الثالث ، ولم يغسل عثمان وكفن في ثيابه ودمائه ولا غسل غلاماه .

وكتب الى السري عن شعيب عن سيف عن مجالد عن الشعبي قال : دفن عثمان رضي الله عنه من الليل وصلى عليه مروان بن الحكم وخرجت ابنته تبكي في أثره ونائلة بنت الفرافصة رحمهم الله(١) .

لقد كانت حادثة مقتل عثمان رضي الله عنه أكبر مأساة في التاريخ الإسلامي حتى ذلك الوقت فمقتل عمر رضي الله عنه جاء والمسلمون كلمتهم واحدة والذي قتله مجوسي لم يسجد لله سجدة أما مقتل عثمان رضي الله عنه فقد كان تحديا لإرادة الأمة وإرادة أهل الحل والعقد فيها الذين كانوا سكان المدينة وأصحاب بدر وأصحاب بيعة الرضوان فيها وقد تم احتلال المدينة احتلالا عسكرياً منع فيه التجول ومنع فيه الاجتماع ولم يتم دفن عثمان الا بالسر خوفا من الثوار وهؤلاء الثوار هم مجموعة من الأعراب من البصرة والكوفة ومصر حركهم ونسّق بينهم وأوجدهم عبد الله بن سبأ اليهودي وخافوا من القضاء عليهم عندما تحركت الجيوش من الأمصار لنصرة عثمان رضي الله عنه فسارعوا في قتل أمير المؤمنين أعظم شخصيات المسلمين وعنوان وحدة الأمة وكون هذا تيارا عنيفا طاب فيه الاستشهاد لمواجهة قتلة عثمان المجرمين العصاة الباغين .

وفي هذه الظروف الصعبة المعقدة تمت البيعة لعلي رضوان الله عليه ورفض

---

(١) تاريخ الطبري ٤ / ٤١٤ ـ ٤١٥ هذا وقد أضربنا عن بقية الروايات عن مقتل عثمان فهي كلها روايات الواقدي .

بيعـة الثوار ابتداء ولم يرض إلا بيعـة السابقين الأولين من المهاجـرين والأنصار وهم أولو الحل والعقـد في الإسلام لكن الثوار المجـرمين بقوا في جيش علي وانقـسمت الأمـة على أثر هذاالحادث الـرهيب الى معـسكرين ، معسكـر مع الإمام الشـرعي للمسلمين علي رضوان الله عليه ومعسكر يقوده معاوية رضي الله عنه والي عثمان علي الشام وقـريب عثـمان وابن عمـه والمطالب بدمه وهذا المعـسكر لا يناقش في شرعية أمير المؤمنين . إنما يناقش في ضرورة عـقاب القتلة المجرمين وتنفيذ حكم الله فيهم كما ينفذ في البغاة المجرمين الخارجين على الإمام .

وحـيث أن عـمـرو رضي الله عنه غـادر المـدينة غـاضـبـا حـاقـدا على الذين حاصـروا عثـمان ورأى ببـعد نظـره أن القوم قـاتلوه لا محـالة وأنه لا يملك السلطة والقوة لنصرته فغادر المدينة ينتظر تطور الأوضاع ليتخذ الموقف المناسب .

وماكان للأمـة أن تسكت عن مقتل خليفـتها مهماكـلفها ذلك من ثمن ولا بد أن تعـاقب كلها لتـفريطهـا في دمه (فـعن عبـد الله بن سلام أنه قـال حين هاج الناس في أمر عـثمان : أيهـا الناس لاتقتلوا هذا الشـيخ واستبـقوه فإنه لن تقـتل أمة نبيـها فـيصلح أمـرهم حتى يهـراق دماء سبـعين ألفا منهم ولن تقـتل أمة خليـفتـها فيصلح أمرهم حتى يهراق دماء أربعين ألفا منهم فلم ينظروا فيما قال وقتلوه فجلس لعلي على الطريق فقـال : أين تريد ؟ قال : أريد أرض العراق قـال : لا تأت العراق وعليك بمنبر رسول الله ﷺ فوثب اليه ناس من أصحاب علي وهموا به فقال علي دعـوه فـإنه من أهل البـيت فلمـا قتـل علي قال عـبـد الله لابن مـعـقل : هذه رأس الأربعين وسيكون على رأسها صـلح ولن تقتل أمة نبيها الا قتل به سـبعون ألفا ولن تقتل أمة خليفتها الا قتل به أربعون الفا) [1].

---

(١) مجـمع الزوائد للهيـمثي ٧ / ٢٤٦ ـ ٢٤٧ . وقـال فيه : رواه الـطبراني من طريقين ورجـال هذه رجال الصحيح وله طريق في مناقب عثمان رضي الله عنه .

عمرو ينضم إلى معاوية مطالباً بدم عثمان

عندنا روايتان في تاريخ الطبري عن انضمام عمرو إلى معاوية .

الرواية الأولى بسند الطبري المقبول عند علماء والسير والتاريخ والرواية الثانية هي رواية الواقدي عن موسى بن يعقوب عن عمه وسنعرض للروايتين ونشهد مدى التشويه والمسخ في الرواية الضعيفة المرفوضة بعد استعراض الرواية الصحيحة وبين يدينا رواية صحيحة ثانية تمهد للوضع النفسي الذي كان فيه عمرو بن العاص رضي الله عنه حول وضع الأمة آنذاك .

أمير الأرض المقدسة :

كتب إلى السري عن شعيب عن سيف عن محمد بن عبد الله عن أبي عثمان قال : كان النبي ﷺ قد بعث عمرا إلى عُمان . فسمع هنالك من حبر شيئا. فلما رأى مصداقه وهو هناك أرسل إلى ذلك الحبر ، فقال : حدثني بوفاة رسول الله ﷺ وأخبرني من يكون بعده ؟

قال الذي كتب إليك يكون بعده ، ومدته قصيرة . قال : ثم من ؟ قال : رجل من قومه مثله في المنزلة ، قال : فما مدته ؟ قال :طويلة ، ثم يقتل . قال : غيلة أم عن ملأ ؟ قال : غيلة قال : فمن يلي بعده ؟ قال : هل من قومه مثله في المنزلة . قال : فما مدته ؟ قال : طويلة ،ثم يقتل ، قال : أغيلة أم عن ملأ ؟ قال : عن ملأ (أي عمرو) : ذلك أشد فمن يلي بعده ؟ قال : رجل من قومه ينتشر عليه الناس وتكون على رأسه حرب شديدة بين الناس ثم يقتل قبل أن يجتمعوا عليه قال : أغيله أم عن ملأ ؟ قال : غيلة . ثم لا يرون مثله قال : فمن بلي بعده ؟ قال : أمير الأرض المقدسة فيطول ملكه فيجتمع عليه أهل تلك الفرقة وذلك الانتشارعليه ثم يموت) [1] .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبري ٤ / ٥٦٠ ، وقد سبق أن مرت هنا رواية قريبة منها تتحدث عن لقاد عمرو رضي الله عنه مع الحبر اليهودي الذي حدثه حتى خلافة عمر رضي الله عنه .

فالصورة في ذهن عـمرو رضي الله عنه حول احتمـالات الحرب والفرقة بين المسلمين ليسـت بعيدة عنه ومـتابعتـه لتطورات الأمر توحي بذلك بدون مـعلومات هذا الحبر اليهودي .

ذكر خبر عمرو بن العاص ومبايعته معاوية :

وفي هذه السنة أعني سنة ست وثلاثين بايع عمرو بن العـاص معاوية ووافقه على محاربة علي وكان السبب في ذلك ماكتب به الي السري عن شعيب وسيف عن محمد وطلحة وأبي حارثة وأبي عثمان قالوا :

لما أحيط بعـثمان - رضي الله عنه خرج عـمرو بن العاص من المدينة متـوجهًا نحو الشام وقال :

والله يا أهل المدينة ما يقيم بها أحد فـيدركه قتل هذا الرجل إلا ضربه الله عز وجل بذل ولم يستطع نصره فليهرب فسار وسار معه ابناه عبد الله ومحمد وخرج بعده حسان بن ثابت وتتابع على ذلك ما شاء الله .

قال سيف عن أبي حارثة وأبي عثمان قال :

بينما عـمر بن العاص جـالس بعجلان ومـعه ابناه إذ مر بهم راكب فـقالوا : من أين ؟ قال : من المديـنة . فقال عـمرو : ما اسـمك ؟ قال حصـيرة قال عـمرو : حصـر قال تركت الرجل محصـورًا . قال عمرو : يقـتل . ثم مكثوا أياماً فـمر بهم راكب . فقالوا : من أين : قال : من المدينة قال عمرو : ما اسمك قال : قتال . قال عمرو : قتل الرجل . قال : فمـا الخبر ؟ قال قتل الرجل ثم لم يكن الا ذلك إلى أن خـرجت ثم مكثوا أيامـا فـمر بهم راكب فـقالـوا من أين ؟ قال : من المدينة . قـال عمـرو : ماسمك ؟ قـال : حرب قـال عمرو : يكون حـرب فما الخـبر ؟ قـال قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه وبويع لعلي بن أبي طالب قال عمرو : أنا أبو عبدالله تكون حـرب من حك فيه قـرحة نكأها رحم الـله عثمـان ورضي الله عنه وغـفر له فقال سلامة بن زنباع الجذامي :

يا معشر العرب إنه قد كان بينكم وبين العرب باب فاتخذوا بابا إذ كسر الباب فقال عمرو : وذاك الذي نريد ولا يصلح الباب الا أشاف (١) تخرج الحق من حافرة البأس ويكون الناس في العدل سواء ثم تمثل عمرو في بعض ذلك .

فيالهف نفسي على مالك   وهل يصرف اللهف حفظ القدر

أنزع من الحَرِّ (٢) أودى بهم   فأعذرهم أم بقومي سكر

ثم ارتحل راجلا يبكي كما تبكي المرأة ويقول : يا عثماناه ! أنعي الحياء والدين ! حتى قدم دمشق وقد كان سقط اليه من الذي يكون علم فعمل عليه)(٣).

هذه هي الصورة الصادقة الناصعة عن عمرو رضي الله عنه والمتناسبة مع شخصيته وخط حياته وقربه من عثمان أما الصورة التي تمسخه الى رجل مصالح وصاحب مطامع وراغب دنيا فهي الرواية المتروكة الضعيفة رواية الواقدي عن موسى بن يعقوب عن عمه نعرضها كما هي :

وأما الواقدي فإنه فيما حدثني موسى بن يعقوب عن عمه قال :

لما بلغ عمرا قتل عثمان رضي الله عنه قال : أنا أبوعبد الله قتلته وأنا بوادي السباع ، من يلي هذا الأمر من بعده ؟ إن يليه طلحة فهو فتى العرب سيبا(٤) وإن يليها ابن أبي طالب فلا أراه إلا سيستنطف الحق قال: فبلغه أن عليا قد بويع له فاشتد عليه وتربص أياما ينظر ما يصنع الناس فبلغه مسير طلحة والزبير وعائشة

---

(١) أشاف : جمع اشفى وهو المثقب .

(٢) الحر : جمع حرة وهي الظلمة الشديدة .

(٣) تاريخ الرسل والملوك لابن جرير الطبري / ٥٥٨ - ٥٥٩ .

(٤) سيبا : عطاء وجودا .

وقال : أستأني وانظر ما يصنعون فأتاه الخبر أن طلحة والزبير قد قُتلا فارتج (1) عليه أمره فقال له قائل له قائل ان معاوية بالشام لا يريد أن يبايع لعلي فلو قاربت معاوية فكان معاوية أحب إليه من علي بن أبي طالب وقيل له : إن معاوية يعظم شأن قتل عثمان ويحرص على الطلب بدمه فقال عمرو : ادعوا لي محمدا وعبد الله فدعيا له فقال : قد كان ما قد بلغكما من قتل عثمان رضي الله عنه وبيعة الناس لعلي وما يرصد معاوية من مخالفة علي ، وقال : ماتريان ؟! أما علي فلا خيرعنده وهورجل يدل بسابقته وهو غيرمشركي في شيء من أمره فقال عبد الله بن عمرو: توفي النبي ﷺ وهو عنك راض وتوفي أبو بكر رضي الله عنه وهوعنك راض وتوفي عمر رضي الله عنه وهو عنك راض أرى أن تكف يدك وتجلس في بيتك حتى يجتمع الناس على إمام فتبايعه (وقال محمد بن عمرو : أنت ناب من أنياب العرب فلا أرى أن يجتمع هذا الأمر وليس لك فيه صوت ولا ذكر قال عمرو : أما أنت يا عبد الله فأمرتني بالذي هو خير لي في آخرتي وأسلم لي في ديني وأما أنت يا محمد فأمرتني بالذي هو أنبه لي في دنياي وشر لي في آخرتي ثم خرج عمرو بن العاص ومعه ابناه حتى قدم على معاوية فوجد أهل الشام يحضون معاوية على الطلب بدم عثمان فقال عمرو بن العاص : اطلبوا بدم الخليفة المظلوم ومعاوية لا يلتفت الى قول عمرو فقال ابنا عمرو لعمرو : ألا ترى إلى معاوية لا يلتفت الى قولك !! انصرف إلى غيره فدخل عمرو على معاوية فقال : والله لعجب لك إني أرفدك بما أرفدك وأنت معرض عني ! أما والله(2) ان قاتلنا معك نطلب بدم الخليفة ان في النفس من ذلك ما فيها حيث نقاتل من تعلم سابقته وفضله وقرابته ولكنا انما أردنا هذه الدنيا فصالحه معاوية وعطف عليه)(3) .

---

(1) ارتج عليه : أي اضطرب في أمره .

(2) إن : بمعنى ما .

(3) تاريخ الأمم والملوك للطبري ٤ / ٥٦٠ - ٥٦١ .

فعمرو في هذه الرواية وبصريح العبارة فيها طالب دنيا كما يقول (انما أردنا هذه الدنيا) وعمرو يؤثر الأولى على الآخرة (وأما أنت يا محمد فأمرتني بالذي هو أنبه لي في دنياي وشر لي في آخرتي) وعمرو هو قاتل عثمان (أنا أبو عبد الله قتلته وأنا في وادي السباع) وهو المطالب بدم عثمان .

ونجد عند ابن عساكر في تاريخه العديد من الروايات عن غيرالواقدي تتحدث عن هذا الموضوع وسنعالج هذه الروايات جميعا .

الرواية الأولى : خلاصتها أنه عندما استشار ولديه (فقال له ابنه عبد الله : إن كنت لا بد فاعلا فإلى علي فقال له عمرو ثكلتك أمك ، إني إن أتيت عليا قال لي : إنما أنت رجل من المسلمين وإن أتيت معاوية خلطني بنفسه وشاركني في أمره فأتى معاوية)[1] .

وفي سند هذه الراية ثلاث مطاعن :

المطعن الأول : يحيى بن سليمان أحد رواتها وهوصدوق يخطىء كما في تقريب التهذيب .

المطعن الثاني : عبد الوهاب بن يحيى وهو مقبول من الخامسة .

المطعن الثالث : وهو أخطر المطاعن الثلاثة فالأول والثاني يمكن أن يقبلافي رواية تاريخية .

لكن المطعن الثالث : هو الانقطاع والجهالة فعبد الوهاب بن يحيى بن عبدالله بن الزبير قال حدثنا أشياخنا فمن هؤلاء الأشياخ لاندري ولهذا تسقط هذه الرواية .

---

(١) تاريخ ادمشق للحافظ ابن عساكر ١٣ / ٥١٥ .

الرواية الثانية : (لما بلغ عمرو بن العاص بيعة الناس عليا دعا ابنيه عبد الله ومحمد واستشارهما فقال له عبد الله بن عمرو : صحبت رسول الله ﷺ وتوفي وهو عنك راض وصحبت أبا بكر وعمر فتوفيا وهما عنك راضيان ثم صحبت عثمان وتوفي وهو عنك راضٍ فأرى أن تلزم بيتك فهو أسلم لدينك فقال له محمد: أنت شريف من أشراف العرب وناب من أنيابها لا أرى أن تختلف العرب في جسيم أمورها ولا يرى مكانك فقال لعبد الله : أما أنت فأشرت علي ما هوخير لي في آخرتي وأما أنت يا محمد فأشرت علي بما هو أنبه لذكري ارتحلا فارتحلا إلى معاوية فأتى رجلا قد عاد المرضى ومشى بين الأعراض يقص على أهل الشام غدوة وعشية يا أهل الشام انكم على خير والى خير تطلبون بدم خليفة قتل مظلوما فمن عاش منكم فالى خير ومن مات منكم فإلى خير فقال عبد الله بن عمرو : ما أرى الرجل إلا انقطع بالأمر دونك فقال له : دعني وإياه ثم إن عَمْرًا قال لمعاوية ذات يوم : يا معاوية أحرقت قلبي بقصصك ترى إنا خالفنا عليا لفضل منا عليه لا والله إن هي الا الدنيا تتكالب عليها وايم الله لتقطعن لي قطعة من دنياك أو لأنابذنك فقال : فأعطاه مصر يعطي أهلها عطاءهم وأرزاقهم)[1] .

وفي هذه الرواية ثلاث مطاعن الأول : ضعف يحيى بن سليمان والثاني انقطاع السند فهو يقول فيه حدثنا ابراهيم بن الحسين نا يحيى بن سليمان نا ابراهيم بن الحجاج ثم رجع الى حديث ابي يوسف عن محمد ين اسحاق عن عبد الله بن عروة بن الزبير فمن رجع ومن أبو يوسف المطعن الثالث : الراوي الأول ابراهيم بن الحسين فهو مجهول كذلك الرواية الثالثة قال : حدثنا ابراهيم بن الحسين حدثنا عبد الله بن عمر نا عمرو بن محمد قال : سمعت الوليد البلخي

(١) المصدرنفسه / ٥١٦ .

قال: فلما انتهى كتاب معاوية إلى عمرو بن العاص استشار ابنيه عبد الله ومحمد ابني عمرو وقال : إنه قد كانت مني في عثمان هنات لم أغسلها بعد ، وقد كان مني ومن نفسي حيث ظننت أنه مقتول ما قد احتملته ، وقد قدم جرير على معاوية فطلب البيعة لعلي وقد كتب إلى معاوية يسألني أن أقدم عليه فما ترياق ؟ فقال عبدالله ابن عمرو : يا أبت إن رسول الله ﷺ قبض وهو عنك راض والخليفتان من بعده وقتل عثمان وأنت عنه غائب . فأقم في منزلك فلست مجعولا خليفة ، ولا تريد أن تكون حاشية معاوية على دنيا قليلة فانية . فقال محمد : يا أبت أنت شيخ قريش وصاحب أمرها وإن تقدَّم هذا الأمر وأنت فيه خامل خملت فالحق بجماعة أهل الشام ، واطلب بدم عثمان ، فقال : أما أنت يا عبد الله فأمرتني بما هو خير لي في ديني ، وأما أنت يا محمد فأمرتني بما هو خير لي في دنياي فلما جن عليه الليل أرق في فراشه ذلك وجعل يتفكر فيما يريد أي الأمرين ثم أنشأ يقول :

تطاول ليلى للهموم الطوارق ... وجوف الليل يجلو وجوه العوائق[1]

معاوي بن هند سالني الله[2] عونه ... وتلك التي فيها عظام البوائق

فوالله ما أدري وما كنت هكذا ... أكون وهما أن أرى فهو سائقي

أخادعه والخدع فيه دفيئة ... أم اعطيه من نفسي بصحة وامق

أم اقعد في بيتي وفي ذاك راحة ... لشيخ يخاف الموت في كل شارق

وقد قال عبد الله قولا تعلقت ... به النفس إن تبعد علي عوائقي

وخالفه فيه أخوه محمد ... وإني لصلب الرأي عند الحقائق

---

(١) في هذا الشطر كسر ولعل صحته (وليلي بجلولي وجوه الحقائق .

(٢) سالني الله : سألني بالله عونه .

فلما أصبح عمرو دعـا غلامه وردان فقال :ارحل يا وردان ، حُط يا وردان ، مرتين أو ثلاثا فقـال له وردان : خلطت يا أبا عبد الله ، أما إنك إن شئت أخبرتك بما في نفسك . قـال : هات قال : اعتـرضت الدنيا والآخرة علـى قلبك . فقلت : علي معـه الآخرة وفي الآخرة عـوض من الدنيا ومعـاوية معه الدنيـا بلا آخرة وليس في الدنيا عوض من الآخرة فقـال له عمرو : قاتلك الله يا وردان والله ما أخطأت . فـما ترى ؟ قـال : أرى أن تقيم فـي منزلك فإن ظهـر أهل الدين عـشت عند دينهم وإن ظهر أهل الدنيا لم يستغنوا عنك)[1] .

وفي سند هذه الرواية ابراهـيم بن الحسين (مـجـهول) وعـبـد الله بن عمـر العمـري (ضعـيف) و (عمـرو بن محـمـد) والوليد الـبلخي مجهـولان ، وهناك سقط في السند أكثر من أربعة رجال لأن السنـد المتصل للحافظ ابن عساكر يصل إلى تسعة رواة . فلا تقوم إذن هذه الروايات الثلاثة أمام الرواية السابقة المقبولة لدى العلماء .

وتبقى الصـورة الصحيحة والمـوثوقة تاريخياً ، والمتناسـبة مع مستـوى عمرو رضي الله عنه ، وقناعاته ودينه هي هذه الرواية .

لكن الذين أخذوا بالروايات الضعيـفة والسقيمة سرعـان ما أهووا بعمرو إلى الحضيض قد مواله شخصية جديدة يحسن أن نعرض فيها لثلاثة كتاب محدثين .

أفـضلهم وأورعهـم العـالم العظيم والعـسكري الكبـير اللواء الركن مـحمـود شـيث خطاب حيث لم يقـف كثـيرا أمـام الروايات وتصـحيـحهـا فوضع مـلامح شخصيته عمرو رضي الله عنه من إيحاء هذه الروايات فقال :

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر . ١٣ / ٥١٦ - ٥١٧ .

(الرجل : مفتاح شخصية عمرو ،أنه كان يستعرض جوانب القوة) دائما ويوازن بين ما لدى أعدائه وأصحابه على حد سواء من (القدرة) موازنة طويلة حتى لا يخفى عليه منها وجه من وجوه الرأي فقد كان رجلا يتقن الحساب ويجيد المساومة يقف ساكتا ويفكر طويلا ثم يساوم على حرص إنه يشترط دائما ، هكذا كان موقفه في كل أمر .

وكان يحب الإمارة ، ويحرص عليها حرصا عظيما وفي سبيل أن يتولى الإمارة كان مستعدا أن يفعل كل شيء وحين استشار ابنيه عبد الله ومحمد في متابعة علي بن أبي طالب أو معاوية بن أبي سفيان قال له ابنه عبد الله « إن كنت لا بد فاعلاً فإلى علي » فأجابه عمرو : إني إن أتيت عليا قال : إنما أنت رجل من المسلمين وإن أتيت معاوية يخلطني بنفسه ويشركني في أمره فأتى معاوية)[1] .

ومصدر هذه الرواية عند استاذنا شيث خطاب كما أشار اليها النجرم الزاهرة (١٣/١) حيث ذكرت هنالك بلا سند أصلا وعمرو عنده رجل مصالح يتحرك مع القوي دائما ويحسب مصلحته من خلال هذا التحرك.

أما الكاتب الثاني فهو الأستاذ عبد الخالق سيد أبورابية الذي قدم دراسة عظيمة عن كثير من جوانب شخصية عمرو وأبدع فيها لكن تلقفه الرواية الضعيفة دون الوقوف عند السند جعلت شخصية عمرو عنده شخصية انتهازية رخيصة تستحل كل القيم لتصل إلى مأربها نستمع إليه يقول : (عمرو يلصق دم عثمان بعنق الإمام علي : يروي الإمام الطبري : « ولما قدم عمرو بن العاص على معاوية أشار عليه أن يُلزِم عليًا دم عثمان ، وأن يحاربه بجند الشام إذا أبى » ذلك أن

---

(١) سفراء النبي ﷺ : للواء محمود شيث خطاب / ٥٠٨ .

عمرو بن العـاص رأى أن يلصق جريمة قتل عثمـان بعنق الإمام علي وهو على يقين من أن دم عثمان لا يعلق منه شيء في عنق رابع الراشدين ، وأنه برىء من هذا الدم إلى يوم القـيامـة ولكن عَمْـرًا كان يرى أن إلصـاق دم عثـمان الهـدر بعنق الخليـفة الجـديد هو الطريق الوحـيـد لإزالته عن مـوضع السلـطان حتى إذا مـا نجـحت هذه الذريعة كانت وسيلته لكسب معركة الطموح الشخصي .

فكل شيء عند عمرو مباح ما دام يصيب منه مغنما وما دام هو الوسيلة المثلى لتحقيق أهدافه ومراميه)[1] .

وقـد أعاد هذه الرواية إلـى الطبري جـ ٣/ ٢١٠ وعـدت الى تاريخ الطبـري فاسـتعرضت الجـزء الثالث والرابع والخامـس فلم أجدها رواية فيـه لا صحيـحة ولا مكذوبة. وإن كان قد ساق قبلها العديد من الروايات التي سبق أن ذكرنا بعضها . وبناء على هذه الأكاذيب صارعند عمرو كل شيء مباح ما دام يصيب منه مغنما .

أما الكاتب الثالث فهـو أقدم هؤلاء وهو الأستاذ عباس محـمود العقاد الذي يتعالى عن النظر في الاسناد ويستخف بقارئه بحيث لا يصلح عنده لأن يفقه فيها فيقول تعقيبا على مسيرة عمرو الى معاوية .

(فمـعاوية لم يستقـدم عَمْرًا لصـداقة وصحبـه قديمة ، وعمـرو لم يقدم على معاوية لشيء من ذلك ولكنهما رجلان طموحـان أريبان مثلهما لا يعادي إن كان له في الصـداقة نفع ، ولا يصادق إذا لم يـكن له في الصداقة أرب فـهمـا ملتقيان على تفاهم صـريح بلسان المقـال أو صريح بلسان الحـال وقد عرفـا ولا جدال على أي وجه يتفاهمان منذ كتب هذا وأجابه ذاك .

---

(١) عمرو بن العاص لعبد الخالق سيد أو رابية / ٣١٦ .

زعموا أن المساومة جرت بين الرجلين أول ما التقيا فسأل معاوية عمرا أن يتبعه ، فأقبل عمرو يسأله : لماذا ؟ للآخرة . فوالله ما معك آخرة ، إنما هي الدنيا تتكالب عليها ، فلا كانت حتى أكون شريكك فيها ، وأخذ معاوية يذكر ممالأة علي على قتل عثمان ، وأنه أظهر الفتنة وفرق الجماعة . فقال عمرو : إنه وإن كانت كذلك فإن المسلمين لا يعدلون به أحدا وليست لك مثل سابقته وقرابته ، ثم عاد يساوم مرة أخرى ، فسأل معاوية : ما لي إن شايعتك ؟ قال معاوية حكمك قال عمرو : اجعل لي مصر طعمة ما دامت لي ولاية فتلكأ معاوية ولم يجبه ، وحذره عتبة بن أبي سفيان العاقبة ، فحذرها معاوية ، وقال له لائما : أما ترضى أن تشتري عمرو بمصر ؟ إن صفت لك فليتك لاتغلب على الشام فرضي بالصفقة واتفقا عليها .

وليقل الناقدون التاريخيون ما بدا لهم أن يقولوا في صدق هذا الحوار ، وصحة هذه الكلمات ، وما ثبت نقله ولم يثبت منه سنده ولا نصه فالذي لا ريب فيه ولو أجمعت التواريخ قاطبة على نقضه أن الاتفاق بين الرجلين .

كان اتفاق مساومة ومعاونة على الملك والولاية وأن المساومة بينهما كانت على النصيب الذي آل إلى كل منهما ولولاه لما كان بينهما اتفاق)[1] .

فالحكم صادر على الرجلين معاوية وعمر بأنهما انتهازيان صاحبا مصالح ولو أجمعت التواريخ قاطبة على نقضه فهذا لا يعني استاذنا العقاد بشيء .

أما شخصية عمرو الحقيقية التي شهدناها في الرواية الموثقة الصحيحة : أنه رجل مبادئ غادر المدينة حين عجز عن نصرة عثمان . وبكى عليه بكاء مُراً حين

---

(١) عمرو بن العاص لعباس محمود العقاد / ٢٣١ - ٢٣٢ .

قتل . فـقد كـان من أقرب أصحـابه وخلانه ومـستشـاريه وهو الوحيـد الذي كان يدخل في الشورى من غـير ولاية ومضى الى معاوية رضي الله عنـهما ليتعـاونا معا على حرب قتلة عثمـان والثأر للخليفة الشهيد . فمـعاوية هو وليه وأقرب الناس إليه ولو لم يطالب بدمـه لرُجِم المسلمون بـالحجارة مـن السمـاء كما يـقول ابن عـباس رضي الله عنه .

ففي الطبقات الكبرى لابن سعد .

قال :[١] أخبـرنا عارم بن الفـضل[٢] قـال أخبـرنا الصعق بن حـزن[٣]قا ل: أخبرنا قتادة[٤] : عن زهدم الجرمي [٥] قال : خطب ابن عباس فقال :

لو لم يطلب الناس بدم عثمان لرموا بالحجارة من السماء)[٦] .

(معاوية هو ولي عثمان وابن عمه فقد روى الذهبي في تاريخه قال :

ووقال عبد الله بن شوذب [٧] : حدثني زهدم الجرير قـال: كنت في سمر عند ابن عبـاس فقال : لأحدثنكم حـديثا : إنه لماكان من أمر هذا الرجـل ماكان ، قلت لعلي : اعتـزل هذا الأمر ، فوالله لو كنت في جحر لأتاك الـناس حتى بايعوك

---

(١) محمد بن سعد كاتب الواقدي : صدوق فاضل .

(٢) ثقة ثبت .

(٣) صدوق يهم .

(٤) ثقة ثبت .

(٥) ثقة .

(٦) الطبقات الكبري لابن سعد ٣ / ٨٠ .

(٧) صدوق عابد .

فعصاني ، وايم الله ليتأمرن عليه معاوية ذلك بأن الله يقول ﴿ ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا ﴾[١] [٢].

وكان انضمام عمرو رضي الله عنه إلى معاوية على الأرجح بعد وقعة الجمل وحيث انقسم العالم الاسلامي بين علي أمير المؤمنين ومعاوية بن أبي سفيان في أهل الشام ومن انضم اليهم من الصحابة والتابعين (ومعالم شخصية عمرو محددة: فهو ذو بصر نفاذ بعيد الغور يتريث ويترقب عندما تكون الأمور غامضة والحوادث مشتجرة متكاثفة ويمضي لهدفه بعد أن يستجلي الأمور التي يسبر غورها ويدرك مآلها قبل غيرها وهنا يبرز دهاؤه وتكمن عبقريته لقد رأى ريح الفتنة تهب عاتية، وروائحها تفوح ، فلخص الموقف بكلمة واحدة (والله يا أهل المدينة ما يقيم بها أحد فيدركه قتل هذا الرجل إلا ضربه الله عز وجل بذل ،ومن لم يستطع نصره فليهرب) .

لقد رأى ببصره الثاقب أن لا قبل لأحد بهؤلاء العتاة ولا طاقة وأن الإقامة في المدينة والأيدي مكثفة والنفوس حبيسة هو تلوث بهذه الفتنة ومسؤولية ،والنجاء والهرب يمكن أن يخفف شيئا من جسامة المسؤولية ورهبتها حيث لا يكون حل إلا النجاء[٣] .

---

(١) سورة الإسراء آية ٣٣ .

(٢) تاريخ الإسلام للحافظ الذهبي عن الخلفاء الراشدين./ ٤٨٠ .

(٣) لعل وصف عثمان رضي الله عنه لهذاالوضع هو أدق الأوصاف وذلك حين كتب إلى أمراء الأمصار يستنجدهم ويقول : (حتى أغاروا علينا في جواررسول الله ﷺ وحرمه وأرض الهجرة ، وثابت اليهم الأعراب فهم كالأحزاب أيام الأحزاب أو من غزانا بأحد إلا ما يظهرن فمن قدر على اللحاق بنا فليلحق فأتى الكتاب أهل الأمصار فخرجوا على الصعبة والذلول . فبعث معاوية حبيب بن مسلمة الفهري وبعث عبد الله بن سعد معاوية بن خديج السكوني وخرج من أهل الكوفة القعقاع بن عمرو الطبري ٣٥٢/٤ .

لقد مضى يترقب الأمور ويتابعها وكأنه هو الذي رسمها لشدة وعيه بما يجري فمن الحصار إلى القتل إلى الحرب وكان مقتل عثمان كافيا لأن يحرك كل غضبه على أولئك المجرمين السفاكين . وكان لا بد من اختيار مكان غير المدينة للثأر من هؤلاء الذين تجرؤوا على حرم رسول الله وقتلوا خليفته على أعين الناس .

وأي غرابة أن يثور عمرو لعثمان ؟ وإن كان هناك من يشكك في هذا لموضوع فمداره على الروايات المكذوبة التي تصور عمرا كل همه السلطة والحكم.

إن التنظيم الدقيق دائما هو الذي يغلب عامة الناس ودهماءهم ولو كان فيهم العالم التحرير والبطل الشجاع (والعبقري الداهية) وأمر المدينة لم يكن إلا كذلك .

فأي انقلاب عسكري يأتي كما نشهد في أيامنا المعاصرة ويطيح بالحكم القائم وللحكم جنوده وجيوشه وخاصة في العاصمة .

لقد كان العمل ضد الثوار في المدينة من المستحيل أن ينجح أو يحقق هدفه فكان لا بد من العمل خارج المدينة وليس عمرو بن العاص وحده هو الذي اقتنع بذلك ، وليس وحده الذي عجز عن أن يفعل شيئا باتجاه هذه الحركة المحتلة ، إن طلحة والزبير وعائشة كانوا عاجزين عن فعل شيء في المدنية فاختاروا مكة ثم البصرة والكوفة وإن عليا رضي الله عنه كان عاجزا عن فعل شيء في المدينة لحماية أمير المؤمنين عثمان . وكان تصوره عن طبيعة العمل ضد الثوار يتم من خلال مبايعة الولايات له ، ثم تقديمها الأمداد له للتخلص من هؤلاء البغاة المتسلطين فلم يكن غريبا إذن أن يغادر عمرو المدينة حتى لا يلحقه ذل السكوت على حصار الخليفة الشهير وليس غريبا أن يمضي عمرو إلى معاوية ، فمعاوية قادر ربما مكن الله له من قلوب أهل الشام من أن يحرك الكتائب للثأر للخليفة المقتول ، وقد

تواردت الأبناء إليه بعزم معاوية على ذلك فكان أن مضى إليه وانضم له . وهدفه بيِّن وغايته مرسومة ندرك ذلك بقراءتنا لهذين البيتين اللذين تمثل بهما .

يا لهف نفسي على مالك وهل يصرف اللهف حفظ القدر

أنزع من الحر أودى بهم فأعذرهم أم بقومي سكر

إنه يرى أن اللهفة لا تجدى ، وأن الغافلين كأنهم سكارى ، ولا بد أن يفيقوا، وليحمل هو هذا اللواء وهكذا كان مجيء عمرو الشام هو الشيء المنطقي والمعقول . نظرا لإدراكه أبعاد المؤامرة ولأن معاوية ، وهو قريب عثمان في النسب غدا مركز التجمع بعد أن فر بنو أمية إليه وغدت الشام بذلك مركز من بريد الثأر لعثمان ففيها قميصه ، وأصابع نائلة زوجه ، يرفعان على منبرهما ، ويثيران حفائظ الناس وأين يمضي عمرو بن العاص إن لم يمضِ إلى الشام .

إن الذين قتلوا أمير المؤمنين عثمان ثوار أتوا من الكوفة والبصرة ومصر ، إن الشام وحدها من بين الولايات المجاورة هي التي بقيت على الولاء التام لأمير المؤمنين عثمان ، وكان وجود معاوية فيها وضبطه للأمر وقطعه دابر الفتنة يجعل كل الأنظار تتجه إليها والنجاح السياسي العظيم الذي حققه معاوية فيها خلال ستة عشر عاما قمين أن يربط الأمة هناك بقائد حكيم كمعاوية.

ومع ذلك فلم تكن عملية تحريك الناس لقتال قتلة عثمان بالأمر السهل يفسر لنا هذا الرأي ما لجأ إليه معاوية رضي الله عنه من وضع القميص على منبر دمشق مع أصابع نائلة فترة طويلة ليستثير الغضب ويصوب الأنظار إلى أنه ولي عثمان ، ويدفع بالناس الى قتال هؤلاء المارقين المعتدين أما مضى طلحة والزبير رضي الله عنهما إلى البصرة والكوفة فله جذور ليست قائمة عند عمرو بن العاص فللزبير

شيعته بالكوفة ولطلحة شيعته بالبصرة فهناك الأنصار والأمداد التي يمكن أن تحرك المؤيدين للقتال .

ولم يحتل هذان الصاحبان مركز هما من ولاية تولياها ، إنما احتلاه من جهاد عريق في الإسلام بجانب اقامة معينة هناك هيأت لهما هذا النفوذ وان كنا لا نستطيع أن ننفي أن دعاة الفتنة قد شجعوا هذه التبعيات للقادة من الصحابة ليفترق أمر المسلمين شيعا أو أحزابا .

أما عمرو ، فإنه وإن كان واليا على مصر ، فقد عُزل عنها ، وتولى بعده ولاة عديدون اضافة إلى أن مصر قد تحرك الثوار منها لقتل أمير المؤمنين عثمان . إنه يمكن أن يفعل شيئا هناك لو كان لديه سلطة رادعة أو ولاية معينة يستطيع أن يتصرف من خلالها ولقد فعل الكثير الكثير حين استلم ولايتها[1] .

فإذن ليست له أرضية يستند إليها كما كان لدى طلحة والزبير في الكوفة والبصرة .

وعامل آخر يرد ذكره كذلك ، وهو الصداقة الوطيدة القائمة بين معاوية وعمرو بن العاص لقد أمضيا في جيش الشرك وفي صف واحد قرابة عشرين عاما يواجهون دعوة الإسلام ولقد عادوا الى اللقاء ثانية تحت لواء الإسلام في الشام في كل ربوعها في الأردن وفلسطين ودمشق[2] فالمعرفة قائمة وكل منهما يفقه الآخر، ويمكن أن يؤثر ويتأثر في الوقت نفسه بالآخر .

---

(١) إضافة الى أن مصر قد استقرت بيد علي أمير المؤمنين وكان واليها أحد قادة المسلمين وعباقرتهم دهاء وحكمة وهو قيس بن سعد الأنصاري فلا يمكن أن تتحرك ضد الثوار الذين انضووا في جيش علي رضي الله عنه .

(٢) وكانا معاً من الهيئة الاستشارية الدائمة لعثمان رضي الله عنه وهما واليان له وبعد عزل عمرو عن الولاية كذلك .

وبقي أمامنا السؤال الأخير ألم يكن بامكان عمرو بن العاص رضي الله عنه أن يمضي الى المدينة ويبايع عليا رضوان الله عليه ؟

نعم ، كان يمكنه ذلك ولكن ما يقال عن معاوية يقال عن عمرو فلم يحضر عمرو بيعة علي ولم ير شبه اجماع المهاجرين والأنصار عليه وقد شهد جو المدينة المخنوق وسيطرة الثوار على المدينة بالقوة ، وقتلهم خليفة المسلمين دون أن يجرؤ أحد على أن يقف في وجوههم ، ما عدا الفدائيين من أبناء الصحابة الحسن والحسين ومحمد بن طلحة ، وعبد الله بن الزبير وغيرهم وبلغه كيف دفن عثمان وكيف نهب بيت المال فلا يمكن أن يتصور أن بيعة علي رضي الله عنه قد تمت بظروف طبيعية وسليمة .

وإذا كان علي رضي الله عنه قد وجد عذراً لطلحة والزبير حين ذكرا بيعتهما مكرهين ولم يرد عليهما هذا الموقف وعذر سعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر عن عدم البيعة وهما في المدينة فما بالك بالذي لم يحضر البيعة مطلقا وإنما تتوارد اليه الأخبار التي قد ينالها التهويل والمبالغة عن المدينة وأحوالها وسيطرة الثوار عليها) (١) .

وكان ينتظر أن يتجلي الأمر عن كسر لشوكة الثوار والانتقام منهم بعد معركة الجمل لكن المعركة أسفرت عن سيطرة لهم أكثر وبروز لهم في قيادات جيش علي كالأشتر النخعي وغيره وهم الذين تمكنوا من اشعال نار الحرب بين قادة المسلمين . علي من جهة وطلحة والزبير وعائشة من جهة ثانية .

كل هذه العوامل تؤكد أن عَمْرًا ليس من المنطقي والمعقول أن يمضي الى الشام ويطالب مع المطالبين بدم عثمان فقط بل لم يكن أمامه إلا طريق واحد ، وهو طريق الشام للثأر من قتلة الخليفة المظلوم .

---

(١) من كتاب معاوية ابي سفيان للمؤلف ١٨٥ - ١٩٠ .

وتعتمد الروايات الضعيفة حين نعالج متنهـا ونصها قضية ولاية مصر لعمرو بن العاص واعـتبـارها أساس الصفـقة بين الرجلين وحين نعـرض هذه القضـية على محل النقد سرعـان ما تتهاوى وتسقط فأي معنى للحديث عن ولايـة مصر ومصر أصلا ليست تحت سلطة معـاوية . إنما هي تحت سلطة علي وقـد ضبطهـا قيس بن سـعد رضي الله عنـه وأحسن مـعامـلة أهلها . ودخلت فـي بيعـة الخليـفة الشـرعي فكيف تختلق هذه القضية وليس لها وجود على الساحة ؟ !

هذا من جهة ومن جـهة ثانية فلم يكن معاوية رضي الله عنه قـد طرح نفسه خليفة للمسلمين يوم انضم عمرو إليه، وإنما كـان يحمل لواء الثأر للخليفة الشهيد ومـعـه أهل الشـام علـى ذلك . ولم يكن في تفكيـره قـضــيـة امـتـداد في الأقطار الإسلامية قبل صفين والتحكيم . وليس في مـخططه اغتصاب الأرض الإسلامية من حوزة علي رضي الله عنه فلا معنى أبدا لطرح هذه القضية من عمرو بن العاص رضي الله عنه على مـعـاوية . ولكن الأمور تطـورت بعد التـحكيم وبدأ التـخطيط والغزو للأقطار الإسـلامية المجـاورة وضمهـا إلى بيعة أحـد الرجلين . وكانت خطة معاوية الذكية في إفساد جو مصر على قيس بن سعد بطبيعة الحرب بين الرجلين .

وحين انتقض الأمر على خليفة قيس في مصر ،محمد بن أبي بكر رضي الله عنه كان لا بد من استغلال هذه الظروف الجديدة للسيطرة على مصر فمن يا ترى المؤهل لهذه المهمة ؟!

أليس من الطبيعي والمنطقي أن يرسل معاوية عـمرا إلى مصر ، بل هل يتصور أن يمضي إليهـا أحد غيره: فهـو فاتحها ، وهو خـبيرها ، وهو واليهـا السابق ، وهل تحتاج القضـية إلى صفـقة واشتـراط حتى تُعطى لعـمرو أم هل يمضي معـاوية لمصر نفسـه ويدع مركز الخـلافة في دمشق ؟ ومن هـو أجدر وأخلق وأفضل من عـمرو

للمحافظة على هذا الثغر الهام وفتحه بعد انتقاض الأمر على والي على الجديد فيها؟ ؟

كل هذه الأسئلة تؤكد أن المنطقي والطبيعي وتسلسل الأحداث يقتضي أن يكون عمرو أمير مصر .

ويؤكد أن هذه القضية من الصفقة بين الرجلين على البيعة ولاية مصر أنها قضية ملفقة مختلفة لا رصيد لها من الواقع ولا سندلها من واقع الساحة ولا تتناسب مع تسلسل الأحداث وتطورها فيما بعد وهي تنفي بذلك فكرة الطمع في الدنيا التي أشعلت حولها الاتهامات والافتراءات من أجل مصر وولاية مصر .

مأساة صفين

حين تعود إلى شيخ المؤرخين الإمام ابن جرير الطبري لنشهد معركة صفين عنده ونلقى مأساة الروايات عن مأساة صفين فقد ساق لنا كل روايات وقعة صفين عن أبي مخنف إلا روايتين في بداية المعركة وفي نهايتها واستغرقت هذه الروايات ثلاث عشرة صفحة من الجزء الرابع وستا وستين صفحة من الجزء الخامس وسنضرب عن هذه الروايات جميعا لأن أبا مخنف مرفوض جملة وتفصيلاً ننقل وصفه من كتب التراجم ففي كتاب الضعفاء المتروكين .

(٢٨١٣) لوط بن يحيى ، أبو مخنف وقال يحيى : ليس بثقة ، وقال مرة : ليس بشيء . وقال أبو حاتم الرازي متروك الحديث وقال الدارقطني : ضعيف)[١] .

وفي المغني في الضعفاء للحافظ الذهبي قال عنه .

(٥١٢١) لوط بن يحيى ، أبو مخنف ، ساقط ، تركه أبوحاتم . وقال الدراقطني : ضعيف)[٢].

ولم يوثقه أحد ولم يرو له أحد في كتب الحديث المعتمدة الستة ومسند الإمام أحمد ولن نشغل أنفسنا بهذه الروايات جميعا طالما أن أبا مخنف هو راويها بل أكثرها مرويه عنه بدون سند (قال أبو مخنف) ونعود إلى الروايتين اللتين ذكرهما ابن جرير عن غير أبي مخنف تتحدثان عن معركة صفين .

فالرواية الأولى مرويه عن ابي بكر الهذلي قال عنه الحافظ ابن حجر في تقريب التهذيب .

---

(١) كتاب الضعفاء والمتروكين للحافظ ابن الجوزي ٢ / ٢٨ .

(٢) المغني في الضعفاء للذهبي ٢ / ٥٣٥ .

(أبو بكر الهذلي : أخباري متروك الحديث) وبقية رواة الحادثة أوثلاثة منهم لم أجد لهم ذكر في كتب الحديث ولا في الضعفاء فندع هذه الرواية كذلك مع سابقتها .

وأما الرواية اليتيمة فهي عن الزهري فهي تتحدث عن نهاية المعركة .

وحين يختلط علينا الأمر من عند شيخ المؤرخين نعود ابتداء الى حديث رسول الله ﷺ فهو الحكم الفصل في هذه الأمور ونتعرف على طبيعة هاتين الفئتين فئة علي وفئة معاوية ، وعن هذه الفرقة بين المسلمين من رسول الله عليه الصلاة والسلام ثم من الذي صح من الروايات التاريخية بعد ذلك .

١ ـ عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ : « يكون في أمتي فرقتان فيخرج من بينهما مارقة يلي قتلهم أولاهم بالحق »(١) .

أما المارقة فهي الخارجة على الحق والهدى وهي فئة الخوارج التي حدث عنها رسول الله ﷺ في مكان آخر أحاديث مستفيضة صحيحة وهي التي خرجت من جيش على أمير المؤمنين عليه وقاتلها علي رضوان الله عليه . أما الفرقتان فهم الفرقة التي بقيت مع علي رضوان الله عليه بعدخروج الخوارج والفرقة التي على رأسها معاوية رضوان الله عليه وهاتان الفرقتان يقصدان الحق لكن ليس فيهما أحد يطلب دنيا ولا يسعى إليها . لكن أقرب هاتين الفرقتين للحق وأولاها به هي فرقة علي بعد أن غادرته الخوارج .

ورواية أخرى عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : تمرق مارقة في فرقة من الناس فيلي قتلهم أولى الطائفتين بالحق)(٢) .

---

(١) مسلم ٢ / ٧٤٦ ج ١٥١ ـ ١٠٦٥ .

(٢) مسلم / ٢/ ٧٤٤ ح ١٥٢ ـ ١٠٦٥ .

وفي رواية ثالثة عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في حديث ذكر فيه قومًا يخرجون علي فرقة مختلفة يقتلهم أقرب الطائفتين من الحق) .

فكلا الطائفتين قصدتا الحق لكن طائفة علي رضي الله عنه وبعد خروج الخوارج منها هي أقرب الى الحق من الطائفة الثانية .

والرواية الرابعة عن أبي سعيد قال قال رسول الله ﷺ : « وتمرق مارقة عند فرقة من المسلمين يقتلها أولى الطائفتين بالحق » .

وفي راية خامسة لأبي سعيد يخرجون على حين فرقة من الناس .

وعلق شارح الحديث على قوله على حين فرقة من الناس فقال :

(على حين فرقة) ضبطوه في الصحيحين بوجهين أحدهما حين فرقه أي وقت افتراق الناس أي افتراق يقع بين المسلمين وهو الافتراق الذي كان بين علي ومعاوية رضي الله عنهما والثاني خير فرقة أي أفضل الفرقتين والأول أكثر وأشهر ويؤيده الرواية التي بعد هذه يخرجون في فرقة من الناس فإنه بضم الفاء بلاخلاف ومعناه ظاهر)(٣) .

ويتابع أبو سعيد رضي الله عنه بهذه الرواية (قال أبوسعيد : فأشهدأني سعت هذا من رسول الله ﷺ وأشهد أن علي بن أبي طالب قاتلهم وأنا معهم فأمر بذلك الرجل فالتمس فوجد فأتي به حتى نظرت اليه على نعت رسول الله ﷺ (٤).

---

(١) مسلم ٢ / ٧٤٤ ح ١٥٣ .
(٢) مسلم ٢ / ٧٤٤ - ١٥٠ .
(٣) مسلم / ٧٤٥هامش . وهو من شرح النووي على صحيح مسلم .
(٤) مسلم ٧٤٥/٢ ح ١٤٨ - ١٠٦٤ ، وقصده بالرجل هو علامة هؤلاء القوم أنه معهم كما في النص (آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة أومثل البضعة تدر در) مسلم ٢ / ٧٤٤ / ١٤٨ .

٢ ـ وسننقل صورة معركة صفين من تاريخ خليفة بن خياط[1] إذ هو أقدم من الطبري ورواياتها بعيدة عن التحيز لأحد .

حدثنا أبو الحسن عن مسلمة بن محارب عن حرب بن خالد بن يزيد بن معاوية قال : فصل معاوية من الشام إلى صفين في سبعين ألفا قال وسألت زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، قلت في كم كان علي ؟ قال : في مائة ألف .

أبوالحسن عن حباب بن موسى عن جابر عن أبي الحمر قال :

كان علي في تسعين ألفا وسبق معاوية فنزل على الفرات ، وجاء علي وأصحابه فمنعوا الماء فبعث علي الأشعث بن قيس في الفين وعلى الماء لمعاوية أبو الأعور السلمي في خمسة آلاف فاقتتلوا قتالا شديدا وغلب الأشعث على الماء .

حدثنا أبونعيم قال حدثنا موسى بن قيس قال سمعت حجر بن عنيس قال :

حيل بين علي وبين الماء فقال : أرسلوا إلى الأشعث بن قيس فأزالهم عن الماء ثم التقى الناس لسبع خلون من صفر يوم الأربعاء سنة سبع وثلاثين ولواء علي مع هاشم بن عتبة بن أبي وقاص . وفي ميسرة علي ربيعة وعليهم ابن عباس وفي ميمنة علي أهل اليمن عليهم الأشعث بن قبس وعلي في القلب في مضر الكوفة والبصرة .

---

(١) خليفة بن خياط يقول عنه الذهبي في تذكرة الحفاظ الحافظ الإمام أبوعمرو العصفري البصيري المعروف بشباب محدث نسابة أخباري علامة صنف التاريخ والطبقات وسمع من ابن عيينة ويزيد بن زريع وغندر وعنه البخاري وبقي ابن مخلد وعبدان وأبو يعلي وطائفة قال ابن عدي مستقيم الحديث صدوق من متيقظي الرواة قال مطين : مات سنة أربعين ومائتين رحمه الله يقع لنا حديثه عاليا من منسند أبي يعلي الموصلي) تذكرة الحفاظ ٢ / ٤٣٦ ت ٤٤٢ .

ولواء معاوية مع المخارق بن الصباح الكلاعي ، وفي ميسرة معاوية مضر عليها ذو الكلاع وفي ميمنته أهل اليمن ومعاوية في الشهباء أصحاب البيض والدروع .

أبو غسان قال : نا عبد السلام بن حرب عن يزيد بن عبد الرحمن عن جعفر أظنه ابن أبي المغيرة عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبزى عن أبيه قال :

شهدنا مع علي ثمانمائة ممن حضر وابيعه الرضوان فاقتتلوا يوم الأربعاء ويوم الخميس ويوم الجمعة وليلة السبت ثم رفعت المصاحف ودعوا الى الصلح ، وافترقوا على سبعين ألف قتيل خمسة وأربعين ألفا من أهل الشام وخمسة وعشرين ألفاً من أهل العراق ويقال على ستين ألفا .

حدثنا عبد الأعلى بن هشام عن محمد بن سير ين قال : افترقوا عن سبعين ألفا يعدون بالقصب وكان ممن قتل مع معاوية ذو الكلاع وحوشب، وعبيد الله بن عمر بن الخطاب ، وعمرو بن الحضرمي وحابس ابن سعد الطائي ، وعروة بن داود الدمشقي في جماعة كثيرة .

وقتل من أصحاب علي : عمار بن ياسر ، وهاشم بن عتبة بن أبي وقاص ، وعبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي وعبد الله بن كعب المرادي ، وعبد الرحمن بن كلدة الجمحي في جماعة كثيرة .

قال : ونا يحيى بن أرقم عن يزيد بن عبد العزيز عن أبيه عن حبيب أبي ثابت قال: كانت راية علي مع هاشم بن عتبة بن أبي وقاص وعلى الخيل عمار بن ياسر وعلى الرجالة عبد الله بن بدبل وعلي الميمنة الأشعث بن قيس وعلى الميسرة عبد الله بن عباس وعلى رجاله الميمنة سليمان بن صرد الخزاعي وعلى رجالة الميسرة الحارث بن مرة العبدي والقلب مضر الكوفة والبصرة والميمنة اليمن والميسرة ربيعة وعلى قريش وأسد كنانة عبد الله بن جعفر بن أبي طالب وعلى كندة حجر بن عدي وعلى أهل البصرة حضين بن المنذر ، وعلى تميم البصرة الأحنف بن قيس

وعلى خزاعة عمرو بن الحمق وعلى بكر الكوفة نعيم بن هبيرة ، وعلى سعد والرباب جارية بن قدامة وعلى البجيلة رفاعة بن شداد وعلى أهل الكوفة رويم بن الحاثر وعلى عمرو وحنظلة البصرة أعين بن ضبيعة المجاشعي ، وعلى قضاعة وطيى عدي بن حاتم وعلى لهازم الكوفة عبد الله بن جمل العجلي .

لواء معاوية مع عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي وعلى الخيل عبيد الله بن عمر بن الخطاب وعلى الرجالة مسلم بن عقبة المري وعلى الميمنة عبد الله بن عمرو بن العاص وعلى الميسرة حبيب بن مسلمة الفهري وأهل حمص الميمنة ذو الكلاع ، وعلى أهل قنسرين على الميمنة زفر بن الحارث ، وعلى أهل الأردن الميسرة أبو الأعور السلمي ، وعلى أهل فلسطين اللميسرة مسلمة بن مخلد وعلى رجاله أهل دمشق بسر بن أرطأة وعلى رجالة أهل حمص حوشب ذو ظليم وعلى رجاله أهل قنسرين طريف من الحسحاس الهلالي وعلى رجاله أهل الأردن عبد الرحمن القيسي وعلى رجاله أهل فلسطين الحارث بن عبد الأزدي ، وعلى رجاله الميمنة كلهم حابس بن سعد الطائي وعلي رجال الميسرة بلال بن أبي هريرة الدوسي وعلى قيس دمشق حسان بن مجدل الكلبي وعلى قضاعة مصر عباد بن يزيد الكلبي .

حدثنا أبو غسان (١) قال ، نا عبد السلام بن حرب(٢) عن يزيد بن عبد الرحمن(٣) عن جعفر اظنه ابن ابي المغيرة (٤) عن عبد الله بن عبد الرحمن(٥) بن أبزي عن أبيه قال : شهدنا مع علي ثمانمائة ممن بايع بيعة الرضوان قتل منا ثلاثة وستون منهم عمار بن ياسر)(٦) .

---

(١) ثقة . (٢) ثقة حافظ .

(٣) صدوق وربما وهم .

(٤) صدوق يهم .

(٥) مقبول .

(٦) تاريخ خليفة بن خياط ١/ ٢١٨ -٢٢٣ مع بعض الاختصار .

فشل محاولات الصلح :

هذه الحرب التي أفنت سبعين ألفا من المسلمين ألم يكن فيها أصوات للمصالحة قبل وقوعها ؟نعم لقدكان ذلك ومضى شهر المحرم كله من عام ثمانية وثلاثين في محاولة للمصالحة بين الطرفين لكن قتلة عثمان وأدوا هذه المصالحة بتبنيهم العصبية لعلي رضي الله عنه فأثاروا حفيظة جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه فانضم إلى معاوية وأثاروا حفيظة معاوية فعكروا جو المصالحة والتفاهم وكان زعماء هذه الفتنة الأشترالنخعي وشبث بن ربعي[١] وجرت محاولة هادئة قام بها القراء بين الطرفين .

وحدثني يعلي بن عبيد[٢] : ثنا أبي [٣] قال قال أبو مسلم الخولاني[٤] وجماعة لمعاوية : أنت تنازع عليا ! وهل أنت مثله ؟ فقال : لا والله إني لأعلم أن عليا أفضل مني وأحق بالأمر ولكن ألستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوما ؟ وأنا ابن عمه ، وإنما أطلب بدمه فأتوا عليا فقولوا له فليدفع الي قتلة عثمان وأسلم له فأتوا عليا فكلموه وبذلك ، فلم يدفعهم إليه)[٥] .

إذا اختلف الناس فابن سمية على الحق :

لقدكان عمار بن ياسر رضي الله عنه في جيش علي في صفين . وقد ناهز التسعين يقول من يصفه في المعركة : عن عبد الله بن سلمة قال : رأيت عماراً يوم صفين شيخا كبيرا آدم طوالا أخذ الراية بيده ويده وترعد فقال :

(١) شبث بن ربعي كان على رأس الخوارج الذين خرجوا على علي وقال : أنا أول من حرر الحروبة . انظر تاريخ خليفة /٢١٧ .

(٢) ثقة من كبار التاسعة .

(٣) صدوق من السادسة .

(٤) ثقة عابد من كبار الثانية .

(٥) تاريخ الإسلام للحافظ الذهبي عهد الخلفاء الراشدين / ٥٤٠ .

والذي نفسي بيده لقد قاتلت بهذه الراية مع رسول الله ﷺ ثلاث مرات ، وهذه الرابعة ، والذي نفسي بيده لو ضربونا حت يبلغوا بنا سعفات هجر لعرفت أن مصلحينا على الحق وهم على الضلالة) [1].

لقد كان عمار على بينة كاملة أنه على الحق حتى ولو هزمهم الفريق الآخر وبلغ بهم سعفات هجر وكان دقيقا رضي الله عنه في تحليله فقال لعلمت أن مصلحينا ولم يقل لعلمت أنا . فهو يعلم أن في جيش علي رضي الله عنه مدخولين ومفسدين ومدسوسين فحدد الوصف الدقيق بقوله مصلحينا .

وعمار في الفتنة علم ويدور معه الحق حيث دار .

فعن سيار بن أبي الحكم قال قالت بنو عبس لحذيفة : إن أمير المؤمنين عثمان قتل فما تأمرنا ؟ قال آمركم أن تلزموا عمارا قالوا : إن عمارًا لا يفارق علياً قال إن الحسد هو أهل الجسد وإنما ينفركم من عمار قربه من علي فوالله لعلي أفضل من عمار بعد ما بين التراب والسحاب ، وإن عمارا لمن الأحباب وهو يعلم أنهم إن لزموا عماراً كان مع علي)[2] .

وعن عبد الله - يعني ابن مسعود - عن النبي ﷺ قال : إذا اختلف الناس فاين سمية مع الحق [3] .

---

(١) مجمع الزوائد للبهيقي ٢٤٢/٧ - ٢٤٣ ، وقال فيه : رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد وجال الصحيح عبد الله بن سلمة وهو ثقة .

(٢) مجمع الزوائد للهيثمي ٧ / ٢٤٣ ، وقال فيه : رواه الطبراني ورجاله ثقات : إلا أني لم أعرف الرجل المبهم.

(٣) المصدر السابق / ٢٤٣ وقال فيه : رواه الطبراني وفيه صرار بن صرو وهو ضعيف .

لقد كانت ثقة عمار رضي الله عنه أنه على الحق أكثر من ثقة علي رضي الله عنه بهذا القتال فعلي رضوان الله عليه يقاتل مجتهدا وليس معه نص في ذلك إلا النصوص العامة في قتال الخارجين على الإمام .

فعن قيس بن عباد قال : كنا مع علي فكان إذا شهد مشهدًا أو رقي على أكمه أو هبط واديًا قال : سبحان الله وصدق الله ورسوله فقلت لرجل من بني يشكر انطلق بنا إلى أميرالمومنين حتى نسأله عن قوله صدق الله ورسوله فانطلقنا اليه فقلنا يا أمير المؤمنين ! رأيناك إذا شهدت مشهدا وهبطت واديا أو أشرفت على أكمة قلت: صدق الله ورسوله فهل عهد اليك رسول الله ﷺ شيئا في ذلك قال: فأعرض عنا وألححنا فلما رأى ذلك قال :

والله ما عهد الي رسول الله ﷺ عهدًا الا شيئا عهده إلى الناس ولكن الناس وقعوا في عثمان فقتلوه . فكان غيري فيه أسوأ حالاً أوفعلا مني ثم إني رأيت أني أحقهم بهذا الأمر فوثبت عليه ، فالله أعلم أصبنا أم أخطأنا)[1].

ورواية أبي داود أبعد عن الزلل وهي عن قيس بن عباد نفسه رضي الله عنه .

قال أبو داوود في سننه حدثنا اسماعيل بن إبراهيم الهذلي حدثنا ابن علية عن يونس عن الحسن عن قيس ابن عباد قال : قلت لعلي رضي الله عنه أخبرنا من مسيرك هذا أعهد عهده اليك رسول ﷺ أم رأي رأيته ؟ قال :

ما عهد إلي رسول الله ﷺ شيئا ، ولكنه رأي رأيته)[2] .

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمي ٧ / ٢٤٤ - ٢٤٥ وقال فيه : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير علي بن زيد وهو سيء الحفظ وقد يحسن حديثه . ولعل كلمة وثبت من سوء حفظه وأصلها فبويعت .

(٢) ٤/٣٠٠ كتاب السنة باب ما يدل علي ترك الكلام في الفتنة .

تقتلك الفئة الباغية :

لكن هذا الأمر لم يكن من الوضـوح والنصاعة عند صحـابة رسول الله ﷺ كما هو عند عمـار . والثابت والواضح عندهم هو أن عمار تقتله الفئة البـاغية فهم معه حيث يمضي ، يقاتلون من قاتل .

فراوية البخاري (عن عكرمة قـال : قال لي ابن عباس ولا بنه انطلقا إلى أبي سعيد واسـمعا من حديثه فانـطلقنا فإذا هو في حائط يصلحه فأخذ رداءه فـاحتبى ثم أنشأ يحدثنا حـتى أتى على ذكر بناء المسجد فقال : كنا نحـمل لبنة لبنة وعمار لبنتين لبنتين فرآه رسول الله ﷺ فجعل ينفض التـراب عنه ويقول : « ويح عمار ، تقتله الفئة الباغية ويدعوهم الى الجنة ويدعونه إلى النار »[١] .

وله طريق آخر عند البخاري عن عكرمة نفسه[٢] .

وأمـا رواية مـسلم فـعن أم سلمـة رضي الله عنهـا : أن رسـول الله ﷺ قال لعمار : « تقتلك الـفئة الباغية » وهناك طريقان آخـران عن أم سلمة رضي الله عنها كذلك وفي أحدهما : « تقتل عمار الفئة الباغية » فالحديث ثابت صحيح عن النبي ﷺ عند أهل العلم بالحديث فقد رواه كذلك أحمد والترمذي وغيرهما .

مقتل عمار في صفين :

وهذه صورة منتزعة من صفين وعمار بن ياسر رضي الله عنه فيها تبرز قتله .

(عن أبي عبد الرحمن السلمي قال :

---

(١) صحيح البخاري ١٢١/١/١ باب التعاون في بناء المسجد .

(٢) كتاب الجهاد ، باب مسح الغبار عن الرأس في سبيل الله .

(٣) صحيح مسلم ٢٢٣٦/٤ ح ٧٢ - ٢٩١٦ و ٧٣ .

شهدنا مع علي صفين . وقد وكلنا بفرسه رجلين فكان إذا كانت من الرجل غفلة غمز علي فرسه فإذا هو في عسكر القوم ، فيرجع إلينا وقد خضب سيفه دما، ويقول : يا أصحابي اعذروني اعذروني فكنا إذا تـوادعنا دخل هولاء في عسكر هؤلاء فكان عمار بن ياسر يكون علما لأصحاب محمد ﷺ لا يسلك عمار وادياً من أودية صفين . إلا تبعه أصحاب محمد ﷺ فانتهينا إلى هاشم ابن عتبة بن أبي وقاص وقد ركز الراية . فقال : (أي عمار) : مالك يا هاشم أعوَراً وجبنا لا خير في أعور لا يغشى الناس فنزع هاشم الراية وهو يقول :

أعور يبغي أهله محلا   قد عالج الحياة حتى ملا   لا بد أن يفل أو يفلا

فقال له عمار : أقبل فإن الجنة تحت الأبارقة ، وقد تزين الحور العين ، مع محمد وحزبه في الرفيق الأعلى فما رجعا حتى قتلا وكنا إذا توادعنا دخل هؤلاء في عسكرهؤلاء وهؤلاء في معسكر هؤلاء فنظرت فإذا أربعة يسيرون معاوية وأبو الأعور السلمي وعمرو بن العاص وابنه فقلت في نفسي : إن أخذت عن يميني اثنين لم أسمع كلامهما فاخترت لنفسي أن أضرب فرسي فأفرق بينهم ففعلت فجعلت اثنين عن يميني ، واثنين عن يساري ، فجعلت أصيخ بسمعي أحيانا إلى معاوية وأبي الأعور ، وأحيانا إلى عمرو بن العاص وعبد الله بن عمرو فسمعت عبد الله بن عمرو يقول لأبيه .

يا أبت : قد قتلنا هذا الرجل وقد قال فيه رسول الله ﷺ قال وقال : وأي رجل ؟ قال : عمار بن ياسر . أما[1] سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم بناء المسجد ، ونحن نحمل لبنة لبنة، وعمار يحمل لبنتين لبنتين : وأنت ترحض[2] أما إنه ستقتلك الفئة الباغية وأنت من أهل الجنة . فقال معاوية اسكت فوالله ما تزال

(١) لعلها محرفة عن أنا . لأن عمرًا لم يكن أسلم عند الهجرة .

(٢) ترحض : ينزل العرق غزيراً منك من الحمى ومعناه : يا عمار تحمل لبنتين وأنت محموم ينفصد العرق منك .

تدحض[1] في بولك أنحن قتلناه ، وإنما قتله من جاؤوا به فألقوه بين رماحنا قال : فتنادوا في عسكرمعاوية . إنما قتل عمارا من جاء به)[2] .

والملاحظ أن ثقة معاوية رضي الله عنه بعد مقتل عمار لم تتزعزع ولا يمكن أن يخطر بباله لحظة أن المطالبة بدم عثمان الخليفة الشهيد المظلوم بغي وعدوان ولذلك وجد في هذا التأويل ركنا شديدا يأوي إليه إنما قتله الذين أخرجوه ، ألقوه بين رماحنا .

أما عمرو رضي الله عنه . فقد كانت الصدمة عنيفة جدا عليه ولم يقبل بهذا التأويل وتسارعت الأحداث أمامه لتزعزع كيانه كله .

فعن محمد بن عمرو بن حزم قال : لما قتل عمار بن ياسر رضي الله عنه دخل عمرو بن حزم على عمر بن العاص فقال : قتل عمار وسمعت رسول الله ﷺ يقول : « تقتلك الفئة الباغية » فقال عمرو ابن العاص يرجّع ، يقول : إن لله وإنا إليه راجعون حتى دخل على معاوية فقال معاوية : مه ؟! فقال : قتل عمار فقال معاوية : قد قتل عمار فماذا ؟ قال عمرو : سمعت رسول الله ﷺ يقول : تقتله الفئة الباغية !! فقال له معاوية دحضت في بولك ، أنحن قتلناه ؟! إنما قتله علي وأصحابه جاؤوا به حتى ألقوه بين رماحنا أو قال بين سيوفنا)[3] .

فقد فزع عمرو وارتاع لمقتل عمار رضي الله عنه وهو في جيش علي ورفض تأويل معاوية رضي الله عنه إنما قتله الذين أخرجوه ومعاوية لم يسمع ذلك من

---

(١) تدحض : تعثر وتنزل .

(٢) مجمع الزوائد للهيثمي ٧ / ٢٤٠ ، وقال فيه : رواه ا لطبراني وأحمد باختصار وأبو يعلي بنحو الطبراني ورجال أحد وأبي يعلي ثقات .

(٣) رواه الإمام أحمد ١٩٩/٤ وفيها : فقام عمرو فزعا يرجع) وراه الحاكم في مستدركه وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي في تلخيصه .

رسول الله ﷺ أما عمرو فقد سمع ذلك (فعن عمرو بن دينار عن رجل من أهل مصر يحدث أن عمرو بن العاص أهدي إلى ناس هدايا ففضل عمار بن ياسر ، فقيل ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : تقتله الفئة الباغية)[1].

فعبد الله بن عمرو ، وعمارة بن حزم ، وعمرو بن العاص ، وخلائق من الصحابة[2] سمعوا هذا من رسول الله ﷺ فقد كان هذا في ملأ عام حتى ان بعض الروايات تذكر « وقد كان ذو الكلاع سمع قول عمرو بن العاص يقول ، قال رسول الله ﷺ لعمار بن ياسر : « تقتلك الفئة الباغية فكان ذو الكلاع يقول لعمرو : ويحك ما هذا يا عمرو ؟ فيقول له عمرو : إنه سيرجع إلينا)[3] .

إن عمرو بن العاص يعرف تماما فضل عمار و ويعرف حب رسول الله ﷺ له .

(فعن نوفل بن أبي عقرب قال : جزع عمرو بن العاص عند الموت جزعا شديدا فلما رأى ذلك ابنه عبدالله بن عمرو قال : يا أبا عبد الله ما هذا الجزع ، وقد كان رسول الله ﷺ يدنيك ويستعملك قال : أي بني قد كان ذلك وسأخبرك عن ذلك إني والله ما أدرى أحبًا ذلك أم تألفا يتألفني ، ولكني أشهد على رجلين أنه قد فارق الدنيا وهو يحبهما ابن سمية وابن أم عبد[4]) لقد كان يراه أفضل من نفسه .

(١) مجمع الزوائد للهيثمي وقال فيه : رواه أحمد ، وفيه راو لم يسم وبقية رجاله رجال الصحيح ورواه أبو يعلي باختصار الهدية .

(٢) قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري روى حديث « تقتل عمار الفئة الباغية جماعة من الصحابة منهم أبو قتادة وأم سلمة عند مسلم وأبو هريرة عند الترمذي ، وعبد الله بن عمرو ، وعثمان بن عفان وحذيفة وأبو أيوب وأبو رافع وخزيمة بن ثابت ومعاوية وعمرو بن العاص وأبو اليسر وعمار نفسه وكلها عند الطبراني وغيره وغالب طرقها صحيحة أو حسنة ، وفيه عن جماعة آخرين يطول عدهم وفي هذا الحديث علم من أعلام النبوة ، وفضيلة ظاهرة لعلي ورد على النواصب الزاعمين أن عليًا لم يكن مصيباً في حروبه .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ٧ / ٢٩٣ .

(٤) رواه أحمد والطبراني إلا أنه قال : مات رسول الله ﷺ وهو عنهما راضٍ ورجال أحمد رجال الصحيح .

(فعن الحسن قال قال عمرو بن العاص : كنا نرى أن رسول الله ﷺ مات يوم مات وهو يحب رجلا فيدخله الله النار قيل : قد كان يستعملك فقال الله أعلم ولكنه كان يحب رجلا قالوا من هو ؟ قال : عمار بن ياسر)[1] .

وعمرو بن العاص يعلم أن قاتل عمار في النار (فعن عبد الله بن عمرو أن رجلين أتيا عمرو بن العاص يختصمان في دم عمار وسلبه فقال لعمرو : خليا عنه. فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول قاتل عمار وسالبه في النار)[2] .

وعن أبي غادية قال : قتل عمار ، فأخبر عمرو بن العاص فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن قاتل عمار وسالبه في النار » فقيل لعمرو : فإنك هو ذاك تقاتله . قال : إنماقال : قاتله وسالبه)[3] .

لقد دفع استشهاد عمار رضي الله عنه خزيمة بن ثابت الى الموت والاستشهاد مع علي رضوان الله عليه فعن محمد بن عمارة بن خزيمة ابن ثابت قال : ما زال جدي كافاً سلاحه حتى قتل عمار بصفين . فسل سيفه فقاتل حتى قتل . قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : تقتله الفئة الباغية)[4] .

ودفع استشهاد عمار رضي الله عنه الى ندم عبد الله بن عمر .

(فعن ابن عمر قال : لم أجدني آسى على شيء أني لم أقاتل الفئة الباغية مع علي)[5] ودفع استشهاد عمار رضي الله عنه إلى ندم عمرو بن العاص بعد فزعه وجزعه واستعاد صورة عمار كاملة وبدا له بجلاء أنه مع الفئة الباغية .

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمي ٩ / ٢٦٤ وقال فيه : رواه الطبراني في الأوسط والكبير وزاد فيه : ذلكم قتيلكم يوم صفين قال : قد والله قتلناه .

(٢) مجمع الزوائد للهيثمي ٩ / ٢٩٧ وقال فيه : رواه الطبراني وقد صرح ليث في التحديث ورجاله رجال الصحيح .

(٣) المصدر نفسه ٧ / ٢٤٤ وقال فيه : رواه أحمد والطبراني بنحوه ورجال أحمد ثقات .

(٤) مجمع الزوائد للهيثمي ٧ / ٢٤٢ وقال فيه : رواه الطبراني وفيه أبو معشر وهو لين .

(٥) المصدر السابق / ٢٤٢ . وقال فيه رواه الطبراني بأسانيد وأحدها رجاله رجال الصحيح .

فقد أورد البلاذري رحمه الله في كتابه أنساب الأشراف هذه الحادثة عن ابن خزيمة بن ثابت قال :

(شهد خزيمة بن ثابت الجمل ، فلم يسل سيفا وشهد صفين فقال : لا أقاتل حتى يُقتل عمار ، فانظر من يقتله فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « تقتله الفئةُ الباغية » فلما قُتل عمار قال خزيمة . قد أبانت لي الضلالة ، ثم اقترب فقاتل حتى قتل وكان الذي قتل عمارا أبو الغادية المري طعنه برمح فسقط ، وكان يومئذ يقاتل في محفة فقتل وهو ابن أربع وتسعين سنة فلما وقع انكب عليه رجل آخر فاحتز رأسه فاختصما فيه فقال عمرو : والله مايختصمان إلا في النار . فقال معاوية: أتقول هذا القوم بذلوا أنفسهم دوننا ؟! فقال عمرو : هو والله ذاك ، وإنك لتعلمه ، ولوددت أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة)[1] .

ونتيجة هذا الندم راح يفكر كيف ينهي هذه الحرب التي أكلت أشراف العرب والمسلمين وهو فيها مع الفئة الباغية وهو مع الفئة التي قتلت عمار بن ياسر فتفتق ذهنه العبقري عن فكرة رفع المصاحف والاحتكام الي كتاب الله فهو العاصم الوحيد الذي يوقف نزيف الدم وينهي المعركة .

روى الإمام أحمد عن حبيب بن أبي ثابت قال :

أتيت أبا وائل في مسجد أهله أسأله عن هؤلاء القوم الذين قتلهم علي بالنهروان فيم استجابوا له فيم فارقوه وفيم استحل قتالهم ؟ قال : كنا بصفين ، فلما استحر القتل بأهل الشام اعتصموا بتلٍ فقال عمرو بن العاص لمعاوية أرسل الى علي بمصحف فادعه الى كتاب الله ، فإنه لن يأبى عليك فجاء به رجل فقال بيننا وبينكم كتاب الله ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون الى

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري ١ / ١٧٠ .

كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون »[1] فقال علي : نعم أنا أولى بذلك بيننا وبينكم كتاب الله)[2] .

أما الرواية المكذوبة المحرفة فهذا نصها :

(رجع الحديث الى أبي مخنف فلما رأى عمرو بن العاص أن أمر أهل العراق قد اشتد وخاف في ذلك الهلاك قال معاوية : هل لك في أمر أعرضه عليك لا يزيدنا إلا اجتماعا ولا يزيدهم إلا فرقة ؟ قال : نعم قال : نرفع المصاحف ثم نقول : ما فيها حكم بيننا وبينكم فإن أبى بعضهم أن يقبلها،وجدت فيهم من يقول: بلى ينبغي أن نقبل فتكون فرقة تقع بينهم وان قالوا : بل نقبل ما فيها رفعنا هذا القتال عنا وهذه الحرب إلى أجل أو إلى حين ، فرفعوا المصاحف بالرماح وقالوا: هذاكتاب الله عز وجل بيننا وبينكم . من لثغور أهل الشام بعد أهل الشام ومن لثغور أهل العراق بعد أهل العراق فلما رأى الناس المصاحف قد رفعت قالوا نجيب الى كتاب الله عز وجل ونغيب اليه)[3] .

وسند هذه الرواية : أبو مخنف التالف الساقط الهالك الشيعي المحترق أبو مخنف ، وأبو جناب الكلبي ضعفوه لكثرة تدليسه وعمارة بن ربيعة الجرمي مجهول .

فكف تقف هذه الرواية المتهافتة أمام الرواية السابقة الموثوقة الصحيحة .

وترد رواية ثانية لا تقل صحة عن الرواية السابقة وهي كما أوردها الطبري : حدثني عبد الله بن أحمد ، قال : حدثني أبي قال حدثني سليمان بن يونس بن

---

(١) سورة آل عمران / ٢٣ .

(٢) رواه الامام أحمد ٣ / ٤٨٥ ورجاله رجال الصحيح .

(٣) تاريخ الملوك والأمم للطبري ٥ / ٤٨ .

يزيد عن الزهري قال [1]

قال صعصعة بن صوحان يوم صفين حين رأى الناس يتبارون : ألا اسمعوا واعقلوا ، تعلمن والله لئن ظهر علي ليكونن مثل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وإن ظهر معاوية لا يقر لقائل بقول حق .

قال الزهري : فأصبح أهل الشام قد نشروا مصاحفهم ودعوا الى ما فيها ، فهاب أهل العراقين فعند ذلك حكموا الحكمين فاختار أهل العراق أبا موسى الأشعري ، واختار أهل الشام عمرو بن العاص ، فتفرق أهل صفين حين حكم الحكمان ، فاشترطا أن يرفعا ما رفع القرآن ويخفضا ما خفض القرآن وأن يختار لأمة محمد ﷺ ، وأنهما يجتمعان بدومة الجندل فإن لم يجتمعا لذلك واجتمعا من العام المقبل بأذرح [2] .

فلما انصرف علي خالفت الحروبة وخرجت ، وكان ذلك أول ما ظهرت فآذنوه بالحرب وردوا عليه : لا حكم إلا الله سبحانه وقالوا : إنه حكم بني آدم في حكم الله عز وجل وقاتلوا)[3] .

---

(١) ذكر ابن جرير الطبري هذا السند بالصيغة المذكورة ٥/٧٥ ثم عاد فذكره مرة ثانية بقوله : وذلك ما حدثنا عنه عبد الله بن يونس عن الزهري ونلاحظ تباينا بين السندين رغم أن الاشارة إليهما واحدة فلا بد من خطأ في واحد من السندين وأرجح أن الخطأ في الرواية الأولى من حيث سندها لما يلي :

أ - في الأولى عبد الله بن أحمد عن أبيه وفي الثانية عبد الله عن يونس بحذف سليمان .

ب - في الأولى قال : حدثنا سليمان بن يونس بن يزيد عن الزهري وسليمان هذا لم يرو عن الزهري انما الذي روى عنه أبوه يونس بن يزيد ويستقيم السندان معا عندما يكونان على الشكل التالي : « حدثنا عبد الله بن أحمد قال حدثني أبي أحمد بن عبد الله قال حدثني يونس بن يزيد عن الزهري فينتهي الإشكال بحذف كلمة سليمان الذي لم يرد عن الزهري ورجال السند كما وردوا والدي ابن حجر في التقريب عبالله بن أحمد : صدوق بتقديم في القراءة . أحمد بن عبد الله بن يونس ثقة حافظ من كبارالعاشرة يونس بن يزيد : ثقة إلا أن في روايته عن الزهري وهما قليلا من كبار السابعة الزهري ، الإمام الحافظ المتقن المتفق على جلالته فرجال الحديث جميعا ثقات .

(٢) أذرح : المعتقد أنها درعا الحالية في سورية .

(٣) تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري ٥ / ٥٧ .

التحكيم :

ونتابع هذه الرواية المقبولة الهامة عند الطبري والتي تنقل لنا وقائع التحكيم :

(.. وقاتلوا فلما اجتمع الحكمان بأذرح وافاهم المغيرة بن شعبة[1] فيمن حضر من الناس فأرسل الحكمان إلى عبدالله بن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن الزبير في إقبالهم في رجال كثير ووافى معاوية بأهل الشام وأبى علي وأهل العراق أن يوافوا فقال المغيرة بن شعبة لرجال من ذوي الرأي من قريش : أترون أحدا من الناس برأي يبتدعه يستطيع أن يعلم أيجتمع الحكمان أم يتفرقان ؟ قالوا : لا نرى أحدا بعلم ذلك قال : فوالله إني لأظن أني سأعلمه منهما حين أخلوا بهما وأراجعهما فدخل على عمرو بن العاص وبدأ به فقال : يا أبا عبد الله أخبرني عما أسألك عنه كيف ترانا نحن معشر المعتزلة فإنا قد شككنا في هذا الأمر الذي تبين لكم من هذا القتال. ورأينا أن نستأني ونتثبت حتى تجتمع الأمة ! قال : أراكم معشر المعتزلة خلف الأبرار وأمام الفجار فانصرف المغيرة ولم يسأله عن غير ذلك حتى دخل على أبي موسى فقال له مثل ما قال لعمرو فقال أبو موسى . أراكم أثبت الناس رأيا فيكم بقية المسلمين فانصرف المغيرة ولم يسأله عن غير ذلك فلقي الذين قال لهم ما قال من ذوي ـ الرأي أي من قريش ـ فقال : لا يجتمع هذان على أمر واحد .

---

(١) كان المغيرة بن شعبة أحد دهاة العرب االكبار وكان معتزلا الفتة وكما روى عبد الرزاق عن معمر عن الزهري قال : كان يعد في العرب حين ثارت الفتنة الأولى خمسة يقال لهم ذووا رأي العرب ومكيدتهم يعد من قريش . معاوية وعمرو ، ويعد من الأنصار قيس بن سعد ويعد من المهاجرين عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي ويعد من ثقيف المغيرة بن شعبة فكان مع علي منهم رجلان قيس بن سعد وعبد الله بن بديل وكان المغيرة معتزلا بالطائف وأرضها . فلما حكم الحكمان فاجتمعا بأذرح وافاهما المغيرة بن شعبة فيمن حضر من الناس .

فلما اجتمع الحكمان وتكلما قال عمرو بن العاص : يا أبا موسى أرأيت أول ما نقضي به من الحق أن نقضي لأهل الوفاء بوفائهم وأهل الغدر بغدرهم قال أبو موسى : وما ذاك ؟ قال : ألست تعلم أن معاوية وأهل الشام قد وفوا وقدموا للموعد الذي واعدناهم إياه ؟ قال : بلى . قال عمرو : اكتبها فكتبها أبوموسى قال عمر يا أبا موسى أأنت على أن نسمي رجلا يلي أمر هذه الأمة ؟ فسمه لي فإن أقدر على أن أتابعك فلك علي أن أتابعك وإلا فلي عليك أن تتابعني : قال أبو موسى أسمي لك عبد الله بن عمر وكان ابن عمر فيمن اعتزل قال عمر . فإني أسمي لك معاوية بن أبي سفيان فلم يبرحا مجلسهما حتى استبا ثم خرجا إلى الناس ، فقال أبو موسى : إني وجدت مثل عمرو مثل الذين قال الله عز وجل : « واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها » فلما سكت أبو موسى تكلم عمر فقال : أيها الناس إني وجدت مثل أبي موسى كمثل الذي قال عز وجل ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ﴾ وكتب كل واحد منهما مثله الذي ضرب لصاحبه إلى الأمصار .

قال ابن شهاب : فقام معاوية عشية في الناس فأثنى على الله عز وجل ثناؤه بما هو أهله ثم قال : أما بعد فمن كان متكلما في الأمر فليطلع لنا قرنه قال ابن عمر: فأطلقت حبوتي فأردت أن أقول قولا يتكلم فيه رجال قاتلوا أباك على الإسلام ثم خشيت أن أقول كلمة تفرق الجماعة أو يسفك فيها دم أو أحمل فيها على غير رأي فكان ما وعد الله عز وجل في الجنان أحب الي من ذلك ...)[1].

---

(١) تاريخ الرسل والملوك لابن جرير الطبري ٥ / ٥٨ - ٥٩ .

والملاحظ أن في هذه الرواية سقطا في تاريخ الطبري عند قوله : فأردت أن أقول قولا يتكلم فيه رجال قاتلوا أباك على الإسلام وبالعودة إلى صحيح البخاري نجد النص على الصيغة التالية :

(أخبرني ابن طاوس عن عكرمة بن خالد عن ابن عمر قال : دخلت على حفصة ونوساتها تنطف قلت : قد كان من أمر الناس ما ترين ، فلم يجعل لي من الأمر شيء فقالت : الحق فانهم ينتظرونك وأخشى أن يكون باحتباسك عنهم فرقة فلم تدعه حتى ذهب فلما تفرق الناس خطب معاوية قال : من كان يريد أن يتكلم في هذا الأمر فليطلع لنا قرنه فلنحن أحق به منه ومن أبيه قال حبيب بن مسلمة فهلا أجبته ؟ قال عبد الله . فحللت حبوتي وهممت أن أقول : أحق بهذا الأمر منك من قاتلك وأباك على الإسلام فخشيت أن أقول كلمة تفرق بين الجمع وتسفك الدم وتحمل عني غير ذلك فذكرت ما أعد الله في الجنان قال حبيب حفظت وعصمت)[1] .

أما رواية عبد الرزاق في مصنفه عن معمر عن الزهري عن سالم عن ابن عمر فهي كما يلي أوردها الذهبي (فقلت : قد كان من الناس ما ترين ، ولم يجعل لي من الأمر شيء قالت فالحق بهم فانهم ينتظرونك ، وإني أخشى أن يكون في احتباسك عنهم فرقة فلم تدعه حتى ذهب قال : فلما تفرق الحكمان خطب معاوية فقال من كان يريد أن يتكلم في هذا الأمر فليطلع إلي قرنه فنحن أحق بذلك منه ومن أبيه ، يعرض بابن عمر) .

ولا بأس أن نستعرض رواية عبد الزاق في مصنفه عن معمر عن الزهري فهي أوثق الروايات ورجالها رجال الصحيح .

---

(٢) البخاري ١٤١/٥/٢ باب : غزوة الخندق وهي الأحزاب .

(فلما حكم الحكمان فاجتمعا بأذرح وافاهما المغيرة بن شعبة وأرسل الحكمان الى عبد الله بن عمر والى عبد الله ابن الزبير ووافى رجال كثير من قريش ووافى معاوية بأهل الشام ، ووافى أبو موسى الأشعري ، وعمرو بن العاص، وهما الحكمان وأبى علي وأهل العراق أن يوافوا فقال المغيرة بن شعبة لرجال من ذوي رأي أهل قريش : هل ترون أحدا بقدر على أن يستطيع أن يعلم أيجتمع هذان الحكمان ، أم لا ؟ فقالوا له : لا نرى أن أحدا يعلم ذلك . قال : فوالله إني لأظنني سأعلمه منهما حين أخلو بهما فأراجعهما فدخل على عمرو بن العاص فبدأ به فال: يا أبا عبد الله أخبرني عما أسألك عنه : كيف ترانا معشر المعتزلة ، فإنا قد شككنا في هذا الأمر الذي قد تبين لكم في هذا القتال ورأينا نستأني ونتثبت حتى تجتمع الأمة على رجل فندخل في صالح ما دخلت به الأمة فقال عمرو : أراكم معشر المعتزلة خلف الأبرار وأمام الفجار فانصرف المغيرة ولم يسأله عن غير ذلك حتى دخل على أبي موسى الأشعري فخلا به فقال له نحواً مما قال لعمرو فقال أبو موسى : أراكم أثبت الناس رأيا ، وأرى فيكم بقية المسلمين ، فانصرف فلم يسأله عن غير ذلك، قال : فلقي أصحابه الذين قال لهم من ذوي رأي قريش قال :

أقسم لكم لا يجتمع هذان على رأي واحد وليد عون كل واحد منهما إلى رأيه

فلما اجتمع الحكمان وتكلما خاليين فقال عمرو : يا أبا موسى ، أرأيت أول ما نقضي به في الحق . علينا أن نقضي لأهل الوفاء بالوفاء ولأهل الغدر بالغدر ، فقال أبو موسى : وماذاك ؟ قال ألست تعلم أن معاوية وأهل الشام قد وافوا للموعد الذي وعدناهم إياه ! فقال : نعم . فقال : فاكتبها فكتبها أبوموسى فقال عمرو : قد أخلصت أنا وأنت على أن نسمي رجلا يلي أمر هذه الأمة فسم يا أبا موسى

(١) المصنف لعبد الرزاق ٥ / ٤٦٥ .

فإني أقدر على أن أبايعك على أن تبايعني فقال أبو موسى : أسمي عبد الله بن عمر ابن الخطاب وكان عبد الله بن عمر فيمن اعتزل . فقال عمرو : فأنا اسمي لك معاوية بن أبي سفيان فلم يبرحا من مجلسهما ذلك حتى اختلفا واستبا، ثم خرجا الى الناس ثم قال أبوموسى ، يا أيها الناس إني وجدت مثل عمرو بن العاص مثل الذي قال الله تبارك وتعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منهم حتى بلغ لعلهم يتفكرون ﴾ وقال عمرو بن العاص يا أيها الناس إني وجدت مثل أبي موسى مثل الذي قال الله تبارك وتعالى ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا .. ﴾ حتى بلغ « الظالمين » .

ثم كتب كل واحد منهما بالمثل الذي ضرب لصاحبه من الأمصار)[١] .

لا شك أن هناك فجوة في الرواية فلا يعقل أن يترك أمر هذه الأمة لاجتماع واحد وانتهى الأمر وهذه قطعة أخرى تسد هذه الفجوة .

(أبو المليح الرقي عن ميمون بن مهران قال : دس معاوية عَمْرًا وهو يريد أن يعلم ما في نفس ابن عمر فقال : يا أبا عبد الرحمن ما يمنعك أن تخرج يبايعك الناس أنت صاحب رسول الله ﷺ وابن أمير المؤمنين وأنت أحق بهذا الأمر فقال قد اجتمع الناس كلهم على ما نقول ؟ قال : نعم إلا نفر يسير قال :

لو لم يبق إلا ثلاثة أعلاج بهجر لم يكن لي بها حاجة . قال : فعلم أنه لا يريد القتال . فقال : هل لك أن تبايع من قد كان الناس أن يجتمعوا عليه ويكتب لك من الأرضين والأموال ؟ قال : أف لك ! اخرج من عندي إن ديني ليس بديناركم ولا درهمكم)[٢] .

---

(١) المصنف لعبد الرزاق ٥ / ٤٦٥ .

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي ٣ / ٢٢٨ ، قال المحقق فيه : وتمامه وإني أرجو أن أخرج من الدنيا ويدي بيضاء نقية . أخرجه ابن سعد ٤ / ١٦٤ من طريق عبد الله بن جعفر الرقي عن أبي المليح عن ميمون ابن مهران وهذا سند صحيح .

والفجوة التي التي تسدها هذه الرواية الصحيحة : هي أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قد استشير في الخلافة ورفض بقوله : « لو لم يبق إلا ثلاثة أعلاج بهجر لم يكن لي فيها حاجة » لا نعرف في الحقيقة علام اختلف الحكمان حتى استبا خاصة وقد بدأت المباحثات بروح مرنة ونفسية رضية حريصة على الصلح وإصلاح ذات البين وفي الرواية فجوة هي الحديث الذي تناقشا فيه حتى وصلا الى السباب وظني أن السباب الذي حصل بينهما هو هذا المثال المضروب من كتاب الله .

وقد تبرز الطبيعة البشرية في لحظة حنق زائد وغضب جارف فيتصور أبو موسى أن يكون عمرو قد نكث بعهده وتخلى عن مسؤولياته حين أصر على نوعيات معينة لتحكم الأمة ويتصور عمرو أن أبا موسى لم يدرك مدى مسؤولية حمله للقرآن والاحتكام إليه .

إن الجو المشحون بالتوتر قاد إلى هذه الآراء التي صدرت عن كل صحابي في صاحبه ويحسُن أن يكون واضحا في ذهننا أن ما وراء النص يوحي بالقصد المباشر منه فعمرو رضي الله عنه يرى في أبي موسى القارئ المتقن لكتاب الله لا تحسن العمل بما فيه فيصبر على رجل من المعتزلة للفتنة من جماعته وهو لا يريد الخلافة وأبو موسى رضي الله عنه يرى في عمرو أنه تخلى عن مسؤوليته الإسلامية حين يصر على معاوية وخلافته وهو أحد الخصمين المتنازعين .

وقد لخص ابن كثير في البداية والنهاية ما اقتنع به من خلال الروايات فقال :

(فلما اجتمع الحكمان تراوحنا على المصلحة للمسلمين ونظرا في تقدير أمور ثم اتفقا على أن يعزلا عليا ومعاوية ثم يجعلا الأمر شورى بين المسلمين ليتفقوا على الأصلح لهما منهما أو من غيرهما وقد أشار أبو موسى بتولية عبد الله

بن عمر بن الخطاب فقال له عمرو : فول ابني عبد الله فإنه يقاربه في العلم والعمل والزهد قال أبوموسى : إنك قد غمست ابنك في الفتن معك وهو مع ذلك رجل صدق)[1] .

أما خليفة بن خياط الحافظ المحدث الثقة فيقول : وفيها اجتمع الحكمان أبوموسى الأشعري من قبل علي وعمرو بن العاص من قبل معاوية بدومة الجندل في شهررمضان ويقال بأذرح وهي من دومة الجندل قريب فبعث علي ابن عباس ولم يحضر وحضر معاوية فلم يتفق الحكمان علي شيء[2] وافترق الناس وبايع أهل الشام بالخلافة لمعاوية في ذي القعدة سنة سبع وثلاثين)[3].

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٧ / ٢٩٤ .

(٢) أي في سنة سبع وثلاثين ، ويؤكد هذا المعنى ما رواه الحافظ الذهبي في السير ٣ / ٩٨ عن زكريا بن عيسى عن الزهري عن عمرو بن العاص قال لأبي موسى لما رأى كثرة مخالفته له : هل أنت مطيعي ؟ فان هذا الأمر لا يصلح أن تنفرد به حتى نحضره رهطا من قريش نستشيرهم فانهم أعلم بقومهم قال : نعم مارأيت فبعثا الى خمسة ابن عمرو وأبي جهم بن أبي حذيفة وابن الزبير ، وجبير بن مطعم ، وعبدالرحمن بن أبي الحارث بن هشام فقدموا عليهم .

(٣) تاريخ خليفة بن خياط ١/ ٢٦ .

الرواية الساقطة التي شوهت تاريخ عمرو :

وكأني بأبي مخنف أتي الى الرواية الصحيحة فيجد فيها ثغرة فيضيف بها ما يناسب هواه فيخلط لنا السم بالدسم ويشوه هذه الشخصيات العظيمة بما يتناسب مع هذا الهوى .

قال أبومخنف . حدثني أبو جناب الكلبي أن عمراً وأبا موسى حين التقيا بدومة الجندل أخذ عمر يقدم أبا موسى في الكلام ويقول : إنك صاحب رسول الله ﷺ وأنت أسن مني : فتكلم وأتكلم فكان عمرو قد عوَّد أبا موسى أن يقدِّمه في كل شيء ، وإنما اغتره بذلك كله أن يقدمه ، فيبدأ يخلع علي . قال : فنظر في أمرهما وما اجتمعا عليه فأراده عمرو على معاوية فأبى وأراده على ابنه فأبى وأراد أبو موسى عمرًا على عبد الله بن عمر فأبى عليه فقال له عمرو : خبرني ما رأيك ؟ قال : رأيي أن تخلع هذين الرجلين ونجعل الأمر شورى بين المسلمين فيختار المسلمون لأنفسهم من أحبوا فقال له عمرو : فإن الرأي ما رأيت فأقبلا إلى الناس وهم مجتمعون فقال : يا أبا موسى : اعلمهم بأن رأينا قد اجتمع واتفق فتكلم أبو موسى فقال : إن رأيي ورأي عمرو قد اتفق على أمر أن نرجو أن يصلح الله عز وجل به أمر هذه الأمة فقال عمرو : صدق وبر يا أبا موسى تقدم فتكلم فتقدم أبو موسى ليتكلم فقال له ابن عباس : ويحك ! والله إني لأظنه قد خدعك إن كنتما اتفقتما على أمر فقدِّمه فليتكلم بذلك الأمر قبلك ثم تكلم أنت بعده فإن عَمْرًا رجل غادر لا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه ، فإذا قمت في الناس خالفك وكان أبو موسى مغفلا فقال له : إنا قد اتفقنا فتقدم أبو موسى فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أيها الناس إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة ، فلم نر أصلح لأمرها ، ولا ألم لشعثها من أمر قد أجمع رأيي ورأي عمرو عليه وهو أن نخلع عليا ومعاوية ،

أحبوا هذه الأمة هذا الأمر فيولوا منهم من أحبوا عليهم وإني قد خلعت عليا ومعاوية فاستقلوا أمركم وولوا علكيم من رأيتموه لهذا الأمر أهلا ثم تنحى .

وأقبل عمرو بن العاص فقام مقامه ، فحمد الله وأثنى عليه وقال :

إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه ، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبي معاوية فإنه ولي عثمان ، والطالب بدمه ، أحق الناس بمقامه فقال أبو موسى : مالك لا وفقك الله غدرت وفجرت إنما مثلك كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث . قال عمرو : إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفارا وحمل شريح بن هانئ على عمرو فعنفه بالسوط وقام الناس فحجزوا بينهم وكان شريح بعد ذلك يقول : ما ندمت على شيء ندامتي ألا أكون ضربته بالسيف آتيا به الدهر ما أتى . والتمس أهل الشام أبا موسى فركب راحلته والتحق بمكة .

قال ابن عباس : قبح الله رأي أبي موسى ! حذرته وأمرته بالرأي فماعقل فكان أبوموسى يقول حذرني ابن عباس غدرة الفاسق ،ولكني اطمأننت إليه ، وظننت أنه لن يؤثر شيئا على نصيحة الأمة ثم انصرف عمرو وأهل الشام إلى معاوية ، وسلموا عليه بالخلافة ورجع ابن عباس وشريح بن هانئ إلى علي وكان إذا صلى الغداة يقنت فيقول : اللهم العن معاوية وعمرا وأبا الأعور السلمي وحبيبا وعبد الرحمن بن خالد والضحاك بن قيس والوليد فبلغ ذلك معاوية فكان إذا قنت لعن عليا وابن عباس والأشتر وحسنا وحسنيا وزعم الواقدي أن اجتماع الحكمين كان في شعبان سنة ثمان وثلاثين من الهجرة)[١] .

---

(١) رواه أبو مخنف الذي قال فيه علماء الجرح والتعديل : هالك ، وساقط ، متروك ، شيعي محترق عن أبي جناب الكلبي الذي ضعفوه لكثرة تدليسه ولا حاجة له هنا للتدليس في هذه الرواية فهو لم يروها لنا عن أحد فهي متقطعة ومجهولة السند في بعضها ومكذوبة ساقطة في بعضها الآخر .

وهكذا استطاع أبو مخنف بهذه الرواية أن يطعن بأكبر فريقٍ من الصحابة بمعاوية وعلي ومن لعنهم علي واثبات اللعن بين الفريقين وبأبي موسى الأشعري الذي قدموه غافلا أحمقاً وبعمرو بن العاص الذي قدموه غادرا فاجرا فاسقا ومضت هذه الحادثة برواية أبي مخنف هي الصورة التاريخية عن المذكورين .

رواية صحيحة أخرى يرويها لنا عمرو :

وقد أورد هذه الرواية الحافظ الدارقطني بسنده عن الحصين بن المنذر ، والحافظ ابن عساكر بسنده عن وهب بن جرير[1] نا الأسود بن شيبان [2] عن عبدالله بن مضارب [3] عن حضين بن المنذر [4] قال : (لما عزل معاوية عمرو بن العاص عن مصر ضرب (أي الحضين بن المنذر) فسطاطه قريبا من فسطاط معاوية .. فبلغ نبأه معاوية قال فأرسل إليه فقال : إنه قد بلغني عن عمرو بعض ما أكره فأته فاسأله عن الأمر الذي اجتمع هو وأبو موسى فيه كيف صنعا قال :

فأتيته فقلت : أخبرني عن الأمر الذي اجتمعتما فيه أنت وأبوموسى كيف صنعتما فيه ؟ قال : قد قال الناس ولا والله ما كان ما قالوا ولكن لما اجتمعت أنا وأبو موسى قلت له : ماترى فى هذا الأمر ؟ قال : أرى أنه في النفر الذي توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض قال فقلت : أين تجعلني من هذا الأمر أنا ومعاوية فقال : إن يُستعن بكما ففيكما معونة وان يستغن عنكما فطالما ما استغنى أمر الله عنكما قال . فكانت هذه هي التي تخيل منها معاوية نفسه ...) [5] .

---

(١) وهب بن جرير : ثقة من التاسع .

(٢) الأسود بن شيبان : ثقة عابد من السادسة .

(٣) عبد الله بن مضارب : مقبول من السادسة .

(٤) حضين بن المنذر ثقة من الثانية ومن أمراء علي بصفين .

(٥) تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر ١٣ / ٥٢١ .

فعمرو رضي الله عنه يدرك أن الناس قد تقولوا كذبا في هذا الموضوع ونشرت افتراءات في أجواء الصراع المحمومة فيقسم عمرو على أن ما يتقوله الناس غير صحيح (قد قال الناس ولا والله ما كان ما قالوا) ثم يصحح هذه المفاهيم المغلوطة باصرار أبي موسى رضي الله عنه على أن يكون الأمر في أهل الشورى الذين توفي رسول الله ﷺ هو عنهم راض ولم يبق منهم آنذاك إلا ثلاثة : علي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد ورابعهم عبد الله بن عمر بن الخطاب الذي حضر دون أن يكون شريكا في الأمر وتؤكد الروايات الأخرى الصحيحة أنه رشح عبد الله بن عمر بن الخطاب مع هؤلاء الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض أما مقام عمرو ومعاوية فهو مقام الإمرة لا مقام الخلافة فقد يستعين الخليفة فيهما وقد لا يستعين .

عمر بن العاص أمير لمصر للمرة الثانية :

تطورت الأوضاع بسرعة في مصر ولسنا بصدد تطورها إلا بالمقدار الذي يعطينا صورة عنها عندما استلم عمربن العاص إمرتها .

ونعود إلى أوثق الروايات وأصحها عن رجال الصحيحين البخاري ومسلم .

عبد الرزاق عن معمر عن الزهري قال :

(... وكانت مصر في سلطان علي بن أبي طالب فأمر عليها قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري وكان حامل راية الأنصار مع رسول الله ﷺ يوم بدر وكان قيس من ذوي الرأي من الناس إلا ما غلب عليه من أمر الفتنة فكان معاوية وعمرو ابن العاص جاهدين على إخراجه من مصر ويغلبان على مصر . وكان قد امتنع منهما بالدهاء والمكيدة فلم يقدرا على أن يفتحا مصر حتى كاد معاوية قيس بن سعد من قبل علي .

قـال : فكان معـاوية يحـدث رجالاً مـن ذوي الرأي من قريش فـيـقول : مـا ابتدعت من مكيـدة قط أعجب عندي من مكيدة كـايدت بها قيس بن سـعد من قبل علي وهو بالعراق ، حين امـتنع مني قيس فقلت لأهل الشام لا تسبـوا قيسا ولا تدعوني إلى غـزوه ، فإن قيسـا لنا شيعة ، تأتـينا كتبه ونصـيحته ،ألا ترون مـا يفعل بإخـوانكم الذين عنده من أهل خربتـا (١) يجري عليـهم أعطيتـهم وأرزقهم ويومن سربهم ويحسن إلى كل راغب قدم عليه فلا نستنكره في نصيحته .

قال معاوية : وطففت أكتب بذلك إلى شـيعتي من أهل العراق فسمع بذلك مني جـواسـيس علي الـذين عندي من أهل العـراق فلمـا بلـغ ذلك عليـا ونماه اليـه عبدالله بن جعفر ومحمد بن أبي بكر الصديق إنهم قيس بن سعد وكتب اليه يأمره بقتال أهل خربتا ، وأهل خرنبا يومئذ عشرة آلاف فأبى قيس أن يقاتلهم وكتب إلى علي: أنهم وجوه أهل مصر وأشرافهم وذووا الحفاظ فيهم وقد رضوا مني بأن أؤمن من سـربهم وأجري علهيم أعطياتهـم وأرزاقهم وقـد علمت أن هواهم مع معـوية فلسـت مكابدهم بأمـر أهون علـي وعليك من أن تفـعـل ذلـك بهم اليـوم . ولو دعوتهم إلى قتالي كانوا قرباء هم أسود الـعرب وفيهم بسر بن ارطأة ، ومسلمة بن مخلد ، ومـعاوية بن حديج الخـولاني فذرني ورأيي فيـهم وأنا أعلم بما أداري منهم فـأبى عليه عـلي إلا قتـالهم . فـأبى قيس أن يـقاتلهم . وكـتب قـيس إلى علي : إن كنت تتهمني فاعـزلني عن عملك ، وأرسل إليه غيري . فأرسل الأشـتر أميرا على مصر حتى إذا بلغ القلزم وشرب بالقلزم شربة من عسل فكان فيها حتفه فبلغ ذلك معاوية وعمر بن العاص فقال عمرو بن العاص : إن لله جنودا من عسل فلما بلغت عليا وفاة الأشتر بعث محمد بن أبي بكر ، أميراً على مصر فلما حُدِّث بن قيس بن

---

(١) حق كور مصر قرب الاسكندرية بها اعتصم الرافضون من جند مصر بيعة علي .

سعد قادماً أميرا عليه، تلقاه فخلا به وناجاه وقال : إنك قد جئت من عند امرئ لا رأي له في الحرب ، وإنه ليس عزلكم إياي بما نعي أن أنصح لكم ، وإني من أمركم على بصيرة وإني أدلك على الذي كنت أكابد به معاوية وعمرو بن العاص وأهل خربتا فكايدهم به فإنك إن كابدتهم بغيره تهلك . فوصف له قيس المكابدة التي كايدهم بها فاستغشه محمد بن أبي بكر وخالفه في كل شيء أمره به فلما قدم محمد بن أبي بكر مصر خرج قيس قبل المدينة فأخافه مروان والأسود بن أبي البختري حتى إذا خاف أن يؤخذ ويقتل ركب راحلته فظهر إلى علي .

فكتب معاوية إلى مروان والأسود بن أبي البختري يتغيظ عليهما ويقول :

أمددتما عليا بقيس بن سعد وبرأيه ومكايدته فوالله لو أمددتماه بمائة ألف مقاتل ما كان أغيظ لي من إخراجكما قيس بن سعد الي علي .

فقدم قيس بن سعد الى علي فلما بان له الحديث وجاءه قتل محمد بن أبي بكر عرف علي أن قيس بن سعد كان يداري منهم أموراً عظاما من المكايدة التي قصر عنها رأي علي ورأي من كان يؤازره على عزل قيس . فأطاع علي قيساً في الأمر كله ، وجعله على مقدمة أهل العراق ومن كان بأذربيجان وأرضها ، وعلى شرطة الخمسين الذين انتدبوا للموت ، وبايعه أربعون ألفا كانوا بايعوا عليا على الموت فلم يزل قيس بن سعد يسد بمكيدته ذلك الثغر حتى قُتل علي)[1] .

لكن كيف وصل عمرو بن العاص الى مصر فلا نجد تفصيل ذلك الا عند أبي مخنف وبمقدار ما يبتدئ حديثه في البداية موضوعيا مقنعا بمقدار ما ينتهي منه

---

(١) المصنف لعبد الرازق ٥ / ٤٥٨ وما بعدها ومغازي الزهري تحقيق سهيل زكاره ١٥٥ ـ ١٥٧ بسند صحيح (عبد الرزاق عن معمر عن الزهري) .

بالطعن بأكابر الصحابة على لسان بعضهم فسنضرب عن روايته التي ليس بين يدينا تفصيلا إلا فيها ونأخذ برواية مقتضبة للواقدي ومع أن الواقدي متروك لكننا نضطر هنا للأخذ بروايته ، والتي لا تنال من الصحابة ، ولا تتعارض مع المنهج الذي انطلقنا منه حين يتساهل بالرواة فيمالا يدخل في الفتنة ولا ينال من الصحابة

(وأما الواقدي فإنه ذكر لي أن سويد بن عبد العزيز حدثه عن ثابت بن عجلان عن القاسم بن عبد الرحمن أن عمرو بن العاص خرج في أربعة آلاف فيهم معاوية بن حديج السكوني وأبو الأعور السلمي فالتقوا بالمسناة ، فاقتتلوا قتالا شديدا حتى قتل كنانه بن بشر التجيبي ولم يجد محمد بن أبي بكر مقاتلا فانهزم فاختبأ عند جبلة بن مسروق فدل عليه معاوية بن حديج فأحاط به فخرج محمد فقاتل حتى قتل)[1] .

قال الواقدي : وكانت المسناة في صفر سنة ثمان وثلاثين وأذرح في شعبان منها في عام واحد[2] وأما مقتل محمد بن أبي بكر رحمه الله .

وبين يدينا حديث قريب من الصحة يشير إلى رغبة عمرو بن العاص رضي الله عنه في استنقاذ حياة محمد بن أبي بكر قبل قتله لكنه لم يجد مناصا من قتله .

وحدثنا محمد بن جعفر وحجاج قالا حدثنا شعبة عن عمرو بن دينار عن رجل من أهل مصر يحدث عن عمر ابن العاص أنه قال : أُسر محمد بن أبي بكر فأبى فجعل عمرو يسأله يعجبه أن يدعي أمانا قال فقال عمرو . فقال رسول الله ﷺ يجير على المسلمين أدناهم)[3] .

---

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبري ٥ / ١٠٥ .

(٢) انفرد الواقدي باعتباره التحكيم سنة ثمان وثلاثين بنيما بقية الرواة على أنه سنة سبع وثلاثين .

(٣) مسند أحمد ٤ / ١٩٧ وقال الهيثمي فيه رواه أحمد وأبو يعلي والطبراني وفيه رجل لم يسم وبقية رجاله رجال الصحيح .

وقال عمرو بن دينار : أتي عمرو بن العاص بمحمد بن أبي بكر أسيرا فقال : (هل معك عقد من أحد ؟ قال : لا فأمر به فقُتل) [1] .

وأما رواية إحراقه في جوف حمار فهي من روايات الساقط التالف الهالك أبي مخنف اذ يقول : (فغضب معاوية (بن حديج السكوني) فقدمه فقتله ، ثم ألقاه في جيفة حمار ثم أحرقه بالنار) [2] وسنده حدثني محمد بن يوسف بن ثابت الأنصاري عن شيخ من أهل المدينة) .

ففي الرواية شخص مقبول هو محمد بن يوسف والراوي عنه متروك تالف والراوي الأول مجهول .

الخوارج ومحاولة قتل عمرو الثلاثة :

مضت الأعوام الثامن والثلاثون والتاسع والثلاثون والأربعون من الهجرة ليس فيها إلا الحرب وقتال الخوارج ومحاولات التمكين لمعاوية وعلي رضوان الله عليهما على الأرض الإسلامية ولم يكن علي رضي الله عنه أوثق في شيء من قتاله الخوارج فهو يقاتلهم بنص وشهد له بذلك العديد من قادة الصحابة وكبرائهم .

(أخرج البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال :

بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسمًا أتاه ذو الخويصرة وهو رجل من تميم فقال : يا رسول الله اعدل قال ويلك ومن يعدل اذا لم أعدل قد خبت وخسرت إن لم أعدل فقال عمر يا رسول الله ائذن لي فأضرب عنقه فقال : «دعه، فإن له أصحابًا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم ،

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي ٦٠١ .

(٢) تاريخ الطبري ٥ / ١٠٥ .

يقرأون القرآن ولا يجاوز تراقيهم[1] يمرقون [2] من الدين كما يمرق السهم من الرمية ينظر الى نصله[3] فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر الى رصافه[4] فما يوجد فيه شيء ثم ينظر الى نضيه[5] وهو قدمه فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر الى قذذه[6] فلا يوجد فيه شيء قد سبق الفرث الدم آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة أومثل البضعة تدردر ويخرجون على حين فرقة من الناس قال أبو سعيد : فأشهد أني سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ وأشهد أن علي بن أبي طالب قاتلهم وأنا معه فأمر بذلك الرجل فالتمس حتى أُتي به حتى نظرت اليه على نعت النبي ﷺ الذي نعته)[1].

وهؤلاء الخوارج الذين قال فيهم رسول الله ﷺ : « فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن قتلهم أجر لمن قتلهم يوم القيامة» [8] هؤلاء اجتمعوا لقتل قادة الأمة .

وها هي خيوط مؤامرتهم يقدمها لنا الطبري بسنده قال :

حدثني موسى بن عثمان بن عبد الرحمن المسروقي في قال : حدثنا عبدالرحمن الحراني أبو عبد الرحمن قال : أخبرنا اسماعيل بن راشد قال :

---

(١) تراقبهم حناجرهم .

(٢) يمرقون : يخرجون .

(٣) نصله : حديدته .

(٤) رصافه : أوتاره .

(٥) قدحه : عوده .

(١) فذذه : ريش .

(٦) قذذه : ريشه .

(٧) البخاري ٢/٤/٢٤٣ وفي كتاب الخلافة الراشدة من فتح الباري / ٥٣٤ أنه ورد في الفتح ٦ / ٧١٥ ، ٤٣٣ و ٧/٦٦٥ و ٨/١١٨ ، ٧١٨ ، ١٠ / ٥٦٧ ، و١٣ / ٤٢٦ ، ٤٤٥ ، وأحصى رواة الحديث فقال : فهؤلاء خمسة وعشرون صحابياً من الصحابة ، والطرق إلى كثرتهم متعددة .

(٨) البخاري ٢ / ٦ / ٢٤٤ .

كان من حديث ابن ملجم وأصحابه أن ابن ملجم والبرك بن عبد الله وعمرو بن بكر التميمي اجتمعوا فتذاكروا الناس ، وعابوا على ولاتهم ، ثم ذكروا أهل النهر فترحموا عليهم ، وقالوا : مانصنع بالبقاء بعدهم شيئا ، إخواننا الذين كانوا دعاة الناس لعبادة ربهم والذين كانوا لا يخافون في الله لومة لائم فلو شرينا أنفسنا فأتينا أئمة الضلالة فالتمسنا قتلهم فأرحنا منهم البلاد وثأرنا بهم لاخواننا فقال ابن ملجم : أنا أكفيكم علي بن أبي طالب ، وكان من أهل مصر وقال البرك بن عبد الله : أنا أكفيكم معاوية بن أبي سفيان ، وقال عمرو بن بكر أنا أكفيكم عمرو بن العاص . فتعاهدوا وتواثقوا بالله لا ينكص رجل منا عن صاحبه الذي توجه اليه حتى يقتله أو يموت دونه فأخذوا أسيافهم فسموها واتعدو لسبع عشرة تخلو من رمضان ان يثب كل واحد منهم على صاحبه الذي توجه إليه وأقبل كل رجل منهم إلى المصر الذي فيه صاحبه الذي يطلب .

وذكر أن محمد بن الحنفية قال : كنت والله لأصلي تلك الليلة التي ضرب فيها علي في المسجدالأعظم رجال كثيرمن أهل المصر يصلون قريبا من السدة ... إذ خرج علي لصلاة الغداة فجعل ينادي أيها الناس الصلاة الصلاة ! فما أدري أخرج من السدة فتكلم بهذه الكلمات أم لا ! فنظرت إلى بريق وسمعت الحكم لله يا علي لا لك ولا لأصحابك فرأيت سيفا ، ثم رأيت ثانيًا ثم سمعت عليا يقول : لا يفوتنكم الرجل وشد الناس عليه من كل جانب فدخلت فيمن دخل من الناس فسمعت علياً يقول : النفس بالنفس إن أنا مت فاقتلوه كما قتلني وان بقيت رأيت فيه رأيي . وأما البرك بن عبد الله فإنه في تلك الليلة التي ضرب فيها علي قعد لمعاوية فلما خرج ليصلي الغداة شد عليه سيفه فوقع السيف في إليته فأخذ فقال : إن عندي خبرا أبشرك به فان أخبرتك فنافعي ذلك عندك ؟ قال: نعم قال : إن أخاً

لي قتل عليا في مثل هذه الليلة قال : فلعله لم يقدر علي ذلك ! قال : بلى ، إن عليا يخرج ليس معه من يحرسه فأمر به معاوية فقتل وبعث معاوية إلى الساعدي وكان طبيبا فلما نظر إليه قال : اختر إحدى خصلتين اما أن أحمي حديدة فأضعها موضع السيف وإما أن أسقيك شربة تقطع منك الولد وتبرأ منها فان ضربتك مسمومة فقال معاوية فأما النار فلا صبر لي عليها وأما انقطاع الولد فان في يزيد وعبد الله ما تقر به عيني فسقاه تلك الشربة فبرأ .

وأما عمرو بن بكر فجلس لعمرو بن العاص تلك الليلة فلم يخرج وكان اشتكى بطنه فأمر خارجة بن حذافة وكان صاحب شرطته وكان من بني عامر بن لؤي فخرج ليصلي فشد عليه وهو يرى أنه عمرو فضربه فقتله ، فأخذه الناس فانطلقوا به الى عمرو يسلمون عليه بالإمرة فقال من هذا ؟ قالوا : عمرو قال : فمن قتلت ؟ قالوا : خارجة بن حذافة قال :

أما والله يا فاسق ، ما ظننته غيرك . فقال عمرو :

أردتني وأراد الله خارجة ، فقدمه عمرو فقتله) [1] .

ليس بين يدينا أي خبر عن الولاية الثالثة لعمرو لمصر لكن الروايات تذكر أنه حكمها أربع سنين ونيف حيث كانت وفاة محمد بن أبي بكر رحمه الله عام ثمانية وثلاثين وكانت وفاة عمرو بن العاص عام ثلاثة وأربعين وكل ما يستنتج خلال هذه الفترة أن الأمور كانت منضبطة غاية الانضباط ، ولم يعد في مصر مرتع للفتنة أو الخلاف بعد توليه لها رضي الله عنه . فقد كان بحكمته وعبقريته يديرها ويتعامل مع الناس بالرفق وحسن الخلق بعد أن كانت مصر هي مرتعاً وخيما للفتنة ومنها انطلقت أول كتائبها الى المدينة ولم تنته الا بقتل الخليفة الراشد

(١) تاريخ الرسل والملوك لابن جرير الطبري ٥/ ١٤٣ - ١٤٩ مقتطفات .

وقد عـرفت مصـر الاستـقرار أيام قـيس بن سـعد رضي الله عـنه في حسن تعـامله ودهائه مع العثـمانيين عنده وعادت فاضطـربت أيام محمد بن أبي بكر واشـتعلت بهـا الحـروب والفتن إلى أن عـاد اليـها راعـيـهـا الأول ، وفاتحـهـا ، ومـؤسس دولة الإسلام فيها عمـرو بن العاص فأسلمت له القياده وغدت في نعيمهـا وعيشها أربع سنين ونيف إلى أن كانت خاتمة البطل العظيم ووفاته عام ثلاثة وأربعين .

بعد أن استعرضنا في هذا الفصل أوثق الروايات عن انضمام عمرو لمعاوية في المطالبة بدم عـثمان وأوثقـها في رفع المصـاحف وأوثقها في التـحكيم بقي علينا أن نذكر أن هذه الروايات هي المتسقة والمنسجـمة مع شخص عمرو بن العاص رضي الله عنه الذي أحب أن يختم حياته بالجهاد للثأر للخليفة القتيل .

فـالروايات الساقطة التي تجـعله عـبداً للدنيـا والجاه يكذب ويخـدع من أجل السلطة ومـن أجل الوصـول الى ولاية مـصـر نقـول أن هذه الروايات تـتناسب مع شاب مغامر في مقتبل العمر لم يذق لذة الدنيا ولم ينل شيئا من جاهها ونعميها في العشرين أو الثـلاثين من عمره فهل غـاب عن أذهان هؤلاء الكذابين الساقطين من الرواة أن عمـراً رضي الله عنه قد ناهز الثـمانين يوم أن انضم الى معـاوية وأنه تجاوز الخامسة والثـمانين من عمره يوم حكم في مصير أمـة محمد ﷺ وقد نال مـن جاه الدنيا وأمجادها مالم ينله أحد بطولة وافتخار وادارة وسلطانا أما المال فقد كان ماله في الوهط يحلم به الملوك والحكام فـماله وللدنيـا ؟ قال ابن الأعرابـي الوهط : قرية بالطائف على ثلاثة أمـيال من وج كانت لعـمرو بن العـاص وقد غرس عـمرو فيـها ألف ألف عود كرم على ألف ألف خشبة ابتاع كل خشبة بدرهم فحج سليمان بن عـبد الملك فـمر بالـوهط فقـال : أحب أن أنظر إليـه فلما رآه قـال : هذا أكرم مـال وأحسنه ما رأيت لأحد مثله)[1] فأي دنيا يريدها عمرو وقد دانت الدنيا له ؟؟ .

---

(١) سير أعلام النبلاء هامش ٣/ ٦٤ .

عمرو بن العاص إلى جوار ربه

ها هو عمرو رضي الله عنه يشرف على التسعين من عمره ، فيحس أن أجله قد اقترب وأن نهاية المطاف له مع هذه الحياة قد دنت فنُقِل لنا فيض من أحاسيسه ومشاعره في هذه المرحلة وفي اللحظات الأخيرة من حياته رضي الله عنه (فقد مرض مرض موته سنة ثلاث وأربعين الهجرية فاشتد عليه المرض)[1] .

(قال معاوية بن خديج : أتيت عمرو بن العاص وقد ثقل . فقلت : كيف تجدك ؟ فقال :

أذوب ولا أتوب وأجد نجوي[2] أكثر من رُزئي [3] فما بقاء الكبير على هذا ؟)[4].

يربي وهو على فراش الموت :

فهو يريد رضي الله عنه أن يربي أهله والزمة حوله ليعتبروا من هذا الوافد الذي لا يفلت منه أحد ويقوم بعدد من التصرفات يعظ مبها من حوله .

أ ـ يقسم ماله :

أورد الحافظ ابن عساكر بسنده عن الأوزاعي قال : حدثني رجل من قريش قال :

لما حضرت عمرو بن العاص الوفاة قال عبد الله له : يا أبه أوص في مالي ومالك ما بدا لك قال : فدعا الكاتب فقال : أكتب ، فجعل يكتب . قال : فلما

---

(١) الولاة والقضاة /٢٢ .

(٢) النجو : ما يخرج من البطن من بول أو غائط .

(٣) الرُزء :الطعام الذي يؤكل .

(٤) تاريخ دمشق لابن عساكر ١٣ / ٥٢٩ .

أسرع في المال . قال : يا أبه لا أحسبك إلا قد أتيت على مالي ومال إخوتي ، فلو بعثت إلى إخوتي فتحلل ذلك منهم . قال عمرو للكاتب : اقرأه ، اقرأه . فقال عبد الله بن عمرو : بخ بخ . فقال له عمرو :

يا عبد الله ! أشكر هذا فوالله لامرأة من المهاجرات أقبلت ببعير تقوده إلى رسول الله ﷺ يحمله عليه في سبيل الله خير من هذا كله ...)[1] .

ليته كان بعراً :

عن الأشعث عن الحسن قال : لما حتضر عمر بن العاص نظر إلى صناديق . فقال : من يأخذها بما فيها ، ليته كان بعراً) [2] .

مع حرسه :

فهو يود أن يريهم الموت عيانا لو استطاع

فعن ثابت البناني قال : كان عمرو على مصر ، فثقل فقال لصاحب شرطته: ادخل علي وجوه أصحابك . فلما دخلوا نظر إليهم ، وقال : ها قد بلغت هذا الحال ردوها عني . فقالوا : مثلك أيها الأمير يقول هذا ؟ هذا أمر الله الذي لا مرد له وقال :

قد عرفت ولكن أحببت أن تتعظوا .

لا إله إلا الله فلم يزل يقولها حتى مات)[3] .

روح ، حدثنا عوف عن الحسن قال بلغني أن عمرو بن العاص دعا حرسه عند الموت . فقال : امنعوني من الموت . قالوا : ما كنا نحسبك تكلم بهذا (وفي

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ١٣ / ٥٢٩ .

(٢) المصدر نفسه ١٣ / ٥٢٩ .

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي ٣ / ٧٦ وهي عند ابن عساكر ١٣ / ٥٢٩ .

رواية ابن عساكر بسنده عن الحسن قال : بلغني أن عمرو بن العاص لما كان عند الموت دعا حرسه فقال : أي صاحب كنت لكم . قالوا : كنت لنا صاحب صدق تكرمنا وتعطينا ونفعل وتفعل قال :

فإني إنما كنت أفعل ذلك لتمنعوني من الموت ، وها هو ذا قد نزل بي فاغنوه عني .

فنظر بعضهم الى بعض فقالوا : والله ما كنا نحسبك تكلم بالعوراء يا أبا عبد الله قد علمت أنا لا نغني عنك من الموت شيئا قال :

أما والله قد قلتها وإني لأعلم أنكم لا تغنون عني من الموت شيئا والله لأن أكون لم أتخذ منكم رجلا قط يمنعني من الموت أحب إلى من كذا وكذا فيا ويح ابن أبي طالب إذ يقول : حرس امرءًا أجله ثم قال :

اللهم لا بريئ فأعتذر ، ولا عزيز فانتصر وإلا تدركني منك رحمة أكن من الهالكين)[1].

وهي رسالة لكل سلطان في هذا الوجود ورسالة تاريخية لكل حاكم في الأرض بحسب فيها حساب آخرته ولم يجد وهو في لحظاته الأخيرة أروع من كلمة علي بن أبي طالب في حساب الأجل حرس امرءا أجله ولم يجد غير رحمة ربه تغني عنه في هذا الوجود وإلا كان من الهالكين .

---

(١) تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر ١٣ / ٥٣٣ - ٥٣٤ وعند الحافظ الذهبي في السير ٣ / ٧٦ وفي الطبقات الكبرى لابن سعد ٤ / ٢٥٩ - ٢٦٠ .

وصف الموت :

لم يكن رضي الله عنه قد ذاق الموت وغصصه وسكراته وكان يعجب من البلغاء والحكماء كيف لا يصفونه ليتعظ به المؤمنون والعاصون وكانت فرصة معاناته هذه لم يدعها ولده تمر .

فقد روى ابن سعد عن هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن عوانة بن الحكم قال :

كان عمرو بن العاص يقول : عجبا لمن نزل به الموت ، وعقله معه كيف لا يصفه.

فلما نزل به قال له ابنه عبد الله بن عمرو : يا أبت إنك كنت تقول عجبا لمن نزل به الموت . وعقله معه كيف لا يصفه فصف لنا الموت وعقلك معك قال :

يا بني الموت أجل من أن يوصف ولكني سأصف لك منه شيئا .

أجدني كأني على عنقي جبال رضوى

وأجدني كأن في جوفي شوك السلاء

وأجدني كأن نفسي يخرج من ثقب إبره)(1) .

وهي رسالة من قادم إلى الله تعالى يعاني سكرات الموت ولم يدخل بعد في غصصه الشديدة ، إنما هو في مقدماته .

علام يبكي من الدنيا :

عن يعقوب بن عبد الرحمن عن أبيه أن عمرو بن العاص حين حضرته الوفاة ذرفت عيناه . فبكى فقال له ابنه عبد الله والله يا أبه ما كنت أخشى أن ينزل بك

---

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤/٢٦٠ وابن عساكر ١٣ / ٥٣٠ .

أمـر من أمر الله عـز وجل إلا صبـرت عليه . فـقـال : يا بني إنه نزل بأبيك خصـال ثلاث .

أما أولهن فانقطاع عمله وأمـا الثانية فهول المطلع ، وأما الثالثـة ففراق الأحبة وزاد ابن زيد : وهي أيسرهن ثم قال :

اللهم إنـك أمـرت فـتـوانـيت ونـهـيت فـعـصـيت ، ومن شـيـمك العـفـو والتجاوز)[1].

وما أعظمـها من حكمة فقـد انقطع عمله الصالح أفـلا يذرف الدمع عليه ؟ وهول المطلع من الحساب والصراط والميزان ، ويوم المحشر أمثل هذا لا يبكي منه ؟! أهون الثلاثة فراق الأحبة .

وفي رواية أخرى عن يزيد بن أبي حبـيب أن ابن شماسة أخبـره أن عمرو بن العاص لما حضـرته الوفاة دمعت عيناه فقال له ابنه عـبد الله : لم تبكي ؟ أجزع من الموت ؟

قال : لا والله ولكن لما بعد الموت) [2] .

فهو يقبل على ربه بأخطائه وذنوبه لم يعد يملك لنفسه حولا ولا قوة وإن لم يقبل الله توبته فهو من الهالكين وهو يحـمل تلك الأمجاد العظيمة كلها من الفتح والدعوة وسياسة المسلمين ويخاف ذنبه .

جزع عند الموت :

ومن ذرف الدموع إلى الجزع الأشد فراح عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما يذكره بحسـناته التي تعدل الجبال وأهمـها أن رسول الله ﷺ قد استـعمله ورضي

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ١٣ / ٥٣٢ وفتوح مصر والمغرب / ١٨٢ .

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ١٣ / ٥٣٠ .

عنه في كل شيء كلفه به وهذا دليل رضا رسول الله ﷺ منه وتكفي هذه الميزة لتغلب كل أخطائه وذنوبه فماذا كان جوابه على ذلك .

(أحمد ، حدثنا عفان ، حدثنا الأسود بن شيبان ، حدثنا أبو نوفل بن أبي عقرب قال : جزع عمرو بن العاص عند الموت جزعا شديدا فقال ابنه عبد الله :

ما هذا الجزع ، وقد كان رسول الله ﷺ يدينك ويستعملك .

قال : أي بني قد كان ذلك وسأخبرك أي والله ما أدري أحبا كان أم تألفا ولكني أشهد على رجلين أنه فارق الدنيا وهو يحبهما ابن سمية وابن أم عبد)[1] .

فالغرور لا يعرف الى نفسه سبيلا والتذلل لله والعبودية له هي التي تملك عليه قلبه ومشاعره ولم يتأل على الله تعالى بشيء وعنده من الرصيد ما يقارع به أعظم الصالحين وأعظم هذا الرصيد ثقة رسول الله ﷺ وحبه له ورضاه عنه ومع ذلك فهو لا ينكر هذه الثقة لكنه لا يدري أن ذلك حبا له أو تألفا أنما يشهد لخصمه الذي حاربه في صفين ، لعمار بن ياسر انه كان يحبه ، ومن الذي يدعوه الى ذلك ليسجل على نفسه ثناء على خصومه الذين قاتلهم ولولا خلوصه من خط نفسه ، وخلوصه من ذاته ما قال كلمة الحق وفيها شهادة لخصمه فهو لا يدري تكليفه بالمسؤولية من رسول الله ﷺ حبا له أو تألفا وتقريبا لقلبه بينما يشهد لعمار وعبد الله بن مسعود بحب رسول الله ﷺ ورضاه عنهما ، انها قمة التجرد والخلوص لله من حظوظ نفسه وحظوظ دنياه ولو نال الناس ما نالوا وطعنوا فيه ما طعنوا .

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي قال المحقق فيه : إسناده صحيح وهو في المسند ٤ / ١٩٩ وفي ابن عساكر ١٣/ ٥٣٣ .

الأطباق الثلاثة :

ونأخذها من صحيح مسلم :

أخرج مسلم عن ابن شماسة المهري قال :

حضرنا عمرو بن العاص وهو في سياقة الموت فبكى طويلا وحوّل وجهه الى الجدار فجعل ابنه يقول : يا أبتاه ! أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا ، أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا ، قال ، فأقبل بوجهه فقال :

إن أفضل ما نعد شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله .

إني كنت على أطباق ثلاث :

لقد رأيتني وما أحد أشد بغضا لرسول الله ﷺ مني ، ولا أحب أن أكون استمكنت منه فقتلته فلو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار .

فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت : أبسط يمينك فلأبايعك فبسط يمينه ، فقبضت يدي قال : « مالك يا عمرو ؟ » قال ، قلت : أريد أن أشترط ، قال : « تشترط بماذا ؟ » قلت : أن يُغفر لي ؟ قال :

« أما علمت يا عمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها وأن الحج يهدم ما كان قبله ؟ » وما كان أحد أحب إلي من رسول الله ﷺ ولا أجلّ في عيني منه وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالا له ، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت لأني لم أكن أملأ عيني منه . ولو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة .

ثم ولينا أشياء ، ما أدري ما حالي فيها .

فإذا أنامت فلا تصحبني نائحة ولا نار ، فإذا دفنتموني فشنوا علي التراب شنا . ثم اقيموا حول قبري قدر ما تنحر جزر ويقسم لحمها ، حتى استأنس وانظر

ماذا أراجع رسل ربي) [1] .

إنه أستاذ من أساتذة اللتربية الإيمانية في الوجود فهو لا يثق إلا بما كان بين يدي رسول الله ﷺ وجهاد ثلاثين عاما بعده لا ترتفع إلى أن تدخله الجنة وهو في هذا الخوف من مدرسة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ذلك فهما تلميذا مدرسة النبوة وها هو عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما يحدثنا عن هذا اللقاء العفوي بين العظيمين .

وأخرج البخاري عن أبي بردة بن موسى الأشعري قال ، قال لي عبد الله بن عمر : هل تدري ما قال أبي لأبيك ؟ قال قلت : لا . قال : فإن أبي (أي عمر) قال لأبيك (أي أبي موسى) ، يا أبا موسى هل يسرك إسلامنا مع رسول الله ﷺ ، وهجرتنا معه ، وجهادنا معه وعملنا كله معه برد لنا [2] وأن كل عمل عملنا بعده نجونا منه كفافا[3] رأسا برأس ؟؟

فقال أبي :

لا والله لقد جاهدنا بعد رسول الله ﷺ وصلينا وصمنا وعملنا خيرا كثيرا وأسلم على أيدينا بشر كثير وإنا لنرجو ذلك فقال أبي :

لكني أنا والذي نفس عمر بيده لو ددت أن ذلك برد لنا وأن كل شيء عملناه بعد نجونا منه كفافا[3] رأسا برأس فقلت : إن أباك والله خير من أبي)[4] .

وقد قال الحافظ بن حجر رحمه الله تعليقا على الحديث .

---

(١) صحيح مسلم ١ / ١١٢ ك الايمان ح ١٩٢ - ١٢١ .

(٢) برد : ثبت لنا ودام .

(٣) كفافا : سواد بسواد والمراد لا موجبا ثوابا ولا عقابا .

(٤) البخاري ٢/٥/٨١ باب الهجرة .

ومع هذا فعمر في هذه الخصلة المذكورة أيضا أفضل من أبي موسى لأن مقام الخوف أفضل من مقام الرجاء فالعلم محيط بأن عمل الآدمي لا يخلو عن تقصير ما في كل ما يريد من الخير وانما قال عمر ذلك هضما لنفسه وإلا فمقامه في الفضائل والكمالات أشهر من أن يذكر)[1] .

فخوف عمرو رضي الله عنه وخوف عمر من نبعٍ واحد هو أن جهاد العمر هذا بعد رسول الله ﷺ قد يدخله شيء من حظ النفس ولا يدري المرء ما الحكم فيه أما أيام الرسول ﷺ فقد أثنى عليه رسول الله ﷺ وزكاه وزكى أصحابه .

ومع هذا تبقى عبودية عمرو رضي الله عنه في أعلى المقامات فهو وإن كان يرجو الجنة لو مات في ذلك الطبق وهو لا يعرف مآله في طبقه الثالث (ثم ولينا أشياء ما أدري ما حالي فيها) .

لكن أرجى عمله عنده ، وأعظمه عنده ليس جهادأربعين عاما في عهد النبوة وبعدها ، وليس نشر الإسلام في أصقاع الأرض في عهد النبوة وبعدها ، وليس تطبيق شريعة الله ف الحكم في عهد النبوة وبعدها إن أرجى وأعظم من هذا كله شهادة أن لا إله إلا الله فهي أعظم ما يحمله إلى لقاء ربه .

(إن أفضل ما نعد شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله) فهي أعظم كنز في وجوده .

وها هو يموت على لا إله إلا الله :

فعن أبي حرب بن أبي الأسود : عن عبد الله بن عمرو أنه حدثه أن أباه أوصاه قال : يا بني إذا امت فاغسلني غسلة بالماء ، ثم جففني بثوب ، ثم غسلني

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٧ / ٢٥٥ .

الثانية بماء قراح ثم جففني في ثوب ثم اغسلني الثالثة بماء فيه شيء من كافور ، ثم جففني في ثوب ، ثم إذا أنت البتسني الثياب فأزِرّ عليّ فإني مخاصم ثم إذا أنت حملتني على السرير ، فامش بي مشياً بين المشيتين وكن خلف الجنازة فإن مقدمها الملائكة وخلفها لبني آدم فاذا أنت وضعتني في القبر فشن علي التراب شنا ثم قال: اللهم إنك أمرتنا فركبنا ، ونهيتنا فأضعنا فلا برىء فأعتذر ، ولا عزيز فانتصر ولكن لا إله إلا الله .

مازال يقولها حتى مات)[1] .

وفي رواية عند الحافظ ابن عساكر عن أبي فراس مولى عمرو بن العاص : أن عمرو بن العاص لما حضرته الوفاة قال لابنه عبد الله بن عمرو إذا أنا مت فاغسلني ثم لفني وردّ علي ازاري فإني مخاصم ، فإذا أنت حملتني فأسرع في المشي فإذا وضعتني في لحدي فأهيلوا علي التراب فإن شقي الأيمن ليس بأحق بالتراب من شقي الأيسر فإذا سويته علي فاجسلوا عند قبري قدر نحر جزور وتقطيعها أستأنس بكم .

فهو يأمل من وجودهم ودعائهم له حين يراجع رسل ربه ، ويأمل شفاعتهم له وفي رصيده أعظم الجهاد والدعوة .

وفي الحديث الصحيح في مسند أحمد بعد أن زكىّ عمارا وابن مسعود .

(فلما جد به وضع يده موضع الأغلال من ذقنه قال : اللهم أمرتنا فتركنا ونهيتنا فركبنا ولا يسعنا الا مغفرتك فكانت تلك هجيراه حتى مات .

وعند الحافظ ابن عساكر :

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤ / ٢٦٠ .

(اللهم امرت بأمور ونهيت عن أمور وتركنا كثيرا مما أمرت ووقعنا في كثير مما نهيت اللهم لا إله إلا أنت ثم أخذ بابهامه فلم يزل يهلل حتى مات)[1] .

« في رواية أخرى ثم قال : أشهد أن لا إله إلا الله ثم قبض عليها بيده اليمنى وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ثم قبض عليها بيده اليسرى ، قال : فقبض وإن يداه مقبوضتان)[2] .

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ١٣/ ٥٣٢ .

(٢) المصدر نفسه / ٥٣٢ .

داهيــة قريش ورَجُــلُ العالــم

استعرنا هذا العنوان من الحافظ الذهبي وهو يعرف بعمرو بن العاص فقال :

(عمرو بن العاص بن وائل الإمام أبوعبد الله، ويقال : أبو محمد السهمي ، داهية قريش ورجل العالم ومن يُضرب به المثل في الفطنة والدهاء والحزم)[1] .

وأما أنه داهيـة قريش فهذه لا ينازع فـيها أحد وكـذلك لا ينازع أحد في أنه أحد دهاة العرب المعدودين .

روى مجالد عن الشعبي قال : دهاة العرب أربعـة معاوية ، وعمرو والمغيرة ، وزياد ، فأما معاوية فللأناة والحلم وأما عمرو فللمعضلات ، والمغيرة للمبادهة وأما زياد فللصغير والكبير)[2] .

وإن اختلف على غيره من بين دهاة العرب ، فلم يختلف عليه أحد .

يقول الزهري : وكان يُعـد في العرب حين ثارت الفتنة الأولى خمـسة يقال لهم ذوو رأي العرب ومكيدتهم : يعد من قريش معاوية وعمرو ، ويعد من الأنصار قيس بن سعـد ويعد من المهاجرين عبد الله ابن بديل بن ورقـاء الخزاعي ، ويعد من ثقيـف المغيرة بن شعبـة فكان مع علي منهم رجـلان قيس ابن سـعد وعبـد الله بن بديل ، وكان المغيرة معتزلا بالطائف وأرضها [3] .

وينسب إلى عمرو بن العـاص تقويم قريب من هذا (فعن شعـيب بن يعقوب قال : اجـتمع معـاوية وعمرو بن العـاص فقال مـعاوية لعمـرو من الناس ؟ قال : أنا

---

(١) سير أعلام النبلاد للحافظ الذهبي ٣ / ٥٤ ـ ٥٥ .

(٢) المصدر نفسه / ٥٨ .

(٣) المغازي للزهري / ١٥٨ .

وأنت ومغيرة وزياد قال : وكيف ذاك ؟ قال : أنت فللتأني وأما أنا فللبديهة ، وأما مغيرة فللمعضلات ، وأما زياد فللصغيرة والكبيرة . فقال له معاوية : هات من بديهتك ؟ قال : وتريد ذاك ؟ قال : نعم . قال : فأخرج من عندك فأمرهم فخرجوا حتى لم يبق في البيت غيرهما . قال ، فقال عمرو بن العاص : أسارك قال : فأدنى رأسه منه قال : هذا من ذاك ومن معنا في البيت حتى أسارك ؟؟) [1] .

ويتجازو عمرو ببيئته وقومه العرب لينازل دهاة العالم كما قال عمر بن الخطاب يوم وجهه لفتح فلسطين وكان فيها داهيتها الرهيب الأرطبون (وكان الأرطبون أدهى الروم وأبعدها غورا وأنكاها فعلا ، وقد كان وضع في الرملة جندا عظيما وبإيلياء جنداً عظيما وكتب عمرو إلى عمر بالخبر فلما جاءه كتاب عمرو قال : « قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب ، فانظروا عم تنفرج ») [2] .

وحين نفذ عمرو بن العاص خدعته بالأرطبون حيث تنكر باسم أحد جنوده رسولا إليه وأدرك الأرطبون بدهائه أن الذي بين يديه عمرو أو من يثق به عمرو بيَّت قتله تمكن عمرو من النجاة من الأرطبون بحيلته العجيبة حين أوهمه أنه سيأتي بعشررجال مثله وعندما بلغت الحيلة الأرطبون قال :

خدعني الرجل ، هذا أدهى الخلق

فبلغت عمر فقال : غلبه عمرو لله در عمرو) [3] .

ومع ذلك فلم يكن مفتاح شخصية عمرو دهاءه ولو كان أدهى الخلق .

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ١٣/ ٥٢١.

(٢) تاريخ الأمم والملوك للطبري / ٣ / ٦٠٥ .

(٣) تاريخ الرسل والملوك للطبري ٣ / ٦٠٦ .

ونعرض لعالمية عمرو بن العاص بعد دهائه إلى خبرته وتجاربه في الحياة أو ما نطلق عليه .

عمرو الحكيم :

لقد كان يطلق حِكَمَهُ وهو لا يزال حبيس بيئته الجاهلية وعلى مستوى الزعامة في قريش وذلك حين قال عقب انتصاره على عمارة بن الوليد المتهتك .

إذا المرء لم يترك طعاما يحبه ولم ينه قلبا غاويا حيث يمما

قضى وطرا منها وغادر رسبة إذا ذكرت أمثالها تملأ الفما

وليس الفتى إما أنمت عروقه بذي كرم إلا إذا ما تكرما

وعندما أشرق بقلبه نور الإسلام ، وتوسعت تجربته مع الأمم والشعوب في القيادة والإدارة والحكم ، وأصبح يشرف على العالم كله بنور العقيدة قدم لنا خلاصة تجربته وعصارة خبرته في العديد من الحكم والأمثال والآراء التي تضعه في مصاف حكماء العلماء الكبار وعلى رأسهم ولا شك أن القليل القليل هو الذي وصل إلينا من آرائه وحكمه .

أ ـ في تقويم الأمم والشعوب .

مصر : حيث ذكر عنها عند ذكرها لدى عمر أمير المؤمنين .

(إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم ، وهي أكثر الأرض أموالا وأعجزها عن القتال والحرب)[١] .

أما وصفها الدقيق شعبا وأرضا فكان :

---

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم / ٥٦ .

مصر تربة غبراء ، وشجرة خضراء طولها شهر ، وعرضها عشر يكتنفها جبل أغبر ، ورمل أعفر ، يخط وسطها نهر ميمون الغدوات ، مبارك الروحات ، يجري بالزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر له أوان تظهر به عيون الأرض وينابيعها ، حتى إذا عج عجاجه وتعظمت أمواجه ، لم يكن وصول بعض أهل القرى إلى بعض إلا في خفاف القوارب وصغار المراكب ، فإذا تكامل في زيادة نكص على عقبه كأول ما بدأ في شدته ، وطما في حدته فعندئذ يخرج القوم ليحرثوا بطون أوديته وروابيه ، يبذرون الحب ، ويرجون الثمار من الرب حتى إذا أشرق وأشرف سقاه من فوقه الندى وغذاه من تحته الثرى فعند ذلك يدرُّ حِلابه ويغني ذبابه فبينما هي يا أمير المؤمنين درة بيضاء إذا هي غبرة سوداء إذا هي زبرجرة خضراء فتعالى الله لما يشاء الذي يصلح هذه البلاد وينميها ويقر قول قاطنها فيها ، ألا يقبل قول خسيسها في رئيسها وألا يستأدي خراج ثمرة إلا في أوانها وأن يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وترعها فإذا تقررّ الحال مع العمال في هذه الأحوال تضاعف ارتفاع المال والله تعالى يوفق في المبدأ والمال يقول أبو المحاسن : فلما ورد هذا الكتاب على عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال :

لله درك يا ابن العاص وصفت لي خبرا كأني أشاهده)[1] .

وخلاصة هذا الشعب أنه شعب مومن (يبذرون الحب ويرجون الثمار من الرب وشعب عامل (يخرج القوم ليحرثوا بطون أوديته وروابيه .

وشعب مطواع لحكامه ومستقر نفسيا وسياسيا (يقر قول قاطنها فيها ألا يقبل قول خسيسها في رئيسيها وشعب مسالم خبير بزراعة أرضه وتنمية ثروة بلده (هي أكثر الأرض أموالا ، وأعجزها عن القتال والحرب) .

---

(١) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لأبي المحاسن / جـ ١ / ٣٣ .

ولا شك أن هذا العجز قد كان يوم بقيت مصر عمرا ودهرا تحكم من غير أهلها تستعيد من طغاتها لكن الإسلام أحيا نفوس أهلها فغدوا كما قال رسول الله ﷺ حيث أوصى بهم عند وفاته بقوله :

« الله الله في قبط مصر فإنكم ستظهرون عليهم ويكونون لكم عدة وأعوانا في سبيل الله » وأخرج ابن عبد الحكم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا فتح الله عليكم مصراً فاتخذوا فيها جندا كثيفا فذلك الجند خير أجناد الأرض فقال أبو بكر : ولم يا رسول الله ؟ قال : لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة) (٢) .

الروم :

وإذا كان عمرو رضي الله عنه قد أعطانا خبرته وانطباعه عن أهل مصر الذين أحبهم وأحبوه .ودخلوا في حظيرة الإسلام بفضل قيادته وصدق إرادته فماذا يقول عن خصومه الألداء الأشداء الذين حاربهم في فلسطين وحاربهم في الشام » وحاربهم في الأردن ، وحاربهم في مصر هل هو من الناس الذين يحرقون أعداءهم مهما كانوا؟! أبدا إنه أعظم الناس إنصافاً لعدوه .

فقد أخرج مسلم عن موسى بن علي عن أبيه قال ، قال المستورد القرشي عند عمرو بن العاص : سمعت رسول الله ﷺ يقول : تقوم الساعة والروم أكثر الناس» فقال له عمرو أبصر ما تقول . قال : أقول ما سمعت من رسول الله ﷺ قال :

---

(١) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ١/٥ وقال فيه أخرجه الطبراني في الكبير وأبو نعيم في دلائل النبوة بسند صحيح عن أم سلمة .

لئن قلت ذلك إن فيهم لخصالا أربعًا : إنهم لأحلم الناس عند فتنة ، وأسرعهم إفاقة عند مصيبة وأوشكهم كرة بعد فرة وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة وأمنعهم من ظلم الملوك)[1].

نعته الأمصار :

وينقل عنه رأي ضعيف قد لا يصح أورده الحافظ الذهبي في كتابه سير أعلام النبلاء فقال :

روي أبو أمية بن يعلي ، عن علي بن زيد بن جدعان قال رجل لعمرو بن العاص : صف لي الأمصار . فقال : أهل الشام أطوع الناس لمخلوق ، وأعصاه الخالق ، وأهل مصر أكيسهم صغارا وأحمقهم كبارا وأهل الحجاز أسرع الناس إلى الفتنة وأعجزه عنها وأهل العراق أطلب الناس للعلم وأبعدهم عنه[2] .

وبغض النظر عن السند فالمتن للحدث لا يتناسب مع واقع هذه الأمصار فلا يؤخذ منه حكم .

٢ ـ في الفقه السياسي :

أ ـ الإمام العادل هو الرحمة المهداة للأمة والأسد الفاتك خير للأمة من الإمام الظالم لكن الإمام الظالم الذي يقمع الفتنة ويوقف نزيف الدماء أقل شرا من الفتنة يعبر عن هذه المعاني بقوله رضي الله عنه .

(عن سعيد بن عثمان قال حدثني أبو بكر قال : قال عمرو لابنه :

يا بني إمام عادل خير من مطر وابل ، وأسد غشوم خير من إمام ظلوم ، وإمام ظلوم غشوم خير من فتنة لا تدوم)[3] .

---

(١) صحيح مسلم / ٤/ ٢٢٢ ح ٣٥ - ٨ ٢٨٩ .

(٢) سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي ٣ / ٥٧ وقال المحقق فيه أبو أمية بن يعلي ضعيف وكذا شيخه علي بن زيد فالخبر لا يصح .

(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر / ١٣ / ٥٢٥ .

ولقد حرص رضي الله عنه على أن يكون كالغيث للأمة فيطيبق العدل مهما كلفه من مشقة فهو صاحب الدين الذي يحمله للبشرية وإنما يعرف الناس هذا الدين بالعدل الدين ينشره في الوجود .

ب ـ تعهد الرعية :

والحاكم هو خادم للأمة ، ساهر على مصالحها كما علمّه عمر بن الخطاب حين قال الرسول عمرو : (لئن نمت النهار لأضيعن الرعية ولئن نمت الليل لأضيعن نفسي فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية)[1] .

وها هو عمرو رضي الله عنه يخاطب أمير المؤمنين معاوية الذي تقلد أمرا لأمة كلها ، ويعطيه عصارة تجربته وخلاصة خبرته في الناس والرعية مع أن معاوية أرسخ قدما منه في ذلك يقول عمرو فيما رواه الأصمعي .

قال عمرو بن العاص لمعاوية :

يا أمير المؤمنين لا تكونن لشيء من أرعيتك أشد تعهدا منك لخصاصة الكريم حتى تعمل في سدها ولطغيان اللئيم حتى تعمل في قمعه واستوحش من الكريم الجائع ومن اللئيم الشبعان فإن الكريم يصول إذا جاع واللئيم يصول إذا شبع) [2] .

فهو يقدم نظرته من خلال الغوص في أعماق الطبائع البشرية كريمها ولئيمها وأن الذي يجب أن تسد خصاصته وتُرعى حرمة جوعه وحاجته هو الكريم الذي لا يذل نفسه ، ويحسبه الجاهل غنيا من التعفف هذه الأنماط العالية هي التي يجب أن ترعى ويسهر على تلبية حاجتها وكما يقول المثل بأمثال هذه النماذج : تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها والحية اذا جاعت عضت بطنها .

---

(١) فتوح مصروأخبارها / ٨١ .

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ١٣ / ٥٢٦ .

أما الذي يخشى من جهة أخرى ويحذر كما يحذر السبع الضاري فهو شره الجشعين وشبع اللؤماء الذين لا يشبعون أصلا وهم على استعداد أن يستنزفوا كل ثروات الأمة لمصالحهم ومصالح بطونهم وشهواتهم فلا بد لأمثال هؤلاء من قمعهم وإرهابهم حتى لا يمضوا في استغلالهم وطغيانهم .

فإن الكريم يصول إذا جاع واللئيم يصول إذا شبع .

جـ ـ في خير الشرين :

ومن هو العاقل الحقيقي والأربب الداهية ؟ هل هو الذي يعرف الخير من الشر ؟ أبدا فهذا يعرفه المتوسط من الناس بله البسيط منهم أما الحكيم المجرب والقائد المحنك والإداري العبقري هو الذي تهجم عليه جموع الشر من كل جانب فيعرف أيها يستقبل ، وأيها يبعد يعرف الأولويات الحقيقية لوضع بلده وأمته وشعبه يعرف كيف ينقذ بلده ورعيته من الغوائل التي يمكن أن تفنيهم فيقدم الأهم على المهم ولخص هذه الحكم جميعا بقوله :

(ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر ولكنه الذي يعرف خير الشرين)(١).

فإذا زحف الشر عليه عرف أيه أقل خطرا فركبه ليدفع غوائل أدهى وأنكى وأمر .

د ـ العقل :

وإذا عرف لنا العاقل في حديثه السابق فها هو يعرفنا هنا بالعقل لنرى أبعاد فقهه العميق بالانسان الذي يقود الأمم .

(قيل لعمرو : ماالعقل ؟ فقال : الإصابة بالظن ومعرفة ما يكون بما قد كان)(١).

---

(١) المصدر نفسه / ٥٢٧ .

(٢) العقد الفريد ٢ / ٢٤١ .

فلا عقل لمن لا يعتبر بما مضى ويفقه التصرف المناسب الجديد على ما سبق ومن لم تسقه فراسته في الرجال والأشياء إلى أن تكون أقرب الى الحقيقة . فليس من العقلاء الكبار بين قومه .

هـ ـ العدل قوام السموات والأرض :

وليس السلطان والتجبر الذي يمثل المنهج الفرعوني : « ما علمت لكم من إله غيري » هو الذي يبني الأمم فالطاغية قد يحكم دهرا طويلا وتخضع له الرقاب ولكن القلوب مراجل تغلي من حقده وكرهه أما الإمام العادل الذي هو على رأس السبعة الذين يظلهم الله في ظله ، وهو الذي تقوم به الأمم وتحيا به الدول .

قد تكون الوسائل واحدة للسلطانين والحاكمين والإمامين إمام الجور وإمام العدل لكن هذه الوسائل تنتهي بعدها بطاغية أو إمام عادل فما هي هذه الوسائل؟ يحدثنا عنها عمرو فيقول رضي الله عنه :

« لا سلطان إلا بالرجال ولا رجال إلا بمال ولا مال إلا بعمارة ، ولا عمارة إلا بعدل)[٢] .

فقوام هذا كله هو العدل الذي هو سمة هذا الدين وبه يتقدم المؤمنون إلى البشرية في الأرض .

و ـ العلية والسفلة :

وفي نظرة عميقة إلى معادن الرجال في ارتفاعها وهبوطها ووصولها إلى السلطان والحكم يلقي كلمة خالدة في بنيان الأمم يقول فيها :

---

(١) المصدر نفسه / ١ / ٢٣ .

(موت ألف من العلية ، أقل ضررا من ارتفاع واحد من السفلة)[1] .

ولا شك أن جسامة الخسارة في موت العظماء والقادة لا يجادل فيها أحد لكن الخسارة العظمى للأمة كلها والبلية الكبرى هو أن يرتفع أحد السفلة اللؤماء ليكون قائدا للأمة فيمرغ كرامتها وشرفها بالوحل ويجرع كرامها غصص الإهانة، ويقودها إلى الهاوية والدمار فخسارة ألف من علية القوم عند عمرو أهون من ارتفاع واحد من السفلة الدين ذكرهم لله تعالى في كتابه ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد »[2] .

ز ـ الشورى :

« مع هذا فلا عاقل حقيقي عنده من لم يستتر بعقل غيره وتجربة غيره ، وفقه غيره ولو كان قمة في العقل والحكمة والحنكة والعبقرية ولهذا قسم الناس إلى ثلاث فصائل رجل ونصف رجل ، ولا شيء .

فأما الرجل التام فالذي يكمل الله دينه وعقله فإا أراد أمرا لم يمض حتى يستشير أهل الرأي والألباب فإذا وافقوه حمد الله وأمضى رأيه فلا يزال ذلك مصيبا موفقا .

والنصف رجل الذي يكمل الله له دينه وعقله فإذا أراد أمراً لم يستشر فيه أحدا ، وقال أي الناس كنت أطيعه وأترك رأيي لرأيه فيصيب ويخطىء .

---

(١) عمرو بن العاص لشيث خطاب .

(٢) سورة البقرة / ٢٠٤ - ٢٠٦ .

والذي لا شيء ، الذي لا دين ولا عقل ولا يستشير ولا يزال كذلك مخطئا مدبرا ، قال عمرو والله إني لا أستشير في الأمر الذي أردته حتى لأستشير خدمي وما علي بعرض عقولهم وأسمع لهم)[1] .

إنه مدرسة سياسية قائمة بذاتها تجعل أهم راياتها وشعاراتها الشورى في كل شيء والاستشارة لكل فرد مهما كان وزنه وحجمه وهو منهج الأمة المسلمة ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ .

ح - السرور :

والسرور عند أقزام الرجال وانصافهم وأشباههم شيء وعند عظماء الرجال وصانعي الأمم شيء آخر فصانعو الأمم هم الذين يخوضون الأهوال ويتحدون الصعاب ويتنقلون من معركة إلى معركة ومن هول الى هول حتى يثبتوا وجود أمتهم تحت الشمس وتكون لها دور الريادة في البشرية وقد لخص هذه المعاني بطرح مفهومه عن السرور لتلاميذ عبقريته .

(فعن علي بن عبد الله بن سفيان قال قال معاوية لعمرو بن العاص : ما السرور يا أبا عبد الله ؟ قال : الغمرات ثم تنجلي)[2] .

وفي رواية أخرى عن حنبل بن إسحاق الحميدي حدثنا سفيان عن عمرو قا . قال عمرو بن العاص لجلسائه : وتذاكروا شيئا من أمور الدنيا : أي شيء رأيتم أحسن ؟ فذكروا المرأة الحسنة والدابة .

فقال عمرو : ما شيء أحسن من غمرات ثم تنجلي .

ذلك لأن سرور العظماء هو بتحقيق أمجادٍ لأمتهم لا بالتسكع على أبواب اللذات البهيمية .

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ١٣ / ٥٢٧ .

(٢) ، (٣) المصدر نفسه / ٥٢٧ .

٣ ـ في تقويم الرجال :

وذلك في حوار بين معاوية وعمرو رضي الله عنهما ينقله لنا أبو العباس ثعلب فيقول : قال معاوية لعمرو بن العاص .

(من أبلغ الناس ؟ قال : من اقتصر على الايجاز وسلب الفضول . قال فمن أصبر الناس : قال : أردُّهم لجهله بحلمه .

وفي رواية الأصمعي : من كان رأيه رادًا لهواه قال

فمن أسخى الناس : قال : من بذل دنياه في صلاح دينه قال)[١] .

فمن أشجع الناس : قال : من رد جهلة بحلمه .

ب ـ أما المستريح من الهموم فهو كما نقله لنا ابن الأعرابي :

(استراح من لا عقل له)[٢] .

جـ ـ وزلات الرجال والنساء كما يحدث بها ابنه عبد الله بن عمرو كما نقلها ابن الأعرابي كذلك يا بني : زلة الرجل عظم يجبر وزلة اللسان لا تبقي ولا تذر) .

وفي رواية سعيد بن عثمان عن أبي بكر : زلة الرجل عظم يجبر وزلة النساء لا تبقي ولا تذر) [٣] .

د ـ والأحمق : والتعالم معه : (يا بني مزاحمة الأحمق خير من مصافحته)[٤] .

---

(١) العقد الفريد ٦ / ٢٠٢ .

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ١٣ / ٥٢٦ .

(٣) المصدر نفسه / ٦٢٦ .

(٤) المصدر نفسه / ٥٢٥ .

هـ ـ والحليم : عن أبي السليل قال ، قال عمرو بن العاص :

ليس الحليم من يحلم عن من يـحلم عنه ويجاهل من جـاهله ، إنما الحليم من يحلم على من يجور عليه ومن يحلم عمن جاهله)[1] .

د ـ الواصل : عن هلال بن لاحق قال . قال عمرو بن العاص :

(ليس الواصل الذي يصل من وصله ، ولكن الذي يصل من قطعه) .

٤ ـ تعريفات في دورب الحياة :

أ ـ الملال تكذبه للمروءة ، والملال من سيء الأخلاق فالحيـاة لا يتعامل معها بالملل والمزاج الهوى كما يحدثنا المدايني عن عمرو قال :

ب ـ (أربعة لا أمـلهم : جليسي مـا فهم عني ، وثوبي مـا سترني ودابـتي ما حملتني وامرأتي ما أحسنت عشرتي)[2] .

وفي رواية موسى بن علي عن أبيه قال : سمعت عمرو بن العاص يقول :

لا أمل ثوبي ما وسعني ، ولا أمل زوجتي مـا أحسنت عشرتي ولا أمل دابتي ماحملت رحلي إن الملال من سيء الأخلاق)[3] .

جـ ـ الدنيا والآخرة : والتي كـانت شخصيته تمثلها أصـدق تمثيل فلا تكاد تجد من لخصَّها واقعاً عمليًا كـما لخصها فكراً نظرياً مثله وهي قوله : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا .

د ـ البطنة : عن محمد بن سلام الأصمعي قال :

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر .

(٢) المصدر نفسه / ٥٢٥ .

(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر / ٥٢٥/١٣ .

قال عمرو بن العاص لمعاوية : ما بطن قوم إلا فقدوا عقولهم ، ما قضيت عزيمة رجل مات بطينا)[1] .

هـ ـ اللذة : وعن المدايني قال قال معاوية لعمرو بن العاص : ما اللذة ؟ قال: يا أمير المؤمنين مر أحداث فقريش فليقوموا فلما قاموا قال : إسقاط المروءة)[2] .

يقول الحافظ ابن عساكر : يريد أن الرجل إذا لم يتعهد مروءته تلذذ وعمل ما يشتهي ولم يلتفت إلى لوم أحد .

ونجد له تعريفاً آخر للذات الحياة عنده . وذلك عندما سأله معاوية أمير المؤمنين : ما بقي من لدة الدنيا تلذه ؟ قال : محادثة أهل العلم ، وخبر صالح يأتيني من ضيعتي[3] .

و ـ الوجع والحزن : عن أبي قبيل عن عمرو بن العاص قال :

(لا وجع إلا العين ولا حزن الا الدين)[4] .

ز ـ السر : عن سفيان بن عيينة قال : قال عمرو بن العاص :

(ما وضعت عند أحد من الناس سرا فأخشاه فلمته عليه أنا كنت أضيق به حين استودعه إياه) وفي رواية (وكيف ألومه وقد ضقت به (بالسر))[5] .

ح ـ العجب من ثلاث :

عن موسى بن علي عن أبيه عن عمرو بن العاص قال :

انتهى عجبي إلى ثلاث :

المرء يفر من القدر وهو لاقيه .

ويبصر في عين أخيه القذى فيعيبه ، ويكون في عينه الجذع فلا يعيبه ويكون في دابته الصغر فيقومها بجهده ويكون فيه الصغر فلا يقوم نفسه)[6] .

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ١٣ / ٥٢٦ .

(٢) المصدر نفسه / ٥٢٧ .

(٣) عيون الأخبار ١ / ٣٠٩ .

(٤) تاريخ ابن عساكر / ٥٢٨ .

(٥) المصدر نفسه / ٥٢٨ .

(٦) المصدر نفسه ٣ / ٥٢٨ .

ط ـ العلم : عن موسى بن علي قال :

كنت مع عمرو بن العاص بالاسكندرية فاكف القمر فأصبحنا مع عمرو فقال رجل من القوم .

لقد حدثنا شيطان هذه المدينة أن القمر سيكف من الليلة فقام رجل ممن صحب النبي ﷺ كذب عدو الله هم علموا ما في الأرض فما علمهم بما في السماء . قال : فلم يرد عمرو عليه بذلك ثم قال عمرو: إنما الغيب خمسة فما سوى ذلك يعلمه قوم ويجهله آخرون ثم إنه قرأ الآيات : ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾ [١] ، [٢].

ك ـ المروءة : فعن حيان بن أبي حيلة قال : قيل لعمر بن العاص : ما المروءة فقال : يصلح الرجل ماله ، ويحسن إلى إخوانه[٣] .

ب ـ الأناة والعجلة : إذ يقول : ثلاثة لا أناة فيهم : المبادرة بالعمل الصالح ، ودفن الميت وتزويج الكفء .

ولا عجب أن يملك عمرو بن العاص هذه الكنوز من الحكمة وقد نهل من مدرسة النبوة العظيمة ، وحكمها ما يغنيه فهو الذي يقول رضي الله عنه « عقلت من رسول الله ﷺ ألف مثل »[٤] .

عمرو التقي :

وقد يستغرب الكثيرون هذا العنوان فعمرو بن العاص عندهم رجل منفعة يبيع دنياه بدينه ولا يبالي في سبيل مصلحته بأي قيمة وها نحن نعرض جانبا من هذا الخلق العظيم عنده .

كان خارجاً عن سلطان بطنه :

---

(١) سورة لقمان : الآية الأخيرة .

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ١٣ / ٥٢٩ .

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٢٦١ .

(٤) مسند أحمد ٤ / ٢٠٣ .

فالذي يعيش حياته لبطنه ولذته كان محتقراً عند عمرو وهو في الجاهلية قبل أن يسلم وشعره الذي عرضنا له أكثر من مرة يؤكد هذا المعنى

إذا المرء لم يترك طعاما يحبه ولم يعص قلبا غاديا حيث يمما

قضى وطراً منه يسيرا وأصبحت إذا ذكرت أمثاله تملأ الفما

فهو يرى الطعام وسيلة للعيش وليست لذة تقصد وعندما دخل في الإسلام تبلور هذا المفهوم عنده وتعامل مع الطعام بالفهم النبوي المعروف « ما ملا ابن آدم وعاء شرا من بطنه بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فان كان لا بد فاعلا فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه » [(١)] وإذا كان ابنه عبد الله رضي الله عنه في فتوة شبابه استأذن رسول الله ﷺ في أن يصوم الدهر فقال له رسول الله ﷺ لا تطيقه أما عمرو رضي الله عنه فقدكان يطيق ذلك وكان كما روي عنه .

عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص أن عمرو بن العاص كان يسرد الصوم وقلما كان يصيب من العشاء أول الليل أكثر ما كان يصيبه من السحر قال : سمعته يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن فصلا بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحر »[(٢)] .

فالذي يمضي عمره صائما ولا يعرف الطعام إلا من السحر كم هو مالك لسلطان بطنه وكم هو مسيطر على زمام شهوة الطعام عنده ؟!!

وكان خارجاً من سلطان شهوته :

وكان يرى كما سبق وذكر أن البطنة هي سبيل من لا عقل له بل كان يكرهها ويمقتها كما يقول : ما بطن قوم إلا فقدوا عقولهم . وما قضيت عزيمة رجلا مات بطيئاً .

﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ﴾[(٣)] .

---

(١) مسند أحمد والترمذي والحاكم .

(٢) مسند أحمد ٤ / ١٩٧ - ١٩٨ .

(٣) سورة آل عمران / ١٤ .

ولنستعرض هذه الشهوات جميعها ، وحالها مع عمرو بن العاص رضي الله عنه .

أما النساء فلم يعلم عنه أنه كان مكثرا من النساء بل كانت قولته الشهيرة :

(لا أمل زوجتي ما أحسنت عشرتي) .

وقد أثنى رسول الله ﷺ عليه وعلى زوجته وعلى ابنه فقال :

« نعم أهل البيت أبوعبد الله وأم عبد الله وعبد الله »[1] .

ولم تقرأ في الكتب التي تعرضت لترجمته أنه تزوج نساء كثيرين غير زوجته أم ولده عبد الله وهي ربطة بنت منبة بن الحجاج من بني سهم . أما أم ولده محمد فهي من بلي [2] ولا نعرف عنها شيئا وتزوج امرأتان من عقائل قريش إكراما لجهادهما وفضلهما .

الأولى : أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط المهاجرة في سبيل الله وبها نزلت سورة الممتحنة (وكانت من المهاجرات فتزوجها الزبير بن العوام فطلقها فتزوجها بعده عبد الرحمن بن عوف ، فلما مات عنها تزوجها عمرو بن العاص) [3] .

الثانية : عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل التي تزوجها عبيدة بن الحارث ، ثم عبد الله بن أبي بكر ثم عمر بن الخطاب ، ثم محمد بن أبي بكر فقتل عنها بمصر فتزوجها عمرو بن العاص [4] ، وأما البنون فليس بين أيدينا في كتب التراجم عنه كذلك أن عنده غير ولديه عبد الله ومحمد رغم زواجه مبكرا وقرب عمر ابنه عبد الله من عمره .

---

(١) سبق تخريجه وقال الهيثمي فيه : رجاله ثقات ٩ / ٣٥٤ وفيه انقطاع .

(٢) نسب قريش (٤١١) .

(٣) المحبر / ٤٠٧ - ٤٠٨ .

(٤) المصدر نفسه / ٤٢٧ .

أما القناطير المقنطرة من الذهب والفضة فقد كان يملكها ووظفها في طريقها الصحيح وقد شهد له رسول الله ﷺ بذلك بأنه أهل لهذا المال ما في رواية غزوة ذات السلاسل (وأرغب لك من المال رغبة صالحة قال : قلت يا رسول الله إني لم أسلم رغبة في المال ؛ إنما أسلمت رغبة في الجهاد والكينونة معك قال : « يا عمرو نعما بالمال الصالح للرجل الصالح »(١) .

أما الخيل المسوَّمة والأنعام فنستمع إلى الحديث عن رفيقة دربه وجهاده بغلته .

(فعن زكريا بن حصين عن جده حميد بن منهب قال رأى عمرو بن العاص بمصر وهو أمير على بغلة قد شاب وجهها من الهرم فقيل له : أيها الأمير تركب هذه البغلة ؟!

قال : إني لا أمل دابتي ما حملتني .. إن الملال من سيء الأخلاق)(٢) مع العلم بأنه قائد خياله المسلمين في الحروب وأما الحرث فقد كان في سعة منه كما كان في سعة من المال كما روي عن بستانه بالوهط (ابن عيينة حدثنا عمرو أخبرني مولى لعمرو بن العاص أن عَمْرًا أدخل في تعريش الوهط بستان بالطائف ألف ألف عود كل عود بدرهم) (٣) .

وقد شهد له رسول الله ﷺ بصفاء قلبه من حب المال وحب الدنيا فهو ينفق من مال الله الذي أعطاه ، ويعرف نفسه أنه وكيل هذا المال فالمال في يديه لا في قلبه كما في الحديث .

---

(١) رواه أحمد بإسناد صحيح .

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ١٣ / ٥٢٥ .

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي ٣/ ٧٤ .

رحم الله عَمْراً قلنا : يا رسول الله من عمرو هذا ؟ قال : عمرو بن العاص قلنا : وما شأنه ؟ قال : « كنت اذا ندبت الناس إلى الصدقة جاء فأجزل منها فأقول يا عمرو : أنى لك هذا ؟ فقال : من عند الله ، قال : وصدق عمرو ، إن له عند الله خيرا كثيرا) [١].

وكان خارجا من سلطان لسانه :

فمع أنه في قمة الأمة فصاحة وبلاغة ولم يكن عمر رضي الله عنه يجد مثلا يضربه للفصاحة غيره كما روى عنه .

(قال محمد بن سلام الجمحي كان عمر اذا رأى من يتلجلج في كلامه قال:

(هذا خالقه خالق عمرو بن العاص) وفي رواية (خالق هذا وخالق عمرو ابن العاص واحد)[٢] .

ومع هذا فكان عسير المحاسبة لنفسه على كل كلمة يقولها لأنه يعلم قول رسول الله ﷺ :

(وهل يكب الناس في النار على وجوهم قال أو قال متأخرهم إلا حصائد ألسنتهم) [٣] .

فقد كان يخطب ذات يوم في المسلمين وهو أميرهم فقام أحد الصحابة وقال له(كذبت والله لقد صحبت رسول الله ﷺ وأنت شر من حماري هذا)[٤] .

ومع أنه الأمير ولكن لفضل الصحبة اكتفى بالقول له : « والله ما أرد عليك ما تقول) [٥] .

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي وقال المحقق فيه رجاله ثقات خلال زهير بن قيس البلوي فلم يذكر فيه جرح ولا تعديل ٦٥/٣ .

(٢) المصدر نفسه /٧٣ ، ٥٧ .

(٣) احمد والترمذي وابن ماجة وهو صحيح .

(٤) ، (٥) البداية والنهاية لابن كثير ٨١/٧/٤ .

ولقد ندَّت منه مرة كلمة فخش في ساعة غضب بينه وبين المغيرة بن شعبة يحدثنا ابن عساكر عنها فيما رواه سفيان بن عيينة عن عمر قال :

كان بين عمرو بن العاص وبين المغيرة بن شعبة كلام في الوهط فسبه المغيرة ، فقال عمرو : يا لهصيص : أيسبني ابن شعبة قال ابنه عبد الله : إنا لله وإنا إليه راجعون . دعوت بدعوى القبائل ، وقد نهى رسول الله ﷺ عند دعوى القبائل .

قال : فأعتق ثلاثين رقبة)[1] .

وقد أخطأ ذات مرة في حق أخيه مسلمة بن مخلد عندما صرعه خصمه الرومي فقال لمسلمة : ما بال الرجل المسنه الذي يشبه النساء يتعرض مداخل الرجال) [2] .

ثم هدأ غضبه ورأى كيف انقذه مسلمة من الموت (فلما خرجوا استحيا عمرو مما كان قال حين غضب فقال عمرو عند ذلك استغفر لي ما كنت قلت لك فاستغفر له وقال عمرو : ما أفحشت قط إلا ثلاث مرار مرتين في الجاهلية وهذه الثالثة وما منهن مرة إلا ندمت واستحييت وما استحييت من واحدة منهم أشد مما اسحييت مما قلت لك . والله إني لأرجو ألا أعود إلى الرابعة ما بقيت)[3]

وكان خارجا من سلطان نومه :

فحق العبادة في الليل وحق التهجد لله لا يفتر عنه بينه وبين ربه نقل لنا مرة واحدة ماسمعه أحد أصحابه بقوله وهو يتهجد ويبكي :

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر / ١٣ / ٥٢٤ .

(٢) ، (٣) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم / ٦٨ - ٦٩ .

عن ربيعة بن لقيط قال : سمعت عمرو بن العاص وهو يصلي بالليل وهو يبكي ويقول : اللهم إنك أتيت عمرا مالا فإن كان أحب إليك أن تسلب عمرا ماله ولا تعذبه في النار فأسلبه ماله وإنك أتيت عمرا أولادا فإن كان أحب اليك أن تثكل عمرا ولده ولا تعذبه في النار فأثكله ولده ، وإنك أتيت عمرا سلطانا فإن كان أحب اليك أن تنتزع منه سلطانه ولا تعذبه في النار فانزع منه سلطانه)[1] .

وكان خارجا من سلطان نفسه :

فلا يعرف الكِبْر سبيلا إليه جمٌّ التواضع يظهر ذلك فيه من خلال هاتين الحادثتين التاليتين :

يذكر أحد المؤرخين أن حساده جعلو لرجل ألف درهم على أن يسأل عمرو بن العاص وهو علي دست الإمارة ومنبر الخطابة عن أمه فقال له : من أم الأمير ؟ فأمسك عمرو عن غضبه وقال : أمي سلمى بنت حرملة تلقب بالنابغة من بني عنزة أصابتها رماح العرب فبيعت بعكاظ ، فاشتراها الفاكه بن المغيرة ثم اشتراها منه عبد الله بن جدعان ، وهبها للعاص بن وائل فولدت له فأنجبت فإن كانوا جعلوا لك شيئا فخذه .

والحادثة الثانية يوم وفد على عمر أمير المؤمنين :

حدثنا الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب أن عمرو بن العاص دخل على عمر بن الخطاب وهو على مائدته جاثيا على ركبتيه وأصحابه كلهم على تلك الحال وليس في الجفنة فضل لأحد يجلس فسلم عمرو على عمر فرد عليه السلام قال : عمرو بن العاص . قال نعم فأدخل عمر يده في الثريد فملأها ثريدا ثم ناولها

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ١٣ / ٥١٤ - ٥١٥.

(٢) الكامل للمبرد / ٤٤٧ .

عـمرو بن العـاص فقـال : خـذ هذا فجلس عـمرو وجـعل الثـريد في يده اليسـرى ويأكل باليـمنى ووفد أهل مصـر ينظرون اليه فلمـا خرجوا قـال الوفد لعـمرو : أي شيء صنعت فقال عـمرو : إنه والله لقد علم أني بما قدمت به من مـصر لغمي عن الثريد الذي ناولني ولكنه أراد أن يختبرني فلو لم أقبلها للقيت منه شرا .

لقد كان الخوف من النار هو الهاجس الذي يـشغله في الليل والنهار ، وكما رأينا يدعـو ربه إن كان ينجيه من عـذاب النار خسـارة ماله فليكن ذلـك وإن كان ينجيه من النار ثكل ولده فليكن ذلك وان كان ينجـيه من النار فقد سلطانه فليكن ذلك . إنه يدعو ربه بالليل وهو ينتحب بهذا .

لقد كـان شديد الاحساس من هـذا الأمر عليه وعلى أهل بيـته ليكونوا على الجادة .

وهذه قصته مع امرأته .

(فعن أبي عمران الفلسطيني قال : بينا امـرأة عمرو ابن العاص تفلي رأسه إذ نادت جارية لها فأبطأت عنها فقالت : يا زانيـة فقال عمرو : رأيتها تزني ؟ قالت : لا قال .

والله لتضربن لهـا يوم القيامة ثمانين سوطا فـقالت لجاريتها وسألتـها أن تعفو عنها فعفت عـنها فقالت : هل تجزى عني قال : وما لهـا ألا تعفو وهي تحت يديك فأعتقيها فقالت : فهل تجزي عني ذلك ؟ قال : فلعل) [٢] .

لقد كـان خوف الله تعالى ملء قلبـه وملء عينيه انـعكس على كل تصرف من تصرفـاته وخلق من أخلاقه وكان يرى أن تعلق الـقلب بالدنيا هو الذي يطمس

---

(١) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم / ١٧٩ .

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ./ ٥٥٤ .

هذا القلب ويحول بينه وبين الهدى والزهد الحقيقي فيها هو الذي يزيل ذلك الركام من القلب ويجعله معرضا لنور الله .

فعن يزيد بن أبي حبيب عن علي بن رباح قال : سمعت عمرو بن العاص يقول : لقد أصبحتم وأمسيتم ترغبون فيما كان رسول الله ﷺ يزهد فيه : أصبحتم ترغبون في الدنيا ، وكان رسول الله ﷺ يزهد فيها والله ما أتت على رسول الله ﷺ ليلة دهره إلا كان الذي عليه أكثر مما له . فقال له بعض أصحاب رسول الله ﷺ قد رأينا رسول الله ﷺ يستسلف)[1] .

ومع هذا كله فقد كان سمته حسناً مهيباً ، سيماء الإمارة عليه . ويكفي قول ابن الخطاب فيه : (ما ينبغي لأبي عبد الله أن يمشي على الأرض إلا أميرا)[2] كما نذكر وصفه وهو يخطب (فقام عمرو بن العاص على المنبر ، فرأيت رجلا ربعة قصير القامة وافر الهامة أزعج ، أبلج ، عليه ثياب موشية كأن به العقيان ، تأتلق عليه حلة وعمامة وجبة فحمد الله وأثنى عليه ..[3].

ونذكر أخيرا وصف قبيصة بن جابررضي الله عنه لعمرو مع من يصفهم فيقول : (وصحبت عمرو بن العاص فما رأيت أبين أوقال أنصع ظرفا منه ولا أكرم جليسا منه وفي رواية ولا أشبه سريرة بعلانية منه ...)[4] فهو عنده البليغ الكريم التقي النقي الذي تشبه سريرته علانيته .

---

(١) مسند أحمد ٤/٢٠٤ ورجاله ثقات غير يحيى بن إسحاق وهو صدوق .

(٢) الإصابة في تاريخ الصحابة للحافظ ابن حجر وقد أخرجه ابن خيثم عن طريق الليث .

(٣) فتوح مصر وأخبارها / ١٤٠ .

(٤) تاريخ دمشق لابن عساكر ١٣ / ٥٢٣ والذهبي في السير ٣ / ٧٤ ٥ /٢ .

مفتاح شخصيته

لقد كان مفتاح شخصيتة في الجـاهلية : حبه للشهرة وطموحه لمعالي الأمور وصار مفتاح شـخصيته في الإسلام إيمانه أما في الجـاهلية فلا داعي للوقوف عندها فهوصاحب ا لطموح الكبير ويكفي أن نذكرقوله لعمارة بن الوليد :

(إن فِيَّ مِنْ كل واحد منـهم خير مـا فيه . من عـتبة حلـمه ومن أبي سفـيان رأيه ومن سهيل جوده ، ومن أبي نجدته وأما الوليد فوالله ما أحب أن لي كل ما فيه من خـيـر وشر ولكنـه والله ما لك عـقل الوليـد ولا بأس ابن حـرب ولا لسـان أبي الحكم .

وتاريخه في الجاهلية حافل بالطمـوح للوصول لأعلى المواقع وما حربه لمحمد ﷺ إلا أملأ في الانـتصار عليـه ، وانتزاع السـيادة منه وان كـان هذا يغلَّفُ بطابع العقيدة والحفاظ على العقائد والموروثات الجاهلية .

لكنه يعترف رضي الله عنه فيما بعد أن موقفه من الإسلام كان موقف العناد والتقليد .أما العناد والمكابرة فهو يقول محـددا ماضيه كله مع الإسلام قيل أن يتجه إلى بؤرة النو (كنت للإسلام مجـانبا معاندا فحضـرت بدرا مع المشر كين فنجوت ثم حـضرت أحدا فـنجوت ثمـحضـرت الخندق فقلت في نفـسي كم أوضع والله ليظهرن محمد علي قـريش ، فلجقت بما لي بالطائف وأنابعد ناء عن الإسلام أرى لو أسلمت قريش كلها لم أسلم)[1] .

فليست قـضيـة الإيمان بالأصنام والأوثان هي التي تحكمه إنما يحكـمه العناد والمكابرة والرغبة في الانتصار على رسول الله ﷺ لكنه يئس من ذلك وانتهى الى الطريق المسدود .

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ١٣/ ٤٩٥.

ودافع آخر كان يحكمه غيرالعناد والمكابرة هو تقليد الآباء والأجداد .

فعن الزبير بن بكار قال قيل لعمرو بن العاص ما أبطأبك عن الإسلام وأنت أنت في عقلك ؟ فقال : إنا كنا مع قوم لهم علينا تقدم توازن حلومهم الجبال ، ماسلكو ا فجاً فتبعناهم إلا وجدناه سهلا فلما أنكروا على النبي ﷺ أنكرنا معهم ولم نفكرفي أمرنا وقلدناهم فلما ذهبوا وصار الأمر إلينا نظرنا في أمرالنبي ﷺ وتدبرناه . فإذا الأمر بين فوقع في قلبي الإسلام فعرفت قريش ذلك في ابطائي عما كنت أسرع فيه من معونتهم على أمرهم (١).

وها هوعمر بن الخطاب رضي الله عنه ينحي باللائمة على عمرو لتأخره عن الإسلام فيحجه عمر فعن زيد بن أسلم عن أبيه قال ، قال عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص .لقد عجبت لك في ذهنك وعقلك كيف لم تكن من المهاجرين الأولين ؟! فقال له عمرو : ومايعجبك يا عمر من رجل قلبه بيد غيره لا يستقدر التخلص منه إلا إلى ما أراد الذي هو بيده) فقال عمر : صدقت) (٢) .

ولخص عمرو نظريته في الجاهلية بأن المكارم لا تورث إنما تكسب ، وذلك حين هجا عمارة بن الوليد بقوله :

إذا كنت ذا بردين أحوى مرجلا	فلست لراء لابن عمك محرما
إذا المرء لم يترك طعاما يحبه	ولم ينه قلبا غاويا حيث يمما
قضى وطرا منه وغادر سبه	إذا ذكرت أمثالها تملأ الغما
وليس الفتى إما أتمت عروقه	بذي كرم إلا إذا تكرما

(١) تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر / ٤٩٦ .
(٢) المصدر نفسه ١٣ / ٤٩٧ .

هذا هو مفتاح شخصيته في الجاهلية حبه للشهرة وطموحه للمجد .

أمامفتاح شخصيته في الإسلام فهوإيمانه وهورجل المبادئ في كل مواقفه فمنذ أن التقى رسول الله ﷺ طوى صفحة الكفر كاملة وافتتح صفحة جديدة هي صفحة الايمان بالله ورسوله وقال عنه رسول الله ﷺ .

أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص .

وهذه الشهادة النبوية له هي أول ماتكون على مفتاح شخصيته .

وقبل أن نتحدث عن دور هذا المفتاح في صفحته الإسلامية التي استمرت أربعين عاما ،. نعود إلى كبار الكتاب عنه إلى أستاذنا اللواء شيث خطاب وإلى العقاد في كتابه : عمرو بن العاص وإلى أبي رابيه كذلك فهؤلاء الثلاثة أعظم من ألَّف عن عمرو رضي الله أماأستاذنا شيث خطاب فقد دخل الباب برفق واعتبرمفتاح شخصيته أنه دائما مع القوة : يقول :

(مفتاح شخصية عمرو أنه كان يستعرض جوانب القوة دائما ويوازن بين ما لدى أعدائه وأصحابه على حد سواء من القدرة موازنة طويلة حتى لا يخفى عليه منها وجه من وجوه الرأي فقد كان رجلا يتقن الحساب ويجيد المساومة يقف ساكنا ويفكر طويلا ويساوم في حرص إنه يشترط دائما هكذا كان موقفه في كل أمر !! [(١)] .

فعمرو إذن عند أستاذنا شيث خطاب :

أنه دائما مع القوة ، وليس مع الحق .

---

(١) عمرو بن العاص : القائد المسلم والسفير الأمين ١ / ١٧٤ لـ : محمود شيث خطاب .

وكنا نربأ بأستاذنا العظيم عن هذه الزلة ، وعذره فيها أنه لم يحقق في النصوص لكن من هو في مثل فضله غير معذور .

أما الأستاذ العقاد فقد هبط بعمرو دون هذا بكثير ، وأبقاه على جاهليته بأن مفتاح شخصيته الطموح للمجد والمال وهو هو في الإسلام . في الجاهلية والذي يعرف كتابات العقاد ويعيش معها يدرك قيمة الرجل عنده فالذي قدم له بالعبقريات وضع مفتاحا لشخصيته أما الذين لم يقدم لهم بـ (عبقرية) فهؤلاء أدنى عنده من أن يتحدث بعنوان مستقل عن مفتاح شخصيتهم مثل عثمان بن عفان ، ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص وها هو يقدم لنا عمرو بن العاص كماهو في مخيلته .

(أما صفاته النفسية فنبدأ بما وصف به نفسه أوبقول الرواة الذين وصفوه هذا الوصف وهم يدعون من المعرفة به ما يقوله الرجل حين يصفه بلسانه .

روى هشام بن الكلبي أن أناسا لاموا معاوية على تقديمه عمرا فبلغته ملامتهم فقال بعد استشهاد « قد علمت أني الكرار في الحرب الصبور على غيرالدهر ، لا أنام عن طلب كأنما أنا الأفعى عند أصل الشجرة ولعمري لست بالواني أو الضعيف بل أنا مثل الحية الصماء لا شفاء لمن عضته ولا يرقد من لسعته وإني ما ضربت الا فريت ولا يخبو ما شببت عرفني أصحاب يوم الهرير (بحرب صفين) أنني أشدهم قلباوأثبتهم يدًا أحمي اللواء وأذود عن الحمى فكأنني وشأني عند قول القائل :

وهل عجب إن كان خرعي عسجدا   إذا كنت لا أرضى مفاخرة العشب » [١].

وهذا وصف صادق إذا أعفينا عن جانب الفخر فيه ، طابق صفاته النفسية التي تشهد بها أقواله وأعماله ومساعيه ، وهي مجموعة محكمة من الصفات القوية ولكنها على قوتها بسيطة متناسبة ، يأخذ بعضها ببعض على نحو مألوف غير مستغرب في أمثال هذه النفس الفطرية وأعمقها جدا هو أظهرها جدا وهو الذي تعمق حتى بلغ من عمقه أن ينضح على قسمات وجهه وحركات جسده وهو الطموح الى الهيبة والثراء وطلب البسطة في الجاه والمال ما نخاله وقف في الطموح عند حد. ولا قعد عن الخلافة وهو مختار ، بل قد طمع إليها وأعد عدته لاقصاء بني أمية عنها فلما أبأسه مغمز النسب ورجحان بني أمية علي بني سهم في العصبية القرشية طوى الصدر على كظم وقعد عنها وهو كاره يعزي نفسه بقوله المأثور عنه :

« إن ولاية مصرجامعة تعدل الخلافة » [٢] .

وفي أخلاق عمرو « عقدة نفسية » لاتفتأ تصادفنا عند المقابلة بين نقائضه كما تصادفنا في جميع العظماء من أمثالهم وأشباههم في الطبيعة والملكة ، ويعني بهم أولئك الذين يلتقي فيهم الطموح والحركة وضبط النفس في سبيل المطالب التي يطمحون إليها فما منهم أحد إلا وجدت له نقائض من الحذر الشديد والاندفاع الشديد أو من ضبط النفس كأنه لايعرف جمحات الشعور ومن المجازفة

---

(١) هذه الرواية ساقها العقاد من كتب الأدب عن هشام بن محمد بن ا السائب الكلبي ، وهو يروي عن أبيه. قال الذهبي فيه هشام بن محمد بن السائب بن الكلبي عن أبيه ، تركوه ، أخباري المغني في الضعاء ٧١١/٢ وقالوا عن أبيه في تقريب التهذيب لابن حجر ٢ / النسابة المفسر المتهم بالكذب ورمي بالرفض . ولكن يؤخذ من علمه بالنسب .

(٢) عمرو بن العاص لـ : عباس محمود العقاد / ٢٨ .

كأنه لايعرف الروية ، وهي نقائض في الظاهر وليست بنقائض في الحقيقة ، لأن قوة الطموح تفسر لنا النقيضين فإذا هما مستمدان من ينبوع واحد هو قوة الطموح إذ أن هذه القوة الطامحة لا تزال محضرة له الأمل شاخصا باهراً نصب عينيه فيهون عليه أن يكبح شعوره الجامح في سبيل الوصول الى أمله العظيم ، أو في سبيل المحافظة عليه بعد الوصول إليه . ثم يثقل الكبح على هذا الطماح فيلتمس الروح منه والمتنفس من قيده بالمجازفة كما يتوق الصائم الى العيد والفرس الملجم الى المراح)[1] .

ويصف مسيره إلى معاويه رضي الله عنهما بقوله :

(وليقل الناقدون التاريخيون ماشاء لهم أن يقولوا في صدق هذا الحوار وما ثبت نقله ولم يثبت منه سنده فالذي لا ريب فيه ولو اجتمعت التواريخ قاطبة على نقضه أن الاتفاق بين الرجلين كان اتفاق مساومة ومعاونة على الملك والولاية وأن المساومة كانت على النصيب الذي آل إلى كل منهما ولولاه لما كان بينهما اتفاق فكان معاوية يطمح الى الخلافة يتولاها ويورثها أعقابه من بعده وكان عمرو يطمح الى ولاية مصر جامعة وهي عنده تعدل الخلافة مالم يكن ا لى الخلافة سبيل ومثل هذاالاتفاق أقوى اتفاق ولكنه قد ينقلب في حالة من حالته فإذا هو أضعف اتفاق وأقربه الى النقض والانتقاض ومن سر الضعف فيه أن الشريك هنا هو أعدى الأعداء وأولى المنافسين بالتخلص منه إذا أمكن الخلاص)[2] .

وهذا الكاتب الثالث عبد الخالق سيد أبو رابية والذي أبدع في عرض كثير من جوانب عبقرية عمرو ها هو يحدد رأيه بعمرو قائلا :

---

(١)عمرو بن العاص محمود العقاد ٣٨ - ٣٩ .

(٢) المصدر نفسه / ٢٣٢ .

(لقدكان عـمرو بن العاص طموحا دائمـا وكان هذا الطموح العنيف الذي لزمه منذ صباه وظل معه الى ختام حياته العريضة طموحا قائما على مطالب الواقع في بواعثه ومراميه اذ كانت نظرة عمرو إلى الدنيا نظرة عملية لا خيالية ومناطها هو الأخذ بـالأحوط والأنفع في كل أمـر من الأمور مـا كبـر منها ومـا صغـر ولم يكن عمـرو يدري وخلجات أعمـاقه تتصـارع في أعماقه بمثل هذا الهول أنه يوشك أن يضع للعالم أسس فلسـفة عملية نفـعية جديدة صـاغها من بعده في القـرن التاسع عشـر الميلادي أحـد الفلاسفـة المحدثين تحت اسم الفلسـفة البراجـماتيـة أو مذهب الذرائع[1] أجل كان أول من صاغ هذا الاصطـلاح الحديث بيرس (١٨٧٨م) ثم تناولها بعـده فيلسـوف أمريكا الأكبـرجون ديوي وفصلهـا في نظام فلسفي عـميق زاعمـا « أن العقل في الواقع ليس أداة ا لمعـرفة ، وإنما هو أداة تطور الحيـاة وتنميتـها فليس من وظيفـة العقل أن يعرف وإنماعـمل العقل هو خدمة الحياة وتيسيـر السبل لكي تنمو وتطرد)[2] .

وفي صدد حديثه عن اختيار جانب معاوية على علي يقول :

(وهكذا قـاد عمـرًا دهاؤه وطمـوحه وحـبه للإمـارة وضـعفـه الشديد أمـام كسب المال واكـتنازه الى أن يغيـر سيـاستـه دفعة واحـدة فأصـبح من أكبـر أنصار معاوية زعيم حزب عثمان وغريم علي ابن أبي طالب)[3] .

وفي صدد اتهام علي بدم عثمان يقول :

---

(١) يعبرون عنه بقولهم : الغاية تبرر الوساطة .

(٢) عمرو بن العاص لعبد الخالق أبي رابية / ٣١٥ .

(٣) المصدر نفسه / ٣١٤ .

(يروي الإمام الطبري : « ولما قدم عمرو على معاوية أشارعليه أن يلزم عليا دم عثمان وأن يحاربه بجند الشام إذا أبى [1] ذلك أن عمرو بن العاص رأى أن يلصق جريمة قتل عثمان بعنق الإمام علي وهو على يقين بأن دم عثمان لا يعلق منه شيء في عنق رابع الراشدين وأنه برىء من هذا الدم الي يوم القيامة ولكن عمراً رأى أن إلصاق دم عثمان المهدر بعنق الخليفة الجديد هو الطريق الوحيد لإزالته عن السلطان حتى إذا نجحت هذه الذريعة كانت وسيلته لكسب طموحه الشخصي فكل شيء عند عمرو مباح وما دام يصيب به مغنما وما دام هو الوسيلة المثلى لتحقيق أهدافه ومراميه ، وخاض عمرو بن العاص بهذه الفرية التي ألحقها بالإمام علي في دماء المسلمين إذ أوقد الفتنة بين الناس وضلل من استطاع تضليله منهم ، وبرع في الحيل والخداع بلا تحرج وقد صار دم عثمان ذريعة لاشعال حرب تهلك الحرث والنسل ، يكون وقودها المسلمون ووسيلتها المكر والخداع والرأي البارع ، والبديهة الحاضرة)[3] .

وها هو يتحدث عن عمرو في المقدمة :

(فأي طراز من الرجال كان عمرو بن العاص ؟

لقد ذكرت المصادر العربية وعنها أخذ المؤرخون الأجانب أنه كان عدة رجال في رجل واحد وكانت له مستويات شتى من الشخصية البشرية الواحدة يكاد يكفي كل مستوى منها لحياة رجل بأكملها واجتماعها كلها في حياة رجل واحد بعينه ، أمر يدعو إلى الغرابة في حد ذاته لأنه يوجز في عمرو رجل واحد ما كان يصلح لحمله أعمار أو لجملة رجال .

---

(١) لم أجد لهذا النص أثرا عند الطبري .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) عمرو بن العاص : لعبد الخالق سيد أبورابيه / ٣١٧ .

ألم يغيرعمرو وجه الدولة الإسلامية ومن ثم غير وجه الحضارة والتاريخ الانسانيين الإسلاميين الي يومنا هذا ؟ إذ هوصاحب الفكرة الثاقبة في فتح مصر ، ثم هو فاتحها فعلا بما يشبه المعجزة العسكرية !!

ألم يغيرالتاريخ الإسلامي مرة أخرى تغييرا حاسما في الدولة الإسلامية الفتية حين انتشل بالرأي الحاذق والحيلة البارعة مصير معاوية من مهاوي الهزيمة وأرسى خطاه على طريق النصر ، فأحدث الحدث الذي لا يدانيه حدث في تاريخ الإسلام والعرب !! إذ تحولت بعده الخلافة الراشدة القائمة على الشورى إلى ملك عضوض يتوارثه بيت أبي سفيان بن أمية ،لا مكان فيه للشورى التي نص عليها القرآن وإنما هو الاستبداد وتسلط الفرد فأسقط دولة الحق والعدل ، وأقام كيانا قوامه الطبقية والعصبية القبلية ؟؟!) [(١)] .

وفي مكان آخر في المقدمة يلخصه بأنه رجل أهداف وليس رجل مبادىء فيقول عنه :

« أما غريمه عمرو فقد كان رجل أهداف لارجل مبادئ ، يريد أن يصل إلى ما تصبو إليه نفسه ، وهي ولاية مصر من أي طريق يسلكه ، وأنه استعمل في ذلك من الخدع والدهاء التي امتاز بها على العرب كافة وهي سياسة (فرق تسد) ما غير بها مجرى تاريخ الأمة العربية ذلك التغيير الحاسم الحافل بالأحداث الجسام)[(٢)].

ويصل الخلل عنده أن يرى في هذا التغيير للتاريخ الإسلامي عنوان صحة لا عنوان فساد .

---

(١) عمرو بن العاص لعبد الخالق سيد أبو رابية / ١٠ .

(٢) المصدر نفسه / ٢٥ .

(أصبحت نظم الحكم التي كانت مألوفة أيام أبي بكر وعمر غير صالحة لهذه الأمبراطورية الإسلامية الضخمة التي تألفت من شعوب مختلفة في الجنس والعادات والخلق والدين وسائر أنواع الحياة . لذلك لم يكن بد من انقسام العرب الي قسمين وقسم يدافع عن المذهب الموروث ، مذهب الحرية ذي النظام البدوي البسيط الذي ساد عهد أبي بكر وعمر والذي ما كان يصلح إلا أيامها يؤيده السلف الصالح من صحابة رسول الله كأبي موسى الأشعري وسعد بن أبي وقاص وقسم اخر يدافع عن المذهب الجديد مذهب تأسيس ملكية إسلامية ذات نظام يلائم الحال التي وصلت اليها الأمة العربية ويؤيده زعماء من العرب على رأسهم بنو أمية ومؤيد من أهل الشام ومن أهل فارس وكانت النتيجة الطبيعية لهذا الانقسام هي وقوع الحرب بين الفريقين وكان لا بد من وقوعها والتي انتهت بقيام النظام الملكي الجديد مكان نظام الشورى القديم) [١] .

وهكذا ينتهي الأمر بهؤلاء المفكرين بتقديم عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه يسلك دوما جانب القوة كما يرى استاذنا شيث خطاب وأنه رجل الطموح والمجد الحريص على المال والسلطان كما يراه العقاد وأنه مؤسس مذهب النفعية والمصلحة عند أبي رابية وهذا التقويم يقود بالنهاية إلى اعتبارالمصالح صاحبة الوزن الأول في عالم عمر بن العاص . كما هي اليوم في عالم السياسة واليوم.

وانطلاقا من ذلك فلا تجتمع السياسة والدين لأن السياسة كذب وخداع وتضليل وسفك الدماء إن اقتضى الأمر والدين طهر ونظافة واستقامة ولا يلتقيان معا ويسوق هذا الجمهور دائما كلمة السياسي الأمريكي المخضرم هنري كيسنجر

---

(١) عمرو بن العاص لـ : عبد الخالق سيد أبو رابية / ٢٦ .

في كتابه الدبلوماسية والسياسة ليس هناك عداوت دائمة ولا صداقات دائمة إنما مصالح دائمة ويعتبرونها هي ميزان عالم السياسة اليوم .

لكنا نفاجيء بكلمة وزيرة الخارجية الأمريكية الحالية مالدين ألبرايت في بيانها الذي عرضته امام لجنة الشؤون الخارجية بمناسبة ترشيحها لهذا المنصب في مؤتمرها الصحفي في ٢٤ كانون اثني ١٩٩٥ اذ تقول : (قال ممثل دولة أجنبية كبرى ذات مرة أن بلاده ليس لها حلفاء دائمون وإنما مصالح دائمة ويمكن أن يقال عن أمريكا أنه ليس لها خصوم دائمون بل فقط مبادئ دائمة)[١] .

فإذن حتى في عالم السياسة اليوم وبلسان وزير خارجية أكبردولة في العالم أن هناك مباديء دائمة تحكم سياسة هذه الدولة .

فكيف نستطيع بعد هذاكله أن نقبل هذا المنحدر الذي أوصله إليه المؤرخون والمفكرون لعمرو رضي الله عنه .

إن مرد هذا كله هو قبولهم الغث من الرايات والسقيم والضعيف والموضوع وعدم تمييز الصحيح عن غيره .

فإما أن لهم هوى ويعرفون أن لعلم التاريخ أصوله ومنهجه وطريقة الحكم على رواياته لكنهم وجدوا هوًى في تجاهل هذا المنهج وابتعدوا عن تحقيق ثبوت الأحداث والنصوص سندا أو متنًا .

وإما أنهم لم يسمعوا بشيء من ذلك ويحسبون أن كل حادثة أو نص يأخذون منها يروق لهم منه طالما أنه ورد في أحد كتب الأدب والتاريخ .

---

(١) أضواء علي الأنباء الصادرة عن وكالة أعلام الولايات المتحدة بجدة ، العدد السنة ١٢ تاريخ ١٣ يناير (كانون الثاني ، ١٩٧٧ .

وكلا النظريتين جهل أو تجاهل لا يليق بكبار المؤرخين المعاصرين .

خاصة وأن الذي يقرأ في كتاب شيخ المحدثين الطبري ومن صفحاته الأولى يحدد منهجه ويبرئ ساحته ممانقل في الكتاب مما لم تثبت صحته يطالعه قوله :

فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين من يستنكره قارئه، أويستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجها من الصحة ولا معنى في الحقيقة فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا وإنما أتي من قبل بعض نا قليه إلينا وإنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدي إلينا)[1] .

فالطبري رحمه الله يعلن عدم مسؤوليته عما ورد في كتابه وليس بالضروري أن يمثل قناعته فقد يكون مستشنعا ومستنكرا إنما مسؤوليته على راويه .

وبهذاالإعلان في مقدمة تاريخه لم يعد لأحد حجه أن يغش الناس بقوله : روى الإمام الطبري ويوهمهم بأنه ينقل رأي الإمام في هذا الأمر .

هذا الإعلان تماما بمثابة ما يكتب في بداية كثيرمن المجلات العلمية .

ما ينشر في هذه المجلة يعبرعن رأي كاتبه بل أحيانا يكون كتابا في سلسلة تقدمه احدى دور النشر فنقول : ما ينشر في هذه السلسلة يعبر عن رأي مؤلفيها .

ومن منطلق التحقيق والتوثيق والتصحيح نتحدث عن عمرو بن العاص رضي الله عنه بصفته رجل المبادىء عكس كل القناعات السابقة التي قدمته رجل المصالح زورا وبهتانا على التاريخ .

---

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبري المقدمة ١ / ٨ .

رجل المبادئ

وقليلون جدا من ساسة العالم وقادته هم رجال مبادئ ولنمض مع هذا النموذج الخالد الذي تمثلت فيه مبادئ الإسلام في كل مواقفه ومنطلقاته .

١ - نلتقي معه ابتداء حين بدأ نور الإسلام يتسلل إلى صدره كيف تباطأ عن نصرة قريش تجاوبا مع هذه القناعة الضعيفة .

(فعن الزبير بن بكار قال قيل لعمرو بن العاص ما أبطأ بك عن الإسلام ، وأنت أنت في عقلك فقال : إنا كنا مع قوم لهم علينا تقدم وسن ، توازن حلومهم الجبال ما سلكوا فجا فتبعناهم إلا وجدناه سهلا فلما أنكروا على النبي ﷺ أنكرنا معهم ، ولم نفكر في أمرنا وقلدناهم فلما ذهبوا وصار الأمر إلينا نظرنا في أمر النبي ﷺ وتدبرناه ، فإذا الأمربين فوقع في قلبي الإسلام و وعرفت قريش ذلك في إبطائي عما كنت أسرع فيه من عونهم على أمرهم فبعثوا إلي فتى منهم فقال : أبا عبد الله! إن قومك قد ظنوا بك الميل إلى محمد فقلت له : ياابن أخي إن كنت تحب أن تعلم ما عندي فموعدك الظل من حراء . فالتقينا هناك فقلت :

إني أنشدك الله الذي هو ربك ورب من قبلك ورب من بعدك : أنحن أهدى أم فارس والروم ؟ قال : بل نحن . فقلت: أنحن أوسع معاشا وأعظم ملكا أم فارس والروم ؟ قال : بل فارس والروم قلت : فما ينفعنا فضلنا عليهم في الهدى إن لم تكن إلا هذه الدنيا وهم فيها أكرمنا أمرا قد وقع في نفسي أن مايقول محمد من ا لبعث بعد الموت حق ليجزي المحسنين في الآخرة بإحسانه والمسيء بإساءته هذا يا بن أخي الذي وقع في نفسي ولاخيرفي التمادي بالباطل)(١) .

---

(١) تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر ١٣ / ٤٩٦ - ٤٩٧ .

٢ ـ ثم نمضي معه حيث عرض نفسه للموت ساعة إسلامه كما يحدثنا عن نفسه . (... فتفرقنا ولم يكن أحد أحب إلي من أن ألقاه من جعفر فاستقبلني من طريق مرة ، فنظرت خلفه فلم أر أحدا فنظرت خلفي فلم أرا أحدا فدنوت منه وقلت : أتعلم أني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداعبده ورسوله قال : فقد هداك الله فاثبت فتركني وذهب ، فأتيت أصحابي فكأنما شهدوه معي ، فأخذوه قطيفة أوثوبا فجعلوه عليَّ حتى غموني بها وجعلت أخرج رأسي من هذه الناحية مرة ومن هذه الناحية مرة حتى أُفلِتُ وما علي قشره فمررت على حبشية فأخذت قناعها فجعلته على عورتي فأتيت جعفرا فدخلت عليه فقال مالك ؟ فقلت : أخذ كل شيء لي ماترك علي قشرة ، فأتيت حبشية فأخذت قناعها فجعلته على عورتي فانطلق وانطلقت معه حتى أتى إلى باب الملك فقال جعفر لآذنه : استأذن لي . قال: إنه عند أهله فقال : استأذن لي عليه فاستأذن له فأذن به فقال : إن عمرا بايعني علي ديني قال : كلا قلت : بلى فقال لانسان أذهب معه ، فإن فعل فلا يقل شيئا الا كتبته . قال فجاء فقال : نعم فجعلت أقول وجعل يكتب حتى كتبت كل شيء حتى القدح قال : ولو شئت أن آخذ شيئا من أموالهم إلى ما لي فعلت)(١) .

وهؤلاء الذين حاولوا خنقه وجردوه من ثيابه وتركوه عاريا هم الذين جاؤوا معه من مكة قائلين له:(وأنت ذو رأينا ومدر هنا مع يمن نقيبة وبركة أمر).

٣ـ وكان رجل المبادئ حين جاءو بايع رسول الله ﷺ على الإسلام وطوى صفحة الكفر كله .

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمي ٦ / ٢٨ وقال فيه : رواه الطبراني والبزار ، وعمير بن إسحاق وثقة ابن حبان وغيره وفيه كلام لا يضر ، وبقية رجاله رجال الصحيح .

(.. أبايعك على أن تغفر لي ما تقدم من ذنبي ، فقال رسول الله ﷺ : إن الإسلام يجب ما كان قبله وإن الهجرة تجب ما كان قبلها .

وأعطاه رسول الله ﷺ شهادة براءة خالدة بعد الشهادة السابقة فقال : (أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص)[1].

وأخذ موقعه الحقيقي في القيادة . كما يحدثنا حبان بن أبي جبلة عن عمرو بن العاص قال :

(ما عدل بي رسول الله ﷺ وبخالد منذ أسلمنا أحدا من أصحابه في حربه)[2] .

وفي رواية (في أمرٍ حَزَبَهُ منذ أسلمنا) .

٤ - وفي غزوة ذات السلاسل الذي اختاره رسول الله ﷺ لقيادتها وكانت أول دورة تربوية يخوضها حيث ارسل معه أكبر المربين في المدرسة النبوية ليرافقوه أبو بكر وعمرو وأبو عبيدة وسعد بن عبادة وأسيد بن خضير من قيادات الأنصار ومعظم الباقين من كبار المهاجرين والأنصار وتلقى في هذه المعركة أكبر دروس التضحية والإيثار من أبي عبيدة أمين الأمة حين تنازل عن قيادة الجيش له وأكبر دروس الطاعة والانضباط من أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وهما الوزير الأول والثاني في دولة الإسلام معترفين له بخبرته في الحرب .

لكن الدرس الأعظم الذي تلقاه ، وبقي معه طيلة حياته هو الدرس الذي تلقاه من رسول الله ﷺ بعد عودته حين حسب أن الفضل والحب منوط بالقيادة الحربية فجاء إلى رسول الله ﷺ يقول له بعد انتصاره بذات السلاسل .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣ / ٦٤ وقال المحقق فيه : إسناده حسن وهو في المسند ٤ / ١٥٥ وأخرجه الترمذي ٣٨٤٤ .

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ١٣ / ٤٩٦ والسير ٣ / ٦٦.

(يا رسـول الله ! من أحب الناس إليك ؟ قـال : عائشـة . قلت : إني لست أسألك عن أهلك قـال : فأبوها . قلت : ثم من ؟ قال : عمـر قلت : ثم من ؟ حتى عد رهطا قلت في نفسي : لا أعود أسأل عن هذا ؟

وفي رواية الشيخين فسكت مخافة أن يجعلني آخرهم)[١] .

ومنذ ذلك الوقت عرف موقـعه الحقيقي في الأمـة بالرغم من أنه وخالد هما المقدمـان في الحروب لكنهما لـيسا المقدمـان في الفضل فهـو في سلم الفضل على أول درجات السلم بعد أهل بدر وأهل الحديبية .

٥ ـ وكـان رجل المبادئ يوم بعـثه رسـول الله ﷺ وحده من أقصـى مغرب الجزيرة إلى أقـصى مشرقهـا إلى ابني الجلندي ملكي عمان ، وبقي يحـاور ويصابر ويخطط حتى انتهى بهما جنديين في دين اللـه عز وجل ، وكان دخول أهل عمان في دين الله في صفحته رضي الله عنه .

(.. فـقلت إني خــارج غـدا فلمـا أيقن بخـروجي أرسـل إلي فـأجـاب إلى الإسلام فـأسلم هو وأخوه ، وصـدّق بالنبي ﷺ وخليا بيني وبين الصـدقة والحكم فيما بينهم وكـانا لي أعوانا على من خالفني فأخذت الصدقـة من أغنيائهم فرددتها علي فقـرائهم و وأخذت صـدقات ثمارهم ومـا تجروا به فلم أزل مقـيما حـتى بلغنا وفاة رسول الله ﷺ)[٢] .

٦ ـ وكان رجل المبـادىء يوم واجه مسـيلمة الكذاب في عقـر داره وعرَّض حياته للموت وعنقه للسيف وواجه قرة بن هبـيرة العامري الذي ما لأ مسيلمة ولم يخش في الله لومة لائم .

---

(١) مسلم ٤ / ١٨٥٦ ح ٨ ـ ٣٨٤ ، وعند البخاري : ٢ / ٥ / ٢٠٦ ـ ٢٠٧ غزو ذات السلاسل .

(٢) تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر ١٣ / ٥٠٨ .

(فقال عمرو « لمسيلمة » : أما والله إنك كاذب ، وإنك لتعلم أنك من الكاذبين ، فتوعدني وعندما هدده قرة بن هبيرة سيد بني عامر وفي ديارها بقوله : اكفرت ياقرة ؟ فأجابه (لنردنكم إلى فئتكم اجعلوا بيننا وبينكم موعدا)

فقال عمرو : توعدنا بالعرب وتخوفنا بهم موعدك حفش أمك فوالله لأوطئن عليك الخيل)[1] .

٧ ـ وكان رجل المبادئ والعقيدة يوم اختاره أبوبكر ليكون أحد القادة الكبار في فتح الشام . وهذا نص الخطابين المتبادلين بين أمير المؤمنين وواليه عمرو بن العاص .

(... إني كنت قد رددتك على العمل الذي ولاكه رسول الله ﷺ مرة ، وسماكه مرة أخرى مبعثك إلى عُمان انجازاً لمواعيد رسول الله ﷺ فقد وليته ثم وليته وقد أحببت أباعبد الله أن أفرِّغك لما هوخير لك في حياتك ومعادك منه ، إلا أن يكون الذي أنت فيه أحب إليك ..) .

وكان جواب عمرو رضي الله عنه المنبعث من عقيدته وإيمانه .

(فكتب اليه عمرو :

إني سهم من سهام الإسلام وأنت بعد الله الرامي بها ، والجامع لها فانظر أشدها وأخشاها وأفضلها وارم بها شيئا ان جاءك من ناحية من النواحي)[2] .

فها هو يرى نفسه سهما من سهام الله وجنديا من جنوده ، يقذف به أمير المؤمنين حيث يشاء .

---

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبري ٣ / ٢٥٩ .

(٢) المصدر نفسه ٣ / ٣٨٩ .

٨ ـ وكان رجل المبادئ والعقيدة حين مضى على قيادة الجيوش الإسلامية يفتح الأرض بهذا الدين وهذه العقيدة ولم يجد حرجا ان يضحي بنفسه ليقدم دين الله تعالى للبطريق الرومي .

فـ (لما سار أميرًا على الشام فنزلوا بقربة يقال لها باذن من قرى عنزة مما يلي الحجاز فلقيهم بطريق من بطارقة الروم فأرسلوا إليه أن يخرجوا اليه أحد القواد ليكلمه فتواكلوا عن ذلك وقالوا لعمرو بن العاص أنت لذلك فخرج اليه عمرو بن العاص فلما انتهى إليه رحب به البطريق ، وأجلسه على سريره ، ومت اليه بقرابة العيص بن إسحاق بن إبراهيم واسماعيل بن ابراهيم فكلمه عمرو ودعاهم الى الدخول في الإسلام ، أو الجزية عن يد وهم صاغرون فأبى وضن بدينه فقال عمرو قد أعذرت ولم يبق إلا السيف فافترقا واقتتلوا فكانت بينهم معركة عظيمة)[١] .

٩ ـ وكان رجل المبادىء والعقيدة ينطلق من إيمانه ا لعظيم حين وقف يوم اليرموك على رأس الجيش الإسلامي يوصيه بقوله : يا أيها المسلمون غضوا الأبصار واحثوا على الركب « وأشرعوا الرماح فإذا حمل عليكم عدوكم فامهلوهم حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة فثبوا وثبة الأسد)[٢] .

وراح يذكر هم بموعود الله الله تعالى لهم بالنصر : (فوالذي يرضي الصدق ويثيب عليه ويمقت الكذب ويجزي بالإحسان إحسانا لقد سمعت أن المسلمين سيفتحونها كفرا كفرا وقصرا قصرا فلا يهولنكم جمعهم ولا عدوهم فإنكم لو صدقتموهم الشد لتطايروا تطاير أولاد الحجل) [٣] .

---

(١) تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر / ١٣ / ٥١٠ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٤ / ٧ / ٨ .

(٣) المصدر نفسه / ٩ .

وترجم القول إلى فعل حين اشتدت وطأة الروم عـلى المسلمين وتقهقر حامل رايتهم فـي الميمنة عاد يقـود الهجـوم المعاكس ويضـحي بروحه ويرنو للشـهادة في سبيل الله ،

فـ (لما رأى عـمـرو بن العـاص يوم اليـرمـوك صـاحب الرايـة ينكشف بهـا أخذها ثم جعل يتقدم وهو يصيح إلي إلي يا معـاشر المسلمين فجعل يطعن بها قدما وهو يقـول : إصنعـوا كمـا أصنع حـتى إنه ليـرفـعهـا وكـأن عليـهـا ألسنة المطر من العلق)[1] .

استطاع بهذا الثبات وهذه التضحية أن يغـير مصير المعركة ويقود مع إخوانه القادة المسلمين الى النصرالمؤزر في اليرموك .

وكان رجل المبدأ والعقيدة في أجنادين ورغم موقعه في القيادة فقد تكفن مع أخيه هشام بن العاص واستعد للقاء اللـه والاستشهاد في سبيله ويصف عمرو هذه الحادثة بقـوله : أخذت بعمود الفـسطاط ثم اغتسلت وتحنطت ثم تكفنت فـعرضنا أنفسنا على الله عز وجل فقبله فهوخير مني يقولها ثلاثا)[2] .

أما كيف كان ذلك العرض فقد التقط خلف بن معدان هذا المشهد فنقله لنا بقوله : لما انهزمت الروم يوم أجنادين انتهوا الى مـوضع لا يعبره الا إنسان وجعلت الروم تقاتل عليـه وقد تقدموه وعبـروه وتقدم هشام بن العاص بن وائل فـقاتل عليه حتى قتل ووقع على تلك الثلمة فسدها فلمـا انتهى المسلمون إليها هابوا أن يوطئوه الخيل فقال عمرو بن العاص :

---

(١) تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر ١٣ / ٥١١ والعلق :الدم .

(٢) مجمع الزوائد للهيثمي ٦ / ٣٥٣ وقال فيه : رواه الطبراني وفـيه أبو عمرو مولى بني أمية لم أعرفه وبقية رجاله ثقات .

أيها الناس إن الله قد استشهده ورفع روحه وإنما هو جثة فاوطئووه الخيل ثم أوطأه هو وتبعه الناس حتى قطّعوه فلما انتهت الهزيمة (هزيمة الروم) ورجع المسلمون إلى العسكر كر عليه عمرو بن العاص فجعل يجمع لحمه وأعضاءه وعظامه ثم حمل في نطع فواره)[1].

وذلك لأن فوات المبادرة قد يفوت النصر فلتكن الملاحقة للعدو ولو على جثة أخيه وأحب الخلق اليه بعد رسول الله ﷺ ولما حقق هدفه واطمأن إلى النصر عاد فجمع لحمه وأعضاءه في نطع وواراه التراب بينما يمكن لقائد آخر أن يفقد أعصابه حزنا وأسى على فقد أعز أحبابه وتتحول المعركة لصالح عدوه حين يتوانى عنه .

١١ ـ وكان رجل المبدأ والعقيدة وهو يخدع أرطبون الروم فيمضي اليه ويحادثه ويتعرف على أسراره . فيكتشف أرطبون الروم أنه إنما خدع من أدهى الخلق وحارب بعقله قبل أن يحارب بسيفه وحين اقتضى الأمر المواجهة مع الأرطبون عسكريا (فالتقوا بأجنادين فاقتتلوا قتالا شديدا كقتال اليرموك حتى كثرت القتلى بينهم ثم إن أرطبون انهزم في الناس فأوى إلى إيلياء ونزل عمرو بأجنادين) [2] . وانتقلت المعركة الى القدس من جديد حيث اعتصم الأرطبون بها وكتب الى عمرو :

(بأنك صديقي ونظيري أنت في قومك مثلي في قومي والله لا تفتح من فلسطين شيئا بعد أجنادين فارجع ولا تغر فتلقى ما لقي الذين من قبلك من

---

(١) الطبقات الكبري لابن سعد ٤ / ١٩٤ .

(٢) تاريخ الطبري ٣ / ٦٠٧ .

الهزيمـة)[1] واستطاع ثانية بدهائه أن يورط الأرطبون ويكشف منه سر فاتح القدس أنه عمربن الخطاب وليس عـمرو بن العاص وكتب كتابه التـاريخي إلى عمر رضي الله عنه (إني أعالج حربا كؤودا صدوماً وبلادا أدخرت لك فرأيك)[2] .

وأوطأ فلسطين كـلهـا للإسـلام حـيث جـاء أميرالمؤمنين ووقع على وثيـقـة استسلام فلسطين للمسلمين فكان هوالبطل الذي أوطأ فلسطين للإسلام .

بسم الله الرحـمن الرحـيم : هذا ما أعطى عـبد اللـه عمـر أميـر المؤمنين أهل ايلياء من الأمان . أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئـها وسائـر ملتهـا أن لا تسكن كنائسهم ولا تهـدم ولا ينتقص منهـا ، ولا من حيـزها ولا من صليبـهم ولا من شيء من أمـوالهم ولا يكرهـون علي دينهم ولا يضار أحـد منهم ولا يسكن بايلياء أحـد معهم من اليـهود [3] وعلى أهل إيليـاء أن يعطوا الجزية كـما يعطى أهل المدائن ، وعليـهم أن يخرجوا منهـا الروم واللصوت فمن خـرج منها فهو آمن على نفـسه وماله حتي يـبلغوا مأمنهم ومن أقام منهم فـهو آمن وعليــه مـثل مــا على أهل إيليـاء من الجــزية ومن أحب من أهل إيليـاء ، أن يسيربنفسـه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فـهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلـبهم حتى يبلغوا مأمـنهم ومن كـان بها من أهل الأرض قبل مـقتل فلان فمن شاء منهم قعد وعليه مـثل ما على أهل ايلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحـصد حصادهم وعلى ما

---

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبري ٣ / ٦٠٦ .

(٢) المصـدرنفسـه / ٦٠٧ ، واليوم تحتل اليهـود القدس ويتـحـدون ارادة مليار وربع من المسلمين والعـرب ، ولكن أين عمرو بن العاص رجل العقيدة وبطلها الذي يحرر فلسطين ؟! .

في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء ، وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية شهد على ذلك خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان وكتب وحضر سنة خمسة عشرة)[1] .

وكان مثل هذا الأمان لسائر سكان فلسطين على هذه الصيغة :

بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما أعطي عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل لد ومن دخل معهم من أهل فلسطين أجمعين ، أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وسقيمهم وبريئهم وسائر ملتهم وعلى أهل لد ومن دخل معهم من أهل فلسطين أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل مدائن الشام وعليهم إن خرجوا مثل ذلك الشرط الى آخره)[2] .

١٢ - وكان رجل المبادىء والعقيدة حين أمضى أعواما في فتح مصر وتوطئتها للإسلام فكان الإسلام في مصر في صحيفته وانتهى مع المقوقس بالصلح التالي :

(واصطلحوا على أن يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط ديناران عن كل نفس شريفهم ووضعهم من بلغ الحلم منهم ليس على الشيخ الفاني ولا علي الصغير الذي لم يبلغ الحم ولا النساء شيء وعلى أن للمسلمين علهيم النزل لجماعتهم حيث نزلوا ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة عليهم وأن لهم أرضهم وأموالهم لا يعرض لهم بشيء منها)[3] .

---

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبري ٣ / ٦٠٩ .

(٢) المصدر نفسه / ٦٠٩ .

(٣) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم / ٧٠ - ٧١ .

فشرط هذا كله على القبط خاصة وأحصوا عدد القبط يومئذ خاصة من بلغ منهم الجزية وفرض عليه الديناران و رفع ذلك عرفاؤهم بالأيمان المؤكدة فكان جميع من أحصي يومئذ بمصر أعلاها وأسفلها من جميع القبط فيما أحصوا وكتبوا ورفعوا أكثر من ستة آلاف ألف نفس فكانت فريضتهم يومئذ اثني عشر ألف ألف دينار في كل سنة)[1] .

هذا بالنسبة لأهل مصر من الأقباط أما الروم الذي رفضوا هذا الاتفاق ، وبعث قيصر ملك الروم الى المقوقس يلومه بقوله : إنما أتاك من العرب اثنا عشر ألفا وبمصر ومن بها من كثرة عدد القبط مالا يحصى فإن كان القبط كرهوا القتال وأحبوا أداء الجزية إلى العرب ، واختاروهم علينا ، فإن عندك من الروم بالإسكندرية ومن معك أكثر من مائة ألف معهم العدة والعدد والقوة والعرب وحالهم وضعفهم على ما قدر رأيت فعجزت عن قتالهم ورضيت أن تكون أنت وم معك من الروم في حال القبط أذلاء ألا نقاتلهم أنت وممن معك من الروم حتى تموت أو تظهر عليهم ...)[2].

فقال المقوقس لما جاءه كتاب ملك الروم :

والله إنهم لعلى قلتهم وضعفهم أقوى وأشد منا على قوتنا وكثرتنا . إن الرجل الواحد منهم ليعدل مائة رجل منا وذلك أنهم قوم الموت أحب إلى أحدهم من الحياة ، يقاتل الرجل منهم ، وهو مستقبل يتمنى ألا يرجع إلى أهله ولا بلده ولا ولده ، ويرون أن لهم أجرا عظيما فيمن قتلوا منا .

ويقولون أنهم إن قتلوا دخلوا الجنة وليس لهم رغبة في الدنيا ونحن قوم نكره الموت ونحب الحياة ولذتها فكيف نستقيم نحن وهؤلاء) [3].

---

(١) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم / ٧٠ - ٧١ .

(٢) المصدر نفسه / ٧٣ .

(٣) المصدر نفسه / ٧٣ .

١٣- وكان رجل المبادىء والعقيدة حين أصر الروم على الحرب وصبر على حصار الاسكندرية قرابة تسعة أشهر ، ولم يجد حلا لاستمطار نصر الله إلا بهذا الدين ورجاله ولنشهد معاً هذا الحوار بين أمير المؤمنين وواليه عمرو بن العاص .

(ولما أبطأ على عمر بن الخطاب فتح مصر كتب الى عمرو بن العاص :

أما بعد ، فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر ، إنكم تقاتلونهم منذ سنتين ، وذلك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم ، وإن الله تعالى لا ينصر قوما إلا بصدق نياتهم ، وقد كنت وجهت اليك أربعة نفر وأعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ما كنت أعرف إلا أن يكون غيرهم ما غير غيرهم فإذا أتاك كتابي هذا ، فاخطب الناس ، وحضهم على قتال عدوهم ورغبهم في الصبر والنية وقدم أولئك الأربعة في صدور الناس ، ومر الناس جميعا أن يكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة فإنها ساعة تنزل الرحمة ، ووقت الإجابة ، وليعج الناس الى الله ويسألوه النصر على عدوهم)(١) .

فلما أتى عمرو الكتاب جمع الناس وقرأ عليهم كتاب عمر ثم دعا أولئك النفر فقدمهم أمام الناس وأمر الناس أن يتطهروا ويصلوا ركعتين ثم يرغبون الى الله عز وجل ويسألوه النصر ، ففتح الله عليهم . ويقال إن عمرو بن العاص استشار مسلمة بن مخلد كما حدثنا عثمان بن صالح عمن حدثه قال :

أشر علي في قتال هؤلاء فقال له مسلمة : أرى أن تنظر إلى رجل له معرفة وتجارب من أصحاب رسول الله ﷺ فتعقد له على الناس فيكون هو الذي يباشر القتال ويكفيك قال عمرو ومن ذلك ؟ قال : عبادة بن الصامت . قال: فدعا

---

(١) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم / ٧٩ .

عمـرو عبـادة فأتاه وهوراكب على فرسـه فلما دنا منه أراد النزول فـقال له عـمرو : عزمت عليك [١] إن نزلت ناولني سنان رمحك فناوله إياه فنزع عمـرو عمامته عن رأسه وعقد له وولاه قتال الروم فتـقدم عبادة مكانه ، وصادفّ الروم ففتح الله على يديه الاسكـندرية من يومـهم ذاك) [٢] وفي رواية : (حـدثنا أبي عـبـد الله بن عبدالحكم قال : لما أبطأ على عمـو بن العاص فتح الإسكندرية واستلقى على ظهره ثم جلس فقال : فكرت في هذا الأمر فإا هو لا يُصلِح آخره إلا من أصلح أوَّله يريد الأنصار . فـدعا عـبادة بن الصامـت فعقـد له ففتح الله على يديه الاسكندرية في يومه ذاك)[٣] ، وعن خالد بن حـميد قال :حاصـروا الاسكندرية تسعة أشـهر بعد مـوت هرقل وخـمـسـة قـبل ذلك ، وفـتـحت يوم الجـمـعـة لمستـهل المحـرم سنة عشرين[٤] وفي رواية عن البلاذري سنة واحد وعشرين) [٥] .

١٤ ـ وكان رجل المبـادىء والعقيـدة حين حكم مصـر خمس سنوات في العهد ين العمري والعثماني ، فأقـام فيها شريعة الله وحافظ على ثغورها وهذه هي صورة المسلمين في ظل واليهم ابن العاص وهو يخطب فيهم قائلا :

(.. يا معشـر الناس إياي وخلالا أربعا فإنها تدعـو إلى النصب بعد الراحة ، وإلي الضيق بعد السعـة وإلى المذلة بعد العزة ، إياي وكثرة العيـال وإخفاض الحال وتضييع المال والقيل بعد القال ، في غير درك ولا نوال .

ثم إنه لا بد من فراغ يؤول إليه المرء في توديع جسمه والتدبير لشأنه وتخليته بين نفسه وبين شهواتها ، ومن صـار إلى ذلك فليأخذ بالقصد والنصيب الأقل ولا

(١) ان نزلت : ما نزلت .

(٢) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم / ٧٩ .

(٣) المصدر نفسه / ٨٠ .

(٤) المصدر نفسه / ٨٠ .

(٥) فتوح البلدان للبلاذري / ٢٢١ .

يضيع المرء في فراغه نصيب العلم من نفسه فيحوز من الخبر عاطلا وعن حلال الله وحرامه غافلا . يا معشر الناس إنه قد تدلت الجوزاء وذكت الشعرى ، وأقلعت السماء ، وارتفع الوباء وقل الندى ، وطاب المرعى ووضعت الحوامل ودرجت السخائل وعلى الراعي يحسن رعيته حسن النظر فحي بكم على بركة الله إلى ريفكم فنالوا من خيره ولبنه وخرافه وصيده وأربعوا خيلكم وصونوها وأكرموها فإنها جنتكم من عدوكم وبها مغانمكم وأثقالكم واستوصوا بمن جاورتموه من القبط .

وإياي والمشمومات والمعسولات فإنهم يفسدن الدين ويقصرن الهمم .

حدثني عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله ﷺ يقول :

إن الله سيفتح عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فإن لكم منهم صهرا وذمة فعفوا أيديكم وفروجكم وغضوا ابصاركم .

ولا أعلمن ما أتى رجل قد أسمن جسمه وأهزل فرسه واعلموا أني معترض الخيل كاعتراض الرجال فمن أهزل فرسه من غير عله حططته من فريضته قدر ذلك واعلموا أنكم في رباط الى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم وتشوف قلوبهم اليكم وإلى داركم معدن الزرع والمال والخبر الواسع والبركة النامية وحدثني عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله يقول :

« إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندا كثيفا فذلك الجند خير أجناد الأرض » فقال له أبو بكر ولم يا رسول الله ؟ قال : « لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة فاحمدو الله معشر الناس على ما أولاكم فتمتعوا في ريفكم ما طاب لكم فإذا يبس العود وسخن العمود وكثر الذباب وحمض اللبن وصوح البقل وانقطع الورد من الشجر فحي على فسطاطكم على بركة الله ولا يقدمن أحد

منكم ذو عيال على عياله إلا ومعه تحفة لعياله على ما أطاق من سعته وعسرته أقول قولي هذا واستحفظ الله عليكم[1] .

١٥ ـ وكان رجل المبادىء والعقيدة يوم عزله عثمان عن مصر ، ثم عاد فكلف ثانية بإمرة الحرب ضد الروم الذين غزوا الاسكندرية (وقد كان عثمان بن عفان عزل عمر بن العاص وولى عبد الله ابن سعد بن أبي سرح . فلما نزلت الروم الإسكندرية سأل أهل مصرعثمان أن يقر عمرا حتى يفرغ من قتال الروم ، فإن له معرفة بالحرب وهيبة في العدو ففعل وكان على الاسكندرية سورها ، فحلف عمرو بن العاص لئن أظهره الله عليهم ليهد منّ من سورها حتى تكون مثل بيت الزانية وتؤتى من كل مكان فخرج اليهم عمرو في البر والبحر ثم شد المسلمون علهيم فكانت هزيمتهم حتى ألحقوهم بالاسكندرية ففتح الله عليهم ، قتل منويل الخصي قائدهم وأمعن عمرو في مدينتهم قتلا ، فكلم في ذلك فأمر برفع السيف عنهم وبني في ذلك الموضع الذي رفع فيه السيف مسجد ، وهو المسجد الذي يسمى بالاسكندرية مسجد الرحمة وإنما سمي مسجد الرحمة لرفع عمرو السيف هناك ، وهدم سورها كله)[2] .

وحيث أن عمرو لا يقاتل إلا الله ولم يكن لعزله عن الإسكندرية أثر في نفسه عاد فاستجاب لأمير المؤمنين ليقود مرحلة المواجهة ضد الروم في الإسكندرية، ولم يشترط شيئا مقابل هذه المعركة التي قد تؤدي بحياته ، إنما كان على عهد المؤمنين بالله المجاهدين في سبيله إذا دعا داعي الجهاد وحقق الله تعالى على يديه النصر المظفر على عدوه . ولم يطلب ثمنا لذلك الا مرضاة الله سبحانه .

---

(١) فتوح مصر وأخبارها / ١٣٩ ـ ١٤١ وقد سبق أن شرحناها بالتفصيل من قبل .

(٢) فتوح مصر وأخبارها / ١٦٩ ـ ١٧٠ .

١٦ - وكان رجل المبادئ والعقيدة يوم عاد جنديا عاديا بلا إمرة ولا قيادة وقد ناهز السبعين من عمره وبقي عشرسنوات يجوار خليفة المسلمين عثمان رضي الله عنه يمحضه النصح ويؤدي دوره في النصيحة لإمام المسلمين وكان مستشاره الخاص إذا دهمه أمر أوحزبه معضلة وعندمه ابتدأت الفتن تلوح في الآفاق عام خمس وثلاثين كان المستشارالدائم لعثمان يشارك مع قادة الفتوح أمراء الأجناد وكأنه واحد منهم وأوضح خلاصة وجهة نظره بقوله :

(أرى أنك قد لنت لهم وتراخيت عنهم وزدتهم على ما كان يصنع عمر فأرى أن تلزم طريقة صاحبيك فتشتد في موضع الشدة وتلين في موضع اللين ، إن الشدة تنبغي لمن لا يألو الناس شرا واللين لمن يخلف الناس بالنصح) [1] .

لقد أوى عمرو رضي الله عنه بعد عزله عن مصر إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها وكان جيل الشباب قد استلم مهمة متابعة الفتوح في الأرض فألقى سلاحه بعد جهاد خمس وعشرين عاما في سبيل الله وترك لولديه عبد الله ومحمد متابعة المهمة من بعده علما وجهادا وكانت حال المسلمين على خير ما يرام في النصف الأول من حكم عثمان رضي الله عنه وذلك كما وصفها الحسن البصري رضي الله عنه قال :

(أدركت عثمان على ما نقموا عليه قلما يأتي على الناس يوم إلا وهم يقتسمون فيه خيرا فيقال لهم : يامعشر المسلمين اغدوا على أعطياتكم فيأخذونها وافرة ثم يقال اغدوا على أرزاقكم فيأخذو نها وافرة ثم يقال : اغدو على السمن العسل الأعطيات جارية والأرزاق دارة ، والعدو متقى وذات البين حسن والخير

(١) تاريخ الأمم والملوك للإمام الطبري ٤ / ٢٤٤ .

كثير ، وما من مؤمن يخاف مؤمنا) [1] .

ويقول : (عمل أمير المؤمنين عثمان ثنتي عشرة سنة لاينكرون من إماره شيئا حتى جاء فسقة. فداهن والله في أمره أهل المدينة)[2].

وكان الوهط لعمرو بن العاص يأتيه منه رزقه ، وينعم بخيراته ورأى أنه قد أدى رسالته بعد هذا الجهاد الطويل وهو يشارف على الثمانين من عمره رضي الله عنه .

١٧ ـ وكان رجل المبادىء والعقيدة حين رأى الثوار قد احتلوا المدينة وصار كيان المسلمين الرئيسي في خطر وخليفة المسلمين في خطر وهو وإخوانه عاجزون عن فعل اي شيء بعد سيطرة الثوارعلى المدينة ورأى بثاقب نظره أن الخليفة مقتول وسيحمل عبء قتله المسلمون المقيمون في المدينة وهم عاجزون عن حمايته فكان لا بد من الخروج إلى موقع آخر وغزو جديد من خارج المدينة للقضاء على دولة الثوار فيها فأعلن موقفه الصريح .

(لما أحيط بعثمان رضي الله عنه خرج عمرو بن العاص متوجها إلى الشام وقال :

والله يا أهل المدينة ، ما يقيم بها أحد فيدركه قتل هذا الرجل إلا ضربه الله عز وجل بذل من لم يستطع منكم نصره فليهرب فسار وسار معه ابناه عبد الله ومحمد وخرج بعده حسان بن ثابت وتتابع على ذلك)[3] .

(١) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر (عثمان بن عفان) رضي الله عنه تحقيق سكنية الشهابي/ ٢٢٠ .

(٢) المصدر نفسه / ٢٢٠ .

(٣) تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري ٤ / ٥٥٨ وهي رواية السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وأبي حارثة وأبي عثمان .

لقد مضى إلى فلسطين وتناهى إلى سمعه مقتل عثمان رضي الله عنه بعد ذلك ، وولاية علي وبقاء الثوار بنفوذهم داخل جيش علي ، وبلغه خروج طلحة والزبير وعائشة فلعلهم يكفونه مؤونة الثأر للخليفة الشهيد ، وانتهت معركة الجمل باستشهاد الزبير وطلحة رضي الله عنهما وبقاد نفوذ الثوار القتلة داخل جيش علي على غير ما اتفق عليه القادة قبل المعركة كما روى ذلك الطبري بسنده عن السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة قالا : كتب الى السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة قالا :

وبعث علي من العشي عبد الله بن عباس إلى طلحة والزبير وبعثاهما من العشي محمد بن طلحة الى علي وأن يكلم كل واحد منهما أصحابه فقالوا : نعم، فلما أمسوا وذلك في جمادى الآخرة وأرسل طلحة والزبير الى رؤساء أصحابهما ، وأرسل علي إلى رؤساء أصحابه ما خلا أولئك الذين هضوا [1] على عثمان . فباتوا على الصلح وباتوا بليلة لم يبيتوا بمثلها للعافية من الذين أشرفوا عليه والنزع عما اشتهى الذين اشتهوا وركبوا ما ركبوا وبات الذين أثاروا أمرعثمان بشر ليلة باتوها قط قد أشرفوا على الهلكة وجعلوا يتشاورون ليلتهم كلها حتى اجتمعوا على إنشاب الحرب في السر واستسروا بذلك خشية أن يفطن بما حاولوا من الشر فغدوا مع الغلس وما يشعر بهم جيرانهم انسلوا الى ذلك الأمر انسلالا وعليهم ظلمه فخرج مضريهم إلى مضريهم وربيعيهم الى ربيعهم ويمانيهم إلى يمانيهم فوضعوا فيهم السلاح ، فثار أهل البصرة ، وثار كل قوم في وجوه أصحابهم الذين بهتوهم [2]) [3] .

---

(١) هضوا : تمالؤوا على عثمان .

(٢) بهتوهم : لعلها محرفة عن بيتوهم .

(٣) تاريخ الأمم والملوك للطبري ٤ / ٥٠٩ .

وأدرك عمرو بن العاص رضي الله عنه أن أمر قتلة عثمان قد علا بعد الجمل وأصبح قسم منهم قادة متنفذين في جيش علي رضوان الله عليه .

لقد تجاوز الثمانين من عمره وغدا على أبواب الرابعة والثمانين فهل يدع هذا الأمر ويخلد الى الراحة أم ينصر حقا يستخلصه من شأفة الباطل ، وهل يبقى قتلة عثمان الذين زرعوا فتنة الجمل دون عقوبة وحرب ؟

١٨ ـ لقد كان رجل المبادىء والعقيدة حين رفض وهو الطاعن في السن أن يقف مكتوف الأيدي أمام هذه الفتنة ولم يعد أمامه الا صديقه معاوية بن أبي سفيان بنصره على قتلة عثمان وبعينه على الطلب بدمه والثأر من قاتليه .

(وفي هذه السنة سنة ست وثلاثين بايع عمرو بن العاص معاوية ووافقه على محاربة علي وكان السبب في ذلك ما كتب به إلى السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وأبي حارثة وأبي عثمان قالوا :

لما أحيط بعثمان رضي الله عنه خرج عمرو بن العاص من المدينة متوجها نحو الشام وقال : والله يا أهل المدينة ، ما يقيم بها أحد فيدركه قتل هذا الرجل إلا ضربه الله عز وجل بذل فمن لم يستطع نصره فليهرب فسار وسار معه ابناه عبدالله ومحمد وخرج بعده حسان بن ثابت .وتتابع على ذلك ما شاء الله .

قال سيف عن أبي حارثة وأبي عثمان قالا :

بينما عمرو بن العاص جالس بعجلان ومعه ابناه إذ مر بهم راكب . فقالوا : من أين ؟ قال : من المدينة. فقال : عمرو : ماسمك ؟ قال : حصيرة ، قال عمرو : حصر الرجل . قال : فما الخبر ؟ قال : تركت الرجل محصورا قال عمرو : يقتل ثم مكثوا أياما فمر بهم راكب فقالوا : من أين : قال : من المدينة قال عمرو : ما

اسمك ؟ قال : قتـال قال عمرو : قتل الرجل . فما الخبر ؟ قال : قتل الرجل ثم لم يكن إلا ذلك إلى أن خـرجت ثم مكثـوا أياما فمـر بهم راكب فـقـالوا : من أين ؟ قال: من المدينة ، قال عمرو ماسمك ؟ قال : حرب ، قال عمرو : يكون حرب : فما الخبر ؟ قال : قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه وبويع لعلي بن أبي طالب قال عمو : أنا أبوعبد الله من حك فيها قـرحة نكأها رحم الله عثمان ورضي عنه وغفر له .

فقال سلامة بن زنباغ الجذامي يا معشر قريش ، إنه والله قد كان بينكم وبين العـرب بابا فاتخـذوا بابا إذا كسـر البـاب فقـال عمـرو وذاك الذي نريد ولا يصلح الباب إلا أشاف[1] تخرج الحـق من حافة البـأس ويكون الناس في العـدل سواء ثم قال :

يا لهف نفسي على مالك وهل يصرف اللهف حفظ القدر
أنزع من الحر[2] أودى بهم فأعذرهـــم أم بقومي سكــر [3]

ثم ارتحل رجـالاً يبكي كـما تبـكي المرأة ويقول : واعـثـمانـاه ، أنعي الحيـاء والدين : حتى قدم دمشق وقد كان سقط اليه من الذي يكون علم فعمل عليه .

وأما العلم الذي سقط إليه فيحدثنا عنه السري بقوله :

كـتب الي السري عن شـعيب عن سيف عن مـحمـد بن عبـد الله عن أبي عثمـان قال : كان النبي ﷺ قد بعث عَمْراً الـي عُمان فسمع هنالك من حبـر شيئا فلما رأى مصداقه وهو هناك أرسل إلى ذلك الحبر . فقال : حدثني بوفاة رسول الله

(١) أشاف : جمع إشفى وهو المثقب ، وهو كناية عن قتل قتلة عثمان ولو كانوا في صف علي .

(٢) نزع من الحر : ظلام شديد وقع بهم .

(٣) سكر : أي هم سكارى .

(٤) الذي كتب إليك : أي الصديق الذي كتب لعمرو بوفاة رسول الله ﷺ .

ﷺ وأخبرني من يكون بعده ؟ قال : الذي كتب اليك يكون بعده ومدته قصيرة قال ثم من ؟ قال : رجل من قومه مثله في المنزلة قال : فما مدته ؟ قال : طويلة ثم يقتل . قال : أغيله أم عن ملأ قال : غيلة . قال : فمن يلي بعده ؟ قال رجل مثل قومه في المنزلة . قال فما مدته ؟ قال : طويلة ، ثم يقتل ، قال أغيلة أم عن ملأ ؟ قال : عن ملأ قال : ذلك أشد فمن يلي بعده ؟ قال : رجل من قومه ينتشرعليه الناس وتكون على رأسه حرب شديدة من الناس ثم يقتل قبل أن يجتمعوا عليه ، قال : أغيلة أم عن ملأ ؟ قال : غيلة ثم لا يرون مثله . قال : فمن يلي بعده؟ قال : أمير الأرض المقدسة فيطول ملكه فيجتمع أهل تلك الفرقة وذلك الانتشار عليه ثم يموت .

وهذا العلم من الكتب المقدسة عند هذا الحبر وجدناه في تاريخ ابن عساكر ينتهي عند عمر رضي الله عنه ولا ندري لعل بعض النسخ فيها تفصيلات أكثر من الأخرى .

ولندع هذا العلم جانبا فطلحة والزبير رضي الله عنهما كانا في المدينة والتبس عليهما الأمر ، وخرجا مع عائشة أم المؤمنين يلتمسون الطلب بدم عثمان وهما من العشرة المبشرين فكيف نجد غرابة أن يمضي عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى الشام منضما الى المطالبين بدم عثمان وهو لم يشهد بيعة علي رضي الله عنه ولا مقتل عثمان ولا المآسي التي رافقته .

لقد كان في غنى عن هذه الخطوة لو لم يكن حرصه على الحق هو الذي يحركه ، وهو قد بلغ من الكبر عتيا وكما تحرك أخوه عمار بن ياسر رضي الله عنه لنصرة علي وهو قد ناهز التسعين فلا عجب أن يتحرك عمرو بن العاص لنصرة معاوية وهو على أبواب الخامسة والثمانين لعله يتشرف باعادة هيبة الخلافة وقتل أولئك الثائرين المجرمين .

١٩ ـ وكان رجل المبادئ والعقيدة وهو في قلب صفين وقد رأى عمار بن ياسر رضي الله عنه يقتل . أن يعلن بصراحة ووضوح لأميره معاوية أن رسول الله ﷺ قال لعمار : تقتلك الفئة الباغية .

(فعن محمد بن عمرو بن حزم قال : لما قتل عماربن ياسررضي الله عنه دخل عمرو بن حزم على عمرو بن العاص فقال قُتل عمار وسمعت رسول الله ﷺ يقول : تقتلك الفئة الباغية . فقام عمرو فزعا يُرجِّعُ ويقول : إنا لله وإنا إليه راجعون حتى دخل على معاوية فقال معاوية : مه ؟ فقال : قتل عمار . فقال معاوية : قد قُتل عمار فماذا ؟ قال : عمرو سمعت رسول الله ﷺ يقول : تقتله الفئة الباغية فقال له معاوية : دحضت في بولك أنحن قتلناه ؟ إنما قتله علي وأصحابه جاؤوا به حتى ألقوه بين رماحنا أو قال : سيوفنا)(١).

فقد فزع عمرو وارتاع لقتل عمار بن ياسر وهو في صفوف جيش علي ، ولم يقبل بتفسير معاوية ولم يرضه . فإذن هؤلاء المقاتلون قد بغوا على علي وجيشه والفئة المبغي عليها هي فئة علي أما الفئة الباغية فهي فئة معاوية وعاد الأمر به إذن إلى أن عليا رضي الله عنه خليفة شرعي بايعه الناس وكان على المسلمين أن يدخلوا في بيعته ويقتصوا بعد مبايعته من قتله عثمان كما اتفق الفريقان فريق طلحة والزبير وفريق علي رضوان الله عليه .

وزاد الأمر تعقيدا ما لديه من علم أن قاتل عمار في النار . وها هما القاتلان يدخلان عليه يتناطحان لأخذ مكافأة قتل عمار وأعطاهما المكافأة .

---

(١) رواه الإمام أحمد ٤ /١٩٩ ، ورواه الحاكم في مستدركه وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي في تلخيصه .

فعن أبي عادية قال قتل عمار فأخبرعمرو بن العاص فقال :

سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن قاتل عمار وسالبه في النار) فقيل لعمرو : فإنك ها هو ذا تقاتله قال : إنما قال : « من قاتله وسالبه »)[1] .

وعن عبد الله بن عمرو أن رجلين أتيا عمرو بن العاص يختصمان في دم عمار وسلبه فقال عمرو : خلياعنه فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قاتل عمار وسالبه في النار »)[2] .

وحيث كان عمرو رضي الله عنه في شك من أمره قبل قتل عمار فقد كان يتطلع الى احتمال تغيير موقفه أو مقتله من أحد جند علي (وقد كان ذا الكلاع[3] سمع قول عمرو بن العاص يقول قال رسول الله ﷺ لعمار بن ياسر : تقتلك الفئة الباغية . فكان ذا الكلاع يقول لعمرو : ويحك يا عمرو ما هذا ؟ فيقول له عمرو : إنه سيرجع إلينا) [4] .

ولم يرجع عمار إلى فئة معاوية : وقتل على يد جنود معاوية فلم يعد الأمر فيه شك وقاتل عمار وسالبه في النار ، وهؤلاء القتلى بين المسلمين في صفين يتجاوزون عشرات الألوف من أجل مئات هم قتلة عثمان ، فأي فتنة هذه يمكن أن يطمئن المسلم فيها الى موقفه .

وهذه رواية أخرى عن الوضع النفسي المتأزم لعمرو بعد مقتل عمار رضي الله عنهما .

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمي ٧/ ٢٤٤ ، وقال فيه : رواه أحمد الطبراني بنحوه ورجال أحمد ثقات .

(٢) مجمع الزوائد للهيثمي ٩ / ٢٩٧ وقال فيه : رواه الطبراني وقد صرح ليث في التحديث ورجاله رجال الصحيح .

(٣) ذو الكلاع أحد قادة جيش معاوية .

(٤) البداية والنهاية لابن كثير ٤ / ٧ / ٢٧٩ .

(وكان الذي قتل عمارا أبو الغادية فلماوقع أكب عليه رجل آخر فاحتز رأسه فاختصما فيه فقال عمرو : والله ما يختصمان الا في النار فقال معاوية : أتقول هذا لقوم بذلوا أنفسهم دوننا فقال عمرو : هو والله ذاك وإنك لتعلمه وددت أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة)[1].

ولقد قال هذا الكلام قبله أخوه علي بن أبي طالب وأم المؤمنين عائشة .

(كتب الى السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة قالا : وغشي الوجوه عائشة وعلي في عسكره ودخل الفعقاع بن عمرو على عائشة في أول من دخل فسلم عليها فقالت : إني رأيت رجلين بالأمس اجتلدا بين يدي وارتجزا بكذا فهل تعرف كوفيك منهما ؟ قال : نعم ذاك الذي قال : (أعق أم نعلم) وكذب والله إنك لأبر أم نعلم من علم ولكن لم تطاعي فقالت والله لوددت أني مت قل هذا اليوم بعشرين سنة .وخرج فأتى عليًا فأخبره أن عائشة سألته فقال : ويحك من الرجلان ؟ قال : ذلك أبو هالة الذي يقول : (كيما أرى صاحبه عليا) فقال : والله لوددت أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة . فكان قولهما واحدًا)[2] .

وقدكان هذا ندم القائدين ، علي وعائشة والقتلى بضعة عشر ألفا فكيف حال أمير المؤمنين علي والقتلى سبعون ألفا من الفريقين فقد أفنى المسلمون بعضهم بعضا .

٢٠ ـ وكان رجل المبادئ والعقيدة يوم اقترح الاحتكام الى كتاب الله وغدا عمرو بن العاص في معسكره ، وعلي بن أبي طالب في معسكره يشهدان فناء المسلمين وعمرو في حالة نفسية رهيبة من الندم والفزع بعد مقتل عمار بن ياسر وتخاصم قاتليه إليه فماذا يفعل .

---

(١) أنساب الشراف للبلاذري ١ /١٧٠.

(٢) تاريخ الأمم والملوك للطبري ٤ / ٥٣٧ .

أيتابع الحرب راميا وراء ظهره نصوص حبيبه محمد عليه الصلاة والسلام !

أيفر من الحرب ناجيا بنفسه ويدع المقولة التي انطلقت في المعسكر : إنما قتله الذين أخرجوه وتلاحقه دماء المسلمين حتى بعد فراره ؟!

أم يوقف نزيف الدم ، وينـهي المعـركة بعـد أن حـددت الأحـاديث المواقف والمبادئ ؟!

ولم يكن أمامه إلا أن يتصرف برجولة تصرف رجال المبادئ ويخطط لانهاء الحرب كما شـارك في مسؤولية ابتدائها واستـجاش عبقريته في خـير وسيلة لإنهاء الحرب فكانت فكرة رفع المصاحف (روى الإمام أحمد عن حبيب بن ثابت قال : أتيت أبا وائل في مسـجد أهله أسأله عن هؤلاء القوم الذين قـتلهم علي بالنهروان ، فيم استجابوا له ، وفيم فارقوه ، وفيم استحل قتالهم [١] ؟ قال :

كنا بصفين فلمـااستحـرت القتل بأهل الشام اعـتصمـوا بتل فقال عـمرو بن العاص لمعـاوية أرسل إلى علي بمصـحف فادعه إلى كـتاب الله فـإنه لن يأبى عليك فـجاء به رجل فـقال بيننـا وبينكم كتـاب الله ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصـيبـا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون ﴾

فقال علي : نعم أنا أولى بذلك بيننا وبينكم كتاب الله [٢] .

وتوقف نزيف الدم بالموافقة على الاحتكام الى كتاب الله .

٢١ - وكان رجل المبادئ والعقيدة يوم قبل أن يكون أحد الحكمين في هذه الأمة لأنه في موقع المرشح للخلافة ، فهـو الرجل الثاني بعد معاوية رضي الله عنه

---

(١) ولم نجد في النص المذكور جوابا على هذه التساؤلات .

(٢) رواه الإمام أحمد ورجاله رجال الصحيح .

في الفريق الثاني ، وفي قبوله أن يكون حكما يعني أنه فوّت على نفسه الترشيح لخلافة المسلمين فلا يمكن أن يختار نفسه خليفة للمسلمين ونعيد إلى الذاكرة موقف عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يوم تخلى عن ترشيحه للخلافة حرصا على جمع كلمة المسلمين . (فلما فُزِع من دفنه (أي عمر رضي الله عنه) اجتمع هؤلاء الرهط (الستة) فقال عبد الرحمن اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم فقال الزبير: قد جعلت أمري إلى علي، فقال طلحة : قد جعلت أمري إلى عثمان . وقال سعد : قد جعلت أمري الى عبد الرحمن بن عوف فقال عبد الرحمن أيكما تبرأ من هذا الأمر فنجعله إليه ، والله عليه والإسلام لينظرن أفضلهم في نفسه فاسكت الشيخان ، فقال عبد الرحمن : أفتجعلونه إلي والله علي أن لا آلو من أفضلكم ؟ قالا نعم ، فأخذ بيد أحدهما فقال له : لك قرابة من رسول الله ﷺ والقدم في الإسلام ما قد علمت فالله عليك لئن أمرتك لتعدلن ولئن أمرت عثمان لتسمعن ولتطيعن ثم خلا بالآخر فقال له مثل ذلك فلما أخذ الميثاق قال : ارفع يدك ياعثمان فبايعه فبايع له علي وولج أهل الدار فبايعوه)[1] .

(قال الزهري : فأصبح أهل الشام قد نشروا مصاحفهم ودعوا الى ما فيها وهاب أهل العراقيين فعند ذلك حكموا الحكمين فاختار أهل العراق أبا موسى الأشعري ، واختار أهل الشام عمرو بن العاص فتفرق أهل صفين حين حُكم الحكمان فاشترطا أن يرفعا مارفع القرآن ويخفضا ما خفض القرآن وأن يختارا لأمة محمد ﷺ وأنهما يجتمعان بدومة الجندل فإن لم يجتمعا لذلك اجتمعا من العام المقبل بأذرح)[2].

---

(١) صحيح البخاري ٢ / ٥ / ٢٢ بباب مناقب عثمان .

(٢) تاريخ الرسل والملوك للإمام الطبري ٥ / ٧٥ .

٢٢ ـ وكان رجل المبادئ والعقيدة يوم شارك في التحكيم واستعرض وجهات النظر مع أخيه أبي موسى الأشعري لكن تباينت وجهات نظرهما في الخليفة المرشح ليقود الأمة وعجزا عن الوصول إلى رأي موحد واستشارا العديد من قادة الأمة ولكن دون جدوى .

وقد حكم المغيرة بن شعبة داهية العرب بعد لقائه معهما ابتداء أنهمالن يتفقا بقوله لا يجتمع هذان على أمر واحد) .

وهو الذي صحح المفاهيم المغلوطة التي سادت بعد التحكيم حين قال :

(قد قال الناس ولا والله ما كان ما قالوا ولكن لما اجتمعت أنا وأبو موسى قلت له : ما ترى في هذا الأمر ؟ قال : أرى أنه في النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض قال فقلت : أين تجعلني من هذا الأمر أنا ومعاوية فقال : إن يستعن بكما ففيكما معونة ، وان يستغن فطالما ما استغنى أمر الله عنكما)[١] .

فقد أصر أبو موسى رضي الله عنه على أن تكون الخلافة فيمن توفي رسول الله ﷺ وهو منهم راض ، ولم يبق من الستة إلا ثلاثة علي وسعد وسعيد بن زيد .

لكن عَمْرًا رضي الله عنه عرض العديد من الشخصيات غير هؤلاء الثلاثة . فلم يوافقه أبو موسى على أحد منها .

٢٣ ـ وكان رجل المبادئ والعقيدة يوم التزم مع معاوية بن أبي سفيان بعد التحكيم وارتضاه أميرا بينما ارتضى الفريق الآخر عليا خليفة وضبط مصر بعيدة عن الفتن والصراعات وانتهى الأمر بين علي ومعاوية قال زياد بن عبد الله عن أبي اسحاق : لما لم يعط أحد من الفريقين صاحبه الطاعة كتب معاوية الى علي أما إذا شئت فلك العراق ولي الشام وتكف السيف عن هذه الأمة ولا تهريق دماء المسلمين ففعلا ذلك وتراضيا على ذلك . فأقام معاوية بالشام وجنوده يجبيها وما حولها وعلي بالعراق يجبيها ويقسمها بين جنوده[٢] .

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ١٣ / ٥٢١.

(٢) تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري ٥ / ١٤٠ .

ثم كان مقتل علي رضي الله عنه عام أربعين ثم بيعة الحسن بعده من أهل الكوفة ثم تنازل الحسن لمعاوية ودخول ا لأمة كلها في طاعته عام واحد وأربعين . وعمرو قد قارب التسعين لا يزال على ولاية مصر يضبطها ويجبيها ، وينفذ فيها شريعة الله تعالى إلى أن دنا أجله عام ثلاثة وأربعين وهو على جهاده وعمله الدؤوب في ولايته خادما للمسلمين وحاكما لهم .

٢٤ - وكان رجل المبادئ والعقيدة ، وقد اقترب أجله وراح يعظ الأمة بمعالم الموت وقدم نفسه لنبيه وللأمة بهذه النفسية كما أخرجها مسلم من حديث ابن شماسة المهري قال : (حضرنا عمرو بن العاص وهو في سباقة الموت ، فبكى طويلا ، وحول وجهه إلى الجدار ، فجعل ابنه يقول : يا أبتاه أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا أما بشرك رسول الله بكذا ، قال فأقبل بوجهه فقال أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمد رسول الله إني كنت على أطباق ثلاث :

لقد رأيتني وما أحد أشد بغضا لرسول الله ﷺ مني ولا أحب إلي أن أكون استمكنت منه فقتلته فلو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار .

فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت : ابسط يدك فلأبايعك فبسط يده فقبضت يدي قال : « مالك يا عمرو ؟ » قلت : أردت أن أشترط قال : « تشترط بماذا ؟ » قلت : أن يغفر لي قال : « أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها وأن الحج يهدم ما ان قبله ؟ » وما كان أحد أحب الي من رسول الله ﷺ ولا أجلّ في عيني منه ، وما كنت أطبق أن أملأ عيني منه إجلالا له ولو سئلت أن أصفه ما أطقت لأني لم أكن أملأ عيني منه . ولو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة .

ثم ولينا أشياء ما أدري ما حالي فيها .

فإذا أنا مت فلا تصحبني نائحة ولا نار ، فإذا دفنتموني فسنوا علي التراب سنا ثم اقيموا حول قبري قدر ما تنحر جزور ويقسم لحمها ، حتى أستأنس بكم ، وانظر ماذا أراجع به رسل ربي) [1] .

ولنقف مليا عند قول رجل المبادئ والعقيدة (ثم ولينا أشياء ما أدري ماحالي فيها) .

ففي هذه الـ (أشياء) جهاد خمسة عشرعاما متواصلة فتح فيها بلاداً وشاد حضارة وقاد جيوشاً وانتصر في معارك يشيب من حولها الولدان . ولم يهزم فيها في معركة قط وأقام شريعة ، وهدى أمما وحرر شعوبا وأنقذ كفارا قادهم من الظلمات إلى النور .

كل هذه الأمجاد يستحي عمرو بن العاص رضي الله عنه من ذكرها فيسميها أشياء قائلا « ثم ولينا أشياء » .

أي طراز من الرجال هذا الذي حقق كل هذه الأمجاد والفتوحات والانتصارات وأقام العدل في ربوع العالمين ونشر الإسلام في الخافقين ، وهذا كله لا يستحق أن يذكر عنده إلا « أشياء » .

وهذا عمرو رضي الله عنه الذي ساهم في تغيير وجه التاريخ من الكفر إلى الإيمان واقامة حضارة الإيمان في الوجود وكان الفاتح الثاني في الأرض الإسلامية بعد خالد بن الوليد لم ينل منه الغرور ولم يمس قلبه الفخر والخيلاء ، انما ذكر كل هذه الأمجاد على استحياء قائلا « وولينا أشياء » .

وها هي سنواته الأخيرة التي نصر فيها بجهاده خليفة مظلوما شهيدا ، ثم قدر الله تعالى له فانهى فتنة العالم الإسلامي بها وذلك حين دعا الى تحكيم كتاب

---

(١) صحيح مسلم ١ / ١١٢ - ١١٣ ح ١٩٢ - ١٢١ .

الله بعد حرب أكلت سبعين ألفا من المسلمين، وأعاد عماراً وقراراً واستقراراً لأرض مصر وبقي يقيم فيها شريعة الله تعالى حتى وافاه أجله كل هذا لا يرتفع عنده لأن يذكره ويكتفي بالقول : « ثم ولينا أشياء » .

فهو جهاد أربعين عاما دعوة ، وفتحا ، وقيادة ، وحكماً، وسلطاناً ، وعلماً ، وهدى ونوراً ونصرا ونزاهة ، وزهدا وتجردا وكبتاً للظالمين .

كل هذا يستحي من ذكره ويكتفي بقوله (ثم ولينا أشياء) .

وهو على فراش الموت ، ويرى أن أعظم ما قدمه في تاريخ هذا الدين وأعظم ثروة يملكها هي أفضل من كل ذلك شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.

فما يزال يكررها حتى مات .

إنه أستاذ من أساتذة التربية الإيمانية في الوجود فهو لا يثق إلا بما كان بين يدي رسول الله ﷺ .

٢٥ ـ وكان رجل المبادىء والعقيدة في خوفه من الله تعالى ووجله منه أنه يخشى حتى ما كان بين يدي رسول الله ﷺ أن لا يُقبل منه .

(جزع عمرو بن العاص عند الموت جزعا شديدا فقال ابنه عبد الله ما هذا الجزع ، وقد كان رسول الله ﷺ يدنيك ويستعملك .

قال : أي بني قد كان ذلك ، سأخبرك أي والله ما أدري أحبا كان أم تألفاً ولكني أشهد على رجلين أنه فارق الدنيا وهو يحبهما ابن سمية وابن أم عبد)(١) .

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي قال المحقق فيه : إسناده صحيح وهو في المسند ٤ / ١٩٩ .

وليس عنده أعظم من شهادة أن لا إله إلا الله وها هو بين يدي ربه يرجو رحمته .

اللهم إنك أمرتنا فركبنا ونهيتنا فأضعنا فلا بريئ فأعتذر ولا عزيز فانتصر ولكن . لا إله الله وما زال يقولها حتى مات)[1] .

وها هو فقه حديث رسول الله ﷺ حين أفرد عمرا بعظمه هذا الإيمان فقال : أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص .

فعمرو رضي الله عنه في ميزان القادة الفاتحين وحين يذكر خمسة عظام في تاريخ هذه الأمة لا بد أن يكون عمرو بن العاص واحدا منه .

وهو في البطولة والعبقرية الحربية ، الرجل الثاني في الأمة بعد خالد بن الوليد الذي حارب العرب والفرس والروم وانتصر عليهم لكن من حيث الامتداد الجغرافي فيكاد يكون عمرو الفاتح الأول من عُمان إلى فلسطين ثم سورية ثم الأردن ثم فلسطين ومن فلسطين إلى مصر الى ليبية ..

وهو حين يوضع مع عباقرة الحكم والإدارة لا يكاد يضارعه أحد بعد الخلفاء الراشدين ومعاوية أول ملوك المسلمين في جيل البناء الإسلامي الأول .

وحين يوضع مع الدهاه فهو أحد الأربعة الكبار الذين دوخوا العالم بدهائهم وعبقريتهم . وسخروا هذاكله لنصرة هذا الدين العظيم .

وحين يوضع مع رجال المبادئ فهو من أكبر أساتذة البشرية في تحويل المبادئ إلى واقع عملي وتطبيقها على الأرض نموذجا حيا للأجيال المتعاقبة .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤ / ٢٦٠ .

وحين يوضع في ميـزان الفضل فهـو من الطبقة الرابعـة في الأمة بعد العـشرة المبشرين وطبقة بدر وجيل طبقة الحديبية .

وحين يوضع في الميزان الإسلامي العام فهو نبـتة من نبتات النبوة وغرسة من غرسات محمد ﷺ التي رعاها حتى استغلظت واسـتوت على سوقها رعاها وهي تحاربه ورعاها وهي تفديه بروحها .

فهـوواحد من عشـرات الألوف التي تربت في هذه المدرسة النبـوية وانتجت النموذج البشري الخالد نموذج القرن الأول .

« إن خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الدين يلونهم »[1] .

وهو أحد قـيادات القرن الأول قرن الصـحابة الكرام الذي لم تشهد البـشرية مثيلا له ولن تشهد .

وعمرو في مـيزان رجال العالم أحد رجـاله الكبار وصانعيه العظام ، وفـاتحيه بالهدي الإلهي ، فهو من المعالم البارزة المؤمنة فيه .

أسلم الناس وامن عمرو بن العاص .

ولله دره جنديا مـؤمنا في مـدرسـة الخالدين رضـوان الله تعـالى عليـه وعلى إخـوانه أجـمـعين . وصلى الله وسلم وبـارك على الرسـول الأمين صـاحب أعظم مصنع للأبطـال الخالدين في الوجود وعلى آل وصـحبـه أجمعين وآخـر دعواهم آن الحمد لله رب العالمين .

مكة المكرمـة

غرة ذو الحجـــة / ١٤١٧ هـ

منير محمد الغضبـــان

---

(١) مسلم ٤ / ١٩٦٤ ح ٢٥٣٥ .

المصادر والمراجع

أولاً : القرآن الكريم

ثانيا :

١ ـ أثر التشبع على الروايات التاريخية في القرن الأول الهجري . د . عبد العزيز محمدنور ولي دار الخضيري للنشر والتوزيع ١٤١٧ هـ .

٢ ـ الإصابة في تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر السعقلاني (شهاب الدين أحمد بن علي) دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، طبعت طبق النسخة المطبوعة سنة ١٨٥٣ في كلكتا .

٣ ـ إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأموال والحفدة والأتباع للمقريزي (تقي الدين أحمد بن علي) صححه وشرحه : محمود شاكر عني بنشره عبد الله ابراهيم الأنصاري علي نفقة الشؤون الدينية بقطر .

٤ ـ أنساب الأشراف للبلاذري (أحمد بن يحيى) .

٥ ـ أضواء على الأنباء ، العدد ١ ، السنة الثانية عشرة ٢٥ يناير نشرة سياسية تصدرها وكالة الإعلام بالقنصلية الأمريكية بجدة .

٦ ـ الأموال لأبي عبيد ط ٢ ، ١٩٧٥ م تحقيق خليل الهراس نشر دار الفكر .

٧ ـ بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب لـ : محمود شكري الألوسي البغدادي. عني بشرحه وتصحيحه : محمد بهجت الأثري ، دار الكتب العلمية ، لبنان، الطبعة الثانية .

٨ ـ البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (أبي الفداء) دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان دقق أصوله وحققه دكتور أحمد أبو ملحم وإخوانه .

٩ ـ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام للحافظ الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد) تحقيق د / عمر عبد السلام التدمري ، الناشر : دار الكتاب العربي ط . أولى ١٤٠٧ هـ .

١٠ ـ تاريخ خليفة بن خياط العصفري حققه د / سهيل زكار ، رواية بقي بن مخلد مطابع وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي ، ١٩٦٧م .

١١ ـ تاريخ الرسل والملوك للإمام الطبري (أبي جعفر محمد بن جرير) تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، طبعة ثانية ، دار المعارف بمصر ـ سلسلة ذخائر العرب (١٠) .

١٢ ـ تاريخ مدينة دمشق ، مخطوط للحافظ ابن عساكر (أبي القاسم علي بن الحسن) .

١٣ ـ تاريخ مدينة دمشق ، مطبوع عثمان بن عفان : تحقيق سكينة الشهابي مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق .

١٤ ـ تاريخ المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي (أبي الحسن علي بن الحسين) تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ط خامسة ١٣٩٣ ـ ١٩٧٣م دار الفكر ، بيروت .

١٥ ـ تجريد الأغاني ، تأليف ابن واصل الحموي ، تحقيق : طه حسين ، وإبراهيم الأبياري مطبعة مصر ١٣٧٦ هـ ـ ١٩٥٧م .

١٦ ـ تفسير ابن كثير للحافظ ابن كثير (عماد الدين أبي الفداء اسماعيل بن كثير القرشي). دار الفكر. أشرف علي طبعها وتصحيحها لجنة من العلماء .

١٧ ـ تقريب التهذيب للحافظ ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي بن حجر) دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ط . ثانية ١٩٧٥م تحقيق عبدالوهاب عبد اللطيف .

١٨ ـ تذكرة الحفاظ للحافظ الذهبي (أبي عبد الله شمس الدين) دار الكتب العلمية ، بيروت صحح عن النسخة القديمة والمحفوظة بمكتبة الحرم المكي .

١٩ ـ ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي (عبد الملك بن محمد) تحقيق أبو الفضل ابراهيم القاهرة ، دارنهضة مصر . ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٥) .

٢٠ ـ جمهرة النسب لابن الكلبي رواية محمد بن حبيب عنه ، تحقيق : محمود فردوس العظم تصحيح وتنقيح : محمود فاخوري تُطلب من دار اليقظة العربية .

٢١ ـ جمهرة أنساب العرب لابن حزم (محمد بن علي بن أحمد بن سعيد) الأندلسي تحقيق وتعليق عبدالسلام هارون ، دار المعارف ، سلسلة ذخائر العرب ، الطبعة الرابعة .

٢٢ ـ حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة للحافظ السيوطي (جلال الدين) تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ط ١ / ١٣٩٧ .

٢٣ ـ حروب الإسلام في الشام في عهود الخلفاء الراشدين لـ : محمد أحمد باشميل دار الفكر الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠ م .

٢٤ ـ خطط المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي) كتاب التحرير عن بولاق سنة ١٢٧٠ هـ تصدره دارالتحرير للطبع والنشر .

٢٥ ـ الخلافة الراشدة في الدولة الأموية من فتح الباري جمعا وتوثيقا يحيى ابراهيم اليحيى دارالهجرة للنشر والتوزيع ط الأولى ١٤١٧ ـ ١٩٩٦م .

٢٦ ـ دلائل النبوة ومعرفة أقوال صاحب الشريعة للبيهقي (أبو بكر أحمد بن الحسين) تحقيق د . عبد المعطي قلعجي ، ط أولى ١٤٠٥ ـ ١٩٨٥م يطلب من عباس أحمد الباز ، المروة .

٢٧ - رياض الصالحين للحافظ النووي (أبو زكريا يحيى بن شرف) مكتبة المنار، الأردن الزرقاء ط ، التاسعة ١٤٠٦ - ١٩٨٦م نشر مؤسسة الرسالة .

٨ - سنن ابن ماجة للحافظ (أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني) تحقيق وتعليق وترتيب محمد فواد عبد الباقي ، ١٩٥٠م دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه .

٢٩ - سنن الترمذي (الجامع الصحيح) تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر (أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي) مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ط أولى ١٩٣٧ م - ١٣٥٦ هـ .

٣٠ - سنن النسائي (الحافظ أبو عبد الرحمن بن شعيب النسائي شركة مكتبة مطبعة مصفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ط أولى ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٤م .

٤٠ - سيل الهدى والرشاد في سيرة خيرالعباد وزارة الأوقاف المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية لجنة إحياء التراث الإسلامي ، القاهرة ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٣م وما بعدها .

٤١ - سفراء النبي صلى الله عليه وسلم تأليف محمود شيث خطاب اللواء والركن - مؤسسة الريان ، ودار الأندلس الخضراء للنشروالتوزيع بجدة ، ط الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٩٦م .

٤٢ - السيرة النبوية لابن هشام تحقيق مصطفى السقا وزملائه الطبعة الثانية ١٩٥٥م - ١٣٧٥ هـ طبع ونشر مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر .

٤٣ - سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي (شمس الدين حمد بن أحمد) مؤسسة الرسالة تحقيق شعيب الأرناؤوط وزملائه ط . الأولى ١٤٠١هـ - ١٩٨١م

٤٤ ـ شرح العقيدة الطحاوية المسماة : بيان السنة والجماعة للفقيه المحقق عبدالغني الميداني الحنفي الدمشقي حققه وعلق عليه محمد مطيع الحافظ ، ومحمد رياض المالح دار الفكر ، دمشق ، سوريةط . ثانية ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢م .

٤٥ ـ صحيح البخاري (لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل) كتاب الشعب ، دارمطابع الشعب .

٤٦ ـ صحيح مسلم (للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري) لخادم السنة النبوية محمد فؤاد عبد الباقي ، تحقيق وتوثيق دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ط . الأولى ١٣٧٤ هـ ١٩٥٥م .

٤٧ ـ صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) ط . الثانية ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩م تأليف محمد ناصر الدين الألباني .

٤٨ ـ الضعفاء المتروكون لابن الجوزي (أبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي) تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ط أولى ١٤٠٦ هـ ، دارالكتب العلمية .

٤٩ ـ الطبقات الكبرى لابن سعد ، دار بيروت للطباعة والنشر بيروت ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م .

٥٠ ـ الطبقات الكبرى لابن سعد ، دراسة وتحقيق ، د . محمد بن صامل السلمي ، مكتبة الصديق ط ، الأولى ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٣م .

٥١ ـ العقد الفريد لابن عبد ربه (أبي عمر أحمد بن محمد الأندلسي شرحه : أحمد أمين وإخوانه ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٩ هـ ١٩٤١ هـ .

٥٢ ـ عيون الأخبار لابن قتيبة الدنيوري (أبو محمد عبد الله بن مسلم سلسلة التراث للجميع .

٥٣ ـ عمرو بن العاص لعباس محمود العقاد ، الناشر ، دار الكتاب العربي ، بيروت لبنان ط . الثانية ٩٦٩م .

٥٤ ـ عمرو بن العاص : لـ عبد الخالق سيد أبو رابيه (مع رؤية جديدة لبعض أحداث الفتح العربي لمصر ط الأولى ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م) .

٥٥ ـ عمرو بن العاص : القائد المسلم ، والسفير الأمين لـ : محمود شيث خطاب اللواء الركن كتاب الأمة ، العدد : ٥٢ ربيع الأول ، ١٤١٧ هـ السنة السادسة عشرة .

٥٦ ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر (أحمد بن علي بن حجر السعقلاني) دار الفكر ، المكتبة السلفية رقم كتبه وأحاديثه : محمد فؤاد عبد الباقي ، أشرف على نشره : محب الدين الخطيب .

٥٧ ـ فتوح البلدان للبلاذري (أبي الحسن) دارالكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٠م .

٥٨ ـ فتوح الشام للواقدي (محمد بن عمر) الطبعة الرابعة ١٣٨٥ ـ ١٩٦٦ شركة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي .

٥٩ ـ فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبدالله) أعاد طبعه بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد لصاحبها قاسم محمد الرجب طبعه في مدينة ليدن ١٩٢٠م .

٦٠ ـ الفتوحات العربية الكبرى لغلوب (جون باجوت كلوب) بغداد ، مكتبة المثنى تحقيق : خيري حماد .

٦١ ـ فن الحرب الإسلامي لبسام علي (الرائد) دار الفكر والنشر والتوزيع ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨م .

٦٢ ـ كتاب الولاة وكتاب القضاة للكندي (أبو عمر محمد بن يوسف) أعاد طبعه بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد لصاحبها قاسم الرجب .

٦٣ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير (عز الدين علي بن أبي الكريم) دار صادر ، دار بيروت ١٣٨٥ هـ ١٩٦٥م بيروت .

٦٤ ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام للدكتور جواد علي ، دارالعلم للملايين، بيروت ومكتبة النهضة ببغداد ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٧م .

٦٥ ـ مجمع الزوائد للحافظ الهيثمي (نور الدين علي بن أبي بكر) بتحرير الحافظين الجليلين العراقي وابن حجر ، الناشر ، دار الكتاب العربي ، بيروت، لبنان .

٦٦ ـ مسند الإمام أحمد دار الكتب العلمية (أحمد بن حنبل الشيباني) توزيع دار الباز للنشر والتوزيع ، عباس أحمد الباز ، مكة المكرمة .

٦٧ ـ مختار الأغاني لابن منظور (محمد بن مكرم) تحقيق حسين نصار ، القاهرة ، الدارالمصرية للتأليف والنشر ١٩٦٥م ـ ١٣٨٥ هـ .

٦٨ ـ المصنف لعبد الرازق (الحافظ أبو بكرعبد الرزاق بن همام الصنعاني عني بنصوصه وتحقيقه حبيب الرحمن الأعظمي ، ط أولى ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠م.

٦٩ ـ مغازي الزهري: (محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري) حققه الدكتور سهيل زكار ، دار الفكر ، ط أولى ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠م .

٧٠ ـ المغازي للواقدي (محمد بن عمر) الدكتور مارسون جنسون مطبعة جامعة اكسفورد .

٧١ ـ مغازي رسول الله ﷺ لعروة بن الزبير (برواية أبي الأسود) النسخة المستخرجة حققه وقدم له د . محمد مصطفى الأعظمي ، منشورات مكتب التربية لدول الخليج الرياض ١٩٨١م .

٧٢ ـ النجـوم الزاهرة في ملوك مصـر والقاهرة : تأليف جـمال الدين أبي المحـاسن يوسف بن تغـري بردي ط . الأولى . مـطبـعة دارالـكتب المصـرية بالقـاهرة ١٣٤٨ هـ-١٩٢٩ م .

٧٣ ـ المغني في الضعفاء للذهبي (محمد بن أحمـد بن عثمان) حققه وعلق عليه د . نور الدين عتر .

الفهرس

تابع الفهرس